

ضبط نصه وعلق عليه

أبو تميم ياسر بن إبراهيم

الجزء العاشر

مكتبة الرشد

الرياض

كتاب الفتن

وقول الله تعالى ﴿ واتقوا فتنةً لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصّةً ﴾ [1] وما كان النبي ﷺ يحذر من الفتن

فيه : أسماء قالت : قال النبي – عليه السلام – : « أنا على حوضي أنتظر من يردُ عليّ ، فيؤخذ بناس من دوني ، فأقول : أمتي . فيقال : لا تدري ، مشوا القهقري » . وقال ابن أبي مليكة : اللهم إنا نعوذ بك أن (نرد) [2] على أعقابنا أو نفتن .

وفيه : عبد الله قال النبي – عليه السلام – : « أنا فرطكم على الحوض ، ليدفعن إليّ رجال منكم ، حتى إذا أهويت لأناولهم اختُلجوا دوني، فأقول : أي ربّ ، أصحابي ، يقول : لا تدري ما أحدثوا بعدك » .

وفيه : سهل قال النبي – عليه السلام – : « أنا فرطكم على الحوض ، من ورده شرب منه ، ومن شرب منه لم يظمأ أبدًا ، ليرد عليّ أقوام أعرفهم ويعرفوني [3] ثم يحال بيني وبينهم » وزاد أبو سعيد قال: « إنهم مني ، فيقال : إنك لا تدري ما أحدثوا بعدك . فأقول : سحقًا سحقًا لمن بدل بعدي » .

---

(١) الأنفال : ٢٥ .   (٢) في « هـ ، ن » : نرجع .

(٣) زاد في « الأصل » : يحال .

قال المؤلف : كان النبي - عليه السلام - يستعيذ من الفتن ومن شرها ويتخوف من وقوعها ؛ لأنها تذهب بالدين وتتلفه ، وقال : قول الله : ﴿ **واتقوا فتنةً لا تصيبنّ الذين ظلموا منكم خاصةً** ﴾ (١) قال: إن الفتنة إذا عمّت هلك الكل ، وذلك عند ظهور المعاصي وانتشار المنكر . وقد سألت زينب النبي - عليه السلام - عن هذا المعنى فقالت : يا رسول الله أنهلك وفينا الصالحون ؟ قال : نعم (٢) إذا كثر الخبث » وفسر العلماء الخبث أولاد الزنا ، فإذا ظهرت المعاصي ولم تُغير ، وجب على المؤمنين المنكرين لها بقلوبهم هجران تلك [٤/ق١٥٠-ب] البلدة والهرب منها ، فإن لم يفعلوا فقد تعرضوا للهلاك ، إلا أن الهلاك طهارة للمؤمنين ونقمة على الفاسقين ، وبهذا قال السلف .

وروى ابن وهب عن مالك أنه قال : تهجر الأرض التي يصنع فيها المنكر جهارًا ولا يستقر فيها . واحتج بصنيع أبي الدرداء في خروجه عن أرض معاوية حين أعلن بالربا وهو من الكبائر ، وأجاز بيع سقاية الذهب بأكثر من وزنها فقال له أبو الدرداء : « سمعت رسول الله - عليه السلام - ينهى عن مثل هذا إلا مثلاً بمثل . فقال معاوية : ما أرى بمثل هذا بأسًا . فقال أبو الدرداء : من يعذرني من معاوية ، أنا أخبره عن رسول الله ﷺ ويخبرني عن رأيه لا أساكنك بأرض أنت بها »

وأما أحاديث أهل هذا الباب في ذكر من يعرفهم النبي من أمته ، ويحال بينهم وبينه ، لما أحدثوا بعده ، فذلك كل حدث في الدين لا يرضاه الله من خلاف جماعة المسلمين ، وجميع أهل البدع كلهم فيهم مبدلون محدثون، وكذلك أهل الظلم والجور ، وخلاف الحق وأهله كلهم محدث مبدل ليس في الإسلام داخل في معنى هذا الحديث .

[٤/ق١٥١-أ] وقوله: / « اختلجوا دوني » . قال صاحب العين: خلجت الشيء،

---

(١) الأنفال : ٢٥ . (٢) زاد بالأصل هنا : قال .

واختلجته : جذبته . وقوله : فسحقًا سحقًا لمن بدل بعدي » يعني : بعدًا له [والسحيق : البعيد] [١] ومنه قوله تعالى : ﴿ **فسحقًا لأصحاب السعير** ﴾ [٢] ومعنى ذلك : [الدعاء على من بدّل وغيرّ][١] كقوله : أبعده الله .

قال أبو جعفر الداودي : وليس هذا مما يحتم به للمختلجين بدخول النّار ؛ لأنه يحتمل أن يختلجوا وقتًا فيلحقهم من هول ذلك اليوم وشدته ما شاء الله ، ثم يتلقاهم الله بما شاء من رحمته ، ولا يدل قوله : « سحقًا سحقًا» أنه لا يشفع لهم بعد ؛ لأن الله - تعالى - قد يلقي لهم ذلك في قلبه وقتًا ليعاقبهم بما شاء إلى وقت يشاء ، ثم يعطف قلبه عليهم فيشفع لهم ، وقد جاء في الحديث : « شفاعتي لأهل الكبائر من أمتي » .

وقد قال بعض السلف : فالذين يعرفهم النبي ويحال بينهم وبينه أنهم هم المرتدون ، واستدل على ذلك بقوله : « أي رب أصحابي . فيقال : إنهم ارتدوا بعدك على أدبارهم القهقرى » ذكره في باب الحوض في آخر [الرقاق] [٣] وفي هذه الأحاديث الإيمان بحوض النبي - عليه السلام - على ما ذهب إليه أهل السنة.

* * *

باب : قول النبي عليه السلام سترون بعدي أمورًا تنكرونها

وقال عبد الله بن زيد : قال النبي - عليه السلام - : « اصبروا حتى تلقوني على الحوض» .

فيه: ابن مسعود قال النبي -عليه السلام - : « [إنكم][٤] سترون بعدي أثرةً و[أمورًا][٥]

---

(١) من « هـ » .　　(٢) الملك : ١١ .

(٣) من « هـ » وفي « الأصل » غير مقروءة .　　(٤) من « هـ ، ن » .

(٥) في « الأصل » : أمور . والمثبت من « هـ » .

تنكرونها . قالوا : فما تأمرنا يا رسول الله ؟ قال : أدّوا إليهم حقّهم واسألوا الله حقكم » .

وفيه : ابن عباس قال النبي - عليه السلام - : « **من كره من أميره شيئًا فليصبر ، فإنه من خرج من السلطان شبرًا مات ميتةً جاهليةً** » .

وفيه : عبادة : « **بايعنا النبي - عليه السلام - على السمع والطاعة في منشطنا ومكرهنا ويسرنا وعسرنا وأثرة علينا ، وألا ننازع الأمر أهله إلا أن تروا كفرًا بواحًا عندكم من الله فيه برهان** » .

وفيه : أسيد بن حضير : « **أن رجلا أتى النبي - عليه السلام - فقال : يا رسول الله ، استعملت فلانًا ولم تستعملني . قال : إنكم سترون بعدي أثرةً فاصبروا حتى تلقوني** » .

قال المؤلف : في هذه الأحاديث حجة في ترك الخروج على أئمة الجور ، ولزوم السمع [والطاعة لهم] [١] والفقهاء [مجمعون] [٢] على أن الإمام المتغلّب [طاعته لازمة ، ما أقام الجمعات] [١] والجهاد، وأن طاعته خير من الخروج عليه؛ لما في ذلك من حقن الدماء وتسكين الدهماء ، ألا ترى قوله - عليه السلام - [لأصحابه : «سترون بعدي أثرةً وأمورًا تنكرونها » فوصف] [١] أنهم سيكون عليهم أمراء يأخذون منهم الحقوق ويستأثرون بها ، ويؤثرون بها من لا تجب له الأثرة ، ولا يعدلون فيها ، وأمرهم بالصبر عليهم والتزام طاعتهم على ما فيهم من الجور ، وذكر علي بن معبد ، عن علي بن أبي طالب أنه قال: [لا بد من إمامة] [٣] برة [أو][٤] فاجرة. قيل له: البرة لا بد منها،

---

(١) من « هـ » .

(٢) في « الأصل » : المجمعون . والمثبت من « هـ » .

(٣) في « الأصل » : لا يؤمن أمته . والمثبت من « هـ » .

(٤) في « الأصل : ولا . والمثبت من « هـ » .

فما بال الفاجرة ؟ قال : تقام بها الحدود ، وتأمن بها السبل ، ويقسم بها الفيء ، ويجاهد بها العدو . ألا ترى قوله عليه السلام في حديث ابن عباس : « من خرج من السلطان شبرًا مات ميتةً جاهليةً » . وفي حديث [عبادة] [1] : « بايعنا رسول الله على السمع والطاعة » إلى قوله : « وألا ننازع الأمر أهله ، إلا أن تروا كفرًا بواحًا » فدل هذا كله على ترك الخروج على الأئمة ، وألا يشق عصا المسلمين ، وألا يتسبب إلى سفك الدماء وهتك الحريم ، إلا أن يكفر الإمام ويظهر خلاف دعوة الإسلام ، فلا طاعة لمخلوق عليه ، وقد تقدم في كتاب الجهاد ، وكتاب الأحكام هذا .

قال الخطابي : « بواحًا » يريد ظاهرًا باديًا ، ومنه قوله : باح بالشيء يبوح به بوحًا وبئوحًا ، إذا أذاعه وأظهره ومن رواه « براحًا » فالبراح بالشيء مثل البواح أو قريب منه ، وأصل البراح الأرض القفر التي لا أنيس ولا بناء فيها ، وقال غيره : البراح : البيان ، يقال : برح الخفاء أي ظهر .

* * *

باب : قول النبي عليه السلام هلاك أمتي على يدي أغيلمة سفهاء من قريش

[فيه : أبو هريرة قال : قال النبي ﷺ : « هلكة أمتي على يدي غلمة من قريش] [1] فقال مروان : لعنة الله عليهم غلمة . فقال أبو هريرة / [ق٤/١٥١-ب] : لو شئت أن أقول بني فلان وبني فلان لفعلت » .

(١) في « الأصل » : أبي عبادة . والمثبت من « هـ » .

قال المؤلف : وفي هذا الحديث أيضًا حجة لجماعة الأمة في ترك القيام على أئمة الجور ووجوب طاعتهم والسمع والطاعة لهم ، ألا ترى أنه عليه السلام قد أعلم أبا هريرة بأسمائهم وأسماء آبائهم ، ولم يأمره بالخروج عليهم ولا بمحاربتهم ، وإن كان قد أخبر أن هلاك أمته على أيديهم ، إذ الخروج عليهم أشدّ في الهلاك وأقوى في الاستئصال، فاختار عليه السلام لأمته أيسر الأمرين وأخف الهلاكين ، إذ قد جرى قدر الله وعلمه أن أئمة الجور أكثر من أئمة العدل وأنهم يتغلّبون على الأمة، وهذا الحديث من أقوى ما يرد به على الخوارج . فإن قال قائل : « ما أراد النبي - عليه السلام - بقوله : « هلاك أمتي» أهلاكهم في الدين أم هلاكهم في الدنيا بالقتل ؟ قيل : أراد الهلاكين معًا ، وقد جاء ذلك بينًا في حديث علي بن معبد [عن إسماعيل بن عياش ، عن يحيى بن عبيد الله ، عن أبيه] (١) قال : سمعت أبا هريرة يقول : قال رسول الله : « أعوذ بالله من إمارة الصبيان . فقال أصحابه : وما إمارة الصبيان ؟ فقال : إن أطعتموهم هلكتم ، وإن عصيتموهم أهلكوكم ، فهلاكهم في طاعتهم هلاك الدين ، وهلاككم في عصيانهم هلاك الأنفس » .

فإن قيل : فلم ذكر البخاري في الترجمة أغيلمة سفهاء من قريش ، ولم يذكر « سفهاء » في حديث الباب؟ قيل : كثيرًا ما يفعل مثل هذا، وذلك أن تأتي في حديث لا يرضى إسناده لفظة تبين معنى الحديث فيترجم بها ليدل على المراد بالحديث ، وعلى أنه قد روي عن العلماء ثم لا يسعه أن يذكر في حشو الباب إلا أصحّ ما روي فيه لاشتراطه الصحّة في كتابه ، وقد روى ذلك علي بن معبد قال حدثنا أشعث بن

---

(١) من « هـ » .

سعيد ، عن سماك ، عن أبي هريرة قال : قال رسول الله : « إن فساد أمتي ، أو هلاك أمتي على رءوس غلمة سفهاء من قريش » .

فبان بهذا الحديث أن الغلمة سفهاء ، وأن الموجب لهلاك الناس بهم أنهم رؤساء وأمراء متغلبين .

* * *

باب : قول النبي عليه السلام ويل للعرب من شر قد اقترب

فيه : زينب قالت : « استيقظ رسول الله ﷺ من النوم محمراً وجهه يقول : لا إله إلا الله ، ويل للعرب من شر قد اقترب ، فتح اليوم من ردم يأجوج ومأجوج مثل هذه ، وعقد تسعينً أو مائة ، قيل : أنهلك وفينا الصالحون ؟ قال : نعم إذا كثر الخبث » .

وفيه : أسماء : « أشرف النبي ﷺ على أطم من آطام المدينة فقال : هل ترون ما أرى ؟ فقالوا : لا . فقال : إني لأرى الفتن تقع خلال بيوتكم كوقع القطر » .

قال المؤلف : هذه الأحاديث كلها مما أنذر النبي - عليه السلام - بها أمته وعرّفهم قرب الساعة لكي يتوبوا قبل أن يهجم غليهم وقت غلق باب التوبة حين لا ينفع نفسًا إيمانها لم تكن آمنت من قبل ، وقد ثبت أن خروج يأجوج ومأجوج من آخر الأشراط ، فإذا فتح من ردمهم في وقته عليه السلام مثل عقد التسعين أو المائة فلا يزال الفتح يستدير ويتسع على [مرّ] (١) الأوقات، وهذا الحديث في معنى قوله عليه السلام: « بعثت أنا والساعة كهاتين . وأشار بأصبعيه السبابة والتي تليها » وقد روى النضر بن شميل ، عن محمد بن عمرو ، عن أبي سلمة ، عن أبي

---

(١) في « الأصل » : ممر . والمثبت من « هـ » .

هريرة قال : قال رسول الله : « ويل للعرب من شر قد اقترب ، موتوا إن استطعتم » وهذا غاية في التحذير من الفتن والخوض فيها حين جعل الموت خيرًا من مباشرتها ، وكذلك أخبر في حديث أسامة بوقوع الفتن خلال بيوتهم ليتوقفوا ولا يخوضوا فيها ويتأهبوا لنزولها بالصبر ، ويسألوا الله العصمة منها والنجاة من شرها .

قال ابن قتيبة : والخبث : الفسوق والفجور ، والعرب تدعو الزنا خبثًا وخبيثة ، وفي الحديث أن [رجلا] [1] وجد مع [امرأة] [2] يخبث بها أي يزني . قال الله - تعالى - : ﴿ **الخبيثات للخبيثين** ﴾[3] والأطم : حصن مبني بالحجارة .

* * *

باب : ظهور الفتن

[٤/ق١٥٢-أ] / فيه : أبو هريرة قال : قال النبي - عليه السلام - : « **يتقارب الزمان ، وينقص العلم ، ويلقى الشح ، وتظهر الفتن ، ويكثر الهرج . قالوا : يا رسول الله ، أيم هو ؟ قال : القتل القتل** » .

وفيه : عبد الله وأبو موسى : قال النبي - عليه السلام - : « إن بين يدي الساعة لأيامًا ينزل فيها الجهل ، ويرفع فيها العلم ، ويكثر فيها الهرج » . الهرج بلسان الحبشة : القتل .

وقال عبد الله لأبي موسى : تعلم الأيام التي ذكر النبي - عليه السلام - أيام الهرج قال : سمعت النبي - عليه السلام - يقول : « من شرار الناس من تدركهم الساعة وهم أحياء » .

---

(١) من « هـ » . (٢) في « الأصل » : امرأته . والمثبت من « هـ » .
(٣) النور : ٢٦ .

قال المؤلف : هذا كله إخبار من النبي بأشراط الساعة ، وقد رأينا هذه الأشراط عيانًا وأدركناها ، فقد نقص العلم ، وظهر الجهل ، وألقي بالشح في القلوب ، وعمّت الفتن ، وكثر القتل ، وليس في الحديث ما يحتاج إلى تفسير غير قوله : « يتقارب الزمان » ومعنى ذلك - والله أعلم - تقارب أحوال أهله في قلة الدين حتى لا يكون فيهم من يأمر بمعروف ولا ينهى عن منكر لغلبة الفسق وظهور أهله ، وقد جاء في الحديث : « لا يزال الناس بخير ما تفاضلوا ، فإذا تساووا هلكوا » يعني لا يزالون بخير ما كان فيهم أهل فضل وصلاح وخوف لله يلجأ إليهم عند الشدائد ، ويستشفى بآرائهم ، ويتبرك بدعائهم ، ويؤخذ بتقويمهم وآثارهم .

وقال الطحاوي : قد يكون معناه في ترك طلب العلم خاصةً والرضا بالجهل ، وذلك أن الناس لا يتساوون في العلم ؛ لأن درج العلم تتفاوت ، قال الله تعالى : ﴿ **وفوق كل ذي علم عليم**﴾[1] وإنما يتساوون إذا كانوا جهالا .

قال الخطابي : وأما حديثه الآخر : « أنه يتقارب الزمان حتى تكون السنّة كالشهر ، والشهر كالجمعة، والجمعة كاليوم ، واليوم كالساعة » [فإن حماد بن سلمة قال : سألت عنه أبا سلمان] [2] فقال : ذلك من استلذاذ العيش . يريد - والله أعلم - خروج المهدي ووقوع الأمنة في الأرض ببسطه العدل فيها فيستلذ العيش عند ذلك وتستقصر مدته ، ولا يزال الناس يستقصرون أيام الرخاء وإن طالت ، ويستطيلون [أيام][2] المكروه وإن [قصرت] [3] ، وللعرب في مثل هذا : مر بنا يوم كعرقوب القطا - قصراً .

وقوله عليه السلام : « إن من شرار الناس من تدركهم الساعة

---

(١) يوسف : ٧٦ . (٢) من « هـ » .

(٣) في « الأصل » : قصر . والمثبت من « هـ » .

أحياء» فإنه وإن كان لفظه العموم فالمراد به الخصوص ، ومعناه: أن الساعة تقوم في الأكثر والأغلب على [شرار] [1] الناس بدليل قوله عليه السلام : « لا تزال طائفة من أمتي على الحق منصورة لا يضرها من ناوأها حتى تقوم الساعة » .

فدل هذا الخبر أن الساعة تقوم أيضًا على قوم فضلاء ، وأنهم في صبرهم على دينهم كالقابض على الجمر ، وقد ذكر في مواضع .

* * *

باب : لا يأتي زمان إلا الذي بعده شر منه

فيه : الزبير بن عدي : « أتينا أنس بن مالك نشكو إليه ما [نلقى] [2] من الحجاج . فقال : اصبروا ، فإنه لا يأتي عليكم زمان إلا الذي بعده شر منه حتى تلقوا ربكم ، [سمعته] [3] من نبيكم - عليه السلام - » .

وفيه : أم سلمة : « استيقظ رسول الله ﷺ [ليلةً] [4] فزعًا يقول : سبحان الله، ماذا أنزل من الخزائن ، وماذا أنزل من الفتن ؟ من يوقظ صواحب الحجرات - يريد أزواجه - لكي يصلين ؟ ربّ كاسية في الدنيا عاريةٍ في الآخرة » .

قال المؤلف : حديث أنس من علامات النبوة لإخبار النبي - عليه السلام - بتغير الزمان وفساد الأحوال ، وذلك غيب لا يعلم بالرأي ، وإنما يعلم بالوحي، ودل حديث أم سلمة على الوجه الذي يكون به الفساد، وهو ما يفتح الله عليهم من الخزائن وأن الفتن مقرونة بها ، ويشهد

---

(١) في « الأصل » : شرور . والمثبت من « هـ » .
(٢) في « الأصل ، هـ » : لقي . والمثبت من « هـ » .
(٣) في « الأصل » : فسمعته . والمثبت من « هـ » .   (٤) من « هـ ، ن » .

لذلك قول الله - تعالى - : ﴿ **كلا إن الإنسان ليطغى * أن رآه استغنى**﴾ [1] فمن فتنة المال ألا ينفق في طاعة الله ، وأن يمنع منه حق الله ، ومن فتنه السرف في إنفاقه ألا ترى قوله عليه السلام : «رُبَّ كاسية في الدنيا عارية في الآخرة » .

قال المهلب : فأخبر أن فيما فتح من الخزائن فتنة الملابس ، فحذّر عليه السلام أزواجه وغيرهن / أن يفتن في لباس رفيع الثياب التي يفتن [٤/ق١٥٢-ب] النفوس في الدنيا رقيقها وغليظها ، وحذّرهن التعري يوم القيامة منها ومن العمل الصالح ، وحضّهن بهذا القول أن يقدمن ما يفتح عليهن من تلك الخزائن للآخرة وليوم يحشر الناس عراةً ، فلا يكسى إلا الأول فالأول في الطاعة والصدقة ، والإنفاق في سبيل الله ، فمن أراد أن تسبق إليه الكسوة فليقدمها لآخرته ، ولا يذهب طيباته في الدنيا وليرفعها إلى يوم الحاجة .

وقوله : « من يوقظ صواحب الحجرات » ندب بعض خدمه لذلك، كما قال يوم الخندق : « من يأتيني بخبر القوم » وكذلك قال من يسهل عليه في الليل أن يدور على حجر نسائه ، فيوقظهن للصلاة والاستعاذة مما أراه الله من الفتن النازلة كي يوافقن الوقت المرجو فيه الإجابة ، وأخبرنا عليه السلام أن حين نزول البلاء ينبغي الفزع إلى الصلاة والدعاء ، فيرجى كشفه لقوله تعالى : ﴿ **فلولا إذ جاءهم بأسنا تضرعوا** ﴾ [2] الآية ، وقد تقدم حديث أم سلمة في كتاب الصلاة [في باب تحريض النبي - عليه السلام - على صلاة اللّيل وذكرنا فيه معنىً زائدًا] [3] .

---

(١) العلق : ٦ - ٧ . (٢) الأنعام : ٤٣ .

(٣) في « الأصل » : بأزيد . والمثبت من « هـ » .

باب : قول النبي عليه السلام : من حمل علينا السلاح فليس منا

فيه : ابن عمر وأبو موسى قالا : قال النبي - عليه السلام - : [« من حمل علينا السلاح فليس منا » .

وفيه : أبو هريرة قال النبي ﷺ] : « لا يشير أحدكم على أخيه بالسلاح ، فإنه لا يدري لعل الشيطان أن ينزغ في يده فيقع في حفرة من النار » .

وفيه : سفيان : قلت لعمرو : « يا أبا محمد ، سمعت جابر بن عبد الله يقول : « [مرّ رجل] (٢) بسهام في المسجد ، فقال له رسول الله : أمسك بنصالها ؟ قال : نعم » .

وفيه : أبو موسى قال النبي - عليه السلام - : « إذا مرّ أحدكم في مسجدنا أو سوقنا ومعه نبل فليمسك بنصالها - أو [فليقبض] (٣) بكفه - أن يصيب أحدًا من المسلمين منها بشيء » .

قال المؤلف : قوله عليه السلام : « فليس منا » يعني ليس متبعًا لسُنتنا ولا سالكًا [سبيلنا] (٤) ، كما قال عليه السلام : « ليس منا من شق الجيوب ودعا بدعوى الجاهلية » لأن من حق المسلم على المسلم أن ينصره ولا يخذله ولا يسلمه ، وأن المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضُه بعضًا ، فمن خرج عليهم بالسيف بتأويل فاسدٍ رآه ، فقد خالف ما سَنّهُ النبي - عليه السلام - من نصرة المؤمنين وتعاون بعضهم لبعض ، والفقهاء مجمعون على أن الخوارج من جملة المؤمنين لإجماعهم كلهم على أن الإيمان لا يزيله غير الشرك بالله ورسوله والجحد لذلك ، وأن المعاصي غير الكفر لا يكفر مرتكبها ، ذكر أسد بن موسى في كتاب الكف عن

---

(١) من « هـ » .
(٢) في « الأصل » : من دخل . والمثبت من « هـ » .
(٣) في « الأصل » : ليقبض . والمثبت من « هـ ، ن » .
(٤) في « الأصل » : لسبلنا . والمثبت من « هـ » .

أهل القبلة قال : حدثنا هشيم بن بشير قال : حدثنا كوثر بن حكيم قال : حدثنا نافع ، عن ابن عمر : « أن رسول الله - عليه السلام - قال لابن مسعود : أتدري كيف حكم الله فيمن بغى من هذه الأمة ؟ قال : الله ورسوله أعلم . قال : حكم الله فيها أن لا يقتل أسيرها ولا يقسم فيئها ، ولا يجهز على جريحها ولا يتبع مدبرها » .

وبهذا عمل علي بن أبي طالب ، ورضيت الأمة أجمع بفعله هذا فيهم ، وقال الحسن بن علي : لولا علي بن أبي طالب لم يعلم الناس كيف يقاتلون أهل القبلة ، فقاتلهم علي بما كان عنده من العلم فيهم من النبي - عليه السلام - فلم يكفرهم ولا سبَاهم ولا أخذ أموالهم ، فمواريثهم قائمة ، ولهم حكم الإسلام .

وقوله - عليه السلام - : « لا يشير أحدكم على أخيه بالسلاح » وأمرهُ للذي مرّ بالسهام في المسجد أن يمسك بنصالها ، هو من باب الأدب وقطع الذرائع ألا يشير أحد بالسلاح خوف ما يئول منها ويخشى من نزغ الشيطان .

وقوله : « فيقع في حفرة من النار » معناه : إن أنفذ الله عليه الوعيد، وهذا مذهب أهل السنة ، ومن روى في الحديث « ينزغ في يده » فقال صاحب العين : [نزغ] [1] بين القوم نزغًا : حمل بعضهم على بعض بفساد بينهم ، ومنه نزغ الشيطان . وقال صاحب الأفعال : نزغ : طعن ، ومن روى « ينزع » بالعين فهو قريب من هذا المعنى . قال صاحب العين : نزعت الشيء من الشيء نزعًا : قلعته، ونزع [بالسهم] [2] : رمى به .

* * *

(١) في « الأصل » : نزغًا . والمثبت من « هـ » .

(٢) في « الأصل » : السهم . والمثبت من « هـ » .

باب : قول النبي عليه السلام : لا ترجعوا بعدي كفاراً يضرب بعضكم رقاب بعض

فيه : عبد الله قال النبي - عليه السلام - : « سباب [المسلم] [1] فسوق وقتاله كفر » .

وفيه : ابن عمر وابن عباس وجرير و [أبو بكرة] [2] قال النبي - عليه السلام - : « لا ترجعوا بعدي كفاراً / يضرب بعضكم رقاب بعض » . [٤/ق١٥٣-أ]

وفي حديث أبي بكرة « فلما كان يوم حرق ابن الحضرمي حين حرقه جارية بن قدامة ، قال : أشرفوا على أبي بكرة ، قالوا : هذا أبو بكرة يراك. قال عبد الرحمن : فحدثتني أمي عن أبي بكرة أنه قال : لو دخلوا علي ما بهشت بقصبة » .

قال المؤلف : هذا الباب في معنى الذي قبله ، فيه النهي عن قتل المؤمنين بعضهم بعضًا ، وتفريق كلمتهم وتشتيت شملهم ، وليس معنى قوله : « لا ترجعوا بعدي كفاراً » النهي عن الكفر الذي هو ضد الإيمان بالله ورسوله ، وإنما المراد بالحديث النهي عن كفر حق المسلم على المسلم الذي أمر به النبي - عليه السلام - من التناصر والتعاضد ، والكفر في لسان العرب : التغطية ، وكذلك قوله : «سباب المسلم فسوق ، وقتاله كفر » يعني : قتاله كفر بحقه وترك موالاته ، للإجماع على أن أهل المعاصي لا يكفرون بارتكابها .

وقال أبو سليمان الخطابي : قيل : معناه لا يكفر بعضكم بعضًا فتستحلوا أن تقاتلوا ويضرب بعضكم رقاب بعض ، وقيل : إنه أراد بالحديث أهل الردة أخبرني إبراهيم بن فراس قال : سمعت موسى بن هارون يقول : هؤلاء أهل الردة قتلهم أبو بكر . وقد تقدم في كتاب

---

(١) في « الأصل » : المؤمن . والمثبت من « هـ ، ن » .

(٢) في « الأصل » : أبو بكر . والمثبت من « هـ » .

الحج في باب الخطبة في أيام منى زيادة في [معنى] [(١)] هذا الحديث من كلام الطبري .

قال المهلب : وابن الحضرمي رجل امتنع من الطاعة فأخرج إليه جارية بن قدامة جيشًا فظفر به في ناحية من العراق ، وكان أبو بكرة يسكنها ، فأمر جارية بصلبه فصلب ، ثم ألقى النار في الجذع الذي صلب فيه بعد أيام ، ثم أمر جارية خيثمة أن يشرفوا على أبي بكرة ليختبر إن كان يحارب فيعلم أنه على غير طاعة أو يستسلم فيعرف أنه على طاعة ، فقال له خيثمة : هذا أبو بكرة يراك وما صنعت في ابن الحضرمي وما أنكر عليك بكلام ولا بسلاح ، فلما سمع أبو بكرة ذلك [وهو] [(١)] في عليّة له قال : لو دخلوا عليّ داري ما بهشت بقصبة فكيف أن أقاتلهم بسلاح ؛ لأني لا أرى الفتنة في الإسلام ، ولا التحرك فيها مع إحدى الطائفتين .

قال الطبري : « ما بهشت إليهم بقصبة » يعني ما تناولتهم ولا مددت يدي إليهم بسوء ، يقال للرجل إذا أراد معروف الرجل أو أراد مكروهه وتعرّض لخيره أو شره : يهش فلان إلى كذا وكذا ، ومنه قول النابغة :

سبقت الرجسال الباهشـــين إلى العلا

كـــسبق الجواد اصطاد قبل الطـــوارد

وفي كتاب [الأفعال] [(٢)] : بهشت إلى فلان : خففت إليه ، ورجل بهش وباهش .

❊ ❊ ❊

---

(١) من « هـ » .

(٢) في « الأصل » : العين . والمثبت من « هـ » .

باب : تكون فتنة القاعد فيها خير من القائم

فيه : أبو هريرة قال النبي - عليه السلام - : « ستكون فتن ، القاعد فيها خير من القائم ، والقائم فيها خير من الماشي ، والماشي فيها خير من الساعي ، من تشرف لها [تستشرفه] [1] فمن وجد ملجأً أو معاذًا فليعذ به » .

قال الطبري : إن قال قائل : ما معنى هذا الحديث ، وهل المراد به كل فتنة بين المسلمين أو بعض الفتن دون بعض ؟ فإن قلت : المعني به كل فتنةٍ ، فما أنت قائل في الفتن التي مضت ، وقد علمت أنه نهض فيها من خيار المسلمين خلق كثير ، وإن قلت المعني به البعض ، فأيتها المعنيّة به ، وما الدليل على ذلك ؟

قيل : قد اختلف السلف في ذلك ، فقال بعضهم : المراد به جميع الفتن وغير جائز للمسلم النهوض في شيء منها ، قالوا : وعليه أن يستسلم للقتل إن أريدت نفسه ولا يدفع عنها ، والفتنة : الاختلاف الذي يكون بين أهل الإسلام ولا إمام لهم مجتمع على الرضا بإمامته لما يستنكر من سيرته [في رعيته] [2] ، فافترقت رعيته عليه حتى صار افتراقهم إلى القتال بأن رضيت منهم فرقة إمامًا غيره ، وأقامت فرقة على الرضا به ، قالوا : وإذا كان كل واحد من هذين المعنيين، [فهي][3] التي أمر النبي - عليه السلام - بكسر السيوف فيها ولزوم البيوت وهي التي قال عليه السلام : « القاعد فيها خير من القائم » وممن قعد في الفتنة حذيفة ، ومحمد بن مسلمة ، وأبو ذر ، وعمران بن حصين / [٤/ق١٥٣-ب] وأبو موسى الأشعري ، وأسامة بن زيد ، وأهبان بن صيفي ، وسعد ابن أبي وقاص، وابن عمر ، وأبو بكرة ، ومن التابعين شريح والنخعي،

---

(١) في « الأصل » : استشرفته . والمثبت من « هـ ، ن » .

(٢) في « الأصل » : و . والمثبت من « هـ » .

(٣) في « الأصل » : فهو . والمثبت من « هـ » .

وحجتهم من طريق النظر أن كل فريق من المقتتلين في الفتنة فإنه يقاتل على تأويل ، وإن كان في الحقيقة خطأ فهو عند نفسه فيه محق وغير جائز لأحدٍ قتله ، وسبيله سبيل حاكم من المسلمين يقضي بقضاء مما اختلف فيه العلماء على ما يراه صوابًا ، فغير جائز لغيره من الحكام نقضه إذا لم يخالف بقضائه ذلك كتابًا ولا سُنّةً ولا جماعة ، فكذلك المقتتلون في الفتنة كل حزب منهم عند نفسه محق دون غيره بما يدعون من التأويل ، وغير جائز لأحد قتالهم ، وإن هم قصدوا لقتله فغير جائز دفعهم بضرب أو جرح ؛ لأن ذلك إنما يستحقه من قاتل وهو متعمد الإثم في قتاله ، والواجب على الناس إذا اقتتل حزبان من المسلمين بهذه الصفة ترك معاونة أحدهما على الآخر وعليهم لزوم البيوت ، كما أمر النبي - عليه السلام - أبا ذر ومحمد بن سلمة وعبد الله بن عمر ، وما عمل به من تقدّم ذكرهم من الصحابة .

وقال آخرون : إذا كانت فتنة بين المسلمين ، فالواجب على المسلمين لزوم البيوت وترك معاونة أحد الحزبين ، ولكن إن دخل [على] (١) بعض من قد اعتزل الفريقين منزله ، فأتى من يريد نفسه ، فعليه دفعه عن نفسه [وإن] (٢) أتى الدفع على نفسه ، روي ذلك عن عمران بن حصين وابن عمر وعبيدة السلماني ، واحتجوا بعلة الذين تقدم قولهم غير أنهم اعتلوا في إباحة الدفع عن أنفسهم بالأخبار الواردة عن [النبي] (٣) أنه قال : « من أريدت نفسه وماله فقتل فهو شهيد » .

فالواجب على كل من أريدت نفسه وماله ظلمًا دفع ذلك ما وجد إليه السبيل ، متأولا كان المريد أو متعمدًا للظلم ؛ لأن ذلك عندهم ظلم [و] (١) على كل أحد دفع الظلم عن نفسه بما قدر عليه .

---

(١) من « هـ » .   (٢) في « الأصل » : إن وإن . والمثبت من « هـ » .

(٣) في « الأصل » : البراء . والمثبت من « هـ » .

وقال آخرون : كل فرقتين اقتتلتا فغير خارج أحدهما من أحد وجهين من أن تكون الفرقتان مخطئتين في [قتال] [1] بعضهم بعضًا ، وذلك كقتال أهل (الغصب) [2] والمقتتلين على النهب وأشباه ذلك مما لا [شبهة] [3] في أن اقتتالهم حرام ، وأن على المسلمين الأخذ على أيديهم وعقوبتهم بما يكون نكالا لهم ، أو تكون إحداهما مخطئة والأخرى مصيبة ، فالواجب على المسلمين الأخذ على أيدي المخطئة ومعونة المصيبة ؛ لأن النبي - عليه السلام قد أمر بالأخذ على يدي الظالم بقوله : « لتأخذن على يدي الظالم حتى تأطروه على الحق أطرًا أو ليسلطن الله عليكم شراركم ، فيدعو خياركم فلا يستجاب لهم » فإذا كان كما قلنا ، وكان غير جائز أن تكون فرقتان تقاتل كل واحدة منهما صاحبتها أو يسفك بعضها دماء بعض كلاهما مصيبة ؛ لأن ذلك لو جاز جاز أن يكون الشيء الواحد حرامًا حلالاً في حالة واحدة ، وإذا كان كذلك فالواجب على المسلمين معونة المحقّة من الفئتين ، وقتال المخطئة حتى ترجع إلى حكم الله ، فلا وجه لكسر السيوف والاختفاء في البيوت عند هيج الفتنة ، روي ذلك عن علي بن أبي طالب وعمار بن ياسر وعائشة وطلحة ، ورواية عن ابن عمر ، روى الزهري ، عن حمزة بن عبد الله بن عمر ، عن أبيه أنه قال : ما وجدت في نفسي من شيء ما وجدت أني لم أقاتل هذه الفئة الباغية كما أمرني الله .

وروى سفيان عن يحيى بن هانئ أنه قال لعبد الله بن عمرو : «علي كان أولى أو معاوية ؟ قال : علي . [قال] [4] : فما أخرجك؟ قال: إني لم أضرب بسيفٍ ولم أطعن برمح ، ولكن رسول الله قال : أطع أباك فأطعته » . وقال إبراهيم بن سعد : قتل أويس القرني

---

(١) في « الأصل » : قتل . والمثبت من « هـ » . (٢) في « هـ » : العصبية .
(٣) في « الأصل » : يشبهه . والمثبت من « هـ » . (٤) من « هـ » .

مع علي في الرجالة . وقيل لإبراهيم النخعي : من كان أفضل علقمة أو الأسود ؟ فقال : علقمة ؛ لأنه شهد صفّين وخضب بسيفه فيها .

وقال (ابن) [١] إسحاق : (شهد) [٢] مع علي عبيدة السلماني [وعلقمة] [٣] وأبو وائل وعمرو بن [شرحبيل] [٤] . وقال ابن إسحاق : خرج مع [ابن] [٥] الأشعث في الجماجم ثلاثة آلاف من التابعين ليس في الأرض مثلهم : أبو البختري ، والشعبي ، وسعيد ابن جبير ، وعبد الرحمن بن أبي ليلى ، والحسن البصري .

وقال آخرون : كل قتال وقع بين المسلمين ولا إمام لجماعتهم يأخذ للمظلوم من الظالم فذلك القتال هو الفتنة التي أمر رسول الله بالاختفاء في البيوت فيها وكسر السيوف ، كان الفريقان مخطئين أو كان أحدهما مخطئًا والآخر مصيبًا ، روي ذلك عن الأوزاعي قال / : [٤/ق١٥٤-أ] ما كانت منذ بعث الله نبيه إلى اليوم طائفتان من المؤمنين اقتتلتا إلا كان قتالهم خطأ ومعصية ، فإن كانتا في سواد العامة ، فإمام الجماعة المصلح بينهم يأخذ من الباغية القصاص في القتل والجراح كما كان بين تينك الطائفتين اللتين نزل فيهما القرآن إلى رسول الله وإلى الولاة [بعده][٦] وإن كان قتالهم وليس للناس إمام يجمعهم فهي الفتنة التي النجاة منها الأخذ بعهد النبي - عليه السلام - أن يعتزل تلك الفرق كلها ولو أن يعض بأصل الشجرة حتى يدركه الموت ، وإن كانت خارجة فشهدت على أختها بالضلالة في إيمانها وبالكفر لم تسم فيه باغية ، وقد برئت من ولايتها قبل خروجها عليها ، فكفى بالخروج براءة وبرجوع فلهم إذا هزموا إلى مقرهم مروقًا .

---

(١) في « هـ » : أبو . (٢) في « هـ » : شهدت .
(٣) في « الأصل » : فاعلمه ، والمثبت من « هـ » .
(٤) في « الأصل » : شراحيل . والمثبت من « هـ » .
(٥) في « الأصل » : الحسن . والمثبت من « هـ » .
(٦) في « الأصل » : بعدهم . والمثبت من « هـ » .

قال الطبري : وأنا قائل بالصواب في ذلك ومبين معنى الفتنة التي القاعد فيها خير من القائم و [أمره] [١] - عليه السلام - بكسر السيوف ولزوم البيوت والهرب في الجبال ، والخبر [المعارض] [٢] لهما وهو أمره - عليه السلام - بقتال الناكثين والقاسطين والمارقين والأخذ على يد السفهاء والظالمين ، إذ غير جائز التعارض في أخباره ﷺ ؛ إذ كل ما قال حق وصدق .

فنقول : الفتنة في كلام العرب الابتلاء والاختبار ، فقد يكون ذلك بالشدّة والرخاء والطاعة والمعصية ، وكان [حقًّا] [٣] على المسلمين إقامة الحق ونصرة أهله ، وإنكار المنكر والأخذ على أيدي أهله ، كما وصفهم الله تعالى بقوله: ﴿ **الذين إن مكناهم في الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة** ﴾ [٤] كان معلومًا أن من أعان في الفتنة فريق الحق على فريق الباطل فهو مصيب أمر الله - تعالى - ومن أنكر ما قلناه قيل له: أرأيت المفتتنين الملتمسين ولاية أمر الأمة في حال لا إمام لهم يقيم عليهم الحق هل خلوا عندك من أحد أمور ثلاثة : إما أن يكون كلاهما محقين أو كلاهما مبطلين أو أحدهما محقًّا والآخر مبطلا ؟ فإن قال : نعم . قيل له : أو ليس [الفريقان][٥] إذا كانوا مبطلين حق على المسلمين الأخذ على أيديهما إن قدروا على ذلك ، وإن لم تكن لهم طاقة ؛ فكراهة أمرهما والقعود عنهما وترك معونة أحدهما على الآخر فقد أوجب معونة الظالم على ظلمه ، وذلك خلاف حكم الله . وإن قال [بل] [٦] الواجب عليهم ترك الفريقين يقتتلون واعتزالهما ، أباح للمسلمين ترك إنكار المنكر وهم على ذلك قادرون ، وسئل عن رجل

---

(١) في « الأصل » : أمر . والمثبت من « هـ » .
(٢) في « الأصل » : المقارن . والمثبت من « هـ » .
(٣) في « الأصل » : جعله . والمثبت من « هـ » .
(٤) الحج : ٤١ .
(٥) في « الأصل ، هـ » : الفريقين . والمثبت هو الصواب .
(٦) في « الأصل » : قال . والمثبت من « هـ » .

غصب امرأة نفسها للفجور بها على أعين الناس وهم على منعه قادرون، هل يجوز لهم تركه ؟ فإن أجاز ذلك لم يمكن خصمه الإبانة عن خطأ قوله بأكثر من ذلك ، فإن أوجب منعه والأخذ على يده ، قيل له : فما الفرق بينه وبين من رآه يريد قتل رجل ظلمًا وعدوانًا ، وما الذي أوجب عليهم منع ذلك ظاهرًا وأباح لهم ترك من يريد قتل النفس التي حرمها الله ؟ ويقال له: أرأيت إن كان أحد الفريقين محقًا والآخر مبطلاً أيجب على المسلمين معونة المحق على المبطل ؟ فإن قال: لا أوجب ترك [الساعي][1] في الأرض بالفساد ، وهذا خلاف قوله تعالى : ﴿ **إنما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله** ﴾[2] الآية . فإن قال : تجب معونة المحق على المبطل ، أوجب قتال الفرقة الباغية .

وأما الحالة الثالثة فإنها حالة ممتنع في العقل وجودها ، وذلك حال حرب فريقين من المسلمين يقتتلان وهما جميعًا محقان في ذلك ، ولو جاز أن يكون كل واحد منهما مصيب حقيقة حكم الله في ذلك لجاز أن يكون الشيء الواحد بحكم الله حلالاً وحرامًا في حالة واحدة وشخص واحد ، وهذا ما لا يجوز أن يوصف به تعالى . فإن قيل : فما تنكر أن يكون الفريقان المقتتلان مصيبين في قتال كل واحد منهما صاحبه حقيقة حكم الله إذا كان قتالهما في جهة التأويل لا من جهة الخلاف للنصّ الذي لا يحتمل التأويل ، فقد علمت قول من قال باجتهاد الرأي فيما لا نصّ فيه من أن كل [مجتهد] [3] مصيب ، وأن حكم الله في الحادثة على كل مجتهد ما أداهُ إليه اجتهاده، وأنه لا خطأ في شيء من ذلك.

(١) في « الأصل » : السعي . والمثبت من « هـ » .
(٢) المائدة : ٣٣ . (٣) من « هـ » .

[٤/ق١٥٤-ب] صحة ذلك بما يكون من الصحابة / رضوان الله عليهم - فيما لا نص فيه لله وللرسول من الاختلاف بينهم ، ثم لم يظهر واحد [منهم][1] لصاحبه البراءة ولا الخروج من ولايته ، قال : فكذلك الفريقان المقتتلان إذا كانا كلاهما طالبي الحق عند أنفسهما ورأى كل واحد منهما أنه محق كالمختلفين من أصحاب رسول الله .

قيل له : أما قول من قال : كل مجتهد وإن كان غير مصيب في خطئه حكم الله الذي طلبه فأضلّه فقد أخطأ ، وذلك كالملتمس عين القبلة للصلاة إليها في يوم دخن في فلاة من الأرض بالدلائل غير موجب له التماسه إياها ، وقد أخطأها أن يكون مصيبًا في طلب جهتها، فكذلك المقتتلان على التأويل الذي يعذر فيه المخطئ ؛ إذا أخطأ أحدهما حكم الله في قتاله الفريق المصيب حكم الله .

وإن عذر بالخطأ الذي وضع عنه الوزر فيه إذا كان سبيله فيما كلف فيه سبيل المحنة والابتلاء ، إذا لم يوقفوا على عينه بالنص الذي لا يحتمل التأويل ، وأما استشهاد من قال : كل مجتهد مصيب باختلاف أصحاب النبي - عليه السلام - فيما لا نص فيه بعينه ، فإن أصحاب النبي ﷺ لم ينكروا فيما قالوا فيه من الاجتهاد والاستنباط أن يكون فيهم مصيب ومخطئ ، فلا حجة لمحتج باختلافهم ، فإذا بطل الوجه الثالث وهو أن [يكونا][2] معًا محقين ثبت أن قوله - عليه السلام-: « ستكون فتنة القاعد فيها خير من القائم » غير معني به القتال الذي هو معونة المسلمين للمحق [والقتال][3] الذي يكون من المسلمين لأهل السّفَه والفسق للأخذ على أيديهم ومنعهم من السعي في الأرض بالفساد . فإن قيل : فأي حالة هي التي وصف النبي - عليه السلام - من الفتنة أن القاعد فيها خير من القائم ؟ قيل : هذه

---

(١) في « الأصل » : منهما . والمثبت من « هـ » .

(٢) في « الأصل » : يكون . والمثبت من « هـ » .

(٣) في « الأصل » : والقاتل . والمثبت من « هـ » .

حالة لها ثلاث منازل : أحدها : أن يكون الفريقان المقتتلان مبطلين ، وسائر المسلمين مقهورين بينهما لا طاقة لمن أراد الأخذ على أيديهما على النهوض في ذلك ، فإن هو [نهض] [1] عرض نفسه للهلاك ولم يرج إصلاحًا بينهما فهذه حالة هو فيها معذور بالتخلف ، والسلامة له في الهرب وكسر السيوف ، وهذه التي قال عليه السلام : « القاعد فيها خير من القائم » يعني القاعد عن هذه الفتنة خير من القائم فيها للنهوض إليها [معين] [2] أهلها ؛ لأنه خير من القائم بذكر الله والعمل بطاعته . والحالة [الثانية] [3] : أن يكون أحد الفريقين مخطئًا والآخر مصيبًا ، وأمرهما مشكل على كثير من الناس لا يعرفون المحق فيها من المبطل ، فمن أشكل عليه أمرهما فواجب عليه اعتزال الفريقين ولزوم المنازل حتى يتضح له الحق ويتبين المحق منهما ، وتنكشف عنه الشبهة فيلزمه من معونة أهل الحق ما لزم أهل البصائر .

وأما المنزلة الثالثة : فأن يكون مخرج الكلام من رسول الله في ذلك كان في خاص من الناس على ما روي عن [عمار بن ياسر] [4] أنه قال لأبي موسى حين روى عن النبي أنه قال : « إذا وقعت الفتنة فاضربوا سيوفكم بالحجارة . . . » الحديث فقال له عمار : أنشدك الله يا أبا موسى قال هذا رسول [الله] [1] لك أنت خاصةً ؟ قال : نعم». ولو كان الواجب في كل اختلاف يكون بين الفريقين من المسلمين الهرب منه ولزوم المنازل وكسر السيوف ؛ لما أقيم لله - تعالى - حق ولا أبطل باطل ، ولوجد أهل [النفاق] [5] والفجور سبيلا إلى استحلال كل ما حرّم الله عليهم من أموال المسلمين ونسائهم ، وسفك دمائهم بأن يتحزبوا عليهم ويكف المسلمون أيديهم عنهم بأن يقولوا هذه

---

(١) من « هـ » .　　(٢) في « الأصل » : معينين . والمثبت من « هـ » .
(٣) في « الأصل ، هـ » : الثالثة . والمثبت هو الصواب .
(٤) في « الأصل » : ابن عباس . والمثبت من « هـ » .
(٥) في « الأصل » : التعلق . والمثبت من « هـ » .

فتنة قد نهينا عن القتال فيها ، وأمرنا بكفّ الأيدي والهرب منها . وذلك مخالفة لقوله عليه السلام : « خذوا على أيدي سفهائكم » ولقوله : «مثل القائم والمنتهك والمدهن في حدود الله مثل ثلاثة نفر اصطحبوا في سفينة ، فقال أحدهم : نحفر لنأخذ الماء وقال الآخر : دعه فإنما يحفر مكانه . فإن أخذوا على يده نجا ونجوا جميعًا . . . » الحديث .

فإن قال قائل : فإنك قد ذكرت أنه لا فتنة تخلو من الأسباب الثلاثة، ثم أوجبت في جميعها على أهل البصائر بالحق النهوض مع أهله على أهل الباطل لقمعه ، وقد علمت أنه لا فتنة كانت ولا تكون منذ بعث / الله نبيّه - عليه السلام - أفضل أهلا ولا أقوم بالحق ولا [٤/ق١٥٥-أ] أطلب [له] [١] من قوم نهضوا فيها بعد مقتل [عثمان] [١] فإنهم كانوا أهل السابقة والهجرة وخيار الأمة ، ولم تكن [فتنة] [٢] يرجى بالنهوض لمعونة أحد [فريقيها] [٣] على الآخر ما كان يرجى [فيها][٤] لو كان النهوض في فتن المسلمين جائزًا ، وقد علمت من [تثبط] [٥] عن النهوض فيها ، ونهى عن [المشي] [٦] إليها [وأمر] [٧] بالجلوس عنها من جلة الصحابة كسعد وأسامة ومحمد بن مسلمة وأبي مسعود الأنصاري وابن عمر وأبي موسى وغيرهم يكثر إحصاؤهم . قيل له : إن سبيل كل ما احتيج من أمر الدين إلى الاستخراج بالقياس والاستنباط بالعقول والأفهام سبيل ما كان من الاختلاف بين الذين نهضوا في الفتنة التي قعد عنها من ذكرت من القاعدين فيها ، ولذلك عذر أهل العلم من قعد عنها ، ومن نهض فيها من أهل الدين ، ولولا ذلك

---

(١) من « هـ » .
(٢) في « الأصل : فيه .
(٣) في « الأصل » : فريقًا ، وفي « هـ » فريقها . والمثبت هو الصواب .
(٤) في « الأصل » : فيها . والمثبت من « هـ » .
(٥) في « الأصل » : تثبت .
(٦) في « هـ » السعي .
(٧) في « الأصل » : فأمر . والمثبت من « هـ » .

عظمت المصيبة وجسمت البلية ، ولكن قعودُ من قعد عنها لما كان بتأويل ونهوض من نهض فيها بمثله رجا العالمون بالله للمصيب منهم الثواب الجزيل ، وعذروا المخطئ في خطئه ؛ إذ كان خطؤه بالتأويل ، لا بالخلاف للنصّ المحكم الذي لا يحتاج للتأويل ، ولا شك أن الناهضين في الفتنة التي قعد عنها سعد ومحمد بن مسلمة وأسامة كانوا أفضل وأعلم بالله ممن قعد عنها ، وذلك أن الناهضين فيها كان منهم من يقر له جميع أهل ذلك الزمان بالفضل والعلم ، ومنهم من لا يدفعه جميعهم عن أنه إن لم يكن أفضل منه وأعلم أنه ليس بدونه .

وإذا كان الأمر كذلك لم يكن المحتج إذا أغفل سبيل الصواب -لتأويل تأوله وإن كان خطأ - حجةً على من خالفه في تأويله . فإن قال : فإن جلوس من جلس ممن ذكرنا لم يكن تأويلا ، ولكنه كان نصًا لا يحتمل التأويل لقوله : « القاعد فيها خير من القائم » قيل : إنه لا أحد روى عن النبي - عليه السلام - في الفتنة التي قعد عنها أنه عليه السلام نهاه عن النهوض فيها بعينها نصًا ، وإنما قال عليه السلام: « القاعد فيها خير من القائم » من غير نص على فتنة بعينها أنها هي تلك الفتنة ، ومن غير تسميته لها باسم وتوقيته لها بوقت .

وقد روى أهل العراق عن علي وعبد الله : « أن النبي - عليه السلام - أمر عليًا بقتال الناكثين والقاسطين والمارقين » . وعن أبي سعيد وغيره أن النبي - عليه السلام - قال : « لتقاتلنّ على تأويله كما قاتلت [على تنزيله] [(١)] » وروى أهل الشام عن النبي - عليه السلام- في معاوية أنه الذي يقاتل على الحق وأنه عليه السلام ذكر فتنة فمرّ به عثمان ، فقال : « هذا وأصحابه يومئذ على الحق » . وكل راوٍ منهم لرواية يدعي أنها الحق ، وأن تأويله أولى ، فإذا كان الأمر كذلك علم

---

(١) في « الأصل » : بشرطه . والمثبت من « هـ » .

أن القول في ذلك من غير وجه النص الذي لا يحتمل التأويل ، وأن الاختلاف بينهم كان من جهة الاستنباط والقياس ، والذي لا يوجد في مثله إجماع من الأمة على معنىً واحد ، ولذلك قيل في قتلى الفريقين [ما قيل] (١) من رجاء الفريق الآخر الإصابة وأمن على فريق الشبهة.

وكذلك ما حدثنا خلاد بن أسلم قال : حدثنا النضر بن شميل عن [ابن عون] (١) عن ابن سيرين : « أن عائشة سمعت صوتًا فقالت : من هذا [أخالد ابن] (٢) الواشمة ؟ قال : نعم . قالت : أنشدك الله إن سألت عن شيء أتصدقني ؟ قال : نعم . قالت : ما فعل طلحة ؟ قال : قتل . قالت : ما فعل الزبير ؟ قال : قتل . قالت : إنا لله وإنا إليه راجعون. قال : قلت : بل نحن إنا لله وإنا إليه راجعون على زيد وأصحاب زيد، والله لا يجمعهم الله وقد قتل بعضهم بعضًا . قالت: أو لا تدري؟ وسعت رحمته كل شيء وهو على كل شيء قدير. قال: فكانت أفضل مني».

وحدثنا مجاهد بن موسى ، حدثنا يزيد ، حدثنا العوّام بن حوشب، عن عمرو بن مرة ، عن أبي وائل قال : « رأى [عمرو](٣) ابن شرحبيل أبا ميسرة وكان من أفضل الناس عند الله ، قال : رأيت كأني دخلت الجنّة ، فإذا قباب مضروبة فقلت : لمن هذه ؟ فقالوا : لذي الكلاع وحوشب ، وكانا [ممن قتل مع] (٤) معاوية . قلت : فأين عمار وأصحابه ؟ [فقال] (٥) : أمامك . فقلت : وقد قتل بعضهم بعضًا ؟ قيل : إنهم لقوا الله فوجدوه واسع المغفرة . قلت : فما فعل / أهل النهر ؟ قال : لقوا برجاء » . [٤/ق١٥٥-ب]

* * *

(١) من « هـ » . (٢) في « الأصل » : أحيا الدين . والمثبت من « هـ ».

(٣) في « الأصل » : عمر . والمثبت من « هـ » .

(٤) في « الأصل » : من قتلى . والمثبت من « هـ » .

(٥) في « الأصل » : فقالا . والمثبت من « هـ » .

باب : إذا التقى المسلمان [بسيفيهما] [(١)]

فيه : أبو بكرة قال : قال النبي – عليه السلام – : « إذا [تواجه] [(٢)] المسلمان بسيفيهما فكلاهما في النار . قيل : فهذا القاتل فما بال المقتول؟ قال : إنه أراد قتل صاحبه » .

قال المؤلف : ولهذا الحديث أيضًا قعد من قعد من الصحابة عن الدخول في الفتنة ولزموا بيوتهم ، وفسر أهل العلم هذا الحديث فقالوا : قوله عليه السلام : « القاتل والمقتول في النار » ليس هو على الحتم لهما بالنار ، وإنما معناه أنهما يستحقان النار إلا أن يشاء الله أن يغفر لهما ؛ لأنه عليه السلام سمّاهما مسلمين وإن قتل أحدهما صاحبه، ومذهب جماعة أهل السنة أن الله – تعالى – في وعيده لعصاة المؤمنين بالخيار إن شاء عذبهم ، وإن شاء عفا عنهم ، وقد تقدّم في كتاب الإيمان .

وقال المؤلف : في حديث أبي بكرة دليل أنه [إذا] [(٣)] التقى المسلمان بسيفيهما واختلفت طائفتان على التأويل في الدين ، ولم [يتبين] [(٤)] البغي من أحدهما أنه يجبُ القعود عنهما وملازمة البيوت، ولهذا تخلف محمد بن مسلمة ، وسعد بن أبي وقاص ، وأسامة بن زيد ، وعبد الله بن عمر ، وحذيفة وجماعة عن تلك المشاهد ؛ لأنه لم [يتبين] [(٤)] لهم ما قام فيه المقتتلون ، وأخذوا بقوله عليه السلام : « تكون فتن القاعد فيها خير من القائم » . فأما إذا ظهر البغي في إحدى الطائفتين لم يحل لمسلم أن يتخلف عن قتال الباغية لقوله تعالى : ﴿ **فقاتلوا التي تبغي حتى تفيء إلى أمر الله** ﴾ [(٥)] ولو أمسك

---

(١) في « الأصل » : بسيفهما . والمثبت من « هـ ، ن » .

(٢) في « الأصل » : توجه . والمثبت من « هـ ، ن » .

(٣) في « الأصل » : أراد والمثبت من « هـ » .

(٤) في « الأصل » : يبين . والمثبت من « هـ » .

(٥) الحجرات : ٩ .

المسلمون عن قتال أهل البغي لبطلت فريضة من فرائض الله - تعالى - وهذا يدل أن قوله : «فالقاتل والمقتول في النار » ليس في أحد من أصحاب محمد ؛ لأنهم قاتلوا على التأويل ، وقال بعض العلماء : فإن قال قائل : [فأي] [١] الطائفتين كانت أولى بالحق ؟ قيل : كلا الطائفتين عندنا محمودة مجتهدة برة تقية ، وقد قعد عنها أصحاب النبي ولم يروا في ذلك بيانًا ، وهم كانوا أولى بمعرفة الحق فكيف يحكم لأحد الفريقين على الآخر ، ألا ترى أن النبي شهد لعلي وطلحة والزبير بالشهادة ، فكيف يكون شهيدًا من يحل دمه ، وكيف يحكم لأحد الفريقين على الآخر وكلاهما شهداء ؟ روى خالد بن خداش ، عن الدراوردي ، عن [سهيل] [٢] عن أبيه ، عن أبي هريرة قال : « كان النبي - عليه السلام - وأبو بكر وعمر وعثمان وعلي وطلحة والزبير على حراء فتحرك ، فقال رسول الله : اسكن حراء ، فإنه ليس عليك إلا نبي وصديق وشهيد » وكل أصحاب رسول الله ﷺ يجب على المسلمين توقيرهم والإمساك عن ذكر زللهم ونشر محاسنهم ، وكل من ذهب منهم إلى تأويل فهو معذور ، وإن كان بعضهم أفضل من بعض وأكثر سوابق .

* * *

باب : كيف الأمر إذا لم يكن جماعة

فيه : حذيفة : « كان الناس يسألون رسول الله عن الخير ، وكنت أسأله عن الشر مخافة أن يدركني ، فقلت : يا رسول الله ، إنا كنا في جاهلية وشر فجاءنا الله بهذا الخير ، فهل بعد هذا الخير من شر ؟ قال : نعم . قلت: وهل بعد ذلك الشر من خير ؟ قال : نعم ، وفيه دخن . قلت : وما دخنه ؟ قال : قوم يهدون بغير هدى تعرف منهم وتنكر .

(١) في « الأصل » : فإن . والمثبت من « هـ » .
(٢) في « الأصل » : سهل . والمثبت من « هـ » وهو الصواب .

قلت : فهل بعد ذلك الخير من شر ؟ قال : نعم ، دعاة على أبواب جهنم، من أجابهم إليها قذفوه [فيها] [1] قلت : يا رسول الله ، صفهم لنا . قال: هم من جلدتنا ويتكلمون بألسنتنا . قلت : فما تأمرني إن أدركني ذلك ؟ قال : تلزم جماعة المسلمين وإمامهم . قلت : فإن لم يكن لهم جماعة ولا إمام ؟ قال : فاعتزل تلك الفرق كلها ، ولو أن [تعضّ] [2] بأصل شجرة حتى يدركك الموت وأنت على ذلك » .

قال المؤلف : هذا الحديث من أعلام النبوة ، وذلك أنه عليه السلام أخبر حذيفة بأمور مختلفة من الغيب لا يعلمها إلا من أوحي إليه بذلك من أنبيائه الذين هم صفوة خلقه ، وفيه حجة لجماعة الفقهاء في وجوب لزوم جماعة المسلمين وترك القيام على أئمة الجور ، ألا ترى أنه عليه السلام وصف أئمة زمان الشر فقال : « دعاة على أبواب جهنم من أجابهم إليها قذفوه فيها » فوصفهم بالجور والباطل والخلاف / [٤/ق١٥٦-أ] لسنته ؛ لأنهم لا يكونون دُعاةً على أبواب جهنم إلا وهم على ضلال، ولم يقل فيهم تعرف منهم وتنكر ، كما قال في الأولين ، وأمر مع ذلك بلزوم جماعة المسلمين وإمامهم ، ولم يأمر بتفريق كلمتهم وشق عصاهم .

قال الطبري : اختلف أهل العلم في معنى أمر النبي بلزوم الجماعة ونهيه عن الفرقة ، وصفة الجماعة التي أمر بلزومها ، فقال بعضهم : هو أمر إيجاب وفرض ، والجماعة التي أمرهم بلزومها : السواد الأعظم ، وقالوا : كل ما كان عليه السواد [الأعظم] [3] من أهل الإسلام من أمر دينهم فهو الحق الواجب والفرض الثابت ، الذي لا يجوز لأحدٍ من المسلمين خلافه ، وسواء خالفهم في حكم من الأحكام أو خالفهم في إمامهم القيم [بأمرهم] [4] وسلطانهم ، فهو للحق مخالف .

---

(١) من « هـ ، ن » . (٢) في « الأصل » : تقبض . والمثبت من « هـ ، ن » .
(٣) من « هـ » . (٤) في « الأصل » : في أمورهم . والمثبت من « هـ » .

ذكر من قال ذلك : روي عن ابن سيرين قال : لما قتل عثمان -رضي الله عنه - أتيت [أبا] [1] مسعود الأنصاري ، فسألته عن الفتنة ، فقال : عليك بالجماعة ، فإن الله لم يكن ليجمع أمة محمد على ضلالة ، والجماعة حبل الله ، وإن الذي تكرهون من الجماعة هو خير من الذي تحبون من الفرقة .

واحتجوا بما روى الأوزاعي قال : حدثني قتادة ، عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله : « إن بني إسرائيل افترقت على إحدى وسبعين فرقةً ، وإن أمتي تفترق على [ثنتين] [2] وسبعين فرقة كلها في النار إلا واحدة ، وهي الجماعة » .

وروى معتمر عن سليمان (المزني) [3] عن عبد الله بن دينار ، عن ابن عمر قال : قال رسول الله : « لا يجمع الله أمتي على ضلالة أبدًا، ويد الله على الجماعة هكذا ، فاتبعوا السواد الأعظم ، فإنه من شذ [شذ] [4] في النار » .

وقال آخرون : الجماعة التي أمر النبي - عليه السلام - بلزومها هي جماعة أئمة العلماء ، وذلك أن الله جعلهم حجةً على خلقه ، وإليهم تفزع العامة في دينها ، وهي تبع لها ، وهم المعنيون بقوله عليه السلام: « إن الله لن يجمع أمتي على ضلالة » .

ذكر من قال ذلك : روي عن المسيب بن رافع قال : كانوا إذا جاءهم شيء ليس في كتاب الله ولا في سنة رسول الله سمّوه صوافي الأمر ، فجمعوا له العلماء ، فما اجتمع عليه رأيهم فهو الحق. وسئل عبد الله بن المبارك عن الجماعة الذين ينبغي

---

(١) في « الأصل » : ابن . والمثبت من « هـ » .
(٢) في « الأصل » : اثني . والمثبت من « هـ » .
(٣) في « هـ » : المدني .
(٤) من المستدرك (١/ ١١٦) .

أن يقتدى بهم ، فقال : أبو بكر وعمر . فلم يزل يجيء حتى انتهى إلى محمد بن ثابت بن [الحسين] [١] بن واقد ، قلت : هؤلاء قد ماتوا فمن الأحياء ؟ قال : أبو حمزة [السّكري] [٢] .

وقال آخرون : الجماعة التي أمر رسول الله بلزومها : هم جماعة الصحابة الذين قاموا بالدين بعد مضيّه عليه السلام ، حتى أقاموا عماده وأرسوا أوتاده وردوه ، وقد كاد المنافقون أن ينزعوا (أواخيه)[٣] ويقلبوه من (أواسيه) [٤] إلى [نصابه] [٥] وسلكوا في الدعاء منهاجه، فأولئك الذين ضمن الله لنبيّه أن لا يجمعهم على ضلالة ، قالوا : ولو كان معناه لا تجتمع أمته في زمن من الأزمان من يوم بعثه الله إلى قيام الساعة على ضلالة ؛ بطل معنى قوله عليه السلام : «لا تقوم الساعة إلا على شرار الناس » وشبه ذلك من الأخبار المرويّة عنه ﷺ أن من الأزمان أزمانًا تجتمع فيها أمته على ضلالة وكفر .

وقال آخرون : الجماعة التي أمر رسول الله بلزومها : جماعة أهل الإسلام ما كانوا مجتمعين على أمر واجب على أهل الملل اتباعها، فإذا كان فيهم مخالف منهم فليسوا بمجتمعين ، ووجب تعرف وجه الصّواب فيما اختلفوا فيه .

قال الطبري : والصواب في ذلك أنه أمر منه عليه السلاْم بلزوم إمام جماعة المسلمين ونهى عن فراقهم فيما هم عليه مجتمعون من تأميرهم إياه فمن خرج من ذلك فقد نكث بيعته ونقض عهده بعد وجوبه ، وقد قال عليه السلام : « من جاء إلى أمتي ليفرق جماعتهم فاضربوا عنقه كائنًا من كان » .

---

(١) في « الأصل » : الحسن . والمثبت من « هـ » .
(٢) في « الأصل ، هـ » : السكوني . والمثبت من تهذيب الكمال .
(٣) أواخي جمع أخيَّة وآخيَّه : عود يُعرض في الحائط ويدفن طرفاه فيه ، ويصير وسطه كالعروة تشد إليه الدابة . لسان العرب (١٤/ ٢٣) .
(٤) الآسيَةُ : الدعامة والسارية ، والجمع أواسي . لسان العرب (١٤/ ٣٦) .
(٥) في « الأصل » : فضائه . والمثبت من « هـ » ونصاب كل شيء : أصله .

قال المؤلف : وحديث أبي بكرة حجة في ذلك لأنه عليه السلام أمره بلزوم جماعة المسلمين وإمامهم ، فبان أن الجماعة المأمور باتباعها هي السواد الأعظم مع الإمام الجامع لهم ، فإذا لم يكن لهم إمام فافترق الناس أحزابًا فواجب اعتزال تلك الفرق كلها على ما أمر به النبي عليه السلام أبا ذرّ ولو أن يعض بأصل شجرة حتى يدركه الموت ، فذلك خير له من الدخول بين طائفة لا إمام لها خشية ما يئول [من] (١) عاقبة ذلك من فساد الأحوال باختلاف الأهواء وتشتت الآراء .

وقال صاحب العين : الدخن : الحقد ، ويوم دخنان : شديد (الغم) (٢) .

* * *

باب : من كره أن يكثر سواد الفتن والظلم

[ق٤/١٥٦-ب]

/ فيه : أبو الأسود : « قطع على أهل المدينة بعث فاكتتبت فيه ، فلقيت عكرمة فأخبرته ، فنهاني أشد النهي ، ثم قال : أخبرني ابن عباس أن ناسًا من المسلمين كانوا مع المشركين يكثرون سواد المشركين على عهد رسول الله ، فيأتي السهم فيرمى فيصيب أحدهم فيقتله - أو يضربه فيقتله - فأنزل الله تعالى : ﴿ إن الذين توفاهم الملائكة ظالمي أنفسهم ﴾ (٣) » .

قال المؤلف : ثبت عن النبي أنه قال : من كان مع قوم راضيًا بحالهم [فهو منهم] (١) صالحين كانوا أو فاسقين ، هم شركاء في الأجر أو الوزر ، ومما يشبه معنى هذا الحديث في مشاركة [أهل الظلم في الوزر] (٤) قوله عليه السلام : « من آوى محدثًا فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين » .

---

(١) من « هـ » . (٢) في « هـ » : الغيم . (٣) النساء : ٩٧ .

(٤) في « الأصل » : أهل الوزر في الظلم . والمثبت من « هـ » .

وأما مشاركة مجالس الصالحين في الأجر فما في الحديث : « إن لله ملائكة يطوفون في الطرق يلتمسون أهل الذكر ، فإن وجدوا قومًا يذكرون الله تنادوا هلموا إلى حاجتكم . . . » وذكر الحديث بطوله «قال : فيقول الله : اشهدوا أني قد غفرت لهم . فيقول ملك من الملائكة : فيهم فلان ليس منهم إنما جاء لحاجته. قال : هم الجلساء لا يشقى جليسهم ».

فإن كان مجالس أهل الفسق كارهًا لهم ولعملهم ، ولم يستطع مفارقتهم [خوفًا] (١) على نفسه أو لعذر منعه فترجى له النجاة من إثم ذلك، يدل على ذلك قوله في آخر الآية التي نزلت فيمن كثر سواد المشركين ﴿ **إلا المستضعفين من الرجال والنساء** ﴾ (٢) الآية وقد كره السلف الكلام في الفتنة ، ذكر ابن جريج عن ابن عباس قال : إنما الفتنة باللسان . وقال سفيان عن شريح : ما أخبرت ولا استخبرت تسعة أعوام منذ كانت الفتنة ، فقال له مسروق : لو كنت مثلك لسرّني أن أكون قد مُتّ . قال : شريح : فكيف بأكثر من ذلك مما في الصدور تلتقي الفئتان [إحداهما أحب] (٣) إليّ من الأخرى . وقال الحسن : السلامة من الفتنة : سلامة القلوب والأيدي والألسن . وكان إبراهيم يستخبر ولا يخبر .

* * *

باب : إذا بقي في حثالة من الناس

فيه : حذيفة قال : « حدثنا رسول الله حديثين رأيت أحدهما وأنا أنتظر الآخر ، حدثنا أن الأمانة نزلت في جذر قلوب الرجال ، ثم علموا من القرآن ، ثم علموا من السنَّة ، وحدثنا عن رفعها فقال : ينام الرجل

---

(١) في « الأصل » : خوف . والمثبت من « هـ » .

(٢) النساء : ٩٨ .

(٣) في « الأصل ، هـ » : أحب إحداهما . والمثبت هو الصواب .

النومة فتقبض الأمانة من قلبه فيظل أثرها مثل أثر الوكت ، ثم ينام النومة فتقبض ، فيبقى أثرها مثل أثر [المجل] [1] كجمر دحرجته على رجلك فنفط فتراه منتبراً ، وليس فيه شيء ، ويصبح الناس يتبايعون فلا يكاد أحد يؤدي الأمانة ، فيقال : إن في بني فلان رجلاً أمينًا ، ويقال للرجل ما أعقله وما أظرفه وما أجلده ، وما في قلبه مثقال حبة خردل من إيمان ، ولقد أتى عليّ زمان ولا أبالي أيكم بايعت ، لئن كان مسلمًا رده علي الإسلام ، وإن كان نصرانيًا رده عليّ ساعيه ، وأما اليوم فما كنت أبايع إلا فلانًا وفلانًا ».

قال المؤلف : هذا الحديث من أعلام النبوة ؛ لأن فيه الإخبار عن فساد أديان الناس وقلة أماناتهم في آخر الزمان ، ولا سبيل إلى معرفة ذلك قبل كونه إلا من طريق الوحي ، وهذا كقوله : « بدأ الإسلام غريبًا وسيعود غريبًا كما بدأ » وروى ابن وهب ، عن يعقوب بن عبدالرحمن ، عن عمر مولى المطلب ، عن العلاء بن عبد الرحمن ، عن أبيه ، عن أبي هريرة قال : « قال رسول الله لعبد الله بن عمرو : كيف بك يا عبد الله إذا بقيت في حثالة من الناس ، قد مرجت عهودهم وأماناتهم واختلفوا فصاروا هكذا - وشبك بين أصابعه - ؟ قال : قلت : يا رسول الله ، فما تأمرني ؟ قال : عليك بخاصتك، ودع عنك عوامهم » ومن هذا الحديث ترجم البخاري ترجمة هذا الباب - والله أعلم - وأدخل معناه في حديث حذيفة ولم يذكر الحديث بنص الترجمة ؛ لأنه من رواية العلاء بن عبد الرحمن عن أبيه، عن أبي هريرة ، ولم يخرج عن العلاء حديثًا في كتابه .

والحثالة : سفلة الناس ، وأصلها في اللغة ما تساقط من قشور التمر والشعير وغيرها وهي الحفالة والسخافة .

---

(١) في « الأصل » : المجمل . والمثبت من « هـ ، ن » .

وقوله في حديث حذيفة : « في جذر قلوب الرجال » قال الأصمعي وأبو عمرو ، وغيرهما : الجذر : الأصل . قال الأصمعي : بفتح الجيم ، وقال أبو عمرو : بكسر الجيم .

وقال صاحب العين : الوكت : شبيه نكتة في العين ، وعين موكوتة ، والوكت : سواد اللّون . وقال أبو عبيد : الوكت : أثر الشيء اليسير منه . وقال الأصمعي: يقال للبُسر إذا بدا فيه/ الإرطاب : بُسر موكت. [٤/ق١٥٧-أ]

والمجل : أثر العمل (باليد)[١] يعالج به الإنسان الشيء حتى [تغلظ][٢] جلودها ، يقال منه : مَجِلت (يده) [٣] ومَجَلت لغتان ، وذكر الحربي عن ابن الأعرابي : المجل : النفط باليد ممتلئ ماءً ، وقال أبو زيد : إذا كان بين الجلد واللحم ماء قيل : مجلت يده تمجل ، ونفطت تنفط نفطًا [ونفيطًا] [٤] .

والمنتبر : المنتفط . قال الطوسي : انتبر الجرح : إذا ورم ، ويقال : سمعت نبرات من كلامه أي : ارتفاعات من صوته .

قال أبو عبيد : وقوله : « ما أبالي أيكم بايعت » حمله كثير من الناس على بيعة الخلافة ، وهذا خطأ في التأويل ، وكيف يكون على بيعة الخلافة وهو يقول : « لئن كان يهوديًا أو نصرانيًا ردّه عليّ ساعيه» فهو يبايع على الخلافة اليهودي والنصراني ؟! ومع هذا إنه لم يكن يجوِّز أن يبايع كل أحد فيجعله خليفة ، وهو لا يرضى بأحد بعد عمر ، فكيف يتأول هذا عليه مع مذهبه فيه ؟

إنما أراد مبايعة البيع والشراء ؛ لأنه ذكر الأمانة وأنها قد ذهبت من الناس يقول : فليس أثق اليوم بأحد أئتمنه على البيع والشراء إلا فلانًا وفلانًا لقلة الأمانة في الناس .

---

(١) في « هـ » : في اليد .
(٢) في « الأصل » : تختلط . والمثبت من « هـ » .
(٣) من « هـ » .
(٤) في « الأصل ، هـ » : ونفطًا . والمثبت من لسان العرب مادة نفط .

وقوله : «ردّه عليّ ساعيه » يعني : الوالي الذي عليه ، يقول : ينصفني منه ، وإن لم يكن له إسلام ، وكل من ولي على قوم فهو ساع عليهم ، وأكثر ما يقال هذا في ولاة الصدقة قال الشاعر :

سعى عقالا فلم يترك لنا سَبَدًا

* * *

باب : التعرب [1] في الفتنة

فيه : سلمة بن الأكوع : « أنه دخل على الحجاج قال : يا ابن الأكوع ارتددت على عقبيك ، تعربت ؟ قال : لا . ولكن رسول الله أذن لي في البدو » ولما قتل عثمان خرج سلمة إلى الرّبذة وتزوج هناك امرأةً وولدت له أولادًا ، فلم يزل بها حتى جاء قبل أن يموت بليال فنزل المدينة » .

وفيه : أبو سعيد قال النبي - عليه السلام - : « يوشك أن يكون خير مال المسلم غنم يتبع بها [شعف] [2] الجبال ، ومواقع القطر ، يفر بدينه من الفتن ».

التعرب : معناه أن يرجع أعرابيًا بعد الهجرة ، وكانوا يستعيذون بالله أن يعودوا كالأعراب بعد هجرتهم ؛ لأن الأعراب لم يتعبدوا بالهجرة التي يحرم بها على المهاجر الرجوع إلى وطنه ، كما فرض على أهل مكة البقاء مع النبي - عليه السلام - ونصرته ، ولذلك قال الحجاج : يا ابن [الأكوع][3] ارتددت على عقبيك ، تعربت ؟ » أي : رجعت عن الهجرة التي فعلتها لوجه الله - تعالى - بخروجك من المدينة ، فأخبره أن رسول الله أذن له في سكنى البادية ، فلم يكن خروجه من المدينة فرارًا منها ولا رجوعًا في الهجرة، وهذا لا يحل لأحدٍ فعله،

(١) في « الأصل » : التغرب. وهي رواية أبي ذر الهروي. والمثبت من « هـ ، ن».
(٢) في « الأصل » : شعب . والمثبت من « هـ ، ن » .
(٣) في « الأصل » : الحجة . والمثبت من « هـ » .

ولذلك دعا النبي - عليه السلام - لأصحابه ألا يموتوا في غير المدينة التي هاجروا إليها لله - تعالى - فقال : « اللهم أمض لأصحابي هجرتهم ولا تردهم على أعقابهم ، لكن البائس سعد بن خولة . يرثي له رسول الله أن مات بمكة » فتوجع رسول الله حين مات بمكة في الأرض التي هاجر منها . وذكر البخاري أن سعد بن خولة شهد بدرًا ، ثم انصرف إلى مكة ومات بها ، وأنه من المهاجرين .

وقوله : « يوشك أن يكون خير مال المسلم غنمًا يتبع بها [شعف][1] الجبال ومواقع القطر يفر بدينه من الفتن » من أعلام نبوته عليه السلام لأنه أخبر عما يكون في آخر الزمان .

وفيه أن اعتزال الناس عند الفتن والهرب عنهم أفضل من مخالطتهم وأسلم للدين ، وسأذكر تفسير [شعف] [1] الجبال في حديث أبي سعيد في كتاب الرقاق في باب العزلة [راحة من خلطاء السوء] [2] .

* * *

باب : التعوذ من الفتن

فيه : أنس : « سألوا النبي - عليه السلام - حتى أحفوه بالمسألة فصعد النبي - عليه السلام - ذات يوم المنبر فقال : لا تسألوني عن شيء إلا بينت لكم، فجعلت أنظر يمينًا وشمالاً فإذا كل رجل رأسه في ثوبه يبكي، فأنشأ رجل كان إذا لاحى يدعى إلى غير أبيه ، فقال : يا نبي الله ، من أبي؟ قال : أبوك حذافة . ثم أنشأ عمر فقال : رضينا بالله ربًا وبالإسلام

---

(١) في « الأصل » : شعب . والمثبت من « هـ » . (٢) من « هـ » .

دينًا وبمحمد ﷺ رسولا ، نعوذ بالله من سوء الفتن . فقال عليه السلام : ما رأيت في الخير والشر كاليوم قط ، إنه صورت لي الجنة والنار حتى رأيتهما دون الحائط ... » الحديث .

[٤/ق١٥٧-ب] وقال [قتادة] (١) يذكر هذا الحديث / عند هذه الآية : ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تسألوا عن أشياء إن تبد لكم تسؤكم ﴾ (٢) ، وقال : « كل رجل لاف رأسه في ثوبه يبكي فقال : عائذًا بالله من سوء الفتن . أو أعوذ بالله من سوء الفتن » .

وقال [معتمر] (٣) ، عن أبيه ، عن قتادة ، عن أنس ، عن النبي - عليه السلام - : « [عائذًا] (٤) بالله من شر الفتن » .

قال صاحب الأفعال : أحفى الرجل في السؤال : ألح ، وفي التنزيل ﴿ إن يسألكموها فيحفكم تبخلوا ﴾ (٥) أي : يلح عليكم فيما يوجبه في أموالكم ، ولما ألحوا على النبي ﷺ في المسألة كره مسائلهم وعز على المسلمين ما رأوا من الإلحاح على النبي ﷺ والتعنيت له ، وتوقعوا عقوبة الله أن تحل بهم ؛ ولذلك بكوا ، فمثل الله له الجنة والنار ، وأراه كل ما يسأل عنه في ذلك الوقت ، فقال : « لا تسألوني عن شيء إلا بينت لكم » وقال للرجل : « أبوك حذافة » وروي أنّ أم ابن حذافة قالت له : « يا بني ما رأيت ابنًا أعق منك (أن)(٦) تكون أمك قد قارفت بعض ما تقارف نساء الجاهلية [فتفضحها](٧) على أعين الناس . فقال ابنها : « والله لو ألحقني بعبدٍ أسودٍ للحقت به» .

---

(١) في « الأصل»: سعد بن عبادة. وفي « هـ »: سعد عن قتادة. والمثبت من «ن».
(٢) المائدة : ١٠١ . (٣) في « الأصل » : معمر . والمثبت من « هـ ، ن » .
(٤) في « الأصل » عائذ . والمثبت من « هـ ، ن » .
(٥) محمد : ٣٧ .
(٦) في صحيح مسلم (٤/ ١٨٣٣ رقم ٢٣٥٩) : أأمنت أن.
(٧) في « الأصل » : ففضحتها . والمثبت من « هـ » وصحيح مسلم .

وفي هذا الحديث فضل عمر بن الخطاب وفهمه، ومكانه من الحماية عن الدين والذّب عن رسول الله إذ قال : « رضينا بالله ربًا وبالإسلام دينًا ومحمد نبيًا » ومنع من [تعنيته] [1] والإلحاح عليه ؛ لأن الله -تعالى - قد أمر بتعزيره وتوقيره وألا يرفع الصوت فوق صوته ، واستعاذ بالله من شر الفتن ، وكذلك استعاذ النبي بالله من شر الفتن ، واستعاذ من فتنة المحيا والممات ، وإن كان قد أعاذه الله تعالى من كل فتنة ، وعصمه من [شرها] [2] ليسن ذلك لأمته ، فتستعيذ مما استعاذ منه نبينا - عليه السلام - وهذا خلاف [ما] [3] يروى عن بعض من قصر علمه أنه قال : اسألوا الله الفتنة فإنها حصاد المنافقين ، وزعم أن ذلك مروي عن رسول الله ، وهو حديث لا يثبت ، والصحيح خلافه من رواية أنس وغيره عن النبي - عليه السلام - .

* * *

باب : قول النبي عليه السلام الفتن من قبل المشرق

فيه : ابن عمر : « أن النبي - عليه السلام - قام إلى جنب المنبر فقال : الفتنة هاهنا الفتنة هاهنا من حيث يطلع قرن الشيطان . أو قال : قرن الشمس » .

وقال ابن عمر مرةً : « أنه سمع النبي - عليه السلام - وهو مستقبل المشرق يقول : ألا إن الفتنة هاهنا من حيث يطلع قرن الشيطان » .

وفيه : ابن عمر قال النبي - عليه السلام - : « اللهم بارك لنا في يمننا وفي شامنا . قالوا : يا رسول الله ، وفي نجدنا . فأظنه قال في الثالثة : هناك الزلازل والفتن ، وبها يطلع قرن الشيطان » .

وقيل لابن عمر : « حدثنا عن القتال في الفتنة والله - تعالى - يقول :

---

(١) في « الأصل » : معتبته . والمثبت من « هـ » .

(٢) في « الأصل » : ذلك . والمثبت من « هـ » .

(٣) من « هـ » .

﴿ وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ﴾ [(١)] قال : هل تدري ما الفتنة ، ثكلتك أمك ؟ إنما كان محمد ﷺ يقاتل المشركين ، وكان الدخول في دينهم فتنةً ، وليس بقتالكم على الملك » .

قال المؤلف : قال الخطابي : [القرن] [(٢)] في الحيوان يضرب به المثل فيما لا يحمد من الأمور ، كقوله عليه السلام في الفتنة وطلوعها من ناحية المشرق : « ومنه يطلع قرن الشيطان » وقال في الشمس أنها تطلع بين قرني الشيطان ، والقرن : الأمة من الناس يُحدثون بعد فناء آخرين ، قال الشاعر :

إذا ما مضى القرن الذي أنت منهم
وخلفت في قرن فأنت غريب

وقال غيره : كان أهل المشرق يومئذ أهل كفر فأخبر عليه السلام أن الفتنة تكون من تلك الناحية ، وكذلك كانت الفتنة الكبرى [التي][(٣)] كانت مفتاح فساد ذات البين وهي مقتل عثمان - رضي الله عنه - وكانت سبب وقعة الجمل وصفين ، ثم ظهور الخوارج في أرض نجد والعراق وما وراءها من المشرق ، ومعلوم أن البدع إنما ابتدأت من المشرق ، وإن كان الذين اقتتلوا بالجمل وصفين بينهم كثير من أهل الشام والحجاز فإن (الفتنة) [(٤)] وقعت في ناحية المشرق ، وكان ذلك [سببًا] [(٥)] إلى افتراق كلمة المسلمين وفساد نيات كثير منهم إلى يوم القيامة ، وكان رسول الله يحذر من ذلك ويعلمه قبل وقوعه ، وذلك دليل على نبوّته .

* * *

(١) البقرة : ١٩٣ . (٢) من « هـ » .
(٣) في « الأصل ، هـ » : الذي . والمثبت هو الصواب .
(٤) في « هـ » : المقتلة .
(٥) في « الأصل » : سبب . والمثبت من « هـ » .

باب : الفتنة التي تموج كموج البحر

/ وقال ابن عيينة عن خلف بن حوشب : كانوا يستحبون أن يتمثلوا [٤/ق١٥٨-أ] بهذه الأبيات عند الفتن :

الحــرب أول ما تكـــون فتيةً   تســـعى بزينتها لكـــل جــهول
حتى إذا اشتعلت وشب ضرامها   ولت عجـوزاً غير ذات حـــليل
شـــمطاء ينكـــر لونها وتغيرت   مكـــــروهةً للشـــم والتقـــبيل

فيه : حذيفة : « قال عمر : أيكم يحفظ قول رسول الله في الفتنة ؟ قال : فتنة الرجل في أهله وماله ، وولده وجاره تكفرها الصلاة والصدقة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر . قال : ليس عن ذلك أسألك، ولكن التي تموج كموج البحر . قال : ليس عليك منها بأس يا أمير المؤمنين ، إن بينك وبينها بابًا مغلقًا . قال عمر : أيكسر الباب أم يفتح ؟ قال : بل يكسر . قال : إذًا لا يغلق أبدًا . قلت : أجل . قلنا لحذيفة : أكان عمر يعلم الباب ؟ قال : نعم ، كما أعلم أن دون غد ليلة ، وذلك أني حدثته حديثًا ليس بالأغاليط . [فهبنا] (٢) أن نسأله من الباب ، فأمرنا مسروقًا ، فسأله : من الباب ؟ فقال : الباب عمر » .

وفيه : أبو موسى : « خرج النبي - عليه السلام - إلى حائط من حوائط المدينة لحاجته ، وخرجت في أثره ، فلما دخل الحائط جلست على بابه، وقلت : لأكونن اليوم بواب النبي عليه السلام ولم يأمرني ، فذهب النبي وقضى حاجته وجلس على قف البئر ، فكشف عن ساقيه فدلاهما في البئر ، فجـاء أبو بكر يستأذن عليه ليدخـل ، فقلت : كما أنت حـتى أستأذن لك . فوقف ، فجئت إلى النبي فقلت : يا نبي الله

(١) في « الأصل » : مهيبًا . والمبت من « هـ ، ن » .

أبو بكر يستأذن عليك . فقال : ائذن له وبشره بالجنة فدخل ، فجاء عن [يمين] (١) النبي عليه السلام فكشف عن ساقيه ودلاهما في البئر ، فجاء عمر ، فقلت : كما أنت حتى أستأذن لك ، فقال النبي - عليه السلام - : ائذن له وبشرهُ بالجنة ، فجاء عن يسار النبي - عليه السلام - ، [فكشف عن ساقيه ودلاهما في البئر ، فامتلاء القُف فلم يكن فيه مجلس] (١) ثم جاء عثمان ، فقلت : كما أنت حتى أستأذن لك ، فقال النبي ﷺ : ائذن له وبشرة بالجنة (مع) (٢) بلاء يصيبه ، فدخل فلم يجد معهم مجلسًا ، فتحوّل حتى جاء مقابلهم على شفة البئر ، فكشف عن ساقيه ، ثم دلاهما في البئر ، فجعلت أتمنى أخًا لي ، وأدعو الله أن يأتي » قال ابن المسيب : فتأولت ذلك قبورهم اجتمعت هاهنا ، وانفرد قبر عثمان » .

وفيه : أبو وائل : « قيل لأسامة : ألا تكلم هذا ؟ قال : قد كلمته ما (لم) (٣) أفتح بابًا أكون أول من [يفتحه] (٤) وما أنا بالذي أقول لرجل بعد أن يكون أميرًا على رجلين - أنت خير ، بعدما سمعت رسول الله يقول : يجاء برجلٍ فيطرح في النار فيطحن فيها كطحن الحمار برحاه ، فيطيف به أهل النارِ ، فيقولون : أي فلان، ألست كنت تأمر بالمعروف ، وتنهى عن المنكر ؟ فيقول : إني كنت آمر بالمعروف ولا أفعله ، وأنهى عن المنكر وأفعله » .

وفيه : أبو بكرة قال : « لقد نفعني الله بكلمة أيام الجمل ، لما بلغ النبي أن فارسًا ملكوا ابنة كسرى قال : لن يفلح قوم ولوا أمرهم امرأةً».

وفيه : أبو مريم : « لما سار طلحة والزبير وعائشة إلى البصرة بعث

---

(١) من « هـ ، ن » إلا أنه في « ن » فدلاهما .

(٢) في « هـ ، ن » : معها .

(٣) في « هـ ، ن » : دون أن .

(٤) في « الأصل » : يفتتحه . والمثبت من « هـ ، ن » .

علي إلى عمار بن ياسر وحسن بن علي ، فقدما علينا الكوفة فصعدا المنبر ، فكان الحسن بن علي فوق المنبر في أعلاه ، وقام عمار أسفل من الحسن ، فاجتمعنا إليهما ، فسمعت عماراً يقول : إن عائشة قد سارت إلى البصرة ، والله إنها لزوجة نبيكم في الدنيا والآخرة ، ولكن الله ابتلاكم ليعلم إياه تطيعون أم هي » .

وقال مرةً : « ولكنها مما ابتليتم به » يعني عائشة .

وفيه : أبو وائل : « دخل أبو موسى وأبو مسعود على عمّار حين بعثه علي إلى أهل الكوفة يستنفرهم ، فقالا : ما رأيناك أتيت أمرًا أكره عندنا من إسراعك في هذا الأمر منذ أسلمت . فقال عمار : ما رأيت منكما منذ (أسلمنا) [1] أمرًا أكره عندي من إبطائكما عن هذا الأمر ، وكساهما حلةً حلةً ، ثم راحوا إلى المسجد » وروي أيضًا قال أبو مسعود - وكان موسرًا - : يا غلام هات حُلتين ، فأعط إحداهما أبا موسى وأعط الأخرى عمارًا ، وقال : روحا فيهما إلى الجمعة » .

قال المؤلف : حديث حذيفة وأبي موسى من أعلام النبوة ؛ لأن فيهما الإخبار عما يكون من الفتن والغيب ، وذلك لا يعلم إلا بوحي من الله .

وقال الخطابي : إنما كان يسأل حذيفة عن الشر ليعرف موضعه فيتوقاه ، وذلك أن الجاهل بالشر أسرع إليه وأشد وقوعًا فيه / وروي [٤/ق١٥٨-ب] عن بعض السلف أنه قيل له : إن فلانًا لا يعرف الشر . قال : ذاك أجدر أن يقع فيه ، ولهذا صار عامّة ما يروى من أحاديث الفتن وأكثر ما يذكر من أحوال المنافقين ونعوتهم منسوبة إليه ومأخوذة عنه .

وقال غيره : وإنما (تنكب) [2] حذيفة حين سأله عمر عن الفتنة

---

(١) في « ن » : أسلمتما . (٢) في « هـ » : نكب .

فجاوبه عن فتنة الرجل في أهله وماله [وولده وجاره] [1] ولم يجاوبه عن الفتنة الكبرى التي تموج كموج البحر لئلا يغمه ويشغل باله ، ألا ترى قوله لعمر : « ليس عليك منها بأس يا أمير المؤمنين فإن بينك وبينها بابًا مغلقًا » ولم يقل له أنت الباب ، وهو يعلم أن الباب عمر ، فإنما أراد حذيفة ألا يواجهه بما يشق عليه ويهمه ، وعرض له بما فهم عنه عمر أنه هو الباب ولم يصرح له بذلك ، وهذا من حسن أدب حذيفة - رضي الله عنه .

قال المهلب : فإن قال قائل : فمن أين علم عمر أن الباب إذا كسر لم يغلق أبدًا . فالجواب : أنه استدل عمر على ذلك ؛ لأن الكسر لا يكون إلا غلبةً ، والغلبة لا تكون إلا في الفتنة ، وقد علم عمر وغيره من النبي - عليه السلام - أنه سأل ربه ألا يجعل بأس أمته بينهم فمنعها، فلم [يزل] [2] الهرج إلى يوم القيامة ، وروى معمر ، عن أيوب ، عن أبي قلابة ، عن أبي الأشعث الصنعاني ، عن أبي [أسماء] [3] الرحبي ، عن شداد بن أوس ، عن النبي - عليه السلام- قال : « إذا وضع السيف في أمتي لم يرفع عنهم إلى يوم القيامة » [وفيه] [4] أن الصحابة كان يأخذ بعضهم العلم عن بعض، ويصدق بعضهم بعضًا ، وكلهم [عدول] [5] رِضًى ، وهم خير أمةٍ أخرجت للناس .

وفي حديث أبي موسى البُشرى بالجنة لأبي بكر وعمر وعثمان ، إلا أنه قال في عثمان « مع بلاءٍ يصيبه » وكان ذلك البلاء أنه قتل مظلومًا شهيدًا . فإن قيل : فكيف خص عثمان بذكر البلاء ؛ وقد أصاب عمر مثله ؛ لأنه طعنه أبو لؤلؤة فمات من طعنته [شهيدًا] [6] كما مات عثمان شهيدًا ؟ فالجواب : أن عمر وإن كان مات من الطعنة شهيدًا ،

---

(١) من « هـ » . (٢) في « الأصل » : يزال . والمثبت من « هـ » .
(٣) في « الأصل » : إسحاق . والمثبت من « هـ » .
(٤) في « الأصل » : وهو . والمثبت من « هـ » .
(٥) في « هـ » : عدل . (٦) في « الأصل » : شهيد . والمثبت من « هـ » .

فإنه لم يمتحن بمثل محنة عثمان من تسلط طائفة باغية متغلبة عليه ، ومطالبتهم له أن ينخلع من الإمامة ، وهجومهم عليه في داره ، وهتكهم ستره ، ونسبتهم إليه الجور والظلم وهو بريء عند الله من كل سوء ، بعد أن منع الماء مع أشياء كثيرة يطول إحصاؤها ، وعمر لم يلق مثل هذا ، ولا تسوّر عليه أحد داره ، ولا هتك ستره ، ولا قتله من شهد شهادة التوحيد فيحاجه بها عند الله يوم القيامة ؛ ولذلك حمد الله عمر على ذلك ، فكان الذي أصاب عثمان من البلاء غير قتله بلاء شديدًا لم يصب عمر مثله .

قال المهلب : وأما قول أبي وائل : « قيل لأسامة : ألا تكلم هذا الرجل » يعني عثمان بن عفان ليكلمه في شأن الوليد ؛ لأنه ظهر عليه ريح نبيذ وشهر أمره ، وكان أخا عثمان [لأمه] [(١)] ، وكان عثمان يستعمله على الأعمال ، فقيل لأسامة : ألا تكلمه في أمره ؛ لأنه كان من خاصة عثمان ، وممن يخف عليه ، فقال : قد كلمته فيما بيني وبينه، وما دون أن أفتح بابًا أكون أوّل من يفتحه ، يريد لا أكون أوّل من يفتح باب الإنكار على الأئمة علانيةً فيكون بابًا من القيام على أئمّة المسلمين فتفترق الكلمة وتتشتت الجماعة ، كما كان بعد ذلك من تفرق الكلمة بمواجهة عثمان بالنكير ، ثم عرفهم أنه لا يداهن أميرًا أبدًا [بل][(١)] ينصح له في السر جهده بعدما سمع النبي يقول في الرجل الذي كان في النار كالحمار يدور برحاه ، من أجل أنه كان يأمر بالمعروف ولا يفعله وينهى عن الشر ويفعله يعرفهم أن هذا الحديث جعله ألا يداهن أحدًا ، يتبرأ إليهم مما ظنوا به من سكوته عن عثمان في أخيه .

---

(١) من « هـ » .

فإن قال قائل : فإن الإنكار على الأمراء في العلانية من السنة لما روى سفيان عن علقمة بن مرثد ، عن طارق بن شهاب : «أن رجلاً سأل النبي - عليه السلام - أي الجهاد أفضل ؟ قال : كلمة حق عند سلطان جائر » .

قال الطبري : قد اختلف السلف قبلنا في تأويل هذا الحديث فقال بعضهم : إنما عنى النبي ﷺ بقوله : « كلمة حق عند سلطان جائر » إذا أمن على نفسه القتل أو أن يلحقه من البلاء ما لا قبل له به ، هذا مذهب أسامة بن زيد ، وروي ذلك عن ابن مسعود [وابن عباس] (١) وحذيفة ، وروي عن مطرف بن الشخير أنه قال : والله [لو] (١) لم يكن لي دين حتى أقوم إلى رجل معه ألف سيف فأنبذ إليه [كلمة](٢) فيقتلني إن ديني إذاً لضيق .

[٤/ق١٥٩-أ] وقال آخرون : الواجبُ على من / رأى منكرًا من ذي سلطان أن ينكره علانيةً وكيف أمكنه ، روي ذلك عن عمر بن الخطاب وأبيّ بن كعب ، واحتجوا بقوله عليه السلام : « من رأى منكم منكرًا فليغيره بيده ، فإن لم يستطع فبلسانه ، فإن لم يستطع فبقلبه ، وذلك أضعف الإيمان » وبقوله : « إذا هابت أمتي أن تقول للظالم : يا ظالم ، فقد تودع منهم » .

وقال آخرون : من رأى من سلطانه منكرًا فالواجب عليه أن ينكره بقلبه دون لسانه ، واحتجوا بحديث أم سلمة عن النبي - عليه السلام- أنه قال : « يستعمل عليكم أمراء بعدي ، تعرفون وتنكرون، فمن كره فقد برئ ، ومن أنكر فقد سلم ، ولكن من رضي وتابع ، قالوا : يا رسول الله ، أفلا نقاتلهم ؟ قال : لا ، ما صلوا » .

قال الطبري : والصّواب [أن الواجب] (١) على كل من رأى

---

(١) من « هـ » . (٢) في « الأصل » : كلمته . والمثبت من « هـ » .

منكرًا أن ينكره إذا لم يخف على نفسه عقوبة لا قبل له بها ؛ لورود الأخبار عن النبي ﷺ بالسمع والطاعة للأئمة ، وقوله عليه السلام : «لا ينبغي للمؤمن أن يذل نفسه . قالوا : وكيف يذل نفسه ؟ قال : يتعرض من البلاء ما لا يطيق » .

فإن قال قائل في حديث أسامة : فكيف صار الذين كان يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر [معه في النار وهو لهم بالمعروف آمر ، وعن المنكر] [1] ناه ؟ قيل: لم يكونوا أهل طاعة ، وإنما كانوا أهل معصية. وأما حديث أبي بكّرة فإن في ظاهره توهية لرأي عائشة في الخروج .

قال المهلب : وليس كذلك لأن المعروف من مذهب أبي بكرة أنه كان على رأي عائشة وعلى الخروج معها ، ولم يكن خروجها على نيّة القتال ، وإنما قيل لها : اخرجي لتصلحي بين الناس فإنك أمهم ولم يعقوك بقتال . فخرجت لذلك ، وكان نية بعض أصحابها إن ثبت لهم البغي أن يقاتلوا التي تبغي ، وكان منهم أبو بكرة ولم يرجع عن هذا الرأي أصلا وإنما تشاءم بقول الرسول ﷺ في تمليك فارس امرأة أنهم يغلبون ؛ لأن الفلاح في اللغة البقاء ؛ لا أن أبا بكرة وهّن رأي عائشة، ولا في الإسلام أحد يقوله إلا الشيعة ، فلم يرد أبو بكرة بكلامه إلا أنهم يغلبون إن قوتلوا ، وليس الغلبة بدلالة على أنهم على باطل ؛ لأن أهل الحق قد يُغلبون ، وتكون لهم العاقبة كما وعد [الله][1] المتقين ، وذلك عيان في أصحاب النبي - عليه السلام - يوم حنين وأحد ، وجعل الله لهم العاقبة ، كما جعلها لمن غضب لعثمان وأنف من قتله وطلب دمه ، وليس في الإسلام أحد يقول : إن عائشة دعت إلى أمير معها ، ولا عارضت عليًا في الخلافة، ولا نازعته لأخذ الإمارة ، وإنما أنكرت عليه منعه من قتلة عثمان ، وتركهم دون أن يأخذ منهم حدود الله ودون أن يقتصّ لعثمان منهم ، لا غير ذلك ، فهم الذين خشوها وخشوا على أنفسهم (فورّشوا) [2] ودسوا في جمع عائشة من

---

(١) من « هـ » .   (٢) التوريش : التحريش . انظر لسان العرب (٦/ ٣٧١) .

يقول لهم : إن عليا يقاتلكم فخذوا حذركم وشكوا سلاحكم وعبئوا حربكم ، وقالوا لعلي : إنهم يريدون أن [يخلعوك] (١) ويقاتلوك على الإمارة ، ثم استشهدوا بما يرونه من أخذ أصحاب الجمل بالحزم وتعبئتهم الصفوف وشك السلاح ثم يقولون له : هل يفعلون ذلك إلا لقتالك حتى حرّكوه ، وكانوا أول من رمى فيهم [بالسّهام] (٢) وضربوا بالسيوف والرماح حتى اشتبك القتال ووقع ما راموه ، وكان في ذلك خلاصهم مما خشوه من اجتماع الفريقين على الاستقادة لعثمان منهم ، هذا أحسن ما قيل في ذلك .

وأما حديث أبي موسى وأبي مسعود حين دخلا على عمار ، فإن عمارًا بعثه علي إلى الكوفة ليستنفرهم ، فجرى بينهم ما جرى من تقبيح رأي عمار وإسراعه في الفتنة بالخروج وكشف الوجه [وقد] (٣) علم نهي النبي عن حمل السلاح على المسلمين ، ثم توبيخ عمار لأبي موسى وأبي مسعود على قعودهما عن ذلك ، وكل فريق منهم مجتهد له وجه في الصّواب ، وكان اجتماعهم عند أبي مسعود بعد أن خطب عمار الناس على المنبر بالنفير ، وكان أبو مسعود كثير المال [جوادًا](٤) وكان ذلك يوم جمعة فكساهما حلتين ليشهدا بها الجمعة ؛ لأن عمارًا كان في ثياب السفر وهيئة الحرب فكره أن يشهد الجمعة في تلك الثياب، وكره أن يكسوه بحضرة أبي موسى ولا يكسو أبا موسى ؛ لأنه كان كريمًا .

والقف : ما ارتفع عن الأرض ، عن صاحب العين .

* * *

(١) في « الأصل » : يمنعوك . والمثبت من « هـ » .
(٢) في « الأصل » : بالسلاح . والمثبت من « هـ » .
(٣) في « الأصل » : فقد . والمثبت من « هـ » .
(٤) في « الأصل » : جواد . والمثبت من « هـ » .

باب : إذا أنزل الله بقوم عذابًا

/ **فيه : ابن عمر قال النبي – عليه السلام – : « إذا أنزل الله بقوم عذابًا** [٤/ق١٥٩-ب] **أصاب العذاب من كان فيهم ، ثم بعثوا على أعمالهم »** .

قال المؤلف : هذا الحديث يبين حديث زينب بنت جحش : « أنها قالت : يا رسول الله ، أنهلك وفينا الصالحون ؟ قال : نعم ، إذا كثر الخبث » فيكون إهلاك جميع الناس عند ظهور المنكر والإعلان بالمعاصي ، ودلّ قوله : « ثم بعثوا على أعمالهم » أن ذلك الهلاك العام يكون طهرةً للمؤمنين ونقمةً للفاسقين وقد تقدّم [هذا في أول كتاب الفتن] (١) .

* * *

باب : قول النبي ﷺ للحسن بن علي إن ابني هذا سيد ولعل الله أن يصلح به بين فئتين من المسلمين

فيه : إسرائيل : « أنه جاء إلى ابن شبرمة فقال : أدخلني على عيسى أعظه. فكأن ابن شبرمة خاف عليه فلم يفعل . قال : حدثنا الحسن قال : لما سار الحسن بن علي إلى معاوية بالكتائب قال عمرو بن العاص لمعاوية: أرى كتيبةً لا تولي حتى تدبر أخراها . قال معاوية : من لذراري المسلمين ؟ فقال : أنا . فقال عبد الله بن عامر وعبد الرحمن بن سمرة : [نلقاه فنقول] (٢) له : الصلح . قال الحسن : ولقد سمعت أبا بكرة يقول: بينا النبي يخطب جاء الحسن فقال : إن ابني هذا سيد ، ولعل الله أن يصلح به بين فئتين من المسلمين » .

وفيه : حرملة مولى أسامة قال : « أرسلني أسامة إلى علي بن أبي

---

(١) من « هـ » .

(٢) في « الأصل » : تلقياه فتقولا . وفي « هـ »: تلقاه فتقولا . والمثبت من « ن » .

طالب وقال : إنه [سيسألك] [(١)] الآن فيقول : ما خلف صاحبك ؟ [فقل] [(٢)] له : يقول لك : لو كنت في شدق الأسد لأحببت أن أكون معك فيه ، ولكن هذا أمر لم أره [فلم] [(٣)] يعطني شيئًا ، فذهبت إلى حسن وحسين وابن جعفر (فأوقروا) [(٤)] إلى راحلتي » .

قال المؤلف : فيه فضل السعي بين المسلمين في حسم الفتن والإصلاح بينهم وأن ذلك مما تستحق به السيادة والشرف ، وقول معاوية : « من لذراري » يدل على أنه كره الحرب وخشي سوء عاقبة الفتنة ؛ ولذلك بعث عبد الله بن عامر وعبد الرحمن بن سمرة إلى [الحسن] [(٥)] بن علي يسأله الصلح ، فأجابه الحسن بن علي رغبةً فيه وحقنًا لدماء المسلمين وحرصًا على رفع الفتنة ، وقد تقدم في الصلح .

وأما قول إسرائيل لابن شبرمة [أدخلني على عيسى أعظه يعني : عيسى ابن موسى، فخاف عليه ابن شبرمة من ذلك ، فدل أن مذهب ابن شبرمة][(٦)] أن من خاف على نفسه لا يلزمه الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر .

وأما حديث أسامة فإنه أرسل مولاه إلى علي بن أبي طالب يعرفه أنه من أحبّ الناس إليه وأنه يحب مشاركته في السراء والضراء ، ويعتذر إليه من تخلفه عن الحرب [معه] [(٦)] ، وأنه لا يرى ذلك لما روي عنه: «أن النبي - عليه السلام - لما بعثه إلى الحرقة أدرك رجلا بالسيف فقال له الرجل : لا إله إلا الله ، فقتله فأخبر النبي بذلك ، فقال له : يا أسامة قتلته بعدما قال : لا إله إلا الله . فقال : يا رسول الله إنما قالها تعوّذًا .

---

(١) في « الأصل » : يسألك . والمثبت من « هـ ، ن » .
(٢) في « الأصل » : فقال . والمثبت من « هـ ، ن » .
(٣) من « ن » . (٤) في « الأصل » : فأقروا . والمثبت من « هـ » .
(٥) في « الأصل » : الحسين . والمثبت من « هـ » .
(٦) من « هـ » .

فقال رسول الله : أقتلته بعدما قال : لا إله إلا الله ؟ فما زال يكررها حتى تمنيت (أن) [1] لم أكن أسلمت قبل ذلك اليوم » فآلى أسامة على نفسه أن لا يقاتل مسلمًا أبدًا ، فلذلك قعد عن عليّ - رضي الله عنه - في الجمل وصفين .

* * *

باب : إذا قال عند قوم شيئًا ثم خرج فقال بخلافه

فيه : نافع : « لما خلع أهل المدينة يزيد بن معاوية جمع ابن عمر حشمه وولده ، فقال : إني سمعت النبي - عليه السلام - يقول : ينصب لكل غادر لواء يوم القيامة ، وإنا قد بايعنا هذا الرجل على بيع الله ورسوله ، وإني لا أعلم غدرًا أعظم من أن يبايع [رجل] [2] على بيع الله ورسوله، ثم ينصب له القتال ، وإني لا أعلم أحدًا منكم خلعه ولا تابع في هذا الأمر إلا كانت الفيصل بيني وبينه » .

وفيه [أبو] [3] المنهال : « لما كان ابن زياد ومروان بالشام ، ووثب ابن الزبير بمكة ووثب القراء بالبصرة ، فانطلقت مع أبي إلى أبي برزة الأسلمي حتى دخلنا عليه في داره جالسًا في ظل عليّة فأنشأ أبي يستطعمه الحديث . فقال : يا أبا برزة ألا ترى ما وقع فيه الناس ؟ فأول شيء سمعته تكلم به : إني أحتسب عند الله أني أصبحت ساخطًا على أحياء قريش، إنكم يا معشر العرب كنتم على الحال التي قد علمتم من القلة والذلة والضلالة ، وإن الله / أنقذكم بالإسلام وبمحمد حتى بلغ بكم ما ترون ، [٤/ق١٦٠-أ] وهذه الدنيا التي أفسدت بينكم ، إن ذلك الذي بالشام ، والله إن

---

(١) في « هـ » : أني .

(٢) في « الأصل ، هـ » : رجلا . والمثبت من « ن » .

(٣) من « هـ ، ن » .

يقاتل إلا على الدنيا ، وإن ذلك الذي بمكة والله إن يقاتل إلا على الدنيا، وإن هؤلاء الذين بين أظهركم والله إن يقاتلون إلا على الدنيا».

وفيه : حذيفة قال : « إن المنافقين اليوم شر منهم على عهد النبي -عليه السلام- كانوا يومئذ يسرون ، واليوم يجهرون » .

وقال مرةً : « إنما كان النفاق على عهد رسول الله ، وإنما اليوم فإنما هو الكفر بعد الإيمان » .

قال المؤلف : معنى الترجمة إنما هو في خلع أهل المدينة يزيد بن معاوية ورجوعهم عن بيعته وما قالوا له ، وقالوا بغير حضرته [خلاف][1] ما قالوا بحضرته ، وذلك أن ابن عمر بايع يزيد بن معاوية فقال عنده بالطاعة لخلافته ، ثم خشي على بنيه وحشمه النكث مع أهل المدينة حين نكثوا بيعة يزيد، فجمعهم ووعظهم وأخبرهم أن النكث أعظم الغدر .

وأما قول أبي برزة : « إني أحتسبُ عند الله أني أصبحت ساخطًا على أحياء قريش » فوجه موافقته الترجمة أن هذا [قول] [2] لم يقله عند مروان حين بايعه بل بايع واتبع ، ثم سخط ذلك لما بعد عنه ، وكأنه أراد منه أن يترك ما نوزع فيه للآخرة ولا يقاتل عليه كما فعل عثمان فلم يقاتل من نازعه ، بل ترك ذلك لمن قاتله عليه ، وكما فعل الحسن بن علي حين [ترك] [3] القتال لمعاوية حين نازعه أمر الخلافة فسخط أبو برزة من مروان [تمسكه] [4] بالخلافة والقتال عليها ، فقد تبين أن قوله لأبي المنهال وابنه بخلاف ما قال لمروان حين بايع له ، وأما يمينه أن الذي بالشام إن يقاتل إلا على الدنيا ، فوجهه أنه كان يريد أن يأخذ بسيرة عثمان و[الحسن] [5] رضي الله عنهما ، وأمّا يمينه على الذي بمكة - يعني ابن الزبير - فإنه لما وثب بمكة بعد أن دخل فيما دخل فيه

---

(١) من « هـ » . (٢) في « الأصل » : قولا . والمثبت من « هـ » .
(٣) في « الأصل » : تارك . والمثبت من « هـ » .
(٤) في « الأصل » : تمسكه . والمثبت من « هـ » .
(٥) في « الأصل » : والحسين . والمثبت من « هـ »

المسلمون جعله نكثًا منه وحرصًا على الدنيا ، وهو في هذه أقوى رأيًا منه في الأولى ، وكذلك القراء بالبصرة ؛ لأنه كان رحمه الله لا يرى الفتنة في الإسلام أصلا ، فكان يرى أن يترك صاحب الحق حقه لمن نازعه فيه لأنه مأجور في ذلك ، وممدوح بالإيثار على نفسه ، وكان يريد من المقاتل له أن لا يقتحم النار في قيامه وتفريقه الجماعة وتشتيته الكلمة ، ولا يكون سببًا لسفك الدماء واستباحة الحرم أخذًا بقوله عليه السلام : « إذا التقى المسلمان بسيفيهما فالقاتل والمقتول في النار » فلم ير القتال البتة .

وأما حديث حذيفة وقوله : « إن المنافقين اليوم شر منهم على عهد النبي ﷺ » لأنهم كانوا يسرون قولهم فلا يتعدّى شرهم إلى غيرهم ، وأما اليوم فإنهم يجهرون بالنفاق ويعلنون بالخروج على الجماعة ويورثون بينهم ويحزبونهم أحزابًا ، فهم اليوم شر منهم حين لا يضرون بما يسرونه .

ووجه موافقته للترجمة أن المنافقين بالجهر وإشهار السلاح على الناس هو القول بخلاف ما قالوه حين دخلوا في بيعة من بايعوه من الأئمة ؛ لأنه لا يجوز أن يتخلف عن [بيعة من] [1] بايعه [الجماعة] [2] ساعة من الدهر ؛ لأنها ساعة جاهليّة ، ولا جاهليّة في الإسلام ، وقد قال تعالى : ﴿ **واعتصموا بحبل الله جميعًا ولا تفرقوا** ﴾ [3] . فالتفرق محرّم في الإسلام وهو الخروج عن طاعة الأئمة . وأما قول أبي برزة [واحتسابه] [4] سخطه على أحياء قريش عند الله ، فكأنه قال : اللهم إني لا أرضى ما تصنع قريش من التقاتل على الخلافة ، فاعلم ذلك من نيتي، وأني أسخط فعلهم واستباحتهم للدماء

---

(١) من « هـ » . (٢) في « الأصل » : من الجماعة . والمثبت من «هـ ».
(٣) آل عمران : ١٠٣ . (٤) في « الأصل »: وأحتسب أنه. والمثبت من «هـ ».

والأموال ، فأراد أن يحتسب (مما يكرهه) [1] من إنكار القتال في الإسلام عند الله أجرًا وذخرًا ، فإنه لم يقدر من التغيير عليهم إلا بالقول والنية التي بها يأجرُ الله عباده .

* * *

باب : لا تقوم الساعة حتى يغبط أهل القبور

فيه : أبو هريرة : قال النبي - عليه السلام - : « لا تقوم الساعة حتى يمر الرجل بقبر الرجل فيقول : يا ليتني مكانه » .

قال المؤلف : تغبيط أهل القبور وتمني الموت عند ظهور الفتن إنما هو خوف ذهاب الدين لغلبة الباطل وأهله وظهور المعاصي والمنكر .

وروى ابن المبارك عن سعيد بن عبد العزيز ، عن [ابن] [2] عبدربه [أن أبا] [3] الدرداء كان إذا جاءه موت الرجل على الحال الصالحة قال : هنيئًا له ليتني بدله ، فقالت له أم الدرداء : لم تقول هذا ؟ / فقال : إن الرجل ليصبح مؤمنًا ويمسي كافرًا ، قالت : وكيف؟ قال : يسلب إيمانه وهو لا يشعر ، فلأنا أغبط لهذا بالموت أغبط من هذا في الصوم والصلاة . [٤/ق-١٦٠-ب]

وقد روي عن النعمان بن بشير ، عن النبي - عليه السلام - : إن بين يدي الساعة فتنًا كقطع الليل المظلم يصبح الرجل [فيها] [4] مؤمنًا ويمسي كافرًا ، ويمسي مؤمنًا ويصبح كافرًا ، يبيع فيها أقوام دينهم (بعرض) [5] من الدنيا يسير » .

ومن حديث الحسن عن النبي - عليه السلام - قال : « بين يدي الساعة فتن يموت فيها قلب الرجل كما يموت بدنه » .

وعن ابن مسعود قال : سيأتي عليكم زمان لو وجد فيه أحدكم

---

(١) في « هـ » : ما يعتقده .
(٢) في « الأصل » : أبي . والمثبت من « هـ » .
(٣) من « هـ » .
(٤) في « الأصل » : فيه . والمثبت من « هـ » .
(٥) في « هـ » : بعوض .

الموت يباع لاشتراه ، وسيأتي عليكم زمان يغبط فيه الرجل بخفة الحاذ كما يغبط فيه بكثرة المال والولد .

وأما من لم يخف فساد دينه وذهاب إيمانه فلا يتمنى الموت ذلك الزمان لمشابهته بأهله وحرصه فيما دخلوا فيه ، بل ذلك وقت يسود فيه أهل الباطل ، ويعلو فيه سفلة الناس ورذالتهم [ويسعد] [1] بالدنيا لكع بن لكع .

* * *

باب : [تغير الزمان] [2] حتى تعبد الأوثان

فيه : أبو هريرة قال : قال النبي - عليه السلام - : « لا تقوم الساعة حتى تضطرب أليات نساء دوس على ذي الخلصة » وذو الخلصة طاغية دوس [التي][3] كانوا يعبدون في الجاهلية .

وفيه : أبو هريرة : قال النبي - عليه السلام - : « لا تقوم الساعة حتى يخرج رجل من قحطان يسوق الناس بعصاه » .

قال المؤلف : ذكر مسلم في كتابه ما يبين حديث أبي هريرة قال : حدثنا أبو كامل الجحدري قال : حدثنا خالد بن الحارث ، حدثنا عبدالحميد بن جعفر ، عن الأسود بن العلاء ، عن أبي سلمة ، عن عائشة قالت : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « لا يذهب الليل والنهار حتى تعبد اللات والعزى فقلت : يا رسول الله إن كنت لأظن حين أنزل الله : ﴿ **هو الذي أرسل رسوله بالهدى** ﴾ **إلى** ﴿**المشركون**﴾[4] أن ذلك تام قال : إنه سيكون من ذلك ما شاء

---

(١) في « الأصل » : ويستعبد . والمثبت من « هـ » .
(٢) في « الأصل » : لا تقوم الساعة . والمثبت من « هـ » .
(٣) في « الأصل » : الذي . والمثبت من « هـ ، ن » . (٤) الفتح : ٢٨ .

الله ، ثم يبعث الله ريحًا طيبةً [فيتوفى] [1] كل من في قلبه مثقال حبة من خردل من إيمان ، فيبقى من لا خير فيه [فيرجعون] [2] إلى دين آبائهم».

قال المؤلف : هذه الأحاديث وما جانسها [معناها] [3] الخصوص، وليس المراد بها أن الدين ينقطع كله في جميع أقطار الأرض حتى لا يبقى منه شيء ؛ لأنه قد ثبت عن النبي ﷺ أن الإسلام يبقى إلى قيام الساعة إلا أنه يضعف ويعود غريبًا كما بدأ ، وروى حماد بن سلمة ، عن قتادة ، عن مطرف ، عن عمران بن حصين قال : قال النبي -عليه السلام- : « لا تزال طائفة من أمتي يقاتلون على الحق ظاهرين حتى يقاتل آخرهم المسيح الدجال » وكان مطرف يقول : هم أهل الشام ، فبين عليه السلام في هذا الخبر خصوصه [سائر] [4] الأخبار التي خرجت مخرج العموم ، وصفة الطائفة التي على الحق مقيمة إلى قيام الساعة أنها بيت المقدس دون سائر البقاع ، فبهذا تأتلف الأخبار ولا تتعارض ، وقد تقدم في كتاب العلم [في باب من يرد الله به خيرًا يفقهه في الدين] [5] .

فإن قال قائل : فما وجه ذكر حديث القحطاني الذي يسوق الناس بعصاه في هذا الباب ؟

قال المهلب : وجه ذلك أنه إذا قام رجل من قطحان ليس من [فخذ] [6] النبوة ولا من رهط الشرف الذين جعل الله فيهم الخلافة فذلك من أكبر تغير الزمان وتبديل (أحكام) [7] الإسلام أن يدعي الخلافة ، وأن يطاع في الدين من ليس أهل ذلك .

(١) في « الأصل » : فتوفى . والمثبت من « هـ » .
(٢) في « الأصل » : فيرجعوا . والمثبت من « هـ » .
(٣) في « الأصل » : معناه . والمثبت من « هـ » .
(٤) في « الأصل » : بسائر . والمثبت من « هـ » . (٥) من « هـ » .
(٦) في « الأصل » : قحط . والمثبت من « هـ » . (٧) في « هـ » : أحوال .

باب : خروج النار

وقال أنس : قال النبي - عليه السلام - : « أول أشراط الساعة نار تحشر الناس من المشرق إلى المغرب » .

فيه : أبو هريرة : قال النبي - عليه السلام - : « لا تقوم الساعة حتى تخرج نار [من أرض] (١) الحجاز تضيء أعناق الإبل ببصرى ».

وفيه : أبو هريرة : قال النبي - عليه السلام - : « يوشك الفرات أن يحسر عن كنز من ذهب [فمن حضره] (٢) فلا [يأخذ منه شيئًا] »(٣).
وقال مرة : « جبل من ذهب » .

وفيه : حارثة بن وهب قال النبي - عليه السلام - : « تصدقوا فسيأتي زمان يمشي الرجل بصدقته فلا يجد من يقبلها » .

وفيه : أبو هريرة قال : « لا تقوم الساعة حتى تقتتل فئتان عظيمتان يكون بينهما مقتلة عظيمة دعواهما واحدة [وحتى] (٤) يبعث دجالون كذابون قريب من ثلاثين كلهم يزعم أنه / رسول [الله] (١) وحتى [٤/ق١٦١-أ] يقبض العلم ، وتكثر الزلازل ، ويتقارب الزمان ، ويكثر الهرج ، وهو القتل ، وحتى يكثر فيكم المال فيفيض حتى يُهم رب المال من يقبل صدقته ، ويقول الذي يعرضها عليه لا أرب لي فيه ، وحتى يتطاول الناس في البنيان وحتى يمر الرجل بقبر الرجل فيقول : يا ليتني مكانه ، وحتى تطلع الشمس من مغربها ، فإذا طلعت ورآها الناس أجمعون فذلك حين لا ينفع نفسًا إيمانها لم تكن آمنت من قبل [أو كسبت في إيمانها خيرًا](١) ولتقومن الساعة وقد نشر الرجلان ثوبهما بينهما فلا يتبايعانه ولا يطويانه ، ولتقومن الساعة وقد انصرف الرجل بلبن لقحته فلا يطعمه ، ولتقومن الساعة وهو يليط حوضه فلا يسقي فيه ، ولتقومن الساعة وقد رفع أكلته إلى فيه فلا يطعمها » .

---

(١) في « الأصل » : بأرض . والمثبت من « هـ ، ن » . (٢) من « ن » .
(٣) في « الأصل » : يؤخذ منه شيء . والمثبت من « هـ ، ن » .
(٤) في « الأصل » : حين . والمثبت من « هـ ، ن » .

قال المؤلف : ترجم البخاري في باب خروج [النار] (١) ولم يسنده في (هذه المواضع) (٢) اكتفاء بما تقدم من إسناده في كتاب الأنبياء ، رواه عن ابن سلام ، عن الفزاري ، عن حميد ، عن أنس عن النبي - عليه السلام - ، وروى حسين المروزي ، عن عبدالوهاب حدثنا عبيد بن عمر ، عن نافع ، عن عبد الله بن عمر ، عن كعب قال : تخرج نار من قبل اليمن تحشر الناس تغدو معهم إذا غدوا ، وتقيل معهم إذا قالوا ، وتروح معهم إذا راحوا ، فإذا سمعتم بها فاخرجوا إلى الشام » .

وكل ما ذكرناه في هذا الحديث من الأشراط فهي علامات لقيام الساعة كخروج النار ومعناها واحد ، وقد جاء في حديث أن النار آخر أشراط الساعة ، رواه ابن عيينة ، عن فرات القزاز ، عن أبي الطفيل، عن أبي سريحة حذيفة بن أسيد قال : « أشرف علينا النبي - عليه السلام - من غرفة فقال : ما تذكرون ؟ قلنا : نتذاكر الساعة قال : إنها لا تقوم حتى يكون قبلها عشر آيات : الدجال والدخان ، والدابة وطلوع الشمس من مغربها ، ويأجوج ومأجوج ونزول عيسى بن مريم، وثلاثة خسوف: خسف بالمشرق وخسف بالمغرب وخسف بجزيرة العرب ، وآخر ذلك نار تخرج من اليمن تطرد الناس إلى محشرهم».

وذكر ابن أبي شيبة حدثنا محمد بن [بشر] (٣) عن أبي حيان ، عن أبي زرعة ، عن عبد الله بن عمرو قال النبي ﷺ : إن أول الآيات

(١) من « هـ » .
(٢) في « هـ » : هذا الموضع .
(٣) في « الأصل » : بشير . والمثبت من « هـ » وهو الصواب ، انظر صحيح مسلم (٤/ ٢٢٦٠ رقم ٢٩٤١) .

خروجًا طلوع الشمس من مغربها وخروج الدابة على الناس ضُحى ، وأيهما كانت قبل صاحبتها فالأخرى على إثرها قريبًا منها .

وحديث أنس أصح من هذه الأحاديث ، وقد روى حماد بن سلمة عن أبي المهزم يزيد بن سفيان ، عن أبي هريرة قال : « خروج الآيات كلها في ثمانية أشهر » أبو المهزم ضعيف ، وقال أبو العالية : الأيات كلها في ستة أشهر .

وقوله : « تضيء أعناق الإبل ببصرى » فالعرب تقول : أضاءت النار وأضاءت النار غيرها .

* * *

باب : ذكر الدجال

فيه : المغيرة قال : « ما سأل النبي - عليه السلام - أحد عن الدجال ما سألته ، وإنه قال لي: ما يضرك منه ؟ قلت : إنهم يقولون : إن معه جبل خبز ونهر ماء قال : هو أهون على الله من ذلك » .

وفيه : ابن عمر قال : « أعور عين اليمنى كأنها عنبة طافية » .

وفيه : أنس قال : قال النبي - عليه السلام - : « يجيء الدجال حتى ينزل في ناحية المدينة فترجف ثلاث رجفات فيخرج إليه كل كافر ومنافق » .

وفيه : أبو بكرة : قال النبي - عليه السلام - : « لا يدخل المدينة رعب المسيح ، لها يومئذ [سبعة] [1] أبواب ، لكل باب ملكان » .

وفيه : ابن عمر : « قام النبي - عليه السلام - في الناس فأثنى على الله

---

(١) من « هـ ، ن » .

بما هو أهله ثم ذكر الدجال فقال : إني لأنذركموه وما من نبي إلا وقد أنذر قومه ، ولكن سأقول لكم فيه قولا لم يقله نبي لقومه : إنه أعور ، وإن الله ليس بأعور » .

وزاد ابن عباس وأنس وأبو هريرة عن النبي - عليه السلام - : «بين عينيه مكتوب كافر » .

وفيه : ابن عمر قال النبي - عليه السلام - : « بينا أنا نائم أطوف بالكعبة إذا رجل آدم سبط الشعر ينطف أو يهراق رأسه ماءً ؛ فقلت : من هذا ؟ قالوا : ابن مريم ، ثم ذهبت ألتفت فإذا رجل جسيم أحمر جعد الرأس أعور العين كأن عينه عنبة طافية قالوا : هذا الدجال ، أقرب الناس به شبهًا ابن قطن رجل من خزاعة » .

وفيه : عائشة : « سمعت النبي ﷺ يستعيذ في صلاته من فتنة الدجال» .

وفيه : حذيفة وأبو مسعود : أن النبي - عليه السلام - قال : « الدجال معه ماء ونار ، فناره ماء بارد ، وماؤه نار » .

إن قال قائل : ما معنى قوله عليه السلام : « ترجف المدينة ثلاث رجفات » وقد قال في حديث أبي بكرة : « إنه لا يدخل المدينة رعب المسيح » ؟

[٤/ق١٦١-ب] قال المهلب : فالجواب / أن رجفات المدينة ليست من رعبه ولا من خوفه ، وإنما ترجف المدينة لمن يتشوف إلى الدجال من المنافقين فيخرجهم أهل المدينة كما قال عليه السلام : « إنها تنفي خبثها » .

والدليل على أن المؤمنين فيها لا يرعبون من الدجال ؛ أنه يخرج إليه

منهم [رجل] [1] يناظره وهو الذي يقول له الدجال : أرأيت إن قتلت هذا ثم أحييته أتشكون في الأمر ؟ فيقولون : لا . يعني فيقول المنافقون الذين معه غير ذلك الرجل الصالح فيقتله ثم يحييه ، فيقول ذلك الرجل : والله ما كنت قط أشد بصيرة مني اليوم ، فيريد الدجال أن يقتله فلا يسلط عليه ، فهل يدخل رعبه المدينة وأحدهم يناظره ويقارعه ويجهر له بأنه الدجال ، ولا يوهن قلبه ما يراه من قدرة الله [الذي] [2] أقدره على أن يقتل رجلا ثم يحييه ولا (يخافه) [3] على مهجته وهو وحده لا يمتنع منه بعدد ولا عدة ولا جماعة .

فإن قال قائل : فإذا سلط الدجال على قتل رجل وإحيائه فهذا أن الله قد يعطي آيات الأنبياء وقلب الأعيان أهل الكذب على الله وأشد أعدائه فرية عليه .

قال الطبري : فنقول : إنه لا يجوز أن تعطى أعلام الرسل أهل الكذب والإفك في الحال التي لا سبيل لمن عاين ما أتى به الفريقان إلى الفصل بين المحق منهم والمبطل ، فأما إذا كان لمن عاين ذلك السبيل إلى علم الصادق ممن ظهر ذلك على يده من الكاذب ، فلا ينكر إعطاء الله ذلك الكذابين لعلة من العلل كالذي أعطى الدجال من ذلك فتنة لمن شاهده، ومحنة لمن عاينه ليعلم الله الذين صدقوا ويعلم الكاذبين.

فإن قيل : وما السبب الذي يصيب به من عاين ما يظهر من ذلك على يد الدجال أنه مبطل ؟

قيل : [أبين] [4] الأسباب في ذلك أنه ذو أجزاء مؤلفة ، وتأليفه

---

(١) من « هـ » .
(٢) في « الأصل » : التي . والمثبت من « هـ » .
(٣) في « هـ » : يخاف .
(٤) في « الأصل » : أبني . والمثبت من « هـ » .

عليه بكذبه شاهد ، وأن تأثير الصنعة فيه لمن ركب اعضاءه خلق ذليل وعبد مهين ، مع آفة به لازمة من عور إحدى عينيه ، يدعو الناس إلى الإقرار بأنه ربهم الذي خلقهم ، فأسوأ حالات من يراه من ذوي العقول أن يعلم أنه لم يكن ليسوي خلق غيره ويعدله ويحسنه ، وهو على دفع العاهات عن نفسه غير قادر .

فأقل ما يجب أن يقول له من يدعوه إلى الإقرار له بالألوهية : إنك تزعم أنك خالق السموات والأرض وما فيهما وأنت أعور ناقص الصورة ، فصور نفسك وعدلها على صورة من أنت في صورته إن كنت محقًا في ذلك ، فإن زعمت أن الرب لا يحدث في نفسه شيئاً فإنك راكب من الخطايا أرذلها ، فتحول من الجماد إلى أشرف [منه][1] وأزل ما هو مكتوب بين عينيك من الكتاب الشاهد على كذبك .

قال المهلب : وأما قوله في حديث المغيرة : « إنهم يقولون أن معه جبل خبز ونهر ماءٍ . قال عليه السلام : هو أهون على الله من ذلك » . يريد - والله أعلم - هو أهون من أن يفتن الناس به فيملكه معايش أرزاقهم وحياة أرماقهم ، فتعظم بذلك فتنتهم ، بل تبقى عليه ذلة العبودية بتحويجه إلى معالجة المعاش ، وقد ملكه ما لا يضر به إلا من قضى الله له بالشقاء في أم الكتاب ، وإنما يوهم الناس أن هذه نار يشير إليها ليخافه من لا بصيرة له في دين الله فيتبعه مخافتها على نفسه، ولو أنعم النظر لرأى أنها ماء بارد وكذلك لما توهن به وهو ماء لمن لا بصيرة له ولا عنده علم بما قدمه الرسول من العلم لأمته بأن ناره ماء ، وماءه نار ، ومن أعطي فتنته ثم جعل له على تلك الفتنة علم بطلانها ومحالها لم تكن فتنة شاملة ، ولا يفتتن

---

(١) في « الأصل » : منها . والمثبت من « هـ » .

بها إلا [الأول] [1] لافتضاحها بأول من يلقى فيها فيجدها بخلاف ما أوهم فيها ، ولولا انتقاله من بلد إلى بلد لأمنت تلك الفتنة إلا على الأول ، لكنه يرد كل يوم بلدة لا يعرف أهلها ما افتضح من أمره في غيرها فيظل يفتن ، ويعصم الله العلماء منه ، ومن علم علامة الرسول وثبته الله واستدل بأن من كان ذا عاهةٍ لا يكون إلهًا ، فقد بان أنه أهون على الله من أن يمكنه من المعجزات تمكينًا صحيحًا ، لأن إقداره على قتل الرجل وإحيائه لم يستمر له في غيره ولا استضر به المقتول إلا ساعة ألمه ، وقد لا يجد لقتله ألمًا لقدرة الله على دفع ألمه عنه ، فإن آلمه آجره بذلك في الآخرة ، وإن لم يؤلمه فقد [أدام] [2] له الحياة بإحيائه ، ثم لا يسلط على قتل أحد ولا إحيائه .

وذكر علي بن معبد عن عبد الله بن عمر ، وعن زيد بن أبي أنيسة ، عن أشعث ابن أبي الشعثاء عن أبيه ، عن ابن مسعود قال : إن الدجال يرحل في الأرض أربعين ليلة ، وعن أبي مجلز [قال : إذا][3] / خرج الدجال فالناس ثلاث فرق : فرقة تقاتله ، وفرقة تفر منه ، وفرقة تشايعه ، فمن تحرز منه في رأس [جبل] [4] أربعين ليلة أتاه رزقه ، وأكثر من يشايعه أصحاب العيال يقولون : إنا لنعرف ضلالته ، ولكن لا نستطيع ترك عيالنا ، فمن فعل ذلك كان منه . [٤/ق١٦٢-أ]

وذكر الطبري بإسناده عن أبي أمامة الباهلي ، عن النبي ﷺ أنه حدثهم عن الدجال : « أنه يخرج بين الشام والعراق فيقول أنه نبي ، ثم يثنّي فيقول : أنا ربكم وإنه يأتي بجنة ونار ، فناره جنة وجنته نار .

(١) في « الأصل » : الأقل . والمثبت من « هـ » .
(٢) في « الأصل » : أجاز . والمثبت من « هـ » .
(٣) في « الأصل » : مكررة .
(٤) في « الأصل » : جبال . والمثبت من « هـ » .

[فمن] [1] ابتلي بناره فليستعن بالله ، فإنها تكون عليه بردًا [وسلامًا ومن ابتلي به فليقرأ عليه فواتح سورة الكهف] [2] وليتفل في وجهه ، فإنه لا يعدو ذلك ، ويقتل رجلاً ثم يحييه وليس يحيي أحدًا بعده ، وإن له أربعين يومًا يوم كالسنة ويوم كالشهر ويوم كجمعة ويوم كسائر الأيام، ويعدو الرجل من باب المدينة فلا يبلغ بابها الآخر حتى تغيب الشمس » .

وروى الطبري بإسناده عن قتادة ، عن شهر بن حوشب ، عن أسماء بنت يزيد أن النبي - عليه السلام - ذكر عندها الدجال فقال : « إن قبل خروجه ثلاثة أعوام تمسك السماء ثلث قطرها والأرض ثلث نباتها ، والعام الثاني تمسك السماء ثلثي قطرها والأرض ثلثي نباتها ، والعام الثالث تمسك السماء قطرها والأرض نباتها حتى لا يبقى ذات ضرس ولا ذات ظلف إلا مات ، ومن أعظم فتنته أنه يأتي الرجل فيقول له : إن أحييت لك أباك أو أخاك أو عمك تعلم أني ربك ؟ فيقول : نعم . فيمثل له شياطين [عنده] [3] .

ويأتي الأعرابي فيقول : إن أحييت لك إبلك عظامًا ضروعها ، طوالاً أسنمتها ؛ تعلم أني ربك ؟ فيقول : نعم . فيمثل له شياطين عنده . فبكى القوم فقال النبي ﷺ : إن يخرج فيكم فأنا حجيجه ، وإلا فالله خليفتي على كل مؤمن . قالت أسماء : ما يكفي المؤمن يومئذ من الطعام [يا رسول الله] [2] ؟ قال : يكفيه ما يكفي أهل السماء التسبيح والتقديس » .

وذكر ابن أبي شيبة بإسناده عن عائشة أن النبي - عليه السلام - قال: « يخرج مع الدجال يهود أصبهان فيقتله عيسى بن مريم بباب لد، ثم يمكث عيسى في الأرض أربعين سنة أو قريبًا منها إمامًا عدلاً وحكمًا مقسطًا».

قال الخطابي : قال ثعلب : الطافية : العنبة التي قد خرجت عن

---

(١) في « الأصل » : من . والمثبت من هـ . (٢) من « هـ » .
(٣) في « الأصل » : غيره . والمثبت من هـ .

حد بنية أخواتها فعلت ونتأت وظهرت ، يقال : طفا الشيء إذا علا وظهر ، ومنه الطافي من السمك .

* * *

باب : لا يدخل الدجال المدينة

فيه : أبو سعيد (حدثني) [(١)] النبي - عليه السلام - عن الدجال فقال : يأتي ، وهو محرم عليه أن يدخل نقاب المدينة [فينزل] [(٢)] بعض السباخ التي تلي المدينة فيخرج إليه يومئذ رجل وهو خير الناس أو من خيار الناس فيقول : أشهد أنك الدجال الذي حدثنا رسول الله حديثه . فيقول الدجال : أرأيتم إن قتلت هذا ثم أحييته هل تشكون في الأمر ؟ فيقولون : لا . فيقتله ثم يحييه . فيقول : والله ما كنت فيك قط أشد بصيرة مني اليوم ، فيريد الدجال أن يقتله فلا يسلط عليه » .

وفيه : أبو هريرة : قال النبي ﷺ : « على أنقاب المدينة ملائكة ، لا يدخلها الطاعون ولا الدجال » .

قال المؤلف : قد تقدم الكلام في حديث أبي سعيد وأبي هريرة ، وفيه فضل المدينة وأنها خصت بهذه الفضيلة والله أعلم لبركة النبي -عليه السلام - ودعائه لها ، وقد أراد الصحابة أن يرجعوا إلى المدينة حين وقع الوباء بالشام ثقةً منهم بقول رسول الله الذي أمنهم دخول الطاعون بلده ، وكذلك توقن أن الدجال لا يستطيع دخولها البتة ، وفي ذلك من الفقه أن الله - تعالى - يوكل ملائكته بحفظ بني آدم من الآفات والفتن والعدو إذا أراد حفظهم [وقد] [(٣)] وصف الله -تعالى-

---

(١) في « هـ ، ن » : حدثنا .

(٢) من « ن » .

(٣) من « هـ » .

ذلك في قوله : ﴿ **له معقبات من بين يديه** ﴾ [١] يعني بأمر الله لهم بحفظه .

وروى علي بن معبد قال : ثنا بشر بن بكر ، عن الأوزاعي ، عن إسحاق بن عبد الله ، عن أنس بن مالك قال : قال رسول الله ﷺ : « ليس من بلد إلا سيطؤه الدجال إلا مكة والمدينة ليس من نقب من أنقابها إلا عليه الملائكة صافين يحرسونها ، فينزل بالسبخة فترجف المدينة ثلاث رجفات يخرج إليه كل منافق » .

والأنقاب : الطرق ، واحدها نقب ، ومنه قوله تعالى : ﴿ **فنقبوا في البلاد** ﴾ [٢] أي جعلوا فيها طرقًا ومسالك ، وقال صاحب العين : النَّقب / والنُّقب والمنقبة : الطريق في رأس الجبل . [٤/ق١٦٢-ب]

* * *

باب : يأجوج ومأجوج

فيه : زينب بنت جحش : « أن النبي – عليه السلام – دخل عليها يومًا فزعًا يقول :لا إله إلا الله ، ويل للعرب من شر قد اقترب ؛ فتح اليوم من ردم يأجوج ومأجوج مثل هذه – وحلق بأصبعيه الإبهام والتي تليها – قالت زينب بنت جحش قلت : يا رسول الله (أنهلك) [٣] وفينا الصالحون ؟ قال : نعم إذا كثر الخبث » .

وفيه : أبو هريرة قال النبي – عليه السلام – : « يفتح الردم ردم يأجوج ومأجوج مثل هذه – وعقد تسعين » .

---

(١) الرعد : ١١ . (٢) ق : ٣٦ .

(٣) في « هـ ، ن » : أفنهلك .

قال المؤلف : ذكر يحيى بن سلام ، عن سعيد بن أبي عروبة ، عن قتادة ، عن أبي رافع ، عن أبي هريرة : أن رسول الله قال : «إن يأجوج ومأجوج يخرقون السد كل يوم حتى إذا كادوا يرون شعاع الشمس قال الذي عليهم : ارجعوا فتخرقونه غدًا فيعيده الله كأشد ما كان حتى إذا بلغت مدتهم وأراد الله أن يبعثهم على الناس حفروا ، حتى إذا كادوا يرون شعاع الشمس قال الذي عليهم : ارجعوا فستخرقونه غدًا إن شاء الله . فيغدون إليه وهو كهيئته حين تركوه فيخرقونه ، فيخرجون على الناس [فينشفون] (١) المياه ، ويتحصن الناس منهم في حصونهم فيرمون سهامهم فترجع إليهم والدماء فيها ، فيقولون قهرنا أهل الأرض وعلونا أهل السماء فيبعث الله عليهم نغفًا في أقفائهم فيقتلهم بها » .

وذكر علي بن معبد عن أشعث بن شعبة ، عن أرطاة بن المنذر قال: إذا خرج يأجوج ومأجوج أوحى الله إلى عيسى بن مريم : إني قد أخرجت خلقًا من خلقي لا يطيقهم [أحد] (٢) غيري ، فمر بمن معك إلى جبل الطور ومعه من الذراري اثنا عشر ألفًا . قال : ويأجوج ومأجوج ذرء جهنم ، وهم على ثلاثة أثلاث : ثلث على طول الأرز والسرس، وثلث مربع طوله وعرضه واحد وهم أشد ، وثلث يفترش أحدهم أذنه يلتحف بالأخرى وهم ولد يافث بن نوح .

وعن الأوزاعي عن ابن عباس قال : الأرض ستة أجزاء فخمسة أجزاء منها يأجوج ومأجوج ، وجزء فيه سائر الخلق .

وعن كعب الأحبار قال : معاقل المسلمين من يأجوج ومأجوج [الطور] (٣) .

---

(١) في « الأصل » : فيتبعون . والمثبت من « هـ » .
(٢) في « الأصل » : أحداً . والمثبت من « هـ » .
(٣) في « الأصل » : الطرق . والمثبت من « هـ » .

كتاب الدعاء [1]

باب : قول الله تعالى : ﴿ ادعوني أستجب لكم ﴾ [2]

وقول النبي – عليه السلام – : لكل نبي دعوة مستجابة

فيه : أبو هريرة قال : قال النبي ﷺ : « لكل نبي دعوة يدعو بها ، فأريد أن أختبئ دعوتي شفاعة لأمتي في الآخرة » .

وفيه : أنس قال : قال النبي – عليه السلام – : « كل نبي سأل سؤالاً – أو قال – لكل نبي دعوة قد دعا بها فاستجيبت ، فجعلت دعوتي شفاعةً لأمتي يوم القيامة » .

قال المؤلف : أمر الله – تعالى – عباده بالدعاء وضمن لهم الإجابة في قوله : ﴿ **ادعوني أستجب لكم** ﴾ [2] فإن قيل : فقد علمت تأويل من تأوّل قوله تعالى : ﴿ **ادعوني أستجب لكم** ﴾ [2] ادعوني بطاعتكم إياي وعبادتكم لي : أستجب لكم في الذي التمستم مني بعبادتكم إياي .

قال الطبري : فالجواب : أن من طاعة [العبد ربه] [3] دعاءه إياه ورغبته في حاجته إليه دون ما سواه ، والمخلص له العبادة المتضرع إليه في حاجته موقن أن قضاءها بيده متعرض لنجحها منه ، ومن عبادته إياه تضرعه إليه فيها ، وقد روى وكيع عن سفيان ، عن صالح مولى

---

(١) كذا في « الأصل ، هـ » وفي « ن » : الدعوات .

(٢) غافر : ٦٠ . (٣) في « الأصل » : العبودية . والمثبت من « هـ » .

التوءمة ، عن أبي هريرة قال : قال رسول الله : « من لم يدع الله غضب الله عليه » .

وروى شعبة ، عن منصور ، عن ذَرٍّ ، عن يُسَيْعٍ الحضرمي ، عن النعمان بن بشير عن النبي - عليه السلام - قال : « الدعاء هو العبادة» وقرأ : ﴿ **ادعوني أستجب لكم إن الذين يستكبرون عن عبادتي**﴾ (١) فسمى الدعاء عبادة، وروى الأوزاعي ، عن الزهري ، عن عروة ، عن عائشة ، عن النبي - عليه السلام - قال : « إن الله يحب الملحين في الدعاء » . فإن ظن ظان أن قول أبي الدرداء يكفي من الدعاء مع العمل ما يكفي الطعام من الملح . وقيل لسفيان : أدع الله ؟ فقال : إن ترك الذنوب هو الدعاء . مخالف لما جاء من فضل الإلحاح في الدعاء والأمر بالدعاء والضراعة إلى الله، فقد ظن خطئًا.

وذلك أن الذي جبلت عليه النفوس أن من طلب حاجةً ممن هو عليه ساخط لأمر تقدّم منه استوجب به سخطه أنه بالحرمان أولى ممن [٤/ق١٦٣-أ] / [هو عنه] (٢) راضٍ لطاعته له واجتنابه سخطه ، فإذا علم من عبده المطيع له حاجةً إليه كفاه اليسير من الدعاء . فإن قيل : هل من علامة يعلم بها إجابة الله العبد في دعائه ؟ قيل : قد جاء في ذلك غير شيء، منها ما روى شهر بن حوشب : « أن أمّ الدرداء قالت له : يا شهر [إن شفق المؤمن في قلبه كسعفة أحرقتها في النار ، ثم قالت : يا شهر] (٢) ألا تجد القشعريرة ؟ قلت : نعم . قالت : فادع الله فإن الدعاء يستجاب عند ذلك » .

وروى ابن وهب ، عن ابن لهيعة ، عن يزيد بن أبي حبيب ، عن أبي الخير « أنه سمع أبا رهم السماعي يقول : ما يشعر به عند الدعاء [و] (٢) العطاس » .

---

(١) غافر : ٦٠ . (٢) من « هـ » .

قال المؤلف : فإن قيل : ما معنى قوله عليه السلام : « لكل نبي دعوة مستجابة » . وقد قال الله تعالى للناس كافة : ﴿**ادعوني أستجب لكم**﴾ [1] فعم كل الدعاء ، وهذا وعد من الله لعباده وهو لا يخلف الميعاد ، وإنما خصّ كل نبي بدعوة واحدة مستجابة ، فأين فضل درجة النبوة ؟ قيل : ليس الأمر كما ظننت ، ولا يدل قوله تعالى : ﴿**ادعوني أستجب لكم**﴾ [1] على أن كل دعاء مستجاب لداعيه ، وقد قال قتادة : إنما يستجاب من الدعاء ما وافق القدر .

وليس قوله : « لكل نبي دعوة مستجابة » . مما يدل أنه لا يستجاب للأنبياء غير دعوة واحدة ، وقد ثبت عن النبي - عليه السلام - أنه أجيبت دعوته في المشركين حين دعا عليهم بسبع كسبع يوسف ، ودعا على صناديد قريش المعاندين له ، فقتلوا يوم بدر ، وغير ذلك مما يكثر إحصاؤه مما أجيب من دعائه ، بل لم يبلغنا أنه رُد من دعائه عليه السلام إلا سؤاله أن لا يجعل الله بأس أمته بينهم خاصةً ، لما سبق في أم الكتاب من كون ذلك ، قال تعالى : ﴿ **ولو شاء الله ما اقتتلوا ولكن الله يفعل ما يريد**﴾ [2] . ومعنى قوله : « لكل نبي دعوة مستجابة » . يريد أن لكل نبي عند الله من رفيع الدرجة وكرامة المنزلة أن جعل له أن يدعوه فيما أحبّ من الأمور ويبلغه أمنيته ، فيدعو في ذلك وهو عالم بإجابة الله له على ما ثبت عنه : « أن جبريل قال له : يا محمد ، إن أردت أن يحول الله لك جبال تهامة ذهبًا فعل » وخيَّره بين أن يكون نبيًا عبدًا وبين أن يكون نبيًا ملكًا ، فاختار الآخرة على الدنيا ، وليست هذه الدرجة لأحد من الناس ، وإنما [أمروا] [3] بالدعاء راجين الإجابة غير قاطعين عليها ؛ ليقفوا تحت الرجاء والخوف .

---

(١) غافر : ٦٠ . (٢) البقرة : ٢٥٣ .

(٣) في « الأصل ، هـ » : أمر . والمثبت هو الصواب .

وفي هذا الحديث بيان فضيلة نبينا - عليه السلام - على سائر الأنبياء عليهم السلام حين آثر أمته بما خصّه الله به من إجابة الدعوة بالشفاعة لهم ، ولم يجعل ذلك في خاصّة نفسه وأهل بيته فجزاه الله عن أمته أفضل الجزاء ، وصلى الله عليه أطيب الصلاة ، فهو كما وصفه الله : ﴿بالمؤمنين رءوف رحيم﴾ (1) .

* * *

باب : فضل الاستغفار

وقوله تعالى : ﴿ استغفروا ربكم إنه كان غفاراً يرسل السماء عليكم مدراراً ﴾ (2) ﴿ والذين إذا فعلوا فاحشةً أو ظلموا أنفسهم ﴾(3) الآية .

فيه : شداد بن أوس أن رسول الله ﷺ قال : « سيد الاستغفار [أن يقول] (4) : اللهم أنت ربي لا إله إلا أنت [خلقتني] (5) وأنا عبدك ، وأنا على عهدك ووعدك ما استطعت ، أعوذ بك من شر ما صنعت ، أبوء لك بنعمتك عليّ وأبوء بذنبي ، فاغفر لي فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت ، من قالها من [النهار] (6) موقنًا بها فمات من يومه قبل أن يمسي فهو من أهل الجنة ، ومن قالها من الليل وهو موقن بها ، فمات قبل أن يصبح فهو من أهل الجنة » .

قال المؤلف : قوله عليه السلام : « وأنا على عهدك ووعدك ما استطعت » يعني : العهد الذي أخذه الله على عباده في أصل خلقهم حين أخرجهم من أصلاب آبائهم أمثال الذر ، وأشهدهم على أنفسهم :

---

(1) التوبة : 128 . (2) نوح : 10 - 11 . (3) آل عمران : 135 .
(4) من « هـ » . (5) في « الأصل » : ظلمت نفسي. والمثبت من « هـ ، ن».
(6) غير واضحة بالأصل . والمثبت من « هـ ، ن » .

﴿ ألست بربكم قالوا بلى ﴾ (١) . فأقروا له في أصل [خلقهم] (٢) بالربوبية ، وأذعنوا له بالوحدانية ، والوعد : هو ما وعدهم تعالى أنه من مات لا يشرك منهم بالله شيئًا وأدّى ما افترض الله عليه أن يدخل الجنة ، فينبغي لكل مؤمن أن يدعو الله تعالى أن يميته على ذلك العهد، وأن يتوفاه الله على الإيمان ؛ لينال ما وعد تعالى من وفى بذلك اقتداءً بالنبي - عليه السلام - في دعائه بذلك ، ومثل ذلك سأل الأنبياء عليهم السلام الله - تعالى - في دعائهم ، فقال إبراهيم عليه السلام : ﴿ واجنبني وبنيّ أن نعبد الأصنام ﴾ (٣) . وقال يوسف : ﴿توفني مسلمًا وألحقني بالصالحين ﴾ (٤) . وقال نبينا : «وإذا أردت بقوم فتنةً فاقبضني / إليك غير مفتون » . وأعلم أمته بقوله : « أنا على عهدك ووعدك ما استطعت » . أن أحدًا لا يقدر على الإتيان بجميع ما لله ، ولا الوفاء (بجميع) (٥) الطاعات والشكر على النعم ، إذ نعمه تعالى كثيرة ولا يحاط بها ، ألا ترى قوله تعالى : ﴿ وأسبغ عليكم نعمه ظاهرة وباطنة ﴾ (٦) . فمن يقدر مع هذا أن يؤدي شكر النعم الظاهرة ، فكيف الباطنة ؟

[٤/ق١٦٣-ب]

لكن قد رفق الله بعباده فلم يكلفهم من ذلك إلا وسعهم وتجاوز عما فوق ذلك ، وكان عليه السلام يمتثل هذا المعنى في مبايعته للمؤمنين ، فيقول : أبايعكم على السمع والطاعة فيما استطعتم . فإن قيل : أين لفظ الاستغفار في هذا الدعاء ، وقد سمّاه النبي - عليه السلام - سيد الاستغفار ؟ قيل: الاستغفار في لسان العرب هو طلب المغفرة من الله تعالى وسؤاله غفران الذنوب السالفة والاعتراف بها، وكل

(١) الأعراف : ١٧٢ .   (٢) في « الأصل » : خلقتهم . والمثبت من « هـ » .
(٣) إبراهيم : ٣٥ .   (٤) يوسف : ١٠١ .
(٥) في « هـ » : بكمال .   (٦) لقمان : ٢٠ .

دعاء كان فيه هذا المعنى فهو استغفار ، مع أن في الحديث لفظ الاستغفار وهو قوله : « فاغفر لي فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت » .

وقوله : « من قالها موقنًا بها » يعني مخلصًا من قلبه ومصدقًا بثوابها فهو من أهل الجنة ، وهذا كمعنى قوله عليه السلام : « من قام رمضان إيمانًا واحتسابًا غفر له ما تقدم من ذنبه » .

وقوله : « أبوء لك بنعمتك وأبوء بذنبي » قال صاحب الأفعال : باء بالذنب : أقرّ .

* * *

باب : استغفار النبي عليه السلام في اليوم والليلة

فيه : أبو هريرة : سمعت النبي ﷺ يقول : « والله إني لأستغفر الله وأتوب إليه في اليوم والليلة أكثر من سبعين مرةً » .

قال المؤلف : أولى العباد بالاجتهاد في العبادة الأنبياء - عليهم السلام - لما حباهم الله به من معرفته ، فهم دائبون في شكر ربهم معترفون له بالتقصير [لا] (١) يدلون عليه بالأعمال ، مستكينون خاشعون ، روي عن مكحول عن أبي هريرة قال : « ما رأيت أحدًا أكثر استغفارًا من رسول الله ﷺ » .

وقال مكحول : ما رأيت أكثر استغفارًا من أبي هريرة . وكان مكحول كثير الاستغفار . وقال أنس : أمرنا أن نستغفر بالأسحار سبعين مرةً . وروى أبو إسحاق عن مجاهد ، عن ابن عمر قال : «كنت مع النبي - عليه السلام - فسمعته يقول : أستغفر الله الذي لا إله إلا هو الحي القيوم وأتوب إليه مائة مرة قبل أن يقوم » وروي عن حذيفة أنه شكا إلى النبي - عليه السلام - ذرب لسانه على أهله ، فقال : أين

(١) من « هـ » .

أنت يا حذيفة من الممحاة ؟ قال : وما هي ؟ قال : « الاستغفار ، إني لأستغفر الله في اليوم سبعين مرة » وقال ﷺ لعائشة وقت الإفك: « إن كنت ألمت بذنب فاستغفري الله وتوبي إليه » فإن التوبة من الذنب الندم والاستغفار ، وقالت عائشة : « كان النبي ﷺ قبل أن يموت يكثر من قول سبحان الله وبحمده ، أستغفر الله وأتوب إليه ، فسألته عن ذلك ، فقال : أخبرني ربي أني سأرى علامةً في أمتي ، فإذا رأيتها أكثرت من ذلك ، فقد رأيتها : ﴿ **إذا جاء نصر الله والفتح**﴾[1] » . وقال أبو أيوب الأنصاري : ما من مسلم يقول : «أستغفر الله الذي لا إله إلا هو الحي القيوم وأتوب إليه ثلاث مرات ، إلا غفرت ذنوبه، وإن كانت أكثر من زبد البحر ، وإن كان فر من الزحف » وكان ابن عمر كثيراً ما يقول : الحمد لله وأستغفر الله ، فقيل له في ذلك ، فقال : إنما هي نعمة فأحمد الله عليها ، أو خطيئة فأستغفر الله منها .

وقال عمر بن عبد العزيز : رأيت أبي في النوم كأنه في بستان فقلت له: أي عملك وجدت أفضل ؟ قال : الاستغفار . وروى أبو عثمان عن سلمان قال : إذا كان العبد يدعو الله في الرخاء ، فنزل به البلاء فدعا ، قالت الملائكة : صوت معروف من امرئ ضعيف . فيشفعون له ، وإذا كان لا يكثر من الدعاء في الرخاء ، فنزل به البلاء فدعا ، قالت الملائكة : صوت منكر من امرئ ضعيف ، فلا يشفعون له .

* * *

باب : توبوا إلى الله توبة نصوحًا

[وقال قتادة : توبةً نصوحًا . الصادقة : الناصحة] [2]

فيه : الحارث بن سعيد « حدثنا ابن مسعود حديثين : أحدهما عن النبي

---

(١) سورة النصر .　　(٢) من « هـ » .

- عليه السلام - ، والآخر عن نفسه ، قال : إن المؤمن يرى / ذنوبه كأنه [٤/ق١٦٤-أ] قاعد تحت جبل يخاف أن يقع عليه ، وإن الفاجر يرى ذنوبه كذباب مرّ على أنفه [فقال] [(١)] به هكذا ، ثم قال : [لله] [(٢)] أفرح بتوبة العبد من رجل نزل منزلا وبه مهلكة ، ومعه راحلته عليها طعامه وشرابه ، فوضع رأسه فنام نومةً فاستيقظ وقد ذهبت راحلته ، حتى إذا اشتدّ عليه الحرّ والعطش أو ما شاء الله قال : أرجع مكاني ، فرجع فنام نومةً ، ثم رفع رأسه فإذا راحلته عنده » .

وفيه : أنس قال النبي - عليه السلام - : « الله أفرحُ بتوبة عبده من أحدكم سقط على بعيره ، وقد أضلّه في أرض فلاة » .

قال صاحب العين : التوبة النصوحة : الصادقة . وقيل : إنما سمّى الله التوبة نصوحًا ؛ لأن العبد ينصح فيها نفسه ويقيها النار لقوله تعالى: ﴿ قوا أنفسكم وأهليكم نارًا ﴾ [(٣)] ، وأصل قوله تعالى : ﴿توبةً نصوحًا ﴾ [(٤)] توبةً منصوحًا فيها ، إلا أنه أخبر عنها باسم الفاعل للنصح على ما ذكره سيبويه عن الخليل في قوله تعالى : ﴿عيشة راضية ﴾ [(٥)] أي : ذات رضا ، وذكر أمثلة لهذا كثيرة عن العرب كقولهم : ليل نائم ، وهم ناصب ، أي : ينام فيه وينصب ، فكذلك ﴿توبة نصوحًا ﴾ [(٤)] أي : ينصح فيها ، والتوبة فرض من الله - تعالى - على كل من علم من نفسه ذنبًا صغيرًا أو كبيرًا ؛ لقوله تعالى: ﴿ يا أيها الذين آمنوا توبوا إلى الله توبةً نصوحًا ﴾ [(٤)] . وقال: ﴿وتوبوا إلى الله جميعًا أيها المؤمنون لعلكم تفلحون ﴾ [(٦)] ، وقال تعالى: ﴿إنما التوبة على الله للذين يعملون السوء بجهالة ثم يتوبون من قريب ﴾ [(٧)] .

---

(١) في « الأصل » : ثم قال . والمثبت من « هـ ، ن » .
(٢) في « الأصل » : لا الله . والمثبت من « هـ ، ن » .
(٣) التحريم : ٦ . (٤) التحريم : ٨ .
(٥) القارعة : ٧ . (٦) النور : ٣١ . (٧) النساء : ١٧ .

فكل مُذنب فهو عند مواقعة الذنب جاهل وإن كان عالمًا ، ومن تاب قبل الموت تاب من قريب ، وقال النبي - عليه السلام - : « الندم توبة » . وقال : «إن العبد ليذنب الذنب فيدخل به الجنّة . قيل : كيف ذلك يا رسول الله؟ قال: يكون نصب عينيه تائبًا منه فارا حتى يدخل الجنة» .

وقال سفيان بن عيينة : التوبةُ نعمة من الله أنعم بها على هذه الأمة دون غيرهم من الأمم ، وكانت توبة بني إسرائيل القتل . وقال الزهري : لما قيل لهم : ﴿ **فتوبوا إلى بارئكم فاقتلوا أنفسكم** ﴾ (١) قاموا صفين وقتل بعضهم بعضًا ، حتى قيل لهم : كفوا . فكانت لهم شهادة للمقتول وتوبةً للحي ، وإنما رفع الله عنهم القتل لما أعطوا المجهود في قتل أنفسهم ، فما أنعم الله على هذه الأمة نعمةً بعد الإسلام هي أفضل من التوبة .

إن الرجل ليفني عمره أو ما أفنى منه في المعاصي والآثام ، ثم يندم على ذلك ويقلع عنه فيحطها الله عنه ويقوم وهو حبيب الله ، قال تعالى : ﴿ **إن الله يحب التوابين ويحب المتطهرين** ﴾ (٢) . وقال عليه السلام : « التائب من الذنب كمن لا ذنب له » .

وقال ابن المبارك : حقيقة التوبة لها [ست] (٣) علامات : أولها : الندم على ما مضى . والثانية : العزم على أن لا تعود . والثالثة : أن تعمد إلى كل فرض [ضيعته] (٤) فتؤديه . والرابعة : أن تعمد إلى مظالم العباد ، فتؤدّي إلى كل ذي حق حقه . والخامسة : أن تعمد إلى البدن الذي ربيتهُ بالسحت والحرام فتذيبه بالهموم والأحزان حتى يلصق الجلد بالعظم ، ثم تنشئ بينهما لحمًا طيبًا إن هو نشأ . والسادسة : أن تذيق البدن ألم الطاعة كما أذقته لذة

---

(١) البقرة : ٥٤ . (٢) البقرة : ٢٢٢ .
(٣) في « الأصل » : ستة . والمثبت من « هـ » .
(٤) في « الأصل » : ضيعه . والمثبت من « هـ » .

المعصية . وقال ميمون بن مهران عن ابن عباس : كم تائب يرد [يوم][1] القيامة يظن أنه تائب وليس بتائب ، لأنه لم يحكم أبواب التوبة . وقال عبد الله بن سُميط : ما دام قلب العبد مصرّاً على ذنبٍ واحد ، فعمله معلق في الهواء ، فإن تاب من ذلك الذنب وإلا بقي عمله أبدًا معلقًا .

وروى الأصيلي عن أبي القاسم يعقوب بن محمد بن صالح البصري إملاءً من حفظه قال : حدثنا بكر بن أحمد بن مقبل قال: حدثنا عمران بن عبد الرحيم الأصبهاني ، حدثنا خليفة ، عن عبدالوهاب ، عن محمد بن زياد ، عن علي بن زيد بن جدعان ، عن سعيد بن المسيّب، عن أبي الدرداء قال : قال رسول الله يقول الله تعالى : « إذا تاب عبدي إليّ [نَسَّيتُ] [2] جوارحه ، ونَسَّيت البقاع، ونَسّيت حافظيه حتى لا يشهدوا عليه » .

وأما الحديث الذي حدث ابن مسعود عن [نفسه] [1] فقوله : «إن المؤمن يرى ذنوبه كأنه قاعد تحت جبلٍ يخاف أن يقع عليه ، والفاجر يرى ذنوبه كذباب مرّ على أنفه . فينبغي لمن أراد أن يكون من جملة المؤمنين أن يخشى ذنوبه ، ويعظم [خوفه] [3] منها ، ولا يأمن عقاب الله عليها فيستصغرها ، فإن الله - تعالى - يعذّب على القليل وله الحجة البالغة في ذلك .

وأمّا فرح الله بتوبة العبد فقال أبو بكر بن فورك : الفرح في كلام العرب بمعنى السرور ، من ذلك قوله تعالى : ﴿ **حتى إذا كنتم في الفلك وجرين بهم بريح طيبة وفرحوا بها** ﴾ [4] / أي : سروا بها ، [٤/ق١٦٤-ب] فهذا المعنى لا يليق بالله - تعالى - لأنه يقتضي جواز الحاجة عليه ونيل

---

(١) من « هـ » .　　　(٢) في « الأصل » : تنسيت . والمثبت من « هـ » .

(٣) في « الأصل » : حرقة . والمثبت من « هـ » .

(٤) يونس : ٢٢ .

المنفعة ، والفرح بمعنى البطر والأشر ومنه قوله تعالى : ﴿ **إن الله لا يحب الفرحين** ﴾ (١) . والوجه الثالث من الفرح الذي يكون بمعنى الرضا من قوله تعالى : ﴿ **كل حزب بما لديهم فرحون** ﴾ (٢) أي : راضون ، ولما كان من بُشِّر بالشيء قد رضيه ، قيل : إنه قد فرح به على معنى أنه [به] (٣) راض ، وعلى هذا تتأول الآثار ؛ لأن البطر والسرور لا يليقان بالله - عز وجل .

* * *

باب : الضجع على الشق الأيمن

فيه : عائشة : « كان النبي - عليه السلام - يصلي من الليل إحدى عشرة ركعة ، فإذا طلع الفجر صلى ركعتين خفيفتين ، ثم اضطجع على شقه الأيمن حتى يجيء المؤذن فيؤذنه » .

هذه هيئة من الهيئات كان يفعلها عليه السلام والله أعلم للأرفق به في الاضطجاع ، أو كان يفعلها لفضل [الميامن] (٤) على المياسر ، وهذا كله مباح ليس من باب الوجوب .

* * *

باب : إذا بات طاهراً

فيه : البراء قال : قال النبي - عليه السلام - : « إذا أتيت مضجعك فتوضأ وضوءك للصلاة ، ثم اضطجع على شقك الأيمن ، وقل : اللهم أسلمت وجهي إليك ، وفوضت أمري إليك ، وألجأت ظهري إليك ، رهبةً ورغبةً إليك لا ملجأ ولا منجا [منك] (٥) إلا إليك ، آمنت بكتابك الذي أنزلت

---

(١) القصص : ٧٦ . (٢) الروم : ٣٢ .
(٣) من « هـ » . (٤) في « الأصل » : الأيمن . والمثبت من « هـ » .
(٥) من « ن » ، والفتح .

وبنبيّك الذي أرسلت فإن مت مت على الفطرة ، واجعلهن آخر ما تقول» .

وقد بين ابن عباس معنى المبيت على طهارة ، ذكر عبد الرزاق عن أبي بكر بن عياش قال : أخبرني أبو يحيى أنه سمع مجاهدًا يقول : قال لي ابن عباس : لا تنامن إلا على وضوء ، فإن الأرواح تبعث على ما قبضت عليه . وهذا معنى قوله عليه السلام : « فإن مُتّ متّ على الفطرة » . وذكر عن الأعمش أنه بال ، ثم تيمّم بالجدار ، فقيل له في ذلك ، فقال : أخاف أن يدركني الموت قبل أن أتوضأ .

وعن الحكم بن عتيبة أنه سأله رجل : أينام الرجل على غير وضوء؟ قال : يكره ذلك وإنا لنفعله .

وروى معمر عن سعيد الجريري عن أبي السليل عن أبي توبة العجلي قال : من أوى إلى فراشه طاهرًا أو نام ذاكرًا كان فراشه مسجدًا ، وكان في صلاة أو ذكر حتى يستيقظ .

وقال طاوس : من بات على طهرٍ وذكرٍ كان فراشه له مسجدًا حتى يصبح ، ومثل هذا لا يدرك بالرأي وإنما يؤخذ بالتوقيف .

* * *

باب : ما يقول إذا نام

فيه : حذيفة : قال : « كان النبي - عليه السلام - إذا أوى إلى فراشه قال : باسمك (أحيا وأموت) [١] **، وإذا قام قال : الحمد لله الذي أحيانا بعد ما أماتنا وإليه النشور » ينشرها : يخرجها .**

وفيه : البراء : قال النبي - عليه السلام - :« إذا أردت مضجعك فقل: اللهم أسلمت نفسي إليك وفوضت أمري إليك ووجهت وجهي إليك ،

---

(١) كذا في « الأصل ، هـ » ، وفي « ن » والفتح : أموت وأحيا .

وألجأت ظهري إليك رغبةً ورهبةً إليك ، لا منجا ولا ملجأ منك إلا إليك ، آمنت بكتابك الذي أنزلت وبنبيك الذي أرسلت ، فإن مت مت على الفطرة » .

ذكر الله مستحب عند النوم ليكون الذكر آخر فعله ، وهذا معنى قوله عليه السلام : « واجعلهن آخر ما تقول » أي : لا تتكلم بعدهن بشيء من أحاديث الدنيا ، وليكن هذا الذكر خاتمة عملك ، ألا ترى قوله : « فإن مت مت على الفطرة » [وقد تقدم حديث معمر عن الجريري في فضل من بات على ذكر وطهر في الباب قبل هذا] (١) .

* * *

باب : وضع اليد تحت الخد اليمنى

فيه حذيفة : « كان النبي - عليه السلام - إذا أخذ مضجعه من الليل وضع يده تحت خدّه ، ثم يقول : اللهم باسمك أموت وأحيا ، وإذا استيقظ قال : الحمد لله الذي أحيانا بعدما أماتنا وإليه النشور » .

يحتمل أن يكون وضع النبي - عليه السلام - يده تحت خدّه عند النوم تذللاً لله عز وجل واستشعارًا لحال الموت ، وتمثيله لنفسه لتتأسى أمته بذلك ، ولا يأمنوا هجوم الموت عليهم في حال نومهم ، ويكونوا على (رقبة) (٢) من مفاجأته فيتأهبوا له في يقظتهم وجميع أحوالهم، ألا ترى قوله عليه السلام عند نومه : « اللهم بك أموت وأحيا وإليك النشور » .

* * *

---

(١) من « هـ » . (٢) في « هـ » : أهبة .

باب : الدعاء إذا انتبه من النوم

/ فيه : ابن عباس : « بت عند خالتي ميمونة ، فقام النبي - عليه [٤/ق١٦٥-أ] السلام- فأتى حاجته فغسل وجهه ويديه ثم نام ، ثم قام فأتى القربة فأطلق [شناقها] [١]، ثم توضأ وضوءًا بين وضوءين ، لم يكثر وقد أبلغ فصلّى فتمطيت كراهية أن يرى أني كنت أرقبه [فتوضأت] [٢] فقام يصلي ، فقمت عن يساره فأخذ بأذني ، فأدارني عن يمينه ، فتتامت صلاته ثلاث عشرة ركعةً ، ثم اضطجع فنام حتى نفخ ، وكان إذا نام نفخ، فآذنه بلال بالصلاة فصلّى ولم يتوضأ ، وكان يقول في دعائه : اللهم اجعل في قلبي نوراً وفي بصري نوراً وفي سمعي نوراً واجعل لي نوراً » . قال كريب : وسبع في التابوت فلقيت رجلاً من ولد العباس فحدثني [بهن][٣] فذكر «عصبي ولحمي ودمي وشعري وبشري وذكر خصلتين» .

وفيه : ابن عباس : « كان النبي - عليه السلام - إذا قام من الليل يتهجد قال : اللهم لك الحمد أنت نور السماوات والأرض ومن [فيهن][٤] ، ولك الحمد [أنت قيم السماوات والأرض ومن فيهن ، ولك الحمد] [٥] أنت الحق ، ووعدك الحق ، وقولك حق ، ولقاؤك حق، والجنة حق ، والنار [حق] [٥] ، والساعة حق ، والنشور حق، ومحمد حق ، اللهم لك أسلمت وعليك توكلت ، وبك آمنت وإليك أنبت ، وبك خاصمت وإليك حاكمت ، فاغفر لي ما قدمت وما أخرت وما أعلنت وما أسررت ، أنت المقدم وأنت المؤخر لا إله إلا أنت -أو لا إله غيرك » .

قال المؤلف : كان النبي ﷺ [يدعو الله عز وجل] [٦] في أوقات ليله ونهاره، وعند نومه ويقظته بنوع من الدعاء [يصلح] [٧]لحاله تلك ولوقته

---

(١) في « الأصل » : ساقها . والمثبت من « هـ ، ن » .
(٢) في « الأصل » : فتوضأ . والمثبت من « هـ ، ن » .
(٣) في « الأصل » : بهذا . والمثبت من « هـ ، ن » .
(٤) في « الأصل » : فيهما . والمثبت من « هـ ، ن » . (٥) من « هـ ، ن » .
(٦) من « هـ » . (٧) في « الأصل » : فمصلح . والمثبت من « هـ » .

ذلك ، فمنها : أوقات كان يدعو فيها إلى ربه تعالى ، ويعين له ما يدعو فيه في أوقات الخلوة ، وعند فراغ باله وعلمه بأوقات الغفلة التي ترجى فيها الإجابة ، فكان يلح عند ذلك ويجتهد في دعائه ، ألا ترى سؤاله ﷺ ربه حين انتبه من نومه أن يجعل في قلبه نورًا ، وفي بصره نورًا ، وفي سمعه وجميع جوارحه ؟

ومنها : أوقات كان يدعو فيها بجوامع الدعاء ويقتصر على المعاني دون تعيين وشرح ، فينبغي الاقتداء بالنبي - عليه السلام - في دعائه في تلك الأوقات ، والتأسي به في كل الأحوال، وقد تقدّم حديث ابن عباس في باب التهجد والكلام عليه .

وقول كريب : وسبع في التابوت يعني : أنه أنسي سبع خصال من الحديث على ما يقال لمن لم يحفظ العلم ؛ علمه في التابوت ، وعلمه مستودع في الصحف ، وليس كريب القائل : فلقيت رجلاً من ولد العباس فحدثني بهنّ ، وإنما قاله سلمة بن كهيل [الراوي] [1] عن كريب (سأل) [2] العباس عنهن حين نسيهن كريب [فحفظ سلمة][3] منهن خمسًا ونسي أيضًا خصلتين .

قال المؤلف : وقد وجدت الخصلتين من رواية داود بن علي بن عبدالله بن عباس عن أبيه وهما : « [اللهم] [4] اجعل نورًا في عظامي ونورًا في قبري » .

وقوله : « فتمطيت كراهية أن يرى أني كنت أبغيه» [5] [التمطي : التمدد ، وأبغيه : أرصده ، قال الخليل : يقال : بغيت الشيء أبغيه][6] إذا نظرت إليه ورصدته ، وإنما فعل ذلك ابن عباس ليُريَ النبي -عليه السلام - أنه كان نائمًا وأنه لم يرصده ؛ إذ كل أحدٍ إذا خلا في

---

(١) في « الأصل » : الرازي . والمثبت من « هـ » . (٢) تكررت في « الأصل » .
(٣) في « الأصل » : فنسي . والمثبت من « هـ » .
(٤) في « الأصل » : الله . والمثبت من « هـ » .
(٥) تقدم في المتن : أرقبه ، أما أبغيه فهي رواية القابسي . (٦) من « هـ » .

بيته قد يأتي من الأفعال ما يحب أن لا يطلع عليه أحد ، وإنما حمل ابن عباس على ذلك الحرص على التعليم ، ومعرفة حركات النبي -عليه السلام - في ليله ، وقد تقدّم في كتاب الصلاة أن أباه العباس كان أوصى لابنه بذلك .

وفيه الحرص على التعليم والرفق بالعلماء ، وترك التعرض إلى ما يعلم أنه يشق عليهم .

ذكر الطبري عن معقل بن يسار ، عن أبي بكر الصديق - رضي الله عنه - أن النبي - عليه السلام - قال : « الشرك أخفى فيكم من دبيب النمل . فقلت: يا رسول الله فكيف المنجا والمخرج من ذلك ؟ قال : ألا أعلمك شيئًا إذا فعلته برئت من قليله وكثيره [وصغيره وكبيره] [(١)] . قلت : بلى يا رسول الله . قال : قل : اللهم إني أعوذ بك أن أشرك بك وأنا أعلم ، وأستغفرك لما لا أعلم ، تقولها ثلاث مرات » .

* * *

باب : التكبير والتسبيح عند المنام

فيه : [علي : « أن] [(١)] فاطمة اشتكت ما تلقى في يدها [من][(٢)] الرحى ، فأتت النبي تسأله خادمًا فلم تجده ، فذكرت ذلك لعائشة ، فلما جاء أخبرته ، قال : فجاءنا وقد أخذنا مضاجعنا ، فذهبت أقوم ، فقال : مكانك . فجلس بيننا حتى وجدت برد قدميه على صدري ، فقال: ألا أدلكما على ما هو خير لكما من خادم ، إذا أويتما إلى فراشكما أو أخذتما / مضاجعكما ، فكبرا ثلاثًا وثلاثين وسبحا ثلاثًا وثلاثين واحمدا ثلاثًا وثلاثين ، فهذا خير لكما من خادم » . وقال ابن سيرين : التسبيح [أربع وثلاثون] [(٣)] . [٤/ق١٦٥-ب]

---

(١) من « هـ » . (٢) في « الأصل » : عند . والمثبت من « هـ ، ن » .
(٣) في « الأصل : أربعاً وثلاثين . والمثبت من « هـ ، ن » .

وهذا نوع من الذكر عند النوم غير ما جاء في حديث البراء ، وحديث حذيفة والأحاديث الأُخر ، وقد يمكن أن يكون النبي - عليه السلام - يجمع ذلك كله عند نومه ، وقد يمكن أن يقتصر منها على بعضها إعلامًا منه لأمته أن ذلك معناه الحض والندب ، لا الوجوب والفرض، وفي هذا الحديث حجة لمن فضل الفقر على الغنى ؛ لأنه عليه السلام قال : «ألا أدلكما على ما هو خير لكما من خادم » فعلمهما الذكر ، ولو كان الغنى أفضل من الفقر لأعطاهما الخادم وعلمهما الذكر ، فلما منعهما الخادم وقصرهما على الذكر خاصةً علم أنه عليه السلام إنما اختار لهما الأفضل عند الله ، والله الموفق .

* * *

باب : التعوذ والقراءة عند النوم

فيه : عائشة : « أن النبي - عليه السلام - كان إذا أخذ مضجعه نفث في يديه وقرأ بالمعوذات ومسحَ بهما جسده » .

وفيه : أبو هريرة قال : قال النبي - عليه السلام - : « إذا أوى أحدكم إلى فراشه فلينفض فراشه بداخلة إزاره ، فإنه لا يدري ما خَلَفَهُ عليه ثم يقول : باسمك ربي وضعت جنبي وبك أرفعه ، إن أمسكت نفسي فارحمهما ، وإن أرسلتها فاحفظها بما تحفظ به عبادك الصالحين » .

وهذه أنواع أخر أيضًا غير ما مرّ من الأحاديث المتقدمة ، وفيها استسلام لله وإقرار له بالإحياء والإماتة ، وفي حديث عائشة رد قول من زعم أنه لا تجوز الرقى واستعمال العُوذ إلا عند حلول المرض ونزول ما يتعوذ بالله منه ، ألا ترى أن النبي عليه السلام نفث في [يديه] [1] وقرأ المعوذات ومسح بهما جسده ، واستعاذ بذلك من شر ما يحدث عليه في ليلته مما يتوقعه وهذا من أكبر الرقى ، وفي حديث

(١) في « الأصل » : يده . والمثبت من « هـ » .

أبي هريرة أدب عظيم علمه النبي أمته ، وذلك أمره بنفض فراشه عند النوم خشية أن يأوي إليه بعض الهوام الضارّة فيؤذيه سمها ، والله أعلم .

* * *

باب : الدعاء نصف الليل

فيه : أبو هريرة أن النبي - عليه السلام - قال : « ينزل ربنا عز وجل كل ليلة إلى السماء الدنيا حين يبقى [ثلث الليل] (١) الآخر يقول : من يدعوني [فأستجيب] (٢) له من يسألني فأعطيه ، من يستغفرني فأغفر له » .

هذا وقت شريف مرغب فيه خصّه الله - تعالى - بالتنزل فيه ، وتفضّل على عباده بإجابة من دعا فيه ، [وإعطاء] (٣) من سأله ، إذ هو وقت خلوة وغفلة واستغراق في النوم واستلذاذ به ، ومفارقة الدعة واللذة صعب على العباد ، لا سيما لأهل الرفاهية في زمن البرد ، ولأهل التعب والنصب في زمن قصر الليل ، فمن آثر القيام لمناجاة ربه والتضرع إليه في غفران ذنوبه ، وفكاك رقبته من النار وسأله التوبة في هذا الوقت الشاق على خلوة نفسه بلذتها ومفارقة دعتها وسكنها ، فذلك دليل على خلوص نيته وصحة رغبته [فيما] (٤) عند ربه ، فضمنت له الإجابة التي هي مقرونة بالإخلاص وصدق النية في الدعاء، إذ لا يقبل الله دعاءً من قلب غافل لاهٍ .

وقد أشار النبي ﷺ إلى هذا المعنى بقوله : « والصلاة بالليل والناس نيام » . فلذلك نبّه الله عباده على الدعاء في هذا الوقت الذي تخلو فيه النفس من خواطر الدنيا ، وعُلقها ليستشعر العبد الجدّ والإخلاص لربه فتقع الإجابة منه تعالى رفقًا من الله بخلقه

---

(١) في « الأصل » : الثلث . والمثبت من « هـ ، ن » .
(٢) في « الأصل » : أستجب . والمثبت من « هـ ، ن » .
(٣) في « الأصل » : أعطى . والمثبت من « هـ » .
(٤) في « الأصل » : فيها . والمثبت من « هـ » .

ورحمةً لهم فله الحمد دائمًا والشكر كثيرًا على ما ألهم إليه عباده من مصالحهم ، ودعاهم إليه من منافعهم لا إله إلا هو الكريم الوهاب .

فإن قيل : كيف ترجم باب الدعاء نصف الليل ، وذكر [في] (١) الحديث أن التنزل في ثلث الليل الآخر ؟ قيل : إنما أخذ ذلك من قوله تعالى : ﴿ **قم الليل إلا قليلاً نصفه أو انقص منه قليلاً** ﴾ (٢) . فالترجمة تقوم من دليل القرآن ، والحديث يدل على أن وقت الإجابة ثلث الليل إلا أن ذكر النصف في كتاب الله يدل على تأكيد المحافظة على وقت التنزل قبل دخوله ليأتي أول وقت الإجابة ، والعبد مرتقب له مستعد للإنابة فيكون ذلك / سببًا للإجابة ، وينبغي ألا يمرّ وقت من الليل والنهار إلا أحدث العبد فيه دعاءً وعبادةً لله تعالى. [٤/١٦٦-أ]

* * *

باب : الدعاء (عند الخلاء) (٣)

فيه : أنس : « كان النبي – عليه السلام – إذا دخل الخلاء قال : « اللهم إني أعوذ بك من الخبث والخبائث » .

قال المؤلف : [الخبث] (١) والخبائث هو الشيطان الرجيم ، روي هذا عن الحسن ومجاهد ، وقد جاء معنى أمره عليه السلام بالاستعاذة عند دخول الخلاء في حديث رواه معمر عن قتادة ، عن النضر [بن أنس] (١) عن أنس بن مالك أن رسول الله قال : « إن هذه الحشوش محتضرة ، فإذا دخلها أحدكم فليقل : اللهم إني أعوذ بك من الخبث والخبائث » . فأخبر في هذا الحديث أن الحشوش مواطن للشياطين، فلذلك أمر بالاستعاذة عند دخولها ، وروى ابن وهب عن

---

(١) من « هـ » . (٢) المزمل : ٢ – ٣ .

(٣) تكررت في « الأصل » .

حيوة بن شريح ، عن أبي عقيل أنه سمع [سعيدًا] [١] المقبري يقول: إذا دخل الرجل الكنيف لحاجته ، ثم ذكر اسم الله كان سترًا بينه وبين الجن ، فإذا لم يذكر الله نظر إليه الجن يسخرون ويستهزئون به .

وروي عن النبي أنه قال : «إذا خرج أحدكم من الغائط فليقل: الحمد لله الذي أخرج عني ما يؤذيني وأمسك عليّ ما ينفعني » .

* * *

باب : ما يقول إذا أصبح

فيه : شداد بن أوس عن النبي - عليه السلام - قال : « سيد الاستغفار ... » وذكر الحديث « من قالها حين يمسي فمات دخل الجنة ، وإن [قالها] [٢] حين يصبح فمات من يومه دخل الجنة » .

وفيه حذيفة : « كان النبي ﷺ إذا أراد أن ينام قال : باسمك اللهم أموت وأحيا ، وإذا استيقظ من منامه قال : الحمد لله الذي أحيانا بعد ما أماتنا وإليه النشور » . وعن أبي ذرّ مثله .

قال المؤلف : معنى ذكر الله عند الصباح ليكون مفتتح الأعمال وابتداؤها ذكر الله ، وكذلك ذكر الله عند النوم ليختم عمله بذكره تعالى، فتكتب الحفظة في أول صحيفته عملا صالحًا وتختمهما بمثله ، فيرجى له مغفرة ما بين [ذلك] [٣] من ذنوبه .

وروى الطبري من حديث الحسن عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « [يقول الله - عز وجل -] [٣] : اذكرني من أول النهار ساعةً ، ومن آخره ساعةً أكفيك ما بينهما » . وكان الصالحون من السُّوقة يجعلون أول يومهم وآخره لأمر الآخرة ، ووسطه لمعيشة الدنيا، وإنما كانوا يعملون ذلك لترغيبه عليه السلام على الدعاء طرفي النهار ،

---

(١) في « الأصل » : سعيد . والمثبت من « هـ » .

(٢) في « الأصل » : قال . والمثبت من « هـ » .   (٣) من « هـ » .

وكان عمر بن الخطاب يأمر التجار [فيقول] [1] : اجعلوا أوّل نهاركم لآخرتكم ، وما سوى ذلك لدنياكم ، وقد روي عن النبي - عليه السلام - ما يدل على هذا المعنى ، قال عليه السلام : « يقول الله -تعالى-: يا ابن آدم لا تعجزن عن أربع ركعات أول النهار أكفيك آخره » .

* * *

باب : الدعاء في الصلاة

فيه : أبو بكر أنه قال للنبي - عليه السلام - : « علمني دعاءً أدعو به في صلاتي . قال : قل : اللهم إني ظلمت نفسي ظلمًا كثيرًا، ولا يغفر الذنوب إلا أنت فاغفر لي مغفرةً من عندك وارحمني ، إنك أنت الغفور الرحيم » .

وفيه : عائشة « ﴿ ولا تجهر بصلاتك ولا تخافت ... ﴾ [2] نزلت في الدعاء» .

وفيه : ابن مسعود عن النبي - عليه السلام - : « أنه ذكر التشهد ... » إلى قوله « ثم ليتخير من الثناء ما شاء » .

قال الطبري : في حديث أبي بكر من الفقه أن للمصلّي أن يدعو الله في جميع صلواته بما بدا له من [حاجات] [3] دنياه وآخرته ، وذلك أنه عليه السلام علم أبا بكر مسألة ربه المغفرة لذنوبه في صلاته، وذلك من أعظم حاجات العبد إلى ربّه ، فكذلك حكم مسألته إياه سائر حاجاته .

وقد روي عن أبي الدرداء أنه قال : إني لأدعو وأنا ساجد لسبعين أخًا من إخواني أسمّيهم بأسمائهم وأسماء آبائهم .

وكان علي يقول إذا قال الإمام :سمع الله لمن حمده: اللهم بحولك وقوتك أقوم وأقعد . وكان ابن مسعود يلبي في سجوده. ومعنى لبيك:

---

(١) في « الأصل » : يقول . والمثبت من « هـ » .

(٢) الإسراء : ١١٠ .

(٣) في « الأصل » : حاجاته . والمثبت من « هـ » .

[أجبتك] [1] يا رب إلى ما [دعوتني] [2] إليه إجابةً بعد إجابة ، وأقمت عندك . وقد ذكرت من قال بهذا من الفقهاء في كتاب الصلاة .

/ قال الطبري : وفي حديث أبي بكر الدليل الواضح على تكذيب [٤/ق١٦٦-ب] مقالة من زعم أنه لا يستحق اسم الإيمان إلا من كان لا خطيئة له ولا جُرم ، لأن أهل الإجرام - زعموا - غير مؤمنين ، وزعموا أن كبائر الذنوب وصغائرها كبائر ، وذلك أن أبا بكر كان من الصديقين من أهل الإيمان ، وقد أمره ﷺ أن يقول : اللهم إني ظلمت نفسي ظلمًا كثيرًا فاغفر لي » .

وفيه دليل أن الواجب على العبد أن يكون على حذر من ربّه في كل أحواله ، وإن كان من أهل الاجتهاد في عبادته في أقصى (غاياته)[3] ، إذ كان الصديق مع موضعه من الدين لم يسلم مما يحتاج إلى استغفار ربه منه .

* * *

باب : الدعاء بعد الصلاة

فيه : أبو هريرة : « قالوا : يا رسول الله ذهب أهل الدثور بالأجور ، بالدرجات والنعيم المقيم . قال : كيف ذلك ؟ قالوا : صلوا كما صلينا وجاهدوا كما جاهدنا ، وأنفقوا من فضول أموالهم ، وليست لنا أموال . قال : أفلا أخبركم بما تدركون من كان قبلكم وتسبقون من جاء بعدكم، ولا يأتي أحد بمثل ما جئتم إلا من جاء بمثله ، تسبحون في دبر كل صلاة عشرًا وتحمدون عشرًا وتكبرون عشرًا » .

وفيه المغيرة : « أنه كتب إلى معاوية أن النبي ﷺ كان يقول في دبر كل

---

(١) في « الأصل » : جئتك . والمثبت من « هـ » .
(٢) في « الأصل » : تدعونني . والمثبت من « هـ » .
(٣) في « هـ » : غاية .

صلاة إذا سلّم : لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، له الملك ، وله الحمد وهو على كل شيء قدير ، اللهم لا مانع لما أعطيت ، ولا معطي لما منعت، ولا ينفع ذا الجد منك الجد » .

في حديث هذا الباب الحضّ على التسبيح والتحميد في أدبار الصلوات ، وأن ذلك يوازي في الفضل إنفاق المال في طاعة [الله][1] لقوله : « أفلا أخبركما بما تدركون به من كان قبلكم » .

وروي عن النبي – عليه السلام – أنه قال : « وضعت الصلوات في خير الساعات فاجتهدوا في الدعاء دبر الصلوات » .

قال الطبري [وحدثنا] [2] ابن المثنى وابن بشار قالا حدثنا يحيى ابن سعيد ، عن سليمان التيمي ، عن قتادة ، عن أنس بن مالك قال: « إذا أقيمت الصلاة فتحت أبواب السماء واستجيب الدعاء » . وروى الطبري عن جعفر بن محمد قال : الدعاء بعد المكتوبة أفضل من الدعاء بعد النافلة كفضل المكتوبة على النافلة .

فإن قال قائل : فقد روى عبد الرحمن بن الأسود عن أبيه قال : قال عبد الله بن مسعود : إنما هذه القلوب أوعية فاشغلوها بالقرآن ولا تشغلوها بغيره . فأي الأمرين عندك أفضل ، ذكر الله بالتسبيح والتحميد والتهليل ، أم قراءة القرآن ؟ فالجواب : أن عمرو بن سلمة سأل الأوزاعي عن ذلك ، فقال له : سَلْ سعيدًا ، فسأله فقال : بل القرآن . فقال الأوزاعي لسعيد : إنه ليس بشيء يعدل القرآن ، ولكن إنما كان هدي من سلف يذكرون الله قبل طلوع الشمس وقبل الغروب.

قال الطبري : والذي قال الأوزاعي أقرب إلى الصّواب لما روى

---

(١) في « الأصل » : المال . والمثبت من « هـ » .

(٢) في « الأصل » : وفي حديث . والمثبت من « هـ » .

أنس وأبو هريرة عن النبي - عليه السلام - أنه قال : « لأن أقعد مع قوم يذكرون الله بعد الفجر إلى طلوع الشمس أحب إليّ من الدنيا وما فيها ، [ولأن أقعد مع قوم يذكرون الله بعد العصر إلى أن تغيب الشمس أحبُّ إليّ من الدنيا وما فيها »] (١) وقال عبد الله بن عمرو : وذكر الله بالغداة والعشي أفضل من حطم السيوف في سبيل الله وإعطاء المال سحًا .

وقد تقدم [في باب ما يقول إذا أصبح حديث الحسن عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال : « يقول عز وجل : ابن آدم] (٢) اذكرني من أوّل النهار ساعةً وآخره ساعةً ، أكفيك ما بينهما » .

وترجم لحديث المغيرة باب : لا مانع لما أعطى الله في كتاب القدر، وسيأتي الكلام هناك [إن شاء الله تعالى ، واحتج بحديث أبي هريرة من فضل الغنى على الفقر ، وسيأتي الكلام فيه] (١) في [كتاب](٣) الرقائق إن شاء الله .

* * *

باب : قول الله تعالى ﴿ وصل عليهم ﴾ (٤)

ومن خصّ أخاه بالدعاء دون نفسه ، وقال أبو موسى : قال النبي -عليه السلام - : « اللهم اغفر [لعبيد أبي] (٥) عامر ، اللهم اغفر لعبد الله بن قيس ذنبه » .

وفيه : سلمة : « خرجنا مع النبي - عليه السلام - إلى خيبر ، فقال رجل من القوم : أي عامر لو أسمعتنا من هنياتك ، فنزل يحدو لهم : تالله لولا الله ما

---

(١) من « هـ » .

(٢) في « الأصل » : قول النبي ﷺ قال الله . والمثبت من « هـ » .

(٣) في « الأصل » : باب . والمثبت من « هـ » .

(٤) التوبة : ١٠٣ . (٥) في « الأصل » : عدي بن . والمثبت من « هـ » .

اهتدينا . قال النبي – عليه السلام – : من هذا السائق ؟ قالوا : عامر بن الأكوع . قال: يرحمه الله » .

وفيه : ابن أبي أوفى قال : « كان النبي – عليه السلام – إذا أتاه رجل بصدقته قال : اللهم صَلِّ عليه ، فلما أتاه أبي بصدقته قال : اللهم صل على آل أبي أوفى » .

[٤/ق١٦٧-أ] وفيه / جرير : « قلت : يا رسول الله إني لا أثبت على الخيل ، فصكّ في صدري ، وقال : اللهم ثبته ، واجعله هاديًا مهديًا » .

وفيه : أنس : « قالت أم سليم للنبي – عليه السلام – : أنس خادمك ! قال : اللهم أكثر ماله وولده ، وبارك له فيما أعطيته » .

وفيه : عائشة : « سمع النبي – عليه السلام – رجلاً يقرأ في المسجد فقال : رحمه الله لقد أذكرني كذا وكذا آية أسقطتهن » .

وفيه : عبد الله : « قسم النبي – عليه السلام – قسمًا ، فقال رجل : ما أريد بها وجه الله ، فأخبرت النبي – عليه السلام – فغضب ، وقال : يرحم الله موسى ، أوذي بأكثر من هذا فصبر » .

قال المؤلف : في هذه الأحاديث كلها من الفقه دعاء المسلم لأخيه دون نفسه كما ترجم ، وقد جاء عن النبي – عليه السلام – أن دعاء المرء لأخيه مجاب . [روى] [١] الطبري قال : حدثنا أبو هشام الرفاعي قال : حدثنا ابن فضيل ، حدثنا أبي ، عن طلحة بن عبد الله ابن كريز ، عن أم الدرداء عن أبي الدرداء قال : قال رسول الله ﷺ: « ما من مسلم يدعو [لأخيه][٢] بظهر الغيب إلا قال له الملك : ولك مثل ذلك » .

وروى سعيد بن جبير عن ابن عباس عن النبي– عليه السلام – قال : « خمس

---

(١) في « الأصل » : دعا . والمثبت من « هـ » .

(٢) من « هـ » .

دعوات مستجابات : دعوة المظلوم حتى ينتصر ، ودعوة الحاج حتى يصدر ، ودعوة المجاهد حتى يقفل ، ودعوة المريض حتى يبرأ ، ودعوة الأخ لأخيه » .

روي عن بعض السلف : أنه قال : إذا دعا المرء لأخيه فليبدأ بنفسه. قال سعيد بن يسار : ذكرت رجلاً عند ابن عمر [فترحمت] [1] عليه، فلهز في صدري وقال لي : ابدأ بنفسك ، وقال إبراهيم : كان يقال : إذا دعوت فابدأ بنفسك ، فإنك لا تدري أي دعاء يستجاب لك.

* * *

باب : ما يكره من السجع في الدعاء

فيه : ابن عباس : « أنه قال لعكرمة : حدث الناس كل جمعة مرةً ، فإن أبيت فمرتين ، فإن أكثرت فثلاث مرات ، ولا تُملّ الناس هذا القرآن ، ولا ألفينك تأتي القوم وهم في حديث من حديثهم ، فتقص عليهم فتقطع عليهم حديثهم فتملهم ، ولكن أنصت فإذا أمروك فحدثهم وهم يشتهونه ، وانظر السجع من الدعاء فاجتنبه ، فإني عهدت النبي - عليه السلام - وأصحابه لا يفعلون ذلك » .

قال المؤلف : إنما نهي عن السجع في الدعاء ، والله أعلم ؛ لأن طلب السجع فيه تكلف ومشقة ، وذلك مانع من الخشوع وإخلاص [التضرع] [2] لله - تعالى - وقد جاء في الحديث : « إن الله لا يقبل من قلب غافلٍ لاهٍ » .

وطالب السجـــع في دعائه همته في [تزويج] [3]

---

(١) في « الأصل » : فتراحمت . والمثبت من « هـ » .

(٢) في « الأصل » : الخضوع . والمثبت من « هـ » .

(٣) في « الأصل » : ازدواج . والمثبت من « هـ » .

الكلام (وسجعه) [1] ، ومن شغل فكره بذلك وكد خاطره بتكلفه ، فقلبه عن الخشوع غافل لاه لقول الله - تعالى - : ﴿ **ما جعل الله لرجل من قلبين في جوفه** ﴾ [2] .

فإن قيل : فقد وجد في دعاء النبي - عليه السلام - نحو ما نهى عنه ابن عباس، وهو قوله : « اللهم منزل الكتاب سريع الحساب اهزم الأحزاب » . وقال في تعويذ حسن أو حسين : « أعيذه من الهامة والسامة وكل عين لامة » . وإنما أراد مُلمّة فللمقاربة بين الألفاظ وإتباع الكلمة أخواتها في الوزن قال : « لامة » . قيل : هذا يدل أن نهيه عليه السلام عن السجع إنما أراد به من يتكلف السجع في حين دعائه ، فيمنعه من الخشوع كما قدمنا ، وأما إذا تكلم به طبعًا من غير مؤنة ولا تكلف، أو حفظه قبل وقت دعائه مسجوعًا فلا يدخل في النهي عنه ؛ لأنه لا فرق حينئذ بين [المسجوع] [3] وغيره ؛ لأنه لا يتكلف صنعته وقت الدعاء فلا يمنعه ذلك من إخلاص الدعاء والخشوع والله أعلم .

وفيه من الفقه : أنه يكره الإفراط في الأعمال الصالحة خوف الملل لها والانقطاع عنها ، وكذلك كان النبي ﷺ يفعل ، كان يتخول أصحابه بالموعظة في الأيام كراهة السآمة عليهم ، وقال : «اكلفوا من العمل ما تطيقون ، فإن الله - تعالى- لا يمل حتى تملوا » .

وفيه : أنه لا ينبغي أن يحدث بشيء من كان في حديث حتى يفرغ منه.

وفيه : أنه لا ينبغي نشر الحكمة والعلم ولا الحديث بهما من لا يحرص على سماعهما وتعلمهما ، فمتى حدث به من يشتهيه ويحرص عليه ، كان أحرى أن ينتفع به ويحسن موقعه عنده ، ومتى حدث به

---

(١) في « هـ » : ونسجه .   (٢) الأحزاب : ٤ .

(٣) في « الأصل » : الخشوع . والمثبت من « هـ » .

من لا يشتهيه لم يحسن موقعه عنده ، وكان في ذلك [إذلال] (١) للعلم [وحط](٢) له ، والله - تعالى - قد رفع قدره حين جعله سببًا إلى معرفة توحيده وصفاته تعالى، [وإلى] (٣) علم دينه وما تعبَّد به خلقه.

* * *

[٤/ق١٦٧-ب]

/ باب : ليعزم المسألة فإنه لا مكره له

فيه : أنس أن النبي - عليه السلام - قال : « إذا دعا أحدكم فليعزم المسألة ، ولا يقولن : اللهم إن شئت فأعطني ، فإنه لا مكره له » .

وفيه : أبو هريرة مثله .

قال المؤلف : فيه دليل أنه ينبغي للمؤمن أن يجتهد في الدعاء ويكون على رجاء من الإجابة ولا يقنط من رحمة الله ؛ لأنه يدعو كريمًا ، فبذلك تواترت الآثار عن النبي ﷺ ، روى شعبة عن العلاء عن أبيه عن أبي هريرة عن النبي - عليه السلام - قال : «إذا دعا أحدكم فلا يقولن : اللهم إن شئت فأعطني ، ولكن ليعظم رغبته ، فإن الله تعالى لا يتعاظم عليه شيء أعطاه ، قال : قال الله تعالى : أنا عند ظن عبدي بي ، وأنا معه إذا دعاني ، فإن [تقرب] (٤) مني شبرًا تقربت منه ذراعًا . . . » الحديث . وروى أبو عاصم عن ابن جريج ، عن أبي الزبير ، عن جابر ، عن النبي - عليه السلام - قال: « لا يموتن أحد منكم إلا وهو حسن الظن بالله - تعالى - » . وقال ابن مسعود : والله الذي لا إله إلا هو ما أعطي عبد مؤمن قط شيئًا خير من حسن الظن بالله . والله الذي لا إله إلا هو لا يحسن عبد الظن إلا أعطاه الله ظنه ، وذلك أن الخير في يديه .

وقال سفيان بن عيينة : لا يمنعن أحد من الدعاء ما يعلم من نفسه ،

---

(١) في « الأصل » : إزالة . والمثبت من « هـ » .
(٢) في « الأصل » : وحطا . والمثبت من « هـ » .
(٣) في « الأصل » : وإذا . والمثبت من « هـ » .
(٤) في « الأصل » : تقربت . والمثبت من « هـ » .

فإن الله تعالى قد أجاب دعاء شر الخلق إبليس ﴿ **قال أنظرني إلى يوم يبعثون قال إنك من المنظرين** ﴾ [1] .

*   *   *

باب : يستجاب للعبد ما لم يعجل

فيه : أبو هريرة قال النبي – عليه السلام – : « يستجاب لأحدكم ما لم يعجل يقول : قد دعوت فلم يستجب لي » .

قال بعض العلماء : قوله : « ما لم يعجل » يعني يسأم الدعاء ويتركه فيكون كالمان بدعائه ، وأنه قد أتى من الدعاء ما كان يستحق به الإجابة ، فيصير كالمبخل لربّ كريم ، لا تعجزه الإجابة ، ولا ينقصه العطاء ، ولا تضره الذنوب .

وروى ابن وهب ، عن معاوية ، عن ربيعة بن يزيد ، عن أبي إدريس الخولاني ، عن أبي هريرة ، عن النبي – عليه السلام – قال : « لا يزال يستجاب للعبد ما لم يدع بإثم أو قطيعة رحم ، وما لم يستعجل . قيل : يا رسول الله وما الاستعجال ؟ قال : يقول : قد دعوت وقد دعوت ، فلم يستجب لي ، فيستحسر عند ذلك أو يدع الدعاء » . وقال أبو هريرة مرةً يقول : « لقد دعوت فما استجاب ، أو ما أغنيت شيئًا » . وقالت عائشة في هذا الحديث : « ما لم يعجل أو يقنط » .

وقال بعضهم : إنما يعجل العبد إذا كان غرضه من الدعاء نيل ما سأل، وإذا لم ينل ما يريد ثقل عليه الدعاء ، ويجب أن يكون غرض العبد من الدعاء هو الدعاء لله ، والسؤال منه ، والافتقار إليه أبدًا، ولا يفارق سمة العبودية وعلامة الرق ، والانقياد للأمر والنهي

---

(١) الأعراف : ١٤ - ١٥ .

والاستسلام لربّه - تعالى - بالذّلة والخشوع ، فإن الله تعالى يحب الإلحاح في الدعاء .

وقال بعض السلف : لأنا أشد خشيةً أن أحرم الدعاء من أن أحرم الإجابة ، وذلك أن الله تعالى يقول : ﴿ **ادعوني أستجب لكم** ﴾ (١) . فقد أمر بالدعاء ووعد بالإجابة وهو لا يخلف الميعاد ، وروي عن النبي - عليه السلام - : « ما من داع يدعو إلا كان بين إحدى ثلاث، إما أن يستجاب له ، وإمّا أن يدخر له ، وإما أن يكفر عنه » . ففي هذا الحديث دليل أن الدعاء مجاب إما معجلاً وإما مؤخرًا .

وقد روي عن قتادة أنه قال : إنما يجاب من الدعاء ما وافق القدر ؛ لأن النبي - عليه السلام - قد دعا ألا يجعل الله بأس أمته بينهم فمنعها، لما سبق في علم الله وقدره من كون الاختلاف والبأس بينهم.

* * *

باب : رفع الأيدي في الدعاء

وقال أبو موسى : دعا النبي - عليه السلام - ثم رفع يديه ، ورأيت بياض إبطيه .

وقال ابن عمر : رفع النبي - عليه السلام - يديه [وقال] (٢) : « اللهم إني أبرأ إليك مما صنع خالد » .

وفيه : أنس : « أن النبي - عليه السلام - رفع يديه حتى رأيت بياض إبطيه ».

قال الطبري : اختلف الناس في رفع اليدين في الدعاء في غير الصلاة ، فكان بعضهم يختار إذا دعا / الله تعالى في حاجته أن يشير [٤/ق١٦٨-أ]

---

(١) غافر : ٦٠ .   (٢) من « هـ » .

بأصبعه السبّابة ، ويقول ذلك الإخلاص ويكره رفع اليدين . ذكر من قال ذلك : روى شعبة وعبثر وخالد عن حصين ، عن عمارة بن رويبة : « أنه رأى بشر بن مروان رافعًا يديه على المنبر ، فسبَّه وقال : لقد رأيت رسول الله لا يزيد على هذا يعني أن يشير بالسبّابة» . وروى سعيد عن قتادة قال : رأى ابن عمر قومًا رفعوا أيديهم، فقال : من يتناول هؤلاء فوالله لو كانوا على رأس أطول جبل ما ازدادوا من الله قربًا .

وكرهه جبير بن مطعم ، ورأى شريح رجلاً رافعًا يديه يدعو ، فقال: من تتناول بها ، لا أمّ لك . وقال مسروق لقوم رفعوا أيديهم: قد رفعوها قطعها الله . وكره ابن المسيب رفع الأيدي والصّوت في الدعاء ، وكان قتادة يشير بأصبعه ولا يرفع يديه ، ورأى سعيد بن جبير رجلاً يدعو رافعًا يديه فقال : ليس في ديننا تكفير. واعتلوا بحديث عمارة بن رويبة المتقدّم .

وكان بعضهم يختار أن يبسط كفيه رافعهما ، ثم يختلفون في صفة رفعهما ، حذو صدره بطونهما إلى وجهه ، روي ذلك عن ابن عمر، وقال ابن عباس إذا رفع يديه حذو صدره فهو الدعاء . وكان علي بن أبي طالب يدعو بباطن كفيه ، وعن أنس مثله ، واحتجوا بما رواه صالح بن [كيسان] (١) عن محمد بن كعب القرظي ، عن ابن عباس، عن النبي – عليه السلام – قال : « إذا سألتم الله - تعالى – فاسألوه ببطون أكفكم ولا تسألوه [بظهورها] (٢) ، وامسحوا بها وجوهكم ».

وكان آخرون يختارون رفع أيديهم إلى وجوههم ، روي ذلك عن ابن عمر وابن الزبير ، واعتلوا بما رواه حماد بن سلمة عن بشر بن حرب قال : سمعت أبا سعيد الخدري يقول : « وقف رسول الله بعرفة ، فجعل يدعو، وجعل ظهر كفيه مما يلي وجهه ورفعهما فوق ثدييه وأسفل من منكبيه » .

---

(١) في « الأصل » : حسان . والمثبت من « هـ » .
(٢) في « الأصل » : بظهوره . والمثبت من « هـ » .

وكان آخرون يختارون رفع أيديهم حتى يحاذوا بها وجوههم وظهورها مما يلي وجوههم ، وروى يحيى بن سعيد عن القاسم قال : رأيت ابن (عمرو بن العاص) (١) يرفع يديه يدعو حتى يحاذي منكبيه ظاهرهما يليانه . وعن ابن عباس قال : إذا أشار أحدكم بأصبع واحدة فهو الإخلاص ، وإذا رفع يديه حذو صدره فهو الدعاء ، وإذا رفعهما حتى يجاوز بهما رأسه ، وظاهرهما يلي وجهه فهو الابتهال . واحتجوا بحديث أبي موسى وابن عمر وأنس : « أن النبي - عليه السلام - كان يرفع يديه في الدعاء حتى يرى بياض إبطيه » .

قال الطبري : والصواب أن يقال إن كل هذه الآثار المروية عن النبي- عليه السلام - متفقة غير مختلفة المعاني ، [وللعمل] (٢) بكل ذلك وجه صحيح ، فأمّا الدعاء بالإشارة بالأصبع الواحدة ، فكما قال ابن عباس أنه الإخلاص ، والدعاء بسط اليدين ، والابتهال رفعهما ، وقد حدثني محمد بن خالد بن خراش قال : حدثني مسلم عن عمر بن [نبهان] (٣) ، عن قتادة ، عن أنس قال : « رأيت النبي ﷺ يدعو بظهر كفيه وبباطنهما » . وجائز أن يكون ذلك كان من النبي ﷺ لاختلاف أحوال الدعاء كما قال ابن عباس ، وجائز أن يكون إعلامًا منه بسعة الأمر في ذلك ، وأن لهم فعل أي ذلك شاءوا في حال دعائهم، غير أن أحبّ الأمر في ذلك إليّ أن يكون اختلاف هيئة الداعي على قدر اختلاف حاجته ، وأما الاستعاذة والاستجارة ، فأحب الهيئات إلي فيهما هيئة المبتهل ؛ [لأنها] (٤) أشبه بهيئة (المستجير) (٥) ، وقد قال شهر بن حوشب : المسألة ببطن الكفين ، والتعوذ مثل التكبير إذا افتتح الصلاة .

---

(١) في « هـ » : عمر عند القاص .
(٢) في « الأصل » : والعمل . والمثبت من « هـ » .
(٣) في « الأصل » : شهاب . والمثبت من « هـ » .
(٤) في « الأصل » : لأنه . والمثبت من « هـ » .   (٥) في « هـ » : المستخير.

فإن قال : فقد جعلت للداعي رفع يديه في كل حال فما أنت قائل فيما روى يزيد بن زريع حدثنا سعيد بن أبي عروبة عن قتادة أن أنس بن مالك حدثه : « أن النبي - عليه السلام - كان لا يرفع يديه في شيء من الدعاء إلا عند الاستسقاء ، فإنه كان يرفعهما حتى يرى بياض إبطيه .

قيل : قد روى ابن جريج ، عن مقسم ، عن ابن عباس ، عن النبي - عليه السلام - أنه قال : « لا ترفع الأيدي إلا في سبعة مواطن في بدء الصلاة، وإذا رأيت البيت ، وعلى الصفا والمروة ، وعشية عرفة ، وبجمع، وعند الجمرتين » . وهذا مخالف لحديث سعيد بن أبي عروبة عن قتادة ، وقد ثبت عن النبي - عليه السلام - رفع الأيدي في الدعاء مطلقًا من وجوه .

منها : حديث أبي موسى وابن عمر وأنس من طرق [أثبت] (1) من حديث سعيد بن أبي عروبة عن قتادة عن أنس ، وذلك أن سعيد بن أبي عروبة كان قد تغير عقله وحاله في آخر عمره ، وقد خالفه / [4/ق168-ب] شعبة في روايته عن قتادة ، عن أنس فقال فيه : « كان رسول الله يرفع يديه حتى يُرى بياض إبطيه». ولا شك أن شعبة أثبت من سعيد بن أبي عروبة.

وحدثنا ابن مثنى قال : حدثنا ابن أبي عدي عن جعفر بن ميمون صاحب الأنماط عن أبي عثمان، عن سلمان قال : قال رسول الله ﷺ: «إن ربكم [حيي] (2) كريم يستحيي من عبده إذا رفع يديه إليه أن يردهما صفرًا».

فإن قيل: قد روي عن عطاء وجابر وطاوس [ومجاهد] (3) أنهم كرهوا رفع الأيدي في دبر الصلاة قائمًا . قيل : يمكن أن يكون ذلك إذا لم ينزل بالمسلمين نازلة يحتاجوا معها إلى الاستغاثة إلى الله تعالى بالتضرع والاستكانة ، فالقول كما قال عطاء وطاوس ومجاهد ، وإن نزلت بهم نازلة احتاجوا معها إلى الاستغاثة إلى الله [بالتضرع والاستكانة] (4) لكشفها عنهم ، [فرفع] (5) الأيدي عند مالك حسن وجميل .

---

(1) في « الأصل »: أثبتت. والمثبت من « هـ ». (2) في « الأصل، هـ» : حي.
(3) من « هـ » . (4) في « الأصل » : والتضرع . والمثبت من « هـ » .
(5) في « الأصل » : ترفع . والمثبت من « هـ » .

باب : الدعاء غير مستقبل القبلة

فيه : أنس : « بينا النبي – عليه السلام – [يخطب] (١) يوم الجمعة ، فقال رجل : يا رسول الله ، ادع الله أن [يسقينا] (٢) ... » الحديث .

الدعاء حسن كيفما تيسر للمؤمنين على جميع أحوالهم ، ألا ترى قوله تعالى : ﴿ **الذين يذكرون الله قيامًا وقعودًا وعلى جنوبهم** ﴾ (٣) . فمدحهم الله – تعالى – ولم يشترط في ذلك حالةً دون حالة ، ولذلك دعا النبي – عليه السلام – في خطبته يوم الجمعة وهو غير مستقبل القبلة .

* * *

باب : الدعاء مستقبل القبلة

فيه : عبد الله بن زيد : خرج النبي – عليه السلام – إلى المصلى يستسقي فدعا واستسقى ، ثم استقبل القبلة وقلب رداءه » .

فإن قال قائل : ليس في هذا الحديث الدعاء إلا [قبل] (٤) استقبال النبي – عليه السلام – القبلة لقوله : « فدعا ثم استقبل القبلة [فكيف ترجم له باب الدعاء مستقبل القبلة ؟!] (٤) قيل : إنما أشار البخاري إلى الحديث ليدل على المعنى المعروف منه ، فقد جاء هذا الحديث في كتاب الاستسقاء [في باب كيف حوّل النبي ﷺ ظهره إلى الناس](٤)، وقال فيه : « واستقبل القبلة يدعو ، ثم حول رداءه ، ثم صلى ركعتين جهر فيهما » .

* * *

---

(١) في « الأصل » : يدعو . والمثبت من « هـ ، ن » .
(٢) في « الأصل » : يسقنا . والمثبت من « هـ ، ن » .
(٣) آل عمران : ١٩١ .   (٤) من « هـ » .

باب : دعوة النبي - عليه السلام - لخادمه بطول العمر وكثرة ماله

فيه : أنس : « قالت أمي للنبي - عليه السلام - : خادمك ، ادع الله له . قال : اللهم أكثر ماله وولده ، وبارك له فيما أعطيته » .

وترجم له بعد هذا باب [الدعاء وكثرة المال مع البركة ، وباب][1] الدعاء بكثرة الولد مع البركة .

إن قال قائل : كيف ترجم البخاري في هذا الحديث باب دعوة النبي - عليه السلام - لخادمه بطول العمر ، وإنما في الحديث « اللهم أكثر ماله وولده » . وليس فيه وطول عمره ؟ قيل : يحتمل أن (يكون)[2] ذلك من دليل الحديث من موضعين : أحدهما : أن دعوته عليه السلام له بكثرة الولد يدل على أن ذلك لا يكون إلا في كثير من السنين ، فدعاؤه له بكثرة الولد دعاء له بطول العمر ، والثاني : قوله عليه السلام : « وبارك له فيما أعطيته » ، فالعمر مما أعطاه الله هذا الوجه للمهلب .

فإن قيل : فما معنى دعائه له بطول العمر ، وقد علم - عليه السلام - أن الآجال لا يزاد فيها ولا ينقص منها على ما كتب في بطن أمّه ؟ قيل : معنى ذلك والله أعلم [أن الله تعالى] [1] يكتب أجل عبده إن أطاع الله واتقاه فيكون عمره مدة كذا، فإن لم يطع الله وعصاه كان أجله أقل منها .

يدل على [صحة] [1] ذلك قوله [عز وجل] [3] في قصة نوح حين قال لقومه : ﴿ **اعبدوا الله واتقوه وأطيعون يغفر لكم من ذنوبكم ويؤخركم إلى أجل مسمى**﴾[4] يريد أجلاً قد قضى به لكم إن أطعتم، فإن عصيتم لم يؤخركم إلى ذلك الأجل ، وكل قد سبق في علم الله مقدار أجله على ما يكون من فعله ، قال ابن قتيبة : ومثله ما روي أن

---

(١) من « هـ » .
(٢) في « هـ » : يقوم .
(٣) في « الأصل » : عليه السلام .
(٤) نوح : ٣ ، ٤ .

الصدقة تدفع [القضاء] [1] المبرم ، وأن الدعاء يدفع البلاء ، وقد ثبت أنه لا راد لقضاء الله ، ومعنى ذلك أن المرء قد يستحق بالذنوب قضاءً من العقوبة ، فإن هو تصدّق دفع عن نفسه ما استحق من ذلك، يدل على ذلك قوله : « إن صدقة السر تطفئ غضب الرب » ألا ترى أن من غضبَ الله عليه قد تعرض لعقابه ، فإذا زال ذلك الغضب بالصدقة زال العقاب ، وكذلك الدعاء يرتفع إلى الله -تعالى - فيوافق البلاء نازلاً من السماء فيزيله / [ويصرفه ، وكل ذلك قد [٤/ق١٦٩-أ] جرى به القلم في علم الله تعالى أنه إن تصدق أو دعا ، صرف عنه غضب الله وبلاؤه ، وفي هذا الحديث حجة لمن قال . الغنى أفضل من الفقر ، وهي مسألة اختلف الناس فيها قديمًا ، وسيأتي الكلام فيها في موضعها في كتاب الرقاق إن شاء الله تعالى] [2] .

* * *

باب : الدعاء عند الكرب

فيه : ابن عباس : « كان النبي – عليه السلام – يدعو عند الكرب : لا إله إلا الله العظيم الحليم ، لا إله إلا الله ربّ السماوات والأرض وربّ العرش العظيم » .

[وقال] [3] مرةً : « لا إله إلا الله العظيم الحليم ، لا إله إلا الله رب العرش العظيم ، لا إله إلا الله رب السماوات ورب الأرض ورب العرش الكريم » .

قال المؤلف : وقد روى هذا الحديث عن النبي – عليه السلام – علي بن أبي

---

(١) في « الأصل » : البلاء . والمثبت من « هـ » .
(٢) من « هـ » .
(٣) في « الأصل » : فقال . والمثبت من « هـ » .

طالب بزيادة واختلاف في لفظه ذكر ابن أبي شيبة من حديث أبي إسحاق عن عبد الله بن مرة ، عن عبد الله بن سلمة ، عن علي قال: « قال [لي] [١] رسول الله - عليه السلام - : ألا أعلمك كلمات إذا قلتهن غفر الله لك مع أنه مغفور لك : لا إله إلا الله الحليم الكريم ، لا إله إلا الله العلي العظيم ، سبحان الله رب السماوات السبع ورب العرش (العظيم) [٢] ، الحمد لله رب العالمين » .

قال الطبري : وكان السلف يدعون بهذا الدعاء ، قال أبو أيوب : كتب إليه أبو قلابة بدعاء الكرب ، وأمره أن يعلمه ابنه .

فإن قال قائل : فإن دعاء الكرب إنما هو تهليل وتعظيم لله ، فما معنى قول ابن عباس كان النبي ﷺ يدعو بدعاء الكرب وتسمية السلف له بذلك ؟ قيل : يحتمل معنيين : أحدهما : أن يقدم هذا التهليل قبل الدعاء ، ثم يدعو بعده بما أراد على ما روى حماد بن سلمة ، عن يوسف بن عبد الله بن الحارث ، عن أبي العالية ، عن ابن عباس : «أن رسول الله كان إذا حزبه أمر قال : لا إله إلا الله الحليم الكريم ، لا إله إلا الله رب العرش (العظيم) [٢]، لا إله إلا الله ربّ السماوات السبع وربّ العرش الكريم ، ثم يدعو».

ويبين هذا المعنى ما روى الأعمش عن النخعي قال : كان يقال : إذا بدأ الرجل بالثناء قبل الدعاء (استجيب) [٣] ، وإذ بدأ بالدعاء قبل الثناء كان على الرجاء . وقد نبه على ذلك المعنى ابن مسعود فقال: إذا خشيتم من أمير ظلمًا فقولوا: اللهم ربّ السماوات السبع وربّ

(١) من « هـ » .　　(٢) في « هـ » : الكريم .
(٣) في « هـ » : استوجب .

العرش العظيم كن لي جارًا من فلان وأشياعه من الجن والإنس أن يفرطوا عليّ وأن يطغوا ، عزّ جارك وجل ثناؤك ولا إله غيرك ، فإنه لا يصل إليكم منه شيء تكرهونه .

والمعنى الثاني : ما روي عن حسين المروزي قال : سألت ابن عيينة ما كان أكثر قول النبي – عليه السلام – بعرفة ؟ فقال : لا إله إلا الله، سبحان الله، والحمد لله ، والله أكبر ولله الحمد ، ثم قال لي سفيان : إنما هو [ذكر] [1] وليس فيه دعاء ثم قال لي : أما علمت قول الله حيث يقول : إذا شغل عبدي ثناؤه عليّ عن مسألتي أعطيته أفضل ما أعطي السائلين ؟ قلت : نعم ، حدثتني أنت وابن مهدي بذلك عن منصور ابن المعتمر ، عن مالك بن الحارث ، ثم قال سفيان : أما علمت قول أميّة بن [أبي] [1] الصلت حين أتى ابن جدعان [يطلبه][2] نائلة وفضله ؟ قلت : لا . قال : قال أمية :

أأطلب حاجتي أم قد كفاني ... غناؤك إن شيمتك الحياء

إذا أثنى عليك المرء يومًا ... كفاه من تعرضك الثناء

قال سفيان : هذا مخلوق [حين] [3] نسب إلى أن يكتفي بالثناء عليه دون مسألته ، فكيف بالخالق ؟!

قال المؤلف : وحدثني أبو بكر الرازي قال : كنت بأصبهان عند الشيخ أبي نعيم أكتب عنه الحديث ، وكان هناك شيخ آخر يعرف بأبي بكر بن علي ، وكان عليه مدار الفتيا ، فحسده بعض أهل البلد فبغّاه عند السلطان ، فأمر بسجنه ، وكان ذلك في شهر رمضان ، قال أبو

---

(١) من « هـ » .

(٢) في « الأصل » : يظلمه . والمثبت من « هـ » .

(٣) في « الأصل » : حيث . والمثبت من « هـ » .

بكر : فرأيت النبي - عليه السلام - في المنام وجبريل عن يمينه يحرك شفتيه لا يفتر من التسبيح ، فقال لي النبي - عليه السلام - : قل لأبي بكر بن علي : يدعو بدعاء الكرب الذي في صحيح البخاري حتى يفرج الله عنه ، فأصبحت فأتيت إليه وأخبرته بالرؤيا ، فدعا به فما بقي إلا قليلاً حتى أخرج من السجن . ففي هذه الرؤيا شهادة النبي -عليه السلام - لكتاب البخاري بالصحة بحضرة جبريل عليه السلام، والشيطان لا يتصور بصورة النبي في المنام .

* * *

باب : التعوذ من جهد البلاء

[٤/١٦٩ق-ب] / **فيه : أبو هريرة : « كان النبي - عليه السلام - يتعوذ من جهد البلاء ، ودرك الشقاء، وشر القضاء ، وشماتة الأعداء » .**

قال المؤلف : كل ما أصاب الإنسان من شدّة [المشقّة] (١) والجهد مما لا طاقة له بحمله ولا يقدر على دفعه عن نفسه فهو من جهد البلاء، وروي عن ابن عمر أنه سُئل عن جهد البلاء ، فقال : قلة المال وكثرة العيال . ودرك الشقاء ينقسم قسمين فيكون في أمور الدنيا وفي أمور الآخرة ، وكذلك سوء القضاء هو [عام] (٢) أيضًا في النفس والمال والأهل والخاتمة والمعاد . وشماتة الأعداء مما ينكأ القلب، ويبلغ من النفس أشد مبلغ ، وهذه جوامع ينبغي للمؤمن التعوذ بالله منها كما تعوّذ النبي - عليه السلام - ، وإنما دعا بذلك عليه السلام معلمًا لأمته ما يتعوّذ بالله منه ، فقد كان أمنه الله من كل سوء ، وذكر عن أيوب صلى الله عليه أنه سئل عن أي حال بلائه كان أشدّ عليه ؟ قال : شماتة الأعداء . أعاذنا الله من جميع ذلك بمنّه وفضله .

---

(١) في « الأصل » : السعة . والمثبت من « هـ » .

(٢) في « الأصل » : علم . والمثبت من « هـ » .

باب : الدعاء بالموت والحياة

فيه : خباب : « أنه اكتوى سبعًا وقال : لولا أن النبي ﷺ نهى أن ندعو بالموت لدعوت به » .

وفيه : أنس قال النبي - عليه السلام - : « لا يتمنّين أحدكم الموت لضرٍّ نزل به ، فإن كان لا بدّ متمنيا للموت فليقل : اللهم أحيني ما كانت الحياة خيرًا لي ، وتوفني إذا كانت الوفاة خيرًا لي » .

معنى هذين الحديثين على الخصوص ، وقد بين عليه السلام [ذلك][1] في الحديث فقال : « لا يتمنين أحدكم الموت لضرّ نزل به» . فقد يكون له في ذلك الضرّ خير لدينه ودنياه ، إما تمحيص لذنوب سلفت له وطهور من سيئات ، كما قال عليه السلام للشيخ الذي زاره في مرضه وقد أصابته الحمّى فقال له عليه السلام : « لا بأس طهور إن شاء الله » . وقد يكون له في المرض منافع ، منها : أن يكون المرض سببًا إلى امتناعه من سيئات كان يعملها لو كان صحيحًا ، أو بلاء يندفع عنه في نفسه وماله، فالله أنظر لعبده المؤمن فينبغي له الرضا عن الله - تعالى - في مرضه وصحته ولا يتهم قدره ، ويعلم أنه أنظر له من نفسه ، ولا يسأله الوفاة عند ضيق نفسه بمرضه أو تعذّر أمور دنياه عليه .

وقد جاء وجه سؤال الموت فيه مباح ، وهو خوف فتنة تكون سببًا لتلاف الدين ، فقد قال عليه السلام : « وإذا أردت [بقومٍ] [2] فتنةً فاقبضني إليك غير مفتون» . ووجه آخر وهو عند خوف المؤمن أن يضعف عن القيام بما قلده الله كما قال عمر : اللهم كبرت سني وضعفت قوتي وانتشرت رعيتي فاقبضني إليك غير مضيع ولا مفرط . فخشي عمر رضي الله عنه أن يطول عمره ويزيد ضعفه ، ولا يقدر على القيام بما قلده

---

(١) في « الأصل » : في ذلك . والمثبت من « هـ » .

(٢) في « الأصل » : بالناس . والمثبت من « هـ » .

الله وألزمه القيام به من أمور رعيته ، وكان سنه حين دعا بذلك ستين سنةً أو نحوها ، وكذلك فعل عمر بن عبد العزيز إذ سأل لنفسه الوفاة وسنّه في الأربعين حرصًا على السلامة من التغيير ، فهذان الوجهان مباح أن يسأل فيهما الموت ، وقد تقدّم في كتاب المرضى [في باب تمني المريض الموت] (١) .

* * *

باب : الدعاء للصبيان بالبركة ومسح رءوسهم

« وقال أبو موسى : ولد لي ولد فدعا النبي - عليه السلام - له بالبركة .

وفيه : السائب : « ذهبت بي خالتي إلى رسول الله - عليه السلام - فقالت : يا رسول الله ، إن ابن أختي وجع ، فمسح رأسي ودعا لي بالبركة ... » الحديث.

وفيه : أبو عقيل : « أنه كان يخرج به جده - عبد الله بن هشام - فيشتري الطعام ، فتلقاه ابن الزبير وابن عمر ، فيقولان له : أشركنا فإن النبي - عليه السلام - قد دعا لك بالبركة ، فيشركهم ، فربما أصاب الراحلة كما هي فيبعث بها إلى المنزل » .

وفيه : محمود بن الربيع - وهو الذي مجّ النبي - عليه السلام - في وجهه وهو غلام من بئرهم .

وفيه : عائشة قالت : « كان النبي - عليه السلام - يؤتى بالصبيان فيدعو لهم » .

فيه الذهاب بالصبيان إلى الصالحين وسؤالهم الدعاء لهم بالبركة ، ومسح رءوسهم تفاؤلاً لهم بذلك وتبركًا بدعائهم ، وفي حديث

---

(١) من « هـ » .

محمود بن الربيع مداعبة الأئمة وأهل الفضل للصبيان ، وأن ذلك من أخلاق الصالحين ، وفي حديث أبي عقيل رغبة السلف الصالح في الربح الحلال ، وحرصهم على بركة التجارة ، وأنهم كانوا يتحرّفون في التجارات / ويسعون في طلب الرزق ليستغنوا بذلك عن الحاجة [٤/ق١٧٠-أ] إلى الناس ، ولا [يكونوا] [١] عالةً ولا كلاً على غيرهم .

* * *

باب : الصلاة على النبي ﷺ

فيه : كعب بن عجرة : « خرج علينا النبي - عليه السلام - فقلنا : يا رسول الله ، قد علمنا كيف نسلم عليك ، فكيف نصلي عليك ؟ قال : قولوا : اللهم صلي على محمد وعلى آل محمد ، كما صليت على [آل][٢] إبراهيم إنك حميد مجيد ، اللهم بارك على محمد وعلى آل محمد ، كما باركت على [آل] [٢] إبراهيم إنك حميد مجيد » .

فيه : عن أبي سعيد الخدري نحوه .

اختلف العلماء في الصلاة على النبي هل هي فرض أم لا ؟ فذهب جمهور العلماء إلى أنها ليس بفرض في الصلاة ، وذكر ابن القصار عن ابن المواز أنها واجبة ، قال : والمشهور عن أصحابنا أنها واجبة في الجملة على الإنسان أن يأتي بالشهادتين مرةً في دهره مع القدرة عليه ، وشذّ الشافعي فزعم أن ذلك فرض في الصلاة ، واحتج بحديث كعب ابن عجرة ، رواه عن إبراهيم بن محمد عن سعيد بن إسحاق بن كعب بن عجرة ، وفي حديثه : « وذلك في الصلاة » . قال الطحاوي : وكان من حجة من خالفه عليه أن إبراهيم بن محمد

---

(١) في « الأصل » : يكونون . والمثبت من « هـ » .
(٢) من « هـ ، ن » .

ليس ممن يحتج بحديثه ، ولو ثبت حديثه هذا لم يكن فيه دليل أن ذلك فرض ؛ لأنا قد وجدنا مثل ذلك عن النبي ﷺ (1) من آي القرآن ومن الأمر منه أن يجعل [ذلك] (2) في الصلاة ، فلم يكن مراده من ذلك الفرض ، وهو حديث عقبة بن عامر عن النبي - عليه السلام - « أنه لما نزل : ﴿ **فسبح باسم ربك العظيم** ﴾ (3) قال : اجعلوها في ركوعكم ، ولما نزلت : ﴿ **سبح اسم ربك الأعلى** ﴾ (4) قال : اجعلوها في سجودكم، وكان من ترك التسبيح في الركوع والسجود غير مفسد صلاته ، وكذلك روي عن النبي - عليه السلام - أنه علمهم التشهد في الصلاة ، وليس منه الصلاة (5) على النبي - عليه السلام - وقد تقدّم ذلك في كتاب الصلاة فانتفى أن يكون على المصلي فرض غير ما علمه النبي - عليه السلام - ودل ذلك أن قوله: ﴿ **يا أيها الذين آمنوا صلوا عليه وسلموا تسليمًا** ﴾ (6) على الندب ، لا على الفرض ، ونحو هذا ذكر الطبري ، وقال : الصلاة على النبي - عليه السلام - ندب وفضل في كل حال، وعلى هذا تأويل هذه الآية .

* * *

باب : [هل] (7) يصلى على غير النبي - عليه السلام - وقوله تعالى : ﴿ وصل عليهم إن صلاتك سكن لهم ﴾ (8)

فيه : ابن أبي أوفى قال : « كان إذا (جاء) (9) رجل بصدقته النبي - عليه السلام - قال : اللهم صل عليه ، فأتاه أبي بصدقته ، فقال : اللهم صل على آل أبي أوفى » .

وفيه : أبو حميد الساعدي : « أنهم قالوا : يا رسول الله كيف نصلي

---

(1) زاد في « الأصل » : عن النبي .
(2) من « هـ » .
(3) الواقعة : ٧٤ .
(4) الأعلى : ١ .
(5) زاد في « الأصل » : على الصلاة .
(6) الأحزاب : ٥٦ .
(7) في « الأصل » : من . والمثبت من « هـ ، ن » .
(8) التوبة : ١٠٣ .
(9) في « هـ ، ن » : أتى .

عليك ؟ قال : قولوا : اللهم صل على محمد وأزواجه وذريته ، كما صليت على [آل] (١) إبراهيم ، وبارك على محمد وأزواجه وذريته ، كما باركت على آل إبراهيم في العالمين إنك حميد مجيد » .

قال الضحاك : صلاة الله : رحمته ، وصلاة الملائكة : الدعاء ، والصلاة على غير النبي - عليه السلام - جائزة بدليل الكتاب والسنة ، ألا ترى أنه عليه السلام كان يصلي على من أتاه بصدقته ، وفي حديث أبي حميد (أمر)(٢) بالصّلاة على أزواجه وذريته وأزواجه من غير نسبة وهذا الباب رد لقول من أنكر الصلاة (على غير النبي) (٣) - عليه السلام - .

وروى ابن أبي شيبة قال : حدثنا هشيم حدثنا عثمان بن حكيم ، عن عكرمة عن ابن عباس قال : ما أعلم الصلاة تنبغى من أحد على أحد إلا على النبي - عليه السلام - والحجة في السنة لا فيما خالفها.

* * *

باب : قول النبي - عليه السلام - : « من [آذيته فاجعله له] (١) زكاة ورحمةً »

فيه : أبو هريرة أنه سمع النبي - عليه السلام - يقول : « **اللهم فأيما مؤمن سببته ، فاجعل ذلك له قربةً له يوم القيامة** » .

هذا الحديث يصدقه ما ذكره الله تعالى في كتابه من صفة رسوله - عليه السلام - في قوله : ﴿ **لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رءوف رحيم** ﴾ (٤) . وهو عليه السلام لا يسبّ أحدًا ولا يؤذيه ظلمًا له ، وإنما يفعل من ذلك الواجب في شريعته ،

---

(١) من « هـ ، ن » .
(٢) في « هـ » : أمرنا .
(٣) مكررة بالأصل .
(٤) التوبة : ١٢٨ .

[٤/ق١٧٠-ب] وقد يدع الانتقام لنفسه ، لما جبله الله عليه من العفو / وكريم الخلق صلى الله عليه ومعنى هذا الحديث والله أعلم ، التأنيس للمسبوب لئلا يستولي عليه الشيطان ، ويقنطه ويوقع بنفسه أن سيلحقه من ضرر سبّه ما يحبط به عمله إذا سبّه عليه السلام هو دعاء على المسبوب ، ودعاؤه مجاب ، فسأل الله أن يجعل سبّه للمؤمنين قربة عنده يوم القيامة وصلاةً ورحمةً ، ولا يجعله نقمةً ولا عذابًا .

* * *

باب : التعوذ من الفتن

فيه : أنس : « سئل النبي – عليه السلام – حتى أحفوه [بالمسألة] [(١)] ، فغضب فصعد المنبر ، فقال : لا تسألوني عن شيء إلا بينته ، فإذا كل رجل لاف رأسه في ثوبه يبكي ، وإذا رجل كان إذا لاحى [الرجال] [(٢)] يدعى لغير أبيه ، فقال : من أبي يا رسول الله ؟ فقال : حذافة ... وذكر الحديث إلى قول عمر : نعوذ بالله من الفتن » .

وقد تقدم في كتاب الفتن .

* * *

باب : التعوذ من فتنة المحيا والممات

فيه : أنس : « كان النبي – عليه السلام – يقول : اللهم إني أعوذ بك من العجز والكسل ، والجبن والهرم ، وأعوذ بك من عذاب القبر ، وأعوذ بك من فتنة المحيا والممات » .

* * *

(١) من « هـ » .

(٢) في « الأصل » : الرجل . والمثبت من « هـ ، ن » .

باب : التعوذ من المأثم والمغرم

فيه : عائشة : أن النبي - عليه السلام - كان يقول : « اللهم إني أعوذ بك من الكسل والهرم ، والمأثم والمغرم ، ومن فتنة القبر وعذاب القبر ، ومن فتنة النار وعذاب النار ومن شر فتنة الغنى ، وأعوذ بك من فتنة الفقر ، وأعوذ بك من فتنة المسيح الدجال ، اللهم اغسل عني خطاياي بالماء والثلج والبرد ، ونقّ قلبي من الخطايا كما نقيت الثوب الأبيض من الدنس ، وباعد بيني وبين خطاياي كما باعدت بين المشرق والمغرب » .

وترجم له باب الاستعاذة من فتنة الغنى ، وترجم له باب الاستعاذة من فتنة الفقر ، وترجم لحديث أنس باب الاستعاذة من الجبن والكسل وفيه: « اللهم إني أعوذ بك من الهم والحزن والبخل ، وضلع الدين وغلبة الرجال » .

وترجم [له] (١) باب التعوذ من البخل وفيه سعد عن النبي عليه السلام : إني أعوذ بك من البخل والجبن ، وأعوذ بك من الرد إلى أرذل العمر » ، وترجم له ولحديث عائشة باب الاستعاذة من أرذل العمر ، وترجم لحديث أنس باب التعوذ من أرذل العمر ، وفيه : «أعوذ بك من الهرم » .

قال المؤلف : جميع أبواب الاستعاذة التي ترجم [بها] (١) تدل آثارها على أنه ينبغي سؤال الله والرغبة إليه في كل ما ينزل بالمرء من حاجاته ، وأن يعيّن كل ما يدعو فيه ، ففي ذلك إطالةُ الرغبة إلى الله تعالى والتضرع إليه وذلك طاعة لله - تعالى - ، وكان النبي - عليه السلام - يتعوذ بالله من كل ذلك ويعينه باسمه ، وإن كان الله قد عصمه

---

(١) من « هـ » .

من كل شر ، ليلزم نفسه خوف الله تعالى وإعظامه ، وليسُنّ ذلك لأمته ويعلمهم كيف الاستعاذة من كل شيء ، وقد روى ثابت البناني عن أنس قال : قال رسول الله - عليه السلام - : « ليسأل أحدكم ربه حاجاته كلها ، حتى يسأله شسع نعله إذا انقطع » .

ليستشعر العبد الافتقار إلى ربه في كل أمر [وإن دق] [1] ولا يستحيي من سؤاله ذلك ، فالتعوذ من فتنة المحيا والممات دعاء جامع لمعانٍ كثير لا تُحصى وكذلك التعوذ من المأثم والمغرم ، [روي عن عائشة : « أن رجلاً قال للنبي - عليه السلام - ما أكثر ما تستعيذ من المأثم والمغرم] [2] . فقال رسول الله - عليه السلام - : إن الرجل إذا غرم ، حدث فكذب ، ووعد فأخلف » .

وضلع الدين : هو الذي لا يجد [دينه] [3] من حيث يؤديه، وهو مأخوذ من قول العرب : حمل مضلع أي : ثقيل ، ودابة مضلع: لا تقوى على الحمل ، عن صاحب العين ، فمن كان هكذا فلا محالة أنه (يؤكد) [4] ذلك عليه الكذب في حديثه ، والخلف في وعده .

قال الطبري : فإن قال قائل : فإذ قد صح تعوّذ النبي - عليه السلام - من المغرم ، فما أنت قائل في ما روى جعفر بن محمد عن أبيه ، عن عبد الله بن جعفر قال : قال رسول الله - عليه السلام - : « إن الله مع الدائن حتى يقضي دينه ، ما لم يكن فيما كره [الله عز وجل] [2] » . وكان عبد الله بن جعفر يقول : اذهب فخذ لي بدين، فإني أكره أن أبيت ليلة إلا والله معي بعد ما سمعت من رسول الله ﷺ.

[٤/ق١٧١-أ] قيل : كلا الخبرين صحيح ، وليس في أحدهما / [دفع] [5]

(١) في « الأصل » : وارد . والمثبت من « هـ » . (٢) من « هـ » .
(٣) في « الأصل » : داينه . والمثبت من « هـ » .
(٤) في « هـ » : يولد .
(٥) في « الأصل » : دفعًا . والمثبت من « هـ » .

للآخر فأما قوله عليه السلام : « إن الله مع الدائن حتى يقضي دينه ما لم يكن فيما يكره الله - تعالى - » . فهو المستدين الذي ينوي قضاء دينه ، وعنده في الأغلب ما يقضيه فالله تعالى في عونه على قضائه ، وأما المغرم الذي استعاذ منه عليه السلام ، فإنه الدين الذي استدين على أحد ثلاثة أوجه : إما فيما يكرهه الله ولا يجد سبيلاً [إلى] (١) قضائه فحق الله تعالى أن يؤديه ، ومستدين فيما لا يكرهه؛ ولكنه لا وجه عنده لقضائه إن طالب به صاحبه ، فهو معرض لهلاك أموال الناس ومتلف لها ، ومستدين له إلى القضاء سبيل ؛ غير أنه نوى ترك [القضاء] (٢) وعزم على جحده ، فهو عاصٍ لربه وظالم لنفسه ، فكل هؤلاء في القضاء مخلفون وفي حديثهم كاذبون .

فكان معلومًا بذلك أن الحال التي كره عليه السلام الدين فيها غير الحال التي ترخص لنفسه فيها ، وذلك أنه عليه السلام مات ودرعه رهن عند يهودي بعشرين صاعًا من شعير ، وأما فتنة الغنى فيخشى منها بطر المال وما يئول من عواقب الإسراف في إنفاقه ، وبذله فيما لا ينبغي ، ومنع حقوق الله فيه ، ففتنة الغنى متشعبة إلى ما لا يحصى عده ، وكذلك فتنة الفقر يخشى منها قلة الصبر على الإقلال والتسخط له وتزيين الشيطان للمرء حال الغنى وما يئول من عاقبة ذلك لضعف البشرية ، وكذلك الاستعاذة من العجز والكسل لأنهما يمنعان العبد من أداء حقوق الله وحقوق نفسه وأهله ، وتضييع النظر في أمر معاده وأمر دنياه ، وقد أمر المؤمن بالاجتهاد في العمل والإجمال في الطلب ولا

---

(١) في « الأصل » : في . والمثبت من « هـ » .

(٢) في « الأصل » : الفضل . والمثبت من « هـ » .

يكون عالةً ولا عيالاً على غيره ما متّع بصحة جوارحه وعقله ، وكذلك الجبن مهانة في النفس وذلة ، ولا ينبغي للمؤمن أن يكون ذليلاً بالإيمان ولزوم طاعة الله التي تؤدي إلى النعيم المقيم ، فينبغي للمؤمن أن يكثر التعوّذ من ذلك [والهرم هو أرذل العمر] (١) الذي ينتهي بصاحبه إلى الخرف وذهاب العقل ، فيعود العالم جاهلاً ويصير إلى حال من لا ميز له ، ولا يقدر على أداء ما يلزمه من حقوق الله وحاجة نفسه ، ومثل هذا خشي عمر رضي الله عنه حين قال : اللهم كبرت سني ، وضعفت قوتي ، وانتشرت رعيتي فاقبضني إليك غير مفرط ولا مضيّع. وكان سنه حينئذ فيما قال مالك ستين سنةً ، وقيل : خمس وخمسين .

فخشي رضي الله عنه مزيد ضعفه فيضيع مما قلده الله شيئًا ، ومن متّعه الله بصحة لم [يزده] (٢) طول العمر إلا خيرًا يستكثر من الحسنات ويستعتب من السيئات ، وكذلك الهم والحزن لا ينبغي للمؤمن أن يكون مهمومًا بشيء من أمور الدنيا ، فإن الله تعالى قد قدّر الأمور فأحكمها وقدّر الأرزاق ، فلا يجلب الهم للعبد في الدنيا خيرًا ، ولا يأتيه بما لم يقدر له ، وفي طول الهم قلة رضًا بقدر الله وسخطه على ربّه .

وقد كان عمر بن عبد العزيز يقول : اللهم رضني بالقضاء ، وحبّب إليّ القدر حتى لا أحب تقديم ما أخرت ولا تأخير ما قدّمت . ومن آمن بالقدر فلا ينبغي له أن يهتم على شيء فاته من الدنيا ولايتهم ، ربّه ففيما قضى له الخيرة ، وإنما ينبغي للعبد الاهتمام بأمر الآخرة ويفكر في معاده وعرضه على ربه ، وكيف ينجو من سؤاله عن الفتيل والقطمير [ولذلك] (١) قال عليه السلام : « لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيرًا » . فهاهنا يحسن الهم والبكاء .

---

(١) من « هـ » . (٢) في « الأصل » : يزد . والمثبت من « هـ » .

وغلبة الرجال أشد من الموت ؛ لأن المغلوب يصير كالعبد لمن غلبه وقهره ، وكذلك البخل استعاذ منه عليه السلام لقوله تعالى : **﴿ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون﴾** [١] . وقال عليه السلام : «وأي داء أدوى من البخل » . ومعنى ذلك أن البخيل يمنع حقوق الله ، وحقوق الآدميين ، ويمنع معروفه ورفده ، ويسيء عشرة أهله وأقاربه .

قال الطبري : فإن قال قائل : قد دعا النبي - عليه السلام - بالمفصّلات والجوامع ، وكان السلف يستحبون الدعاء إلى الله -تعالى- بالجوامع كنحو الرغبة في العفو والعافية ، والمعافاة في الدنيا والآخرة اكتفاءً منهم بعلم الله بموضع حاجتهم ومبلغا .

قيل : لكل نوع من ذلك حالة [يختار] [٢] العمل به فيها على [الآخر] [٣] فالجوامع تحتاج في حال الحاجة إلى الإنجاز والاقتصاد ، والمفصلات بالأسماء والصفات في حالة الحاجة إلى إدامة الرغبة إلى من بيده مفاتيح خزائن السماوات والأرض استفتاحًا [بذلك] [٤] مغاليقها ، وقد دعا عليه السلام بكل ذلك في مواضعه .

* * *

/ باب : الدعاء برفع الوباء والوجع

[٤/ق١٧١-ب]

فيه : عائشة قال النبي - عليه السلام - : « اللهم حبّب إلينا المدينة كحبنا مكة أو أشد ، وانقل حماها إلى الجحفة » .

وفيه : سعد : « عادني رسول الله - عليه السلام - عام حجة الوداع من [شكوى][٥] أشفيت منها على الموت ... » وذكر الحديث .

---

(١) الحشر : ٩ ، التغابن : ١٦ .
(٢) في « الأصل » : يختل . والمثبت من « هـ » .
(٣) في « الأصل » : الأخرى . والمثبت من « هـ » .
(٤) في « الأصل » : لذلك . والمثبت من « هـ » .
(٥) في « الأصل » : حجة ، والمثبت من « هـ ، ن » .

لم يذكر في حديث سعد في هذا الباب دعاء النبي - عليه السلام - له برفع الوجع ، وذكر في كتاب المرضى ، في باب دعاء العائد للمريض وقال فيه : « اللهم اشف سعدًا » . وفي دعائه عليه السلام برفع الوباء والوجع رد على من زعم أن الولي لا يكره شيئًا مما قضى الله [عليه][1] ، ولا يسأله كشفه عنه ، ومن فعل ذلك لم تصح له ولاية الله، ولا خفاء بسقوط هذا لأنه قال : « اللهم حبّب إلينا المدينة وانقل حماها . . . » .

فدعا بنقل الحمى عن المدينة ، ومن فيها ، وهو عليه السلام داخل في تلك الدعوة ، ولا توكل أحد يبلغ توكله ، فلا معنى لقولهم ، وقد استقصيت هذا في كتاب الحج .

* * *

باب : الدعاء عند الاستخارة

فيه : جابر : « كان النبي - عليه السلام - يعلمنا الاستخارة في الأمور كلها كما يعلمنا السورة من القرآن ، إذا همّ بالأمر فليركع ركعتين ، ثم يقول : اللهم إني أستخيرك بعلمك وأستقدرك بقدرتك [وأسألك من فضلك العظيم ، فإنك تقدر] [2] ولا أقدر وتعلم ولا أعلم ، وأنت علام الغيوب ، اللهم إن كنت تعلم أن هذا الأمر خير لي في ديني ومعاشي وعاقبة أمري - أو قال : عاجل أمري وآجله - فاقدره لي ، وإن كنت تعلم أن هذا الأمر شر لي في ديني ومعاشي وعاقبة أمري - أو قال : عاجل أمري وآجله - فاصرفه عني واصرفني عنه ، واقدر لي الخير ورضني به ، ويسمي حاجته » .

---

(١) من « هـ » .　　(٢) من « هـ ، ن » .

فقه هذا الحديث أنه يجب على المؤمن رد الأمور كلها إلى الله ، وصرف أزمتها والتبرؤ من الحول والقوة إليه ، وينبغي له أن لا يروم شيئًا من دقيق الأمور وجليلها ، حتى يستخير الله فيه ويسأله أن يحمله فيه على الخير ويصرف عنه الشر ؛ إذعانًا بالافتقار إليه في كل أمره والتزامًا لذلة العبودية له ، وتبركًا باتباع سُنّة نبيّه - عليه السلام - في الاستخارة، ولذلك كان النبي - عليه السلام - يعلمهم هذا الدعاء كما يعلمهم السورة من القرآن [لشدة حاجتهم] (١) إلى الاستخارة في الحالات كلها كشدّة حاجتهم إلى القراءة في كل الصلوات ، وفي هذا الحديث حجة على القدريّة الذين يزعمون أن الله تعالى لا يخلق الشر ، تعالى الله عما يفترون ، وقد أبان النبي - عليه السلام - في هذا الحديث أن الله تعالى هو المالك للشر والخالق له ؛ إذ هو المدعو لصرفه عن العبد ، ومحال أن يسأله العبد أن يصرف عنه ما يملكه العبد من نفسه ، وما يقدر على اختراعه دون تقدير الله عليه ، وسيأتي في كتاب القدر .

* * *

باب : الوضوء عند الدعاء

فيه : أبو موسى قال : « دعا النبي - عليه السلام - بماء فتوضأ ، ثم رفع يديه وقال : اللهم اغفر لعبيد أبي عامر - ورأيت بياض إبطيه - وقال : اللهم اجعله يوم القيامة فوق كثير من خلقك من الناس » .

قال المؤلف : فيه استعمال الوضوء عند الدعاء ، وعند ذكر الله ، وذلك من كمال أحوال الداعي والذاكر ، ومما يرجى له به الإجابة لتعظيمه لله - تعالى - وتنزيهه له حين لم يذكره إلا على طهارة،

---

(١) في « الأصل » : لشدتهم . والمثبت من « هـ » .

ولهذا المعنى تيمّم النبي ﷺ بالجدار عند بئر جمل حين سلم عليه الرجل ، وكذلك ردّ السلام عليه السلام على حال تيمم ، ولم يكن له سبيل إلى الوضوء بالماء ، وعلى هذا مضى ﷺ ومضى سلف الأمة، كانوا لا يفارقون حال الطهارة ما قدروا لكثرة ذكرهم لله -تعالى- وكثرة تنفلهم ، وقد روي عن ابن عباس أن النبي - عليه السلام - كان يبول ويتيمم ، فأقول : « إن الماء قريب ، فيقول : لعليّ لا أبلغه » . وفيه حجة لمن استحب رفع اليدين في الدعاء .

* * *

[٤/ق١٧٢-أ]

/ باب : الدعاء إذا علا [عقبة] (١)

وقد تقدم في كتاب الجهاد .

باب : الدعاء إذا أراد سفرًا أو رجع منه

وقد تقدم أيضًا في الجهاد .

باب : الدعاء للمتزوج

وقد تقدم في النكاح .

باب ما يقول إذا أتى أهله

وقد تقدم في كتاب الوضوء .

* * *

باب : قول النبي - عليه السلام - ربنا آتنا في الدنيا حسنة

فيه : أنس بن مالك : « كان رسول الله ﷺ أكثر ما يدعو : اللهم آتنا في الدنيا حسنةً وفي الآخرة حسنةً وقنا عذاب النار » .

---

(١) في « الأصل » : عقب . والمثبت من « هـ ، ن » .

اختلف المفسرون في تأويل هذه الآية ، فقال الحسن : الحسنة في الدنيا العلم والعبادة ، وفي الآخرة الجنة . وقال قتادة : في الدنيا عافية، وفي الآخرة عافية . وقيل : الحسنة في الدنيا المال ، وفي الآخرة الجنة ، عن السدي .

* * *

باب : تكرير الدعاء

فيه : عائشة : « أن رسول الله ﷺ طُبَّ حتى إنه [ليخيل][1] إليه أنه صنع الشيء ، وما صنعه ، فدعا ربه ودعا .... » وذكر الحديث .

تكرير الدعاء حسن عند حال الحاجة إلى إدامة الرغبة لله - تعالى- في المهمات والشدائد النازلة بالعبد ، وفي تكرير العبد الدعاء إظهار لموضع الفقر والحاجة إلى الله والتذلل له والخضوع ، وقد قال عليه السلام : « إن الله يحب الملحّين في الدعاء » ، وإن « الدعاء هو العبادة » ، و« من لم يدع غضب الله عليه » .

وقد تقدم في أول كتاب الدعاء ، ومن حديث ابن عيينة : «أن النبي - عليه السلام - أوصى رجلاً ، فقال : عليك بالدعاء ، فإنك لا تدري متى يستجاب لك » .

* * *

باب : الدعاء على المشركين

وقال ابن مسعود : قال النبي - عليه السلام - : « اللهم أعنِّي عليهم بسبع كسبع يوسف » .

وقال : « اللهم عليك بأبي جهل » .

---

(١) في « الأصل » : ليتخيل . والمثبت من « هـ ، ن » .

وقال ابن عمر : « دعا النبي - عليه السلام - في الصلاة اللهم العن فلانًا وفلانًا ، حتى أنزل الله : ﴿ ليس لك من الأمر شيء ﴾ [1] .

فيه : ابن أبي أوفى : « دعا النبي - عليه السلام - على الأحزاب فقال: اللهم منزل الكتاب سريع الحساب ، اهزم الأحزاب اهزمهم وزلزلهم » .

وفيه : أبو هريرة : « كان النبي - عليه السلام - إذا قال : سمع الله لمن حمده في الركعة الآخرة من صلاة العشاء قنت إلى قوله : اللهم اشدد وطأتك على مُضر، اللهم اجعلها سنين كسني يوسف » .

وفيه : أنس : « بعث النبي - عليه السلام - سريةً يقال لهم : القراء ، فأصيبوا ، فما رأيت النبي - عليه السلام - وجد على شيء ما وجد عليهم ، فقنت شهرًا في صلاة الفجر يقول : إن عُصَيَّة عصت الله ورسوله » .

وفيه : عائشة : « كانت اليهود يسلمون على النبي - عليه السلام - يقولون : السّام عليك ، (فغضبت) [2] عائشة رضي الله عنها فقالت : عليكم السّام واللعنة ، فقال النبي - عليه السلام - : مهلاً يا عائشة ، إن الله يحب الرفق في الأمر كله. فقالت : يا نبي الله أو لم تسمع ما يقولون؟ فقال : أو لم تسمعي ما أرد عليهم ، أقول : وعليكم » .

وفيه : علي : قال النبي - عليه السلام - يوم الخندق : « ملأ الله قبورهم وبيوتهم نارًا كما شغلونا عن الصلاة الوسطى » .

قال المؤلف : قد تقدم هذا في كتاب الجهاد والاستسقاء ، ونذكر هاهنا طرفًا من معناه، إنما كان عليه السلام يدعو على المشركين على حسب ذنوبهم وإجرامهم ، فكان يبالغ في الدعاء على من اشتدّ أذاه للمسلمين ، ألا [ترى] [3]

---

(١) آل عمران : ١٢٨ . (٢) في « هـ » : ففطنت . (٣) من « هـ » .

أنه لما يئس من قومه قال : « اللهم اشدد وطأتك على مضر واجعلها كسني يوسف » . وقال مرةً : « اللهم أعنّي عليهم بسبع كسبع يوسف». ودعا على أبي جهل بالهلاك ودعا على الأحزاب بالهزيمة والزلزلة ، فأجاب الله دعاءه فيهم ، ودعا على الذين قتلوا القراء شهرًا في القنوت ، ودعا على أهل الأحزاب أن يحرقهم الله في بيوتهم وقبورهم ، فبالغ في الدعاء عليهم لشدّة إجرامهم ، ونهى عائشة عن الرد على اليهود باللعنة وأمرها بالرفق في (المقارضة) [1] لهم ، والرد عليهم مثل قولهم ولم يبح لها الزيادة والتصريح ، فيمكن أن يكون كان ذلك منه عليه السلام على وجه التألف لهم / [٤/ق١٧٢-ب] والطمع في إسلامهم والله أعلم .

وأما قوله في حديث ابن عمر حين لعن النبي - عليه السلام - المنافقين في الصلاة فأنزل الله - عز وجل - : ﴿ **ليس لك من الأمر شيء** ﴾ [2] فذهب بعض أهل التأويل أن هذه الآية ناسخة للعن النبي - عليه السلام - المنافقين في الصلاة والدعاء عليهم ، وأنه عوض من ذلك القنوت في الصبح ، رواه ابن وهب وغيره .

وأكثر العلماء على أن الآية ليست ناسخة ولا منسوخة ، وأن الدعاء على المشركين بالهلاك وغيره جائز لدعاء النبي - عليه السلام - عليهم في هذه الآثار المتواترة الثابتة .

* * *

باب : الدعاء للمشركين

فيه : أبو هريرة : « أن طفيل بن عمرو قدم على النبي - عليه السلام - فقال :

---

(١) المقارضة تكون في العمل السيئ والقول السيئ يقصد الإنسان به صاحبه ، انظر لسان العرب (مادة قرض) .

(٢) آل عمران : ١٢٨ .

يا رسول الله إن [دوسًا] [(١)] قد عصت وأبت ، فادع الله عليها ، فظن الناس أنه يدعو عليهم ، فقال : اللهم اهد دوسًا وائت (بها) [(٢)] » .

قد تقدّم هذا الباب في كتاب الجهاد ، ونبه البخاري على معناه في الترجمة فقال : باب الدعاء للمشركين بالهدى ليتألفهم، [ومر] [(٣)] هناك.

* * *

باب : قول النبي – عليه السلام – : « اللهم اغفر لي ما قدمت وما أخرت »

فيه : أبو موسى : « أن النبي – عليه السلام – كان يدعو بهذا الدعاء : رب اغفر لي خطيئتي وجهلي، وإسرافي في أمري كله ، وما أنت أعلم به مني ، اللهم اغفر لي خطاياي وعمدي ، وجهلي وهزلي ، وكل ذلك عندي ، اللهم اغفر لي ما قدمت وما أخرت ، وما أسررت وما أعلنت ، أنت المقدم وأنت المؤخر ، وأنت على كل شيء قدير » .

قال الطبري : إن قال قائل : ما وجه دعاء النبي – عليه السلام – الله أن يغفر له خطيئته وجهله وما تقدّم من ذنبه ، وقد أعلمه الله – تعالى – أنه قد غفر له ذلك كله ، فما وجه سؤاله ربه مغفرة ذنوبه ، وهي مغفورة، وهل يجوز إن كان كذلك أن يسأل العبد ربه أن يجعله من بني آدم – وهو منهم – وأن يجعل له يدين ورجلين وقد جعلهما له؟ فالجواب : أنه عليه السلام كان يسأل ربه في صلاته حين اقترب أجله ، وبعد أن أنزل عليه : ﴿ إذا جاء نصر الله والفتح ﴾ [(٤)] ناعيًا إليه نفسه فقال له: ﴿فسبح بحمد ربك واستغفره إنه كان توابًا ﴾ [(٥)] . وكان عليه السلام يقول :

---

(١) في « الأصل » : دويسًا . والمثبت من « هـ ، ن » .
(٢) في « هـ ، ن » : بهم .
(٣) في « الأصل » : ومن .
(٤) النصر : ١ .
(٥) النصر : ٣ .

« إني لأستغفر الله وأتوب إليه في اليوم سبعين مرة » . فكان هذا من فعله في آخر عمره وبعد فتح مكة ، وقد قال الله تعالى له : ﴿ **ليغفر لك الله ما تقدّم من ذنبك وما تأخر** ﴾ [1] . باستغفارك منه ، فلم يسأل النبي - عليه السلام - أن يغفر له ذنبًا قد غفر له ، وإنما غفر له ذنبًا وعده مغفرته له باستغفاره ، ولذلك قال : ﴿ **فسبح بحمد ربك واستغفره إنه كان توابًا** ﴾[2] .

قال غير الطبري : وقد اختلف العلماء في الذنوب هل تجوز على الأنبياء ، فذهب أكثر العلماء إلى أنه لا تجوز عليهم الكبائر لعصمتهم، وتجوز عليهم الصغائر.

وذهبت المعتزلة إلى أنه لا تجوز عليهم الصغائر كما لا تجوز عليهم الكبائر ، وتأولوا قوله تعالى : ﴿ **ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر** ﴾ [1] . فقالوا : إنما غفر له تعالى ما يقع منه من سهو وغفلة ، واجتهاد في فعل خير لا يوافق به حقيقة ما عند ربه ، فهذا هو الذي غفر له ، وسمّاه : ذنبًا ؛ لأن صفته صفة الذنب المنهي عنه ، إلا أن ذلك تعمد ، وهذا بغير قصد . وهذا تأويل بعيد من الصواب ، وذلك أنه لو كان السهو والغفلة ذنوبًا للأنبياء يجب عليهم الاستغفار منها ؛ لكانوا أسوأ حالاً من سائر الناس غيرهم ؛ لأنه قد وردت السنة المجمع عليها أنه لا يؤاخذ العباد بالخطأ والنسيان فلا يحتاجون إلى الاستغفار من ذلك، وما لم يوجب عليهم الاستغفار فلا يسمى عند العرب ذنبًا.

فالنبي عليه السلام المخبر لنا بذلك عن ربه أولى بأن يدخل مع أمته في معنى ذلك ، ولا يلزمه حكم السهو والخطأ ، وإنما يقع استغفاره عليه السلام كفارة

---

(١) الفتح : ٢ .   (٢) النصر : ٣ .

للصغائر الجائزة عليه ، وهي التي سأل الله غفرانها له بقوله : « اغفر لي ما قدمت وما أخرت » . وسأذكر هذه المسألة في حديث الشفاعة في باب [قوله تعالى : ﴿ **لما خلقت بيدي** ﴾ (١) في كتاب الاعتصام إن شاء الله تعالى ؛ لأن الحديث يقتضي ذلك] (٢) .

[٤/ق١٧٣-أ] وفيها قول آخر / يحتمل والله أعلم ، أن يكون دعاؤه عليه السلام ليغفر الله له ذنبه على وجه ملازمة الخضوع لله - تعالى - واستصحاب حال العبودية والاعتراف بالتقصير شكرًا لما أولاه ربه - تعالى - مما لا سبيل له إلى مكافأة بعمل ، فكما كان يصلي صلى الله عليه حتى ترم قدماه ، فيقال له : قد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر فيقول: « أفلا أكون عبدًا شكورًا » . فكان اجتهاده في الدعاء ، والاعتراف بالذلل والتقصير ، والأعواز والافتقار إلى الله تعالى شكرًا لربه ، كما كان اجتهاده في الصلاة حتى ترم قدماه شكرًا لربه ، إذ الدعاء لله - تعالى - من أعظم العبادة له ، [وليسُنّ] (٣) ذلك لأمته عليه السلام فيستشعروا الخوف والحذر ولا يركنوا إلى الأمن ، وإن كثرت أعمالهم وعبادتهم لله - تعالى - ، وقد رأيت المحاسبي أشار إلى هذا المعنى ، فقال : خوف الملائكة والأنبياء لله - تعالى - هو خوف إعظام لأنهم آمنون في أنفسهم [بأمان] (٤) الله لهم ، فخوفهم تعبد لله إجلالاً وإعظامًا .

* * *

باب : الدعاء في الساعة التي في يوم الجمعة

قد تقدم في كتاب الصلاة .

---

(١) سورة ص : ٧٥ . (٢) في « الأصل » : الاعتصام . والمثبت من « هـ» .
(٣) في « الأصل » : ليس والمثبت من « هـ » .
(٤) في « الأصل » : فأمان : والمثبت من « هـ » .

باب : قول النبي - عليه السلام - يستجاب لنا في اليهود ولا يستجاب لهم فينا

فيه : عائشة : « أن اليهود أتوا النبي - عليه السلام - فقالوا : السّام عليك ، قال : وعليكم ، فقالت عائشة : السّام عليكم ولعنكم الله وغضب عليكم . فقال رسول الله - عليه السلام - : مهلاً يا عائشة ، عليك بالرفق ، وإياك والعنف أو الفحش . قالت : أو لم تسمع ما قالوا؟! قال : أو لم تسمعي ما قلت ، رددت عليهم ، فيستجاب لي فيهم ، ولا يستجاب لهم فيّ » .

قال المؤلف : معنى هذا الحديث - والله أعلم - أنه ﷺ إنما يستجاب له في اليهود ؛ لأنهم على غير طريق الحق وضالين عن الهدى ، ومعاندين في التمادي على كفرهم بعدما تبين لهم الحق بالآيات الباهرات ، فلذلك يستجاب له فيهم ، ولهذا المعنى لم يستجب لهم في النبي - عليه السلام - لأنهم ظالمون في دعائهم عليه، قال تعالى : ﴿ **وما دعاء الكافرين إلا في ضلال** ﴾ [1] . وهذا أصل في دعاء الظالم أنه لا يستجاب [فيمن] [2] دعا عليه ، وإنما يرتفع إلى الله - تعالى - من الدعاء ما وافق الحق وسبيل الصّدق .

* * *

باب : فضل التهليل

فيه : أبو هريرة أن النبي - عليه السلام - قال : « من قال لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد ، وهو على كل شيء قدير في يوم مائة مرة، كانت له عدل عشر رقاب ، وكتبت له مائة حسنة ، ومحيت عنه مائة سيئة، وكانت له حرزًا من الشيطان يومه ذلك حتى يمسي ، ولم يأت أحد بأفضل مما جاء به إلا رجل عمل أكثر منه » .

---

(١) الرعد: ١٤، غافر: ٥٠.

(٢) في « الأصل » : فيما . والمثبت من « هـ » .

قال المؤلف : روى جابر بن عبد الله عن النبي - عليه السلام - أنه قال : «أفضل الذكر التهليل لا إله إلا الله ، وأفضل الدعاء الحمد لله » [وقال عليه السلام : « أفضل ما قلت أنا والنبيون من قبلي : لا إله إلا الله»][(١)] . وقد قيل إنه اسم الله الأعظم ، وذكر الطبري من حديث سعيد بن أبي عروبة ، عن عبد الله بن باباه المكي ، عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال: « إن الرجل إذا قال : لا إله إلا الله فهي كلمة الإخلاص التي لا يقبل الله عملاً حتى يقولها ، فإذا قال : الحمد لله، فهي كلمة الشكر التي لم يشكر الله أحد حتى يقولها » . وروي عن الأعمش ، عن مجاهد ، عن ابن عباس قال : « من قال لا إله إلا الله ، فليقل على إثرها : الحمد لله رب العالمين » . وقد روى سعيد ابن جبير ، عن ابن عباس قال : قال النبي - عليه السلام - : « أول من يدخل الجنة الحمادون ، الذين يحمدون الله في السراء والضراء » وقال عليه السلام « من قال : أشهدك أن ما أصبح بي من نعمة فمنك وحدك ، لا شريك لك ، لك الحمد والشكر ، فقد أدى شكر ذلك اليوم » وكان عليه السلام إذا أتاه أمر يكرهه قال : « الحمد لله على كل حال ، وإذا رأى أمرًا يسره قال : الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات » .

* * *

[٤/ق١٧٣-ب]

/ باب : فضل التسبيح

فيه : أبو هريرة قال رسول الله ﷺ : « من قال سبحان الله وبحمده [في يوم][(١)] مائة مرة حطت خطاياه ، وإن كانت مثل زبد البحر » .

وفيه : أبو هريرة قال النبي - عليه السلام - : « كلمتان خفيفتان على اللسان

---

(١) من « هـ ، ن » .

ثقيلتان في الميزان حبيبتان إلى الرحمن : سبحان الله وبحمده ، سبحان الله العظيم » .

معنى قولهم في لغة العرب [سبحان الله] [(١)] تنزيه الله من الأولاد والصاحبة والشركاء .

وقال وهب بن منبه : ما من عبد يقول سبحان الله وبحمده ، إلا قال الله - تعالى - : صدق عبدي سبحاني وبحمدي ، فإن سأل أعطي ما سأل ، وإن سكت غفر له ما لا يحصى .

وروي عن النبي - عليه السلام - أنه قال : « صلاة الملائكة التسبيح ، فأهل السماء الدنيا سجود إلى يوم القيامة يقولون : سبحان ذي الملك والملكوت ، وأهل السماء الثانية قيام إلى يوم القيامة يقولون: [سبحان ذي العزة والجبروت ، وأهل السماء الثالثة قيام إلى يوم القيامة يقولون][(١)] : سبحان الحي الذي لا يموت » .

وروى الليث ، عن ابن عجلان قال : جئت إلى القعقاع بن حكيم في السحر أسأله فلم [يجبني] [(٢)] ، فلمّا فرغ قال : هذه الساعة يوكل الله الملائكة بالناس يقولون سبحان الملك القدوس .

[و] [(١)] روي عن ابن عباس في قوله تعالى : ﴿ **الباقيات الصالحات** ﴾ [(٣)] سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر ، وهو قول سعيد بن المسيّب ومجاهد .

فإن قيل : هل ينوب شيء عن تكرار التسبيح والتحميد؟ قيل : قد روي عن صفية قالت : « مرّ بي النبي - عليه السلام - وأنا أسبح بأربعة آلاف

---

(١) من « هـ » .

(٢) في « الأصل » : يجيبني . والمثبت من « هـ » .

(٣) الكهف : ٤٦ .

نواة، فقال : لقد قلت كلمة هي [أفضل] [1] من تسبيحك . قلت : وما قلت ؟ قال : قلت : سبحان الله عدد ما خلق » .

وعن كريب عن ابن عباس : « أن النبي - عليه السلام - مرّ على جويرية في مصلاها باكرًا تسبح وتذكر الله ، فمضى لحاجته ، فرجع إليها بعد ما ارتفع النهار ، فقال لها : ما زلت في مكانك هذا ؟ قالت : نعم . فقال النبي صلى الله عليه : لقد تكلمت بكلمات لو وزنت بما قلت لرجحت ، سبحان الله عدد ما خلق ، سبحان الله رضا نفسه ، سبحان الله زنة عرشه ، سبحان الله مداد كلماته ، والحمد لله مثل ذلك » .

وقال بعض الناس : هذه الفضائل التي جاءت عن النبي - عليه السلام - : « من قال سبحان الله وبحمده مائة مرة غفر له . . . » [و][2] ما شاكلها إنما هي لأهل الشرف في الدين والكمال [و] [3] الطهارة من الجرائم العظام ، ولا يظن أن من فعل هذا وأصرّ على ما شاء من شهواته وانتهك دين الله وحرماته أنه يلحق بالسابقين المطهرين، وينال منزلتهم في ذلك [بحكاية] [4] أحرف ليس معها تقىً ولا إخلاص ، ولا عمل ، ما أظلمه لنفسه من يتأول دين الله على هواه .

* * *

باب : فضل ذكر الله

فيه : أبو موسى : قال النبي - عليه السلام - : « مثل الذي يذكر ربه ، والذي لا يذكر ربه مثل الحي والميت » .

وفيه : أبو هريرة قال النبي - عليه السلام - : « إن لله - تعالى - ملائكة يطوفون في الطرق يلتمسون أهل الذكر ، فإذا وجدوا قومًا يذكرون الله تنادوا : هلموا إلى

---

(١) في « الأصل » : لأفضل . والمثبت من « هـ » . (٢) من « هـ » .
(٣) في « الأصل » : في . والمثبت من « هـ » .
(٤) في « الأصل » : فحكاية . والمثبت من « هـ » .

حاجتكم ، فيحفونهم بأجنحتهم إلى السماء الدنيا ، فيسألهم ربهم جل ثناؤه وهو أعلم منهم ، ما يقول عبادي ؟ قالوا : يسبحونك ويكبرونك ويحمدونك ويمجدونك . قال : فيقول : هل رأوني ؟ قال : فيقولون : لا، والله ما رأوك . قال : فيقول : فكيف لو رأوني ؟ فيقولون : لو رأوك كانوا لك أشدّ عبادةً وأشد تمجيدًا وأكثر تسبيحًا . قال : فما يسألون ؟ قالوا : يسألونك الجنة . قال : فيقول : هل رأوها ؟ قال : فيقولون : لا والله يا رب ما رأوها . قال : فيقول : فكيف لو رأوها ؟ قال : يقولون : لو [أنهم] [(١)] رأوها كانوا أشد حرصًا عليها ، وأشد طلبًا لها ، وأعظم رغبةً فيها . قال : فمِّم يتعوذون ؟ قالوا : يتعوذون من النار . قال : يقول: وهل رأوها ؟ قال : يقولون : لا والله يا رب ما رأوها . قال : يقول : وكيف لو رأوها ؟ قال : يقولون : لو رأوها كانوا أشد منها فرارًا، وأشد لها مخافة . قال : فيقول : اشهدوا أني قد غفرت لهم . قال: يقول ملك من الملائكة : فيهم فلان ليس منهم ، إنما جاء لحاجة . قال : هم الجلساء لا يشقى بهم جليسهم » .

قال المؤلف : هذا حديث شريف في فضل ذكر الله / عز وجل [٤/ق١٧٤-أ] وتسبيحه وتهليله ، وقد وردت في ذلك أخبار كثيرة منها ما روى زيد ابن أسلم : سمعت عبد الله بن عمر قال : قلت لأبي ذرّ : يا عمّ ، أوصني. قال : سألت رسول الله كما سألتني ، فقال : « ما من يوم وليلة إلا ولله فيه صدقة يمنّ بها على من يشاء من عباده ، وما مَنّ الله على عباده [بمثل أن] [(٢)] يلهمهم ذكره » .

وروى شعبة وسفيان عن أبي إسحاق عن أبي مسلم الأغر أنه شهد على أبي هريرة وأبي سعيد ، أنهما شهدا على رسول الله ﷺ أنه قال:

---

(١) من « هـ ، ن » .   (٢) في « الأصل » : بأن . والمثبت من « هـ » .

«ما من قوم يذكرون الله إلا حفّت بهم الملائكة ، وغشيتهم الرحمة ، ونزلت عليهم السكينة ، وذكرهم الله فيمن عنده » .

وقال معاذ : ليس شيء أنجى من عذاب الله من ذكر الله .

وقال ابن عباس ، يرفع الحديث : « من عجز منكم عن الليل أن يكابده ، وبخل بالمال أن ينفقه ، وجبن عن العدو أن يجاهده ، فليكثر من ذكر الله » .

وروى أبو سلمة عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : «سيروا، سبق المستهترون . قيل : ومن هم يا رسول الله ؟ قال : الذين أُهتروا واستهتروا بذكر الله ، يضع الذكر عنهم أثقالهم ، ويأتون يوم القيامة خفافًا » [1] .

وروى أبو هريرة عن النبي - عليه السلام - قال : « ما جلس قوم مجلسًا لم يذكروا الله فيه، ولم يصلوا على نبيهم إلا كان عليهم ترة» .

وعن جابر قال : قال رسول الله - عليه السلام - : « ارتعوا في رياض الجنة . قالوا : يا رسول الله ، وما رياضُ الجنّة ؟ قال : مجالس الذكر ، واغدوا وروحوا في ذكر الله ، واذكروهُ في أنفسكم ، من أحبّ أن يعلم منزلته عند الله فلينظر كيف منزلة الله عنده ، فإن الله ينزل العبد من نفسه حيث أنزله من نفسه » .

وروى الأعمش عن سالم [بن أبي الجعد] [2] قال : قيل لأبي الدرداء : إن رجلاً أعتق مائة نسمةً قال : إن ذلك من مال رجل لكثير، وأفضل من ذلك إيمان ملزوم بالليل والنهار ، ولا يزال لسان أحدكم رطبًا من ذكر الله .

---

(١) أخرجه ابن عدي في الكامل (٥/ ١٥) من طريق أبي سلمة عن أبي الدرداء ، ولفظه : سبق المفردون ، وفي النهاية في غريب الحديث (٥/ ٢٤٢) المستهترون بذكر الله يعني الذين أولعوا به .

(٢) في « الأصل » : عن أبي العز وهو تحريف . والمثبت من « هـ » .

وعن ابن عباس قال : « سأل موسى صلوات الله عليه ربه - تعالى- فقال : ربّ ، أي عبادك أحبّ إليك ؟ قال : الذي يذكرني ولا ينساني» . ثم قال ابن عباس : ما جلس قوم في بيت من بيوت الله ، يذكرون الله ، إلا كانوا أضيافًا لله عز وجل ما داموا فيه [حتى يتصدعوا عنه ، وأظلتهم الملائكة بأجنحتها ما داموا فيه] [1] .

ذكر هذه الآثار كلها الطبري في آداب النفوس ، قال المؤلف : وفقه هذا الباب أنّ معنى أمر الله تعالى العبد بذكره وترغيبه فيه ؛ ليكون ذلك سببًا لمغفرته تعالى له ورحمته إياه ، لقوله تعالى : ﴿ **فاذكروني أذكركم**﴾[2] وذكر الله للعبد رحمة له ، قال ثابت البناني : قال أبو عثمان النهدي : إني لأعلم الساعة التي يذكرنا الله - تعالى - فيها . قيل : ومن أين تعلمها ؟ قال : [يقول] [3] الله : ﴿ **فاذكروني أذكركم**﴾[2] .

وقال السدي : ليس من عبد يذكر الله إلا ذكره الله ، لا يذكره مؤمن إلا ذكره الله برحمته ، ولا يذكره كافر إلا ذكره الله بعذاب . وروي معناه عن ابن عباس وقيل : المعنى : اذكروا نعمتي عليكم شكرًا لها ، أذكركم برحمتي والزيادة من النعم .

وروي عن عمر بن الخطاب : إن الذكر ذكران : أحدهما : ذكر الله عند أوامره ونواهيه ، [والثاني : ذكر الله باللسان، وكلاهما فيه الأجر، إلا أن ذكر الله تعالى عند أوامره ونواهيه] [1] إذا فعل الذاكر ما أُمر به ، وانتهى عما نُهي عنه ؛ أفضل من ذكره باللسان مع مخالفة أمره ونهيه ، والفضل كله والشرف والأجر في اجتماعهما من الإنسان، وهو ألا ينسى ذكر الله عند أمره ونهيه فينتهي ، ولا ينساه من ذكره بلسانه ، وسأذكر في كتاب الرقاق في باب من همّ بحسنة أو سيئة ،

---

(١) من « هـ » .
(٢) البقرة : ١٥٢ .
(٣) في « الأصل » : يذكر . والمثبت من « هـ » .

هل يكتب الحفظة الذكر بالقلب ؟ [وما للسلف في ذلك إن شاء الله تعالى] [1] .

وذكر البخاري في كتاب الاعتصام في باب قوله تعالى : ﴿ويحذركم الله نفسه﴾ [2] حديث أبي هريرة عن النبي - عليه السلام- قال : « إذا ذكرني عبدي في نفسه ذكرته في نفسي ، وإذا ذكرني في ملأ ذكرته في ملأ خير منهم . . . » الحديث .

قال الطبري : ومن جسيم ما يُرجى به للعبد الوصول إلى رضا ربه ذكره إياه بقلبه ، فإن ذلك من شريف أعماله عنده ؛ لحديث أبي هريرة. فإن قيل : فهل من أحوال العبد حال يجب [عليه] [1] فيها ذكر الله فرضًا بقلبه ؟ قيل : نعم هي أحوال أداء فرائضه ، من صلاة وصيام ، وزكاة وحج وسائر الفرائض ، فإن على كل من لزمه عمل شيء من ذلك أن يكون عند دخوله في كل ما كان من ذلك له تطاول بابتداء بأوّل وانقضاء بآخر أن يتوجّه إلى الله - تعالى - بعمله ، وبذكره في حال ابتدائه فيه ، وما لم يكن له تطاول منه ، فعليه توجهه إلى الله بقلبه في حال عمله وذكره ، ما كان / مشتغلاً به ، وما كان نفلاً وتطوعًا فإنه وإن لم يكن فرضًا عليه فلا ينتفع به عامله إن لم يرد به وجه الله ، ولا ذكره عند ابتدائه فيه . [٤/ق١٧٤-ب]

* * *

باب : قول الرجل : لا حول ولا قوة إلا بالله

فيه : أبو موسى : « أخذ النبي - عليه السلام - في عقبة أو في ثنية ، فلما علا عليها نادى رجل فرفع صوته : لا إله إلا الله والله أكبر ، قال : والنبي - عليه السلام - على بغلته، فقال : أربعوا على أنفسكم ، فإنكم لا تدعون أصمّ ولا غائبًا ، ثم قال : ألا أدلك على كنز من كنز الجنة ؟ قلت : بلى . قال : لا حول ولا قوة إلا بالله » .

---

(١) من « هـ » .

(٢) آل عمران : ٢٨ .

قال الطبري : إن قال قائل : أي أنواع الذكر أفضل ؛ فإن ذلك أنواع كثيرة ، منها التسبيح والتحميد والتهليل والتكبير ؟ قيل : أعلى ذلك وأشرفه الكلمة التي لا يصح لأحدٍ عمل إلا بها ، ولا [إيمان][1] إلا بالإقرار بها ، وذلك التهليل ، وهو لا إله إلا الله ، على ما تقدّم في حديث جابر في باب فضل التهليل ، روى أبو هريرة عن رسول الله ﷺ : «الإيمان بضع (وستون) [2] خصلة ، أكبرها شهادة أن لا إله إلا الله وأصغرها إماطة الأذى عن الطريق » . وقال عليه السلام : « أفضل ما قلت أنا والنبيون من [قبلي] [3] : لا إله إلا الله » .

فإن قيل : ما معنى قول النبي - عليه السلام - للذي رفع صوته بلا إله إلا الله، ألا أدلك على كنز من كنز الجنة (فقال) [4] : لا حول ولا قوة إلا بالله ، ولا إله إلا الله تغني عن غيرها ، وهي المنجية من النار ؟ فالجواب : أن النبي - عليه السلام - كان معلمًا لأمته ، وكان لا يراهم على حالة من الخير ، إلا أحبّ لهم الزيادة عليها فأحب للذي رفع صوته بكلمة الإخلاص والتوحيد أن يردفها بالتبرؤ من الحول والقوة لله - تعالى - وإلقاء القدرة إليه ، فيكون قد جمع مع التوحيد الإيمان بالقدر .

وقد جاء نحو هذا المعنى في حديث عبد الله بن باباه المكي ، عن عبدالله بن عمرو بن العاص قال : إن الرجل إذا قال : لا إله إلا الله ، فهي كلمة الإخلاص التي لا يقبل الله من أحدٍ عملاً حتى يقولها ، فإذا قال : الحمد لله ، فهي كلمة الشكر التي لم يشكر الله أحد حتى يقولها ، فإذا قال : الله أكبر فهي [كلمة] [5] تملأ ما بين السماء والأرض ، فإذا قال : سبحان الله فهي صلاة الخلائق التي لم يدع الله

(١) في « الأصل » : الإيمان . والمثبت من « هـ » .
(٢) في « هـ » : وستين .
(٣) في « الأصل » : قبل . والمثبت من « هـ » .
(٤) في « هـ » : قل . (٥) من « هـ » .

أحدًا حتى قرره بالصلاة والتسبيح ، وإذا قال : لا حول ولا قوة إلا بالله . قال : استسلم عبدي .

وروي عن سالم بن عبد الله ، عن أبي أيوب الأنصاري : « أن النبي - عليه السلام - ليلة أسري به مرّ على إبراهيم خليل الله ، فقال له : مُر أمتك فليكثروا من غراس الجنة ، فإن تربتها طيبة وأرضها واسعة . قال له النبي ﷺ : وما غراس الجنة ؟ قال : لا حول ولا قوة إلا بالله » . ومن حديث جابر عن النبي - عليه السلام- قال : «أكثروا من قول : لا حول ولا قوة إلا بالله ، فإنها [تدفع][1] تسعًا وتسعين داءً أدناها الهم » . وقال مكحول : من قالها كشف عنه [سبعون] [2] بابًا من الضر ، أدناها الفقر . ومعنى لا حول ولا قوة إلا بالله : لا حول عن معاصي الله إلا بعصمة الله ، ولا قوة على طاعة الله إلا بالله ، قال النبي - عليه السلام - : « كذلك أخبرني جبريل عن الله - تعالى - » .

وروي عن عليّ بن أبي طالب تفسير آخر قال تفسيرها : إنا لا نملك مع الله شيئًا، ولا نملك من دونه شيئًا ، ولا نملك إلا ما ملكنا مما هو أملك به منا .

وحكى أهل اللغة أن معنى لا حول : لا حيلة ، يقال : ما للرجل حيلة ولا قول ولا احتيال ولا محتال ولا محالة ولا محال ، وقوله : ﴿ **وهو شديد المحال** ﴾ [3] يعني : المكر والقوة والشدّة .

* * *

باب : لله مائة اسم غير واحد

فيه : أبو هريرة - روايةً - قال : « إن لله تسعة وتسعين اسمًا مائة إلا واحدًا ، لا يحفظها أحد إلا دخل الجنة ، وهو وتر يحب الوتر » .

---

(١) في « الأصل » : ترفع . والمثبت من « هـ » .

(٢) في « الأصل » : تسعين . والمثبت من « هـ » .   (٣) الرعد : ١٣ .

قال المهلب : اختلف الناس في الاستدلال من هذا الحديث ، فذهب قوم إلى أن ظاهره يقتضي أن لا اسم لله تعالى غير التسعة والتسعين اسمًا التي نص عليها النبي - عليه السلام - إذ لو كان له غيرها لم يكن لتخصيص هذه العدة معنى ، قالوا : والشريعة متناهية والحكمة فيها بالغة ، وذهب آخرون إلى أنه يجوز أن تكون له أسماء زائدة على التسعة والتسعين ، إذ لا يجوز أن تتناهى / أسماء الله - تعالى - ، [٤/ق١٧٥-أ] لأن مدائحه وفواضله غير متناهية كما قال تعالى في كلماته وحكمه : **﴿ولو أن ما في الأرض من شجرة أقلام والبحر يمدّه من بعده سبعة أبحرٍ ما نفدت كلمات الله ﴾** (١) .

ومعنى ما أخبرنا به النبي ﷺ من التسعة وتسعين اسمًا إنما هو معنى الشرع لنا في الدعاء بها ، وغيرها من الأسماء لم يشرع لنا الدعاء بها؛ لأن حديث النبي - عليه السلام - مبني على قوله تعالى : **﴿ ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها ﴾** (٢) . فكان ذكر هذا العدد إنما هو لشرع الدعاء به ، وهذا القول أميلُ إلى النفوس ؛ لإجماع الأمة على أن الله - تعالى - لا يبلغ كنهه الواصفون ولا ينتهي إلى صفاته المقرظون دليل لازم أن له أسماء غير هذه وصفات ، وإلا فقد تناهت صفاته [تعالى عن] (٣) ذلك ، وهذا قول أبي الحسن الأشعري و[ابن] (٤) الطيب وجماعة من أهل العلم .

قال ابن الطيب: وليس في الحديث دليل على أن ليس لله -تعالى- أكثر من تسعة وتسعين اسمًا ، لكن ظاهر الحديث يقتضي من أحصى تلك التسعة وتسعين اسمًا على وجه التعظيم لله دخل الجنة ، وإن كان له أسماء أخر . وقال أبو الحسن بن القابسي - رحمه الله: أسماء الله وصفاته لا تعلم إلا بالتوقيف ، والتوقيف كتاب الله - تعالى - وسنة

(١) لقمان : ٢٧ .
(٢) الأعراف : ١٨٠ .
(٣) في « الأصل » : على غير ذلك . والمثبت من « هـ » .
(٤) في « الأصل » : أبي . وهو تحريف ، والمثبت من « هـ » .

نبيه - عليه السلام - أو اتفاق أمته ، وليس للقياس في ذلك مدخل، وما أجمعت عليه الأمة ، فإنما هو عن سمع علموه من بيان الرسول .

قال : ولم يذكر في كتاب الله لأسمائه تعالى عدد مسمّى ، وقد جاء حديث أبي هريرة عن النبي - عليه السلام - « إن لله تسعة وتسعين اسمًا » . وقد أخرج بعض الناس من كتاب الله - تعالى - تسعةً وتسعين اسمًا ، والله أعلم بما خرج من هذا العدد إن كان كل ذلك أسماء ، أو بعضها أسماء وبعضها صفات ، ولا يسلم له ما نقله من ذلك.

وقال الداودي : لم يثبت عن النبي - عليه السلام - أنه نص على التسعة والتسعين اسمًا . قال ابن القابسي : وقد روى مالك ، عن سمي ، عن القعقاع بن حكيم أن كعب الأحبار أخبره قال : لولا كلمات أقولهن لجعلتني يهود حمارًا . فقيل له : ما هن ؟ فقال : أعوذ بوجه الله العظيم الذي ليس شيء أعظم منه ، وبكلمات الله التامات التي لا يجاوزهن بر ولا فاجر ، وبأسماء الله الحسنى [كلها][(١)] ما علمت منها وما لم أعلم ؛ من شر ما خلق وذرأ وبرأ .

فهذا كعب على علمه واتساعه لم يتعاط أن يحصر معرفة الأسماء في مثل ما حصرها هذا الذي زعم أنه عرفها من القرآن ، والدعاء في هذا بدعاء كعب أولى وأسلم من التكلف ، وسمعت أبا إسحاق الشيباني يدعو بذلك كثيرًا ، وسيأتي تفسير الإحصاء ، والمراد بهذا الحديث في كتاب الاعتصام في باب قول النبي - عليه السلام - باسم الله الأعظم ، فمنها ما رواه وكيع ، عن مالك بن مغول ، عن عبدالله ابن بريدة ، عن أبيه : « أن رسول الله ﷺ سمع رجلاً يقول : اللهم إني أسألك بأني أشهد أنك لا إله إلا أنت الأحد الصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوًا أحد . فقال : لقد دعا باسم الله الأعظم الذي إذا دُعي به أجاب ، وإذا سئل به أعطى » .

---

(١) من « هـ » .

ومنها حديث شهر بن حوشب عن أسماء بنت يزيد عن النبي -عليه السلام - قال : « اسم الله الأعظم في هاتين الآيتين : ﴿**وإلهكم إله واحد لا إله إلا هو الرحمن الرحيم**﴾ [١] . . . . ». ومنها ما رواه علي بن زيد بن جدعان ، عن سعيد بن المسيب قال : سمعت سعد بن مالك يقول : [سمعت النبي ﷺ يقول] [٢] : « اسم الله الذي إذا سئل به أعطى وإذا دعي به أجاب دعوة يونس بن متى ، ألم تسمع قوله : ﴿ **فنادى في الظلمات أن لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين فاستجبنا له ونجيناه من الغم وكذلك ننجي المؤمنين**﴾[٣] ، فهو شرط الله لمن دعا بها » .

قال الطبري : قد اختلف السلف قبلنا في ذلك ، فقال بعضهم في ذلك ما قال قتادة: اسم الله الأعظم : اللهم إني أعوذ بأسمائك الحسنى كلها ما علمت منها وما لم أعلم ، وأعوذ بأسمائك التي إذا دعيت بها أجبت ، وإذا سئلت بها أعطيت . وقال آخرون : اسم الله الأعظم : هو الله ، ألم تسمع قوله : ﴿ **هو الله الذي لا إله إلا هو عالم الغيب والشهادة هو الرحمن الرحيم * هو الله الذي لا إله إلا هو**... ﴾ [٤] إلى آخر السورة . وقال آخرون بأقوال مختلفة لروايات رووها عن العلماء / قال الطبري : والصواب في كل ما روينا في [٤/ق١٧٥-ب] ذلك عن النبي - عليه السلام - وعن السلف أنه صحيح ، فإن قيل : وكيف يكون ذلك صحيحًا مع اختلاف ألفاظه ومعانيه ؟

فالجواب : أنه لم يرو عن أحد منهم أنه قال في شيء من ذلك قد دعا باسمه الأعظم الذي لا اسم له أعظم منه فيكون ذلك من روايتهم اختلافًا ، وأسماء الله - تعالى - كلها عندنا عظيمة جليلة ، ليس منها صغير وليس منها اسم أعظم من اسم ، ومعنى قوله عليه السلام : لقد دعا باسمه الأعظم ؛ لقد دعا باسمه العظيم ، كما قال

---

(١) البقرة : ١٦٣ . (٢) من « هـ » .
(٣) الأنبياء : ٨٧ . (٤) الحشر : ٢٢ ، ٢٣ .

تعالى : ﴿ وهو الذي يبدأ الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه ﴾ [(١)] بمعنى وهو هين عليه ، وكما قال ابن أوس :

لعمركَ ما أدري وإني لأَوْجَل

بمعنى إني لوجِل ، ويبين صحة ما قلناه حديث حفص ابن أخي أنس ابن مالك ، عن أنس ، عن النبي - عليه السلام - أنه قال : «لقد دعا باسمه العظيم الذي إذا دعي به أجاب » . فقال : باسمه العظيم ، إذ كان معنى ذلك ومعنى الأعظم [واحدًا] [(٢)] .

وقال أبو الحسن بن القابسي : لا يجوز أن يقال في أسماء الله وصفاته ما يُشبه المخلوقات ، ولو كان في أسماء الله اسمًا أعظم من اسم لكان غيره ومنفصلاً منه، والاسم هو المسمى على قول أهل السنة فلا يجوز أن يكون الاسمان متغايرين ، ومن جعل اسمًا أعظم من اسم صار إلى قول من يقول : القرآن مخلوق .

قال الطبري : فإن قيل : فلو كان كما وصفت كل اسم من أسماء الله عظيمًا ، لا شيء منها أعظم من شيء ، لكان كل من دعا باسم من أسمائه مجابًا دعاؤه كما استجيب دعاء صاحب سليمان - عليه السلام - الذي أتاه بعرش بلقيس من مسيرة شهر قبل أن يرتدّ إلى سليمان طرفه ؛ لأنه كان عنده علم من اسم الله الأعظم ، وكذلك عيسى - صلوات الله عليه - [به] [(٣)] كان يحيي الموتى ويبرئ الأكمه والأبرص وقد يدعو أحدنا الدهر الطويل بأسمائه فلا يستجاب له ، فدل أن الأمر بخلاف ذلك .

قيل : بل الأمر في ذلك كما قلناه ، ولكن أحوال الداعين تختلف، فمن داعٍ ربه تعالى لا ترد دعوته ، ومن داعٍ محله محل من غضب الله عليه وعرضه للبلاء والفتنة فلا يرد كثيراً من دعائه ليبتليه به ويبتلي به

---

(١) الروم : ٢٧ .

(٢) في « الأصل » : واحد . والمثبت من « هـ » . (٣) من « هـ » .

غيره، ومن داعٍ يوافق دعاؤه محتوم قضائه ومبرم قدره ، وقد قال عليه السلام : « ما من مسلم يدعو إلا استجيب له ما لم يدع بإثم أو قطيعة رحم ، إما أن يعجل له في الدنيا ، أو إما أن يدخر له في الآخرة ، وإما أن يصرف عنه من السوء بقدر ما دعا». ويبين ما قلناه أنا وجدنا [أنه] (١) يدعو بالذي دعا به [الذين] (٢) عجلت لهم الإجابة فلا يجاب له ، فدل أن الذي أوجب الإجابة لمن أُجيب ، وترك الاستجابة لمن لم يستجب له هو اختلاف (حال) (٣) الداعين ، لا الدعاء باسم من أسماء الله بعينه .

وقد وقع في هذا الحديث رواية سفيان عن أبي الزناد : « مائة إلا واحدة » . ولا يجوز في العربية ، وقد جاء هذا الحديث في كتاب الاعتصام : « مائة إلا واحدًا » . من رواية شعيب عن أبي الزناد ، وهو الصحيح في العربية ؛ لأن الاسم مذكر ، فلا يستثنى منه إلا مذكر مثله .



(١) من « هـ » . (٢) في « الأصل » : الذي . والمثبت من « هـ » .
(٣) في « هـ » : أحوال .

كتاب الرقاق

باب : لا عيش إلا عيش الآخرة

فيه : ابن عباس : قال النبي – عليه السلام – : « نعمتان مغبون فيهما كثير من الناس : الصحة والفراغ » .

وفيه : أنس [وسهل] (١) : « كنا مع النبي – عليه السلام – بالخندق ، وهو يحفر ونحن [ننقل التراب] (٢) وبصر بنا ، فقال : اللهم لا عيش إلا عيش الآخرة ، فاغفر للأنصار والمهاجرة » .

قال المؤلف : قال بعض العلماء إنما أراد عليه السلام بقوله الصحة والفراغ نعمتان تنبيه أمته على مقدار عظيم نعمة الله على عباده في الصحة والكفاية ؛ لأن المرء لا يكون فارغًا حتى يكون مكفيًا مؤنة العيش في الدنيا ، فمن أنعم الله عليه بهما فليحذر أن يغبنهما ، ومما يستعان به على دفع الغبن أن يعلم العبد [أن] (٣) الله – تعالى – خلق الخلق من غير ضرورة إليهم ، وبدأهم بالنعم الجليلة من غير استحقاق منهم لها ، فمنّ عليهم بصحة الأجسام وسلامة العقول ، وتضمن أرزاقهم وضاعف لهم الحسنات ولم يضاعف عليهم السيئات/ [٤/ق١٧٦-أ] وأمرهم أن يعبدوه ويعتبروا بما ابتدأهم به من النعم الظاهرة والباطنة ، ويشكروه عليها بأحرفٍ يسيرة، وجعل مدة طاعتهم في الدنيا منقضية بانقضاء

---

(١) في « الأصل » : سهيل . والمثبت من « هـ » .
(٢) في « الأصل » : نمر بالتراب . وهو تحريف ، والمثبت من « هـ ، ن » .
(٣) في « الأصل » : بأن . والمثبت من « هـ » .

أعمارهم ، وجعل جزاءهم على ذلك خلودًا دائمًا في جنات لا انقضاء لها مع ما ذخر لمن أطاعه مما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ، فمن أنعم النظر في هذا كان حريًا ألا يذهب عنه وقت من صحته وفراغه إلا وينفقه في طاعة ربه ، ويشكره على عظيم مواهبه والاعتراف بالتقصير عن بلوغ (كنه تأدية) [1] ذلك ، فمن لم يكن هكذا وغفل وسها عن التزام ما ذكرنا ، ومرت أيامه عنه في سهو ولهو وعجز عن القيام بما لزمه لربه - تعالى - فقد غبن أيامه ، وسوف يندم حيث لا ينفعه الندم ، وقد روى الترمذي من حديث ابن المبارك ، عن يحيى بن عبيد الله بن موهب ، عن أبيه ، عن أبي هريرة قال : قال رسول الله - عليه السلام - : « ما من أحد يموت إلا ندم ، قالوا : وما ندامته يا رسول الله ؟ قال : إن كان محسنًا ندم ألا يكون ازداد ، وإن كان مسيئًا ندم ألا يكون نزع » .

وأما قوله : « اللهم لا عيش إلا عيش الآخرة » . فإنه نبه بذلك أمته على تصغير شأن الدنيا وتقليلها ، وكدر لذاتها وسرعة فنائها ، وما كان هكذا فلا معنى للشغل به عن العيش الدائم الذي لا كدر في لذاته ، بل فيه ما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين .

* * *

باب : مثل الدنيا في الآخرة وقوله تعالى : ﴿ إنما الحياة الدنيا لعب ولهو ...﴾ إلى قوله تعالى : ﴿ إلا متاع الغرور ﴾ [2]

فيه : سهل : قال النبي - عليه السلام - : « موضع سوط في الجنة خير من الدنيا وما فيها » .

---

(١) في « هـ » : تأدية كنه .

(٢) الحديد : ٢٠ .

قال المؤلف : قد بين رسول الله ﷺ منزلة الدنيا من الآخرة ، بأن جعل موضع سوط من الجنة أو غدوة في سبيل الله أو روحة خير من الدنيا وما فيها ، وإنما أراد ثواب الغدوة أو الروحة في الآخرة ؛ لينبه أمته على هوان الدنيا عند الله - تعالى - وضعتها ، ألا ترى أنه لم يرضها دار جزاءٍ لأوليائه ولا نقمة لأعدائه ؛ بل هي كما وصفها تعالى ﴿ **لعب ولهو وزينة** ﴾ الآية .

وقد روى الترمذي ، عن محمد بن بشار ، عن يحيى بن سعيد ، عن إسماعيل ابن أبي خالد ، عن قيس بن أبي حازم قال : سمعت مستورد بن شداد الفهري يقول : قال رسول الله ﷺ : «ما الدنيا في الآخرة إلا مثل ما يجعل أحدكم أصبعه في اليم فلينظر بماذا يرجع » . قال : وحدثنا قتيبة ، حدثنا عبد الحميد بن سليمان ، عن أبي حازم ، عن سهل بن سعد قال : قال رسول الله ﷺ : « لو كانت الدنيا تعدل عند الله جناح بعوضة ما سقى كافراً منها شربة » .

* * *

باب : قول النبي - عليه السلام - : كن في الدنيا كأنك غريب .

فيه : ابن عمر : « أخذ النبي - عليه السلام - بمنكبي وقال : كن في الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل . وكان ابن عمر يقول : إذا أمسيت فلا تنتظر الصباح ، وإذا أصبحت فلا تنتظر المساء ، وخذ من صحتك لمرضك ، ومن حياتك لموتك » .

قال أبو الزناد : معنى هذا الحديث الحض على قلة المخالطة وقلة الاقتناء والزهد في الدنيا . قال المؤلف : وبيان ذلك أن الغريب قليل الانبساط إلى الناس ؛ بل هو مستوحش منهم ؛ إذ لا يكاد يمر بمن يعرفه فيأنس به ، ويستكثر بخلطته فهو ذليل في نفسه خائف ، وكذلك

عابر السبيل لا ينفذ في سفره إلا بقوته عليه وخفته من الأثقال غير متشبث بما يمنعه من قطع سفره ، معه زاد وراحلة يبلغانه إلى بغيته من قصده ، وهذا يدل على إيثار الزهد في الدنيا وأخذ البلغة منها والكفاف ، [فكما] (1) لا يحتاج المسافر إلى أكثر مما يبلغه إلى غاية سفره ، فكذلك لا يحتاج المؤمن في الدنيا إلى أكثر مما يبلغه المحل .

وقوله : « إذا أمسيت فلا تنتظر الصباح ، وإذا أصبحت فلا تنتظر المساء » حض منه على أن يجعل الموت نصب عينيه ، فيستعد له بالعمل الصالح ، وحض له على تقصير الأمل ، وترك الميل إلى غرور الدنيا . وقوله : « خذ من صحتك لمرضك » حض على اغتنام أيام صحته فيمهد فيها لنفسه خوفًا من حلول مرض به يمنعه من العمل . وكذلك / قوله : « ومن حياتك لموتك » تنبيه على اغتنام أيام حياته ، [٤/ق١٧٦-ب] ولا يمر عمره باطلاً في سهوٍ وغفلة ، لأن من مات فقد انقطع عمله وفاته أمله وحضره على تفريطه ندمه ، فما أجمع هذا الحديث لمعاني الخير وأشرفه !

* * *

باب : في الأمل وطوله

وقوله تعالى : ﴿ فمن زحزح عن النار وأدخل الجنة فقد فاز وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور ﴾ (2) وقوله تعالى : ﴿ ذرهم يأكلوا ويتمتعوا ويلههم الأمل فسوف يعلمون ﴾ (3)

وقال علي بن أبي طالب : ارتحلت الدنيا مدبرةً ، وارتحلت الآخرة مقبلةً ، ولكل واحدة منهما بنون ، فكونوا من أبناء الآخرة ، ولا تكونوا من أبناء الدنيا ، فإن اليوم عمل ولا حساب وغدًا حساب ولا عمل » .

(1) في « الأصل » فكلما . والمثبت من « هـ » .
(2) آل عمران : ١٨٥ . (3) الحجر : ٣ .

فيه : ابن مسعود قال : « خط النبي - عليه السلام - خطًا مربعًا ، وخط خطًا في الوسط خارجًا منه ، وخط خططًا صغارًا إلى هذا الذي في الوسط من جانبه الذي في الوسط ، فقال : هذا الإنسان ، وهذا أجله محيط به ، [أو] [(١)] قد أحاط به ، وهذا الذي خارج أمله ، وهذه الخطط الصغار الأعراض، فإن أخطأه هذا نهشه هذا، وإن أخطأه هذا نهشه هذا».

وفيه : أنس : « خط النبي - عليه السلام - خطوطًا فقال : هذا الأول وهذا أجله ، فبينا هو كذلك إذ جاءه الخط الأقرب » .

قال المؤلف : مثل النبي ﷺ في حديث ابن مسعود أمل ابن آدم وأجله وأعراض الدنيا التي لا تفارقه بالخطوط ، فجعل أجله الخط المحيط ، وجعل أمله وأعراضه خارجة من ذلك الخط ، ومعلوم في العقول أن ذلك الخط المحيط به [الذي] [(٢)] هو أجله ؛ أقرب إليه من الخطوط الخارجة منه ، ألا ترى قوله عليه السلام في حديث أنس : «فبينا هو كذلك إذ جاءه الخط الأقرب » . يريد أجله؟ وفي هذا تنبيه من النبي - عليه السلام - لأمته على تقصير الأمل ، واستشعار الأجل خوف بغتة الأجل ، ومن غيب عنه أجله فهو حري بتوقعه وانتظاره خشية هجومه عليه في حال غرة وغفلة ، ونعوذ بالله من ذلك ، فَلْيُرِضْ المؤمن نفسه على استشعار ما نُبه عليه ، ويجاهد أمله وهواه ويستعين بالله على ذلك ، فإن ابن آدم مجبول على الأمل كما قال عليه السلام في الباب بعد هذا : «لا يزال قلب الكبير شابًا في حب الدنيا وطول الأمل » .

وقال الطبري : في قوله : ﴿ **ذرهم يأكلوا ويتمتعوا ويلههم الأمل**﴾[(٣)] يعني ذرِ المشركين يا محمد يأكلوا في هذه الدنيا ويتمتعوا من شهواتها ولذاتها إلى أجلهم الذي أجلت لهم، ويلههم الأمل عن الأخذ

---

(١) في « الأصل » : و . والمثبت من « هـ ، ن » .
(٢) من « هـ » . (٣) الحجر : ٣ .

بطاعة الله فيها ، وتزودهم لمعادهم منها بما يقربهم من ربهم . فسوف يعلمون غدًا إذا وردوا عليه ، وقد هلكوا بكفرهم بالله حين يعاينون عذاب الله أنهم كانوا في تمتعهم بلذات الدنيا في خسار وتبابٍ » .

ويروى نهسه بالسين والشين ، والنهس تناول بالفم كالنهش ، والحية تنهش إذا عضت ، والنهس : نثر اللحم ، ونهش ينهش ، من كتاب العين .

* * *

باب : من بلغ [ستين سنةً] [1] فقد أعذر الله إليه في العمر

لقوله تعالى : ﴿ أو لم نعمركم ما يتذكر فيه من تذكر وجاءكم النذير﴾ [2] يعني : الشيب .

فيه : أبو هريرة قال النبي – عليه السلام – : « أعذر الله إلى امرئٍ أخّر أجله حتى بلغ ستين سنةً » .

وفيه : أبو هريرة قال النبي – عليه السلام – : « لا يزال قلب الكبير [شابًا] [3] في اثنتين : حب الدنيا وطول الأمل » .

وفيه أنس عن النبي عليه السلام قال : « يكبر ابن آدم ويكبر معه اثنتان: حب المال ، وطول العمر » .

وفيه : عتبان بن مالك قال النبي – عليه السلام – : « لن يوافى عبد يوم القيامة يقول : لا إله إلا الله يبتغي بها وجه الله ؛ إلا حرم الله عليه النار» .

---

(١) في « الأصل » : الستين . والمثبت من « هـ ، ن » .

(٢) فاطر : ٣٧ .

(٣) من « هـ ، ن » .

وفيه : أبو هريرة قال عليه السلام : « يقول الله تعالى : ما لعبدي المؤمن عندي جزاء إذا قبضت صفيّه من أهل الدنيا ، ثم احتسبه إلا الجنّة » .

قال المؤلف : روي عن علي بن أبي طالب وابن عباس وأبي هريرة في قوله تعالى : ﴿ **أو لم نعمركم ما يتذكر فيه من تذكر** ﴾ (١) قالوا : يعني : ستين سنةً ، وروي [عن] (٢) ابن عباس أيضًا أربعون سنة ، وعن الحسن البصري ومسروق مثله ، وحديث أبي هريرة حجة لقول علي ومن وافقه في تأويل الآية .

[٤/ق١٧٧-أ] وقول من قال : / أربعون سنة . له وجه صحيح أيضًا ، والحجة له قوله تعالى : ﴿ **حتى إذا بلغ أشُدّه وبلغ أربعين سنة** ﴾(٣) الآية فذكر تعالى أن من بلغ الأربعين ، فقد آن له أن يعلم مقدار نعم الله عليه وعلى والديه ويشكرهما .

قال مالك : أدركت أهل العلم ببلدنا وهم يطلبون الدنيا والعلم ، ويخالطون الناس حتى يأتي لأحدهم أربعون سنة ، فإذا أتت عليهم اعتزلوا الناس واشتغلوا بالعبادة حتى يأتيهم الموت . فبلوغ الأربعين نقل لابن آدم من حالة إلى حالة أرفع منها في الاستبصار والإعذار إليه .

وقوله عليه السلام : « أعذر الله إلى [امرئ] (٤) أخّر أجله حتى بلغ ستين [سنة] (٢) » . أي أعذر إليه غاية الإعذار ، الذي لا إعذار بعده ، لأن الستين قريب من معترك العباد ، وهو سن الإنابة والخشوع والاستسلام لله -تعالى- وترقب المنية ولقاء الله - تعالى - فهذا إعذار بعد إعذار في عمر ابن آدم ، لطفًا من الله لعباده حين نقلهم من حالة الجهل إلى حالة العلم ، وأعذر إليهم مرةً بعد أخرى ، ولم يعاقبهم

---

(١) فاطر : ٣٧ .
(٢) من « هـ » .
(٣) الأحقاف : ١٥ .
(٤) في « الأصل » : من . والمثبت من « هـ » .

إلا بعد الحجج اللائحة المبكتة لهم ، وإن كانوا قد فطرهم الله -تعالى- على حبّ الدنيا وطول الأمل ، فلم يتركهم مهملين دون إعذار لهم وتنبيه ، وأكبر الإعذار إلى بني آدم بعثه الرسل إليهم ، واختلف السلف في تأويل قوله تعالى : ﴿ **وجاءكم النذير** ﴾ (١) فروي عن علي ابن أبي طالب أنه محمد - عليه أفضل الصلاة والسلام - وهو قول ابن زيد وجماعة ، وعن ابن عباس أنه الشيب .

وحجة القول الأول أن الله - تعالى - بعث الرسل مبشرين ومنذرين إلى عباده قطعًا لحجتهم ، وقال الله - تعالى - : ﴿ **وما كنا معذبين حتى نبعث رسولاً** ﴾ (٢) ولقول ابن عباس أن النذير : الشيب. وجه يصح، وذلك أن الشيب يأتي في سن الاكتهال ، وهو علامة لمفارقة سن الصبا الذي هو سن اللهو واللعب ، فهو نذير أيضًا ، ألا ترى قول إبراهيم - عليه السلام - حين رأى الشيب قال : « يا رب ما هذا؟ فقال له : وقار . قال : ربّ زدني وقارًا » .

فبان رفق الله بعباده المؤمنين وعظيم لطفه بهم حين أعذر إليهم ثلاث مرات : الأولى بالنبي - عليه السلام - والمرتان في الأربعين وفي الستين ؛ ليتم حجته عليهم، وهذا أصل [لإعذار] (٣) الحاكم إلى المحكوم عليهم مرةً بعد أخرى .

فإن قيل : فما وجه حديث عتبان في هذا الباب ؟ قيل : له وجه صحيح المعنى ، وذلك أنه لما كان بلوغ الستين غاية الإعذار إلى ابن آدم يا خشي البخاري - رحمه الله - أن يظن من لا يتسع فهمه أن من بلغ الستين - وهو غير تائب - أن ينفذ عليه الوعيد ، فذكر قول النبي - عليه السلام - : « لن يوافى عبد يوم القيامة بكلمة الإخلاص والتوحيد يبتغي بها وجه الله ؛ إلا حرمه الله على النار » . وسواء أتى بها بعد الستين أو بعد المائة لو عمرها .

---

(١) فاطر : ٣٥ .　　　(٢) الإسراء : ١٥ .

(٣) في « الأصل » : الإعذار والمثبت من « هـ » .

وقد ثبت بالكتاب والسنة أن التوبة مقبولة ما لم يغرغر ابن آدم، ويعاين قبض روحه ، وكذلك قوله عليه السلام : « يقول الله -تعالى-: ما لعبدي المؤمن عندي جزاء إذا قبضت صفيّه من أهل الدنيا ثم احتسب إلا الجنة » . وهذا عام المعنى في كل عمر ابن آدم ؛ بلغ الستين أو زاد عليها ، فهو ينظر إلى معنى حديث عتبان في قوله : « ما لعبدي المؤمن عندي جزاء إذا قبضت صفيّه إلا الجنة » دليل أن من مات له ولد واحد فاحتسبه أن له الجنة ، وهو تفسير قول المحدث : «ولم نسأله عن الواحد » حين قال عليه السلام : « من مات له ثلاثة من الولد أدخله الله الجنة . قيل : واثنان يا رسول الله ؟ قال : واثنان. ولم نسأله عن الواحد » ؛ إذ لا صفي أقرب إلى النفوس من [الولد] (١) ، وقد ذكرته في الجنائز .

* * *

باب : ما يحذر من زهرة الدنيا والتنافس فيها

فيه : عمرو بن عوف : « أن النبي – عليه السلام – بعث أبا عبيدة إلى البحرين يأتي بجزيتها ، فقدم بالمال ، فسمعت الأنصار بقدومه فوافت صلاة الصبح مع النبي ﷺ ، فلما انصرف تعرّضوا له ، فتبسم ، فقال : أظنكم سمعتم بقدوم أبي عبيدة ؟ قالوا : أجل . قال : فأبشروا وأمّلوا ما يسركم ، فوالله ما الفقر أخشى عليكم ، ولكن أخشى عليكم أن تبسط عليكم الدنيا كما بسطت على من كان قبلكم فتنافسوها كما تنافسوها ، وتلهيكم كما ألهتهم » .

وفيه : عقبة بن عامر : « خرج النبي ﷺ يومًا فصلى على أهل أحد صلاته على الميت ... » الحديث ثم قال : « وإني والله ما أخاف عليكم أن تشركوا بعدي ، ولكني أخاف عليكم أن تنافسوا فيها » .

---

(١) في « الأصل » : الواحد . والمثبت من « هـ » .

وفيه : أبو سعيد : قال النبي - عليه السلام - : « إن أكثر ما أخاف عليكم ما يخرج الله لكم من بركات الأرض / قيل : ما بركات الأرض يا رسول الله ؟ قال : زهرة الدنيا ... » الحديث على ما جاء في كتاب الزكاة، في باب الصدقة على اليتامى . [٤/ق١٧٧-ب]

وفيه : عمران : قال النبي - عليه السلام - : « خير القرون قرني ، ثم الذين يلونهم ، ثم الذين يلونهم ، ثم يكون بعدهم قوم يشهدون ولا يستشهدون ، ويخونون ولا يؤتمنون ويظهر فيهم السِّمن » .

وفيه : خباب : قال : « إن أصحاب محمد مضوا ولم تنقصهم الدنيا شيئًا ، وإنا أصبنا من الدنيا ما لا نجد له موضعًا إلا التراب » .

قال المؤلف : هذه الأحاديث تنبيه في أن زهرة الدنيا ينبغي أن يخشى سوء عاقبتها وشر فتنتها من فتح الله عليه الدنيا ، ويحذر التنافس فيها والطمأنينة إلى زخرفها الفاني ؛ لأن النبي - عليه السلام- خشي ذلك على أمته، وحذرهم منه لعلمه أن الفتنة مقرونة بالغنى ، ودَلّ حديث عمران بن حصين أن فتنة الدنيا لمن يأتي بعد القرن الثالث أشدّ لقوله عليه السلام : « ثم يكون بعدهم قوم يشهدون ولا يستشهدون » إلى قوله « ويظهر فيهم السمن » . فجعل عليه السلام ظهور السمن فيهم وشهادتهم بالباطل ، وخيانتهم [الأمانة] [1] ، وتنافسهم في الدنيا وأخذهم لها من غير وجهها كما ، قال عليه السلام في حديث أبي سعيد: « ومن أخذه بغير حقه فهو كالذي يأكل ولا يشبع » .

وكذلك خشي عمر بن الخطاب فتنة المال ، فروي عنه أنه لما أتي بأموال كسرى بات هو وأكابر الصحابة عليه في المسجد ، فلما أصبح وأصابته الشمس ابتلقت تلك التيجان فبكى ، فقال له عبد الرحمن بن عوف : ليس هذا حينُ بكاء ، إنما هو حِينُ شكر . فقال عمر : إني

---

(١) في « الأصل » : بالأمانة . والمثبت من « هـ » .

أقول : ما فتح الله هذا على قوم قط إلا سفكوا دماءهم وقطعوا أرحامهم وقال : اللهم منعت هذا رسولك إكرامًا منك له ، وفتحته عليّ لتبتليني به ، اللهم اعصمني من فتنته . فهذا كله يدل أن الغنى بلية وفتنة ، ولذلك استعاذ النبي - عليه السلام - من شر فتنته ، وقد أخبر الله تعالى بهذا المعنى فقال لرسوله : ﴿ **ولا تمدنّ عينيك إلى ما متعنا به أزواجًا منهم زهرة الحياة الدنيا لنفتنهم فيه ورزق ربك خير وأبقى** ﴾[1] . وقال تعالى : ﴿ **إنما أموالكم وأولادكم فتنة** ﴾ [2] . ولهذا آثر أكثر سلف الأمة التقلل من الدنيا وأخذ البلغة ؛ إذ التعرض للفتن غرر .

وقوله عليه السلام في حديث أبي سعيد: « وإن مما ينبت الربيع يقتل حبطًا أو يلم » فهو أبلغ الكلام في تحذير الدنيا والركون إلى غضارتها[3] ، وذلك أن الماشية يروقها نبت الربيع (فيكثر أكلها [4] فربما تفتقت سمنًا فهلكت ، فضرب النبي - عليه السلام - هذا المثل للمؤمن أن لا يأخذ من الدنيا إلا قدر حاجته ، ولا يروقه زهرتها فتهلكه .

وقال الأصمعي : والحبط : هو أن تأكل الدابة فتكثر ، حتى تنتفخ لذلك بطنها وتمرض عنه .

وقوله : « أو يُلم » يعني يُدني من الموت ، وقد (تقدم) [5] الكلام في هذا الحديث في باب الصدقة على اليتامى في كتاب الزكاة .

وأمّا قول خباب: « إن أصحاب محمد مضوا ولم تنقصهم الدنيا شيئًا » . فإنه لم يكن في عهد النبي - عليه السلام - من الفتوحات والأموال ما كان بعده ، فكان أكثر الصحابة ليس لهم إلا القوت ، ولم ينالوا من طيبات [العيش] [6] ما يخافون أن ينقصهم ذلك من طيبات الآخرة ، ألا

---

(١) طه : ١٣١ . (٢) التغابن : ١٥ .
(٣) الغضارة : النعمة والسعة في العيش .
(٤) في « هـ » : فتكثر أكله . (٥) في « هـ » : تكلم .
(٦) في « الأصل » : النفس . والمثبت من « هـ » .

ترى قول عمر بن الخطاب حين اشترى لحمًا بدرهم : أين تذهب هذه الآية : ﴿ **أذهبتم طيباتكم في حياتكم الدنيا واستمتعتم بها** ﴾ [1] . فدل أن التنعم في الدنيا والاستمتاع بطيباتها تنقص كثيرًا من طيبات الآخرة .

وقوله : « إنا أصبنا من الدنيا ما لا نجد له موضعًا إلا التراب » . قال أبو ذر : يعني البنيان ، ويدل على صحّة هذا التأويل أن خبّابًا قال هذا القول وهو يبني حائطًا له ، وقد تقدم في كتاب المرضى في باب تمني المريض الموت ، فتأمله هناك فهو بين في حديث خباب .

* * *

باب : قوله تعالى : ﴿ يا أيها الناس إن وعد الله حق فلا تغرنكم الحياة الدنيا ﴾ [2] الآية

قال مجاهد : الغرور : الشيطان .

فيه : عثمان : « أنه توضأ فأحسن الوضوء ثم قال : من توضأ نحو وضوئي هذا ، ثم أتى المسجد فركع ركعتين ، ثم جلس ، غفر له ما تقدّم من ذنبه ، قال : وقال رسول الله ﷺ : لا تغتروا » .

قال المؤلف : نهى الله عباده عن الاغترار بالحياة / الدنيا وزخرفها [٤/١٧٨ق-أ] الفاني ، وعن الاغترار بالشيطان ، وبيّن لنا تعالى عداوته لنا لئلا نلتفت إلى تسويله وتزيينه لنا الشهوات المردية ، وحذرنا تعالى طاعته وأخبر أن أتباعه وحزبه من أصحاب السعير ، والسعير : النار . فحق على المؤمن العاقل أن يحذر ما حذّره منه ربه عز وجل ونبيه

---

(١) الأحقاف : ٢٠ .   (٢) فاطر : ٥ .

- عليه السلام - وأن يكون مشفقًا خائفًا وجلاً ، إن واقع ذنبًا أسرع الندم عليه والتوبة منه وعزم ألا يعود (إليه) [(١)] ، وإذا أتى حسنة استقلها واستصغر عمله ولم يدل بها ، ألا ترى قول عثمان : « من أتى المسجد ، فركع ركعتين ثم جلس ، غفر له ما تقدم من ذنبه » . وهذا لا يكون إلا من قول النبي - عليه السلام - ثم أتبع ذلك بقول النبي - عليه السلام - : « لا تغتروا » . ففهم عثمان رضي الله عنه من ذلك أن المؤمن ينبغي له ألا يتكل على عمله ، ويستشعر الحذر والإشفاق بتجنب الاغترار ، وقد قال غير مجاهد في تفسير الغرور قال: هو أن يغتر بالله ، فيعمل المعصية ويتمنى المغفرة .

* * *

باب : ذهاب الصالحين

فيه : مرداس قال النبي - عليه السلام - : « يذهب الصالحون الأول فالأول ، وتبقى حفالة كحفالة الشعير أو التمر ، لا يباليهم الله بالة » .

قال المؤلف : ذهاب الصالحين من أشراط الساعة ، إلا إنه إذا بقي الناس في حفالةٍ كحفالة الشعير أو التمر ؛ فذلك إنذار بقيام الساعة وفناء الدنيا ، وهذا الحديث معناه الترغيب في الاقتداء بالصالحين والتحذير من مخالفة طريقهم خشية أن يكون من خالفهم ممن لا يباليه الله ولا يعبأ به . وبَالة : مصدر باليت [محذوف] [(٢)] منه الياء التي هي لام الفعل، وكان أصله « بالية » فكرهوا ياءً قبلها كسرة ، لكثرة استعمال هذه اللفظة في نفي كل ما لا يحفل به ، وتقول العرب أيضًا في مصدر باليت مبالاةً كما تقول بالة . والحفالة : سفلة الناس وأصلها في اللغة ما

---

(١) في « هـ » : لمثله . (٢) في « الأصل » : مجذوم . والمثبت من « هـ » .

تساقط من قشور التمر والشعير وغيرهما ، والحثالة والحشافة مثله ، وقد ذكرت هذا في كتاب الفتن في باب إذا بقي في حثالة من الناس.

* * *

باب : ما يُتقى من فتنة المال

وقوله تعالى : ﴿ إنما أموالكم وأولادكم فتنة ﴾ (١)

فيه : أبو هريرة قال النبي – عليه السلام – : « تعس عبد الدينار والدرهم والقطيفة والخميصة ، إن أعطي رضي، وإن لم يعط لم يرض».

وفيه : ابن عباس قال : قال النبي – عليه السلام – : « لو كان لابن آدم واديان من ذهب لابتغى ثالثًا ، ولا يملأ جوف ابن آدم إلا التراب ، ويتوب الله على من تاب » .

وفي رواية ابن عباس : « ولا يملأ عين ابن آدم إلا التراب » . وروى مثله ابن الزبير وأنس عن النبي – عليه السلام – وقال أنس في حديثه : «ولن يملأ فاه إلا التراب » .

وفيه : أنس عن أُبيّ : « كنا نرى هذا من القرآن حتى نزلت : ﴿ألهاكم التكاثر ﴾ (٢) .

قال المؤلف : معنى الفتنة في كلام العرب : الاختبار والابتلاء ، ومنه قوله تعالى : **﴿ وفتناك فتونًا ﴾** (٣) أي : اختبرناك ، والفتنة : الإمالة عن القصد ، ومنه [قوله تعالى : **﴿ وإن كادوا ليفتنونك ﴾** (٤) أي : ليميلونك ، والفتنة أيضًا : الإحراق من] (٥) قوله تعالى : **﴿يوم هم على النار يفتنون ﴾** (٦) أي : يحرقون ، هذا قول ابن الأنباري . والاختبار

---

(١) التغابن : ١٥ . (٢) التكاثر : ١ . (٣) طه : ٤٠ .
(٤) الإسراء : ٧٣ . (٥) من « هـ » . (٦) الذاريات : ١٣ .

والابتلاء يجمع ذلك كله ، وقد أخبر الله تعالى عن الأموال والأولاد أنها فتنة ، وقال تعالى : ﴿ **ألهاكم التكاثر** ﴾ [1] . وخرج لفظ الخطاب على العموم ؛ لأن الله تعالى فطر العباد على حب المال والولد ، ألا ترى قوله عليه السلام : « لو كان لابن آدم واديان من ذهب لابتغى ثالثًا » . فأخبر عن حرص العباد على الزيادة في المال ، وأنه لا غاية له يقنع بها ويقتصر عليها ، ثم أتبع ذلك بقوله : « ولا يملأ جوف ابن آدم إلا التراب » ، يعني إذا مات وصار في قبره ملأ جوفه التراب ، وأغناه بذلك عن تراب غيره حتى يصير رميمًا .

وأشار عليه السلام بهذا المثل إلى ذم الحرص على الدنيا والشره على الازدياد منها ؛ ولذلك آثر أكثر السلف التقلل من الدنيا والقناعة والكفاف فرارًا من التعرض لما لا يعلم كيف النجاة من شر فتنته ، واستعاذ النبي عليه السلام من شر فتنة الغنى ، وقد علم كل مؤمن أن الله تعالى قد أعاذه من شر كل فتنة ، وإنما دعاؤه بذلك عليه السلام تواضعًا لله وتعليمًا لأمته / وحضًا لهم على إيثار الزهد في الدنيا . [٤/ق١٧٨-ب]

وقوله : « تعس عبد الدينار. . . » إلى آخر الحديث فيه ذم مَنْ فتنه متاع الدنيا الفاني ، وتعِس قيل : معناه هلك ، وقيل : التعس : أن يخر على وجهه ، وقد ذكرت اختلاف أهل اللغة في تفسير هذه الكلمة في كتاب الجهاد في باب الحراسة في الغزو في سبيل الله .

* * *

باب : قول النبي عليه السلام : « إن هذا المال خضرة حلوة »

وقول الله تعالى : ﴿ زين للناس حب الشهوات ﴾ [2] الآية ، وقال عمر: اللهم إنا لا نستطيع إلا أن نفرح بما زينت لنا ، اللهم إني أسألك أن أنفقه في حقه .

---

(١) التكاثر : ١ .　　(٢) آل عمران : ١٤ .

فيه : حكيم : « سألت النبي - عليه السلام - فأعطاني ثلاثًا ، ثم قال لي : يا حكيم ، إن هذا المال خضرة حلوة ، فمن أخذه بطيب نفس بورك له فيه ، ومن أخذه بإشراف نفس لم يبارك له فيه ، وكان كالذي يأكل ولا يشبع ، واليد العليا خير من اليد السفلى » .

قال المؤلف : هذا الباب في معنى الذي قبله يدل على أن فتنة المال والغنى مخوفة على من فتحه الله عليه لتزيين الله تعالى له ، ولشهوات الدنيا في نفوس عباده ؛ فلا سبيل لهم إلى بغضته إلا بعون الله على ذلك، ولهذا قال عمر : اللهم إنا لا نستطيع إلا أن نفرح بما زينت لنا، ثم دعا الله أن يعينه على إنفاقه في حقه ، فمن أخذ المال من حقه ووضعه في حقه فقد سلم من فتنته ، وحصل على ثوابه ، وهذا معنى قوله عليه السلام : [« فمن أخذه بطيب نفس بورك له فيه» ، وفي قوله أيضًا] : « ومن أخذه بطيب نفس » تنبيه لأمته على الرضا بما قسم لهم ، وفي قوله : « ومن أخذه بإشراف نفس لم يُبارك له فيه ، وكان كالذي يأكل ولا يشبع » [ذم الحرص والشره إلى الاستكثار ، ألا ترى أنه شبّه فاعل ذلك بالبهائم التي تأكل ولا تشبع][1] وهذا غاية الذم له لأن الله تعالى وصف الكفار بأنهم يأكلون كما تأكل الأنعام ، يعني : أنهم لا يشبعون كما لا تشبع الأنعام ؛ لأن الأنعام لا تأكل لإقامة أرماقها ، وإنما تأكل للشره والنهم.

فينبغي للمؤمن العاقل الفهم عن الله - تعالى - وعن رسوله أن يتشبه بالسلف الصالح في أخذ الدنيا ولا يتشبه بالبهائم التي لا تعقل ، وقد فسرنا قوله : « خضرة حلوة » في كتاب الزكاة .

* * *

---

(١) من « هـ » .

باب : ما قدم من ماله فهو له

فيه : عبد الله قال : قال رسول الله : « أيكم مال وارثه أحب إليه من ماله؟ قالوا : يا رسول الله ما منا أحد إلا [ماله] (١) أحب إليه . قال : فإن ماله ما قدم ، ومال وارثه ما أخر » .

قال المؤلف : هذا الحديث تنبيه للمؤمن على أن يقدم من ماله لآخرته ، ولا يكون خازنًا له وممسكه عن إنفاقه في طاعة الله ، فيخيب من الانتفاع به في يوم الحاجة إليه ، وربما أنفقه وارثه في طاعة الله فيفوز بثوابه .

فإن قيل : هذا الحديث يدل على أن إنفاق المال في وجوه البر أفضل من تركه لوارثه ، وهذا يعارض قوله عليه السلام لسعد : « إنك إن تترك ورثتك أغنياء خير من أن تتركهم عالةً يتكففون الناس » .

قيل : لا تعارض بينهما ، وإنما حض النبي - عليه السلام - سعدًا على أن يترك مالاً لورثته ؛ لأن سعدًا أراد أن يتصدق بماله كله في مرضه ، وكان وارثه ابنته والابنة لا طاقة لها على الكسب ، فأمره عليه السلام بأن يتصدق منه بثلثه ويكون باقيه لابنته ولبيت مال المسلمين ، وله أجر في كل من يصل إليه من ماله شيء بعد موته .

وحديث ابن مسعود إنما خاطب به عليه السلام أصحابه في صحتهم ونبّه به من شحّ على ماله ، ولم تسمح نفسه بإنفاقه في وجوه البر أن ينفق منه في ذلك ؛ لئلا يحصل وارثه عليه كاملاً موفرًا ، ويخيب هو من أجره ، وليس فيه الأمر بصدقة المال كله فيكون معارضًا لحديث سعد ، بل حديث عبد الله مجمل يفسره حديث سعد، ويدل على صحة هذا التأويل ما ذكره أهل السير ، عن ابن شهاب أن أبا لبابة قال: « يا رسول الله ، إن من توبتي أن أهجر دار قومي التي أصبت فيها الذنب ، وأنخلع من مالي كله صدقة إلى الله ورسوله . قال : يجزئك الثلث » فلم يأمره بصدقة ماله كله .

---

(١) من « هـ ، ن » .

باب : المكثرون هم المقلون

[٤/ق١٧٩-أ] / وقوله تعالى : ﴿ من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها نوف إليهم أعمالهم فيها ...﴾ إلى ﴿ يعملون ﴾ (١)

فيه : أبو [ذرّ] (٢) قال النبي - عليه السلام - : « إن [المكثرين] (٣) هم المقلون يوم القيامة إلا من أعطاه الله خيرًا فنفح [فيه] (٤) يمينه وشماله وبين يديه ووراءه ، وعمل فيه [خيراً] (٥) وذكر الحديث بطوله .

قال المؤلف : [هذا الحديث] (٦) يدل على أن كثرة المال تئول بصاحبه إلى الإقلال من الحسنات يوم القيامة ، إذا لم ينفقه في طاعة الله ، فإن أنفقه في طاعة الله كان غنيًا من الحسنات يوم القيامة ، وقد احتج بهذا الحديث من فضل الغنى على الفقر ؛ لأنه استثنى فيه من المكثرين من نفح بالمال عن يمينه وشماله وبين يديه ، وقد اختلف العلماء في هذه المسألة ، وسنذكر مذاهبهم فيها في باب فضل الفقر بعد هذا إن شاء الله .

وقوله : « نفح فيه » قال صاحب الأفعال : نفح بالعطاء : أعطى، والله نفاح بالخيرات ، قال صاحبُ العين : نفح بالمال ، والسيف ، ونفحات المعروف: دفعه ، ونفحت الدابة : (رمحت) (٧) بحافرها الأرض.

وقوله تعالى : ﴿ من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها ﴾ (٨) الآيتين ، قال أهل التأويل: هذا عام في اللفظ خاص في الكفار، بدليل قوله: ﴿أولئك الذين ليس لهم في الآخرة إلا النار وحبط ما صنعوا فيها وباطل ما كانوا يعملون ﴾ (٩).

---

(١) هود : ١٥ . (٢) في « الأصل » : داود. والمثبت من « هـ ، ن » .
(٣) في « الأصل » : المكثرون . والمثبت من « هـ ، ن » .
(٤) في « الأصل » : به . والمثبت من « هـ ، ن » .
(٥) من « هـ ، ن » . (٦) من « هـ » .
(٧) في « هـ»: رمت . ورمحت أي رمت بحوافرها الأرض ، انظر لسان العرب (مادة : رمح).
(٨) هود : ١٥ . (٩) هود : ١٦ .

وإنما ذكرها البخاري في هذا الباب تحذيرًا للمؤمنين من مشابهة أفعال الكافرين في بيعهم الآخرة الباقية بزينة الدنيا الفانية ، فيدخلوا في معنى قوله تعالى : ﴿ **أذهبتم طيباتكم في حياتكم الدنيا** ﴾ [1] الآية .

* * *

باب : قول النبي عليه السلام : « ما أحب أن لي أحدًا ذهبًا »

فيه : أبو ذرّ قال النبي عليه السلام : « ما يسرني أن عندي مثل أحد ذهبًا تمضي عليّ ثالثة وعندي منه دينار إلا شيء أرصده لدين ، إلا أنَّ أقول به في عباد الله هكذا وهكذا وهكذا ، عن يمينه وعن شماله ومن خلفه ... » الحديث بطوله ، وروى أبو هريرة مثله مختصراً .

قال المؤلف : في هذا الحديث أن المؤمن لا ينبغي له أن يتمنّى كثرة المال إلا بشريطة أن يسلطه الله على إنفاقه في طاعته اقتداءً بالنبي عليه السلام في ذلك . وفيه أن المبادرة إلى الطاعة أفضل من التواني فيها ، ألا ترى أن النبي - عليه السلام - لم يحب أن يبقى عنده من مقدار جبل أحدٍ ذهبًا - لو كان له - بعد ثلاث إلا دينار يرصده لدين . وفيه أن النبي - عليه السلام - كان يكون عليه الدين لكثرة مواساته بقوته وقوت عياله ، وإيثاره على نفسه أهل الحاجة ، والرضا بالتقلل والصبر على خشونة العيش ، وهذه سيرة الأنبياء والصالحين ، وهذا كله يدل على أن فضل المال في إنفاقه في سبيل (الله) [2] لا في إمساكه وادّخاره .

* * *

---

(١) الأحقاف : ٢٠ .   (٢) في « هـ » : البر .

باب : الغنى غنى النفس

وقوله تعالى : ﴿ أيحسبون أنما نمدهم به من مال وبنين...﴾ إلى ﴿ عاملون ﴾[1]

قال ابن عيينة : لم يعملوها ولا بد من أن يعملوها .

فيه : أبو هريرة قال النبي - عليه السلام - : « ليس الغنى عن كثرة العرض ، وإنما الغنى غنى النفس » .

قال المؤلف : قوله عليه السلام : « ليس الغنى عن كثرة العرض » يريد ليس حقيقة الغنى عن كثرة متاع الدنيا ، لأن كثيرًا ممن وسع الله عليه في المال يكون فقير النفس لا يقنع بما أعطي [فهو] [2] يجتهد دائبًا في الزيادة ، ولا يبالي من أين يأتيه ، فكأنه [فقير] [3] من المال؛ لشدة شرهه وحرصه على الجمع ، وإنما حقيقة الغنى غنى النفس، الذي استغنى صاحبه بالقليل وقنع به ، ولم يحرص على الزيادة فيه ، ولا [ألحّ] [4] في الطلب ، فكأنه غني واجد أبدًا ، وغنى النفس هو باب الرضا بقضاء الله - تعالى - والتسليم لأمره (علم) [5] أن ما عند الله خير للأبرار ، وفي قضائه لأوليائه الخيار ، روى الحسن ، عن أبي هريرة قال: « قال لي رسول الله : ارض بما قسم الله تكن أشكر الناس». وقوله تعالى : ﴿ **أيحسبون أنما نمدّهم به من مال وبنين** ﴾ [6] نزلت في الكفار ، فليست بمعارضة لدعائه عليه السلام لأنس بكثرة المال والولد، وقال أهل التأويل في معناها : أيحسبون أنما نمدهم به من مال وبنين مجازاة لهم وخيرًا لهم ، بل هو استدراج لهم ، ولذلك قال تعالى : ﴿ **بل قلوبهم في غمرة من هذا** ﴾ [7] / أي : في غطاء عن [٤/ق١٧٩-ب]

---

(١) المؤمنون : ٥٥ : ٦٣ . (٢) في « الأصل » : فهذا . والمثبت من « هـ » .
(٣) في « الأصل : فقيراً . والمثبت من « هـ » .
(٤) في « الأصل » : ألحح . والمثبت من « هـ » .
(٥) في « هـ » : علمًا . (٦) المؤمنون : ٥٥ . (٧) المؤمنون : ٦٣ .

المعرفة أن الذي نمدهم به من مال استدراج لهم ، وقال بعض أهل التأويل في قوله تعالى : ﴿ أنما نمدهم به ﴾ [1] هي الخيرات ، فالمعنى نسارع فيه ثم أظهر فقال : ﴿ في الخيرات ﴾ [2] أي: نسارع لهم به في الخيرات .

* * *

باب : فضل الفقر

فيه : سهل : « مرّ رجل على النبي – عليه السلام – فقال لرجل عنده جالس : ما رأيك في هذا ؟ فقال : رجل من أشراف الناس ، هذا والله حَريّ إن خطب أن ينكح ، وإن شفع أن يشفع . قال : فسكت النبي – عليه السلام – ، ثم مرّ رجل فقال له رسول الله : ما رأيك في هذا ؟ فقال: يا رسول الله ، هذا رجل من فقراء المسلمين ، هذا حريّ إن خطب ألا ينكح ، وإن شفع ألا يشفع ، وإن قال ألا يسمع لقوله . فقال رسول الله : هذا خير من ملء الأرض مثل هذا » .

وفيه : خباب قال : « هاجرنا مع النبي – عليه السلام – نريد وجه الله ، فوقع أجرنا على الله ، فمنا من مضى لم يأخذ من أجره شيئًا ، منهم مصعب بن عمير قتل يوم أحد ، وترك نمرةً ، فإذا غطينا رأسه بدت رجلاه، وإذا غطينا رجليه بدا رأسه ، فأمرنا النبي – عليه السلام – أن نغطي رأسه وأن نجعل على رجليه [شيئًا] [3]من الإذخر ، ومنا من أينعت له ثمرته فهو يهدبها » .

---

(١) المؤمنون : ٥٥ .

(٢) المؤمنون : ٥٦ .

(٣) في « الأصل » : شيء . والمثبت من « هـ ، ن » .

وفيه : عمران قال : قال النبي - عليه السلام - : « اطلعت في الجنة فرأيت أكثر أهلها الفقراء، واطلعت في النار فرأيت أكثر أهلها النساء».

وفيه : أنس : « لم يأكل النبي - عليه السلام - على خوان حتى مات ، وما أكل خبزاً مرققًا حتى مات » .

وفيه : عائشة قالت : « لقد توفي النبي - عليه السلام - وما في رفّي من شيء يأكله ذو كبدٍ إلا شطر شعير في رفٍّ لي ، فأكلت منه حتى طال عليّ ، فكلته ففني » .

قال المؤلف : في ظاهر هذه الأحاديث فضل الفقر كما ترجم البخاري ، وقد طال تنازع الناس في هذه المسألة ، فذهب قوم إلى تفضيل الفقر وذهب آخرون إلى تفضيل الغنى ، واحتج من فضل الفقر بهذه الآثار بغيرها ، فمنها أنه عليه السلام كان يقول في دعائه : «اللهم أحيني مسكينًا وأمتني مسكينًا واحشرني في زمرة المساكين » . من حديث ثابت بن محمد العابد العوفي ، عن الحارث بن النعمان الليثي، عن أنس بن مالك ، عن النبي - عليه السلام - ذكره الترمذي، ومنها أنه قال ﷺ : « اللهم من آمن بي وصدّق ما جئت به، فأقلل له في المال والولد » . وقوله عليه السلام : « إن الفقراء يدخلون الجنة وأصحاب الجد محبوسون » . روى الترمذي ، عن محمود بن غيلان ، عن قبيصة ، عن سفيان ، عن محمد بن عمرو ، عن أبي سلمة ، عن أبي هريرة ، عن النبي - عليه السلام - قال : «يدخل الفقراء الجنة قبل الأغنياء بخمسمائة سنة - نصف يوم » قال الترمذي : وهذا حديث صحيح .

واحتج من فضل الغنى بقوله عليه السلام : « إن المكثرين هم الأقلون ، إلا من قال بالمال هكذا وهكذا » . وبقوله عليه السلام : « لا حسد إلا في اثنتين - أحدهما - : رجل آتاه الله مالاً فسلطه على هلكته في الحق . . . » الحديث .

وبقوله لسعد : « إنك إن تذر ورثتك أغنياء خير من أن تذرهم عالةً يتكففون الناس » .

وقال لأبي لبابة حين قال : يا رسول الله ، إن توبتي أن أنخلع من مالي صدقةً إلى الله ورسوله: « أمسك عليك بعض مالك فإنه خير لك».

وقال في معاوية : « إنه صعلوك لا مال له » . ولم يكن عليه السلام ليذمّ حالة فيها الفضل .

وأحسن ما رأيت في هذه المسألة ما قاله أحمد بن نصر الداودي قال: الفقر والغنى محنتان من الله - تعالى - وبليتان يبلو بهما أخبار عباده ليبدي صبر الصابرين وشكر الشاكرين وطغيان البطرين ، وإنما أشكل ذلك على غير الراسخين ، فوضع قوم الكتب في تفضيل الغنى على الفقر ، ووضع آخرون [في تفضيل] (1) الفقر ، وأغفلوا الوجه الذي يجب الحض عليه والندب إليه ، وأرجو لمن صحت نيته وخلصت لله طويته ، وكانت لوجهه مقالته أن يجازيه الله على نيته ويعلمه ، قال تعالى: ﴿ **إنا جعلنا ما على الأرض زينةً لها لنبلوهم أيهم أحسن عملا**﴾(2) وقال تعالى : ﴿ **ونبلوكم بالشر والخير فتنةً** ﴾ (3) وقال : ﴿ **وإذا أنعمنا على الإنسان أعرض ونأى بجانبه وإذا مسّه الشر فذو دعاء عريض** ﴾ (4) وقال : ﴿ **إن الإنسان خلق هلوعًا إذا مسّه الشر جزوعًا وإذا مسّه الخير منوعًا** ﴾ (5) وقال تعالى : ﴿ **فأما الإنسان / إذا ما ابتلاه ربه فأكرمه ونعمه فيقول ربي [أكرمن وأما إذا ما ابتلاه فقدر عليه رزقه فيقول ربي أهانن]** (6) ﴾ (7) وقال : ﴿**ولو بسط الله الرزق لعباده لبغوا في الأرض** ﴾ (8)

[٤/ق ١٨٠-أ]

---

(1) من « هـ » . (2) الكهف : ٧ . (3) الأنبياء : ٣٥ .
(4) الإسراء : ٨٣ . (5) المعارج : ١٩ .
(6) ليست في « الأصل » . (7) الفجر : ١٥ ، ١٦ .
(8) الشورى : ٢٧ .

الآية . وقال : ﴿ **ولولا أن يكون الناس أمةً واحدةً لجعلنا لمن يكفر بالرحمن لبيوتهم** ﴾[1] الآية ، وقال : ﴿ **كلا إن الإنسان ليطغى أن رآه استغنى** ﴾ [2] وقال : ﴿ **وإنه لحب الخير لشديد** ﴾ [3] يعني : لحب المال وقال عليه السلام : « ما الفقر أخشى عليكم ، ولكن أخاف عليكم أن تفتح الدنيا عليكم . . . » الحديث .

وكان عليه السلام يستعيذ من فتنة الفقر وفتنة الغنى ، فدل هذا كله أن ما فوق الكفاف محنة ، لا يسلم منها إلا من عصمه الله ، وقد قال عليه السلام : « ما قل وكفى خير مما كثر وألهى » . وقال عمر بن الخطاب لما أُتي بأموال كسرى : « ما فتح الله هذا على قوم إلا سفكوا دماءهم وقطعوا أرحامهم . وقال : اللهم إنا لا نستطيع إلا أن نفرح بما زينت لنا ، اللهم إنك منعت هذا رسولك إكرامًا منك له ، وفتحته علي لتبتليني به ، اللهم سلطني على هلكته في الحق واعصمني من فتنته» . فهذا كله يدل على فضل الكفاف ، لا فضل الفقر كما خيّل لهم ، بل الفقر والغنى بليتان كان النبي - عليه السلام - يستعيذ من فتنتهما ، ويدل على هذا قوله تعالى : ﴿ **ولا تجعل يدك مغلولةً إلى عنقك ولا تبسطها كل البسط فتقعد ملومًا محسورًا** ﴾ [4] وقال : ﴿**والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قوامًا**﴾[5] ، وقال : ﴿ **ولا تؤتوا السفهاء أموالكم التي جعل الله لكم قيامًا**﴾ وقال في ولي اليتيم ﴿ **ومن كان غنيا فليستعفف ومن كان فقيرًا فليأكل**

---

(١) الزخرف : ٣٣ . (٢) العلق : ٦ . (٣) العاديات : ٨ .

(٤) الإسراء : ٢٩ . (٥) الفرقان : ٦٧ .

بالمعروف﴾ [1] وقال : ﴿ وليخش الذين لو تركوا من خلفهم ذريةً ضعافًا خافوا عليهم ﴾ [2]، وقال عليه السلام لأبي لبابة : « أمسك عليك بعض مالك » . وقال لسعد : « إنك إن تذر ورثتك أغنياء خير من أن تذرهم عالةً يتكففون الناس » . وهذا من [الغنى] [3] الذي لا يطغي ، ولو كان كل ما زاد كان أفضل لنهاه النبي - عليه السلام - أن يوصي بشيء ، [واقتصرت] [4] أيدي الناس عن الصدقات وعن الإنفاق في سبيل الله ، وقال لعمرو بن العاص : « هل لك أن أبعثك في جيش يسلمك الله ويغنمك ، وأرغب لك رغبةً من المال ؟ فقال : ما للمال كانت هجرتي ، إنما كانت لله ولرسوله . فقال : نعم المال الصالح للرجل الصالح » .

ولم يكن عليه السلام ليحض أحدًا على ما ينقص حظه عند الله ، فلا يجوز أن يقال [إن] [5] إحدى هاتين الخصلتين أفضل من الأخرى؛ لأنهما محنتان ، وكأن قائل هذا يقول : إن ذهاب يد الإنسان أفضل عند الله من ذهاب رجله ، وإن ذهاب سمعه أفضل من ذهاب بصره ؛ فليس هاهنا موضع للفضل ، وإنما هي محن يبلو الله بها عباده؛ ليعلم الصابرين والشاكرين من غيرهما ، ولم يأت في الحديث- فيما علمنا - أن النبي - عليه السلام - كان يدعو على نفسه بالفقر ، ولا يدعو بذلك على أحد يريد به الخير ، بل كان يدعو بالكفاف ويستعيذ بالله من شرّ فتنة الفقر وفتنة الغنى ، ولم يكن يدعو بالغنى إلا بشريطة يذكرها في دعائه.

فأمّا ما روي عنه أنه كان يقول : « اللهم أحيني مسكينًا وأمتني مسكينًا واحشرني في زمرة المساكين » . فإن ثبت في النقل فمعناه

---

(١) النساء : ٥ ، ٦ . (٢) النساء : ٩ .

(٣) في « الأصل » : المغنى . والمثبت من « هـ » .

(٤) في « الأصل » : ولو قصرت . والمثبت من « هـ » . (٥) من « هـ » .

ألا يجاوز به الكفاف ، أو يريد به الاستكانة إلى الله ، ويدل على صحة هذا التأويل أنه ترك أموال بني النضير وسهمه من فدك وخيبر، فغير جائز أن يظن به أن يدعو إلى الله ألا يكون بيده شيء ، وهو يقدر على إزالته من يده بإنفاقه . وما روي عنه أنه قال : «اللهم من آمن بي وصدّق ما جئت به ، فأقلل له من المال والولد » . فلا يصح في النقل ولا في الاعتبار ، ولو كان إنما دعا بذلك في المال وحده لكان [محتملاً] [1] أن يدعو لهم بالكفاف ، وأما دعاؤه بقلة الولد فكيف يدعو أن يقل المسلمون ، وما يدفعه العيان مدفوع عنه عليه السلام ، وأحاديثه لا تتناقض .

كيف يذمّ معاوية ، ويأمر أبا لبابة وسعدًا أن يبقيا ما ذكر من المال ويقول : إنه خير ، ثم يخالف ذلك ، وقد ثبت أنه دعا لأنس بن مالك وقال : « اللهم أكثر ماله وولده ، وبارك له فيما أعطيته » . قال أنس: فلقد أحصت ابنتي أني قدّمت من ولد صُلبي مقدم الحجاج البصرة مائةً وبضعةً وعشرين نسمةً بدعوة رسول الله ، وعاش بعد ذلك سنين وولد له » .

فلم يدع له بكثرة المال إلا وقد قرن ذلك بقوله : « وبارك له فيما أعطيته » . فإن قيل : فأي الرجلين أفضل : المبتلى بالفقر ، أو المبتلى بالغنى إذا صلحت حال كل واحد منهما ؟ قيل : السؤال عن هذا لا يستقيم ؛ إذ قد يكون لهذا أعمال سوى تلك المحنة يفضل بها صاحبه والآخر كذلك ، وقد يكون هذا الذي صلح حاله على الفقر [لا يصلح حاله على الغنى ، ويصلح حال الآخر على الفقر] [2] والغنى. فإن قيل: فإن كان كل واحد منهما يصلح حاله في الأمرين ، وهما في غير ذلك من الأعمال متساويان / قد أدّى الفقير ما يجب عليه في فقره من [٤/ق١٨٠-ب] الصبر والعفاف والرضا ، وأدّى الغني ما يجب عليه من الإنفاق والبذل

(١) في « الأصل » : محتمل . والمثبت من « هـ » .　　(٢) من « هـ » .

والشكر والتواضع ، فأي الرجلين أفضل ؟ قيل : علم هذا عند الله .

وأمّا قوله : « وأصحاب الجد محبوسون » . فإنما يحبس لهذا أهل التفاخر والتكاثر ، وأما من أدّى حق الله في ماله ، ولم يرد به التفاخر وأرصد باقيه لحاجته إليه ، فليس أولئك بأولى منه في السبق إلى شيء، ويدل على هذا قوله عليه السلام : « لا حسد إلا في اثنتين: رجل آتاه الله مالاً فسلطه على هلكته في الحق » . فبين أنه لا شيء أرفع من هاتين الحالتين ، وهو المبين عن الله - تعالي - معنى ما أراد ، ولو كان من هذه حاله مسبوقًا في الآخرة لما حضّ النبي - عليه السلام - على أن [يتنافس] (١) في عمله ، ولحضّ أبا لبابة على الحالة التي يسبق بها إلى الجنة ، ألا ترى قوله عليه السلام في حديث : «الخيل لثلاثة : لرجل أجر ، ولرجل ستر ، وعلى رجل وزر . . . ، فالذي هي عليه وزر فرجل ربطها فخرًا ورياءً ونواءً لأهل الإسلام » . فهذا من المحبوسين للحساب ، والأولان فهو كفافهما ، غير أن آفات الغنى أكثر ، والناجون من أهل الغنى أقل ، إذ لا يكاد يسلم من آفاته إلا من عصمه الله ؛ فلذلك عظمت منزلة المعصوم فيه ؛ لأن الشيطان يسول فيه إما في الأخذ بغير حقه ، أو في الوضع في غير حقه ، أو في منعه من حقه ، أو في التجبر والطغيان من أجله ، أو في قلة الشكر عليه أو في المنافسة فيه إلى ما لا يبلغ صفته .

قال المهلب : وليس في قوله عليه السلام : « يدخل فقراء أمتي الجنة قبل أغنيائهم بخمسمائة عام » تفضيل للفقر ؛ لأن تقديم دخول الجنة لا تستحق به الفضيلة ، ألا ترى أن النبي - عليه السلام - أفضل البشر ولا يتقدم بالدخول في الجنّة حتى يشفع في أمته، وكذلك صالح المؤمنين

---

(١) في « الأصل » : يتناقص . والمثبت من « هـ » .

يشفعون في قوم دونهم في الدرجة ، وإنما ينظر يوم القيامة بين الناس فيقدم الأقل حسابًا فالأقل ، فلذلك قدم [الفقراء] [(١)] ، لأنهم لا [علقة] [(٢)] عليهم [في] [(٣)] حساب الأموال ، فيدخلون الجنة قبل الأغنياء ، ثم يحاسب أصحاب الأموال فيدخلون الجنة ، وينالون فيها من الدرجات ما قد لا يبلغه الفقراء ، وكذلك ليس في قوله عليه السلام : « اطلعت في الجنة فرأيت أكثر أهلها الفقراء » . ما يوجب فضل الفقراء ، وإنما معناه أن الفقراء في الدنيا أكثر من الأغنياء ، فأخبر عن ذلك كما نقول أكثر أهل الدنيا الفقراء ، لا من جهة التفضيل ، وإنما هو إخبار عن الحال ، وليس الفقر أدخلهم الجنة ، إنما أدخلهم الله [الجنة] [(٤)] بصلاحهم مع الفقر ؛ أرأيت الفقير إذا لم يكن صالحًا فلا فضل له في الفقر ، وأما حديث سهل فلا يخلو أن يكون فضل الرجل الفقير على الغني من أجل فقره أو من أجل فضله ، فإن كان من أجل فضله فلا حجة فيه لمن فضل الفقر ، وإن كان من أجل فقره فكان ينبغي أن يشترط في ملء الأرض مثله لا فقير فيهم .

ولا دليل في الحديث يدل على تفضيله عليه مع جهة فقره ؛ لأنا نجد الفقير إذا لم يكن صالحًا ؛ فكل غني صالح خير منه ، وفي حديث خباب أن هجرتهم لم تكن لدنيا يصيبونها ، ولا نعمة يستعجلونها ، وإنما كانت لله ؛ ليثيبهم عليها في الآخرة بالجنة والنجاة من النار ، فمن قتل منهم قبل أن يفتح الله عليهم البلاد قالوا : مرّ ولم يأخذ من أجره شيئًا في الدنيا ، وكان أجره في الآخرة موفرًا له [وكان] [(٥)] الذي بقي منهم حتى فتح الله عليهم الدنيا ، ونالوا من الطيبات ؛ خشوا أن يكون عجل لهم أجر طاعتهم وهجرتهم في الدنيا بما نالوا

---

(١) في « الأصل » : الفقر . والمثبت من « هـ » .
(٢) في « الأصل » : عقلة . والمثبت من « هـ » .
(٣) في « الأصل » : و . والمثبت من « هـ » .
(٤) من « هـ » .
(٥) في « الأصل » : فكان . والمثبت من « هـ » .

منها من النعيم ؛ إذ كانوا على نعيم الآخرة أحرص . وتركه عليه السلام الأكل على الخوان وأكل المرقق ، فإنما فعل ذلك (كأنه) [١] رفع الطيبات للحياة الدائمة في الآخرة ، ولم يرض أن يستعجل في الدنيا الفانية شيئًا منها أخذًا منه بأفضل الدارين ، وكان قد خيره الله بين أن يكون نبيًا عبدًا أو نبيًا ملكًا ، فاختار عبدًا ، فلزمه أن يفي لله بما اختاره ، والمال إنما يرغب فيه مع مقارنة الدين ليستعان به على الآخرة، والنبي - عليه السلام - قد غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر ، فلم يحتج إلى المال من هذه الوجوه ، وكان قد ضمن الله له رزقه بقوله : ﴿ **نحن نرزقك والعاقبة للتقوى** ﴾ [٢] .

وقول عائشة : « لقد توفي رسول الله وما في بيتي شيء يأكله ذو كبد ، إلا شطر شعير » هو في معنى حديث أنس الذي قبله من الأخذ بالاقتصاد وبما يسد الجوعة ، وفيه بركة النبي ﷺ . وفيه [أن الطعام المكيل يكون فناؤه معلومًا للعلم بكيله] [٣] وأن الطعام غير المكيل فيه البركة ؛ لأنه غير معلوم مقداره .

* * *

باب : كيف كان عيش النبي عليه السلام وأصحابه وتخليهم من الدنيا

[ق/١٨١-أ] **/ فيه : أبو هريرة : « أنه كان يقول : آلله الذي لا إله إلا هو إن كنت لأعتمد بكبدي على الأرض من الجوع ، وإن كنت لأشد الحجر على بطني من الجوع ، ولقد قعدت يومًا على طريقهم الذي يخرجون فيه، فمرّ أبو بكر فسألته عن آية من كتاب الله ، ما سألته إلا ليشبعني ، فمرّ ولم يفعل ، ثم مرّ بي عمرُ فسألته عن آية ، فمرّ فلم يفعل ، ثم مرّ بي أبو القاسم - عليه السلام - فتبسّم حين رآني ، وعرف ما في نفسي ، ثم قال : أبا هر .**

---

(١) في « هـ » : لأنه . (٢) طه : ١٣٢ . (٣) من « هـ » .

قلت: لبيك يا رسول الله . قال : الحق ، ومضى ، فاتبعته ، فدخل فاستأذن فأذن لي ، فوجد لبنًا في قدحٍ ، فقال : من أين هذا اللبن ؟ قالوا: أهداه لك فلان - أو فلانة - قال : أبا هرّ الحق أهل الصُفّة فادعهم لي . وأهل الصفة أضياف الإسلام لا يأوون على أهل ولا مال ولا على أحد ، إذا أتته صدقة بعث إليهم بها ، ولم يتناول منها ، وإذا أتته هدية أرسل إليهم فأصاب منها ، وأشركهم فيها ، فساءني ذلك وقلت : [و][1] ما هذا اللبن في أهل الصفة ، كنت أحق أن أصيب من هذا اللبن شربةً أتقوى بها ، فإذا أمرني فكنت أنا أعطيهم ، وما عسى أن يبلغني من هذا اللبن ، ولم يكن بُدّ من طاعة الله وطاعة رسوله ، فدعوتهم ، فأقبلوا وأخذوا مجالسهم من البيت ، قال : أبا هر ، خذ فأعطهم ، فأخذت القدح [فجعلت أعطيه] [2] الرجل فيشرب حتى يروي ، حتى انتهيت إلى النبي - عليه السلام - وقد روي القوم كلهم ، فأخذ القدح فوضعه على يده ، فنظر إليّ فتبسّم فقال : أبا هرّ . فقلت : لبيك يا رسول الله . قال : بقيت أنا وأنت . قلت : صدقت يا رسول الله . قال : اشرب ، فشربت ، فما زال يقول اشرب حتى قلت : لا والذي بعثك بالحق ما أجد له مسلكًا ، قال : فأرني ، فأعطيته القدح ، فحمد الله وسمّى وشرب الفضلة » .

وفيه : سعد قال : « إني لأول العرب رمى بسهم في سبيل الله ، ورأيتنا نغزو ، ما لنا طعام إلا ورق الحبلة وهذا السمر ، وإن أحدنا ليضع كما تضع الشاة ماله خلط ، ثم أصبحت بنو [أسد] [1] تعزرني على الإسلام، خبت إذًا وضل سعيي » .

وفيه : (عائشة) [3] : « ما شبع آل محمد - منذ قدم المدينة - من طعام بر ثلاث ليال تباعًا حتى قبض » .

---

(١) من « هـ ، ن » . (٢) في « الأصل » : فأعطيه . والمثبت من « هـ ، ن.

(٣) في « الأصل » : عكاشة . والمثبت من « هـ ، ن » .

وقالت : « ما أكل آل محمد أكلتين في يوم إلا إحداهما تمر » .

[وقالت] [١] : « كان فراش النبي - عليه السلام - من أدم حشوه من ليف » .

وعن : أنس : « كنا نأتيه وخبازه قائم ، قال : كلوا فما [أعلم][٢] النبي رأى رغيفًا مرققًا حتى لحق بالله ، ولا رأى شاة سميطًا بعينه قط » .

وفيه : عائشة قالت : « كان يأتي علينا الشهر وما نوقد فيه ناراً ، إنما هو التمر والماء إلا أن نؤتى باللحم » .

وفيه : أبو هريرة قال النبي - عليه السلام - : « اللهم ارزق آل محمد قوتًا » .

قال الطبري : في اختيار رسول الله - عليه السلام - وخيار السلف من الصحابة والتابعين شظف العيش ، والصبر على مرارة الفقر والفاقة ومقاساة خشونة خشن الملابس والمطاعم على خفض ذلك ودعته ، وحلاوة الغنى ونعيمه ما أبان عن فضل الزهد في الدنيا وأخذ القوت والبلغة خاصة . وكان نبينا - عليه السلام - يطوي الأيام ، ويعصب على بطنه الحجر من الجوع ؛ [إيثاراً منه شظف العيش والصبر عليه ، مع علمه بأنه لو سأل ربه أن يسير له جبال تهامة ذهبًا وفضة لفعل ، وعلى هذه الطريقة جرى الصالحون ، ألا ترى قول أبي هريرة أنه كان شد الحجر على بطنه من الجوع] [٣] ، وخرج يتعرض من يمر به من الصحابة يسأله عن آي القرآن ليحمله ويطعمه . وفيه أن كتمان الحاجة أحرى بإظهارها وأشبه بأخلاق الصابرين ، وإن كان جائزًا له الإخبار بباطن أمره وحاجته لمن يرجوه لكشف فاقته .

---

(١) في « الأصل » : وقال . والمثبت من « هـ » .

(٢) في « الأصل » : نعلم . والمثبت من « هـ ، ن » .   (٣) من « هـ » .

وهذا الحديث علم عظيم من أعلام النبوة ، وذلك أن النبي - عليه السلام - عرف ما في نفس أبي هريرة ، ولم يعلم ذلك أبو بكر ولا عمر . وفيه شرب العدد الكثير من اللبن القليل حتى شبعوا ببركة النبوة. وفيه ما كان عليه عليه السلام من إيثار البلغة وأخذ القوت في كرم نفسه وأنه لم يستأثر بشيء من الدنيا دون أمته .

وقوله : « اللهم ارزق آل محمد قوتًا » . فيه دليل على فضل الكفاف وأخذ البلغة من الدنيا ، والزهد فيما فوق ذلك رغبةً في توفير نعيم الآخرة ، وإيثارًا لما يبقى على ما يفنى لتقتدي بذلك أمته ، ويرغبوا فيما [رغب] [1] فيه نبيهم - عليه السلام .

وروى الطبري [بإسناده] [2] عن ابن مسعود قال : حبذا المكروهان الموت والفقر ، والله ما هو إلا الغنى والفقر وما أبالي بأيهما ابتليت ، إن حق الله في كل واحد منها واجب ، إن كان الغنى ففيه التعطف ، وإن كان الفقر ففيه الصبر ، قال الطبري : فمحنة الصابر أشد من محنة الشاكر ، وإن كانا شريفي المنزلة ، غير أني أقول كما قال مطرف بن عبد الله / : لأن أعافى فأشكر أحب إلي من أن أبتلى فأصبر . [٤/ق١٨١-ب]

ومن فضل قلة الأكل ما روى يحيى بن أبي كثير ، عن أبي سلمة ، عن أبي هريرة قال : قال رسول الله : « إن أهل البيت ليقل طعمهم فتستنير بيوتهم » .

وروى إسحاق بن عبد الله بن أبي طلحة ، عن محمد بن علي ، عن أبيه ، عن النبي - عليه السلام - قال : « من سرّه أن يكون حكيمًا فليقل طعمه، فإنه يغشى جوفه نور الحكمة» . وقال مالك بن دينار: سمعت

---

(١) في « الأصل » : رغبوا . والمثبت من « هـ » .
(٢) في « الأصل » : وإسناده . والمثبت من « هـ » .

عبد الله الرازي يقول : كان أهل العلم بالله والقبول عنه يقولون : [إن الشبع] (١) يقسي القلب ، [ويفتر] (٢) البدن . ومن سير السلف في تخليهم من الدنيا ما روى وكيع ، عن الأعمش ، عن [شقيق بن سلمة] (٣) عن مسروق ، عن عائشة قالت : قال أبو بكر في مرضه الذي مات فيه : انظروا ما زاد في مالي منذ دخلت في الخلافة ؛ فابعثوا به إلى الخليفة بعدي ، فإني قد كنت أستحله ، وقد كنت أصيب من الودك نحوًا مما كنت أصيب من التجارة . قالت عائشة : فلما مات نظرنا فإذا عبد نوبي يحمل صبيانه وناضح كان يسني عليه ، فبعثناهما إلى عمر فأخبرني جدي أن عمر بكى وقال : رحمة الله على أبي بكر لقد أتعب من بعده .

والحُبلة والسمر : نوعان من الشجر أو النبات ، عن أبي عبيد . وقد تقدم الكلام في حديث سعد وما فيه في كتاب الأطعمة [في باب ما كان النبي ﷺ وأصحابه يأكلون وتقدّم فيه أيضًا الكلام في حديث عائشة وأنس وأبي هريرة مع الأحاديث المعارضة لها] (٤) .

* * *

باب : القصد والمداومة على العمل

فيه : عائشة : « سُئِلت أي العمل كان أحبَّ إلى رسول الله ﷺ ؟ قالت: الدائم . قيل : فأيّ حين كان يقوم ؟ قالت : كان يقوم إذا سمع الصارخ» .

وفيه : أبو هريرة قال النبي – عليه السلام – : « لن ينجي [أحدًا] (٥)

---

(١) في « الأصل » : بل التشبع . والمثبت من « هـ » .
(٢) في « الأصل » : ويغير . والمثبت من « هـ » .
(٣) في « الأصل ، هـ » : سفيان . وهو تحريف ، والمثبت من تاريخ ابن عساكر» (٣/ ٤٢٩) .
(٤) من « هـ » .
(٥) في « الأصل » : أحد . والمثبت من « هـ ، ن » .

منكم عمله . قالوا : ولا أنت يا رسول الله ؟ قال : ولا أنا ، إلا أن يتغمدني الله برحمته ، سدّدوا [وقاربوا] [(١)] ، واغدوا وروحوا ، وشيء من الدلجة ، والقصد القصد تبلغوا » .

وفيه : عائشة قال النبي - عليه السلام - : « سدّدوا وقاربوا [واعلموا][(٢)] أن لن يدخل أحدكم عمله الجنة ، وإن أحب العمل إلى الله أدومه [وإن قل] [(٣)] .

[وقال] [(٤)] في حديث آخر : « اكلفوا من العمل ما تطيقون » .

وقال علقمة : « سألت عائشة : كيف كان عمل النبي - عليه السلام - هل كان يخص من الأيام شيئًا ؟ قالت : لا ، كان عمله ديمة ، وأيكم يستطيع ما كان النبي ﷺ يستطيع » .

وفيه : أنس : « صلى لنا النبي - عليه السلام - يومًا الصلاة ، ثم رقي المنبر فأشار بيده قِبَلَ قبلة المسجد ، فقال : قد رأيت الآن منذ صليت لكم الصلاة الجنة والنَار ممثلتين في قبل هذا الجدار ، فلم أر كاليوم في الخير والشر مرتين » .

قال المؤلف : إنما حضّ النبي - عليه السلام - أمته على القصد والمداومة على العمل وإن قلّ خشية الانقطاع عن العمل الكثير فكأنه رجوع في فعل الطاعات ، وقد ذمّ الله ذلك ، ومدح من أوفى بالنذر، وقد تقدم [بيان هذا المعنى] [(٥)] في أبواب صلاة الليل [في آخر كتاب الصلاة] [(٥)] .

فإن قال قائل : إن قول عائشة : إن النبي لم يكن يخص شيئًا من الأيام بالعمل ؛ يعارضه قولها : « ما رأيت رسول الله أكثر صياماً منه في شعبان » قيل : لا تعارض بين شيء من ذلك ، وذلك أنه ﷺ كان كثير الأسفار في الجهاد ، فلا يجد سبيلا إلى صيام

---

(١) في « الأصل » : وقربوا . والمثبت من « هـ ، ن » .
(٢) في « الأصل » : واعملوا . وهو تحريف . والمثبت من « هـ ، ن » .
(٣) في « الأصل » : فإن قيل . والمثبت من « هـ ، ن » .
(٤) في « الأصل » : فقال . والمثبت من « هـ ، ن » . (٥) من « هـ » .

الثلاثة الأيام من كل شهر ، فيجمعها في شعبان ، ألا ترى قول عائشة: « كان يصوم حتى نقول لا يفطر ، ويفطر حتى نقول لا يصوم» فهذا يبين أنه كان لا يخصّ شيئًا من الزمان ؛ بل كان يوقع العبادة على قدر نشاطه ، وفراغه لذلك من جهاده وأسفاره ، فيقل مرةً ويكثر أخرى ، هذا قول المهلب ، وقد قيل في معنى كثرة صيامه ﷺ في شعبان وجوه أخر قد ذكرتها في باب صوم شعبان في كتاب الصيام .

فإن قيل : فما معنى ذكر حديث أنس في هذا الباب ؟ قيل : معناه أن يوجب ملازمة العمل وإدمانه ما مثل له من الجنة للرغبة ، ومن النار للرهبة ، فكان في ذلك فائدتان : إحداهما : تنبيه للناس أن يتمثلوا الجنة والنار بين أعينهم إذا وقفوا بين يدي الله، كما مثلها الله لنبيه ، وشغله بالفكرة فيهما عن سائر الأفكار الحادثة عن تذكير الشيطان بما يسهيه حتى لا يدري كم صلّى ، والثانية : أن يكون الخوف من النار الممثلة والرغبة في الجنة نصب عيني المصلي فيكونا باعثين له على الصبر ، والمداومة على العمل المبلغ إلى رحمة الله والنجاة من النار [٤/ق١٨٢-أ] / برحمته .

فإن قال قائل : فإن قوله عليه السلام : « لن يدخل أحدكم عمله الجنة » يعارض قوله تعالى : ﴿ **وتلك الجنة التي أورثتموها بما كنتم تعملون** ﴾ (١) قيل : ليس كما توهمت ، ومعنى الحديث غير معنى الآية ، أخبر النبي - عليه السلام - في الحديث أنه لا يستحق أحد دخول الجنة بعمله ، وإنما يدخلها العباد برحمة الله ، وأخبر الله تعالى في الآية أن الجنة تنال المنازل فيها بالأعمال ، ومعلوم أن درجات العباد فيها متباينة على قدر تباين أعمالهم ، فمعنى الآية في ارتفاع الدرجات وانخفاضها والنعيم فيها ، ومعنى الحديث في الدخول في الجنة والخلود فيها ، فلا تعارض بين شيء من ذلك .

---

(١) الزخرف : ٧٢ .

فإن قيل : فقد قال تعالى في سورة النحل : ﴿ **سلام عليكم ادخلوا الجنة بما كنتم تعملون** ﴾ (١) فأخبر أن دخول الجنة بالأعمال أيضًا. فالجواب: أن قوله: ﴿ **ادخلوا الجنة بما كنتم تعملون** ﴾ (١) كلام مجمل يبينه الحديث ، وتقديره ادخلوا منازل الجنة وبيوتها بما كنتم تعملون ، فالآية مفتقرة إلى بيان الحديث .

وللجمع بين الحديث وبين الآيات وجه آخر هو أن يكون الحديث [مفسرًا] (٢) للآيات ، ويكون تقديرها : ﴿ **وتلك الجنة التي أورثتموها بما كنتم تعملون** ﴾ (٣) و ﴿ **كلوا واشربوا هنيئًا بما كنتم تعملون** ﴾ (٤) و ﴿ **ادخلوا الجنة بما كنتم تعملون**﴾ (١) مع رحمة الله لكم وتفضله عليكم؛ لأن فضله تعالى ورحمته لعباده في اقتسام المنازل في الجنة ، كما هو في دخول الجنة لا ينفك منه ، حين ألهمهم إلى ما نالوا به ذلك ، ولا يخلو شيء من مجازاة الله عباده من رحمته وتفضله ، ألا ترى أنه تعالى جازى على [الحسنة] (٥) عشرًا ، وجازى على السيئة [واحدة] (٦) ، وأنه ابتدأ عباده بنعم لا تحصى ، لم يتقدم لهم فيها سبب ولا فعل ، منها أن خلقهم بشرًا سويا ، ومنها نعمة الإسلام ونعمة العافية ونعمة تضمنه تعالى لأرزاق عباده ، وأنه كتب على نفسه الرحمة ، وأن رحمته سبقت غضبه ، إلى ما لا يهتدى إلى معرفته من ظاهر النعم وباطنها .

وقوله : « إلا أن يتغمدني الله » قال أبو عبيد : لا أحسب يتغمدني إلا مأخوذ من غمد السيف، لأنك إذا غمدته فقد ألبسته إياه وغشيته به.

وقول عائشة : «كان عمله ديمةً » يعني دائمًا ، وأصل [الديمة](٧): المطر الدائم مع سكون ، قال لبيد :

---

(١) النحل : ٣٢ . (٢) في « الأصل » : مفسر . والمثبت من « هـ » .
(٣) الزخرف : ٧٢ . (٤) الطور : ١٩ .
(٥) في « الأصل » : الجنة . وهو تحريف ، والمثبت من « هـ » .
(٦) في « الأصل » : الواحدة . والمثبت من « هـ » .
(٧) في « الأصل » : الديم والمثبت من « هـ » .

باتتْ وأســـبلَ واكف من ديمـــة

[يروي][(١)] الخمائلَ ، دائمًا تسجامها

فأخبر أن الديمة : الدائم ، فشبهت عائشة عمله عليه السلام في دوامه مع الاقتصاد وترك الغلو بديمة المطر .

* * *

باب : الصبر عن محارم الله

وقوله : ﴿ إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب ﴾ [(٢)] وقال عمر: وجدنا خير عيشنا الصبر

فيه : أبو سعيد : « أنا ناسًا من الأنصار سألوا رسول الله ، فلم يسأله أحد إلا أعطاه حتى نفد ما عنده ، فقال لهم : ما يكون عندي من خير لا أدخره عنكم ، وإنه من يستعفف يعفه الله ، ومن يتصبر يصبره الله ، ومن يستغن يغنه الله ، ولن تعطوا عطاءً خيرًا وأوسع من الصبر » .

وفيه : المغيرة : « كان النبي - عليه السلام - يصلي حتى ترم أو تنتفخ قدماه ، فيقال له ، فيقول : أفلا أكون عبدًا شكورًا » .

قال المؤلف: أرفع الصابرين منزلةً عند الله من صبر عن محارم الله، وصبر على العمل بطاعة الله ، ومن فعل ذلك فهو من خالص عباد الله وصفوته ، ألا ترى قوله عليه السلام : « لن تعطوا عطاءً خيرًا وأوسع من الصبر » وسئل الحسن عن قوله عليه السلام حين سئل عن [الإيمان][(٣)] فقال : « الصبر والسماح » فقيل للحسن : ما الصبر والسماح ؟ فقال : السماح بفرائض الله ، والصبر عن محارم الله .

(١) في « الأصل » : تذوى . والمثبت من « هـ » انظر لسان العرب مادة : سجم.
(٢) الزمر : ١٠ .
(٣) في « الأصل » : الإيثار . والمثبت من « هـ » .

وقال الحسن : وجدت الخير في صبر ساعةٍ .

وقوله عليه السلام : « من يستعفف يعفه الله ومن يتصبر يصبره الله ، ومن يستغن يغنه الله » معناه من يعفه الله يستعفف ، ومن يصبره الله يتصبر ، ومن يغنه الله يستغن، وهذا مثل قوله تعالى : ﴿ **فأما من أعطى واتقى وصدق بالحسنى** ﴾ (١) الآية . يبين صحة هذا قوله تعالى : ﴿**ثم تاب عليهم ليتوبوا**﴾ (٢) فلولا ما سبق في علمه أنه قضى لهم بالتوبة ما تابوا ، وكذلك لولا ما سبق في علم الله أنهم ممن يستعفف ويستغني ويصبر ما قدروا على شيء من ذلك بفعلهم .

يبين ذلك قوله عليه السلام : « اعملوا فكل / ميسّر لما خلق له » [٤/ق١٨٢-ب] وهذا حجة في أن أفعال العباد خلق لله - تعالى - والصبر في حديث المغيرة صبر على العمل بطاعة الله ، لأنه كان عليه السلام يصلي بالليل حتى ترم قدماه ، ويقول : « أفلا أكون عبداً شكوراً » .

قال الطبري : وقد اختلف السلف في حد الشكر فقال بعضهم : [شكر] (٣) العبد لربه على أياديه عنده رضاؤه بقضائه ، وتسليمه لأمره فيما نابه من خير أو شر ، ذكره الربيع بن أنس عن بعض أصحابه . وقال آخرون : شكر العبد طاعته لربه ، روي ذلك عن السدي وعن محمد ابن كعب . وقال آخرون : الشكر لله هو الإقرار بالنعم أنها منه، وأنه المتفضل بها ، وقالوا الحمد والشكر بمعنى واحد روي ذلك عن ابن عباس وابن زيد .

قال الطبري : والصّواب في ذلك أن شكر العبد هو إقراره بأن ذلك من الله دون غيره وإقرار الحقيقة الفعل ، ويصدقه العمل ، فأما

---

(١) الليل : ٥ - ٦ .

(٢) التوبة : ١١٨ .

(٣) في « الأصل » : يشكر . والمثبت من « هـ » .

الإقرار الذي يكذبه العمل ، فإن صاحبه لا يستحق اسم الشاكر بالإطلاق ، ولكنه يقال [شكر باللسان] [1] والدليل على صحة ذلك قوله تعالى : ﴿**اعملوا آل داود شكرًا**﴾ [2] ومعلوم أنه لم يأمرهم - إذ قال لهم ذلك - بالإقرار بنعمه ؛ لأنهم كانوا لا يجحدون أن يكون ذلك تفضلا منه عليهم ، وإنما أمرهم بالشكر على نعمه بالطاعة له بالعمل ، وكذلك قال عليه السلام حين تفطرت قدماه في قيام الليل : « أفلا أكون عبداً شكوراً » .

فإن قال قائل : فأي المنزلتين أعلى درجةً : الصبر أو الشكر ؟ قيل : كل رفيع الدرجة شريف المنزلة ، وما ذو العافية والرخاء كذي الفاقة والبلاء ، وفي قوله تعالى : ﴿**إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب**﴾ [3] ، وخصوصه إياهم من الأجر على صبرهم دون سائر من ضمن له ثوابًا على عمله ما يبين عن فضل الصبر .

وقد روى الأعمش ، عن أبي الزبير ، عن جابر قال : قال رسول الله ﷺ : « يود أهل العافية يوم القيامة أن جلودهم في الدنيا كانت تقرض بالمقاريض لما يرون من ثواب الله - تعالى - لأهل البلاء» [وذكر] [4] ابن أبي الدنيا من حديث أم هانئ قالت : « دخل عليّ رسول الله فقال : أبشري ، فإن الله قد [أنزل] [5] لأمتي الخير كله، قد أنزل ﴿ **إن الحسنات يذهبن السيئات** ﴾ قلت : بأبي وأمي وما [الحسنات ؟] [6] قال : الصلوات الخمس [ودخل عليّ] [7] فقال: أبشري فإنه قد أنزل خير لا شر بعده . قلت : بأبي وأمي ما هو؟ قال: أنزل الله ﴿ **من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها** ﴾ . فقلت : يا رب زد أمتي ، فأنزل الله - تعالى - : ﴿ **مثل الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله كمثل حبة أنبتت سبع سنابل في كل سنبلة مائة حبة** ﴾ [8]

---

(١) في « الأصل »: شكرنا للدينار. والمثبت من « هـ ».
(٢) سبأ : ١٣ . (٣) الزمر : ١٠ .
(٤) في « الأصل » : وقال . والمثبت من « هـ » .
(٥) في « الأصل » : آثر . والمثبت من « هـ » . (٦) من « هـ » .
(٧) في « الأصل » : وقال علي. والمثبت من « هـ » . (٨) البقرة : ٢٦١ .

فقلت : يا رب زد أمتي . فأنزل الله : ﴿ إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب ﴾ (1) » .

* * *

باب : حفظ اللسان ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيرًا أو ليصمت وقول الله : ﴿ ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد ﴾ (2)

فيه : سهل بن سعد قال : قال رسول الله ﷺ : « من يضمن لي ما بين لحييه ، وما بين رجليه ، أضمن له الجنة » .

وفيه : أبو هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيرًا أو ليصمت ، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا [يؤذ] (3) جاره ، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه » .

ورواه أبو شريح عن النبي - عليه السلام - .

وفيه : أبو هريرة أن النبي - عليه السلام - قال : « إن العبد ليتكلم بالكلمة من سخط الله لا يلقي لها بالا يهوي بها في النار أبعد ما بين المشرق والمغرب» .

وفيه : أبو هريرة عن النبي - عليه السلام - : « إن العبد ليتكلم بالكلمة من رضوان الله ، لا يلقي لها بالا ، يرفعه الله بها درجات ، وإن العبد ليتكلم بالكلمة من سخط الله ، لا يلقي لها بالا يهوي بها في نار جهنم » .

قال المؤلف : ما أحق من علم أن عليه حفظةً موكلين به ، يحصون عليه سقط كلامه وعثرات لسانه ، أن يحزنه ويقل كلامه فيما لا يعنيه ،

---

(1) الزمر : 10 . (2) سورة ق : 18 .

(3) في « الأصل ، هـ » : يؤذي . والمثبت من « ن » .

وما أحراه بالسعي في أن لا يرتفع عنه ما يطول عليه ندمه من قول الزور والخوض في الباطل ، وأن يجاهد نفسه في ذلك ويستعين بالله ويستعيذ من شر لسانه ، وقوله عليه السلام : « من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيرًا أو [ليصمت] [١] » يعني من كان يؤمن بالله واليوم الآخر الإيمان التام فإنه / ستبعثه قوة إيمانه على محاسبة نفسه في الدنيا والصمت عما يعود عليه ندامةً يوم القيامة ، وكان الحسن يقول : ابن آدم ، نهارك ضيفك فأحسن إليه ، فإنك إن أحسنت إليه ارتحل يحمدك ، وإن أسأت إليه ارتحل يذمك .

[٤/ق١٨٣-أ]

وقال عمر بن عبد العزيز لرباح بن عبيد : بلغني أن الرجل ليظلم بالمظلمة ، فما زال المظلوم يشتم ظالمه حتى يستوفي حقه ويفضل للظالم عليه . وروى أسد عن الحسن البصري قال : لا يبلغ أحد حقيقة الإيمان حتى لا يعيب أحدًا بعيب هو فيه ، وحتى يبتدئ بصلاح ذلك العيب من نفسه، فإنه إن فعل ذلك لم يصلح عيبًا إلا وجد في نفسه عيبًا آخر ، فينبغي له أن يصلحه ، فإذا كان المرء كذلك كان شغله في خاصته واجبًا، وأحب العباد إلى الله من كان كذلك .

وقوله : « من ضمن لي ما بين لحييه » يعني لسانه فلم يتكلم بما يكتبه عليه صاحب الشمال « وما بين رجليه » يعني فرجه فلم يستعمله فيما لا يحل له « ضمنت له الجنة » . ودل بهذا الحديث أن أعظم البلاء على العبد في الدنيا اللسان والفرج ، فمن وقي شرهما فقد وقي أعظم الشر ، ألا ترى قوله عليه السلام : « إن العبد ليتكلم بالكلمة لا يلقى لها بالاً يزل بها في النار أبعد مما بين المشرق والمغرب » .

وقال أهل العلم : هي الكلمة عند السلطان بالبغي والسعي على

---

(١) في « الأصل » : يصمت . والمثبت من « هـ » .

المسلم ، فربما كانت سببًا لهلاكه ، وإن لم يرد ذلك الباغي ، لكنها آلت إلى هلاكه ، فكتب عليه إثم ذلك ، والكلمة التي يكتب الله [له][1] بها رضوانه الكلمة يريد بها وجه الله بين أهل الباطل ، أو الكلمة يدفع بها مظلمة عن أخيه المسلم ، ويفرج عنه بها كربةً من كرب الدنيا ، فإن الله - تعالى - يفرج عنه كربةً من كرب الآخرة ، ويرفعه بها درجات يوم القيامة .

* * *

باب : البكاء من خشية الله

فيه : أبو هريرة عن النبي - عليه السلام - قال : « سبعة يظلهم الله في ظله رجل ذكر الله ففاضت عيناه ... » الحديث .

قال المؤلف : قد تقدم الكلام في هذا الحديث في كتاب المحاربين في باب فضل من ترك الفواحش ، ونذكر في هذا الباب ما روي في البكاء من خشية الله - تعالى - عن الأنبياء - عليهم السلام - وعن السلف أيضًا ، روى أسد بن موسى ، عن عمران بن زيد ، عن يزيد الرقاشي ، عن أنس بن مالك قال : قال رسول الله ﷺ : « أيها الناس ، ابكوا ، فإن لم تبكوا فتباكوا ، فإن أهل النار يبكون في النار حتى تسيل دموعهم في وجوههم كأنها جداول ، ثم تنقطع الدموع وتسيل الدماء فتقرح العيون ، فلو أن السفن أجرين فيها لجرت» وكان ﷺ إذا قام إلى الصلاة سمع لجوفه أزيز كأزيز المرجل من البكاء، وهذه كانت سيرة الأنبياء والصالحين كأن خوف الله أُشرب قلوبهم واستولى عليهم الوجل حتى كأنهم عاينوا الحساب ، وعن يزيد

---

(١) من « هـ » .

الرقاشي قال : يا لهفاه سبقني العابدون ، وقُطِع بي نوح ؛ يبكي على خطيئته ، ويزيد لا يبكي على خطيئته ، إنما سُمّي [نوحًا] لطول ما ناح على نفسه في الدنيا .

وذكر ابن المبارك عن مجاهد قال : كان طعام يحيى بن زكريا العشب ، وكان يبكي من خشية الله ، ما لو كان القار على عينيه [لخرقه](٢) ولقد كانت الدموع اتخذت في وجهه مجرى .

وقال ابن عباس : قال النبي - عليه السلام - : « كان مما ناجى الله موسى أنه لم يتعبد العابدون بمثل البكاء من خيفتي ، أما البكاءون من خيفتي فلهم الرفيق لا يشاركون فيه » .

وعن وهيب بن الورد أن زكريا [قال] (٣) ليحيى ابنه شيئًا فقال له: يا أبة ، إن جبريل أخبرني أن بين الجنة والنار مفازة لا يقطعها إلا كل بكاء .

وقال الحسن : أوحى الله إلى عيسى بن مريم أكحل عينيك بالبكاء إذا رأيت البطالين يضحكون .

وعن وهب بن منبه عن النبي - عليه السلام - قال : « لم يزل أخي داود باكيًا على خطيئته (مدة) (٤) حياته كلها ، وكان يلبس الصوف ويفترش الشعر ويصوم يومًا ويفطر يومًا ، ويأكل خبز الشعير بالملح والرماد، ويمزج شرابه بالدموع، ولم يُر ضاحكًا بعد الخطيئة ، ولا شاخصًا ببصره إلى السماء حياءً من ربه وهذا بعد المغفرة ، وكان إذا ذكر خطيئته خر مغشيا عليه [يضطرب] (٢) كأنه أعجب به ، فقال : وهذه خطيئة أخرى .

وروي عن محمد بن كعب في قوله تعالى : ﴿ **وإن له عندنا لزلفى**

---

(١) في « الأصل » : نوح . والمثبت من « هـ » . (٢) من « هـ » .
(٣) في « الأصل » : كان . والمثبت من « هـ » .
(٤) في « هـ » : أيام .

وحسن مآب ﴾ [1] قال : الزلفى : أول / من يشرب من الكأس [2] [٤/ق١٨٣-ب] يوم القيامة داود وابنه .

قال بعض الناس : أرى هذه الخاصة لشربه دموعه من [خشية] [3] الله - عز وجل - وكان عثمان بن عفان إذا وقف على قبر بكى حتى يبل لحيته ، فقال له : قد تذكر الجنة والنار ولا تبكي وتبكي من هذا ؟ قال : إن رسول الله ﷺ قال لي : « إن القبر أول منزلة من منازل الآخرة ، فمن نجا منه فما بعده أيسر منه ، وإن لم ينج منه فما بعده أشد منه» .

وقال أبو رجاء : رأيت مجرى الدموع من ابن عباس كالشراك البالي من البكاء .

* * *

باب : الخوف من الله

فيه : حذيفة وأبو سعيد عن النبي - عليه السلام - قال : « كان رجل ممن كان قبلكم يسيء الظن بعمله ، فقال لأهله : إذا أنا مت فخذوني فذروني في البحر في يوم صائف . ففعلوا به ، فجمعه الله ثم قال : ما حملك على الذي صنعت ؟ قال : مخافتك . فغفر له » .

وقال أبو سعيد في حديثه : « أنه لم يبتئر عند الله خيرًا - فسرها قتادة : لم يدخر - وإن يقدم على الله يعذبه ، فانظروا فإذا مت فاحرقوني ، حتى إذا صرت فحمًا فاسحقوني - أو قال فاسهكوني - ثم إذا كان ريح عاصف ، فأذروني فيها ، فأخذ مواثيقهم على ذلك ، وربي ففعلوا .

---

(١) سورة ص : ٢٥ ، ٤٠ .

(٢) ورد في « الأصل » كلمة « إلى » وكأنها مقحمة .

(٣) في « الأصل » : الحب . والمثبت من « هـ » .

فقال الله : كن . فإذا رجل قائم . قال الله : أي عبدي ، ما حملك على ما فعلت ؟ قال : مخافتك أو فرق منك . فما تلافاه أن رحمه » .

قال المؤلف : [ذكر البخاري] [1] في باب ما ذكر عن بني إسرائيل، قال حذيفة : « **وكان نباشًا** » .

قال المؤلف : [فغفر] [2] الله له بشدة مخافته ، وأقرب الوسائل إلى الله خوفه وألا يأمن المؤمن مكره ، قال خالد الربعي : وجدت فاتحة زبور داود : رأس الحكمة خشية الرّب . وكان السلف الصالح قد أشرب الخوف من الله قلوبهم واستقلوا أعمالهم [ويخافون] [3] ألا يقبل منهم مع مجانبتهم الكبائر ، فروي عن عائشة : « أنها سألت النبي - عليه السلام - عن قوله تعالى : ﴿ **والذين يؤتون ما آتوا وقلوبهم وجلة** ﴾ [4] قال : يا ابنة الصدّيق ، هم الذين يصلون ويصومون ويتصدقون ، ويخافون ألا يقبل منهم » .

وقال مطرف بن عبد الله : كاد خوف النار يحول بيني وبين أن أسأل الله الجنة . وقال بكر - لما نظر إلى أهل عرفات - : ظننت أنه قد غفر لهم لولا أني كنت معهم .

فهذه صفة العلماء بالله الخائفين له ، يعدون أنفسهم من الظالمين الخاطئين ، وهم أنزاه برآء أو مع المقصرين ، وهم أكياس مجتهدون لا يدلون عليه بالأعمال فهم مروّعون خاشعون وجلون

---

(1) من « هـ » .

(2) في « الأصل » : يغفر .

(3) في « الأصل » : يخافوا . والمثبت من « هـ » .

(4) المؤمنون : ٦٠ .

وقال عبد الله بن مسعود : وددت أني [انفلقت] [1] عن روثة لا أنتسب إلا إليها ، فيقال : عبد الله بن روثة ، وأن الله قد غفر لي ذنبًا واحدًا .

وقال الحسن البصري : يخرج من النار رجل بعد ألف عام ، وليتني كنت ذلك الرجل ، لقد شهدت أقوامًا كانوا أزهد فيما أحل لهم منكم فيما حرم عليكم ، ولهم كانوا أبصر بقلوبهم منكم بأبصاركم ، ولهم كانوا أشفق أن لا تقبل حسناتهم منكم ألا تؤخذوا بسيئاتكم .

وقال حكيم من الحكماء : إذا أردت أن تعلم قدرك عند الله فاعلم قدر طاعة الله في قلبك . وقال ميمون بن مهران : ما [فينا] [2] خير إلا أنا نظرنا إلى قوم ركبوا الجرائم وعففنا عنها ، فظننا أن فينا خيراً وليس فينا خير. فإن قال قائل : كيف غفر [لهذا] [3] الذي أوصى أهله بإحراقه وقد جهل قدرة الله على إحيائه ، وذلك أنه قال : « إن يقدر علي الله يعذبني » وقال في رواية أخرى : « فوالله لئن قدر الله عليَّ ليعذبني » .

قال الطبري : قيل : قد اختلف الناس في تأويل هذا الحديث ، فقال بعضهم : أما ما كان من عفو الله عما كان منه في أيام صحّته من المعاصي ؛ فلندمه عليها وتوبته منها عند [موته] [4] ، ولذلك أمر ولده بإحراقه (وذروه) [5] في البر والبحر خشية من عقاب ربه

---

(١) في « الأصل » : تعلقت . والمثبت من « هـ » .

(٢) في « الأصل » : منا . والمثبت من « هـ » .

(٣) في « الأصل » : إلى هذا . والمثبت من « هـ » .

(٤) في « الأصل » : توبته . والمثبت من « هـ » .

(٥) في « هـ » : وتذريره .

والندم توبة ، ومعنى رواية من روى : « فوالله لئن قدر الله عليه » أي إن ضيق عليه ، كقوله : ﴿ **ومن قدر عليه رزقه** ﴾ (١) وقوله : ﴿ **وأما إذا ما ابتلاه فقدر عليه رزقه** ﴾ (٢) لم يرد بذلك وصف بارئه بالعجز عن إعادته حيًا ، ويبين ذلك قوله في الحديث حين أحياه ربه « قال : ما حملك على ما صنعت ؟ قال : مخافتك يا رب » . وبالخوف والتوبة نجا من عذابه عز وجل .

وقال آخرون في معنى قوله « لئن قدر الله عليَّ » : معناه القدرة التي هي خلاف العجز ، وكان عنده أنه إذا أحرق وذري في البر والبحر أعجز ربه عن إحيائه ، قالوا : وإنما غفر له جهله بالقدرة ؛/ [٤/ق١٨٤-أ] لأنه لم يكن تقدم من الله - تعالى - في ذلك الزمان بأنه لا يغفر الشرك به ، وليس في العقل دليل على أن ذلك غير جائز في حكمة الله ؛ بل الدليل فيه على أنه ذو الفضل والإحسان والعفو عن أهل الآثام ، وإنما نقول : لا يجوز أن يغفر الشرك بعد قوله تعالى : ﴿ **إن الله لا يغفر أن يشرك به** ﴾ (٣) فأما جواز غفران الله ذلك لولا الخبر في كتابه فهو كان [الأولى] (٤) بفضله والأشبه بإحسانه [لأنه] (٥) لا يضره كفر كافر ، ولا ينفعه إيمان مؤمن .

وقال آخرون : بل غفر له وإن كان كفرًا من قوله ، من أجل أنه قاله على جهل منه بخطئه ، فظن أن ذلك صواب . قالوا : وغير جائز في عدل الله وحكمته أن يسوّي بين من أخطأ وهو يقصد الصواب، وبين من تعمّد الخطأ والعناد للحق في العقاب .

وقال آخرون : إنما غفر له، وإن كان كفرًا ممن قصد قوله وهو يعقل

---

(١) الطلاق : ٧ . (٢) الفجر : ١٦ . (٣) النساء : ٤٨ .

(٤) في « الأصل » : أولى. والمثبت من « هـ » .

(٥) في « الأصل » : أنه . والمثبت من « هـ » .

ما يقول ؛ لأنه قاله وهو لا يعقل ما يقول . وغير جائز وصف من نطق بكلمة كفر وهو لا يعلمها كفرًا بالكفر ، وهذا قاله وقد غلب على فهمه من الجزع الذي كان لحقه [لخوفه] (١) من عذاب الله -تعالى - [وهذا] (١) نظير الخبر الذي روي عن النبي - عليه السلام- في الذي يدخل الجنة آخر من يدخلها فيقال له : « إن لك مثل الدنيا وعشرة أمثالها » فيقول للفرح الذي يدخله : « يا رب أنت عبدي وأنا ربك مرتين » قالوا فهذا القول لو قاله على فهم منه بما يقول كان كفرًا، وإنما لم يكن منه كفرًا لأنه قاله وقد استخفه الفرح مريدًا به أن يقول : أنت ربي وأنا عبدك ، فلم يكن مأخوذًا بما قال من ذلك .

ويشهد لصحة هذا المعنى قوله تعالى : ﴿ **وليس عليكم جناح فيما أخطأتم به ولكن ما تعمدت قلوبكم** ﴾ (٢) .

قال المؤلف : وسأذكر كلام الأشعري ومذهبه في هذا الحديث في كتاب الاعتصام في باب قوله تعالى : ﴿ **يريدون أن يبدلوا كلام الله**﴾(٣) فهو حديث أكثر الناس فيه القول ، إن شاء الله .

وقوله : « لم يبتئر خيرًا » فإن الأصمعي والكسائي كانا يقولان فيه: لم يقدم خيرًا . وقال غيرهما : معناه أنه لم يقدم لنفسه خيراً خبأه لها، وقال : إن أصل الابتئار الإخفاء ، يقال منه : بأرت الشيء وابتأرته ابتئارًا ، ومنه سميت الحفرة : البؤرة ، وفيه لغتان ابتأرت وابتيرت ، ومصدره ابتئاراً . وقال صاحب العين : البئرة بوزن فعلة : ما ادخرت من شيء .

* * *

---

(١) من « هـ » .

(٢) الأحزاب : ٥ .

(٣) الفتح : ١٥ .

باب : الانتهاء عن المعاصي

فيه : أبو موسى : قال النبي - عليه السلام - : « مثلي ومثل ما بعثني الله به كمثل رجل أتى قومًا فقال : رأيت الجيش بعيني وأنا النذير العريان، فالنجاء النجاء، فأطاعه قوم فأدلجوا على مهلهم فنجوا ، وكذبته طائفة فصبحهم الجيش فاجتاحهم » .

وفيه : أبو هريرة قال النبي - عليه السلام - : « مثلي ومثل الناس كمثل رجل استوقد نارًا ، فلما أضاءت ما حوله جعل الفراش وهذه الدواب التي تقع في النار يقعن [فيها] [1] وجعل [ينزعهن] [2] ويغلبنه فيقتحمن فيها ، فأنا آخذ بحجزكم عن النار (وهم يقتحمون)[3] فيها » .

وفيه : عبد الله بن عمرو : قال النبي ﷺ : « المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده ، والمهاجر من هجر ما نهى الله عنه » .

قال المؤلف : هذه أمثال ضربها النبي - عليه السلام - لأمته لينبههم بها على استشعار الحذر ، خوف التورّط في محارم الله والوقوع في معاصيه ، ومثل لهم ذلك بما عاينوه وشاهدوه من أمور الدنيا ؛ ليقرب ذلك من أفهامهم ، ويكون أبلغ في موعظتهم ، فمثل عليه السلام اتباع الشهوات المؤدية إلى النار بوقوع الفراش [في النار ؛ لأن الفراش] [4] من شأنه [اتباع] [4] ضوء النار حتى يقع فيها ، فكذلك متبع شهوته يئول به ذلك إلى العذاب ، وشبّه جهل راكب الشهوات بجهل الفراش ؛ لأنها لا تظن أن النار تحرقها حتى تقتحم فيها .

والنذير العريان : رجل من خثعم حمل عليه يوم ذي الخلصة فقطع

---

(١) من « هـ ، ن » .

(٢) في « الأصل » : ينزعنهن . والمثبت من « هـ ، ن » .

(٣) في « هـ » : وأنتم تقتحمون . (٤) من « هـ » .

يده ويد امرأته ، فرجع إلى قومه ، فضرب عليه السلام المثل لأمته لأنه تجرّد لإنذارهم ، لما يصير إليه من اتبعه من كرامة الله ، وبما يصير إليه من عصاه من نقمته وعذابه ؛ تجرد من رأى من الحقيقة ما رأى النذير العريان الذي قطعت يده ويد امرأته / حتى ضرب به المثل في تحقيق [٤/ق١٨٤-ب] الخبر .

وقوله : « المهاجر من هجر ما نهى الله عنه » يعني المهاجر التام الهجرة من هجر المحارم ، كما قال عليه السلام أن جهاد النفس أكبر من جهاد العدو .

* * *

باب : قول النبي – عليه السلام – لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلا

فيه : أبو هريرة وأنس عن النبي – عليه السلام – قال : « لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلا ولَبكيتم كثيرًا » .

قال المؤلف : روى سنيد ، عن هشيم، عن كوثر بن حكيم ، عن نافع ، عن ابن عمر قال : « خرج رسول الله ﷺ إلى المسجد ، فإذا قوم يتحدثون ويضحكون ، قال : أكثروا ذكر الموت ، أما والذي نفسي بيده لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيرًا » .

وخشية الله إنما تكون على مقدار العلم به ، كما قال تعالى : **﴿إنما يخشى الله من عباده العلماء﴾**[1] ولما لم يعلم أحد كعلم النبي – عليه السلام – لم يخش كخشيته ، فمن نور الله [قلبه] [2] وكشف الغطاء عن بصيرته ، وعلم ما حباه الله من النعم ، وما يجب عليه من الطاعة والشكر ، وأفكر فيما يستقبل من أهوال يوم القيامة ،

---

(١) فاطر : ٢٨ .

(٢) في « الأصل » : عليه . والمثبت من « هـ » .

وما يلقى العباد في تلك المواقف من الشدائد ، وما يعاينوه من مساءلة الله عباده عن مثاقيل الذر ، وعن الفتيل والقطمير كان حقيقًا بكثرة الحزن وطول البكاء ، ولهذا قال أبو ذرّ : لو تعلمون العلم ما ساغ لكم طعام ولا شراب ، ولا نمتم على الفرش ، [ولاجتنبتم][1] النساء، ولخرجتم إلى الصعدات [تجأرون] [2] وتبكون .

وقال عبد الله بن عمرو : ابكوا ، فإن لم تجدوا بكاءً فتباكوا ، فلو تعلمون العلم لصلى أحدكم حتى ينكسر ظهره ، ولبكى حتى ينقطع صوته . وقال الفضيل : بلغني عن طلحة أنه ضحك يومًا فوثب على نفسه ، وقال : فيم تضحك ، إنما يضحك من قطع الصراط ، ثم قال: آليت على نفسي ألا أكون ضاحكًا [حتى أعلم متى تقع الواقعة، فلم ير ضاحكًا] [3] حتى صار إلى الله .

وقال الحسن : يحق لمن عرف أن الموت مورده والقيامة موعده ، وأن الوقوف بين يدي الله مشهده ، أن يطول في الدنيا حزنه .

وقال سفيان في قوله تعالى : ﴿ **وكانوا لنا خاشعين** ﴾ [4] قال : الحزن الدائم في القلب ، وقال : إنما الحزن على قدر البصر . وقال بعضهم : الحزن والخشية (هي) [5] مواريث القلوب التي تُنال بما قبلها من الأعمال ، فمن رام أن يقيم فرضه تامًا [فيصلي] [6] لله بكمال الصلاة ، ويصوم بكمال الصيام ، ويؤدي كذلك سائر الفرائض، ويقوم بالحق على نفسه وأهله ومن يسأل عنه في مداخلته ومخالطته ، ويقيم ما أمر به في لسانه وسمعه وبصره ، وجميع

---

(١) في « الأصل » : ولا جالستم . والمثبت من « هـ » .
(٢) في « الأصل » : تجرون . والمثبت من « هـ » . (٣) من « هـ » .
(٤) الأنبياء : ٩٠ . (٥) في « هـ » : من .
(٦) في « الأصل » : فليصلي . والمثبت من « هـ » .

جوارحه حتى يدخل في قوله تعالى : ﴿ **إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا** ﴾ (١) وجد نفسه عن ذلك عاجزًا مقصرًا ، فإذا رأى ذلك بعين جلية وعلم قرب أجله وعظيم خطبه ، وأن الوقوف بين يدي الله من ورائه حزن على نفسه ، بتخلفه [عن] (٢) السابقة التي يسمعها لغيره ، ووجب عليه الجد في أمره واستجلاب معونة الله بالاعتصام به، قال تعالى : ﴿ **إنهم كانوا يسارعون في الخيرات ويدعوننا رغبًا ورهبًا وكانوا لنا خاشعين** ﴾ (٣) .

وقال مطرف ابن [عبد الله] (٤) : دع أعمال الشر ؛ فإن في الخير [شرًا كثيرًا] (٥) فلو لم تكن لنا ذنوب إلا أن الله - تعالى - يؤاخذنا بصحة أعمالنا وإتقانها وإحكامها وإصلاحها وصوابها لكان في هذا شغل كثير لمن يعقل .

وقد تقدم في كتاب الإيمان في باب : خوف المؤمن أن يحبط عمله ولا يشعر ما يشبه هذا المعنى .

* * *

باب : حُجبت النار بالشهوات

فيه : أبو هريرة قال النبي - عليه السلام - : « حجبت النار بالشهوات، وحجبت الجنّة بالمكاره » .

وفيه : ابن مسعود قال النبي - عليه السلام - : « الجنة أقرب إلى أحدكم من شراك نعله ، والنار [مثل] (٦) ذلك » .

وفيه : أبو هريرة قال النبي - عليه السلام - : « أصدق كلمة قالها الشاعر : ألا كل شيء ما خلا الله باطل » .

---

(١) فصلت : ٣٠ . (٢) من « هـ » .
(٣) الأنبياء : ٩٠ . (٤) في « الأصل » : عبيد . والمثبت من « هـ » .
(٥) في « الأصل » : خيرًا . والمثبت من « هـ » .
(٦) في « الأصل » : بمثل . والمثبت من « هـ ، ن » .

[٤/ق١٨٥-أ] / قال المؤلف : قوله عليه السلام : « حجبت النار بالشهوات والجنة بالمكاره » من جوامع الكلم وبديع البلاغة في ذم الشهوات والنهي عنها، والحض على طاعة الله ، وإن كرهتها النفوس وشق عليها؛ لأنه إذا لم يكن يوم القيامة غير الجنة والنار ولم يكن بد من المصير إلى [إحداهما] (١) فواجب على المؤمنين السعي فيما يدخل إلى الجنة (وينقذ) (٢) من النار ، وإن شق ذلك عليهم ؛ لأن الصبر على النار أشق ، فخرج هذا الخطاب منه عليه السلام بلفظ الخبر وهو من باب النهي والأمر .

وقوله : « الجنة أقرب إلى أحدكم من شراك نعله ، والنار مثل ذلك» فدليل واضح أن الطاعات الموصلة إلى الجنة والمعاصي المقربة من النار قد تكون في أيسر الأشياء ، ألا ترى قوله عليه السلام : « إن الرجل ليتكلم بالكلمة من رضوان الله لا يلقي لها بالا ؛ يكتب الله له بها رضوانه إلى يوم يلقاه ، وإن الرجل ليتكلم بالكلمة من سخط الله لا يلقي لها بالا ؛ يكتب الله له بها سخطه إلى يوم يلقاه » . فينبغي للمؤمن ألا يزهد في قليل من الخير يأتيه ، ولا يستقل قليلاً من الشر يجتنيه فيحسبه هينًا ، وهو عند الله عظيم ، فإن المؤمن لا يعلم الحسنة التي يرحمه الله بها ، ولا يعلم السيئة التي يسخط الله عليه بها ، وقد قال الحسن البصري : من تقبلت منه حسنة واحدة دخل الجنة .

وقوله عليه السلام : « أصدق كلمة قالها الشاعر : ألا كل ما خلا الله باطل» فالمراد به الخصوص ؛ لأن كل ما قرب من الله فليس بباطل، وإنما أراد أن كل شيء من أمور الدنيا التي لا تئول إلى طاعة الله ، ولا تقرب منه فهي باطل .

---

(١) في « الأصل » : أحدهما . والمثبت من « هـ ، ن » .
(٢) في « هـ » : ويبعد .

باب : لينظر إلى من هو أسفل منه

فيه : أبو هريرة قال النبي - عليه السلام - : « إذا نظر أحدكم إلى من فضل عليه في المال والخلق ، فلينظر إلى من هو أسفل منه » .

قال الطبري : وهذا حديث جامع لمعاني الخير ، وذلك أن العبد لا يكون بحال من عبادة ربه مجتهدًا فيها ؛ إلا وجد من هو فوقه في ذلك، فمتى طلب نفسه باللحاق بمن هو فوقه استقصر حاله التي هو عليها ، فهو أبدًا في زيادة تقربه من ربه ، ولا يكون على حالةٍ خسيسةٍ من دنياه إلا وجد من أهلها من هو أخسّ منه حالا ، فإذا تأمل ذلك وتفكره وتبين نعم الله عليه ؛ علم أنها وصلت إليه ولم تصل إلى كثير من خلقه ، فضله الله بها من غير أمر أوجب ذلك له على خالقه ، ألزم نفسه من الشكر عليها أن وفق لها ما يعظم به اغتباطه في معاده .

* * *

باب : من هم بحسنة أو سيئة

فيه : ابن عباس قال النبي - عليه السلام - : « إن الله كتب الحسنات والسيئات ثم بين ذلك ، فمن همّ بحسنة فلم يعملها [كتب] [1] الله عنده حسنةً كاملةً ، وإن همّ بها فعملها كتبها الله عنده عشر حسنات إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة ، ومن هم بسيئة فلم يعملها كتبها الله له عنده حسنة كاملة، فإن همّ بها فعملها كتبها الله له سيئة واحدةً » .

قال المؤلف : هذا حديث شريف بيّن فيه النبي ﷺ مقدار تفضل الله على عباده بأن جعل [هموم العبد بالحسنة ، وإن لم يعملها حسنة، وجعل] [2] همومه بالسيئة إن لم يعملها حسنة ، وإن عملها

---

(١) في « ن » : كتبها .　　　(٢) من « هـ » .

كتبت سيئة واحدة ، وإن عمل الحسنة كتبت عشرًا ، ولولا هذا التفضل العظيم لم يدخل أحد الجنة ؛ لأن السيئات من العباد أكثر من الحسنات، فلطف الله بعباده بأن ضاعف لهم الحسنات ، ولم يضاعف [عليهم] [1] السيئات ، وإنما جعل الهموم بالحسنة حسنةً ؛ لأن الهموم بالخير هو فعل القلب بعقد النية على ذلك .

فإن قيل : فكان ينبغي على هذا القول أن يكتب لمن همّ بالشرّ ولم يعمله سيئةً ؛ لأن الهموم بالشرّ عمل من أعمال القلب للشرّ . قيل : ليس كما توهمت ، ومن كفّ عن فعل الشرّ فقد نسخ اعتقاده للسيئة باعتقاد آخر نوى به الخير وعصى هواه المريد للشرّ ، فذلك عمل للقلب من أعمال الخير ، فجوزي على ذلك بحسنة ، وهذا كقوله عليه السلام : « على كل مسلم صدقة . قالوا : فإن لم يفعل ؟ قال : يمسك عن الشرّ فإنه صدقة » ذكره في كتاب الأدب في باب كل معروف صدقة .

وحديث ابن عباس معناه الخصوص لمن همّ بسيئة ، فتركها لوجه الله تعالى / [٤/ق١٨٥-ب] وأما من تركها مكرهًا على تركها بأن يحال بينه وبينها ، فلا تكتب له حسنة ولا يدخل في معنى الحديث .

قال الطبري : وفي هذا الحديث تصحيح مقالة من يقول : إن الحفظة تكتب ما يهم به العبد من حسنة أو سيئة وتعلم اعتقاده لذلك، وردّ مقالة من زعم أن الحفظة ، إنما تكتب ما ظهر من عمل العبد وسمع، واحتجوا بما روى ابن وهب ، عن معاوية بن صالح ، عن كثير ابن الحارث ، عن القاسم مولى معاوية ، عن عائشة زوج النبي ﷺ قالت: « لأن أذكر الله - تعالى - في نفسي أحب إلي من أن أذكره

---

(١) من « هـ » .

بلساني سبعين مرةً ، وذلك لأن ملكًا لا يكتبها ، وبشرًا لا يسمعها » والصواب في ذلك ما صح به الحديث عنه عليه السلام أنه قال : « من همّ بحسنةٍ فلم يعملها كتبت له حسنة » والهم بالحسنة إنما هو فعل العبد بقلبه دون سائر الجوارح ، كذكر الله بقلبه ، فالمعنى الذي به يصل الملكان الموكلان بالعبد إلى علم ما يهم به بقلبه ؛ هو المعنى الذي [به][1] يصل إلى علم ذكر ربه بقلبه ، ويجوز أن يكون جعل الله [لهما][2] إلى علم ذلك سبيلاً كما جعل لكثير من أنبيائه السبيل إلى كثير من علم الغيب ، وقد أخبر الله عن عيسى ابن مريم أنه قال لبني إسرائيل : ﴿ **وأنبئكم بما تأكلون وما تدخرون في بيوتكم** ﴾ [3] وقد أخبر نبينا عليه السلام بكثير من علم الغيب ، قالوا : فغير مستنكر أن يكون الكاتبان الموكلان بابن آدم ، قد جعل لهما سبيلاً إلى علم ما في قلوب بني آدم من خير أو شرٍّ، فيكتبانه إذا حدث به نفسه أو عزم عليه.

وقد قيل : إن ذلك بريح يظهر لهما من القلب ، سئل أبو معشر عن الرجل يذكر الله بقلبه ، كيف يكتب الملك ؟ قال : يجد الريح . وسأذكر اختلاف السلف في أي الذكرين أعظم ثوابًا الذكر الذي هو بالقلب أو الذكر الذي هو باللسان عند قوله عليه السلام عن الله -تعالى- : « (وإن) [4] ذكرني عبدي في نفسه ذكرته في نفسي» في باب قوله تعالى : ﴿ **ويحذركم الله نفسه** ﴾ [5] في كتاب الاعتصام.

* * *

(١) من « هـ » .

(٢) في « الأصل » : لها . والمثبت من « هـ » .

(٣) آل عمران : ٤٩ .

(٤) في « هـ » : إذا .

(٥) آل عمران : ٢٨ ، ٣٠ .

باب : ما يتقى من محقرات الذنوب

فيه : أنس قال : « إنكم لتعملون أعمالا هي أدق في أعينكم من الشعر إن كنا [نعدها] (١) على عهد رسول الله ﷺ من الموبقات » قال [أبو عبد الله] (٢) : يعني المهلكات .

قال المؤلف : إنما كانوا يعدون الصغائر من الموبقات لشدة خشيتهم لله ، وإن لم تكن لهم كبائر ، ألا ترى أن إبراهيم ﷺ إذا سئل الشفاعة يوم القيامة يذكر ذنبه ، وأنه كذب ثلاث كذبات ، وهي قوله في زوجته : هذه أختي . وهي أخته في الدين ، وقوله : إني سقيم . أي : سأسقم ، وقوله : فعله كبيرهم هذا . يعني الصنم ، فرأى ذلك عليه السلام من الذنوب ، وإن كان لقوله وجه صحيح ، فلم يقنع من نفسه إلا بظاهر يطابق الباطن ، وهذا غاية الخوف.

والمحقرات إذا كثرت صارت كبائر بالإصرار عليها والتمادي فيها ، وقد روى ابن وهب ، عن عمرو بن الحارث ، عن يزيد بن أبي حبيب، عن أسلم أبي [عمران] (٣) أنه سمع أبا أيوب يقول : إن الرجل ليعمل الحسنة فيثق بها ويغشى المحقرات ، فيلقى الله يوم القيامة وقد أحاطت به خطيئته ، وإن الرجل ليعمل السيئة ، فما يزال منها مشفقًا حذرًا حتى يلقى الله يوم القيامة آمنًا .

وذكر أسد بن موسى عن ابن مسعود قال : إياكم ومحقرات الذنوب، فإنها تجتمع حتى تهلك صاحبها ، وإن رسول الله ﷺ قد ضرب لنا مثلاً كمثل ركب نزلوا بأرض فلاة ، فلم يجدوا فيها حطبًا ، فانطلق كل واحدٍ منهم ، فجاء يعود حتى اجتمعت أعواد ،

---

(١) في « الأصل » : لنعهدها . والمثبت من « هـ ، ن » .
(٢) في « الأصل » : أبو عبيد الله . والمثبت من « هـ ، ن » .
(٣) في « الأصل » : عمار . والمثبت من « هـ » .

فأوقدوا نارًا أنضجت ما جعل فيها » ورواه سهل بن سعد عن النبي - عليه السلام - وقال أبو عبد الرحمن الحبلي : مثل الذي يجتنب الكبائر ويقع في المحقرات ، كرجل لقاه سبع فاتقاه حتى نجا منه ، ثم لقيه فحل إبل فاتقاه فنجا منه ، فلدغته نملة فأوجعته ، ثم أخرى ، ثم أخرى حتى اجتمعن عليه فصرعنه ، وكذلك الذي يجتنب الكبائر ويقع في المحقرات . وقال أبو بكر الصديق : إن الله يغفر الكبائر فلا تيئسوا، ويعذب على الصغائر فلا تغتروا .

* * *

[٤/ق١٨٦-أ]

/ باب : الأعمال بالخواتيم وما يخاف منها

فيه : سهل : « نظر النبي ﷺ إلى رجل يقاتل المشركين - وكان من أعظم الناس غناءً عنهم - فقال : من أحب أن ينظر إلى رجل من أهل النار فلينظر إلى هذا ، فتبعه رجل ، فلم يزل على ذلك حتى جرح فاستعجل الموت ، فقال بذبابة سيفه فوضعه بين ثدييه فتحامل عليه حتى خرج من بين كتفيه ، فقال النبي - عليه السلام - : إن العبد ليعمل فيما يرى الناس عمل أهل الجنة وإنه لمن أهل النار ، ويعمل فيما يرى الناس عمل أهل النار ، وهو من أهل الجنة ، وإنما الأعمال بالخواتيم » .

قال المؤلف : في تغييب الله عن عباده خواتيم أعمالهم حكمة بالغة وتدبير لطيف ، وذلك أنه لو علم أحد خاتمة عمله لدخل الإعجاب والكسل من علم أنه يختم له بالإيمان ، ومن علم أنه يختم له بالكفر يزداد غيًا [وطغيانًا] [١] وكفرًا فاستأثر الله - تعالى - [بعلم][١] ذلك ليكون العباد بين خوف ورجاء ، فلا يعجب المطيع لله بعمله ولا

---

(١) من « هـ » .

يبأس العاصي من رحمته ، ليقع الكل تحت الذل والخضوع لله والافتقار إليه ، وقال حفص بن حميد : قلت لابن المبارك : رأيت رجلاً قتل رجلاً ، فوقع في نفسي أني أفضل منه . فقال عبد الله : أمنك على نفسك أشد من ذنبه .

قال الطبري : ومعنى قوله : إن أمنه على نفسه أنه من الناجين عند الله من عقابه أشد من ذنب القاتل ؛ لأنه لا يدري إلى ما يئول إليه أمره وعلى ما يموت ، ولا يعلم أيضًا حال القاتل إلى ما يصير إليه ، لعله يتوب فيموت تائبًا فيصير إلى عفو الله ، وتصير أنت إلى عذابه لتغير حالك من الإيمان بالله إلى الشرك به ، فالمؤمن في حال إيمانه وإن كان عالمًا بأنه محسن فيه - غير عالم على ما هو ميت عليه ، وإلى ما هو صائر إليه ، فغير جائز أن يقضي لنفسه ، وإن كان محسنًا بالحسنى عند الله ، ولغيره وإن كان مسيئًا بالسوء ، وعلى هذا مضى خيار السلف .

* * *

باب : العزلة راحة من خلطاء السوء

فيه : أبو سعيد : « **جاء أعرابي إلى النبي - عليه السلام - فقال : يا رسول الله ، أي الناس خير ؟ قال : رجل جاهد بنفسه وماله ، ورجل في شعب من الشعاب ، يعبد ربه ، ويدع الناس من شره** » .

وفيه : أبو سعيد : قال النبي ﷺ : « **يأتي على الناس زمان خير مال المسلم الغنم ، يتبع بها شعف الجبال ومواقع القطر ، يفر بدينه من الفتن** ».

فيه أن اعتزال الناس عند ظهور الفتن والهرب عنهم أسلم للدين من مخالطتهم ، ذكر علي بن معبد ، عن الحسين بن واقد قال : قال

النبي – عليه السلام – : « إذا كانت سنة ثمانين ومائة فقد أحللت لأمتي العزبة والعزلة والترهب في رءوس الجبال » .

وذكر علي بن معبد عن [عبد الله بن المبارك] (١) عن مبارك بن فضالة ، عن الحسن يرفعه إلى رسول الله ﷺ قال : « يأتي على الناس زمان لا يسلم لذي دين دينه ، إلا من فرّ بدينه من شاهق إلى شاهق وجحر إلى جحر ، فإذا كان (كذلك) (٢) لم تنل المعيشة إلا بمعصية الله ، فإذا كان (كذلك) (٢) حلت العزلة ، قالوا : يا رسول الله ، كيف تحل العزلة وأنت تأمرنا بالتزويج؟ قال: إذا كان (كذلك)(٢) كان هلاك الرجل على يدي أبويه ، فإن لم يكن له أبوان كان هلاكه على يدي زوجته ، فإن لم تكن له زوجة كان هلاكه على يدي ولده ، فإن لم يكن له ولد كان هلاكه على يدي القرابات والجيران . قالوا : وكيف ذلك يا رسول الله ؟ قال : يعيرونه بضيق المعيشة ويكلفونه ما لا يطيق ، فعند ذلك يورد نفسه الموارد التي يهلك فيها » .

وقال صاحب العين : شعف الجبال : رءوسها ، وكذلك شعف الأثافي ، وشعفة كل شيء : أعلاه ، ومواقع القطر : بطون الأودية ، [والشعب] (٣) : ما انفرج بين جبلين ، عن صاحب العين .

* * *

باب : رفع الأمانة

فيه : أبو هريرة قال النبي – عليه السلام – : « إذا ضيعت الأمانة فانتظر الساعة . قال:

---

(١) في « الأصل » : علي بن المبارك . والمثبت من « هـ » .
(٢) في « هـ » : ذلك .
(٣) في « الأصل » : والشعف . والمثبت من « هـ » .

[٤//١٨٦-ب] كيف إضاعتها يا رسول الله ؟ / قال : إذا أسند الأمر إلى غير أهله فانتظر الساعة » .

وفيه : حذيفة قال : « حدثنا رسول الله ﷺ حديثين ، رأيت أحدهما ، وأنا أنتظر الآخر ، حدثنا أن الأمانة نزلت في جذر قلوب الرجال ثم علموا من القرآن ، ثم علموا من السنة ، وحدثنا عن رفعها قال : ينام الرجل النومة فتقبض الأمانة من قلبه ، فيظل أثرها مثل أثر [الوكت][(١)] ثم ينام النومة فتقبض فيبقى أثرها مثل المجل كجمر دحرجته على رجلك فنفط فتراه منتبراً وليس فيه شيء ، فيصبح الناس يتبايعون ، ولا يكاد أحد يؤدي الأمانة فيقال : إن في بني فلان رجلاً أمينًا ، ويقال للرجل ما أعقله وما أظرفه [وما أجلده] [(٢)] وما في قلبه مثقال حبة من خردل من إيمان ... » الحديث .

وفيه : ابن عمر أن النبي - عليه السلام - قال : « إنما الناس كإبل مائة لا تكاد تجد فيها راحلة » .

قال المؤلف : حديث أبي هريرة وحذيفة من أعلام النبوة ؛ لأنه عليه السلام ذكر فيهما فساد أديان الناس وتغير أماناتهم ، وقد ظهر كثير من ذلك .

وقوله : « إذا ضيعت الأمانة فانتظر الساعة » هو كلام مجمل أحب الأعرابي السائل النبي - عليه السلام - شرحه له فقال له : « كيف إضاعتها يا رسول الله ؟ قال : إذا أسند الأمر إلى غير أهله » فأجابه عليه السلام بجواب عام دخل فيه تضييع الأمانة ، وما كان في معناها مما لا يجري على طريق الحق ، كاتخاذ العلماء

---

(١) في « الأصل ، هـ » : الكوكب . والمثبت من « ن » . (٢) من « هـ ، ن » .

الجهال عند موت أهل العلم ، واتخاذ ولاة الجور وحكام الجور عند غلبة الباطل وأهله ، وقد ذكر ابن أبي شيبة من حديث المقبري عن أبي هريرة قال : قال النبي - عليه السلام - : « سيأتي على الناس سنوات خدّاعات يصدق فيها الكاذب ، ويكذب فيها الصادق ، ويؤتمن فيها الخائن ، ويخون فيها الأمين ، وينطق الرويبضة. قيل : وما الرويبضة؟ قال : الرجل التافه في أمر العامة » وقد رأينا أكثر هذه العلامات وما بقي منها فغير بعيد ، روى ابن عيينة عن عبد العزيز بن رفيع قال : سمعت شداد بن معقل قال : سمعت ابن مسعود يقول : أول [ما تفقدون] (١) من دينكم الأمانة ، وآخر ما تفقدون الصلاة .

وروى يونس بن يزيد ، عن الزهري ، عن الصنابحي ، عن حذيفة قال : لتنقضن عُرى الإسلام عروة عروة ، ويكون أول نقضه الخشوع. وقد تقدّم [معنى حديث حذيفة وما فيه من غرائب اللغة في باب إذا بقي في حثالة من الناس] (٢) في كتاب الفتن .

وقوله : « الناس كإبل مائة لا تكاد تجد فيها راحلة » يريد عليه السلام أن الناس كثير والمَرْضِّي منهم قليل ، كما أن المائة من الإبل لا تكاد تصاب فيها الراحلة الواحدة وهذا الحديث إنما يراد به القرون المذمومة في آخر الزمان ، ولذلك ذكره البخاري في رفع الأمانة ، ولم يرد به ﷺ زمن أصحابه وتابعيهم ؛ لأنه قد شهد لهم بالفضل فقال : « خير القرون قرني ، ثم الذين يلونهم ، ثم الذين يلونهم ، ثم يجيء بعدهم قوم يخونون ولا يؤتمنون ، ويشهدون ولا يستشهدون ، وينذرون ولا يوفون . . . » الحديث ، فهؤلاء أراد بقوله : « الناس كإبل مائة » والله الموفق .

---

(١) في « الأصل » : يفقد . والمثبت من « هـ » . (٢) من « هـ » .

باب : الرياء والسمعة

فيه : جندب قال النبي - عليه السلام - : « من سمّع سمع الله به ، ومن يُرائي يرائي الله به » .

قال المؤلف : قوله : « من سمع » معناه من سمع بعمله الناس وقصد به اتخاذ الجاه والمنزلة عندهم ، ولم يرد به وجه الله ، فإن الله - تعالى - يسمع به خلقه ، أي يجعله حديثًا عند الناس الذي أراد نيل المنزلة عندهم بعمله ، ولا ثواب له في الآخرة عليه ، وكذلك من راءى بعمله الناس راءى الله به ، أي أطلعهم على أنه فعل ذلك لهم ولم يفعله لوجهه ، فاستحق على ذلك سخط الله وأليم عقابه ، وقد جاء في الحديث عن النبي - عليه السلام - أنه قال : « يقال للعبد يوم القيامة : فعلت كذا وكذا ليقال فقد قيل ، اذهبوا به إلى النار » .

قال الطبري : فإن قال قائل : كيف يسلم من الرياء في العمل الظاهر ، وقد روي عن عمر وعثمان وابن مسعود وجماعة من السلف أنهم كانوا يتهجدون من الليل في مساجدهم بحيث يعلم ذلك من فعلهم معارفهم ، وكانوا يتذاكرون إظهار المحاسن من أعمالهم مع ما تواترت به / الآثار أن أفضل العمل ما استّسر به صاحبه ، وذلك على [٤/ق١٨٧-أ] نوعين : فأما من كان إمامًا يقتدى به [ويُستن] (١) بعمله ، عالمًا بما لله عليه في فرائضه ونوافله ، قاهرًا لكيد عدوه ، فسواء عليه ما ظهر من عمله وما خفي منه ؛ لإخلاصه نيته لله وانقطاعه إليه بعمله ، بل إظهاره ما يدعو عباد الله إلى الرغبة في مثل حاله من أعماله السالمة أحسن إن شاء الله تعالى . وإن كان ممن لا يقتدى به ، ولا يأمن من عدوه قهره، ومن هواه غلبته حتى يفسد عليه عمله ؛ فإخفاؤه

---

(١) في « الأصل » : ويستسن . والمثبت من « هـ » .

النوافل أسلم له ، وعلى هذا كان السلف الصالح ، روى حماد ، عن ثابت ، عن أنس ، عن النبي - عليه السلام - : « سمع رجلاً يقرأ ويرفع صوته بالقرآن [فقال] (١) : أواب . وسمع آخر يقرأ فقال: مرائي . فنظروا فإذا الأوّاب المقداد بن عمرو » وروى الزهري ، عن أبي سلمة ، عن أبي هريرة : « أن عبد الله بن حذافة صَلّى فجهر بالقراءة ، فقال له رسول الله ﷺ : يا ابن حذافة ، لا تسمعني وأسمع الله » . قال [وهيب] (٢) ابن الورد : لقي عالم عالمًا هو فوقه في العلم ، فقال : يرحمك الله ما الذي أخفي من عملي ؟ قال: حتى يظن بك أنك لم تعمل حسنةً قط إلا الفرائض . قال : يرحمك الله فما الذي أعلن ؟ قال الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر .

وقال الحسن : لقد أدركت أقوامًا ما كان أحدهم يقدر على أن يُسر عمله فيعلنه ، قد علموا أن أحرز العملين من الشيطان عمل السرّ ، قال : وإن كان أحدهم ليكون عنده الزور وإنه ليصلي وما يشعر به زوره .

وكان عمل الربيع بن خثيم سرًا كان يقرأ في المصحف ، ويدخل عليه الداخل فيغطيه . وقال بشر بن الحارث : لما ودع الخضر داود -عليهما السلام- قال له : (ستر الله) (٣) عليك طاعته . وروي عن ابن سيرين قال : نبئت أن أبا بكر كان إذا صلى فقرأ خفض صوته ، وكان عمر يرفع صوته ، فقيل لأبي بكر: لم تصنع هذا ؟ قال : أناجي ربي وقد علم حاجتي . قيل : أحسنت . وقيل لعمر : لم تصنع هذا ؟ قال : أطرد الشيطان وأوقظ الوسنان . قال : أحسنت . فلما نزلت : ﴿ **ولا تجهر بصلاتك ولا تخافت بها وابتغ بين ذلك سبيلاً** ﴾ (٤) قيل لأبي بكر : ارفع شيئًا ، وقيل لعمر : اخفض شيئًا . فهؤلاء الأئمة المقتدى بهم .

---

(١) من « هـ » .
(٢) في « الأصل » : وهب وهو تحريف . والمثبت من « هـ » وهو من رجال التهذيب .
(٣) تكررت في « الأصل » .
(٤) الإسراء : ١١٠ .

باب : من جاهد [1] نفسه في طاعة الله

فيه : معاذ قال : « بينا أنا رديف رسول الله ﷺ ليس بيني وبينه إلا آخرة الرحل ، فقال : يا معاذ . قلت : لبيك يا رسول الله وسعديك - ثلاث مرات - قال : هل تدري ما حق الله على عباده ؟ قلت : الله ورسوله أعلم. قال : حق الله على عباده أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئًا . ثم سار ساعةً ، فقال : يا معاذ هل تدري ما حق العباد على الله إذا فعلوه ؟ قلت: الله ورسوله أعلم . قال : حق العباد على الله ألا يعذّبهم » .

قال المؤلف : جهاد المرء نفسه هو الجهاد [الأكبر] [2] وحرب العدو الأصغر قال تعالى : ﴿ **وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى فإن الجنة هي المأوى** ﴾ [3] وروي عن النبي - عليه السلام - أنه قال لأصحابه ، وقد انصرفوا من الجهاد : أتيتم من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر . قالوا : وما الجهاد الأكبر يا رسول الله ؟ قال : مجاهدة النفس » .

وقال سفيان الثوري : ليس عدوك الذي إن قتلته كان لك به [أجر][4] ، إنما عدوك نفسك [التي] [5] بين جنبيك ، فقاتل هواك أشد مما تقاتل عدوك .

وقال أويس القرني لهرم بن حيان : ادع الله أن يصلح قلبك [ونيتك][2] فإنك لن تعالج شيئًا هو أشدّ عليك منهما ، بينما قلبك مقبل إذ هو مدبر ، فاغتنم إقباله قبل إدباره ، والسلام عليك . وقال علي بن أبي طالب : أول ما تفقدون من دينكم جهاد

---

(١) زاد بالأصل : عن . ولا معنى لها . (٢) من « هـ » .
(٣) النازعات : ٤٠ - ٤١ . (٤) في « الأصل » : أجرًا . والمثبت من « هـ » .
(٥) في « الأصل » : الذي والمثبت من « هـ » .

أنفسكم . وقد يكون جهاد النفس منعها الشهوات المباحة توفيراً لها في الآخرة ؛ لئلا تدخل في معنى قوله : ﴿ **أذهبتم طيّباتكم في حياتكم الدنيا** ﴾ [1] الآية ، وعلى هذا جرى سلف الأمّة ، وقال سالم الخواص : أوحى الله إلى داود : لا تقرب الشهوات ، فإني خلقتها لضعفاء خلقي ، فإن أنت قربتها ، أهون ما أصنع بك أسلبك حلاوة مناجاتي ، يا داود ، قل لبني إسرائيل ، لا تقربوا الشهوات ، فالقلب المحجوب بالشهوات حجبت صوته عني .

[قد تقدم معنى قوله : «هل تدري ما حق الله على عباده » في باب من أجاب بلبيك وسعديك في كتاب الاستئذان ، وسنأتي بزيادة في بيانه في باب قوله تعالى : ﴿ **وكان عرشه على الماء** ﴾ [2] في كتاب الاعتصام إن شاء الله تعالى] [3] .

* * *

[٤/ق١٨٧-ب]

/ باب : التواضع

فيه : أنس قال : « كانت ناقة النبي - عليه السلام - لا تُسبق ، فجاء أعرابي على قعود له فسبقها ، فاشتد ذلك على المسلمين وقالوا : سبقت العضباء ! ! فقال النبي - عليه السلام - : إن حقًا على الله ألا يرفع شيئًا من الدنيا إلا وضعه ».

وفيه : أبو هريرة : قال النبي - عليه السلام - : « إن الله - تعالى - قال: من عادى لي وليًا فقد آذنته بالحرب ، وما تقرب إلي عبدي بشيء أحب إليّ مما افترضت عليه ، وما يزال عبدي يتقرب إليّ بالنوافل حتى أحبيته، فكنت سمعه الذي يسمعُ به ، وبصره الذي يبصر به ، ويده التي يبطش بها ، ورجله

---

(١) الأحقاف : ٢٠ . (٢) هود : ٧ .

(٣) من « هـ » .

التي يمشي بها ، فإن سألني لأعطينه ، وإن استعاذني لأعيذنّه ، وما ترددت عن شيء أنا فاعله ترددي عن نفس المؤمن ، يكره الموت وأنا أكره مساءته» .

[قال المؤلف] [1] : في حديث أنس [بيان] [1] مكان الدنيا عند الله من الهوان والضعة ، ألا ترى قوله عليه السلام : « إن حقًّا على الله ألا يرفع شيئًا من الدنيا إلا وضعه » فنبّه بذلك أمته عليه السلام على ترك المباهاة والفخر بمتاع الدنيا ، وأن [ما] [1] كان عند الله في منزلة الضعة ، فحق على كل ذي عقل الزهد فيه وقلة المنافسة في طلبه، وترك الترفع والغبطة بنيله ؛ لأن المتاع به قليل والحساب عليه طويل .

وفي حديث أبي هريرة من معنى الباب أن التقرب إلى الله بالنوافل حتى تستحق المحبة منه تعالى لا يكون ذلك إلا بغاية التواضع والتذلل له . وفيه أن النوافل إنما يزكو ثوابها عند الله لمن حافظ على فرائضه وأداها .

ورأيت لبعض الناس أن معنى قوله تعالى : « فأكون عينيه اللتين يبصر بهما وأذنيه ويديه ورجليه» قال: وجه ذلك أنه لا يحرك جارحة من جوارحه إلا في الله ولله ، فجوارحه كلها تعمل بالحق ، فمن كان كذلك لم تُردّ له دعوة .

وقد جاء في فضل التواضع آثار كثيرة ، روى الطبري من حديث شعبة ، عن العلاء بن عبد الرحمن ، عن أبيه ، عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « ما تواضع رجل إلا رفعه الله بها درجةً» وعن عكرمة ، عن ابن عباس أن النبي - عليه السلام - قال : « ما من بني آدم أحد إلا وفي رأسه سلسلتان : إحداهما في السماء السابعة ، والأخرى في الأرض السابعة، فإذا تواضع رفعه الله بالسلسلة التي في السماء،

---

(١) من « هـ » .

وإذا أراد أن يرفع رأسه وضعه الله » وقالت عائشة : إنكم لتغفلون عن أفضل العبادة : التواضع .

قال الطبري : والتواضع من المحن التي امتحن الله بها عباده المؤمنين، لينظر كيف طاعتهم [إياه] (١) فيها ، ولما علم تعالى من مصلحة خلقه في ذلك في عاجل دنياهم وآجل أخراهم ، فمصلحة الدنيا به لو استعمله الناس لارتفع - والله أعلم - الشحناء بينهم والعداوة ، واستراحوا من تعب المباهاة والمفاخرة والتذوا بما قسم لهم، وكان لهم فيه صلاح ذات البين وارتفاع الحسد والشح .

روى النعمان بن بشير عن النبي - عليه السلام - أنه قال : «للشيطان مَصَال وفخوخ ، منها البطر بأنعم الله ، والفخر بعطاء الله، والتكبر على عباد الله » .

وتواضعه عليه السلام معلوم لا يحصى ، ومنه أنه لما دخل مكة جعل الناس يقولون : هو هذا ، هو هذا ، فجعل يُحني ظهره على الرحل ويقول : « الله أعلى وأجل » وهذه سيرة السلف المهديين . روى سفيان ، عن أيوب الطائي ، عن قيس بن مسلم ، عن طارق بن شهاب قال : لما قدم عمر الشام عرضت له مخاضة ، فنزل عن بعيره ونزع خفيه ، فأمسكهما بيده ، وخاض الماء ومعه بعيره ، فقال له أبو عبيدة : لقد صنعت اليوم صنيعًا عظيمًا عند أهل الأرض . فصكّ في صدره وقال : لو غيرك قالها يا أبا عبيدة ، إنكم كنتم أذلّ الناس وأحقر الناس ، فأعزكم الله بالإسلام ، فمهما تطلبون العز في غيره يذلكم الله .

---

(١) من « هـ » .

وروى ابن وهب بإسناده عن أبي هريرة أنه أقبل في السوق يحمل حزمة حطب وهو يومئذ خليفة لمروان فقال : أوسع الطريق للأمير . فقيل له : تكفى ، أصلحك الله . فقال : أوسع الطريق ، والحزمة عليه . وعن عبد الله بن سلام أنه خرج من حائط له بحزمة حطب يحملها فقيل له : لقد كان في ولدك وعبيدك من يكفيك هذا . قال : أردت أن أجرب قلبي هل ينكر هذا . وعن سالم بن عبد الله أنه / [٤/ق١٨٨-أ] كان يخرج إلى السوق فيشتري حوائج نفسه . وكان الربيع بن خثيم يكنس الحشّ بنفسه ، فقيل له : إنك تكفى هذا . فقال : أحب أن آخذ نصيبي من المهنة . ولو تقصينا تواضعهم - رضي الله عنهم - لطال به الكتاب ، وفيما ذكرناه دليل على ما تركناه - إن شاء الله .

* * *

كتاب فضائل القرآن

باب : كيف نزول الوحي وأول ما نزل

قال ابن عباس : المهيمن الأمين ، القرآن أمين على كل كتاب قبله .

فيه : عائشة وابن عباس : « لبث النبي - عليه السلام - بمكة عشر سنين ينزل عليه القرآن ، وبالمدينة عشراً » .

وقال أبو عثمان : « أنبئت أن جبريل أتى النبي - عليه السلام - وعنده أم سلمة ، فجعل يتحدث ، فقال النبي - عليه السلام - لأم سلمة : من هذا ؟ أو كما قال . قالت : هذا دحية . [فلما قام قالت] [1] : والله ما حسبته إلا إياه حتى سمعت خطبة النبي بخبر جبريل أو كما قال » .

وفيه : أبو هريرة قال النبي - عليه السلام - : « ما من الأنبياء نبي إلا أعطي ما مثله آمن عليه البشر ، وإنما كان الذي أوتيته وحيًا أوحاه الله إليّ، فأرجو أن أكون أكثرهم تابعًا يوم القيامة » .

وفيه أنس : « أن الله تابع على رسوله قبل وفاته حتى توفاه أكثر ما كان الوحي ، ثم توفى ﷺ بعد » .

وفيه : جندب : « اشتكى النبي ﷺ فلم يقم ليلةً أو ليلتين، فأتته امرأة فقالت : يا محمد ، ما أرى شيطانك إلا قد تركك ، فأنزل الله - تعالى-: ﴿والضحى والليل إذا سجى ما ودعك ربك وما قلى ﴾ [3] .

---

(١) من « ن » وفي « الأصل ، هـ » : قالت فلما قام .

(٢) الضحى : ١ - ٣ .

[قال المؤلف :] [1] معنى هذا الباب إثبات نزول الوحي على النبي - عليه السلام - وأن جبريل عليه السلام نزل (عليه به) [2] ، ومصداق هذه الأحاديث في قوله تعالى : ﴿ **وإنه لتنزيل رب العالمين نزل به الروح الأمين على قلبك** ﴾ [3] .

وقال أهل التفسير : الروح الأمين جبريل .

وذكر أبو عبيد عن يزيد بن هارون ، عن داود بن أبي هند ، عن عكرمة ، عن ابن عباس قال : أنزل القرآن جملة واحدة إلى السماء الدنيا في ليلة القدر ، ثم نزل بعد ذلك في عشرين سنة ، وقرأ : ﴿**وقرآنًا فرقناه لتقرأه على الناس على مكث ونزلناه تنزيلاً** ﴾ [4] .

وقال أبو عبيد : وحدثنا ابن [أبي] [1] عدي ، عن داود بن أبي هند قال : قلت للشعبي : ﴿ **شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن** ﴾ [5]، أما نزل عليه القرآن في سائر السنة إلا في شهر رمضان ؟ قال : بلى ، ولكن جبريل كان يعارض محمدًا بما نزل عليه في سائر السنة في شهر رمضان.

وذكر أبو عبيد بإسناده عن جابر بن عبد الله قال : أول شيء نزل من القرآن : ﴿ **يا أيها المدثر قم فأنذر** ﴾ [6] .

وقال ابن عباس : ﴿ **اقرأ باسم ربك** ﴾ [7] هي أول شيء نزل على محمد .

وهو قول مجاهد وزاد : ﴿ **ن والقلم** ﴾ [8] .

وأما آخر القرآن نزولاً فقال عثمان بن عفان : كانت براءة من آخر

---

(1) من « هـ » .
(2) في « هـ » : عليه به .
(3) الشعراء : ١٩٢ - ١٩٤ .
(4) الإسراء : ١٠٦ .
(5) البقرة : ١٨٥ .
(6) المدثر : ١ - ٢ .
(7) العلق : ١ .
(8) القلم : ١ .

القرآن نزولاً ، وقال البراء آخر آية نزلت : ﴿ **يستفتونك قل الله يفتيكم في الكلالة** ﴾ (1) .

وقال ابن عباس : آخر ما [أنزل] (2) على رسول الله - عليه السلام - آية الربا. وقال عطاء وابن شهاب آخر القرآن عهدًا بالعرش آية الربا وآية الدين ﴿ **واتقوا يومًا ترجعون فيه إلى الله** ﴾ (3) .

(واختلف) (4) في مدة بقاء النبي بمكة ، فروى أبو سلمة عن ابن عباس وعائشة في هذا الباب: أنه عليه السلام أقام بمكة عشر سنين.

وذكر البخاري في كتاب مبعث النبي ﷺ في باب الهجرة من رواية عكرمة وعمرو بن دينار ، عن ابن عباس أنه ﷺ أقام بمكة ثلاث عشرة سنة يوحى إليه .

ولم يختلف في مدة بقائه عليه السلام بالمدينة أنه كان عشرًا ، وسيأتي في كتاب الاعتصام الكلام في حديث أبي هريرة إن شاء الله .

* * *

باب : نزل القرآن بلسان قريش والعرب
وقول الله تعالى ﴿ قرآنًا عربيًا ﴾ (5) ﴿ بلسان عربي مبين ﴾(6)

فيه : أنس بن مالك قال : فأمر عثمان زيد بن ثابت ، وسعيد بن العاص، وعبد الله بن الزبير ، وعبد الرحمن بن الحارث بن هشام أن ينسخوها في المصاحف وقال لهم : إذا اختلفتم أنتم وزيد بن ثابت في عربية من عربية القرآن ، فاكتبوها بلسان / قريش ، فإن القرآن نزل [٤/ق١٨٨-ب] **بلسانهم [ففعلوا]** (7) .

(1) النساء : ١٧٦ .
(2) في « الأصل » : نزل . والمثبت من « هـ » .
(3) البقرة : ٢٨١ .
(4) في « هـ » : واختلفت .
(5) الزمر : ٢٨ .
(6) الشعراء : ١٩٥ .
(7) من « هـ ، ن » وفي « الأصل » : ففعل .

وفيه : يعلى بن أمية كان يقول : « ليتني أرى النبي - عليه السلام - حين ينزل عليه الوحي ، فلما كان النبي بالجعرانة وعليه ثوب قد أظل عليه ومعه ناس من أصحابه ، إذ جاءه رجل [متضمخ] [1] بطيب فقال: يا رسول الله ، كيف ترى في رجل أحرم في جبة بعدما تضمخ بطيب فنظر النبي ساعةً فجاءه الوحي ، فأشار عمر إلى يعلى أن تعال ، فأدخل رأسه، فإذا هو محمر الوجه يغط كذلك ساعة ، ثم سري عنه فقال : أين الذي سألني عن العمرة آنفًا ؟ فالتمس الرجل فجيء به إلى النبي - عليه السلام - فقال : أما الطيب الذي بك فاغسله ثلاث مرات ، وأما الجُبة فانزعها ثم اصنع في عمرتك كما تصنع في حجك .

قال المهلب : في حديث أنس عن عثمان بن عفان معنى الترجمة فإن قال قائل : فما وجه حديث يعلى بن أمية في هذا الباب ؟

قيل : معناه أن الوحي كله من قرآن وسنة نزل بلسان العرب قريش وغيرهم من طوائف العرب كلها ، وأنه عليه السلام لم يخاطب من الوحي كله إلا بلسان العرب ، وبه تكلم النبي للسائل له عن الطيب [للمحرم] [2] وبين هذا قوله تعالى : ﴿ **وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه** ﴾ [3] .

فهذا حتم من الله تعالى [لكل أمة] [4] بعث إليها [رسولاً] [2] ليبين لهم ما أنزل إليهم من ربهم ، فإن عزب معناه على بعض من سمعه ؛ بينه الرسول له بما يفهمه المبين له ، ودل قول عثمان :

---

(١) في « الأصل » : مضمخ . والمثبت من « هـ ، ن » .

(٢) من « هـ » . (٣) إبراهيم : ٤ .

(٤) في « الأصل » : للأمة . والمثبت من « هـ » .

إذا اختلفتم في عربية من عربية القرآن فاكتبوها بلسانِ قريش ، فإنه نزل بلسانهم على تشريف قريش على سائر الناس وتخصيصهم بالفضيلة الباقية إلى الأبد حين اختار الله إثبات وحيه الذي هدى به من الضلالة بلغتهم (تعبيره) [1] بلسانهم وحسبك بهذا من شرف باق .

قال أبو بكر بن الطيب : ومعنى قول عثمان : فإنه نزل بلسان قريش، يريد معظمه وأكثره ، ولم تقم دلالة قاطعة على أن القرآن بأسره منزل بلغة قريش فقط ، وأنه لا شيء فيه من لغة غيرهم ؛ فإنه قد ثبت أن في القرآن همزًا كثيرًا [وثبت] [2] أن قريشًا لا تهمز وثبت فيه كلمات وحروف هي خلاف لغة قريش ، وقد قال تعالى : ﴿ **إنا جعلناه قرآنًا عربيًا** ﴾ [3] . ولم يقل قرشيًا ، وهذا يدل أنه منزل بجميع لسان العرب ؛ وليس لأحد أن يقول [أراد] [4] قريشًا [من العرب دون غيرها ، كما أنه ليس له أن يقول أراد لغة عدنان] [2] دون قحطان ، أو ربيعةَ دون مضر ؛ لأن اسم العرب يتناول جميع هذه القبائل تناولاً واحدًا .

ولو ساغ لمدع أن يدعي أنه أراد قبيلة من قبائل العرب لساغ لآخر أن يقول : إن قوله أنه منزل بلسان قريش أنه أريد [به] [2] قبيلة من قريش دون غيرها ، ومن قال هذا فقد ظهر تخليطه .

وقد قال سعيد بن المسيب : نزل القرآن بلغة هذا الحي من لدن هوازن وثقيف إلى ضربه .

[وقال] [2] ابن عباس : نزل القرآن بلغة قريش ولسان خزاعة ، وذلك أن الدار كانت واحدة ، و[قد] [2] قال عليه السلام : « أنا أفصحكم لأني من قريش ، ونشأت في بني سعد بنِ بكر » .

---

(١) في « هـ » : تقييده .　　(٢) من « هـ » .　　(٣) الزخرف : ٣ .

(٤) في « الأصل » : أن . والمثبت من « هـ » .

فلا يجب لذلك أن يكون القرآن منزلاً بلغة بني سعد بن بكر ؛ بل لا يمتنع أن ينزل بلغة أفصح العرب [وبلغة] [1] من هو دونهم في الفصاحة ؛ إذا كانت فصاحتهم غير متفاوتة .

وقد جاءت الروايات بأن النبي - عليه السلام - كان يقرأ بلغة قريش وغير لغتها .

فروى ابن أبي شيبة عن الفضل بن أبي خلدة قال : سمعت أبا العالية يقول : قرئ القرآن على النبي عليه السلام من [خمسة] [2] رجال فاختلفوا في اللغة فرضي قراءتهم كلها .

وكانت بنو تميم [أعرب] [3] القوم ، فهذا يدل أنه كان يقرأ بلغة تميم وخزاعة وأهل لغات مختلفة ، قد أقر جميعها ورضيها .

* * *

باب : جمع القرآن

فيه : زيد بن ثابت : « أرسل إليَّ أبو بكر مقتل أهل اليمامة ، فإذا عمر ابن الخطاب عنده ، قال أبو بكر : إن عمر أتاني فقال : إن القتل قد [استحر] [4] يوم اليمامة بقراء القرآن ، وإني أخشى إن استحر القتل بالقراء في المواطن ؛ فيذهب كثير من القرآن ، وإني أرى أن تأمر بجمع القرآن . قلت لعمر : كيف نفعل شيئًا لم يفعله رسول الله ﷺ ؟! قال عمر: هذا والله خير . فلم يزل عُمر يراجعني حتى شرح الله صدري لذلك ورأيت في ذلك الذي رأى عمر . قال زيد : قال أبو بكر : إنك رجل شاب عاقل لا نتهمك ، وقد كنت تكتب الوحي لرسول الله ﷺ ؛ فتتبع القرآن فاجمعه . فوالله لو كلفوني نقل / جبل من الجبال ما كان أثقل عليَّ مما [٤/ق١٨٩-أ]

(١) في « الأصل » : ولغة . والمثبت من « هـ » .
(٢) في « الأصل » : كان خمس . والمثبت من « هـ » .
(٣) في « الأصل » : عرب . والمثبت من « هـ » .
(٤) في « الأصل » : اشتجر . والمثبت من « هـ ، ن » .

أمرني به من جمع القرآن ، قلت : كيف تفعلون شيئًا لم يفعله رسول الله ﷺ ؟ قال : هو والله خير . فلم يزل أبو بكر يراجعني حتى شرح الله صدري للذي شرح له صدر أبي بكر وعمر ، فتتبعت القرآن أجمعه من العُسُب واللخاف وصدور الرجال ، حتى وجدت آخر سورة التوبة مع أبي خزيمة الأنصاري ، لم أجدها مع أحد غيره : ﴿ لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ... ﴾ (1) [حتى] (2) خاتمة براءة ، فكانت الصحف عند أبي بكر حتى توفاه الله ، ثم عند عمر حياته ، ثم عند حفصة بنت عمر.

وفيه : أنس أن حذيفة قدم على عثمان بن عفان ، وكان يغازي أهل الشام في فتح أرمينية وأذربيجان مع أهل العراق فأفزع حذيفة اختلافهم في القراءة ، فقال حذيفة لعثمان : يا أمير المؤمنين ، أدرك هذه الأمة قبل أن يختلفوا في الكتاب اختلاف اليهود والنصارى . فأرسل عثمان إلى حفصة أن أرسلي إلينا بالصحف ننسخها في المصاحف ثم نردها إليك فأرسلت بها حفصة إلى عثمان ، فأمر زيد بن ثابت وعبد الله بن الزبير وسعيد بن العاص وعبد الرحمن بن الحارث بن هشام فنسخوها في المصاحف ، وقال عثمان للرهط القرشيين الثلاث : إذا اختلفتم أنتم وزيد بن ثابت في شيء من القرآن فاكتبوه بلسان قريش ، فإنما نزل بلسانهم . ففعلوا ، حتى إذا نسخوا الصحف في المصاحف ردَّ عثمان الصحف إلى حفصة ، فأرسل إلى كل أفق بمصحف مما نسخوا ، وأمر بما سواه من القرآن في كل صحيفة أو مصحف أن يحرق .

قال ابن شهاب : فأخبرني خارجة بن زيد بن ثابت [أنه سمع أباه زيد ابن ثابت] (3) قال : فقدت آية من الأحزاب حين نسخنا المصحف ،

---

(1) التوبة : ١٢٨ .

(2) في « الأصل » : هي . والمثبت من « هـ ، ن » .   (3) من « هـ » .

قد كنت أسمع رسول الله ﷺ يقرأ بها فالتمسناها فوجدناها مع خزيمة ابن ثابت الأنصاري : ﴿ **من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه** ﴾(1) فألحقناها [في سورتها] (2) في المصحف .

قال أبو بكر بن الطيب : فإن قال قائل : ما وجه نفور أبي بكر وزيد بن ثابت مع فضلهما عن جمع القرآن ؟

فالجواب : أنهما لم يجدا رسول الله ﷺ قد بلغ في جمعه إلى هذا الحد من الاحتياط من تجليده ، وجمعه بين لوحين ، فكرها أن يجمعاه جزعًا من أن يحلا أنفسهما محل من يجاوز احتياطه للدين احتياط رسول الله ﷺ ، فلما أنبههما عمر ، وقال : هو والله خير . وخوفهما من تغير حال القرآن في المستقبل ؛ لقلة حفظته ، ومصيره إلى حالة الخفاء والغموض بعد الاستفاضة والظهور ، علما صواب ما أشار به وأنه خير ، وأن فعل رسول الله - عليه السلام - ليس على الوجوب ، ولا تركه لما تركه على الوجوب إلا أن يكون قد بين في شريعته أن مثل فعله لما فعله ، أو تركه لمثل ما تركه لازم لنا وواجب علينا ، فلما علما أنه لم يحظر جمع القرآن ولا منع منه بسنة ولا بنص آية ، ولا هو مما يفسده العقل ويحيله ، ولا يقتضي فساد [شيء] (3) من أمر الدين ولا مخالفة رأي صواب ما أشار به عمر ، وأسرعا إليه كما فعل عمر وسائر الصحابة في رجوعهم إلى رأي أبي بكر في قتاله أهل الردة ، ورأوا ذلك صوابًا لم يشكوا فيه .

وربما يشمئز الإنسان أحيانًا من فعل المباح المطلق ويسبق إلى قلبه أنه ليس مما له فعله لفرط احتياطه وتحريه ، ثم تبين له بعد

---

(1) الأحزاب : ٢٣ .

(2) في « الأصل » : بصورتها . والمثبت من « هـ ، ن » .

(3) في « الأصل » : شيئًا . والمثبت من « هـ » .

ذلك أنه مما له فعله ، كرجل قيل له : قد سقط عنك فرض الجهاد والصيام والصلاة قائما لزمانتك وعجزك . فأنكر مفارقة العادة عند أول وهلة ، فلما رجع إلى نفسه ، وعلم أن الصيام يجهده والحركة والقيام يزيده في مرضه علم جواز تركه .

وقد تقدم في كتاب الأحكام في باب يستحب للكاتب أن يكون أمينًا عاقلاً زيادة بيان في تصويب جمع الصديق للقرآن وأنه من أعظم فضائله .

قال أبو بكر بن الطيب : فإن قيل : فما وجه جمع عثمان الناس على مصحفه ، وقد سبقه أبو بكر إلى ذلك وفرغ منه ؟

قيل لهم : إن عثمان لم يقصد بما صنع جمع الناس على تأليف المصحف فقط ، ولا كان التشاجر الواقع في أيامه في إقرارهم أنه كتاب الله بأسره ، وإنما اختلفوا في القراءات ، فاشتد الأمر / في ذلك [٤/ق١٨٩-ب] بينهم وعظم اختلافهم وتشتتهم ، وأظهر بعضهم إكفار بعض والبراءة منه ، وتلاعنا أهل الشام وأهل العراق ، وكتب الناس بذلك إلى عثمان من الأمصار وناشدوه الله في جمع الكلمة ورفع الشتات والفرقة، فجمع عثمان المهاجرين والأنصار وجلة أهل [الإسلام] (١) وشاورهم في ذلك فاتفقوا على جمع القرآن وعرضه وأخذه للناس بما صح وثبت من القراءات المشهورة عن النبي عليه السلام ، واطراح ما [سواها] (٢) واستصوبوا رأيه ، وكان رأيًا سديدًا موفقا ، فرحمة الله عليه وعليهم .

وقد ذكر أبو عبيد بإسناده عن علي بن أبي طالب قال : لو وليت لفعلت في المصاحف الذي فعل عثمان .

---

(١) في « الأصل » : الشام . والمثبت من « هـ » .
(٢) في « الأصل » : سواهما . والمثبت من « هـ » .

قال غيره وقوله : « حتى وجدت آخر التوبة مع أبي خزيمة الأنصاري لم أجدها مع أحد غيره » يدل على تصحيح الروايات الأخر أن الصديق أمر زيداً ألا [يثبت آية] (١) في المصحف إلا بشاهدين يشهدان [عليها] (٢) .

وقال أبو بكر بن الطيب : وجه طلبه للشاهدين أن إثبات القرآن حكم من أحكام الشريعة ، ولا يجب إمضاء حكم في الشريعة إلا بشاهدين عدلين .

ويحتمل أن يكون أمره بطلب الشاهدين فيما لا يحفظه زيد من كلمات القرآن ، وقد ورد بذلك خبر .

وروى أسامة بن زيد عن القاسم بن محمد قال : قال أبو بكر لزيد ابن ثابت : اقعد فمن أتاك من القرآن بما لا تحفظه ولم تقرأه بشاهدين [فاقبله] (٣) . ولسنا ننكر أن يكون أبو بكر أمر زيداً بطلب الشاهدين على كل ما يؤتى به مما يحفظه ومما لا يحفظه ؛ لأجل حاجته إلى إمضاء الحكم من جهة الظاهر .

قال المؤلف : وأفضل ما قيل في ذلك ما حدثنا به عبد الرحمن بن عبد الله بن خالد قال : حدثنا علي بن محمد بن لؤلؤ ببغداد قال : حدثنا أحمد بن الصقر بن ثوبان قال: حدثنا محمد بن عبيد بن [حساب](٤) حدثنا حماد بن زيد ، عن أيوب ، عن أبي قلابة، عن رجل من بني تميم يقال له – أحسب – أنس بن مالك قال: اختلف المعلمون في القرآن حتى اقتتلوا،

---

(١) في « الأصل » : يشابه . والمثبت من « هـ » .
(٢) في « الأصل » : عليهما والمثبت من « هـ » .
(٣) في « الأصل » : فاقتله والمثبت من « هـ » .
(٤) في « الأصل » : خشاب . وفي « هـ » : حسان . وهو تصحيف ، ومحمد بن عبيد بن حساب من رجال التهذيب .

فبلغ ذلك عثمان فقال : عندي تختلفون وتكذبون به وتلحنون فيه ؟ يا أصحاب محمد اجتمعوا فاكتبوا للناس إمامًا يجمعهم فكانوا في المسجد فكثروا ، فكانوا إذا تماروا في الآية يقولون : إنه أقرأ رسول الله هذه الآية فلان بن فلان ، وهو على رأس أميال من المدينة ، فيبعث إليه فيجيء فيقولون : كيف أقرأك رسول الله آية كذا وكذا ، فيكتبون كما قال . رواه إسماعيل بن إسحاق ، عن سليمان بن حرب ، حدثنا حماد بن زيد ، عن أيوب ، عن أبي قلابة قال : حدثني من كان يكتب معهم [قال][1] حماد : أظنه أنس بن مالك القشيري قال : كانوا يختلفون في الآية فيقولون : أقرأها رسول الله فلان بن فلان فعسى أن يكون على ثلاث أميال من المدينة ، فيرسل إليه فيجاء به .

وذكر الحديث [سواء] [2] وقد أشار أبو بكر بن الطيب إلى هذا المعنى غير أنه لم يذكر الرواية بذلك ، وقد ذكرته عنه في كتاب الجهاد في باب قوله : ﴿ **من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه** ﴾[3] .

فإن قيل : في حديث زيد بن ثابت أنه وجد آخر سورة التوبة مع أبي خزيمة الأنصاري ، وفي آخر الباب قول ابن شهاب عن خارجة بن زيد أنه سمع أباه زيد بن ثابت قال : فقدت اية من الأحزاب كنت أسمع النبي - عليه السلام - يقرأ بها ، فالتمسناها فوجدناها مع خزيمة ابن ثابت : ﴿ **من المؤمنين رجال** ﴾ [3] وهذا اختلاف يوجب التضاد .

قال المهلب : ولا تضاد في هذا ، وهذه قصة غير قصة الأحزاب ؛

---

(١) في « الأصل » : إلى . والمثبت من « هـ » .

(٢) من « هـ » .   (٣) الأحزاب : ٢٣ .

لأن الآية التي في التوبة وجدت مع أبي خزيمة ، وهو معروف من الأنصار وقد عرفه أنس ، وقال : نحن ورثناه . والتي في الأحزاب ليست صفة النبي - عليه السلام - وهذه وجدت مع خزيمة بن ثابت ، وهو غير أبي خزيمة ، فلا تعارض في هذا ، والقصة غير القصة لا إشكال فيها ولا التباس والسورة غير السورة ، والتي في الأحزاب سمعها زيد وخزيمة من النبي فهما شاهدان على سماعها منه ، وإنما أثبتت التي في التوبة بشهادة أبي خزيمة وحده لقيام الدليل على صحتها في صفة النبي فهي قرينة تغني عن / طلب شاهد آخر . [٤/ق١٩٠-أ]

وفي أمر عثمان بتحريق الصحف والمصاحف حين جمع القرآن جواز تحريق الكتب التي فيها أسماء الله - تعالى - وأن ذلك إكرام لها ، وصيانة (من) [١] الوطء بالأقدام وطرحها في ضياع من الأرض .

وروى معمر ، عن ابن طاوس ، عن أبيه أنه كان يحرق الصحف إذا اجتمعت عنده الرسائل فيها بسم الله الرحمن الرحيم ، وحرق عروة بن الزبير كتب فقه كانت عنده يوم الحرة ، وكره إبراهيم أن تحرق الصحف إذا كان فيها ذكر الله ، وقول من حرقها أولى بالصواب .

وقد قال أبو بكر بن الطيب : جائز للإمام تحريق الصحف التي فيها القرآن إذا أداه الاجتهاد إلى ذلك .

وقال أبو عبيد : اللخاف : الحجارة الرقاق ، والعسب : جمع عَسيب وهي جريدة من النخل ، وجمعه عسبان [وأعسب] [٢] من كتاب العين .

* * *

---

(١) في « هـ » : عن .
(٢) في « الأصل » : وأعسبة . والمثبت من « هـ » .

باب : ذكر كاتب النبي عليه السلام

فيه : زيد بن ثابت قال : « أرسل [إليّ] (١) أبو بكر الصديق قال : إنك كنت تكتب الوحي لرسول الله [فاتبع] (٢) القرآن فتتبعت حتى وجدت آخر سورة التوبة آيتين مع أبي خزيمة الأنصاري لم [أجدهما] (٣) مع أحد غيره : ﴿ لقد جاءكم رسول من أنفسكم ﴾ (٤) .

وفيه : البراء قال : « لما نزلت : ﴿ لا يستوي القاعدون من المؤمنين غير أولي الضرر والمجاهدون في سبيل الله ﴾ (٥) قال النبي [ﷺ] (٦) : ادع لي زيدًا وليجئ باللوح والدواة - أو الكتف والدواة - ثم قال : اكتب : ﴿ لا يستوي القاعدون ﴾ وخلف ظهر النبي - عليه السلام - عمرو بن أم مكتوم الأعمى قال : يا رسول الله : فما تأمرني ، فإني رجل ضرير البصر ؟ فنزلت مكانها . ﴿ غير أولي الضرر ﴾ .

قال أبو بكر بن الطيب : فيه أن النبي - عليه السلام - [سن] (٧) جمع القرآن وكتابته وأمر بذلك وأملاه على كتبته ، وأن أبا بكر الصديق وعمر الفاروق وزيد بن ثابت وجماعة الأمة أصابوا في جمعه وتحصينه وإحرازه ، وجروا في كتابته على سنن الرسول وسنته ، وأنهم لم يثبتوا منه شيئًا غير معروف ، وما لم تقم الحجة به .

قال المهلب : وفيه أن السنة للخليفة والإمام أن يتخذ كاتبًا يقيد له ما يحتاج إلى النظر فيه من أمور الرعية ، ويعينه على تنفيذ أحكام الشريعة، لأن الخليفة يلزمه من الفكرة والنظر في أمور من استرعاه الله أمرهم ما يشغله عن الكتاب وشبهه من أنواع المهن ، ألا ترى قول عمر بن الخطاب : « لولا الخلافة لأذنت » يريد أن

---

(١) من « هـ ، ن » .
(٢) في « الأصل » : فاجمع . والمثبت من « هـ ، ن » .
(٣) في « الأصل » : أجدها والمثبت من « هـ ، ن » .
(٤) التوبة : ١٢٨ - ١٢٩ .
(٥) النساء : ٩٥ .
(٦) في « الأصل » : عليه . والمثبت من « هـ » .
(٧) من « هـ » .

الخلافة حالة شغل بأمور المسلمين عن الأذان وغيره ؛ لأن هذا يوجد [فيه][(١)] من يقوم مقام الخليفة وينوب عنه ، ولا ينوب عنه أحد في الإمامة ، وقد استدل بقوله تعالى : ﴿ **لا يستوي القاعدون من المؤمنين غير أولي الضرر** ﴾ [(٢)] الآية . من قال : إن الغنى أفضل من الفقر . قال : ألا ترى قوله تعالى : ﴿**وفضل الله المجاهدين بأموالهم وأنفسهم على القاعدين درجة وكلا وعد الله الحسنى** ﴾ [(٢)] ؟ ففضيلة الجهاد وبذل المال في إعلاء كلمة الله درجة لا يبلغها الفقير أبدًا ، وقوله تعالى : ﴿**غير أولي الضرر** ﴾ [(٢)] يدل أن أهل الأعذار لا حرج عليهم فيما لا سبيل لهم إلى فعله من الفرائض اللازمة للأصحاء القادرين ، وفي هذا حجة للفقهاء في قولهم : إنه لا يجوز تكليف ما لا يطاق . وهو قول جمهور الفقهاء .

* * *

باب : أنزل القرآن على سبعة أحرف

فيه : ابن عباس : قال النبي – عليه السلام – : « أقرأني جبريل على حرف فراجعته فلم أزل أستزيده ويزيدني ، حتى انتهى إلى سبعة أحرف».

وفيه : عمر بن الخطاب : « سمعت هشام بن حكيم يقرأ سورة الفرقان في حياة رسول الله ، فاستمعت لقراءته ، فإذا هو يقرأ على حروف كثيرة لم يقرئنيها رسول الله ، فكدت أساوره في الصلاة ، فتصبرت حتى سلم [فلببته] [(٣)] بردائه . فقلت : من أقرأك هذه السورة التي سمعتك تقرأ؟ قال : أقرأنيها رسول الله . فقلت : كذبت ، فإن رسول الله قد أقرأنيها على غير ما قرأت ، فانطلقت [به] [(٤)] أقوده إلى رسول الله ، فقلت : إني

---

(١) في « الأصل » : في . والمثبت من « هـ » .

(٢) النساء : ٩٥ .

(٣) في « الأصل » : فلبيت . والمثبت من « هـ ، ن » .

(٤) من « هـ ، ن » .

سمعت هذا يقرأ سورة الفرقان على حروف لم تقرئنيها ! فقال رسول الله ﷺ : أرسله ، اقرأ يا هشام ، فقرأ عليه القراءة التي سمعته يقرأ ، فقال رسول الله : كذلك / أنزلت . ثم قال : اقرأ يا عمر . فقرأت القراءة التي [٤/ق١٩٠-ب] **أقرأني ، فقال رسول الله : كذلك أنزلت ، إن هذا القرآن أنزل على سبعة أحرف فاقرءوا ما تيسر منه »** .

قال المؤلف : قد أكثر الناس في تأويل هذا الحديث ولم أجد فيه قولاً يسلم [من] [١] المعارضة ، وأحسن ما رأيت فيه ما نقله أبو عمرو عثمان بن سعيد المقرئ في [بعض] [٢] كتبه - ولم يسم [قائله][٢] - قال : إني تدبرت معنى هذا الحديث (وأنعمت) [٣] النظر فيه بعد وقوفي علي أقاويل السلف والخلف ، فوجدته متعلقًا بخمسة أوجه ، هي محيطة بجميع معانيه : فأولها : أن يقال : ما معنى الأحرف التي أرادها النبي ﷺ ؟ وكيف تأويلها ؟ والثاني : ما وجه [إنزال] [٤] القرآن على هذه السبعة الأحرف ، وما المراد بذلك؟ والثالث : في أي شيء يكون اختلاف هذه السبعة الأحرف ؟ والرابع : على كم معنى تشتمل هذه السبعة [الأحرف] [٢] ؟ والخامس : هل هذه السبعة الأحرف كلها متفرقة في القرآن ، موجودة فيه في ختمة واحدة ، حتى إذا قرأ القارئ بأي حرف من حروف أئمة القراء بالأمصار المجتمع على إمامتهم فقد قرأ بها كلها ؟ أو ليست كلها متفرقة فيه وموجودة في ختمة واحدة ؟ وأنا مبين ذلك - إن شاء الله .

فأما معنى الأحرف التي أرادها النبي ﷺ هاهنا فإنه يتوجه إلى وجهين : أحدهما : أن يكون أراد سبعة أوجه من اللغات بدليل قوله تعالى : ﴿ **ومن الناس من يعبد الله على حرف فإن أصابه خير اطمأن به**﴾[٥]

---

(١) في « الأصل » : عن . والمثبت من « هـ » . (٢) من « هـ » .
(٣) في « هـ » : وأمعنت .
(٤) في « الأصل » : تأويل . والمثبت من « هـ » . (٥) الحج : ١١ .

فالمراد بالحرف هاهنا الوجه الذي تقع عليه العبادة . والمعنى : ومن الناس من يعبد الله على النعمة تصيبه ، والخير يناله من تثمير المال ، وعافية البدن ، وإعطاء السؤل ، ويطمئن إلى ذلك ما دامت له هذه الأمور واستقامت ، فإن تغيرت حاله وامتحنه الله بالشدة في عيشه والضر في بدنه ترك عبادة ربه وكفر به ، فهذا عَبَد الله [1] على وجه واحد ، وذلك معنى الحرف والوجه .

الثاني : أن يكون النبي ﷺ سمى القراءات أحرفًا على طريق السعة كنحو ما جرت عليه عادة العرب في تسميتهم الشيء باسم ما هو منه وما قاربه و [ما] [2] جاوره ، وتعلق به ضربًا من التعلق وتسميتهم الجملة باسم البعض منها ، فسمى النبي القراءة حرفًا ، وإن كان [كلامًا] [3] كثيرًا من أجل أن منها حرفًا قد غير بضمة أو كسر أو قلب إلى غيره ، أو أميل أو زيد فيه أو نقص منه على ما جاء في المختلف فيه من القراءات ، فنسب النبي القراءة والكلمة التامة [إلى] [4] ذلك الحرف المغير ، فسمى القراءة به ؛ إذ كان ذلك الحرف منها على عادة العرب في ذلك كما يسمون القصيدة قافية ، إذ كانت القافية منها كقول الخنساء :

وقافية مثل حـــد السنا ... ن تبقى ويهلك من قالها

تعني : قصيدة ، فسميت قافية على طريق الاتساع، كما يسمون الرسالة [والخطبة: كلمة] [5] ، إذ كانت الكلمة منها . قال تعالى : ﴿ **وتمت كلمة ربك الحسنى** ﴾ [6]

(١) في « الأصل » : لا . وهي مقحمة . (٢) من « هـ » .
(٣) في « الأصل » : كاملاً . والمثبت من « هـ » .
(٤) في « الأصل » : التي . والمثبت من « هـ » .
(٥) في « الأصل» : والكتبة خطبة . (٦) الأعراف : ١٣٧ .

وقيل : إنه تعالى عنى بالكلمة هاهنا قوله في سورة القصص : ﴿**ونريد أن نمن على الذين استضعفوا في الأرض** ... ﴾ (١) الآية . وقال مجاهد: قوله تعالى : ﴿ **وألزمهم كلمة التقوى** ﴾ (٢). قال : لا إله إلا الله . فخاطبهم عليه السلام بما جرى تعارفهم عليه في خطابهم .

وأما وجه إنزال القرآن على هذه السبعة الأحرف ، وما أراد الله بذلك، فإنما ذلك توسعة من الله على عباده ورحمة لهم [و] (٣) تخفيفًا عنهم لما هم عليه من اختلاف [اللغات] (٣) واستصعاب مفارقة كل فريق منهم لطبعه وعادته في الكلام إلى غيره ، فخفف الله عنهم بأن [أقرأهم] (٤) على مألوف طبعهم وعادتهم في كلامهم ، يدل على ذلك ما روى أبو عبيدة من حديث حذيفة عن النبي - عليه السلام - قال : « لقيت جبريل عند أحجار المري فقلت : يا جبريل ، إني أرسلت إلى أمة أمية : الرجل والمرأة والغلام والجارية والشيخ الفاني الذي لم يقرأ كتابًا قط . قال : إن القرآن أنزل على سبعة أحرف » .

روى حماد بن سلمة من حديث أبي بكرة « أن جبريل أتى النبي -عليه السلام - [فقال] (٥) : اقرأ القرآن على حرف . فقال ميكائيل: استزده . فقال : اقرأ على حرفين . فقال ميكائيل : استزده / حتى بلغ [سبعة] (٦) أحرف كل كاف شاف » . [٤/ق١٩١-أ]

ويمكن أن تكون هذه السبعة أوجه من اللغات هي أفصح اللغات ، فلذلك أنزل القرآن عليها . ذكر ثابت السرقسطي في هذا المعنى : قوله: « سبعة أحرف » يريد - والله أعلم - على لغات شعوب من العرب سبعة أو

---

(١) القصص : ٥ . (٢) الفتح : ٢٦ . (٣) من « هـ » .

(٤) في « الأصل » : أقرهم . والمثبت من « هـ » .

(٥) في « الأصل » : قال . والمثبت من « هـ » .

(٦) في « الأصل » : ستة . والمثبت من « هـ » .

جماهيرها كما قال الكلبي : خمسة منها لهوازن وحرفان لسائر الناس. وقال ابن عباس : نزل القرآن على سبعة أحرف صارت في عجز هوازن منها خمسة . وقال أبو حاتم : عجز هوازن ثقيف ، وبنو سعد ابن بكر ، وبنو جشم ، وبنو مضر . قال أبوحاتم : خص هؤلاء دون ربيعة وسائر العرب لقرب جوارهم من مولد النبي - عليه السلام - ومنزل الوحي، وإنما مضر وربيعة أخوان . قال قتادة عن سعيد بن المسيب : نزل القرآن على لغة هذا الحي من لدن هوازن وثقيف إلى ضربه .

وأما في أي شيء يكون اختلاف هذه السبعة أحرف فإنه يكون في أوجه كثيرة منها تغير اللفظ نفسه وتحويله إلى لفظ آخر كقوله تعالى : «ملك يوم الدين » بغير ألف ، و﴿ **مالك** ﴾ بألف ، والسراط بالسين والصاد و [الزاي] [(١)] ومنها الإثبات والحذف كقوله تعالى : ﴿**وقالوا اتخذ الله ولدًا** ﴾ [(٢)] ، ﴿ **وسارعوا إلى مغفرة من ربكم** ﴾[(٣)] ، ﴿**والذين اتخذوا مسجداً** ﴾ [(٤)] بالواو وبغير واو ، ومنها تبديل [الأدوات][(٥)] كقوله تعالى : ﴿ **وتوكل على العزيز الرحيم** ﴾ [(٦)] في الشعراء بالفاء ، وتوكل بالواو « فلا يخاف عقباها » بالفاء ، ﴿ **ولا يخاف عقباها** ﴾[(٧)] [بالواو] [(٨)] ، ومنها التوحيد والجمع كقوله تعالى : ﴿ **الريح** ﴾ و ﴿ **الرياح** ﴾ ومنها ﴿ **فما بلغت رسالته** ﴾ [(٩)] و«رسالاته » و« آية للسائلين » و﴿ **آيات** ﴾ [(١٠)] .

ومنها التذكير والتأنيث كقوله تعالى : ﴿ **ولا يقبل منها شفاعة** ﴾[(١١)] بالياء والتاء، و« فناداه الملائكة » و﴿**فنادته** ﴾ [(١٢)]، و«استهواه الشياطين» و﴿**استهوته** ﴾ [(١٣)]، ومنها التشديد والتخفيف كقوله تعالى: ﴿ **بما كانوا**

---

(١) في « الأصل » : الراء . والمثبت من « هـ » .
(٢) البقرة : ١١٦ . (٣) آل عمران : ١٣٣ . (٤) التوبة : ١٠٧ .
(٥) في « الأصل » : الأخوات . والمثبت من « هـ » . (٦) الشعراء : ٢١٧ .
(٧) الشمس : ١٥ . (٨) في « الأصل » : والواو . والمثبت من « هـ » .
(٩) المائدة : ٦٧ . (١٠) يوسف : ٧ . (١١) البقرة : ٤٨ .
(١٢) آل عمران : ٣٩ . (١٣) الأنعام : ٧١ .

يكذبون ﴾ بتشديد الذال وتخفيفها ، و [منها] [1] الخطاب والإخبار كقوله تعالى : ﴿ **وما الله بغافل عما يعملون** ﴾ و﴿ **أفلا يعقلون** ﴾ ، ﴿**ولكن لا يعلمون** ﴾ وشبه ذلك بالتاء على الخطاب ، وبالياء على الإخبار ، ومنها الإخبار عن النفس، والإخبار عن غير النفس كقوله تعالى : ﴿**نتبوأ منها حيث نشاء** ﴾ بالنون وبالياء ، و ﴿**يجعل الرجس**﴾ بالنون والياء ، ومنها التقديم والتأخير كقوله تعالى: « وقتلوا وقاتلوا»، ﴿ **وقاتلوا وقتلوا** ﴾ و ﴿**فيقتلون ويقتلون**﴾ وكذلك « زين لكثير من المشركين قتل أولادهم شركائهم » و ﴿ **قتل أولادهم شركاؤهم** ﴾ وشبهه .

ومنها النهي والنفي كقوله تعالى : « ولا تسل عن أصحاب الجحيم» بالجزم على النهي ﴿ **ولا تسألُ** ﴾ بالرفع على النفي ، «ولا تشرك في حكمه أحدًا » بالتاء والجزم على النهي ﴿ **ولا يشركُ** ﴾ بالياء والرفع على النفي .

ومنها الأمر والإخبار كقوله تعالى : ﴿ **واتخِذوا من مقام إبراهيم مُصلى**﴾ بكسر الخاء على الأمر « واتخَذوا » بالفتح على الإخبار ، و﴿**قل سبحان ربي** ﴾ و ﴿ **قل ربي يعلم** ﴾ على الأمر ، وقال على الخبر، وشبهه .

ومنها تغيير الإعراب وحده كقوله تعالى : ﴿ **وصية لأزواجهم** ﴾ بالنصب وبالرفع و﴿ **تجارة حاضرة** ﴾ بالرفع والنصب ، ﴿**وأرجلكم إلى الكعبين** ﴾ بالنصب والجر ، وما أشبهه .

ومنها تغيير الحركات اللوازم كقوله : ﴿ **ولا تحسبن** ﴾ بكسر السين

---

(١) في « الأصل » : منه . والمثبت من « هـ » .

وفتحها ﴿ ومن يقنط ﴾ (١) و﴿ يقنطون ﴾ (٢) بكسر النون وفتحها ، ﴿ويعرشون ﴾ (٣) و ﴿ يعكفون ﴾ (٤) بكسر الراء والكاف وضمها و ﴿الولاية ﴾ (٥) بكسر الواو وفتحها .

ومنها التحريك والتسكين كقوله : ﴿ خطوات الشيطان ﴾ (٦) بضم [الطاء] (٧) وإسكانها ﴿ وعلى الموسع قدره وعلى المقتر قدره ﴾ (٨) بفتح الدال وإسكانها .

ومنها الإتباع وتركه كقوله تعالى : ﴿ فمن اضطر ﴾ (٩) و ﴿ وأن اعبدوا الله ﴾ (١٠) ﴿ ولقد استهزئ ﴾ (١١) بالضم والكسر ؛ فالضم لالتقاء الساكنين إتباعًا لضم ما بعدهن ، وبالكسر للساكنين من غير اتباع ، ومنها الصرف وتركه كقوله : ﴿ وعادًا وثمودًا ﴾ (١٢) و ﴿ ألا بعدًا لثمود ﴾ (١٣) بالتنوين وتركه .

ومنها اختلاف اللغات كقوله : ﴿ جبريل ﴾ بكسر الجيم من غير همز وبفتحها كذلك وجَبرَئيل - بفتح الجيم والراء مع الهمز من غير مد - وبالهمز والمد .

ومنها التصرف في اللغات نحو الإظهار والإدغام ، [والمد] (١٤) والقصر والإمالة ، والفتح وبين بين والهمز وتخفيفه / [٤/ق١٩١-ب] بالحذف والبدل وبين بين ، والإسكان والروم والإشمام عند الوقف على أواخر الكلم ، [والسكون] (١٥) على الساكن قبل الهمزة وما أشبهه ، وقد ورد التوقيف عن النبي - عليه السلام - بهذا [الضرب] (١٦) من

---

(١) الحجر : ٥٦ . (٢) الروم : ٣٦ . (٣) الأعراف : ١٣٧ .
(٤) الأعراف : ١٣٨ . (٥) الكهف : ٤٤ . (٦) البقرة : ١٦٨ .
(٧) في « الأصل » : الكاف . والمثبت من « هـ » .
(٨) البقرة : ٢٣٦ . (٩) البقرة : ١٧٣ . (١٠) المائدة : ١١٧ .
(١١) الأنعام: ١٠ وغيرها. (١٢) الفرقان : ٣٨ . (١٣) هود : ٦٨ .
(١٤) من « هـ » . (١٥) في « الأصل » : السكوت . والمثبت من « هـ » .
(١٦) في « الأصل » : التصرف .

الاختلاف وأذن فيه لأمته بالأخبار الثابتة ، وفيما روى أبو عبيد قال : حدثنا نعيم بن حماد حدثنا بقية بن الوليد ، عن حصين بن مالك قال: سمعت شيخًا يكنى أبا محمد ، عن حذيفة قال : قال رسول الله ﷺ : « اقرءوا القرآن بلحن العرب وأصواتها » ولحونها وأصواتها: مذاهبها وطباعها .

ووجه هذا الاختلاف في القرآن أن رسول الله ﷺ كان يعرض القرآن على جبريل في كل عام عرضة ، فلما كان العام الذي توفي فيه عرضه عليه مرتين ، فكان جبريل يأخذ عليه في كل عرضة بوجه من هذه الوجوه [والقراءات] [1] المختلفة ، ولذلك قال عليه السلام: « إن القرآن أنزل عليها ، وإنها كلها كاف شاف » وأباح لأمته القراءة بما شاءت منها مع الإيمان بجميعها ؛ إذ كانت كلها من عند الله منزلة ، ومنه عليه السلام مأخوذة ، ولم يلزم أمته حفظها كلها ولا القراءة بأجمعها ؛ بل هي مخيرة في القراءة بأي حرف شاءت منها كتخييرها إذا حنثت في يمين أن تكفر إن شاءت بعتق أو بإطعام أو بكسوة ، وكالمأمور في الفدية بالصيام أو الصدقة أو النسك ، ألا ترى أن النبي ﷺ صوب من قرأ ببعضها كما صوب قراءة هشام بن حكيم [و] [2] قراءة عمر بن الخطاب حين تناكرا القراءة وأقر أنه كذلك قرئ عليه ، وكذلك أنزل عليه .

وأما على كم وجه يشتمل اختلاف هذه السبعة الأحرف ؛ فإنه يشتمل على ثلاثة معان : أحدها : اختلاف اللفظ والمعنى [واحد ، نحو قوله تعالى : ﴿ **الصراط** ﴾ بالصاد والسين والزاي و ﴿ **عليهم** ﴾ و ﴿ **إليهم**﴾ بضم الهاء مع إسكان الميم ، وبكسر الهاء مع ضم الميم وإسكانها وشبه ذلك.

والثاني : اختلاف اللفظ ، والمعنى] [2] جميعًا مع جواز أن يجتمعا في شيء واحد ، لعدم تضاد اجتماعهما فيه ، نحو قوله : «ملك يوم الدين » بغير الألف ، و[﴿**مالك** ﴾ بالألف] [3] لأن المراد

---

(١) في « الأصل » : والقراءة . والمثبت من « هـ » . (٢) من « هـ » .

(٣) في « الأصل » : وبألف . والمثبت من « هـ » .

بهاتين القراءتين هو الله سبحانه ، وذلك أنه مالك يوم الدين وملكه ، فقد اجتمع له الوصفان جميعًا فأخبر بذلك في القراءتين ونحو ذلك : ﴿ **بما كانوا يكذبون**﴾ (١) بتخفيف الذال وتشديدها ؛ لأن المراد بهاتين القراءتين جميعًا هم المنافقون ، وذلك أنهم كانوا يكذِبون في أخبارهم ويكذِّبون النبي – عليه السلام .

والثالث : اختلاف اللفظ والمعنى جميعًا مع امتناع جواز اجتماعهما في شيء واحد كقوله تعالى : ﴿ **وظنوا أنهم قد كذبوا** ﴾ (٢) بالتشديد؛ لأن المعنى : وتيقن الرسل أن قومهم قد كذبوهم فيما أخبروهم به من أنه إن لم يؤمنوا [بهم نزل] (٣) العذاب بهم ، فالظن في القراءة الأولى يقين والضمير الأول للرسل ، والثاني للمرسل إليهم ، والظن في القراءة الثانية شك ، والضمير الأول للمرسل إليهم والثاني للرسل، ويشبه ذلك من اختلاف القراءتين [اللتين] (٤) لا يصح أن تجتمعا في شيء واحد لتضاد المعنى، وكل قراءة منهما بمنزلة آية قائمة بنفسها .

وأما هذه السبعة الأحرف ؛ فإنه لا يمكن القراءة بها في ختمة واحدة، فإذا قرأ القارئ برواية من رواية القراء ، فإنما قرأ ببعضها لا بكلها ؛ لأنا قد أوضحنا قبل أن المراد بالسبعة أحرف سبعة أوجه من اللغات كنحو اختلاف الإعراب والحركات والسكوت ، [والإظهار والإدغام] (٥) ، والمد والقصر وغير ذلك [مما قدمناه] (٦) .

وإذا كان كذلك فمعلوم أنه من قرأ بوجه من هذه الأوجه ، فإنه لا يمكنه أن يحرك الحرف ويسكنه في حالة واحدة أو يقدمه [و] (٧) يؤخره ، أو يظهره ويدغمه ، أو يمده ويقصره ، أو يفتحه ويميله وشبه ذلك ، غير أنا لا ندري أي هذه السبعة أحرف كان آخر العرض ، وأن جميع هذه الأحرف قد ظهر واستفاض عن النبي ﷺ وضبطتها الأمة

---

(١) البقرة : ١٠ ، وغيرها . (٢) يوسف : ١١٠ .
(٣) في « الأصل » : نزل بهم . والمثبت من « هـ » .
(٤) في « الأصل » : التي . والمثبت من « هـ » .
(٥) في « الأصل » : الإجهار . والمثبت من « هـ » . (٦) من « هـ » .
(٧) في « الأصل » : أو . والمثبت من « هـ » .

على اختلافها عنه ، وأن معنى إضافة كل حرف إلى من أضيف إليه كأُبيّ وزيد وغيرهم من قبل أنه كان أضبط له وأكثر قراءة وأقرأ به ، وكذلك إضافة [القراءات] [1] إلى أئمة القراء بالأمصار ، على معنى أن ذلك الإمام اختار القراءة بذلك الحرف ، وآثره على غيره ، ولزمه وأخذ عنه فلذلك أضيف إليه ، وهذه إضافة اختيار لا إضافة اختراع .

قال أبو جعفر الداودي : والسبع [المقارئ] [2] التي يتعلمها الناس اليوم ليس كل حرف منها هو أحد السبعة التي أنزلت على رسول الله ﷺ، قد يكون في حرف من هذه / شيء من إحدى أولئك السبع ، وشيء من [٤/ق١٩٢-أ] الأخرى . وقال أبو عبد الله بن أبي صفرة : وهذه السبع القراءات التي بأيدي الناس إنما تفرعت من حرف واحد من السبعة التي في الحديث وهو الحرف الذي جمع عليه عثمان المصحف [ذكر ذلك ابن النحاس وغيره][2] .

* * *

باب : تأليف القرآن

فيه : عائشة : « جاءها عراقي ، فقال : أي الكفن خير ؟ قالت : ويحك، وما يضرك ؟! قال : يا أم المؤمنين ، أرني مصحفك . قالت : لم؟ قال : لعلي أؤلف القرآن عليه ؛ فإنه يُقرأ غير مؤلف . قالت : وما يضرك أيه قرأت [قبل ؛ إنما] [3] نزل أول ما نزل منه سورة [من] [4] المفصل ، فيها ذكر الجنة والنار حتى إذا ثاب الناس إلى الإسلام نزل الحلال والحرام ، ولو نزل أول شيء : لا تشربوا الخمر ؛ لقالوا : لا ندع الخمر أبداً ، ولو نزل : لا تزنوا ؛ لقالوا : لا ندع الزنا أبداً ، لقد نزل بمكة على محمد وإني لجارية ألعب :﴿بل الساعة موعدهم والساعة أدهى وأمر﴾[5]

---

(١) في « الأصل » : القراءة . والمثبت من « هـ » .
(٢) من « هـ ».
(٣) في « الأصل : قال فما . والمثبت من « هـ ، ن » .
(٤) من « هـ ، ن » .
(٥) القمر : ٤٦ .

وما نزلت سورة البقرة والنساء إلا وأنا عنده ، قال : فأخرجت له المصحف فأملت عليه آي السور » .

وفيه : ابن مسعود : قال في بني إسرائيل والكهف ومريم وطه والأنبياء: إنهن من العتاق الأول ، [وهن] [(١)] من تلادي .

وفيه : البراء : قال : تعلمت ﴿ سبح اسم ربك الأعلى ﴾ [(٢)] قبل أن يقدم النبي ﷺ .

وفيه : ابن مسعود : قال : لقد علمت النظائر التي كان النبي - عليه السلام - يقرؤهن اثنتين اثنتين في ركعة ، فسألنا علقمة فقال : عشرون سورة من أول المفصل على تأليف ابن مسعود آخرهن من الحواميم : ﴿حم الدخان ﴾ ، و﴿ عم يتساءلون ﴾ .

قال أبو بكر بن الطيب : [إن] [(٣)] قال قائل : قد اختلف السلف في ترتيب سور القرآن فمنهم من كتب في مصحفه السور على تاريخ نزولها وقدم المكي على المدني ، ومنهم من جعل في أول مصحفه ﴿الحمد لله ﴾ ، ومنهم من جعل في أوله ﴿ **اقرأ باسم ربك** ﴾ [(٤)] وهذا أول مصحف عليّ . وأما مصحف ابن مسعود فإن أوله « ملك يوم الدين » ، ثم البقرة ثم النساء على ترتيب يختلف . روى ذلك طلحة ابن مصرف أنه قرأه على يحيى بن وثاب ، وقرأ يحيى بن وثاب على علقمة ، وقرأ علقمة على عبد الله ، ومصحف أُبيّ كان أوله : الحمد لله ثم البقرة ، ثم النساء ثم آل عمران ، ثم الأنعام ثم الأعراف ، ثم المائدة ثم كذلك على اختلاف شديد . قال أبو بكر : فالجواب : أنه يحتمل أن يكون ترتيب السور على ما هي عليه اليوم في المصحف كان على وجه الاجتهاد من الصحابة ، وقد قال قوم من أهل العلم :

---

(١) في « الأصل » : وهو . والمثبت من « هـ ، ن » .
(٢) الأعلى : ١ . (٣) من « هـ » . (٤) العلق : ١ .

إن تأليف سور القرآن على ما هو عليه في مصحفنا كان (على) [١] توقيف من النبي ﷺ لهم على ذلك وأمر به .

وأما ما روي من اختلاف مصحف أبيّ وعليّ وعبد الله إنما كان قبل العرض الأخير ، وأن رسول الله ﷺ رتب لهم تأليف السور بعد أن لم يكن فعل ذلك . روى يونس عن ابن وهب قال : سمعت مالكًا يقول : إنما أُلف القرآن على ما كانوا يسمعونه من قراءة رسول الله ، ومن قال هذا القول لا يقول : إن تلاوة القرآن في الصلاة والدرس يجب أن يكون [مرتبًا] [٢] على حسب الترتيب الموقف عليه في المصحف ؛ بل إنما [يجب] [٣] تأليف سوره في الرسم والكتابة خاصة .

ولا نعلم أن أحدًا منهم قال : إن ترتيب ذلك واجب في الصلاة ، وفي قراءة القرآن ودرسه وإنه لا يحل لأحد أن يتلقن الكهف قبل البقرة، ولا الحج بعد الكهف ، ألا ترى قول عائشة للذي سألها أن تريه مصحفها ليكتب مصحفًا على تأليفه : لا يضرك أيه قرأت قبل ؟!

وإن ما روي عن ابن مسعود وابن عمر أنهما كرها أن يقرأ القرآن منكوسًا ، وقالا : ذلك منكوس القلب . فإنما عنيا بذلك من يقرأ السورة منكوسة ويبتدئ من آخرها إلى أولها ؛ لأن ذلك حرام محظور، ومن الناس من يتعاطى هذا في القرآن والشعر ليذلل لسانه بذلك ، ويقتدر على الحفظ وهذا [مما] [٣] حظره الله ومنعه في قراءة القرآن ؛ لأنه إفسادٌ لسوره ، ومخالفة لما قصد بها ، ومما يدل أنه لا يجب إثبات القرآن في المصاحف على تاريخ نزوله ؛ لأنهم لو فعلوا ذلك لوجب أن يجعلوا بعض آية سورة في سورة أخرى [وأن ينقصوا ما وقفوا عليه من سياقة ترتيب السور] [٣] ونظامها ؛ لأنه قد صح / [٤/ق١٩٢-ب] وثبت أن الآيات كانت تنزل بالمدينة فيؤمروا بإثباتها في السورة

---

(١) في « هـ » : عن .

(٢) في « الأصل » : مرتلاً . والمثبت من « هـ » .

(٣) من « هـ » .

المكية ، ويقال لهم : ضعوا هذه الآية في السورة التي يذكر فيها كذا . ألا ترى قول عائشة : وما نزلت سورة البقرة والنساء إلا وأنا عنده - يعني : بالمدينة - وقد قدمتا في المصحف على ما نزل قبلهما من القرآن بمكة ، ولو ألفوه على تاريخ النزول لوجب أن ينتقض ترتيب آيات السور، وقد كان النبي ﷺ يقرأ بالناس في الصلاة السورة في الركعة ثم يقرأ في ركعة أخرى بغير السورة التي تليها ، وقول ابن مسعود في بني إسرائيل والكهف ومريم وطه والأنبياء : هي من العتاق الأول وهن من تلادي - يعني : [هن] [(١)] مما نزل من القرآن أولاً .

قال صاحب العين : العتيق القديم من كل شيء ، والتلاد : ما كسب من المال قديمًا فيريد أنهن [من] [(١)] أول ما حفظه من القرآن .

وقوله : « ثاب الناس إلى الإسلام » : رجعوا إليه . قال صاحب العين : ثاب الشيء يثوب ثؤوبا رجع . ومنه قوله تعالى : ﴿ **وإذ جعلنا البيت مثابة للناس** ﴾ [(٢)] أي : يرجعون إليه

* * *

باب : القراء من أصحاب النبي ﷺ

فيه : عبد الله بن [عمرو] [(٣)] : ذكر ابن مسعود فقال : لا أزال أحبه ، سمعت النبي ﷺ يقول : خذوا القرآن من أربعة : من عبد الله ، وسالم ، ومعاذ ، وأُبيّ بن كعب . وقال : فيه مسروق خطبنا ابن مسعود فقال : والله لقد أخذت من [فيّ] [(٤)] رسول الله ﷺ بضعًا وسبعين سورة ، والله لقد علم أصحابي أني لمن أعلمهم بكتاب الله ، وما أنا بخيرهم . قال شقيق : فجلست في الحلق أسمع ما يقولون ، فما سمعت رادا يقول غير ذلك . وقال : فيه علقمة : كنا بحمص ، فقرأ ابن مسعود سورة [يوسف] [(٤)] فقال

---

(١) من « هـ » . (٢) البقرة : ١٢٥ .

(٣) في « الأصل » : عمر . والمثبت من « هـ ، ن » .

(٤) من « هـ ، ن » .

رجل : ما هكذا أنزلت ! قال : قرأت على رسول الله ﷺ فقال : أحسنت. ووجد منه ريح الخمر . فقال : أتجمع أن تُكذب بكتاب الله وتشرب الخمر؟! فضربه الحد .

وفيه : مسروق قال : قال عبد الله : والله الذي لا إله إلا هو ، ما أنزلت سورة من كتاب الله إلا أنا أعلم أين أنزلت ، ولا (١) أنزلت آية من كتاب الله إلا أنا أعلم فيم أنزلت ، ولو أعلم أن أحداً أعلم مني بكتاب الله تبلغه الإبل لركبت إليه .

وفيه : أنس : جمع القرآن على عهد الرسول أربعة ، كلهم من الأنصار: أُبيّ بن كعب ، ومعاذ بن جبل ، وزيد بن ثابت ، وأبو زيد .

وقال أنس مرة : مات النبي ﷺ ولم يجمع القرآن غير أربعة : أبو الدرداء ، ومعاذ بن جبل ، وزيد ، وأبو زيد ، ونحن ورثناه .

وفيه : ابن عباس : قال عمر : أُبيّ أقرؤنا ، وإنا لندع من لحن أُبيّ ، وأُبيّ يقول : أخذته من في رسول الله ﷺ ، فلا أتركه لشيء .

قال تعالى : « ما ننسخ من آية أو ننسأها نأت بخير منها أو مثلها » (٢).

قال أبو بكر بن الطيب : لا تدل هذه الآثار على أن القرآن لم يحفظه في حياة [النبي ﷺ] (٣) غير عبد الله وسالم ، ومعاذ وأُبيّ ابن كعب ، وأنه لم يجمعه غير أربعة من الأنصار كما قال : أنس بن مالك ، فقد ثبت بالطرق المتواترة أنه جمع القرآن عثمان وعليّ ، وتميم الداري وعبادة بن الصامت ، وعبد الله بن عمرو بن العاص ، وثبت أنه

---

(١) زاد في « الأصل » : أعلم .
(٢) البقرة : ١٠٦ .
(٣) من « هـ » .

سأل النبي في كم يقرأ القرآن ؟ فقال : في شهر . فقال : إني أطيق أكثر من ذلك . . . » الحديث . فجمعه عمرو بن العاص وغيره .

روي أن النبي - عليه السلام - [أقرأه] [(١)] خمس عشرة سجدة في القرآن ، منها ثلاث في المفصل ، وفي الحج سجدتان . ذكر الأسانيد بذلك أبو بكر بن الطيب في كتاب الانتصار . فقول أنس : لم يجمع القرآن غير أربعة . قول يتعذر العلم بحقيقة ظاهره ، وله وجوه من التأويل : أحدها : أنه لم يجمعه على جميع الوجوه والأحرف، والقراءات التي نزل بها إلا أولئك النفر فقط [وهذا] [(٢)] غير بعيد ؛ لأنه لا يجب على سائرهم ولا على أولئك النفر أيضًا أن يجمعوا القرآن على جميع حروفه ووجوهه السبعة ، والثاني : أنه لم يجمع القرآن ويأخذه [تلقينًا] [(١)] من فيّ النبي ﷺ غير تلك الجماعة فإن أكثرهم أخذ بعضه عنه وبعضه عن غيره ، والثالث : أن يكون لم يجمع القرآن على عهد النبي ﷺ من انتصب لتلقينه ، وأقرأ الناس (له)[(٣)] غير تلك الطبقة / المذكورة . [٤/ق١٩٣-أ]

وقد تظاهرت الروايات بأن الأئمة الأربعة جمعوا القرآن على عهد النبي ﷺ لأجل سبقهم إلى الإسلام وإعظام الرسول ﷺ لهم ، وقد ثبت عن الصديق بقراءته في المحراب بطوال السور التي لا يتهيأ حفظها إلا لأهل القدرة على الحفظ والإتقان، فروى ابن عيينة ، عن الزهري، عن أنس أن أبا بكر الصديق قرأ في الصبح بالبقرة فقال عمر: كادت الشمس أن تطلع فقال : لو طلعت لم تجدنا غافلين ، وقد علم أن كثيرًا من الحفاظ وأهل الدربة بالقرآن يتهيبون الصلاة بالناس بمثل

---

(١) من « هـ » .

(٢) في « الأصل » : هنا . والمثبت من « هـ » .

(٣) في « هـ » : به .

هذه السور الطوال وما هو دونها ، وهذا يقتضي أن أبا بكر كان حافظًا للقرآن ، وقد صح الخبر أنه بنى مسجدًا بفناء داره بمكة قبل الهجرة ، وأنه كان يقوم فيه بالقرآن ويكثر بكاؤه ونشيجه عند قراءته فتقف عليه نساء المشركين وولدانهم يسمعون قراءته ، ولولا علم النبي ﷺ بذلك من أمره لم يقدمه لإمامة المسلمين مع قوله : يؤم القوم أقرؤهم .

وكذلك تظاهرت الروايات عن عمر أنه كان يؤم الناس بالسور الطوال ، وقد أمهم بسورة يوسف [في الصبح] (١) فبلغ إلى قوله : ﴿ **وابيضت عيناه من الحزن فهو كظيم** ﴾ (٢) فنشج حتى سمع بكاؤه من وراء الصفوف . وقرأ مرة سورة الحج فسجد فيها سجدتين .

وروى عبد الملك بن عمير عن زيد بن وهب ، عن ابن مسعود قال: كان عمر أعلمنا بالله وأقرأنا لكتاب الله وأفقهنا في دين الله ، ولولا أن هذه كانت حالته ، وأنه من أقرأ الناس لكتاب الله لم يكن أبو بكر الصديق بالذي يضم إليه زيد بن ثابت ، ويأمرهما بجمع القرآن واعتراض ما عند الناس ، ويجعل زيدًا تبعًا له ؛ لأنه لا يجوز أن ينصب لجمع القرآن واعتراضه من ليس بحافظ .

وأما عثمان فقد اشتهر أنه كان ممن جمع القرآن على عهد النبي -عليه السلام - وأنه كان من أهل القيام به ، وقد قال حين أرادوا قتله فضربوه بالسيف على يده فمدها وقال : والله إنها لأول يد خطت المفصل ، وقالت نائلة زوجته : [إن] (١) تقتلوه فإنه كان يحيي الليل بجميع القرآن في ركعة . وكذلك علي بن أبي طالب ، قد عرفت حاله في فضله وثاقب فهمه ، وسعة علمه ومشاورة الصحابة له ، وإقرارهم لفضله وتربية النبي له

---

(١) من « هـ » .
(٢) يوسف : ٨٤ .

[وأخذه] [١] له بفضائل الاخلاق ، (وترغيبه) [٢] عليه السلام في تخريجه وتعليمه ، وما كان يرشحه له ويثيبه عليه من أمره نحو قوله : أقضاكم عليّ ، ومن البعيد أن يقول : هذا فيه وليس من قراء الأمة ، وقد كان يقرأ القرآن ، وقرأ عليه أبو عبد الرحمن السلمي وغيره ، وروى همام ، عن [ابن] [٣] أبي نجيح ، عن عطاء بن السائب أن أبا عبد الرحمن السلمي حدثه قال : ما رأيت رجلاً أقرأ للقرآن من عليّ بن أبي طالب ، صلى بنا الصبح ، فقرأ سورة الأنبياء فأسقط آية، فقرأ ثم رجع إلى الآية التي أسقطها فقرأها ، ثم رجع إلى مكانه الذي انتهى إليه لا [يتتعتع] [٤] .

فإذا صح ما قلناه مع ما ثبت من تقدمهم وتقدمة الرسول لهم وجب أن يكونوا حفاظًا للقرآن ، وأن يكون ذلك أولى من الأخبار التي ذكر فيها أن الحفاظ كانوا على عهد رسول الله ﷺ أربعة ليس منهم أحد من هؤلاء الأئمة القادة الذين هم عمدة الدين وفقهاء المسلمين .

* * *

باب : فضل فاتحة الكتاب

فيه أبو سعيد بن المعلى : كنت أصلي فدعاني النبي - عليه السلام - فلم أجبه قلت : يا رسول الله ، إني كنت أصلي . قال : ألم يقل الله : ﴿استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم﴾ [٥] . ثم قال : ألا أعلمك أعظم سورة في القرآن قبل أن تخرج من المسجد . فأخذ بيدي ، فلما أردنا أن نخرج قلت : يا رسول الله ، إنك قلت : [لأعلمنك] [٦]

(١) في « الأصل » : وأجره .
(٢) في « هـ » : ورغبيه .
(٣) من « هـ » .
(٤) في « الأصل » : يتعتع .
(٥) الأنفال : ٢٤ .
(٦) في « الأصل » : لأعلمك والمثبت من « هـ ، ن » .

أعظم سورة من القرآن . قال : ﴿ الحمد لله رب العالمين ﴾ هي السبع المثاني والقرآن العظيم الذي أوتيته .

وفيه أبو سعيد الخدري : كنا في مسير لنا فجاءت جارية [فقالت][(1)]: إن سيد الحي سليم وإن نفرنا غُيَّب ، فهل منكم راق ؟ فقام معها رجل ما كنا نأبنه برقية ، فرقاه فبرأ ، فأمر لنا بثلاثين شاة وسقانا لبنا ، فلما رجع قلنا له : أكنت تحسن رقية - أو كنت ترقي ؟ قال : [لا] [(1)] ما رقيت إلا بأم الكتاب . قلنا : لا تحدث شيئًا حتى نسأل النبي / - عليه السلام - [٤/ق١٩٣-ب] فقدمنا المدينة فذكرناه للنبي ﷺ قال : « وما يدريك أنها رقية ؟ اقسموا واضربوا لي بسهم » .

قال المؤلف : إن قال قائل : قوله عليه السلام : « لأعلمنك أعظم سورة من القرآن » يدل على تفاضل القرآن ، قيل [له] [(2)] : ليس كما توهمت ؛ لأنه يحتمل أن يكون معنى قوله عليه السلام : أعظم سورة في القرآن - أي أعظم نفعًا للمتعبدين - لأن أم القرآن لا تجزئ الصلاة إلا بها ، وليس ذلك لغيرها من السور ، ولذلك قيل لها : السبع المثاني؛ لأنها تثنى في كل صلاة هذا قول علي بن أبي طالب ، وأبي هريرة وغيرهما ، ويشهد لهذا قوله عليه السلام : لا صلاة إلا بفاتحة الكتاب.

وفيه قوله عليه السلام : هي السبع المثاني تفسير لقوله تعالى : ﴿ولقد آتيناك سبعًا من المثاني ﴾ [(3)] أن المراد بها فاتحة الكتاب ، وقد روي عن السلف أقوال أخر في تفسير السبع المثاني ، فروي عن ابن عباس وابن مسعود أنها السبع الطوال ؛ لأن الفرائض والقصص تثنى فيها ، ويجوز أن يكون المثاني القرآن كله كما قال تعالى : ﴿ كتابًا متشابهًا مثاني ﴾[(4)] لأن الأخبار تثنى فيه .

---

(1) من « هـ ، ن » .
(2) من « هـ » .
(3) الحجر : ٨٧ .
(4) الزمر : ٢٣ .

ومما يدل أن قوله - عليه السلام - : « لأعلمنك أعظم سورة » لا يوجب تفاضل القرآن بعضه على بعض في ذاته . قوله تعالى : ﴿ ما ننسخ من آية أو ننسها نأت بخير منها أو مثلها﴾[1] ولم يختلف أهل التأويل في أن الله - تعالى - لم يرد بقوله : ﴿ نأت بخير منها ﴾ [1] تفضيل بعض الآيات على بعض ، وإنما المراد بخير منها لعباده المؤمنين التالين لها ، إما بتخفيف و عفو ، أو بثواب على عمل ، ولو قال قائل : أيما أفضل : آية رحمة ، أو آية عذاب ، أو آية وعد ، أو آية وعيد ؟ لم يكن لهذا جواب . ومن (اختار) [2] التفاضل في القرآن فقد أوجب فيه النقص ، وأسماء الله - تعالى - وصفاته وكلامه لا نقص في شيء منها فيكون بعضه أفضل من بعض ، وكيف يجوز أن يكون [شيء] [3] من صفاته منقوصًا غير كامل وهو قادر على أن يتم المنقوص حتى يكون في غاية الكمال ، فلا يلحقه في شيء من صفاته نقص ، تعالى الله عن ذلك ، وسأزيد في بيان هذا في فضل ﴿قل هو الله أحد ﴾ .

ويحتمل قوله : لأعلمنك أعظم سورة وجهًا آخر ، وهو أن يكون أعظم بمعنى سورة عظيمة كما [قيل] [4] الله أكبر ، بمعنى : كبير ، وكما قيل في اسم الله الأعظم بمعنى : عظيم ، وقد تقدم الكلام في حديث أبي سعيد الخدري في كتاب الإجارة في باب [ما يعطى في][5] الرقية بفاتحة الكتاب [ومعنى قوله ما يدريك أنها رقية فتأمله هناك][5] .

---

(١) البقرة : ١٠٦ . (٢) في « هـ » : أجاز .

(٣) في « الأصل » : شيئًا . والمثبت من « هـ » .

(٤) في « الأصل » : قال . والمثبت من « هـ » .

(٥) من « هـ » .

وقوله : ما كنا نأبنه ، قال صاحب الأفعال : أبنت الرجل بخير أو شر نسبتهما إليه . أبنه أبنًا .

* * *

باب : فضل البقرة

فيه : أبو مسعود : قال النبي ﷺ : « من قرأ بالآيتين من آخر سورة البقرة في ليلة كفتاه » .

وفيه : أبو هريرة قال : « وكلني رسول الله ﷺ بحفظ زكاة رمضان ، فأتاني آت فجعل يحثو من الطعام فأخذته فقلت : لأرفعنك إلى رسول الله ... » فقص الحديث . فقال : « إذا أويت إلى فراشك ، فاقرأ آية الكرسي ؛ فإنه لن يزال عليك من الله حافظ ، ولا يقربك شيطان حتى تصبح ، فقال النبي ﷺ : صدقك وهو كذوب ، ذلك شيطان » .

قال المؤلف : إذا كان من قرأ الآيتين من آخر سورة البقرة كفتاه ، ومن قرأ آية الكرسي كان عليه من الله حافظ ولا يقربه شيطان حتى يصبح ، فما ظنك بمن قرأها كلها من كفاية الله له وحرزه وحمايته من الشيطان وغيره ، وعظيم ما يدخر له من ثوابها .

وقد روي هذا المعنى عن النبي - عليه السلام - وروى معمر ، عن يحيى بن أبي كثير ، عن أبي سلمة ، عن أبي أمامة قال : قال رسول الله ﷺ : « تعلموا القرآن ؛ فإنه شافع لأصحابه يوم القيامة ، تعلموا البقرة وآل عمران ، [تعلموا] [1] الزهراوين ، فإنهما تأتيان يوم

---

(١) من « هـ » .

القيامة كأنهما غمامتان أو غيايتان [أو] (١) كأنهما فرقان من طير [صواف] (٢) يحاجان عن صاحبهما ، وتعلموا البقرة فإن تعلمها [بركة] (٣) وإن في تركها حسرة ولا تطيقها البطلة » . [وقال ابن مسعود : إن الشيطان يخرج من البيت الذي يقرأ سورة البقرة فيه](٤) .

* * *

باب : [فضل] (٤) الكهف

فيه البراء : كان رجل يقرأ سورة الكهف وإلى جانبه حصان مربوط بشطنين فغشيته سحابة / فجعل يدنو وتدنو ، [وجعل] (٥) فرسه ينفر، فلما أصبح أتى النبي ﷺ فذكر ذلك له فقال : « تلك السكينة تنزلت للقرآن » . [٤/ق١٩٤-أ]

قال المؤلف : روى الثوري ، عن أبي هاشم الواسطي ، عن أبي مجلز ، عن قيس بن [عبادة] (٦) عن أبي سعيد الخدري قال : من قرأ سورة الكهف كما أنزلت ثم أدرك الدجال لم يسلط عليه ، ومن قرأ آخر سورة الكهف أضاء نوره من حيث قرأها ما بينه وبين مكة . وقال قتادة : من قرأ عشر آيات من أول سورة الكهف عصم من فتنة الدجال .

والحصان : الفحل من الخيل، والشطن : الحبل ، عن صاحب العين.

واختلف أهل التأويل في تفسير السكينة ، فروي عن عليّ بن أبي طالب أنه قال : هي ريح [هفافة] (٧) لها وجه كوجه الإنسان .

---

(١) في « الأصل » : و . (٢) في « الأصل » : صاف .
(٣) في « الأصل » : بقرة . (٤) من « هـ » .
(٥) في « الأصل » : فجعل . والمثبت من « هـ ، ن » .
(٦) في « الأصل » : عباد . (٧) في « الأصل » فقاقة .

وروي عنه [أنها] [1] ريح حجوج ولها رأسان . وقال مجاهد : السكينة لها رأس كرأس الهر وجناحان وذنب كذنب الهر . وعن [ابن عباس] [2] والربيع : هي دابة مثل الهر ، لعينيها شعاع فإذا التقى الجمعان أخرجت (يدها) [3] فنظرت إليهم فيهزم ذلك الجيش من الرعب.

وعن ابن عباس والسدي : هي طست [من] [4] ذهب من الجنة يغسل فيها قلوب الأنبياء . وعن أبي مالك : طست من ذهب ألقى موسى فيه التوراة والألواح والعصا . وعن وهب : السكينة : روح من الله تتكلم إذا اختلفوا في شيء بين لهم ما يريدون .

وعن الضحاك : السكينة : الرحمة . وعن عطاء : السكينة : ما تعرفون من الآيات فتستكينون إليها . وهذا اختيار الطبري .

وتنزل السكينة لسماع القرآن يدل على خلاف قول السدي أنها طست من ذهب ، ويشهد لصحة قول من قال : إنها روح أو شيء فيه روح ، والله أعلم .

* * *

باب : فضل سورة الفتح

فيه : عمر بن الخطاب : أنه كان يسير مع رسول الله ﷺ في بعض أسفاره ليلاً ، فسأله عمر عن شيء فلم يجبه ثلاثًا ، فقال عمر : ثكلتك أمك ، نزرت رسول الله ثلاث مرات كل ذلك لا يجيبك . قال عمر : فحركت بعيري حتى كنت أمام الناس وخشيت أن ينزل فيّ قرآن فجئت النبي فقال : « لقد أنزلت عليّ الليلة سورة ، لهي أحب إليّ مما طلعت عليه الشمس . ثم قرأ ﴿ إنا فتحنا لك فتحًا مبينًا ﴾ [5] .

---

(1) في « الأصل » : أنه . (2) في « الأصل » : العباس .

(3) في « هـ » : يديها .

(4) من « هـ » . (5) الفتح : 1 .

قال الطبري : فإن قال قائل : ما معنى قوله عليه [السلام] [(١)] : لهي أحب إليّ مما طلعت عليه الشمس ؟ أكان النبي يحب الدنيا الحب الذي يقارب حبه ، ما أخبره الله به أنه أعطاه من الكرامة ، وشرفه به من الفضيلة بقوله : ﴿ **إنا فتحنا لك فتحًا مبينًا ...** ﴾ [(٢)] الآية ، وقد علمت أن المخبر إنما أراد المبالغة في الخبر عن [رفعة] [(٣)] قدر (النبي)[(٤)] عنده على غيره أنه يجمع بين [رفيعين] [(٥)] من الأشياء عنده، وعن المخبرين به فيخبرهم عن فضل مكان أحدهما على الآخر عنده ، وقد علمت أن النبي [ﷺ لم يكن للدنيا عنده من القدر ما يعدك أدنى كرامة أكرمه الله - تعالى -] [(٦)] بها فما وجه قوله : هي أحب إليّ من الدنيا مع خساسة قدر الدنيا عنده وضعة منزلتها .

قيل : لذلك وجهان أحدهما : أن يكون معنى قوله : هي أحب إليّ مما طلعت عليه الشمس ، هي أحب إليّ من كل شيء ؛ لأنه لا شيء إلا الدنيا والآخرة ، فأخرج الخبر عن ذكر الشيء بذكر الدنيا ؛ إذ كان لا شيء سواها إلا الآخرة . والوجه الثاني: أن يكون خاطب أصحابه بذلك ، على ما قد جرى من استعمال الناس بينهم في مخاطبتهم ، من قولهم إذا أراد أحدهم الخبر عن نهاية محبته للشيء : هو أحب إليّ من الدنيا ، وما أعدل به من الدنيا شيئًا ، كما قال تعالى : ﴿ **كلا لئن لم ينته لنسفعًا بالناصية** ﴾ [(٧)] [ومعنى] [(٨)] ذلك : [النهينته] [(٩)] ولنذلنه؛ لأن الذين خوطبوا هذا الخطاب كان في [إذلالهم] [(١٠)] من أرادوا إذلاله

---

(١) ليست بالأصل .
(٢) الفتح : ١ .
(٣) في « الأصل » : رفع . والمثبت من « هـ » .
(٤) في « هـ » : الشيء .
(٥) في « الأصل » : رفعين . والمثبت من « هـ » .
(٦) من « هـ » :
(٧) العلق : ١٥ .
(٨) غير مقروءة في « الأصل » ، والمثبت من « هـ » .
(٩) في « الأصل » : لنهينه . والمثبت من « هـ » .
(١٠) في « الأصل » : إحلالهم . والمثبت من « هـ » .

السفع بالناصية ، فخاطبهم بالذي كانوا يتعارفون بينهم ، ومثله قوله عليه السلام : أحب إليّ مما طلعت عليه الشمس .

* * *

باب : فضل ﴿ قل هو الله أحد ﴾

فيه أبو سعيد : أن رجلاً سمع رجلاً يقرأ : ﴿ قل هو الله أحد ﴾ يرددها، فلما أصبح جاء إلى النبي - عليه السلام - فذكر ذلك له ، وكأن الرجل يتقالها ، فقال رسول الله ﷺ : « والذي نفسي بيده ، إنها لتعدل ثلث القرآن » .

وقال أبو سعيد في حديثه مرة : إن النبي ﷺ قال لأصحابه : « أيعجز أحدكم أن يقرأ ثلث القرآن في ليلة ؟ فشق ذلك عليهم وقالوا : أينا يطيق ذلك يا رسول الله ؟ قال : الله الواحد الصمد ثلث القرآن / . [٤/ق١٩٤-ب]

اختلف العلماء في معنى قوله : إنها لتعدل ثلث القرآن ، فقال أبو الحسن بن القابسي : لعل الرجل الذي بات يردد **﴿ قل هو الله أحد﴾** كانت منتهى حفظه ، فجاء يقلل عمله ، فقال له النبي ﷺ : إنها لتعدل ثلث القرآن ترغيبًا له في عمل الخير وإن قل ، ولله - تعالى - أن يجازي عبدًا على يسير بأفضل مما يجازي آخر على كثير ، وقال غيره: معنى قوله : إنها تعدل ثلث القرآن أن الله جعل القرآن ثلاثة أجزاء : أحدها : القصص والعبر والأمثال ، والثاني : الأمر والنهي والثواب والعقاب ، والثالث : التوحيد والإخلاص ، وتضمنت هذه السورة صفة توحيده تعالى وتنزيهه عن الصاحبة [والوالد] (١) والولد، فجعل لقارئها من الثواب كثواب من قرأ ثلث القرآن .

---

(١) من « هـ » .

واحتجوا بحديث أبي الدرداء أن النبي - عليه السلام - قال لأصحابه : أيعجز أحدكم أن يقرأ كل ليلة ثلث القرآن ؟ قالوا : نحن أعجز . قال : إن الله جزء القرآن فجعل ﴿ **قل هو الله أحد** ﴾ جزءًا من أجزاء القرآن .

قال المهلب : وحكاه عن الأصيلي - وهو مذهب الأشعري وأبي بكر بن الطيب ، وابن أبي زيد والداودي ، وابن القابسي وجماعة علماء السنة : أن القرآن لا يفضل بعضه على بعض ؛ إذ كله كلام الله وصفته ، وهو غير مخلوق ، ولا يجوز التفاضل إلا في المخلوقات ؛ لأن المفضول ناقص عن درجة الفاضل [وصفات الله - تعالى - لا نقص فيها ؛ ولذلك لم يجز فيها التفاضل] (١) وقد قال إسحاق بن منصور : سألت إسحاق بن راهويه عن هذا الحديث فقال لي : معناه: أن الله جعل لكلامه فضلاً على سائر الكلام ، ثم فضل بعض كلامه على بعض بأن جعل لبعضه ثوابًا أضعاف ما جعل لبعض تحريضًا منه عليه السلام على تعليمه وكثرة قراءته ، وليس معناه : أنه لو قرأ : ﴿**قل هو الله أحد**﴾ ثلاث مرات ، كان كأنه قرأ القرآن كله ، ولو قرأها أكثر من مائتي مرة .

* * *

باب : المعوذات

فيه عائشة : كان النبي ﷺ إذا اشتكى يقرأ على نفسه بالمعوذات وينفث، فلما اشتد وجعه كنت أقرأ عليه وأمسح بيده رجاء بركتها ، وقالت أيضًا: كان النبي ﷺ إذا آوى إلى فراشه كل ليلة جمع كفيه ثم نفث فيهما فقرأ فيهما : ﴿ قل هو الله أحد ﴾ والمعوذات ثم يمسح بهما ما استطاع من جسده ، يبدأ بهما على رأسه ووجهه وما أقبل من جسده

---

(١) من « هـ » .

يفعل ذلك ثلاث مرات . وقد تقدم حديث عائشة في كتاب الطب في باب الرقى بالمعوذات . ودل فعل النبي - عليه السّلام - في رقية نفسه عند شكواه وعند نومه متعوذًا بهما على عظيم البركة في الرقى بهما ، والتعوذ بالله من كل ما يخشى في النوم ، وقد روى عبد الرزاق ، عن الثوري ، عن إسماعيل بن أبي خالد ، عن قيس بن أبي حازم ، عن عقبة بن عامر قال : قال النبي - عليه السلام - : أنزل عليّ آيات لم أسمع بمثلهن : المعوذتين . وقال عقبة في حديثه مرة أخرى : قال لي النبي ﷺ : ﴿ قل هو الله أحد ﴾ و ﴿قل أعوذ برب الفلق ﴾ و ﴿ قل أعوذ برب الناس ﴾ تعوذ بهن ، فإنه لم يتعوذ بمثلهن قط .

وقد تقدم في كتاب المرضى في باب النفث [في الرقية] [1] من كره النفث من العلماء في الرقية ومن أجازه .

* * *

باب : نزول السكينة والملائكة عند القراءة

وفيه : محمد بن إبراهيم أن أسيد بن حضير بينا هو يقرأ من الليل سورة البقرة وفرسه مربوطة عنده ؛ إذ جالت الفرس ، فسكت فسكتت ، ثم قرأ فجالت ثم انصرف ، وكان ابنه يحيى قريبًا منها فأشفق أن تصيبه، فلما أصبح حدث النبي ﷺ فقال : « اقرأ يا بن حضير ، قال : أشفقت يا رسول الله أن تطأ يحيى وكان منها قريبًا ، فرفعت رأسي إلى السماء فإذا مثل الظلة فيها أمثال المصابيح ، فخرجت حتى لا أراها . قال : وتدري ما ذاك ؟ قال : لا . قال : تلك الملائكة دنت لصوتك ، ولو قرأت لأصبحت ينظر الناس إليها لا تتوارى منهم » .

---

(١) من « هـ » .

في هذا الحديث أن أسيد بن خضير رأى مثل الظلة فيها أمثال المصابيح فقال النبي ﷺ : تلك الملائكة تنزلت للقرآن ، وقال عليه السلام في حديث البراء في سورة الكهف : تلك السكينة نزلت [للقرآن] (١) . فمرة أخبر ﷺ عن نزول السكينة ، ومرة أخرى عن نزول الملائكة ، فدل على أن السكينة كانت في تلك الظلة وأنها تنزل أبدًا مع الملائكة ، والله أعلم ، ولذلك ترجم البخاري باب نزول السكينة والملائكة عند القراءة .

[٤/ق١٩٥-أ] و (٢) في هذا الحديث أن الملائكة تحب أن تسمع القرآن / [من بني آدم لا سيما قراءة المحسنين منهم ، وكان أسيد بن حضير حسن الصوت بالقرآن] (٣) ودل قوله ﷺ لأسيد : لو قرأت لأصبحت تنظر الناس إليها لا تتوارى منهم على حرص الملائكة على سماع كتاب الله من بني آدم . [وقد جاء] (٤) في الحديث أن البيت الذي يقرأ فيه القرآن يضيء لأهل السماء كما يضيء النجم لأهل [الأرض] (٥) [و] (٣) تحضره الملائكة ، وهذا كله ترغيب في حفظ القرآن ، وقيام الليل به ، وتحسين قراءته .

وفيه جواز رؤية بني آدم للملائكة إذا تصورت في صورة يمكن للآدميين رؤيتها ، كما كان جبريل ﷺ يظهر للنبي ﷺ في صورة رجل فيكلمه ، وكثيرًا كان يأتيه في صورة دحية الكلبي [وقد تقدم في باب الكهف تفسير السكينة بما أغنى عن إعادته] (٣) .

وقوله : « لو قرأت لأصبحت ينظر الناس إليها لا تتوارى منهم » حجة لمن قال : إن السكينة روح أو شيء فيه روح ؛ لأنه لا يصح حب استماع القرآن إلا لمن يعقل .

* * *

(١) في « الأصل » : القرآن . والمثبت من « هـ » .
(٢) في « الأصل » : والقراءة . والمثبت من « هـ » .
(٣) من « هـ » .
(٤) في « الأصل » : ويدخل . والمثبت من « هـ » .
(٥) في « الأصل » : للأرض . والمثبت من « هـ » .

باب : من قال : لم يترك النبي ﷺ إلا ما بين الدفتين

فيه ابن عباس أنه سئل : هل ترك النبي ﷺ من شيء ؟ قال : ما ترك إلا ما بين الدفتين ، [و] [1] عن محمد بن الحنفية مثله .

* * *

باب : الوصاة بكتاب الله

فيه : طلحة أنه سأل عبد الله بن أبي أوفى : أوصى النبي - عليه السلام؟ قال : لا . قلت : كيف كتب على الناس الوصية ، أمروا بها ولم يوص ؟ قال : أوصى بكتاب الله .

هذان البابان يردان قول من زعم أن النبي ﷺ أوصى إلى أحد ، وأن علي بن أبي طالب الوصي ، وكذلك قال علي بن أبي طالب حين سئل عن ذلك فقال : ما عندنا إلا كتاب الله وما في هذه الصحيفة ، [لصحيفة] [1] مقرونة بسيفه ، فيها العقل وفكاك الأسير ، ولا يقتل [مؤمن][2] بكافر ، وقد تقدم [ذلك في غير موضع] [1] .

* * *

باب : فضل القرآن على سائر الكلام

فيه : أبو موسى : قال النبي ﷺ : مثل الذي يقرأ القرآن كمثل الأترجة طعمها طيب وريحها طيب ، والذي لا يقرأ القرآن كالتمرة طعمها طيب ولا ريح لها ، والفاجر الذي يقرأ القرآن كمثل الريحانة ريحها طيب وطعمها مر ، ومثل الفاجر الذي لا يقرأ القرآن كمثل الحنظلة طعمها مر ولا ريح لها .

---

(١) من « هـ » .
(٢) في « الأصل » : مسكلم . والمثبت من « هـ » .

وفيه ابن عمر : قال النبي - عليه السلام - : إنما أجلكم فيما خلا من الأمم كمثل ما بين صلاة العصر ومغرب الشمس ، ومثلكم ومثل اليهود والنصارى كمثل رجل استعمل عمالاً فقال : من يعمل لي إلى نصف النهار على [قيراط] (١) ؟ فعملت اليهود ، فقال : من يعمل لي من نصف النهار إلى العصر على قيراط ؟ فعملت النصارى ، ثم أنتم تعملون من العصر إلى المغرب بقيراطين قيراطين . قالوا : نحن أكثر عملاً وأقل عطاء . قال : هل ظلمتكم من حقكم ؟ قالوا : لا . قال : فذلك فضلي أوتيه من شئت.

قال المؤلف : وجه ذكر البخاري لهذين الحديثين في هذا الباب هو أنه لما كان ماجمع طيب الريح وطيب المطعم أفضل المأكولات ، وشبه النبي المؤمن الذي يقرأ القرآن بالأترجة التي جمعت طيب الريح وطيب المطعم ؛ دل ذلك أن القرآن أفضل الكلام ، ودل هذا الحديث على مثل القرآن وحامله والعامل به والتارك له ، وكذلك حديث ابن عمر ، لما كان المسلمون أكثر أجرًا من أهل التوراة وأهل الإنجيل دل ذلك على فضل القرآن على التوراة والإنجيل ؛ لأن المسلمين إنما [استحقوا](٢) هذه الفضيلة بالقرآن الذي فضلهم الله به ، وجعل فيه للحسنة عشر أمثالها وللسيئة واحدة ، وتفضل عليهم بأن أعطاهم على تلاوته لكل حرف عشر حسنات كما قال ابن مسعود ، وقد أسنده عن النبي أيضًا، وقد وردت آثار كثيرة في فضائل القرآن والترغيب في قراءته .

روى سفيان [عن عاصم ، عن زر] (٣) عن عبد الله بن عمرو ، عن النبي - عليه السلام - قال : « يقال لصاحب القرآن : اقرأ وارتقِ ورتل كما كنت ترتل في الدنيا ؛ فإن منزلتك عند آخر آية تقرؤها » .

---

(١) في « الأصل » : قيراطين . والمثبت من « هـ ، ن » .
(٢) في « الأصل » : يستحقوا . والمثبت من « هـ » . (٣) من « هـ » .

وقالت عائشة : جعلت درج الجنة على عدد آي القرآن ، فمن قرأ ثلث القرآن كان على الثلث من درج الجنة ، ومن قرأ نصفه كان على النصف من درج الجنة ، ومن قرأ القرآن كله كان في عليه لم يكن فوقه أحد إلا نبي أو صديق أو شهيد .

وروى أبو قبيل ، عن عبد الله بن عمرو قال : قال رسول الله ﷺ: إن القرآن والصيام يشفعان يوم القيامة لصاحبهما ، فيقول الصيام : يا رب ، إني / منعته الطعام والشراب فشفعني فيه ، ويقول القرآن : [٤/ق١٩٥-ب] يارب ، إني منعته النوم بالليل فشفعني فيه فيشفعان فيه .

وروى أبو نعيم ، عن بشير بن المهاجر ، عن عبد الله بن بريدة ، عن أبيه قال : كنت جالسًا عند النبي - عليه السلام - فسمعته يقول : إن القرآن يلقى صاحبه يوم القيامة حين ينشق عنه قبره كالرجل الشاب فيقول : هل تعرفني ؟ فيقول : ما أعرفك . فيقول : أنا صاحبك القرآن الذي أظمأتك في الهواجر وأسهرت [ليلك] [١] ، وإن كل تاجر من وراء تجارته ، وإنك من وراء كل تجارة ، فيعطى الملك بيمينه والخلد بشماله، ويوضع على رأسه تاج الوقار ، ويكسى والداه حلتين لا تقوم لهما الدنيا ، فيقولان : بما [كسينا] [٢] هذا ؟ [فيقال لهما][٣] : بأخذ ولدكما القرآن ، ثم يقال : اقرأ واصعد في درج الجنة وغرفها ، فهو في صعود ما دام يقرأ هذا كان أو ترتيلاً .

وقال ابن عباس : من قرأ القرآن لم يرد إلى أرذل العمر .

* * *

(١) في « الأصل » : ليلتك . والمثبت من « هـ » .
(٢) في « الأصل » : كسيتنا . والمثبت من « هـ » .
(٣) في « الأصل » : فيقول . والمثبت من « هـ » .

باب : من لم يتغن بالقرآن وقوله تعالى : ﴿ أو لم يكفهم أنا أنزلنا عليك الكتاب يتلى عليهم ﴾ (١)

فيه أبو هريرة : قال النبي - عليه السلام - : لم يأذن الله لشيء ما أذن لنبي يتغنى بالقرآن ، وقال صاحب له : يريد يجهر به ، وقال مرة : ما أذن لنبي ما أذن للنبي ﷺ أن يتغنى بالقرآن . قال سفيان : تفسيره يستغني به. وذكر في كتاب الاعتصام حديث أبي هريرة عن النبي ﷺ قال : ليس منا من لم يتغن بالقرآن . وزاد غيره : يجهر به ، ذكره في باب قوله تعالى : ﴿وأسروا قولكم أو اجهروا به ﴾ (٢) .

واختلف الناس في معنى التغني بالقرآن ؛ ففسره ابن عيينة على أن المراد به الاستغناء ، الذي هو ضد الافتقار ، ورواه عن [سعد] (٣) ابن أبي وقاص ، ذكر الحميدي ، عن سفيان ، حدثنا ابن جريج ، عن ابن أبي مليكة، عن عبد الله بن أبي نهيك قال : لقيني سعد بن أبي وقاص في السوق [فقال] (٤) : أتجار كسبة ، سمعت رسول الله ﷺ يقول : ليس منا من لم يتغن بالقرآن .

وهكذا فسره وكيع ، ومن تأول هذا التأويل كره قراءة القرآن بالألحان والترجيع . روي ذلك عن أنس بن مالك وسعيد بن المسيب، والحسن ، وابن سيرين ، وسعيد بن جبير والنخعي ، وقال النخعي : كانوا يكرهون القراءة بتطريب ، وكانوا إذا قرأوا القرآن قرأوه حدراً ترتيلاً بحزن ، وهو قول مالك : روى ابن القاسم عنه أنه سئل عن الإلحان في الصلاة فقال : لا يعجبني - وأعظم القول فيه - وقال : إنما هو غناء يتغنون به ليأخذوا عليه الدراهم .

---

(١) العنكبوت : ٥١ . (٢) الملك : ١٣ .

(٣) في « الأصل » : سعيد . والمثبت من « هـ » .

(٤) من « هـ » .

وقد روي عن ابن عيينة [وجه] [1] آخر ، ذكره إسحاق بن راهويه قال : كان ابن عيينة يقول : معنى قوله عليه السلام : ما أذن الله لشيء ما أذن لنبي أن يتغنى بالقرآن . يريد يستغني به عما سواه من الأحاديث .

وقالت طائفة : معنى التغني بالقرآن : تحسين الصوت به والترجيع بقراءته ، والتغني بما شاء من الأصوات واللحون وهو معنى قوله : وقال صاحب له يريد : يجهر به . قال الخطابي : والعرب تقول : سمعت فلانا يغني بهذا الحديث - أي يجهر به - ويصرح لا يكني . وقال أبو عاصم : أخذ بيدي ابن جريج ووقفني على أشعب الطماع وقال : عن ابن أخي ، ما بلغ من طمعكم ؟ قال : ما زفت امرأة بالمدينة إلا كشحت بيتي رجاء أن تهدي إليّ . يقول أخبر ابن أخي بذلك مجاهداً غير مساتر ومنه قول [ذي] [2] الرمة :

أحب المكان القفر من أجل أنني   بهـــا أتغنى باسمها غير معجم

أي أجهر بالصوت بذكرها ، لا أكني عنها حذار كاشح أو خوف رقيب.

قال المؤلف : ذكر عمر بن شبة قال : ذكرت لأبي عاصم النبيل تأويل ابن عيينة في قوله عليه السلام : يتغنى بالقرآن : يستغني به . فقال: لم يصنع ابن عيينة شيئاً ، حدثنا ابن جريج ، عن عطاء، عن عبيد ابن عمير قال: كانت لداود نبي الله معزفة يتغنى عليها وتبكي ويبكي.

وقال ابن عباس : إنه كان يقرأ الزبور بسبعين لحناً ، يلون فيهن ، ويقرأ قراءة يطرب منها المحموم ، فإذا أراد أن يبكي نفسه لم تبق دابة في بر أو بحر إلا أنصتن يسمعن ويبكين .

---

(١) في « الأصل » : وجهًا . والمثبت من « هـ » .
(٢) في « الأصل » : ذو . والمثبت من « هـ » .

ومن الحجة لهذا القول أيضًا حديث ابن معقل في وصف قراءة رسول الله وفيه « ثلاث مرات » وهذا غاية الترجيع ذكره البخاري في كتاب الاعتصام / وسئل الشافعي عن تأويل ابن عيينة فقال : نحن أعلم بهذا ، لو أراد عليه السلام الاستغناء لقال : من لم يستغن بالقرآن . ولكن لما [قال] [1] عليه السلام : يتغن بالقرآن . علمنا أنه أراد به التغني ، وكذلك فسر ابن أبي مليكة التغني أنه تحسين الصوت به، وهو قول ابن المبارك والنضر بن شميل .

[٤/١٩٦ق-أ]

ومن [أجاز] [2] الإلحان في القراءة : ذكر الطبري عن عمر بن الخطاب أنه كان يقول لأبي موسى ذكرنا ربنا ، فيقرأ أبو موسى ويتلاحن . وقال مرة : من استطاع أن يغني بالقرآن غناء أبي موسى فليفعل . وكان عقبة بن عامر من أحسن الناس صوتًا بالقرآن . فقال له عمر : اعرض عليّ سورة كذا ، فقرأ عليه فبكى عمر وقال : ما كنت أظن أنها نزلت .

وأجازه ابن عباس وابن مسعود، وروي عن عطاء بن أبي رباح ، واحتج بحديث عبيد بن عمير، وكان عبد الرحمن بن الأسود بن يزيد يتتبع الصوت الحسن في المساجد في شهر رمضان . وذكر الطحاوي عن أبي حنيفة وأصحابه أنهم كانوا يسمعون القرآن بالألحان ، وقال محمد بن عبد الحكم : رأيت أبي والشافعي ويوسف بن عمير يسمعون القرآن بالألحان . واحتج الطبري لهذا القول ، وقال : الدليل على أن معنى الحديث : تحسين الصوت والغناء المعقول الذي هو تحزين القارئ سامع قراءته ، كما الغناء بالشعر هو الغناء المعقول الذي يطرب السامع ؛ ما روى سفيان عن الزهري عن أبي سلمة عن أبي هريرة أن النبي – عليه السلام – قال: « ما أذن [الله] [3] لشيء ما أذن لنبي

(١) في « الأصل » : كان . والمثبت من « هـ » .

(٢) في « الأصل » : اختار . والمثبت من « هـ » . (٣) من « هـ » .

حسن الترنم بالقرآن » ، ومعقول عند ذوي [الحجا] [١] أن الترنم لا يكون إلا بالصوت إذا حسنه المترنم وطرب به . وروي في هذا الحديث: ما أذن الله لشيء ما أذن لنبي حسن الصوت يتغنى بالقرآن يجهر به ، رواه يزيد بن الهاد عن محمد بن إبراهيم عن أبي سلمة عن أبي هريرة عن النبي - عليه السلام - . قال الطبري : وهذا الحديث أبين البيان أن ذلك كما قلنا ، ولو كان كما قال ابن عيينة لم يكن كذلك ، وحسن الصوت والجهر به معني . والمعروف في كلام العرب أن التغني إنما هو الغناء الذي هو حسن الصوت بالترجيع ، وقال الشاعر :

تغن بالشـــعر أما كنت قائله إن الغناء لهذا الشعر مضمار

قال : وأما ادعاء الزاعم أن تغنيت بمعنى استغنيت فاش في كلام العرب وأشعارها ، فلا نعلم أحدًا من أهل العلم بكلام العرب قاله ، وأما احتجاجه ليصح قوله بقول الأعشى :

وكـــنت امرأً زمنًا بالعراق عفيف المناخ طويل التغن

وزعم أنه أراد بقوله : طويل التغن : طويل الاستغناء ، أي الغنى، فإنه غلط ، وإنما عنى الأعشى بالتغني في هذا الموضع الإقامة من قول العرب : غني فلان بمكان كذا إذا أقام به ، ومنه قوله تعالى : ﴿ **كأن لم يغنوا فيها** ﴾ [٢] ، وأما استشهاده بقوله :

كلانا غني عن أخيه حياته ونـحن إذا متنا أشد تغانيا

فإنه إغفال منه ، وذلك أن التغاني تفاعل من نفسين ، إذا استغنى كل واحد منهما عن صاحبه كما يقال : تضارب الرجلان إذا ضرب كل واحد منهما صاحبه ، وتشاتما وتقاتلا، ومن قال هذا القول في فعل اثنين لم يجز أن يقول مثله في فعل الواحد ، [و] [١] غير جائز

(١) من « هـ » . (٢) الأعراف : ٩٢ .

أن يقال : تغانى زيد وتضارب عمرو ، وكذلك غير جائز أن يقال : تغنى زيد بمعنى استغنى ، إلا أن يريد قائله أنه أظهر الاستغناء وهو به غير مستغنٍ كما يقال : تجلد فلان إذا أظهر الجلد من نفسه ، وهو غير جليد ، وتشجع وهو غير شجاع ، وتكرم وهو غير كريم ، فإن وجه [موجه] [١] الغنى بالقرآن [إلى هذا المعنى] [٢] على بعده من [مفهوم] [٢] كلام العرب كانت المصيبة في خطابه في ذلك أعظم ؛ لأنه لا يوجب ذلك من تأويله أن يكون الله تعالى [لم] [٣] يأذن لنبيه أن يستغني بالقرآن ، وإنما أذن له أن يظهر للناس من نفسه خلاف ما هو به من الخلال ، وهذا لا يخفى فساده .

قال : ومما يبين فساد تأويل ابن عيينة أيضًا ألا يستغني عن الناس بالقرآن . من المحال أن يوصف أحد بأنه يؤذن له فيه أو لا يؤذن إلا أن يكون الإذن عند ابن عيينة بمعنى الإذن الذي هو إطلاق وإباحة ، فإن كان كذلك فهو غلط من وجهين : أحدهما : من اللغة ، والثاني: من إحالة المعنى عن وجهه / ، فأما اللغة فإن الإذن مصدر قوله أذن فلان لكلام فلان ، فهو يأذن له إذا استمع له وأنصت ، كما قال تعالى : ﴿**وأذنت لربها وحقت**﴾ [٤] بمعنى : سمعت لربها [وحق] [٥] لها ذلك كما قال عدي بن يزيد : [٤/ق١٩٦-ب]

إن همي في سماع وأذن

بمعنى : في سماع واستماع . فمعنى قوله : ما أذن الله لشيء إنما هو ما استمع الله إلى شيء من كلام الناس ما استمع إلى نبي يتغنى بالقرآن .

وأما الإحالة في المعنى فلأن الاستغناء بالقرآن عن الناس غير جائز وصفه بأنه مسموع ومأذون له .

---

(١) في « الأصل » : متوجه . والمثبت من « هـ » . (٢) من « هـ » .
(٣) في « الأصل » : أن . (٤) الانشقاق : ٢ .
(٥) في « الأصل » : فيحق . والمثبت من « هـ » .

قال المؤلف : وقد رفع الإشكال في هذه المسألة أيضًا ما رواه ابن أبي شيبة قال : حدثنا يزيد بن الحباب قال : حدثنا موسى بن علي بن رباح عن أبيه عن عقبة بن عامر قال : قال رسول الله ﷺ : « تعلموا القرآن وتغنوا به واكتبوه ، فوالذي نفسي بيده لهو أشد تقصيًا من المخاض من العقل » .

وذكر أهل التأويل في قوله تعالى : ﴿ **أو لم يكفهم أنا أنزلنا عليك الكتاب يتلى عليهم** ﴾ (١) أن هذه الآية نزلت في قوم أتوا النبي بكتاب فيه خبر من أخبار الأمم . [فالمراد بالآية الاستغناء بالقرآن عن علم أخبار الأمم] (٢) على ما ذكره إسحاق بن راهويه عن ابن عيينة ، وليس المراد بالآية الاستغناء الذي هو ضد الفقر وإتباع البخاري الترجمة بهذه الآية يدل أن هذا كان مذهبه في الحديث ، والله أعلم .

[وسيأتي شيء من هذا المعنى في آخر كتاب الاعتصام في باب ذكر النبي ﷺ وروايته عن ربه عز وجل ، وفي باب قول النبي ﷺ : الماهر بالقرآن مع الكرام البررة إن شاء الله - عز وجل] (٣) .

* * *

باب : اغتباط صاحب القرآن

فيه ابن عمر : سمعت النبي - عليه السلام - قال : « لا حسد إلا على اثنتين : رجل آتاه الله الكتاب وقام به آناء الليل ، ورجل أعطاه الله مالاً فهو يتصدق به آناء الليل والنهار » .

وفيه : أبو هريرة : قال عليه السلام : « لا حسد إلا في اثنتين : رجل علمه

---

(١) العنكبوت : ٥١ . (٢) من « هـ » .

(٣) في « الأصل » : وسيأتي في كتاب الاعتصام منه . والمثبت من « هـ » .

الله القرآن فهو يتلوه آناء الليل [وآناء][1] النهار ، فسمعه جار له فقال : ليتني أوتيت مثل ما أوتي فلان فعملت مثل ما يعمل ، ورجل آتاه الله مالاً فهو يهلكه في الحق ؛ فقال رجل : ليتني أوتيت مثل ما أوتي فلان فعملت مثل ما يعمل » .

قال المؤلف : ذكر أبو عبيد بإسناده عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال : من جمع القرآن فقد حمل أمرًا عظيمًا ، وقد استدرجت النبوة بين جنبيه إلا أنه لا يوحى إليه ، فلا ينبغي لصاحب القرآن أن يرفث فيمن يرفث ولا يجهل فيمن يجهل ، وفي جوفه كلام الله .

وقال سفيان بن عيينة : من أعطي القرآن فمد عينيه إلى شيء مما صغر القرآن فقد خالف القرآن ، ألم يسمع قوله عز وجل : ﴿ **ولقد آتيناك سبعًا من المثاني والقرآن العظيم ...** ﴾ [3] الآية . قال : يعني القرآن ، وقوله عز وجل : ﴿ **تتجافى جنوبهم عن المضاجع يدعون ربهم خوفًا** ﴾ [4] الآية . قال : هو القرآن .

قال أبو عبيد : ومن ذلك قول النبي - عليه السلام - : « ما أنفق عبد من نفقة أفضل من نفقة في قول » . ومنه قول شريح لرجل سمعه يتكلم فقال له : أمسك عليك نفقتك . وفي حديث ابن عمر وأبي هريرة : أن حامل القرآن ينبغي له القيام به آناء الليل والنهار ، ومن فعل ذلك فهو الذي يحسد على فعله فيه ، وكذلك من آتاه الله مالاً وتصدق به آناء الليل والنهار، فهو المحسود عليه، ومن لم يتصدق به وشح عليه فلا ينبغي حسده عليه لما يجتني من سوء عاقبته وحسابه [عليه][5] .

* * *

(١) في « الأصل » : وأطراف . والمثبت من « هـ ، ن » .
(٣) الحجر : ٨٧ . (٤) السجدة : ١٦ .
(٥) في « الأصل » : عنه . والمثبت من « هـ » .

باب : خيركم من تعلم القرآن وعلمه

فيه : عثمان عن النبي – عليه السلام – قال : « خيركم من تعلم القرآن وعلمه » .

قال أبو عبد الرحمن : وذلك الذي أقعدني مقعدي هذا ، وقال مرة : إن أفضلكم من تعلم القرآن وعلمه .

وفيه : سهل بن سعد : « أن امرأة أتت النبي – عليه السلام – فقالت : إني قد وهبت نفسي لله ولرسوله الحديث ، فقال رجل : زوجنيها إلى قوله : قد زوجتكها بما معك من القرآن .

قال المؤلف : حديث عثمان يدل أن قراءة القرآن أفضل أعمال البر كلها ؛ لأنه لما كان من تعلم القرآن أو علمه أفضل الناس وخيرهم دل ذلك على ما قلناه ؛ لأنه [إنما] [1] وجبت له الخيرية والفضل من أجل القرآن ، وكان له فضل التعليم جاريًا ما دام كل من [علمه] [2] تاليًا . وحديث سهل إنما ذكره في هذا الباب ؛ لأنه زوجه المرأة لحرمة القرآن .

ومما روي في فضل تعلم القرآن وحمله ما ذكره أبو عبيد من حديث عقبة بن عامر / قال : خرج علينا رسول الله ونحن في الصفة ، [٤/ق١٩٧-أ] فقال: « أيكم يحب أن يغدو كل يوم إلى بطحان أو العقيق فيأخذ ناقتين كوماوين زهراوين في غير إثم ولا قطيعة رحم . قلنا : كلنا يا رسول الله نحب ذلك . قال : فلأن بعد يغدو أحدكم [كل يوم] [3] إلى المسجد فيتعلم آيتين من كتاب الله [خير له] [3] من ناقتين ومن ثلاث ومن أعدادهن من الإبل .

وذكر عن كعب الأحبار أن في التوراة أن الفتى إذا تعلم القرآن وهو حديث السن وعمل به وحرص عليه وتابعه ؛ خلطه الله بلحمه

---

(١) في « الأصل » : لما . والمثبت من « هـ » .

(٢) في « الأصل » : عمله . والمثبت من « هـ » .

(٣) من « هـ » .

ودمه وكتبه عنده من السفرة الكرام البررة ، وإذا تعلم الرجل القرآن وقد دخل في السن وحرص عليه ، وهو في ذلك يتابعه وينفلت منه كتب له أجره مرتين .

وروي عن الأعمش قال : مر أعرابي بعبد الله بن مسعود وهو يقرئ قومًا القرآن فقال : ما يصنع هؤلاء ؟ فقال ابن مسعود : يقتسمون ميراث محمد ﷺ . وقال عبد الله بن عمرو : عليكم بالقرآن ، فتعلموه وعلموه أبناءكم ، فإنكم عنه تسألون ، وبه تجزون ، وكفى به واعظًا لمن عقل . وقال ابن مسعود : لا يسأل أحد عن نفسه غير القرآن ، فإن كان يحب القرآن فإنه يحب الله ورسوله ، وعن أنس عن النبي - عليه السلام - قال : إن لله أهلين من الناس . قيل : من هم يا رسول الله ؟ قال : هم أهل القرآن ، أهل الله وخاصته .

* * *

باب : القراءة (على) [١] ظهر (قلبه) [٢]

فيه : سهل بن سعد ، وذكر حديث الموهوبة ، فقال النبي ﷺ للرجل : «ماذا معك من القرآن ؟ قال : معي سورة كذا وسورة كذا [وسورة كذا][٣] . قال : أتقرؤهن عن ظهر قلبك ؟ قال : نعم . فقال : اذهب فقد ملكتكها بما معك من القرآن » .

قال المؤلف : هذا الحديث يدل على خلاف ما تأوله الشافعي في إنكاح النبي ﷺ الرجل بما معه من القرآن ، أنه إنما زوجه إياها بأجرة تعليمها . وقوله في هذا الحديث : [أتقرؤهن] [٤] عن ظهر قلبك ؟ قال : نعم. فزوجه لذلك . فدل أنه عليه السلام إنما زوجها منه لحرمة استظهاره

---

(١) في « هـ ، ن » : عن .　　(٢) في « ن » : القلب .
(٣) من « هـ ، ن » .　　(٤) من « هـ » .

للقرآن . وقد روي عن النبي - عليه السلام - تعظيم حامل القرآن وإجلاله وتقديمه . ذكر أبو عبيد من حديث طلحة بن عبيد الله بن [كريز] [1] قال : قال رسول الله ﷺ : « إن من تعظيم جلال الله إكرام ثلاثة : الإمام المقسط ، وذي الشيبة المسلم ، وحامل القرآن » .

وكان صلى الله عليه يأمر يوم أحد بدفن الرجلين والثلاثة في قبر واحد ، ويقول : قدموا أكثرهم قرآنًا . وقد روي عن النبي - عليه السلام - أنه أمر بالقراءة في المصحف نظرًا من حديث زيد بن أسلم عن عطاء بن يسار عن أبي سعيد الخدري قال : قال رسول الله ﷺ : «أعطوا أعينكم حظها من العبادة ، قالوا : يا رسول الله ، وما حظها من العبادة؟ قال : النظر في المصحف والتفكر فيه ، والاعتبار عند عجائبه » .

وقال يزيد بن أبي حبيب : من قرأ القرآن في المصحف خفف عن والديه العذاب وإن كانا كافرين . وعن عبد الله بن حسان قال : اجتمع اثنا عشر من أصحاب رسول الله ﷺ على أن من أفضل العبادة قراءة القرآن نظرًا ، وقال أسد بن وداعة : ليس من العبادة شيء أشد على الشيطان من قراءة القرآن [نظرًا] [2] . وقال وكيع : قال الثوري: سمعنا أن تلاوة القرآن في الصلاة أفضل من تلاوته في غير الصلاة ، وتلاوة القرآن أفضل من الذكر ، والذكر أفضل من الصدقة، والصدقة أفضل من الصوم ، والقراءة في المصحف أحسن من القراءة ظاهرًا ؛ لأنها رياء . هذه الآثار من رواية ابن وضاح .

* * *

باب : استذكار القرآن وتعاهده

فيه ابن عمر قال : قال النبي - عليه السلام - : « إنما مثل صاحب القرآن كمثل صاحب الإبل المعقلة إن عاهد/ عليها أمسكها [وإن أطلقها ذهبت ». [٤/ق١٩٧-ب]

---

(١) في « الأصل » : كوثر . والمثبت من « هـ » .

(٢) في « الأصل » : نظر . والمثبت من « هـ » .

وفيه : ابن مسعود عن النبي ﷺ : استذكروا القرآن ، فإنه أشد تفصيًا من صدور الرجال من النعم من عقلها ، ورواه أبو موسى عن النبي ﷺ ، وقال : تعاهدوا القرآن .

قال المؤلف : إنما شبه ﷺ صاحب القرآن بصاحب الإبل المعقلة إن عاهد عليها أمسكها] [1] [وأنه] [2] يتفصى من صدور الرجال ؛ لقوله تعالى : ﴿ **إنا سنلقي عليك قولاً ثقيلاً** ﴾ [3] فوصفه تعالى : بالثقل ، ولولا ما أعان عباده على حفظه ما حفظوه ، فقال : ﴿**إن علينا جمعه وقرآنه** ﴾ [4] ، وقال : ﴿ **ولقد يسرنا القرآن للذكر**﴾[5] . فبتيسير الله وعونه لهم عليه بقي في صدورهم ، فهذان الحديثان يفسران آيات التنزيل ؛ فكأنه قال تعالى : ﴿ **إن علينا جمعه وقرآنه** ﴾ [4] ، ﴿**ولقد يسرنا القرآن للذكر** ﴾ [5] إذا تعوهد وقرئ أبدًا وتذكر .

وقوله : أشد تفصيًا ، أي تفلتًا ، قال صاحب العين : فصى اللحم عن العظم إذا انفسخ ، والإنسان يتفصى من الشيء إذا تخلص منه ، والاسم الفصية .

* * *

باب : القرآن على الدابة

فيه ابن معقل : رأيت النبي - عليه السلام - يوم فتح مكة وهو يقرأ على راحلته سورة الفتح .

إنما أراد بهذا الباب - والله أعلم - ليدل أن القراءة على الدابة سنة موجودة، وأصل هذه السنة في كتاب الله تعالى ، وهو قوله :

---

(١) من « هـ » .
(٢) في « الأصل » : وأنها . والمثبت من « هـ » .
(٣) المزمل : ٥ .
(٤) القيامة : ١٧ .
(٥) القمر : ١٧ وغيرها .

﴿ لتستووا على ظهوره ثم تذكروا نعمة ربكم إذا استويتم عليه﴾[1] .

* * *

باب : تعليم الصبيان القرآن

فيه : ابن جبير : قال : إن الذي تدعونه المفصل هو المحكم .

وقال ابن عباس : توفي رسول الله ﷺ وأنا ابن عشر سنين وقد قرأت المحكم ، قيل له : وما المحكم ؟ قال : المفصل .

ذكر ابن أبي زيد قال : روي أن تعليم القرآن الصبيان يطفئ غضب الرب ، وإنما سمي المفصل لكثرة السور والفصول فيه ، عن ابن عباس. وقيل : إنما سمي بالمحكم أيضًا ؛ لأن أكثره لا نسخ فيه . واختلف في سن ابن عباس حين مات النبي - عليه السلام - فروى أبو بشير ، عن سعيد بن جبير في هذا الباب ما تقدم .

وقال أبو إسحاق عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس : قبض النبي - عليه السلام - وأنا ختين . وروى شعبة ، عن أبي إسحاق ، عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس : توفي النبي ﷺ وأنا ابن خمس عشرة سنة . وذكر الزبير والواقدي أن ابن عباس ولد في الشعب ، وذلك قبل الهجرة بثلاث سنين ، وكان ابن ثلاث عشرة سنة حين توفي النبي ﷺ .

* * *

---

(١) الزخرف : ١٣ .

باب : نسيان القرآن ، وهل يقول : نسيت آية كذا وكذا ؟
وقول الله عز وجل : ﴿ سنقرئك فلا تنسى ﴾ (١)

فيه : عائشة : « سمع النبي ﷺ رجلاً يقرأ في المسجد ، فقال : يرحمه الله ، لقد أذكرني كذا وكذا آية أسقطتهن من سورة كذا » .

وفيه : عبد الله : قال النبي ﷺ : « ما لأحدهم يقول : نسيت آية كيت وكيت، بل هو نسُي » .

قال المؤلف : قد نطق القرآن بإضافة النسيان إلى العبد في قوله تعالى : ﴿ **سنقرئك فلا تنسى** ﴾ (١) وشهد [ذلك] (٢) بصدق حديث عائشة أنه عليه السلام قال : « يرحمه الله ، لقد أذكرني كذا وكذا آية أسقطتهن من سورة كذا » . فأضاف الإسقاط إلى نفسه ، والإسقاط هو النسيان بعينه .

وحديث عبد الله خلاف هذا ، وهو قوله ﷺ : « ما لأحدهم يقول : نسيت آية كيت وكيت ، بل هو نسي » . فاستحب عليه السلام أن يضيف النسيان إلى خالقه الذي هو الله - تعالى - وقد جاء في القرآن عن موسى عليه السلام أنه أضاف النسيان مرة إلى نفسه ومرة إلى الشيطان فقال : ﴿ **إني نسيت الحوت وما أنسانيه إلا الشيطان أن أذكره** ﴾ (٣) . وقال النبي - عليه السلام - : « إني لأنسى أو أنسى لأسن » . يعني إني لأنسى أنا أو ينسيني ربي ، فنسب النسيان مرة إلى نفسه ، ومرة إلى الله - تعالى - هذا على قول من لم يجعل قوله : إني لأنسى أو أنسى شكا من المحدث في أي الكلمتين قال . وهو قول عيسي بن دينار، وليس في شيء من ذلك اختلاف ولا تضاد في المعنى ، لأن لكل إضافة منها معنى [صحيحًا] (٤) في كلام العرب ، فمن أضاف النسيان إلى الله فلأنه خالقه وخالق الأفعال كلها ، ومن نسبه إلى نفسه فلأن النسيان

---

(١) الأعلى : ٦ . (٢) في « الأصل » : بذلك . والمثبت من « هـ » .
(٣) الكهف : ٦٣ .
(٤) في « الأصل » : صحيح . والمثبت من « هـ » .

فعل منه مضاف إليه من جهة الاكتساب والتصرف ، ومن نسبه إلى الشيطان فهو بمعنى الوسوسة في الصدور وحديث الأنفس بما جعل الله للشيطان من السلطان على هذه الوسوسة ، فلكل إضافة منها وجه صحيح ، وإنما أراد عليه السلام بقوله - والله أعلم - : « ما لأحدهم يقول / [نسيت آية] [1] كذا وكذا ؛ بل هو نسي » أن يجري على [ألسن العباد نسبة] [2] الأفعال إلى بارئها وخالقها ، وهو الله ؛ ففي ذلك إقرار له بالعبودية واستسلام لقدرته ، وهو أولى من نسبة الأفعال إلى مكتسبها [فإن نسبها إلى مكتسبها] [1] فجائز بدليل الكتاب والسنة. [٤/ق١٩٨-أ]

* * *

باب : من لم ير بأسًا أن يقول : سورة البقرة

فيه : [أبو] [3] مسعود الأنصاري قال عليه السلام : « الآيتان اللتان من سورة البقرة من قرأ بهما كفتاه » .

وفيه : عمر : أنه سمع هشام بن حكيم يقرأ سورة الفرقان في حياة رسول الله على حروف كثيرة ... » الحديث .

وفيه : عائشة أن النبي ﷺ سمع قارئًا يقرأ من الليل في المسجد . فقال: يرحمه الله لقد أذكرني كذا وكذا آية كنت أسقطتها من سورة كذا وكذا .

في هذه الأحاديث رد قول من يقول أنه لا يجوز أن يقول سورة البقرة ، ولا سورة آل عمران ، وزعم أن الصواب في ذلك أن يقال : السورة التي يذكر فيها البقرة ويذكر فيها آل عمران ، وهو قول يروى عن بعض السلف .

وقالوا : إذا قال سورة البقرة وسورة آل عمران فقد أضاف السورة

---

(١) من « هـ » .

(٢) في « الأصل » : السنن المعتاد . والمثبت من « هـ » .

(٣) في « الأصل » : ابن . والمثبت من « هـ ، ن » .

إلى البقرة ، والبقرة لا سورة لها ، وقد تقدم في كتاب الحج [في باب يكبر مع كل حصاة] (١) .

* * *

باب : الترتيل في القراءة

وقوله تعالى : ﴿ ورتل القرآن ترتيلا ﴾ (٢) وفيه : ﴿ وقرآنًا فرقناه لتقرأه على الناس على مكث ونزلناه تنزيلاً ﴾(٣)

وما يكره أن يهذ كهذ الشعر . وقال ابن عباس : فرقناه : فصلناه .

فيه : عبد الله « أن رجلاً قال : قرأت المفصل البارحة فقال : هذّا كهذِّ الشعر، إنا قد [سمعنا] (٤) القراءة ، وإني لأحفظ [القرناء] (٥) التي كان يقرأ بها النبي - عليه السلام - ثماني عشرة سورة من المفصل وسورتين من آل حم » .

وفيه : ابن عباس في قوله تعالى : ﴿ لا تحرك به لسانك لتعجل به﴾ (٦) قال : « كان رسول الله : إذا نزل جبريل بالوحي ، وكان مما يحرك به لسانه وشفتيه فيشتد عليه ، وكان يعرف منه ، فأنزل الله تعالى : ﴿لا تحرك به لسانك ﴾ (٦) ..... » الحديث .

قال المؤلف : ذكر أبو عبيد عن مجاهد في قوله تعالى : **﴿ ورتل القرآن ترتيلاً ﴾** (٢) قال : ترسل ترسلاً .

وقال أبو [حمزة] (٧) : قلت لابن عباس : إني سريع القراءة ، وإني أقرأ القرآن في ثلاث ، فقال : لأن أقرأ البقرة في ليلة فأتدبرها

---

(١) من « هـ » . (٢) المزمل : ٤ .
(٣) الإسراء : ١٠٦ . (٤) في « الأصل » : سمعت . والمثبت من « هـ ، ن » .
(٥) في « الأصل » : القراءة . والمثبت من « هـ ، ن » .
(٦) القيامة : ١٦ .
(٧) في « الأصل » : حميد . والمثبت من « هـ » ، وانظر « الفتح » (٨/٧٠٧) .

وأرتلها خير من أن أقرأ كما تقول . وقال مرة : خير من أجمع القرآن هذرمة ، وأكثر العلماء يستحبون الترتيل في القراءة ليتدبره القارئ ويتفهم معانيه . روى علقمة عن ابن مسعود قال : لا تنثروه نثر الدقل ولا تهذوه هذ الشعر ، قفوا عند عجائبه ، وحركوا به القلوب ، ولا يكن هم أحدكم آخر السورة .

وذكر أبو عبيد أن رجلاً سأل [مجاهدًا] (١) عن رجل قرأ البقرة وآل عمران ، ورجل قرأ البقرة قيامهما واحد وركوعهما واحد وسجودهما واحد ، أيهما أفضل ؟ قال : الذي قرأ البقرة . وقرأ : **﴿وقرآنا فرقناه لتقرأه على الناس على مكث ...﴾** (٢) الآية . وقال الشعبي : إذا قرأتم القرآن فاقرءوه قراءة تسمعه آذانكم ، وتفهمه قلوبكم ، فإن الأذنين عدل بين اللسان والقلب ، فإذا مررتم بذكر الله فاذكروا الله ، وإذا مررتم بذكر النار فاستعيذوا بالله منها ، وإذا مررتم بذكر الجنة فاسألوها الله .

وفيها قول آخر ؛ روى ابن القاسم وابن وهب عن مالك في الهذ في القراءة قال : من الناس من إذا هذ كان أخف عليه وإذا رتل أخطأ، ومن الناس من لا يحسن الهذ ، والناس في هذا على قدر حالاتهم وما يخف عليهم ، وكل واسع .

وقد روي عن جماعة من السلف أنهم كانوا يختمون القرآن في ركعة ، وهذا لا يتمكن إلا بالهذ ، والحجة لهذا القول حديث أبي هريرة عن النبي ﷺ أنه قال : خفف على داود القرآن ، فكان يأمر بدوابه فتسرح فيقرأ القرآن قبل أن تسرح ، وهذا لا يتم إلا بالهذ وسرعة القراءة ، والمراد بالقرآن في هذا الحديث الزبور .

---

(١) في « الأصل » : مجاهد . والمثبت من « هـ » .

(٢) الإسراء : ١٠٦ .

ذكره البخاري في كتاب الأنبياء وداود عليه السلام ممن أنزل الله فيه : ﴿ أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده ﴾ (١) ، وإنما ذكر النبي - عليه السلام - هذا الفعل من داود عليه السلام على وجه الفضيلة له والإعجاب بفعله ، ولو ذكره على غير ذلك لنسخه ولأمر بمخالفته ، فدل على إباحة فعله والله أعلم ، [وسأذكر من كان يقرأ القرآن في ركعة بعد هذا في باب : في كم يقرأ القرآن ، إن شاء الله] (٢) .

* * *

[٤/ق١٩٨-ب]

باب : مد القراءة /

فيه : أنس أنه سئل عن قراءة النبي - عليه السلام - فقال : كان يمد مدًا ثم قرأ : بسم الله الرحمن الرحيم ، يمد ببسم الله ، ويمد بالرحمن ، ويمد بالرحيم ، وذكر أبو عبيد عن الليث [عن] (٢) ابن أبي مليكة ، عن يعلى ابن مالك عن أم سلمة أنها نعتت قراءة رسول الله قراءة [مفسرة] (٣) حرفًا حرفًا . وقالت أم سلمة أيضًا : كان النبي - عليه السلام - يقطع قراءته ، وإنما كان [يفعل](٤) ذلك - والله أعلم - لأمر الله له بالترتيل ، وأن يقرأه على مكث ، وألا يحرك به لسانه ليعجل به ، فامتثل أمر ربه -تعالى - فكان يقرؤه على مهل ليبين لأمته كيف يقرءون ، وكيف يمكنهم تدبر القرآن وفهمه . وذكر أبو عبيد عن إبراهيم قال : قرأ علقمة على عبد الله فكأنه عجل ؛ فقال عبد الله : فداك أبي وأمي ، رتل قراءته ، زين القرآن . [وكان] (٥) علقمة حسن الصوت بالقرآن .

* * *

---

(١) الأنعام : ٩٠ .   (٢) من « هـ » .

(٣) في « الأصل » : عشر . والمثبت من « هـ » .

(٤) في « الأصل » : فعل . والمثبت من « هـ » .

(٥) في « الأصل » : وقال . والمثبت من « هـ » .

باب : الترجيع

فيه : عبد الله بن مغفل قال : رأيت النبي ﷺ وهو على ناقته - أو جمله- وهو يقرأ سورة الفتح قراءة [لينة] [1] ويرجع .

فذكر البخاري هذا الحديث في آخر كتاب الاعتصام ،وزاد فيه : ثم قرأ معاوية قراءة لينة ورجع ، ثم قال : لولا أني أخشى أن يجتمع الناس عليكم لرجعت كما رجع ابن مغفل - [يعني] [2] عن النبي عليه السلام - [فقلت] [3] لمعاوية : كيف كان ترجيعه قال : آ ا ثلاث مرات. وفي هذا الحديث من الفقه إجازة [قراءة] [3] القرآن بالترجيع والإلحان ؛ لقوله في وصف قراءته عليه السلام : آ ا ثلاثًا ، وهذا غاية الترجيع ، وقد تقدم في باب : من لم يتغن بالقرآن .

* * *

باب : حسن الصوت بالقراءة

فيه : أبو موسى : أن النبي - عليه السلام - قال له : « لقد أوتيت مزمارًا من مزامير آل داود » .

وروى ابن شهاب عن أبي سلمة قال : كان عمر إذا رأى أبا موسى قال : ذكرنا ربنا يا أبا موسى . فيقرأ عنده . وقال أبو عثمان النهدي: كان أبو موسى يصلي بنا فلو قلت : إني لم أسمع صوت صنج قط ولا صوت بربط ولا شيئًا قط أحسن من صوته .

قال أبو عبيد : ومحمل الأحاديث التي جاءت في حسن الصوت إنما [هو] [4] على طريق الحزن والتخويف والتشويق .

---

(١) في « الأصل » : بينة . والمثبت من « هـ ، ن » .

(٢) في « الأصل » : يحكي . والمثبت من « هـ » .

(٣) من « هـ » .

(٤) في « الأصل » : هي . والمثبت من « هـ ، ن » .

يبين ذلك حديث أبي موسى أن أزواج النبي [سمعوا] [1] قراءته فأخبر بذلك فقال : لو علمت لشوقت تشويقًا وحبرت تحبيرًا ، فهذا وجهه ، لا الألحان المطربة الملهية .

روى سفيان عن ابن جريج ، عن ابن طاوس ، عن أبيه قال : سئل رسول الله ، أي الناس أحسن صوتًا بالقرآن ؟ قال : الذي إذا سمعته رأيته يخشى الله . وعن ابن أبي مليكة عن عبد الرحمن بن السائب قال : قدم علينا سعد بعد ما كف بصره فأتيته مسلمًا فانتسبني فانتسبت له ، فقال : مرحبًا بابن أخي ، بلغني أنك حسن الصوت بالقرآن ، وسمعت النبي ﷺ يقول : إن هذا القرآن نزل [بحزن][2] ، فإذا قرأتموه فابكوا ، فإن لم تبكوا فتباكوا .

وذكر أبو عبيد بإسناده قال : كنا على سطح ، ومعنا رجل من أصحاب النبي ﷺ - قال المحدث : ولا أعلمه إلا عيسى الغفاري - فرأى الناس يخرجون في الطاعون يفرون فقال : يا طاعون، خذني إليك ، فقيل : أتتمنى الموت وقد نهى النبي ﷺ عن ذلك ؟ قال : إني أبادر خصالاً ، سمعت النبي ﷺ يتخوفهن على أمته : بيع الحكم، والاستخفاف بالدم ، وقطيعة الرحم ، [و] [3] قوم يتخذون القرآن مزامير يقدمون أحدهم ليس بأفقههم ولا أفضلهم إلا ليغنيهم به غناء، وقال أبو سليمان الخطابي : قوله : آل داود ، فإن أراد داود نفسه لأنا لا نعلم أحدًا من آله أعطي من حسن الصوت ما أعطي داود قال غيره: والآل عند العرب: الشخص . قال أبو سليمان: وسئل أبو [عبيدة][4] معمر بن المثنى عن رجل أوصى لآل فلان . ألفلان نفسه المسمى من هذا شيء ؟ قال : نعم ، قال

(١) في « الأصل » : يسمعوا . والمثبت من « هـ » .
(٢) في « الأصل » : محزن . والمثبت من « هـ » .
(٣) من « هـ » .
(٤) في « الأصل » : عبيد . والمثبت من « هـ » .

تعالى : ﴿ **أدخلوا آل فرعون أشد العذاب** ﴾ (١) . ففرعون أولهم وأنشد :

[٤/ق١٩٩-أ] ولا تبك ميتا بعد ميت أحبه ... عليّ وعباس وآل أبي بكر/

يريد أبا بكر نفسه ، وقال ابن عون : كان الحسن إذا صلى على النبي قال : اللهم اجعل صلواتك على آل محمد كما جعلتها على آل إبراهيم ، إنك حميد مجيد . يريد بآل محمد نفسه ؛ لأن الأمر من الله بالصلاة إنما يتوجه إليه بقوله تعالى : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا صلوا عليه ...** ﴾ (٢) الآية . وقد يكون آل الرجل أهل بيته الأدنين ، وقال زيد بن أرقم : آل محمد آل عباس وآل عقيل ، وآل جعفر وآل علي. وقال أبو عبيد في قوله تعالى : ﴿ **وإذ نجيناكم من آل فرعون** ﴾ (٣) . قال : هم أهل دينه قال : ولا يجوز ذلك إلا في الرئيس الذي الباقون له تبع، وكذلك آل محمد إنما [هم] (٤) أمته وأهل دينه قال : فإذا جاوزت هذا فآل الرجل : أهل بيته خاصة . وقال بعض الناس : قول أبي عبيدة خطأ عند الفقهاء لم يقل به أحد منهم .

* * *

باب : من أحب أن يسمع القرآن من غيره

فيه : عبد الله : قال لي النبي ﷺ : اقرأ عليَّ القرآن . قلت : أقرأ عليك وعليك أنزل ! فقال : إني أحب أن أسمعه من غيري .

معنى استماعه القرآن من غيره- والله أعلم - ليكون عرض القرآن سنة، ويحتمل أن يكون كي يتدبره (ويفهمه) (٥)، وذلك أن [المستمع] (٦) أقوى

(١) غافر : ٤٦ . (٢) الأحزاب : ٥٦ .
(٣) البقرة : ٤٩ . (٤) في « الأصل » : هو . والمثبت من « هـ » .
(٥) في « هـ » : ويتفهمه . (٦) في « الأصل » : السمع . والمثبت من « هـ » .

على التدبر ، ونفسه أخلى وأنشط لذلك من نفس القارئ ؛ لأنه في شغل بالقراءة وأحكامها ، فإن قيل : فقد يجوز أن يكون سماعه [ﷺ][1] للقرآن من غيره كما قلت ، فما وجه قراءته عليه السلام القرآن على أبي ، وقد ذكره البخاري في فضائل الصحابة في فضائل أبيّ . قيل : يحتمل أن يكون وجه ذلك ليتلقنه أبي من فيه عليه السلام، فلا يتخالجه شك في اختلاف القراءات بعده ، وذلك أنه خاف عليه الفتنة في هذا الباب ؛ لأنه لا يجوز أن يكون أحد أقرأ للقرآن من النبي ﷺ، ولا أوعى له وأعلم به ؛ لأنه نزل به الروح الأمين على قلبك لتكون من المنذرين بلسان عربي مبين ، قاله الخطابي ، وقال أبو بكر بن الطيب نحوه ، قال : قرأ النبي ﷺ على أبيّ وهو أعلم بالقرآن منه وأحفظ ؛ ليأخذ أبيّ نمط قراءته وسنته ويحتذي حذوه . وقد روي هذا التأويل عن أبيّ وابنه .

* * *

باب : قول المقرئ للقارئ : حسبك

فيه : عبد الله : قال لي النبي - عليه السلام - : اقرأ عليّ . قلت : يا رسول الله ، أقرأ عليك ، وعليك أنزل ! قال : نعم . فقرأت سورة النساء حتى [أتيت] [2] إلى هذه الآية : ﴿ فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيدا ﴾ [3] قال : حسبك الآن . فالتفت إليه فإذا عيناه تذرفان .

قال المؤلف : في جواز قطع القراءة على القارئ إذا حدث على المقرئ عذر أو شغل بال ؛ لأن القراءة على نشاط المقرئ أولى ليتدبر معاني القرآن ويتفهم عجائبه ، ويحتمل أن يكون أمره عليه السلام بقطع القراءة تنبيهًا له على الموعظة والاعتبار في قوله تعالى : ﴿ **فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد ...** ﴾ [3] الآية . ألا ترى أنه عليه السلام بكى عندها ، وبكاؤه

---

(١) من « هـ » . (٢) في « الأصل » : انهيت . والمثبت من « هـ ، ن » .
(٣) النساء : ٤١ .

إشارة منه إلى معنى الوعظ ؛ لأنه مثل لنفسه أهوال يوم القيامة وشدة الحال الداعية له إلى شهادته لأمته بتصديقه ، والإيمان به وسؤاله الشفاعة لهم ليريحهم من طول الموقف وأهواله ، وهذا أمر يحق له طول البكاء والحزن .

* * *

باب : في كم يقرأ القرآن
وقوله تعالى : ﴿ فاقرءوا ما تيسر منه ﴾ [1]

فيه : سفيان : قال [لي] [2] ابن شبرمة : نظرت كم يكفي الرجل من القرآن ؟ فلم أجد سورة أقل من ثلاث آيات . فقلت : لا ينبغي لأحد أن يقرأ أقل من ثلاث آيات .

وفيه : ابن مسعود قال النبي – عليه السلام – : « من قرأ بالآيتين من آخر سورة البقرة في ليلة كفتاه » .

وفيه : عبد الله بن [عمرو] [3] قال : أنكحني أبي امرأة ذات حسب فكان يتعاهد كنَته [فيسألها] [4] عن بعلها فتقول : نعم الرجل من رجل، لم يطأ لنا فراشًا ، ولم يفتش لنا كنفًا منذ أتيناه ، فلما طال عليه ذلك ، ذكر للنبي – عليه السلام – فقال : القني به فلقيته بعد قال : «كيف تصوم ؟ قال : كل يوم . قال : كيف تختم ؟ قال : كل ليلة . قال: صم من كل شهر ثلاثة ، واقرأ القرآن في كل شهر ، قلت : أطيق أكثر . قال : اقرأ في كل سبع ليال مرة . فليتني قبلت رخصة رسول الله ﷺ ...» الحديث.

قال البخاري / : قال بعضهم : في ثلاث أو في خمس أو في [٤/ق١٩٩-ب] سبع وأكثرهم على سبع ، وقال عليه السلام لعبد الله بن عمرو : اقرأه في سبع ولا تزد على ذلك .

---

(١) المزمل : ٢٠ . (٢) من « هـ » .
(٣) في « الأصل ، هـ » : عمر . والمثبت من « ن » .
(٤) في « الأصل » : فيسأله . والمثبت من « هـ ، ن » .

قال المؤلف : ذكر أهل التفسير في تأويل قوله تعالى : ﴿ **فاقرءوا ما تيسر منه** ﴾ [1] قالوا : ثلاث آيات فصاعدًا . ويقال : أقصر سورة في القرآن كما قال ابن شبرمة . قوله عليه السلام : من قرأ بالآيتين من آخر سورة البقرة كفتاه . نص في أن قارئ الآيتين داخل في معنى قوله: ﴿ **فاقرءوا ما تيسر منه** ﴾ [1] ، وفي حديث عبد الله بن عمرو أن النبي ﷺ أمره أن يقرأه في سبع ليال ، وكان جماعة من السلف يأخذون بهذا الحديث . روي ذلك عن عثمان بن عفان وابن مسعود وتميم الداري ، وعن إبراهيم النخعي مثله . وذكر أبو عبيد عن زيد بن ثابت أنه سئل عن قراءة القرآن في سبع فقال : حسن ، ولأن أقرأه في عشرين أو في النصف أحب إليّ من أن أقرأه في سبع ، وسلني لم ذلك ؟ أردده واقف عليه ، وكان أبي بن كعب يختمه في ثمان ، وكان الأسود يختم القرآن في ست ، وكان علقمة يختمه في خمس ، وروى الطيب بن سليمان ، عن عمرة ، عن عائشة أن رسول الله كان لا يختم القرآن في أقل من ثلاث . وعن قتادة عن يزيد بن عبد الله بن الشخير عن عبد الله بن عمرو قال : قال رسول الله : لا يفقه من قرأه في أقل من ثلاث .

وروي عن معاذ بن جبل : وكانت طائفة تقرأ القرآن كله في ليلة أو ركعة . روي ذلك عن عثمان بن عفان وتميم الداري ، وعن علقمة وسعيد بن جبير أنهما قرأا القرآن في ليلة بمكة ، [وكان] [2] ثابت البناني يختم القرآن في كل يوم وليلة من شهر رمضان ، وكان سليمان يختم القرآن في ليلة ثلاث مرات ، ذكر ذلك كله أبو عبيد وقال : الذي أختار من ذلك ألا يقرأ القرآن في أقل من ثلاث ، لما روي عن النبي وأصحابه من الكراهة لذلك .

---

(١) المزمل : ١ .
(٢) في « الأصل » : فكان . والمثبت من « هـ » .

باب : البكاء عند قراءة القرآن

فيه : ابن مسعود : أن النبي ﷺ قال : اقرأ عليّ . قلت : أقرأ عليك وعليك أنزل ! فقرأت النساء حتى بلغت : ﴿ وجئنا بك على هؤلاء شهيدًا﴾ [1] قال لي : كف [أو] [1] أمسك فرأيت عينيه تذرفان .

قال المؤلف : البكاء عند قراءة القرآن حسن ، قد فعله النبي عليه السلام وكبار الصحابة ، وإنما بكى عليه السلام عند هذا لأنه مثل لنفسه أهوال يوم القيامة ، وشدة الحال الداعية له إلى شهادته لأمته بتصديقه والإيمان به ، وسؤاله الشفاعة لهم ليريحهم من طول الموقف وأهواله، وهذا أمر يحق له طول البكاء والحزن .

ذكر أبو عبيد عن مطرف بن عبد الله بن الشخير ، عن أبيه قال : انتهيت إلى رسول الله ﷺ وهو يصلي ولجوفه أزيز كأزيز المرجل من البكاء .

وعن الأعمش عن أبي صالح قال : لما قدم أهل اليمن في زمن أبي بكر سمعوا القرآن فجعلوا يبكون قال أبو بكر : هكذا كنا ثم قست القلوب .

وقال الحسن : قرأ عمر بن الخطاب : **﴿ إن عذاب ربك لواقع ما له من دافع ﴾** [3] [فربا][4] ربوة عيد منها عشرين يومًا .

وقال عبيد بن عمير : صلى بنا عمر صلاة الفجر فقرأ سورة يوسف حتى إذا بلغ : **﴿ وابيضت عيناه من الحزن فهو كظيم ﴾** [5] بكى حتى انقطع فركع .

---

(١) النساء : ٤١ .　　(٢) في « الأصل » : و . والمثبت من « هـ ، ن » .

(٣) الطور : ٧ ، ٨ .　　(٤) في « الأصل » : وربا . والمثبت من « هـ » .

(٥) يوسف : ٨٤ .

وفي حديث آخر لما قرأ : ﴿ إنما أشكو بثي وحزني إلى الله ﴾ [(١)] بكى حتى سمع نشيجه من وراء الصفوف .

وعن ابن المبارك ، عن مسعر ، عن عبد الأعلى التيمي قال : من أوتي من العلم ما لا [يبكيه] [(٢)] ، فليس بخليق أن يكون أوتي علمًا ينفعه؛ لأن الله تعالى نعت العلماء فقال : **﴿ إن الذين أوتوا العلم من قبله إذا يتلى عليهم يخرون للأذقان سجداً ...﴾** [(٣)] الآيتين .

وقرأ عبد الرحمن بن أبي ليلى سورة مريم ؛ فلما [انتهى] [(٤)] إلى قوله : **﴿ خروا سجداً وبكيًا ﴾** [(٥)] فسجد بها ، فلما رفع رأسه قال : هذه السجدة فأين البكاء ؟ وكره السلف الصعق والغشي عند قراءة القرآن . ذكر أبو عبيد بإسناده عن أبي حازم قال : مر ابن عمر برجل من أهل العراق ساقط والناس حوله ، فقال : ما هذا ؟ فقالوا : إذا قرئ عليه القرآن أو سمع الله يذكر خر من خشية الله ، فقال ابن عمر: والله [إنا] [(٦)] لنخشى الله وما نسقط .

وعن عكرمة قال : سئلت أسماء : هل كان أحد من السلف يغشى عليه من القراءة ؟ فقالت : لا ، ولكنهم كانوا يبكون . / [٤/ق٢٠٠-أ]

وقال هشام بن حسان : سئلت عائشة عمن يصعق عند قراءة القرآن فقالت : القرآن أكرم من أن تنزف عنه عقول الرجال ، ولكنه كما قال الله : **﴿ تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله ﴾** [(٧)] .

* * *

---

(١) يوسف : ٨٦ .
(٢) في « الأصل » : يبطيه . والمثبت من « هـ » .
(٣) الإسراء : ١٠٧ .
(٤) في « الأصل » : انتهوا والمثبت من « هـ » .
(٥) مريم : ٥٨.
(٦) في « الأصل » : إني . والمثبت من « هـ » .
(٧) الزمر : ٢٣ .

وسئل ابن [1] سيرين عن ذلك فقال : ميعاد بيننا وبينه أن يجلس على حائط ثم يقرأ عليه القرآن كله ، فإن وقع فهو كما قال .

* * *

باب : من راءى بقراءة القرآن أو تأكل به أو فجر به

فيه : علي : قال النبي – عليه السلام – : « يأتي في آخر الزمان قوم حدثاء الأسنان ، سفهاء الأحلام ، يقولون من خير قول البرية ، يمرقون من الإسلام كما يمرق السهم من الرمية ، لا يجاوز إيمانهم حناجرهم ، فأينما لقيتموهم فاقتلوهم ، إن في قتلهم أجر لمن قتلهم يوم القيامة».

وفيه : أبو سعيد : قال النبي ﷺ : « يخرج فيكم قوم تحقرون صلاتكم مع صلاتهم ، وصيامكم مع صيامهم ، وعملكم مع عملهم يقرءون القرآن لا يجاوز حناجرهم ، يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية، ينظر في النصل فلا يرى شيئًا ، وينظر في القدح فلا يرى شيئًا ، وينظر في الريش فلا يرى شيئًا ، ويتمارى في الفوق » .

وفيه : أبو موسى : قال النبي ﷺ : « المؤمن الذي يقرأ القرآن ... » الحديث إلى قوله : « ومثل المنافق الذي يقرأ القرآن كالريحانة ريحها طيب وطعمها مر » .

قال المؤلف : قوله : يقرءون القرآن ، لا يجاوز حناجرهم . يعني: لا يرتفع إلى الله ، ولا يؤجرون عليه لعدم خلوص النية بقراءته لله تعالى ولذلك شبه قراءة المنافق لما كانت رياء وسمعة بطعم [الريحانة][2] المر الذي لا يلتذ به آكله ، كما لا يلتذ المنافق والمرائي بأجر قراءته وثوابها .

---

(١) زاد في « الأصل » : عن .   (٢) في « الأصل » : كالريحانة .

وقال حذيفة : أقرأ الناس بالقرآن منافق يقرؤه ، لا يترك منه ألفًا ولا واوًا ، لا يجاوز ترقوته ، وقال ابن مسعود : أعربوا القرآن ، فإنه يأتي عربي فسيأتي قوم يتقفونه ليسوا بخياركم .

وروى أبو عبيد من حديث أبي سعيد الخدري عن النبي - عليه السلام - قال : تعلموا القرآن واسألوا الله به قبل أن يتعلمه قوم يسألون به الدنيا ، فإن القرآن يتعلمه ثلاثة نفر : رجل يباهي به ، ورجل [يستأكل] [1] به [الناس][2] ، ورجل يقرأ لله .

وذكر أيضًا عن زاذان قال : من قرأ القرآن ليستأكل به الناس ، جاء يوم القيامة ووجهه عظم ليس عليه لحم .

وقال ابن مسعود : سيجيء على الناس زمان يسئل فيه بالقرآن ، فإذا سألوكم فلا تعطوهم .

وقوله : « ينظر في النصل » فالنصل : حديدة السهم . والقدح : عوده والفوق منه : موضع الوتر . وجمعه أفواق وفوق [وفقًا] [3] .

* * *

باب : اقرءوا القرآن ما ائتلفت قلوبكم

وفيه : جندب : قال النبي - عليه السلام - : « اقرءوا القرآن ما ائتلفت قلوبكم ، فإذا اختلفتم فقوموا عنه » .

وفيه : عبد الله أنه سمع رجلاً يقرأ آية سمع النبي يقرأ خلافها ، فأخذت بيده فانطلقت به إلى النبي - عليه السلام - فقال : كلاكما محسن فاقرءا أكبر علمي قال : فإن من كان قبلكم اختلفوا [فأهلكهم] [4] الله .

قال المؤلف : قوله : اقرءوا ما ائتلفت قلوبكم . فيه الحض

---

(١) في « الأصل » : سيأكل . والمثبت من « هـ » .
(٢) من « هـ » . (٣) في « الأصل » : فوقًا . والمثبت من « هـ » .
(٤) في « الأصل » : أهلكهم . والمثبت من « هـ ، ن » .

على الألفة والتحذير من الفرقة في الدين ، فكأنه قال : اقرءوا القرآن والزموا الائتلاف على ما دل عليه وقاد إليه ، فإذا اختلفتم فقوموا عنه - أي [فإذا عرض عارض شبهة توجب المنازعة الداعية إلى الفرقة فقوموا عنه : أي] [1] فاتركوا تلك الشبهة الداعية إلى الفرقة ، وارجعوا إلى [المحكم] [2] الموجب للألفة ، وقوموا للاختلاف)[3] وعما أدى إليه ، وقاد إليه لا أنه أمر بترك قراءة القرآن [باختلاف القراءات] [1] التي أباحها لهم لأنه قال لابن مسعود والرجل الذي أنكر عليه مخالفته له في القراءة : كلاكما محسن ، فدل أنه لم ينهه عما جعله فيه محسنًا ، وإنما نهاه عن الاختلاف المؤدي إلى الهلاك بالفرقة في الدين .

* * *

---

(١) من « هـ » .

(٢) في « الأصل » : الحكم . والمثبت من « هـ » .

(٣) في « هـ » : عن الاختلاف .

[٤/ق٢٠٠-ب]

كتاب التمني /

باب : من (يتمنى) (١) الشهادة

فيه أبو هريرة : قال النبي – عليه السلام – : « والذي نفسي بيده [لولا](٢) أن رجالا يكرهون أن يتخلفوا بعدي ، ولا أجد ما أحملهم عليه ما تخلفت لوددت أني أقتل في سبيل الله ثم أحيا ثم أقتل ثم أحيا ثم أقتل » .

فيه من الفقه : جواز تمني الخير وأفعال البر والرغبة فيها ، وإن علم أنه لا ينالها حرصًا على الوصول إلى أعلى درجات الطاعة .

وفيه : فضل الشهادة على سائر أعمال البر لأنه عليه السلام تمناها دون غيرها، وذلك لرفيع (درجتها) (٣) ، وكرامة أهلها لأن الشهداء أحياء عند ربهم يرزقون ، وذلك والله أعلم لسماحة أنفسهم ببذل مهجتهم في مرضاة الله وإعزاز دينه ، ومحاربة من حاده وعاداه ، فجازاهم بأن عوضهم من فقد حياة الدنيا الفانية الحياة الدائمة في الدار الباقية ، فكانت المجازاة من حسن الطاعة .

* * *

باب : تمني الخير وقول النبي – عليه السلام – : لو كان لي أحد ذهبًا

فيه : أبو هريرة : قال عليه السلام : « لو كان (لي) (٤) أحد ذهبًا

---

(١) في « هـ ، ن » : تمنى .

(٢) في « الأصل » : لو . والمثبت من « هـ ، ن » .

(٣) في « هـ » : منزلتها . (٤) في « هـ ، ن » : عندي .

لأحببت ألا يأتي ثلاث وعندي منه دينار ؛ ليس شيء أرصده في دين عليّ أجد من يقبله » .

في هذا الحديث من الفقه جواز تمني الخير [وأفعال البر] [1] لأنه عليه السلام تمنى لو كان له مثل أحد ذهبًا لأحب أن ينفقه في طاعة الله قبل أن يأتي عليه ثلاث ليال . وقد تمنى الصالحون ما يمكن كونه وما لا يمكن حرصًا منهم على الخير ، فتمنى بنو الزبير منازل من الدنيا لتنفذ أموالهم في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر .

روي أن عبد الله وعروة [ومصعبًا بني] [2] الزبير بن العوام اجتمعوا عند الكعبة ، فقال عبد الله : أحب أن لا أموت حتى أكون خليفة . وقال مصعب : أحب أن [ألي] [3] العراقين : الكوفة والبصرة ، وأتزوج سكينة بنت الحسين وعائشة بنت طلحة . وقال عروة: لكني أسأل الله الجنة ، فصار عبد الله ومصعب إلى ما تمنيا ، [وترون][4] أن عروة صار إلى الجنة إن شاء الله ، وما تمنوه مما لا سبيل إلى كونه تصغيرًا لأنفسهم وتحقيرًا لأعمالهم ، فتمنوا أنهم لم يخلقوا وأنهم أقل الموجودات . روي عن أبي بكر الصديق أنه قال : وددت أني خضرة تأكلني الدواب . وتناول عمر بن الخطاب تبنة من الأرض فقال : ليتني كنت هذه ، ليتني لم أك شيئًا ، ليت أمي لم تلدني ، ليتني كنت نسيًا منسيًا .

وقرأ عمر : ﴿ **هل أتى على الإنسان حين من الدهر لم يكن شيئًا مذكورًا** ﴾ [5] فقال : يا ليتها تمت . وقال عمران بن حصين : وددت أني رماد على أكمة تسفيني الرياح في يوم عاصف .

---

(١) من « هـ » .

(٢) في « الأصل » : ومصعب بنوا . والمثبت من « هـ » .

(٣) في « الأصل » : لي . والمثبت من « هـ » .

(٤) في « الأصل » : ويروى .

(٥) الإنسان : ١ .

وقال أبو ذر : وددت أن الله خلقني شجرة تقضم . ومرت عائشة بشجرة فقالت : يا ليتني كنت ورقة من هذه الشجرة .

وقال أبو عبيدة : وددت أني كبش فيذبحني أهلي فيأكلون لحمي ويحسون مرقي . وإنما حملهم على ذلك شدة الخوف من مسائلة الله والعرض عليه ، وعلى قدر العلم بالله تكون الخشية منه ، ولذلك قال الفضيل : من مقت نفسه في الله أمنه الله من مقته .

* * *

باب : قول النبي - عليه السلام - : « لو استقبلت من أمري ما استدبرت ما سقت الهدي ولحللت مع الناس [حين] (١) حلوا »

وذكره من حديث جابر أيضًا .

قوله : « لو استقبلت من أمري ما استدبرت » أي لو علمت أن أصحابي يأتون من العمرة في أشهر الحج ما أحرمت بالحج مفردًا ، ولأحرمت بالعمرة فلو أحرمت بالعمرة لم يكرهها أحد منهم ، وللانت نفوسهم لفعلي لها واختياري في نفسي ، فكرهوها حين أمرهم بها ؛ لكونهم على خلاف فعل نبيهم ؛ مع أنهم كانوا في الجاهلية يكرهون العمرة في أشهر الحج فتمنى عليه السلام موافقة أصحابه ، وكره ما ظهر منهم من الإشفاق لمخالفتهم له ، ففي هذا من الفقه أن الإمام والعالم ينبغي له أن يسلك سبيل الجمهور وألا يخالف الناس في سيرته وطريقته .

* * *

---

(١) في « الأصل » : حتى . والمثبت من « هـ ، ن » .

باب : قول النبي - عليه السلام - / « ليت كذا وكذا » [٤/ق١٠٢-أ]

فيه : عائشة قالت : « أرق النبي - عليه السلام - ذات ليلة فقال : [ليت] [١] رجلاً صالحًا من أصحابي يحرسني الليلة، فأتى سعد فحرسه.

وقال بلال :

ألا ليت شـــعري هل أبيتن ليلة بواد [وحولي إذخر وجليل][١]

فأخبرت [عائشة] [١] النبي ﷺ .

[قال المؤلف] [٢] : فيه أباحة تمني ما ينتفع به في الدنيا ، ويمكن أن يكون هذا الحديث قبل أن ينزل عليه : ﴿ **والله يعصمك من الناس**﴾[٣] . فلما علم ذلك لم يحتج إلى حارس بعد ، ويمكن أن يفعله عليه السلام بعد نزول الآية عليه ليستن به الأمراء ، ولا يضيعوا حرس أنفسهم في أوقات الغرة والغفلة ، والله أعلم .

* * *

باب : تمني القرآن والعلم

فيه : أبو هريرة قال النبي ﷺ : « لا تحاسد إلا في اثنتين : رجل آتاه الله القرآن ، فهو يتلوه آناء الليل والنهار فيقول : لو أتيت مثل ما أوتي لفعلت مثل ما يفعل [ورجل آتاه الله مالاً ينفقه في حقه يقول : لو أوتيت مثل ما أوتي لفعلت مثل ما يفعل] [٢] » .

هذا من الحسد الحلال ، والحاسد فيه مشكور ؛ لأنه إنما حسده على العمل بالقرآن والعلم ، وحسد صاحب المال على نفقته له في حقه فلم يقع الحسد على شيء من أمور الدنيا ، وإنما وقع على ما يرضي الله ويقرب منه ، فلذلك كان تمنيه حسنًا ، وكذلك تمني سائر أبواب

---

(١) من « هـ ، ن » .　　(٢) من « هـ » .　　(٣) المائدة : ٦٧ .

الخير إنما يجوز منه ما كان في معنى هذا الحديث إذا خلصت النية في ذلك لله ، وخلص ذلك من البغي والحسد .

* * *

باب : ما يكره من التمني قول الله تعالى : ﴿ ولا تتمنوا ما فضل الله به بعضكم على بعض ﴾ (١)

فيه : أنس قال : « لولا أني سمعت النبي - عليه السلام - يقول : « لا تمنوا الموت لتمنيته » .

فيه : خباب مثله .

وفيه أبو هريرة : قال عليه السلام : « لا يتمنى أحدكم الموت إما [محسنًا] (٢) فلعله يزداد ، وإما مسيئًا فلعله يستعتب » .

[قال المهلب : بين] (٣) الله - تعالى - في هذه الآية ما لا يجوز تمنيه ، وذلك ما كان من عرض الدنيا [وأشباهه] (٤) .

قال الطبري : وقيل : إن هذه الآية نزلت في نساء تمنين منازل الرجال ، وأن يكون [لهن] (٥) ما لهم فنهى الله - تعالى - عن الأماني الباطلة ؛ إذ كانت الأماني الباطلة تورث أهلها الحسد والبغي بغير الحق. وقال ابن عباس في هذه الآية : لا يتمنى الرجل يقول : ليت لي مال فلان وأهله ، فنهى الله عن ذلك وأمر عباده أن يسألوه من فضله .

وسئل الحسن البصري فقيل له : الرجل يرى الدار فتعجبه والدابة فتعجبه فيقول : ليت لي مثل هذه الدار ، ليت لي مثل هذه الدابة . قال الحسن : لا يصلح هذا . قيل له : فيقول : ليت لي مثل هذه الدار . فقال : ولا هذا . قيل له : إنا كنا لا نرى بأسًا بقوله : ليت لي مثل

---

(١) النساء : ٣٢ . (٢) في « الأصل » : محسن . والمثبت من « هـ ، ن » .
(٣) في « الأصل » : من . والمثبت من « هـ » .
(٤) في « الأصل » : وأسبابها . والمثبت من « هـ » .
(٥) في « الأصل » : لهم . والمثبت من « هـ » .

هذا . فقال الحسن : ألا ترى قوله عز وجل : ﴿ **يبسط الرزق لمن يشاء من عباده ويقدر له** ﴾ (١) . أتدري ما يقدر له ؟ ينظر إن كان خيرًا أن [يبسطه] (٢) له بسطه ، وإن كان خيرًا أن يمسكه عنه أمسكه ، فينطلق إلى شيء نظر الله فيه أنه خير لك فأمسكه عنك فتسأله إياه ، فلعلك لو أعطيت ذلك كان فيه هلكة في دينك ودنياك ، ولكن إذا سألت فقل : اللهم إني أسألك من فضلك ، فإن أعطاك أعطاك خيارًا، وإن أمسك عنك أمسك عنك خيارًا . ومعنى نهيه عليه السلام عن تمني الموت ، فإن الله قد قدر الآجال فمتمني الموت غير راضٍ بقدر الله ولا مسلم لقضائه ، وقد بين النبي - عليه السلام - ما للمحسن والمسيء في أن لا يتمنى الموت ، وذلك ازدياد المحسن من الخير ورجوع المسيء عن الشر ، وذلك نظر من الله للعبد [وإحسان] (٣) منه إليه خير له من تمنيه الموت ، وقد تقدم في كتاب المرضى حيث يجوز تمني الموت ، [وحيث لا يجوز ، والأحاديث المعارضة في ذلك وبيان معانيها في باب تمني الموت] (٤) .

* * *

باب : قول الرجل : لولا الله ما اهتدينا

فيه : البراء قال : « كان النبي ﷺ ينقل معنا التراب يوم الأحزاب ، ولقد رأيته وارى التراب بياض بطنه يقول : لولا أنت ما اهتدينا نحن ولا تصدقنا ولا صلينا » .

لولا عند العرب يمتنع بها الشيء لوجود غيره يقول : لولا زيد ما صرت إليك : أي كان مصيري إليك من أجل زيد ، وكذلك قوله / [٤/ق٢٠١-ب] : « لولا الله ما اهتدينا » . أي كان هدانا من أجل هداية الله لنا

---

(١) العنكبوت : ٦٢ . (٢) في « الأصل » : يبسط . والمثبت من « هـ » .
(٣) في « الأصل » : اختيار . والمثبت من « هـ » .
(٤) من « هـ » .

فوجود الهدى منع وقوع الضلال ، وذلك كله من فعل الله بعباده فلا يفعل [العبد] [1] الطاعة ولا يجتنب المعصية إلا بقدر الله وقضائه على العبد .

* * *

باب : (كراهة) [2] التمني للقاء العدو

فيه : عبد الله بن أبي أوفى : قال النبي – عليه السلام – : « لا تتمنوا لقاء العدو واسألوا الله العافية » .

قد تقدم هذا الباب في كتاب الجهاد ، وجملة معناه : النهي عن تمني المكروهات والتصدي للمحذورات ، ولذلك [سأل] [3] السلف العافية من الفتن والمحن ؛ لأن الناس مختلفون في الصبر على البلاء .

* * *

باب : ما يجوز من اللو وقوله تعالى : ﴿ لو أن لي بكم قوة .. ﴾ [4]

فيه : ابن عباس : « ذكر المتلاعنين فقال عبد الله بن شداد : هي التي قال النبي – عليه السلام – : لو كنت [راجمًا] [5] امرأة من غير بينة ؟ قال : لا ، تلك المرأة أعلنت » .

وفيه : ابن عباس : « اعتم النبي ﷺ بالعشاء ، فخرج عمر فقال : الصلاة يا رسول الله ، رقد النساء والصبيان . فخرج ورأسه يقطر يقول : لولا أن أشق على أمتي لأمرتهم [بالصلاة هذه الساعة » .

---

(١) في « الأصل » : العبيد . والمثبت من « هـ » .
(٢) في « هـ ، ن » : كراهية .
(٣) في « الأصل » : قال . والمثبت من « هـ » . (٤) هود : ٨٠ .
(٥) في « الأصل » : راجم . والمثبت من « هـ ، ن » .

وفيه : أبو هريرة : قال النبي : « لولا أن أشق على أمتي لأمرتهم](١) **بالسواك »** .

وفيه : أنس : « واصل النبي – عليه السلام – آخر الشهر ، وواصل ناس من الناس ، فبلغ النبي ﷺ فقال النبي(٢) **: [لو]**(٣) **مد في الشهر لواصلت وصالاً يدع المتعمقون تعمقهم . وقال مرة : لو تأخر لزدتكم كالمنكل لهم »** .

وفيه : عائشة : قال النبي – عليه السلام – : « لولا أن قومك حديث عهدهم بالجاهلية فأخاف أن تنكر قلوبهم أن أجعل الجدر في البيت وأن ألصق بابه بالأرض » .

وفيه أبو هريرة : قال عليه السلام : « لولا الهجرة لكنت امرأً من الأنصار، ولو سلك الناس واديًا وسلكت الأنصار واديًا أو شعبًا لسلكت وادي الأنصار أو شعب الأنصار » .

[وعن عبد الله بن زيد مثله](٤) .

لو : تدل عند العرب على امتناع الشيء لامتناع غيره كقوله : لو جاءني زيد لأكرمتك . معناه : أني امتنعت من كرامتك لامتناع زيد من المجيء .

وقوله : ﴿ **لو أن لي بكم قوة** ﴾(٥) جواب لو محذوف كأنه قال : لحلت بينكم وبين ما جئتم له من الفساد ، وحذفه أبلغ ؛ لأنه يحصر النفي بضروب المنع . فإن قيل : لم قال : « أو آوي إلى ركن شديد» مع أنه يأوي إلى الله ؟ فالجواب : أنه إنما أراد العدة من

---

(١) من « هـ ، ن » . (٢) زاد في « الأصل » : عليه . وهي مقحمة .
(٣) في « الأصل » : لولا .
(٤) من « هـ » . (٥) هود : ٨٠ .

الرجال ، وإلا فله ركن وثيق مع معونة الله ونصره ، وتضمنت الآية [البيان] (١) عما يوجبه حال المحق إذا رأى منكرًا لا يمكنه [إزالته] (٢) مع التحسر على قوة أو معين على دفعه لحرصه على طاعة ربه ، وجزعه من معصيته ، فامتنع من الانتقام من قومه لامتناع من يعينه على ذلك .

وقوله : « لو كنت راجمًا بغير بينة » .

أمتنع من رجم المرأة لامتناع وجود البينة ، وكذلك امتنع من معاقبتهم بالوصال لامتناع امتداد الشهر ، ومثله : لو سلك الناس واديًا لسلكت وادي الأنصار . قال المهلب : وإنما قال ذلك للأنصار تأنيسًا لهم ليغبطهم [بحالهم] (٣) ، وأنها مرضية عنده وعند ربهم ، لكنه أعلمهم بأنه امتنع من أن يساويهم في حالهم لوجود الهجرة التي لا [يمكنه] (٤) تركها ، وسائر ما في الباب من [الأحاديث ؛ فإنها بلفظ لولا التي تدل على امتناع الشيء لوجود غيره كقوله : « لولا أن أشق على أمتي لأمرتهم بالصلاة هذه الساعة » ، و « لأمرتهم بالسواك مع كل صلاة » فامتنع من](١) أمرهم بذلك لوجود الشقة بهم عند امتثالهم أمره .

وقوله : « لولا أن قومك حديث عهدهم بالكفر فأخاف أن تنكر قلوبهم أن أدخل الجدر في البيت » . [فامتنع ﷺ من هدم] (٥) البيت وبنيانه على قواعد إبراهيم من أجل الإنكار الحاصل لذلك .

قال الطبري : فإن قال قائل : فقد روى ابن عيينة عن ابن عجلان عن الأعرج عن أبي هريرة أن النبي - عليه السلام - قال : « احرص على ما ينفعك ، واستعن بالله ولا تعجز ، فإن أصابك شيء فلا تقل: لو أني فعلت كذا وكذا، ولكن [قل] (١): قدر الله وما شاء فعل، فإن لو مفتاح

---

(١) من « هـ » . (٢) في « الأصل » : أن الله . والمثبت من « هـ » .
(٣) في « الأصل » : بحاله . والمثبت من « هـ » .
(٤) في « الأصل » : يمكنها . والمثبت من « هـ » .
(٥) في « الأصل » : فأهدم . والمثبت من « هـ » .

الشيطان » . فنهى عن لو في هذا الحديث ، [و] [(١)] هذا معارض لما جاء من إباحة لو في كتاب الله ، وفي الأحاديث المروية في ذلك .

قيل له : لا تعارض بين شيء من ذلك ، ولكل وجه ومعنى غير معنى صاحبه ؛ فأما نهيه عن اللو في حديث ابن عجلان فمعناه : لا تقل أني لو فعلت كذا لكان كذا على القضاء والحتم ، فإنه كائن لا محالة ، فأنت غير مضمر في نفسك شرط مشيئة الله ، هذا الذي نهى عنه ؛ لأنه قد سبق في علم الله كل ما يناله [المرء] [(١)] . قال تعالى: **﴿ما أصاب من مصيبة في الأرض ولا في أنفسكم إلا في كتاب من قبل / أن نبرأها﴾** [(٢)] . [٤/ق٢٠٢-أ]

فأما إذا كان قائله ممن يوقن بأن الشرط إذا وجد لم يكن المشروط إلا بمشيئة الله وإرادته ، فذلك هو الصحيح من القول ، وقد قال أبو بكر الصديق للنبي ﷺ وهو في الغار : لو أن أحدهم رفع قدمه أبصرنا . فقال : يا أبا بكر ما ظنك باثنين الله ثالثهما ، ولم ينكر ذلك عليه صلى الله عليه ؛ إذ كان عالما [بمخرج][(٣)] كلامه ، وأنه إنما قال ذلك على ما جرت به العادة ، واستعمله الناس على ما الأغلب كونه عند وقوع السبب الذي ذكره ، وإن [كان] [(١)] قد كان [جائزًا] [(٤)] أن يرفع جميع [المشركين] [(٥)] الذين كانوا فوق الغار أقدامهم ثم ينظروا فيحجب الله أبصارهم عن رسوله ، وعن صاحبه [فلا يراهما منهم أحد] [(٦)] ، وكان جائز أن يحدث الله عمىً في أبصارهم ، فلا يبصرونهما ، مع أسباب غير ذلك كثيرة ، وأن أبا بكر لم يقل ذلك إلا على إيمان منه بأنهم لو رفعوا أقدامهم لم يبصروا رسول الله إلا أن يشاء الله ذلك ، فهذا [مفسر][(٧)] لحديث ابن عجلان وناف للتعارض في ذلك ، والله الموفق .

---

(١) من « هـ » .   (٢) الحديد : ٢٢ .   (٣) في « الأصل » : مخرج .

(٤) في « الأصل » : جائزٌ . والمثبت من « هـ » .

(٥) في « الأصل » : المشركون . والمثبت من « هـ » .

(٦) في « الأصل » : فلا تراهم أعينهم .   (٧) في « الأصل » : تفسير .

كتاب القدر

[باب في القدر] (١)

فيه : عبد الله قال : حدثنا رسول الله - وهو الصادق المصدوق - أن أحدكم يجمع في بطن أمه أربعين يومًا ثم علقة مثل ذلك ، ثم مضغة مثل ذلك ، ثم يبعث الله ملكًا فيؤمر بأربعة : برزقه ، وأجله ، وشقي أو سعيد ، فوالله إن أحدكم أو الرجل يعمل بعمل أهل النار حتى ما يكون بينه وبينها غير ذراع (أو ذراعين) (٢) فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل الجنة فيدخلها ، وإن الرجل ليعمل بعمل أهل الجنة حتى ما يكون بينه وبينها غير ذراع (أو ذراعين) (٢) فيسبق عليه الكتاب ، فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها » .

وفيه : أنس قال عليه السلام : « وكل الله بالرحم ملكًا فيقول : أي رب، نطفة ؟ أي رب علقة ؟ أي رب ، مضغة ؟ فإذا أراد [الله] (٣) أن [يقضي] (٤) خلقها قال : يا رب ، أذكر أم أنثى ؟ أسعيد أم شقي ؟ فما الرزق ؟ فما الأجل ؟ فيكتب [كذلك] (٥) في بطن أمه » .

قال المهلب : في هذا الحديث رد لقول القدرية واعتقادهم أن العبد يخلق أفعاله كلها من الطاعات والمعاصي ، وقالوا : إن الله منزه

---

(١) من « هـ » .　　(٢) في « هـ » : أو باع .　　(٣) من « هـ ، ن » .

(٤) في « الأصل » : قضى . والمثبت من « هـ ، ن » .

(٥) في « الأصل » : ذلك . والمثبت من « هـ ، ن » .

عن أن يخلق المعاصي والزنا والكفر وشبهه ، فبان في هذا الحديث تكذيب قولهم ، بما أخبر به عليه السلام أنه يكتب في بطن أمه شقي أو سعيد مع تعريف الله العبد أن سبيل الشقاء هو العمل بالمعاصي والكفر ، فكيف يجوز أن يعمل بما أعلمه الله أنه يعذبه عليه ، ويشقيه به ، مع قدرة العبد على اختياره لنفسه ، وخلقه لأعماله دون الله ، تعالى الله أن يكون معه خالق غيره .

ثم قطع القدرية بقوله: فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها ، فلو كان الأمر إلى اختياره أتراه كان يختار خسارة عمله طول عمره بالخير ، ثم يخلق لنفسه عملاً من الشر والكفر ، فيدخل به النار ؟ وهل السابق له إلا فعل ربه وخلقه له ، وخلق عمله [للشيء] [1] كسبًا له فاكتسبه العبد لشهوة نفسه الأمارة بالسوء مستلذًا بذلك العمل الذي أقدره الله عليه بقدرة خلقها له بحضرة الشيطان المغوي لنفسه الأمارة له مع الشيطان بالسوء [فاستحق] [2] العقاب على ذلك.

فانقطعت حجة العبد بالنذارة ، وانقطعت حجة القدرية بسابق كتاب الله على العبد العارف بما آل أمره ، باكتسابه للعمل القبيح ، لخلق الله له قدرة على عمله بحضرة عدويه : [نفسه] [3] وشيطانه ، ولذلك نسب الشر إلى الشيطان لتزيينه له ، ونسب الخير إلى الله لخلقه لعبده، وإقداره للعبد عليه بحضرة الملك المسدد له ، الدافع لشيطانه عنه بعزة الله وعصمته .

هذا هو أصل الكلام على القدرية [ثم يلزم القدرية] [4] أن يكون العبد شريكًا لله في خلقه [بأن] [5] يكون العبد يخلق أفعاله والله قد أبى من ذلك بقوله تعالى : ﴿ **الله خالق كل شيء وهو على كل شيء وكيل**﴾[6]، وقوله : ﴿ **هل من خالق غير الله** ﴾ [7] ، فخالفوا النص

(١) في « الأصل » : الشيء . والمثبت من « هـ » .
(٢) في « الأصل » : واستحق . والمثبت من « هـ » .
(٣) في « الأصل » : نفسانه . والمثبت من « هـ » .
(٤) من « هـ » .
(٥) في « الأصل » : وأن . والمثبت من « هـ » .
(٦) الزمر : ٦٢ .
(٧) فاطر : ٣ .

وأوجبوا للعبد من القدرة على خلق أعماله ما أوجبه الله لنفسه تعالى من الانفراد بالخلق ، ولذلك سميت القدرية : مجوس هذه الأمة [لقولها] (١) بخالقين مثل ما قالته المجوس من اعتبارها لأرباب من الشمس والقمر والنور ، والنار والظلمة ، كل على اختياره ، وقد نص الله سبحانه وتعالى على إبطال قول القدرية / لعلمه بضلالتهم [٤/ق٢٠٢-ب] ليهدي بذلك أهل سنته فقال : ﴿ **والله خلقكم وما تعملون** ﴾ (٢) .

وقوله : يجمع في بطن أمه [قد فسره ابن مسعود سئل الأعمش ما يجمع في بطن أمه] (٣) ؟ قال : حدثني خيثمة قال : قال عبد الله : إن النطفة (إذا وقعت) (٤) في الرحم ، فأراد الله أن يخلق منها بشرًا طارت في بشر المرأة تحت كل ظفر وشعر ، ثم تمكث أربعين ليلة ثم تصير دمًا في الرحم فذلك جمعها .

* * *

باب : جف القلم على علم الله
[وقوله تعالى : ﴿ وأضله الله على علم ﴾ (٥)] (٣)

وقال أبو هريرة : قال النبي - عليه السلام - : « جف القلم بما أنت لاق .

وقال ابن عباس : لها سابقون سبقت لهم السعادة .

فيه : عمران بن حصين : قال رجل : يا رسول الله ، أتعرف أهل الجنة من أهل النار ؟ قال : نعم . قال : فلم يعمل العاملون ؟ قال : كل يعمل لما خلق له - أو لما ييسر له - .

قال المهلب : غرض البخاري في هذا الباب غرضه المتقدم من

---

(١) في « الأصل » : بقولها . والمثبت من « هـ » .
(٢) الصافات ٩٦ .
(٣) من « هـ » .
(٤) تكررت في « الأصل » .
(٥) الجاثية : ٢٣ .

إدحاض حجة القدرية بهذه النصوص من كلام الله وكلام رسوله ، فأخبر أنه قد فرغ من الحكم على كل نفس ، وكتب القلم ما يصير إليه العبد من خير أو شر في أم الكتاب ، وجف [مداده] (١) على المقدور من علم الله . فأضله الله على علم به ، ومعرفة بما كان يصير إليه أمره لو أهمله ألا يسمعه قد بين ذلك في كتابه حيث يقول : ﴿**هو أعلم بكم إذ أنشأكم من الأرض وإذ أنتم أجنة في بطون أمهاتكم فلا تزكوا أنفسكم هو أعلم بمن اتقى**﴾ (٢) .

فعرفنا أنه كان بنا عالمًا حين خلق آدم من طينة الأرض المختلفة [وأحاط] (٣) علمًا بما يقع من تلك الطينة لكل شخص من أشخاص ولده إلى يوم القيامة المتناسلين من صلب إلى صلب في أعداد لا يحيط بها إلا محصيها ، وعلم ما قسمه من تلك الطينة من طيب أو خبيث ، وعلم ما يعمل كل واحد من الطاعة والمعصية ليشاهد أعماله بنفسه ، وكفى بنفسه شهيداً عليه ، وتشهد له عليه ملائكته وما عاينه من خلقه ، فتنقطع حجته ، [وتحق] (٤) عقوبته ، ولذلك قال لأبي هريرة حين أراد أن يختصي خشية الزنا على نفسه : « قد جف القلم بما أنت لاق» . فاختص على ذلك أبو ذر ، فعرفه أنه لا يعدو ما جرى به القلم عليه من خير أو شر ، فإنه لا بد عامله ومكتسبه ، فنهاه عن الاختصاء بهذا القول الذي ظاهره التخيير ، ومعنى النهي والتبكيت لمن أراد الهروب عن القدر والتعريف له أنه إن فعل ، فإنه أيضًا من القدر المقدور عليه فيما جف به القلم عليه .

---

(١) في « الأصل » : بمداده . والمثبت من « هـ » .

(٢) النجم : ٣٢ .

(٣) في « الأصل » : واحتاط . والمثبت من « هـ » .

(٤) في « الأصل » : وتحقق . والمثبت من « هـ » .

وقد سئل الحسن البصري عن القدر فقال : إن الله خلق الخلق للابتلاء ، لم يطيعوه بإكراه منه ، ولم يعصوه بغلبة ، ولم يهملهم من المملكة ؛ [بل] [1] كان المالك لما ملكهم فيه ، والقادر لما قدره عليهم، فإن تأتم العباد بطاعة الله لم يكن الله صاداً عنها ، ولا مبطئًا؛ بل يزيدهم هدى إلى هداهم ، وتقوى إلى تقواهم ، وإن تأثم العباد بمعصية الله كان القادر على صرفهم ؛ إن شاء فعل وإن شاء خلى بينهم وبين المعصية [فيكسبونها] [2] ، فمن بعد الإعذار والإنذار لله الحجة البالغة ، لا يسئل عما يفعل وهم يسألون ، فلو شاء لهداكم أجمعين.

وقال المهلب : في حديث عمران حجة لأهل السنة [على] [3] المجبرة من أهل القدر وذلك قوله : « اعملوا ، فكل ميسر [لما خلق له » . ولم يقل : فكل مجبر على ما خلق له ، وإنما أراد لما خلق له][4] من عمله للخير أو للشر .

فإن قيل : إنما أراد بقوله : لما خلق له الإنسان من جنة أو نار ، فقد أخبر أنه [ميسر لأعمالها] [5] ومختار لا [مجبر] [6] ؛ لأن الخير لا يكون باختيار ، وإنما هو بإكراه .

* * *

باب : قوله : الله أعلم بما كانوا عاملين

فيه : ابن عباس : سئل النبي ﷺ عن أولاد المشركين فقال : « الله أعلم بما كانوا عاملين » .

وفيه : أبو هريرة مثله . [وقال عن] [7] النبي - عليه السلام - : « ما

(١) في « الأصل » : فإن . والمثبت من « هـ » .
(٢) في « الأصل » : فيكسب بها . والمثبت من « هـ » .
(٣) من « هـ » . (٤) في « الأصل » : له لما خلق .
(٥) في « الأصل » : مسئول عمالها . والمثبت من « هـ » .
(٦) في « الأصل » : مجبراً . والمثبت من « هـ » .
(٧) في « الأصل » : فقال . والمثبت من « هـ » .

من مولود إلا يولد على الفطرة فأبواه يهودانه وينصرانه كما تنتجون البهيمة ... » إلى قوله : « أفرأيت من يموت وهو صغير ، قال : الله أعلم بما كانوا عاملين».

قال المؤلف : غرضه في هذا الباب الرد على الجهمية في قولهم : إن الله لا يعلم أفعال العباد حتى يعملوها . فرد النبي - عليه السلام - ذلك من قولهم ، وأخبر في هذا الحديث أن الله - تعالى - يعلم ما لا يكون [أن] [1] لو كان كيف كان يكون ، ومصداق هذا الحديث في قوله تعالى : ﴿ **ولو ردوا لعادوا لما نهوا عنه** ﴾ [2] . وقال في آية أخرى : ﴿ **ولو علم الله فيهم خيرًا / لأسمعهم ولو أسمعهم لتولوا وهم معرضون** ﴾ [3] . فإذا ثبت بهاتين الآيتين [المصدقتين] [4] لحديثه عليه السلام أنه يعلم ما لا يكون لو كان (كيف كان) [5] يكون ، فأحرى أن يعلم ما يكون ، وما قدره وقضاه في كونه . [٤/ق٢٠٣-أ]

وهذا يقوي ما يذهب إليه أهل السنة أن القدر هو علم الله وغيبه الذي استأثر به فلم يطلع عليه ملكًا مقربًا ، ولا نبيًا مرسلاً . وروى روح بن عبادة عن حبيب بن الشهيد عن محمد بن سيرين قال : ما ينكر هؤلاء - يعني القدرية - أن يكون الله علم علمًا فجعله كتابًا . وقد قيل : إن بعض الأنبياء كان يسأل الله عن القضاء والقدر ، فمحي من النبوة.

وروى ابن عباس عن النبي - عليه السلام - أنه قال : « إذا ذكر القدر فأمسكوا». وقال بلال بن [أبي] [1] بردة لمحمد بن واسع : ما تقول في القضاء والقدر ؟ فقال : أيها الأمير ، إن الله لا يسأل عباده يوم القيامة عن قضائه وقدره ، وإنما يسألهم عن أعمالهم .

وكتب عمر بن عبد العزيز إلى الحسن البصري : إن الله لا يطالب

---

(١) من « هـ » .　　(٢) الأنعام : ٢٨ .　　(٣) الأنفال : ٢٣ .

(٤) غير واضحة « بالأصل » . والمثبت من « هـ » .

(٥) تكررت « بالأصل » .

خلقه بما قضى عليهم ، ولكن يطالبهم بما نهاهم عنه ، وأمرهم به ، فطالب نفسك من حيث يطالبك ربك .

وسئل أعرابي عن القدر ، فقال : الناظر في قدر الله كالناظر في عين الشمس يعرف ضوءها ، ولا يقف على حدودها .

وقوله : « كما تنتجون الناقة » . قال أبو عبيد : يقال : تنتجت الناقة إذا أعنتها على النتاج .

* * *

باب : وكان أمر الله قدرًا مقدورًا

فيه : أبو هريرة : قال عليه السلام : « لا تسأل المرأة طلاق أختها لتستفرغ صحفتها ولتنكح ، فإنما لها ما قدر لها » .

وفيه : أسامة : « أتى إلى النبي – عليه السلام – رسول إحدى بناته أن ابنها يجود بنفسه ، فبعث إليها : لله ما أخذ ولله ما أعطى ، فكل بأجل ، فلتصبر ولتحتسب » .

وفيه : أبو سعيد : « بينما هو جالس ؛ إذ جاءه رجل من الأنصار فقال : كيف ترى في العزل ؟ فقال : ليس بنسمة كتب الله أن تخرج إلا هي كائنة » .

وفيه حذيفة : « خطبنا النبي – عليه السلام – خطبة ما ترك فيها شيئًا إلى قيام الساعة إلا ذكره ، علمه من علمه ، وجهله من جهله ، إن كنت لأرى الشيء قد نسبت فأعرف ما يعرف الرجل إذا غاب عنه فرآه فعرفه.

وفيه : عليّ : « كنا مع النبي ، ومعه عود ينكت به في الأرض فقال : ما منكم من أحد إلا وقد كتب مقعده من النار أو من الجنة . قال رجل من

القوم : أفلا نتكل يا رسول الله ؟ قال : لا ، اعملوا ، فكل ميسر لما خلق له. ثم قرأ : ﴿ فأما من أعطى واتقى ... ﴾ [1] الآية » .

قال المهلب : غرضه في هذا الباب أن يبين أن جميع مخلوقات الله من المكونات بأمره بكلمة كن من حيوان أو غيره ، أو حركات العباد [واختلاف] [2] إرادتهم وأعمالهم بمعاص أو طاعات ؛ كل مقدر بالأزمان والأوقات ، لا مزيد في شيء منها ، ولا نقصان عنها ، ولا تأخير لشيء منها عن وقته ، ولا تقديم قبل وقته ، ألا ترى قوله عليه السلام : « لا تسأل المرأة طلاق أختها » لتصرف حظها إلى نفسها ، ولتنكح ، فإنه لا تنال من الرزق إلا ما قدر لها ، كانت له زوجة أخرى أو لم تكن .

وقوله : « اعملوا فكل ميسر لما خلق له » . فيه دليل على إبطال قول أهل الجبر ؛ لأن [التيسير] [3] غير الجبر ، واليسرى العمل بالطاعة، والعسرى العمل بالمعصية .

قال الطبري : في حديث عليّ أن الله لم يزل عالمًا بمن يطيعه فيدخله الجنة ، وبمن يعصيه فيدخله النار ، ولم يكن استحقاق من يستحق الجنة منهم بعلمه السابق فيهم ، ولا (استحقاقه) [4] النار لعلمه السابق فيهم ، ولا اضطر أحدًا منهم علمُه السابق إلى طاعة أو معصية ، ولكنه تعالى نفذ علمه فيهم قبل أن يخلقهم ، وما هم عاملون وإلى ما هم صائرون ، إذ كان لا تخفى عليه خافية قبل أن يخلقهم ، ولا بعد ما خلقهم ، ولذلك وصف أهل الجنة فقال : ﴿ **ثلة من الأولين وقليل من الآخرين**﴾ إلى قوله : ﴿ **وحور عين كأمثال**

---

(١) الليل : ٥

(٢) في « الأصل » : فاختلاف . والمثبت من « هـ » .

(٣) في « الأصل » : التبيين . والمثبت من « هـ » .

(٤) في « هـ » : استحقاق من استحق منهم .

اللؤلؤ المكنون جزاءً بما كانوا يعملون ﴾ [1] . وقال تعالى : ﴿ فلا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرة أعين جزاءً بما كانوا يعملون ﴾ [2] .

وكذلك قال في أهل النار : ﴿ ذلك جزاء أعداء الله النار لهم فيها دار الخلد جزاءً بما كانوا [بآياتنا] [3] يجحدون ﴾ [4] فأخبر [أنه أثاب][5] أهل طاعته جنته بطاعته ، وجازى أهل معصيته النار بمعصيتهم إياه ، ولم يخبرنا أنه أدخل من أدخل منهم النار والجنة لسابق علمه فيهم ، ولكنه سبق [في] [6] علمه أن هذا من أهل السعادة والجنة [وأنه] [7] يعمل بطاعته . وفي هذا أنه من أهل الشقاء وأنه يعمل بعمل أهل النار فيدخلها بمعصيته ؛ فلذلك أمر تعالى ونهى ؛ ليطيعه المطيع منهم فيستوجب بطاعته الجنة / ويستحق العقاب منهم بمعصيته العاصي [٤/ق٢٠٣-ب] فيدخل بها النار ، ولتتم حجة الله على خلقه .

فإن قال قائل : فما معنى قوله عليه السلام : « اعملوا فكل ميسر لما خلق له » إن كان الأمر كما وصف من [أن] [6] الذي سبق لأهل السعادة والشقاء لم يضطر [واحدًا] [8] من الفريقين إلى الذي كان يعمل ويمهد لنفسه في الدنيا ولم يجبره على ذلك ؟

قيل : هو أن كل فريق من هذين مسهل له العمل الذي اختاره لنفسه ، مزين ذلك له كما قال تعالى : ﴿ ولكن الله حبب إليكم الإيمان وزينه في قلوبكم ﴾ [9] الآية .

وأما أهل الشقاء ، فإنه زين لهم سوء أعمالهم لإيثارهم لها على

---

(١) الواقعة : ٢٢ - ٢٤ . (٢) السجدة : ١٧ . (٣) ليست بالأصل .
(٤) فصلت : ٢٨ . (٥) في « الأصل » : أن ما ناب . والمثبت من « هـ » .
(٦) من « هـ » . (٧) في « الأصل » : فإنه . والمثبت من « هـ » .
(٨) في « الأصل » : واحد . والمثبت من « هـ » .
(٩) الحجرات : ٧ .

(الهدى)[1] كما قال تعالى : ﴿ **إن الذين لا يؤمنون بالآخرة زينا لهم أعمالهم فهم يعمهون** ﴾[2] وكما قال تعالى : ﴿ **أفمن زين له سوء عمله فرآه حسنًا** ﴾[3] وهذا يصحح ما قلناه من أن علم الله النافذ في خلقه بما هم به عاملون ، وكتابه الذي كتبه قبل خلقه إياهم بأعمالهم لم يضطر أحدًا منهم إلى عمله ذلك ؛ لأن المضطر إلى الشيء [لا شك][4] أنه مكره عليه ، لا محب له ؛ بل هو له كاره ومنه هارب ، والكافر يقاتل دون كفره أهل الإيمان ، والفاسق يناصب دون فسقه الأبرار ؛ محاماة من هذا عن كفره الذي اختاره [على][5] الإيمان ، وإيثارًا من هذا لفسقه على الطاعة ، وكذلك المؤمن يبذل مهجته دون إيمانه ، ويؤثر العناء والنصب دون ملاذه وشهواته حبًا لما هو له مختار من طاعة ربه على معاصيه ، وأنى يكون مضطرًا إلى ما يعمله من كانت هذه صفاته ؟ فبان أن معنى قوله : « اعملوا فكل ميسر لما خلق له »[6] هو أن كل فريقي السعادة والشقاوة مسهل له العمل الذي اختاره ، مزين ذلك له .

* * *

باب : العمل بالخواتيم

فيه : أبو هريرة : « شهدنا مع النبي – عليه السلام – خيبر فقال لرجل ممن كان معه يدعي الإسلام : هذا من أهل النار . فلما حضر القتال قاتل الرجل من أشد القتال ، وكثرت به الجراح ، فأتى رجل إلى النبي – عليه السلام – فأخبره أنه قاتل من أشد القتال فكثرت به الجراح ، فقال النبي

---

(١) في « هـ » : العمل بطاعته . (٢) النمل : ٤ . (٣) فاطر : ٨ .
(٤) في « الأصل » : لا شيء . والمثبت من « هـ » .
(٥) في « الأصل » : عن . والمثبت من « هـ » .
(٦) زاد في « الأصل » : و .

- عليه السلام - : إما إنه من أهل النار . فكاد بعض [المسلمين] [١] يرتاب ، فبينما هو على ذلك إذ وجد ألم الجراح فأهوى بيده إلى كنانته فانتزع سهمًا منها فانتحر به ، فاشتد رجال إلى رسول الله ﷺ فقالوا : صدق الله حديثك ، قد انتحر فلان وقتل نفسه . فقال النبي - عليه السلام - : قم يا بلال ، فأذن : [لا] [٢] يدخل الجنة إلا مؤمن ، وإن الله ليؤيد هذا الدين بالرجل الفاجر » .

وروى سهل عن النبي ﷺ قال: « إن العبد ليعمل بعمل أهل الجنة وإنه من أهل النار ، ويعمل بعمل أهل النار وإنه لمن أهل الجنة ، وإنما الأعمال بالخواتيم » .

قال المهلب : قوله عليه السلام : « إنما الأعمال بالخواتيم » هو حكم الله في عباده في الخير والشر ، فيغفر الكفر وأعماله بكلمة الحق يقولها العبد قبل الموت قبل المعاينة لملائكة العذاب ، وكذلك يحبط عمل المؤمن إذا ختم له بالكفر .

ثم كذلك [هذا] [٣] الحكم موجود في الشرع كله كقوله : « من أدرك ركعة من الصلاة فقد أدرك الصلاة ، ومن أدرك ركعةً من الصبح قبل أن تطلع الشمس فقد أدرك الصبح » فكذلك في العصر فجعله مدركًا لفضل الوقت بإدراك الخاتمة ، وإن كان لم يدرك منه إلا أقله ، وكذلك من أدرك ليلة عرفة الوقوف بها قبل طلوع الفجر فقد أدرك الحج ، وتم له ما فاته من مقدماته ، كما عهد الذي لم يعمل خيراً قط أن يحرق ويذرى فكانت خاتمة سوء عمله خشية أدركته لربه ، تلافاه الله بها فغفر له سوء عمله طول عمره ، هذا فعل من لا تضره الذنوب ، ولا تنفعه العبادة ، وإنما تنفع وتضر المكتسب لها الدائم عليها إلى أن يموت .

وفي قوله : « العمل بالخواتيم » حجة قاطعة على أهل القدر في

---

(١) في « الأصل » : الناس . والمثبت من « هـ ، ن » .
(٢) في « الأصل » : أن لا . والمثبت من « هـ ، ن » .
(٣) في « الأصل » : هو . والمثبت من « هـ » .

قولهم : إن الإنسان يملك أمر نفسه ، ويختار لها الخير والشر ، فمهما اتهموا [اختيار] (١) الإنسان لأعماله الشهوانية واللذيذة عنده ، فلا يتهمونه باختيار القتل لنفسه الذي هو أوجع الآلام ، وأن الذي طيب عنده ذلك غير اختياره ، والذي يسره له دون جبر عليه ، ولا مغالب له هو قدر الله السابق في علمه ، والحتم من حكمه .

* * *

[٤/ق٢٠٤-أ]

/ باب : إلقاء النذر بالعبد إلى القدر

فيه : ابن عمر : نهى النبي عن النذر وقال : « إنه لا يرد شيئًا ، وإنما يستخرج به من البخيل » .

وفيه [أبو هريرة] (٢) : قال النبي – عليه السلام – : « لا يأتي ابن آدم [النذر] (٣) بشيء لم أكن قد قدرته ، ولكن يلقيه القدر وقد قدرته له ، ولكن أستخرج به من البخيل » .

قال المهلب : هذا أبين شيء في القدر وأنه (شيء) (٤) قد فرغ الله منه وأحكمه ، [لا] (٥) أنه شيء يختاره العبد ، فإذا أراد أن يستخرج به من البخيل شيئًا ينفعه به في آخرته أو دنياه سبب له شيئًا مخيفًا أو مطمعًا فيحمله ذلك الخوف أو الطمع على أن ينذر لله نذرًا من عتق أو صدقة أو صيام ، إن صرف الله عنه ذلك الخوف أو أتاه بذلك المطموع فيه ، فلا يكون إلا ما قد قضى الله في أم الكتاب ، لا يحيله النذر الذي نذره عما قدره ، وقد استخرج به منه ما لم يسمح به

---

(١) من « هـ » .   (٢) في « الأصل»: ابن عمر . والمثبت من « هـ ، ن » .
(٣) من « هـ ، ن » .
(٤) في « هـ » : أمر . (٥) في « الأصل » : إلا . والمثبت من « هـ » .

لولا المخوف الذي [هرب] [1] منه ، أو المطموع الذي حرص عليه حتى [طابت] [2] نفسه بما لم تكن تطيب قبل ذلك .

ونهيه عليه السلام عن النذر ، وهو من أعمال الخير أبلغ [زاجر][3] عن توهم العبد أنه يدفع عن نفسه ضرًا [أو يجلب إليها نفعًا] [4] ، أو يختار لها ما يشاء ، ومتى اعتقد ذلك فقد جعل نفسه مشاركًا لله في [خلقه] [5] ومجوزًا عليه ما لم يقدره ، تعالى الله عما يقولون .

ودل هذا أن اعتقاد القلب لما لا يجب اعتقاده أعظم في الإثم من أن يكفر بالصدقة والصلاة والصوم والحج ، وسائر أعمال الجوارح التي ينذرها ؛ لأن نهيه عليه السلام عن هذا النذر ، وإن كان خيرًا ظاهرًا يدل على أنه حابط من الفعل حين توهم به الخروج عما قدره الله تعالى [فإن سلم من هذا الظن واعترف أن نذره لا يرد عنه شيئًا قد قدره الله عليه] [4] وأن الله (تسبب) [6] له بما أخافه به استخراج صدقه هو شحيح بمثلها ، فإنه مأجور بنذره ولم يكن حينئذ نذره منهيًا عنه ، ولذلك - والله أعلم - عرف الله نبيه بهذا الحديث ليعرف أمته بما يجب أن يعتقدوا في النذر فلا يحبط عملهم به .

* * *

باب : لا حول ولا قوة إلا بالله

فيه : أبو موسى : « كنا مع الرسول ﷺ في غزاة فجعلنا لا نصعد شرفًا ولا نهبط واديًا إلا رفعنا أصواتنا بالتكبير ، فدنا منا النبي - عليه السلام- فقال : أيها الناس ، اربعوا على أنفسكم ، فإنكم لا تدعون أصم ولا غائبًا ، إنما تدعون سميعًا بصيرًا ، ثم قال : يا عبد الله بن قيس ، ألا أعلمك كلمة من كنوز الجنة : لا حول ولا قوة إلا بالله » .

---

(١) في « الأصل » : يقرب . والمثبت من « هـ » .
(٢) في « الأصل » : كانت . والمثبت من « هـ » .
(٣) في « الأصل » : زاجرًا . والمثبت من « هـ » .
(٤) من « هـ » .
(٥) في « الأصل » : خلقته . والمثبت من « هـ » .
(٦) في « هـ » : سبب .

هذا باب جليل في الرد على القدرية ، وذلك أن معنى لا حول ولا قوة [إلا بالله] [1] : لا حول للعبد ، ولا قوة له إلا بالله أي : يخلق الله له الحول والقوة ، التي هي القدرة على فعله للطاعة والمعصية .

قال المهلب : فأخبر عليه السلام أن البارئ خالق لحول العبد وقدرته على مقدوره ، وإذا كان خالقًا للقدرة ، فلا شك أنه خالق للشيء المقدور ، فيكون المقدور كسبًا للعبد خلقًا لله تعالى بدليل قوله تعالى : ﴿ **خالق كل شيء** ﴾ [2] ، وقوله تعالى : ﴿ **إنا كل شيء خلقناه بقدر**﴾[3] . وقال محمد بن كعب القرظي : نزلت هذه الآية يعني الأخيرة تعييرًا لأهل القدر .

والدليل على [أن] [1] أفعالهم خلق لله أن أيديهم التي هي عندهم خالقة لأعمال الشر من التعدي والظلم وفروجهم التي هي خالقة للزنا قد توجد عاطلة من الأعمال ، عاجزة عنها ، ألا ترى أن من الناس من يريد الزنا وهو يشتهيه بعضو لا آفة فيه ، فلا يقدر عليه عند إرادته للزنا ، ولو كان العبد [خالقًا] [4] لأعماله لما عجزت أعضاؤه عند إرادته ومستحكم شهوته ؛ فثبت أن القدرة ليست لها ، وأنها لمقدر يقدرها إذا شاء ، ويعطلها إذا شاء ، لا إله إلا هو .

وإنما أمرهم عليه السلام بالربع على أنفسهم على جهة الرفق بهم ، [وقد بينا هذا المعنى في باب : ما يكره من رفع الصوت بالتكبير] [5] في كتاب الجهاد ، وعرفهم أن ما يعلنون [به] [1] من التكبير ويجتهدون فيه من الجهاد هو من فضل الله عليهم إذ لا حول لهم ولا قوة في شيء

---

(١) من « هـ » .   (٢) الزمر : ٦٢ ، غافر : ٦٢ .   (٣) القمر : ٤٩ .
(٤) في « الأصل » : خالق . والمثبت من « هـ » .
(٥) في « الأصل » : قد تقدم . والمثبت من « هـ » .

منه إلا بالله الذي أقدرهم عليه ، وحببه إليهم ، وإن كان فيه تلاف نفوسهم ؛ رغبة في جزيل الأجر وعظيم الثواب .

وفيه : أن التكبير يسمى دعاء ؛ لقوله عليه السلام : « إنكم لا تدعون أصم ولا غائبًا » فجعل قولهم : الله أكبر دعاء لله - تعالى - من أجل أنهم كانوا يريدون به إسماعه الشهادة له بالحق .

* * *

[٤/ق٢٠٤-ب]

/ باب : المعصوم من عصمه الله . عاصم :مانع

قال مجاهد : سُدًا عن الحق يترددون في الضلالة ، دسَّاها : أغواها .

فيه : أبو سعيد : قال عليه السلام : « ما استخلف خليفة قط إلا له بطانتان : بطانة تأمره بالخير وتحضه عليه ، وبطانة تأمره بالشر وتحضه عليه ، والمعصوم من (عصمه) [(١)] الله » .

قال المهلب : عرض البخاري في هذا الباب إثبات الأمور لله ، فهو الذي يعصم من نزغات الشيطان ، ومن شر كل وسواس خناس من الجنة والناس ، وليس من خليفة ولا أمير إلا والناس حوله رجلان: رجل يريد الدنيا والاستكثار منها ، فهو يأمره بالشر ويحضه عليه ليجد به السبيل إلى انطلاق اليد على المحظورات ومخالفة الشرع، ويوهمه أنه إن لم يقتل ويغصب ويخف الناس لم يتم له شيء ، ولم يرض بسياسة الله لعباده ببسط العدل وبخمد الأيدي ، وأن في ذلك [صلاح][(٢)] العباد والبلاد .

---

(١) في « هـ ، ن » : عصم .

(٢) في « الأصل » : خلاص . والمثبت من « هـ » .

ولا يخلو سلطان أن يكون في بطانته رجل يحضه على الخير ، ويأمره به لتقوم به الحجة عليه من الله في القيامة ، وهم الأقل ، والمعصوم من الأمراء من عصمه الله لا من عصمته نفسه الأمارة بالسوء بشهادة الله عليها الخالق لها ، ومن أصدق من الله حديثًا .

* * *

باب : وحرام على قرية أهلكناها أنهم لا يرجعون

وقوله : ﴿ لن يؤمن من قومك إلا من قد آمن ﴾ (١)

﴿ ولا يلدوا إلا فاجرًا كفارًا ﴾ (٢)

قال ابن عباس : حِرْم بالحبشية وجب .

فيه : ابن عباس قال : « ما رأيت شيئًا أشبه باللمم مما قاله أبو هريرة [عن] (٣) النبي : « إن الله كتب على ابن آدم حظه من الزنا أدرك ذلك لا محالة ، فزنا العين النظر ، وزنا اللسان النطق ، والنفس تمني وتشتهي ، والفرج يصدق ذلك ويكذبه » .

وقال المهلب : معنى قوله تعالى : **﴿ وحرام على قرية أهلكناها أنهم لا يرجعون ﴾** (٤) أي : وجب عليهم أنهم لا يتوبون ، وحرام وحرم معناهما واحد ، والتقدير : وحرام على قرية أردنا إهلاكها التوبة من كفرهم، وهذا كقوله تعالى : **﴿ أنه لن يؤمن من قومك إلا من قد آمن﴾** (١) أي : قد نفذ علم الله في قوم نوح أنه لا يؤمن منهم إلا من قد آمن ، ولذلك قال نوح : **﴿ رب لا تذر على الأرض من الكافرين ديارًا ﴾** (٥)

---

(١) هود : ٣٦ . (٢) نوح : ٢٧ .

(٣) في « الأصل » : على . والمثبت من « هـ ، ن » .

(٤) الأنبياء : ٩٥ . (٥) نوح : ٢٦ .

إذ قد أعلمتني أنه لن يؤمن منهم إلا من قد آمن ، فأهلكهم لعلمه أنهم لا يرجعون [إلى] [1] الإيمان ، وموافقة الترجمة للحديث هو قوله عليه السلام : « إن الله كتب على ابن آدم حظه من الزنا » فأخبر أن الزنا ودواعيه كل ذلك مكتوب مقدر على العبد غير خارج من سابق قدره .

وقوله : « أدرك ذلك لا محالة » إدراكه له من أجل أن الله كتبه عليه، وإنما سمى النظر والمنطق ومنى النفس وشهوتها زنا لما كانت دواعي إلى الزنا ، والسبب قد يسمى باسم المسبب مجازًا واتساعًا لما بينهما من التعلق ، غير أن زنا العين وزنا اللسان وتمني النفس غير مؤاخذ به من اجتنب الزنا بفرجه ؛ لأنه كذب زنا جوارحه بترك الزنا بفرجه ، فاستخف زنا عينه ولسانه وقلبه ؛ لأن ذلك من اللمم الذي يغفر باجتناب الكبائر ، وزنا الفرج من أكبر الكبائر ، فمن فعله فقد صدق زنا عينه ولسانه وقلبه ؛ فيؤاخذ بإثم ذلك كله .

وفي [قوله] [2] : « النفس تمنى وتشتهي » دليل على أن فعل العبد ما نهاه الله عنه ، مع تقدم تقديره تعالى وسابق علمه بفعله له باختيار منه أو إيثار ، وليس بمجبر عليه ولا مضطر إلى فعله ، وعلى هذا علق الثواب والعقاب ، فسقط قول جهم بالإجبار بنص قوله عليه السلام : « والنفس تمنى وتشتهي » لأن المجبر مكره مضطر ، وهو بخلاف المتمني والمشتهي ، واللمم صغار الذنوب وهي مغفورة باجتناب الكبائر، وقد تقدم في كتاب [الأدب] [3] .

---

(١) في « الأصل » : عن . والمثبت من « هـ » .
(٢) في « الأصل » : قلبه . والمثبت من « هـ » .
(٣) في « الأصل » : الآداب . والمثبت من « هـ » .

باب : قوله تعالى : ﴿ وما جعلنا الرؤيا التي أريناك إلا فتنة للناس ﴾ (1)

فيه : ابن عباس في هذه الآية : هي رؤية عين أريها النبي - عليه السلام- ليلة أسري به إلى بيت المقدس ، والشجرة الملعونة قال : هي [شجرة] (2) الزقوم .

قال المهلب : معنى ذكر هذا الحديث في كتاب / القدر هو ما ختم [٤/ق٢٠٥-أ] الله على الناس المكذبين لرؤياه من المشركين حين جعلها فتنة لهم في تكذيب النبي الصادق [فكانت] (3) زيادة في طغيانهم، وكذلك جعل الشجرة الملعونة في القرآن [فتنة] (4) فقالوا: كيف يكون في النار شجرة ؟! النار تحرق الشجر اليابس والأخضر ، فجعل ذلك فتنة تزيد في ضلالهم ، فلا يؤمنوا على ما سبق في علمه . قال غيره : وقوله : ﴿ **وما جعلنا الرؤيا التي أريناك إلا فتنة للناس** ﴾ (1) يقتضي خلق الله للكفر به ، ودواعي الكفر هي الفتنة، وذلك عدل منه تعالى.

وهذا مثل قوله تعالى : ﴿ **ويضل الله الظالمين** ﴾ (5) . فهذا عام في فعله كفر الكافرين ، وإيمان المؤمنين ودواعي الإيمان والكفر خلافًا لمن زعم أن الله غير خالق أعمال العباد .

وقوله : « الشجرة الملعونة يعني : الملعون آكلها - وهم الكفار - كما قال تعالى : ﴿ **إن شجرة الزقوم طعام الأثيم**﴾ (6) ، وقال تعالى: ﴿ **إنها شجرة تخرج في أصل الجحيم** ﴾ (7) فأخبر أنها تنبت في النار،

(1) الإسراء : ٦٠ . (2) من « هـ ، ن » .
(3) في « الأصل » : وكذلك . (4) من « هـ » .
(5) إبراهيم : ٢٧ .
(6) الدخان : ٤٣ - ٤٤ . (7) الصافات : ٦٤ .

وأما قول الكفار : كيف يكون في النار شجرة ، [والنار] [1] تأكل الشجر ، فإن هذه الشجرة التي أخبر الله أنها في أصل الجحيم هي مخلوقة من جوهر لا تأكله النار كسلاسل النار وأغلالها وعقاربها وحياتها ، وليس شيء من ذلك من جنس ما في الدنيا مما لا يبقي على النار ، وإنما خلقت من جنس لا تأكله النار ، وكما خلق الله في البحار من الحيوان ما لا يهلك في الماء، وخلق في الخل دودًا يعيش فيه ولا يهلكه ، على أن الخل يفت الحجارة ويهري الأجسام ، ولم يكن ذلك إلا لموافقة ذلك الدود لجنس الخل وموافقة حيوان البحر جنس الماء، فكذلك ما خلق في النار من الشجر والحيوان موافق لجنس النار، والله تعالى قادر أن يجعل النار بردًا وسلامًا ، وأن يجعل الماء نارًا ؛ لأنه على كل شيء قدير ، فما أنكره الكفار من خلق الشجر في النار عناد بين ، وضلال واضح ، أعاذنا الله من الضلال برحمته .

* * *

باب : (محاجة آدم موسى) [2]

فيه : أبو هريرة : قال النبي – عليه السلام – : « احتج آدم وموسى ، فقال موسى : يا آدم، أنت أبونا خيبتنا وأخرجتنا من الجنة . فقال له آدم : يا موسى ، أنت الذي اصطفاك الله بكلامه ، وخط لك بيده ، أتلومني على أمر قدره الله عليّ قبل أن يخلقني بأربعين سنة ؟! فحجّ آدم موسى ، قاله ثلاثًا » .

قال المؤلف : معنى قوله عليه السلام : « احتج آدم وموسى » : أي التقت أرواحهما في السماء ، فوقع هذا الحجاج بينهما ، وقد جاءت الرواية بذلك .

---

(١) من « هـ » . (٢) في « ن » : تحاج موسى وآدم عند الله .

روى الطبري ، عن يونس بن عبد الأعلى ، حدثنا ابن وهب ، حدثنا هشام ابن سعد ، عن زيد بن أسلم ، عن أبيه ، عن عمر بن الخطاب قال: قال رسول الله : « إن موسى قال : يا رب ، أبونا آدم الذي أخرجنا ونفسه من الجنة . فأراه الله آدم فقال : أنت آدم ؟ قال : نعم . قال : أنت الذي نفخ الله فيك من روحه ، وعلمك الأسماء كلها ، وأمر ملائكته أن يسجدوا لك ، فما حملك أن أخرجتنا ونفسك من الجنة ؟ قال : ومن أنت ؟ قال : أنا موسى . قال : أنت نبي بني إسرائيل الذي كلمك الله من وراء حجاب ، لم يجعل بينك وبينه رسولاً ؟ قال : نعم . قال : فما وجدت في كتاب الله أن ذلك كائن قبل أن أخلق ؟ قال : نعم . . . » . وذكر الحديث .

قال المهلب وغيره : « فحج آدم موسى » أي : غلبه بالحجة . قال الليث بن سعد : وإنما صحت الحجة في هذه القصة لآدم على موسى؛ من أجل أن الله قد غفر لآدم خطيئته ، وتاب عليه ، فلم يكن لموسى أن يعيره بخطيئة قد غفرها الله له ، ولذلك قال له آدم : أنت موسى الذي آتاك الله التوراة ، وفيها علم كل شيء فوجدت فيها أن الله قد قدّر عليّ المعصية ، وقدر عليّ التوبة منها ، وأسقط بذلك اللوم عني، أتلومني أنت ، والله لا يلومني .

وبمثل هذا احتج ابن عمر على الذي قال له : إن عثمان فرّ يوم أحد، فقال ابن عمر : ما على عثمان ذنب ؛ لأن الله - تعالى - قد عفا عنه بقوله : ﴿**ولقد عفا الله عنهم**﴾ [1] وأما من عمل الخطايا ولم تأته المغفرة ، فإن العلماء مجمعون أنه لا يجوز له أن يحتج بمثل حجة آدم

---

(١) آل عمران : ١٥٥ .

فيقول : أتلومني على أن قتلت أو زنيت أو سرقت ، وقد قدر الله عليّ ذلك . والأمة مجمعة على جواز حمد المحسن على إحسانه ، ولوم المسيء على إساءته وتعديد ذنوبه عليه .

فإن قال قائل : فإن القدرية احتجت بقول موسى : أنت آدم ، خيبتنا وأخرجتنا من الجنة / . فنسب التخييب والإخراج إليه ، قالوا : [٤/ق٢٠٥-ب] هذا يدل أن العباد يخلقون أفعالهم طاعتها ومعصيتها ، ولو كانت خلقًا لله لم يصح أن يأمرهم ولا ينهاهم ، قال : وكذلك احتجت الجهمية على صحة الجبر بقول آدم : أتلومني على أمر قدر عليّ .

فالجواب : أنه ليس في قول موسى دليل قاطع على اعتقاد القول بالقدر ، وأن العبد خالق لأفعاله دون ربه كما زعمت القدرية ؛ لأنه ليس في قوله : « أنت آدم ، خيبتنا وأخرجتنا من الجنة » . أكثر من إضافة التخييب والإخراج إليه ، وإضافة ذلك إليه لا يقتضي كونه خالقًا [لهما] [(١)] ؛ إذ يصح في اللغة إضافة الفعل إلى من يقع منه على سبيل الخلق ، وإلى من يقع منه على سبيل الاكتساب ، وإذا احتملت [إضافة] [(٢)] التخييب والإخراج الوجهين جميعًا لم يقض بظاهره على أحد الاحتمالين دون الآخر إلا بدليل قاطع ، وقد قام الدليل الواضح على استحالة اختراع المخلوق أفعاله دون إقدار الله له على ذلك بقوله تعالى: ﴿**خالق كل شيء**﴾ [(٣)] وبقوله تعالى : ﴿**والله خلقكم وما تعملون**﴾[(٤)] وليس يجوز أن يريد تعالى بهذا الحجارة، لأن الحجارة أجسام ، والأجسام لا يجوز أن يعملها العباد فدل أنه تعالى خالق أعمالهم وقوله تعالى :

---

(١) في « الأصل » : لها .
(٢) في « الأصل » : الإضافة . والمثبت من « هـ » .
(٣) الزمر : ٦٢ .	(٤) الصافات : ٩٦ .

﴿ **ومن آياته خلق السماوات والأرض وما بث فيهما من دابة وهو على جمعهم إذا يشاء قدير** ﴾ (١) واجتماعهم فعل لهم ، وقدّ أخبر أنه تعالى خلقهم ، وقد ثبت أنه تعالى قادر على جميع أجناس الحركات التي [يحدثها] (٢) العباد بدلالة أنه أقدرهم عليها ، وما أقدرهم عليه فهو عليه أقدر ، كما أنه ما أعلمهم إياه فهو به أعلم ، فثبت أن الله خالق للأفعال ، والعبد مكتسب لها ، كما تقول : إن الله منفرد بخلق الولد ، والوالد منفرد بكون الولد له لا شركة فيه لغيره .

فنسبة الأفعال إلى الله تعالى من جهة خلقه لها ، ونسبتها إلى العباد من جهة اكتسابهم لها ، هذا مذهب أهل السنة والحق ، وهو مذهب موسى عليه السلام من قوله : ﴿ **إن هي إلا فتنتك تضل بها من تشاء وتهدي من تشاء** ﴾ (٣) . فأضاف موسى الهداية والإضلال إلى الله -تعالى - ، ولا تصح هذه الإضافة إلا على سبيل خلقه لها دون من وجدت منه ، وأما قول الجهمية : إن الله أجبر العباد على أفعالهم ، وهم مكرهون على الطاعة والمعصية .

واحتجوا بقول آدم : أتلومني على أمر قد قدر علي قبل أن أخلق . فلا حجة لهم فيه أيضًا ؛ لأن الموجود بالاعتبار والمشاهدة خلاف قولهم ، وذلك أن العباد لا يأتون الذنوب إلا مشتهين لها ، راغبين فيها ، والإجبار عند أهل اللغة : هو اضطرار المرء إلى الفعل وإدخاله فيه غير راغب فيه ولا محب له كالمسحوب على وجهه ، والمرتعش من الحمى ، والفالج . وأهل الجبر معتقدون لوم من وقعت منه معصية الله وتأنيبه عليها أشد التأنيب ، ومدح من وقعت منه الطاعة وإثابته عليها،

---

(١) الشورى : ٢٩ .   (٢) في « الأصل » : تجريها والمثبت من « هـ » .
(٣) الأعراف : ١٥٥ .

وإذا كان هذا اعتقادهم ؛ فاحتجاجهم بتأنيب آدم موسى على لومه له على أمر قد قدره عليه ، [وأكرهه عليه] [1] فاسد متناقض على مذهبهم ، ومحاجة آدم موسى هي أنه ذاكره ما قد عرفه ووقف عليه في التوراة من توبة الله على آدم من خطيئته وإسقاطه اللوم عليها؛ فوجب على موسى ترك لومه وعتابه على ما كان منه .

وقد ثبت أن جعفر بن محمد الصادق قيل له : قد أجبر الله العباد ؟ قال : الله أعدل من ذلك . قيل : هل فوض إليهم ؟ قال : الله (أغير) [2] من ذلك ، لو أجبرهم ما عذبهم، ولو فوض إليهم ما كان للأمر والنهي معنى . قلت : فكيف تقول إذًا ؟ قال : منزلة بين منزلتين هي أبعد مما بين السماء والأرض؛ ولله في ذلك سرّ لا تعلمونه .

واحتجت أيضًا طائفة من القدرية المجبرة غير الجهمية بهذا الحديث ، فقالت : إن كان صحيحًا قول آدم لموسى : أتلومني على أمر قدره الله على قبل أن أخلق ؛ فلا لوم على كافر في كفره ، ولا فاسق في فسقه، ولا يجوز أن يجور عليهم ويعذبهم على ما اضطرهم إليه .

قال الطبري : فالجواب أنه ليس معنى قوله : أتلومني على أمر كتبه الله عليّ قبل أن أخلق ، كما توهمته ، وكيف يجوز أن يكون ذلك معناه ، وقد عاقبه الله على خطيئته تلك بإخراجه من الجنة ، ولو لم يكن ملومًا لكان وكنا في الجنة كما أسكنه الله ؛ [ولكنه] [3] جل جلاله أخرجه منها لخطيئته تلك عقوبةً عليها ، ولم يعاقبه على ما قضى

---

(١) من « هـ » .   (٢) في « هـ » : أعز .

(٣) في « الأصل » : لكن . والمثبت من « هـ » .

عليه ؛ لأنه لو عاقبه عليه لما كان يسكنه الجنة حين أسكنه إياها ، وذلك أن القضاء عليه بذلك قد كان مضى قبل أن يخلقه ؛ فإنما استحق العقوبة على فعله ، لا على ما قضى عليه ؛ وبمثل / هذا أقر موسى [٤/ق٢٠٦-أ] لآدم بصحة حجته ، ولم يقل له كما زعمت القدرية : ليس الأمر كما تزعم ؛ لأن الله لو قضى عليك ذلك قبل أن يخلقك لم يعاقبك ، ولكن لما كان من دين الله الذي أخذ بالإقرار به عهود أنبيائه ومواثيقهم أنه لا شيء كان فيما مضى ولا فيما يحدث إلا قد مضى به قضاؤه ؛ فإنه غير معاقبهم على قضائه ، ولكن على طاعتهم ومعاصيهم، وكان ذلك معلومًا عند الأنبياء والرسل ، أقر موسى لآدم صلى الله عليهما بأن الذي احتج به عليه [له] [1] حجة ؛ وحقق صحة ذلك نبينا -عليه السلام- بقوله : فحج آدم موسى .

قال غير الطبري : وفي حديث أبي هريرة حجة لما يقوله أهل السنة: أن الجنة التي أهبط منها أبونا آدم - عليه السلام - هي جنة الخلد ، ورد قول من زعم أنها لم تكن جنة الخلد ، قالوا : وإنما كانت جنة بأرض عدن، واحتجوا على بدعتهم فقالوا : إن الله خلق الجنة لا لغو فيها ولا تأثيم ، وقد [لغا] [2] فيها إبليس حين كذب لآدم ، وأثم في كذبه ، وأنه لا يسمع أهلها لغوًا ولا كذابًا ، وأنه لا يخرج منها أهلها، وقد أخرج منها آدم وحواء بمعصيتهما ، قالوا : وكيف يجوز على آدم مع مكانه من الله وكمال عقله أن يطلب شجرة الخلد، وهو في دار الخلود والملك الذي لا يبلى ؟ وأيضًا فإن جنة الخلد دار القدس : قدست عن الخطايا والمعاصي كلها تطهيرًا لها ؛ فيقال لهم :

---

(١) من « هـ » .

(٢) في « الأصل » : بقى . والمثبت من « هـ » .

الدليل على إبطال قولكم قول موسى لآدم : أنت الذي أشقيت ذريتك وأخرجتهم من الجنة ، فأدخل الألف واللام ليدل على أنها الجنة المعروفة ؛ جنة الخلد التي وعد [الله] [1] المؤمنين بها ، التي لا عوض لها في الدنيا فلم ينكر ذلك آدم عليه من قوله ، ولو كانت غير جنة الخلد لرد آدم على موسى ، وقال : إني أخرجتهم من دار فناء وشقاء وزوال وعري إلى مثلها ، فلما سكت آدم على ما قرره موسى؛ صح أن الدار التي أخرجهم الله منها بخلاف الدار التي أخرجوا إليها في جميع الأحوال ، ويقال لهم فيما احتجوا به : إن الله خلق الجنة لا لغو فيها ولا تأثيم ، ولا كذب ، ولا يخرج منها أهلها [هذا كله بما جعله الله فيها بعد دخول أهلها] [1] فيها يوم القيامة ، وقد أخبر : أن آدم إن عصاه فيما نهاه عنه أخرجه عنها ، ولا يمتنع أن تكون دار الخلد في وقت لمن أراد تخليده [فيها] [1] ، وقد يخرج منها من قضى عليه الفناء .

وقد أجمع أهل التأويل على أن الملائكة يدخلون الجنة على أهل الجنة ويخرجون منها ، وأنها كانت بيد إبليس مفاتيحها ثم انتزعت منه بعد المعصية ، وقد دخلها النبي - عليه السلام - ليلة الإسراء ، ثم خرج منها وأخبر بما رأى فيها ، وأنها هي جنة الخلد حقًا ، وقولهم كيف يجوز على آدم في كمال عقله أن يطلب شجرة الخلد وهو في دار الخلد ؛ فيغلس عليهم ، ويقال لهم : كيف يجوز على آدم في كمال عقله أن يطلب شجرة الخلد في دار الفناء ؛ هذا لا يجوز على من له أدنى مسكة من عقلٍ ، وأما قولهم : إن الجنة دار [القدس] [2] وقد طهرها الله من الخطايا ؛ فهو جهل منهم، وذلك أن الله - سبحانه - أمر بني إسرائيل أن يدخلوا الأرض المقدسة وهي بالشام ، وأجمع أهل

---

(١) من « هـ » .

(٢) في « الأصل » : الفرس . والمثبت من « هـ » .

الشرائع على أن الله قدسها ، وقد شاهدوا فيها المعاصي ، والكفر ، والكذب ، ولم يكن تقديسها مما يمنع فيها المعاصي فكذلك دار الخلد، وأهل السنة مجمعون على أن جنة الخلد [هي التي] [(١)] أهبط منها آدم، فلا معنى لقول من خالفهم، قاله بعض شيوخنا .

* * *

باب : لا مانع لما أعطى الله

فيه : المغيرة : « كان النبي - عليه السلام - يقول خلف الصلاة : لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، اللهم لا مانع لما أعطيت ولا معطي لما منعت ، ولا ينفع ذا الجد منك الجد » .

[قال المؤلف] [(٢)] : المراد بهذا الحديث إثبات خلق الله تعالى جميع أعمال العباد ؛ لأن قوله : « لا مانع لما أعطيت » يقتضي نفي جميع المانعين سواه ، وكذلك قوله : « ولا معطي لما منعت » يقتضي نفي جميع المعطين سواه ، وأنه لا معطي ولا مانع على الحقيقة بفعل المنع والعطاء سواه ، وإذا كان ذلك كذلك ثبت أن من أعطى أو منع من المخلوقين فإعطاؤه ومنعه خلق لله وكسب للعبد ، والله - تعالى - هو المعطي وهو المانع لذلك ، حقيقة من حيث كان مخترعًا خالقًا للإعطاء والمنع ، والعبد مكتسب لهما بقدرة محدثة ، فبان أنه إنما نفى مانعًا ومعطيًا [مخترعًا] [(٣)] للمنع والإعطاء / ويخلقهما . [٤/ق٢٠٦-ب]

قال الطبري : وقوله : « لا ينفع ذا الجد منك الجَد » - بفتح الجيم في الحرفين جميعًا يقول : لا ينفع ذا الحظ في الدنيا من المال والولد منك حظه في الآخرة ؛ لأنه إنما ينفع في الآخرة عند الله العمل

---

(١) في « الأصل » : التي هي . والمثبت من « هـ » .
(٢) من « هـ » .
(٣) في « الأصل » : مخترع . والمثبت من « هـ » .

الصالح لا المال والبنون ، كما قال تعالى : ﴿ **المال والبنون زينة الحياة الدنيا** ﴾ (١) الآية .

وحكي عن أبي عمرو الشيباني أنه كان يقول : إنما هو الجِد -بكسر الجيم في الحرفين جميعًا - بمعنى : ولا ينفع ذا الاجتهاد في العمل منك اجتهاده .

قال الطبري : وهذا خلاف ما يعرفه أهل النقل والرواة لهذا الحديث، ولا نعلم أحدًا قال ذلك [غيره مع] (٢) بُعد تأويله من الصحة .

* * *

باب : نعوذ بالله من درك الشقاء وسوء القضاء

وقال تعالى : ﴿ قل أعوذ برب الفلق من شر ما خلق ﴾ (٣)

فيه : أبو هريرة : قال النبي - عليه السلام - : « [تعوذوا] (٤) بالله من جهد البلاء ، ودرك الشقاء ، وسوء القضاء ، وشماتة الأعداء » .

[قال المؤلف :] (٥) المستفاد من قوله تعالى : ﴿ **قل أعوذ برب الفلق** ﴾ (٣) إلى آخر السورة ، خلق الله - تعالى - لشر ما خلق ، ولشر غاسق ، ولشر النفاثات ، ولشر حاسد ؛ لأنه لو كان هذا الشر كله خلقًا لمن أضافه إليه من الغاسق والنفاثات والحاسد ، مخترعًا لا كسبًا ؛ لم يكن لأمر الله تعالى لنبيه ولعباده بالتعوذ به من شر ذلك كله معنى، وإنما يصح التعوذ به [عز وجل] (٥) مما هو قادر عليه دون من أضافه

---

(١) الكهف : ٤٦ . (٢) في « الأصل » : غير من . والمثبت من « هـ » .
(٣) الفلق : ١ ، ٢ . (٤) في « الأصل » : نعوذ . والمثبت من « هـ ، ن » .
(٥) من « هـ » .

إليه ، [فتعبدنا] [1] تعالى بسؤاله دفع شر خلقه عنا ؛ لأنه إذا كان قادرًا على فعل ما أضافه إلى من ذكر في السورة كان قادرًا على فعل ضده وتعبدنا بسؤاله تعالى فعل ضد ما أمرنا بالاستعاذة منه ، فبان أن الخير والشر بهذا النص خلق لله تعالى .

وأما قوله عليه السلام : « تعوذوا بالله من جهد البلاء ، ودرك الشقاء ، وسوء القضاء ، وشماتة الأعداء » ، فإنما أمرنا بالتعوذ به تعالى من أن ينزل بنا فعلاً من أفعاله (سبق) [2] علينا نزوله بنا لما يقتضيه من الشدة والمشقة، وذلك بلاء وشقاء وسوء قضاء وشماتة أعداء ، فالشقاء يكون في دين ودنيا ، وإذا كان في الدنيا كان تضييقًا في العيش ، وتقتيرًا في الرزق ، وذلك فعل الله وإن كان في الدين فذلك كفر أو معاصٍ ، وذلك فعل الله أيضًا ، وكذلك سوء القضاء عام في جميع ما قضاه تعالى من أمر الدين والدنيا ، وشماتة الأعداء، وإن كانت مضافة إليهم إضافة الفعل إلى فاعله في الظاهر ، فإنما ذلك على سبيل إضافة الكسب إلى مكتسبه ، لا على سبيل الاختراع ، إذ لا يصح في المخلوق اختراع عين، فبان أن جميع ما أمرنا بالتعوذ منه به خلق الله بدليل قوله : ﴿ **خالق كل شيء** ﴾ [3] .

* * *

باب : يحول بين المرء وقلبه

فيه : ابن عمر : « [كثيرًا] [4] ما كان النبي - عليه السلام - يحلف : لا ومقلب القلوب ».

وفيه : ابن عمر : قال النبي ﷺ لابن صياد : « اخسأ ، فلن تعدو قدرك. قال عمر : ائذن لي فأضرب عنقه . قال : دعه ، إن يكن هو فلا تطيقه ، وإن لم يكن هو فلا خير لك في قتله » .

---

(١) في « الأصل » : فتعوذنا . والمثبت من « هـ » .

(٢) في « هـ » : يشق . (٣) الزمر : ٦٢ .

(٤) في « الأصل » : كثير . والمثبت من « هـ ، ن » .

وقوله تعالى : ﴿ يحول بين المرء وقلبه ﴾ (١) يقتضي النص منه تعالى على خلقه الكفر والإيمان بأن يحول بين قلب الكافر والإيمان الذي أمره به ، فلا يكتسبه إذ لم يقدره عليه ؛ بل أقدره على ضده وهو الكفر ، ويحول بين المؤمن وبين الكفر الذي نهاه عنه بأن لم يقدره عليه ؛ بل أقدره على الإيمان الذي هو به [متلبس] (٢) وإذا خلق تعالى لهما القدرة على ما هما مكتسبان له مختاران لاكتسابه ، فلا شك أنه خالق لكفرهما وإيمانهما ؛ لأن خلقه لكفر أحدهما ، وإيمان الآخر من جنس خلق قدرتيهما عليهما ، ومحال كونه قادراً على شيء غير قادر على خلافه أو ضده أو مثله ، فبان أنه خالق بهذا النص لجميع كسب العباد، خيرها وشرها ، وهذا معنى قوله عليه السلام : «لا ومقلب القلوب» لأن معنى ذلك تقليبه قلب عبده عن إيثار الإيمان إلى إيثار الكفر ، وعن إيثار الكفر إلى إيثار الإيمان ، وكان فعل الله ذلك عدلاً فيمن أضله وخذله ؛ لأنه لم يمنعهم حقًا وجب عليه فتزول صفة العدل ، وإنما منعهم ما كان له أن يتفضل به عليهم لا ما وجب لهم وأضلهم ؛ لأنهم ملك من ملكه / [٤/ق٢٠٧-أ] خلقهم على إرادته ، لا على إرادتهم ، فكان ما خلق فيهم من قوة الهداية والتوفيق على وجه (الفضل) (٣) ، وقد بين هذا المعنى إياس بن معاوية ؛ ذكر الآجري بإسناده عن حبيب بن الشهيد قال : « جاءوا برجل يتكلم في القدر إلى إياس بن معاوية فقال له إياس : ما تقول ؟ قال : أقول إن الله أمر العباد ونهاهم [فإن] (٤) الله لا يظلمهم شيئًا . فقال له إياس : أخبرني عن الظلم ، تعرفه أو لا تعرفه. قال: [بل](٥)

---

(١) الأنفال : ٢٤ . (٢) في « الأصل » : ملتبس . والمثبت من « هـ » .

(٣) في « هـ » : التفضل .

(٤) في « الأصل » : إن . والمثبت من « هـ » .

(٥) في « الأصل » : أنا . والمثبت من « هـ » .

أعرفه . قال : ما الظلم ؟ قال : أن يأخذ الرجل ما ليس له . قال: فمن أخذ ما له ظلم ؟! قال : لا . قال إياس : فإن لله تعالى كل شيء .

وقال عمران بن حصين لأبي الأسود الدؤلي : لو عذب الله أهل السموات والأرض لعذبهم وهو غير ظالم لهم ، ولو رحمهم لكانت رحمته أوسع لهم ، ولو أنفقت مثل أُحد ذهبًا ما تقبل منك حتى تؤمن بالقدر خيره وشره .

وروي مثل ذلك عن ابن مسعود ، وأبي بن كعب ، وسعد بن أبي وقاص ، وزيد بن ثابت ، وقال زيد : سمعته من رسول الله إلا أنه قال : « ولو رحمهم كانت رحمته لهم [خيرًا] [1] من أعمالهم » .

وموافقة الحديث للترجمة قول النبي ﷺ لعمر : « إن يكن هو فلا تطيقه ، وإن لم يكن هو فلا خير لك في قتله » يعني إنه إن كان الدجال قد سبق في علم الله خروجه وإضلاله للناس ، فلن يقدرك خالقك على قتل من سبق في علمه أنه يخرج ويضل الناس ؛ إذ لو أقدرك على ذلك لكان فيه انقلاب علمه ، والله تعالى عن ذلك .

* * *

باب : قل لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا

قال مجاهد : بفاتنين : بمضلين إلا من كتب الله أنه يصلى الجحيم قدر فهدى ، قدر الشقاء والسعادة وهدى الأنعام لمراتعها .

فيه : عائشة : « أنها سألت النبي ﷺ عن الطاعون ، قال : كان عذابًا يبعثه الله على من يشاء فجعله الله رحمة للمؤمنين ، ما من عبد يكون في بلدة

---

(١) في « الأصل » : خير . والمثبت من « هـ » .

يكون فيه ويمكث فيه لا يخرج من البلدة صابراً محتسبًا ، يعلم أنه لن يصيبه إلا ما كتب الله له إلا كان له مثل أجر شهيد » .

معنى هذا الباب أن الله أعلم عباده أن ما يصيبهم في الدنيا من الشدائد والمحن والضيق والخصب والجدب ، أن ذلك كله فعل الله يفعل من ذلك ما يشاء بعباده ويبتليهم بالخير والشر ، وذلك كله مكتوب في اللوح المحفوظ ، ولا خلاف في هذا بين جماعة الأمة من قدري وسني ، وإنما اختلفوا في أفعال العباد الواقعة منهم على ما تقدم وهذه الآية إنما جاءت فيما أصاب العباد من أفعال الله التي اختص باختراعها دون خلقه ، ولم يقدرهم على كسبها دون ما أصابوه مكتسبين له مختارين .

* * *

باب : ﴿ وما كنا لنهتدي لولا أن هداني الله ﴾ [1] و﴿ لو أن الله هداني لكنت من المتقين ﴾ [2]

فيه : البراء : رأيت النبي ﷺ ينقل التراب يوم الخندق وهو يقول : «والله لولا الله ما اهتدينا ولا صمنا ولا صلينا » .

في هاتين الآيتين وفي الحديث نص أن الله - تعالى - انفرد بخلق الهدى والضلال ، وإنما قدر العباد على اكتساب ما أراد منهم اكتسابهم له من إيمان أو كفر ، وأن ذلك ليس بخلق للعباد كما زعمت القدرية. وروي أن علي بن أبي طالب لقي رجلاً من القدرية فقال له : خالفتم الله وخالفتم الملائكة ، وخالفتم أهل الجنة وخالفتم أهل النار ، وخالفتم الأنبياء وخالفتم الشيطان ، فأما خلافكم الله فقوله : **﴿ إنك لا تهدي من أحببت ولكن الله يهدي من يشاء ﴾** [3] . وأما خلافكم

---

(١) الأعراف : ٤٣ . (٢) الزمر : ٥٧ .
(٣) القصص : ٥٦ .

الملائكة فقولهم : ﴿ **لا علم لنا إلا ما علمتنا** ﴾ [1] . وأما خلافكم الأنبياء ، فقول نوح : ﴿ **ولا ينفعكم نصحي إن أردت أن أنصح لكم إن كان الله يريد أن يغويكم** ﴾[2] . وأما خلافكم أهل الجنة ، فقولهم: ﴿ **الحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله** ﴾ [3] . وأما خلافكم لأهل النار ، فقولهم : ﴿ **ربنا غلبت علينا شقوتنا وكنا قومًا ضالين** ﴾[4] . وأما خلافكم الشيطان، فقول إبليس: ﴿ **رب بما أغويتني** ﴾[5] .

وذكر الآجري بإسناده عن علي بن أبي طالب / أن رجلاً أتاه فقال: [٤/ق٢٠٧-ب] أخبرني عن القدر ، فقال : طريق مظلم فلا تسلكه . قال : أخبرني عن القدر . قال : بحر عميق فلا تلجه ، قال : أخبرني عن القدر ، قال : سر الله فلا تكلفه ، ثم ولى الرجل غير بعيد ، ثم رجع فقال لعلي : في المشيئة الأولى أقوم وأقعد ، وأقبض وأبسط ، فقال له علي: إني سائلك عن ثلاث خصال ولن يجعل الله لك مخرجًا ، قال: أخبرني أخلقك الله لما [شاء] [6] أم لما شئت ؟ قال : بل لما شاء ، قال : أخبرني أتجيء يوم القيامة كما يشاء أو كما شئت ؟ قال: بل كما يشاء . قال : أخبرني أجعلك الله كما شاء أو كما شئت ؟ قال: بل كما شاء . قال : فليس لك من المشيئة شيء .

وقال محمد بن كعب القرظي : لقد سمى الله المكذبين بالقدر باسم نسبهم إليه في القرآن فقال : ﴿ **إن المجرمين في ضلال وسعر يوم يسحبون في النار على وجوههم ذوقوا مس سقر إنا كل شيء خلقناه بقدر** ﴾ [7] فهم المجرمون .

* * *

---

(١) البقرة : ٣٢ . (٢) هود : ٣٤ . (٣) الأعراف : ٤٣ .
(٤) المؤمنون : ١٠٦ . (٥) الأعراف : ١٦ .
(٦) في « الأصل » : يشاء . والمثبت من « هـ » . (٧) القمر : ٤٧ - ٤٩ .

كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة

فيه : طارق بن شهاب : قال رجل من اليهود لعمر : يا أمير المؤمنين ، لو أن علينا نزلت هذه الآية ﴿ اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام دينا ﴾ [1] لاتخذنا ذلك اليوم عيداً . فقال عمر : إني لأعلم أي يوم نزلت هذه الآية نزلت يوم عرفة في يوم جمعة».

وفيه أنس : « سمع عمر الغد حين بايع المسلمون أبا بكر ، واستوى على منبر رسول الله ﷺ تشهد قبل أبي بكر فقال : « أما بعد ، فاختار الله لرسوله الذي عنده على الذي عندكم ، وهذا الكتاب الذي هدى الله به رسولكم ، فخذوا به تهتدوا لما هدى الله به رسوله » .

وفيه : ابن عباس : ضمني النبي – عليه السلام – إليه وقال : « اللهم علمه الكتاب » .

وفيه : أبو برزة : قال إن الله يغنيكم بالإسلام وبمحمد ﷺ » .

وفيه : ابن عمر : [أنه] [2] كتب إلى عبد الملك بن مروان يبايعه ، وأقر لك بالسمع والطاعة على سنة الله وسنة رسوله فيما استطعت » .

لا عصمة لأحد إلا في كتاب الله وسنة رسوله ﷺ أو في إجماع العلماء على معنى في أحدهما .

والسنة تنقسم قسمين : منها واجبة ، ومنها غير واجبة ، فأما الواجبة فما كان تفسيراً من النبي – عليه السلام – لفرض الله ، وكل ما أمر به النبي أو نهى عنه أو فعله فهو سنة ، ما

---

(١) المائدة : ٣ (٢) من « هـ » .

لم يكن خاصًا له ، وأما غير الواجب من سنته عليه السلام فما كان من فعله تطوعًا ولا يحرج أحد في تركه كقوله عليه السلام : « إذا سمعتم المؤذن فقولوا مثلما يقول » . وكقوله : « لا تتخذوا الضيعة [فترغبوا] [١] في الدنيا » .

وأكثر أصحابه كان لهم ضياع ، فدل أنه أدب منه نستعين به على دفع الرغبة في الدنيا ، ومثل ذلك مما أمر به تأديبًا لأمته بأكرم الأخلاق من غير أن يوجب ذلك عليهم ، ومثل ذلك ما فعله في خاصة نفسه من أمر الدنيا كاتخاذه لنعله قبالين ، ولبسه النعال السبتية ، وصبغه إزاره بالورس ، وحبه القرع ، وإعجابه بالطيب، وحبه من الشاة الذراع ، ونومه على الشق الأيمن ، وسرعته في المشي، وخروجه في السفر يوم الخميس ، وقدومه منه في الضحى وشبه ذلك ، فلم يسنه لأمته ، ولا دعاهم إليه ومن تشبه به عليه السلام حبًا له كان أقرب إلى ربه كفعل ابن عمر في ذلك .

* * *

باب : قول النبي عليه ا لسلام : بعثت بجوامع الكلم

فيه : أبو هريرة : قال النبي – عليه السلام – : « بعثت بجوامع الكلم ، ونصرت بالرعب وبينا أنا نائم [رأيتني] [٢] أتيت بمفاتيح خزائن الأرض ، فوضعت في يدي . قال أبو هريرة : فقد ذهب رسول الله وأنتم تلغثونها أو ترغثونها أو كلمة تشبهها » .

وفيه : أبو هريرة : قال النبي – عليه السلام – : « ما من الأنبياء نبي إلا قد أعطي من الآيات ما مثله أومن – أو آمن عليه البشر – [و][٢] إنما كان الذي أوتيت وحيًا أوحاه الله إليّ فأرجو أني أكثرهم تابعًا يوم

---

(١) في « الأصل » : لترغبوا . والمثبت من « هـ » .

(٢) من « هـ ، ن » .

القيامة » أي : صدق بتلك الآيات لإعجازها لمن شهدها ، كقلب العصا حية ، وفرق البحر لموسى وكإبراء الأكمه والأبرص وإحياء الموتى لعيسى ، وكان الذي أعطيت أنا وحيًا أوحاه الله إليّ / فكان آية [٤/ق٢٠٨-أ] باقية دعي إلى الإتيان بمثله أهل التعاطي له ، ومن نزل بلسانهم ، فعجزوا عنه ثم بقى آية ماثلة للعقول إلى من يأتي إلى يوم القيامة ، يرون إعجاز الناس عنه رأي العين ، والآيات التي أوتيها غيره من الأنبياء قبله رئي إعجازها في زمانهم ، ثم لم تصحبهم إلا مدة حياتهم ، وانقطعت بوفاتهم ، وكان القرآن باقيًا بعد النبي - عليه السلام - يتحدى الناس إلى الإتيان بمثله ، ويعجزهم على مرور الأعصار فكان آية باقية لكل من أتى ، فلذلك رجا أن يكون أكثرهم تابعًا يوم القيامة، مع أن الله - تعالى - قد ضمن هذه الآية ألا يدخلها الباطل إلى أن تقوم الساعة بقوله تعالى : ﴿ **إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون**﴾[١] وضمن نبينا - عليه السلام - بقاء شريعته [وإن] [٢] ضيع بعضها قوم بقوله : « لا تزال طائفة من أمتي على الحق لا يضرهم من خالفهم حتى يأتي أمر الله وهم على ذلك » .

وقوله : وأنتم تلغثونها أو ترغثونها . شك في أي الكلمتين قال النبي - عليه السلام [٣] - فأما لغث باللام فلم أجده فيما تصفحت من اللغة ، وأما رغث بالراء فهو معروف عندهم يقال : رغثت كل أُنثى ولدها وأرغثته أرضعته فهي رغوث .

* * *

(١) الحجر : ٩ .

(٢) في « الأصل » : بأن . والمثبت من « هـ » .

(٣) هذا قول أبي هريرة كما في المتن .

باب : الاقتداء بسنن رسول الله ﷺ

وقول الله تعالى : ﴿ واجعلنا للمتقين إماما ﴾ [1]

أي أئمة نقتدي بمن قبلنا ويقتدي بنا من بعدنا . وقال ابن عون : ثلاث أحبهن لنفسي ولإخواني : هذه السنة أن يتعلموها ويسألوا عنها، والقرآن أن يتفهموه ويسألوا عنه ، وتدعوا الناس إلا من خير .

فيه : أبو وائل قال : « جلست إلى شيبة في هذا المسجد فقال : جلس [إلي][2] عمر في مجلسك هذا ، فقال : هممت ألا أدع فيها صفراء ولا بيضاء إلا قسمتها بين المسلمين . قلت : ما أنت بفاعل ، قال : لم قلت ، لم يفعله صاحباك ، قال : هما المرآن يقتدى بهما » .

وفيه : حذيفة : قال النبي - عليه السلام - : « إن الأمانة نزلت من السماء في جذر قلوب الرجال ونزل القرآن ، فقرءوا القرآن ، وعلموا من السنة» .

وفيه : عبد الله : « إن أحسن الحديث كتاب الله ، وأحسن الهدي هدي محمد ، وشر الأمور محدثاتها ، وإن ما توعدون لآت وما أنتم بمعجزين» .

وفيه : أبو هريرة وزيد بن خالد : قال النبي - عليه السلام - : «[لأقضين] [3] بينكما بكتاب الله » .

وفيه : جابر قال : « جاءت ملائكة إلى النبي - عليه السلام - وهو نائم فقال بعضهم: إنه نائم . وقال بعضهم : إن العين نائمة والقلب يقظان

(١) الفرقان : ٧٤ . (٢) من « هـ ، ن » .

(٣) في « الأصل » : لأقضي . والمثبت من « هـ ، ن » .

فقالوا : إن لصاحبكم هذا مثلاً فاضربوا له مثلا ، فقالوا : مثله كمثل رجل بنى داراً وجعل فيها [مأدبة] [1] وبعث [داعيًا] [2] فمن أجاب الداعي دخل الدار وأكل من [المأدبة] [3] [ومن لم يجب الداعي لم يدخل الدار ولم يأكل من المأدبة] [4] فقالوا : أوّلوها له يفقهها. قالوا : فالدار الجنة والداعي محمد ، فمن أطاع محمدًا فقد أطاع الله ، ومن عصى محمداً فقد عصى الله ، ومحمد فرق بين الناس».

وفيه : حذيفة : « قال : يا معشر القراء ، استقيموا فقد سبقتم سبقًا بعيداً ، ولئن أخذتم يمينًا وشمالاً لقد ضللتم ضلالاً بعيداً » .

وفيه : أبو موسى : قال النبي – عليه السلام – : « مثلي ومثل ما بعثني الله به كمثل رجل أتى قومًا فقال : يا قوم ، إني رأيت الجيش بعيني [وإني][4] أنا النذير العريان [فالنجاء] [5] فأطاعه طائفة من قومه، فأدلجوا فانطلقوا على مهلهم فنجوا ، وكذبت طائفة منهم فأصبحوا مكانهم ، فصبحهم الجيش فأهلكهم [واجتاحهم] [6] فذلك مثل من أطاعني واتبع ما جئت به ، ومثل من عصاني وكذب ما جئت به من الحق » .

وفيه : أبو هريرة : « لما توفي النبي ﷺ واستخلف أبو بكر ، وكفر من كفر من العرب ، قال : والله لو منعوني عقالاً كانوا يؤدونه إلى رسول الله لقاتلتهم على منعه » .

وفيه : ابن عباس : « أن عيينة بن حصن قال لعمر : والله ما تعطينا

---

(١) في « الأصل » : مائدة . والمثبت من « هـ ، ن » .
(٢) في « الأصل » : جياعًا . والمثبت من « هـ ، ن » .
(٣) في « الأصل » : المائدة . والمثبت من « هـ ، ن » .
(٤) من « هـ ، ن » .
(٥) في « الأصل » : فاللجاء . والمثبت من « هـ ، ن » .
(٦) في « الأصل » : فاجتاحهم . والمثبت من « هـ ، ن » .

الجزل ولا تحكم بيننا بالعدل . فغضب عمر حتى هم بأن يقع به ، فقال له الحر بن قيس : يا أمير المؤمنين ، إن الله - تعالى - قال لنبيه: ﴿خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين ﴾ [١] وهذا من الجاهلين فوالله ما جاوزها عمر حين تلاها عليه ، وكان وقافًا عند كتاب الله » .

وفيه : أسماء في حديث [الخسوف] [٢] : « قال النبي - عليه السلام- : فأما المؤمن فيقول : هو محمد [جاءنا] [٣] بالبينات والهدى فآمنا واتبعنا » / الحديث . [٤/ق٢٠٨-ب]

وفيه : أبو هريرة : قال النبي - عليه السلام - : « دعوني ما تركتكم ، فإنما هلك من كان قبلكم بسؤالهم واختلافهم على أنبيائهم، فإذا نهيتكم عن شيء فاجتنبوه ، وإذا أمرتكم بأمر فائتوا منه ما استطعتم » .

قال المؤلف : أمر الله عباده باتباع نبيه والاقتداء بسنته فقال : ﴿فآمنوا بالله ورسوله النبي الأمي الذي يؤمن بالله وكلماته واتبعوه لعلكم تهتدون ﴾ [٤] وقال : ﴿ والذين آمنوا به وعزروه ونصروه واتبعوا النور الذي أنزل معه أولئك هم المفلحون ﴾ [٥] وتوعد من خالف سبيله ورغب عن سنته فقال : ﴿ فليحذر الذين يخالفون عن أمره أن تصيبهم فتنة أو يصيبهم عذاب أليم ﴾ [٦] وهذه الآيات مصدقة [لأحاديث][٧] هذا الباب .

وأما قول عمر : « لقد هممت ألا أدع فيها صفراء ولا بيضاء» يعني: ذهبًا ولا فضة ، أراد أن يقسم المال الذي يجمع بمكة ،

---

(١) الأعراف : ١٩٩ .
(٢) في « الأصل » : الخوف . والمثبت من « هـ » .
(٣) في « الأصل » : جاء . والمثبت من « هـ » .
(٤) الأعراف : ١٥٨ .
(٥) الأعراف : ١٥٧ .
(٦) النور : ٦٣ .
(٧) في « الأصل » : لحديث .

وفضل عن نفقتها ومؤنتها ويضعه في مصالح المسلمين ، فلما ذكره شيبة أن النبي ﷺ وأبا بكر بعده لم يعرضا له ؛ لم يسعه خلافهما ، ورأى أن الاقتداء بهما واجب ، فربما تهدم البيت أو خلق بعض آلاته فصرف ذلك المال فيه ، ولو صرف ذلك المال في منافع المسلمين لكان كأنه قد خرج من وجهه الذي سبل فيه .

قال المهلب : وأما الأمانة التي في حديث حذيفة ، فإنها الإيمان وجميع شرائعه ، والتنزه عن الخيانة وشبهها .

والجذر : أصل الشيء ، فدل ذلك أن الإيمان مفروض على القلب ولا بد من النية في كل عمل على ما يذهب إليه الجمهور .

وقوله : « نزلت في جذر قلوب الرجال » يعني : بعض الرجال الذين ختم الله لهم بالإيمان ، وأما من لم يقدر له به فليس بداخل في معنى ذلك ، ألا ترى قوله : « ونزل القرآن ثم قرءوا من القرآن وعلموا من السنة » يعني المؤمنين خاصة المذكورين في أول الحديث .

وقوله : « جاءت الملائكة ، فقال بعضهم : العين نائمة والقلب يقظان» يدل أن رؤيا الأنبياء وحي لثبات القلب ، ولذلك قال عليه السلام : «إن عيني تنامان ولا ينام قلبي » وفيه دليل أن الفهم والمعرفة في القلب.

وقول الملك : « أولوها له » . يدل أن الرؤيا على [ما عبرت] (١) في النوم .

[ومعنى] (٢) قول الحر « فما جاوزها عمر وكان وقافًا عند كتاب الله » . فهو معنى الترجمة ، والإعراض عن الجهل إن صح أنه جهل مرغب فيه مندوب إليه ، وأما إذا كان الجفاء على السلطان تعمدًا أو استخفافًا بحقه فله تغييره والتشديد فيه .

---

(١) في « الأصل » : معرفة . والمثبت من « هـ » .

(٢) في « الأصل » : في معنى .

واستعمال عمر لهذه الآية يدل على أنها [غير] [1] منسوخة ، وهو قول مجاهد وقتادة ، وروى هشام بن عروة عن أبيه ، وعن عبد الله ابن الزبير قالا : نزلت هذه الآية في أخذ العفو من أخلاق الناس وأعمالهم وما لا يجهدهم .

فعلى هذا القول هي محكمة وهذا لفظه لفظ الأمر ، وهو تأديب من الله نبيه ، وفي تأديبه تأديب لأمته ، فهو تعليم للمعاشرة الجميلة والأخذ بالفضل ، وقد روي عن ابن عباس في قوله : ﴿ **خذ العفو**﴾[2] يعني : الفضل من أموال الناس ، ثم نسخ ذلك وهو قول الضحاك والسدي . وفيها قول ثالث عن ابن زيد قال : أمر الله نبيه بالعفو عن المشركين وترك الغلظة عليهم ، قبل أن يفرض [عليه] [3] قتالهم ثم نسخت بالقتال .

فأما قوله عليه السلام : « فإذا نهيتكم عن شيء فاجتنبوه وإذا أمرتكم بشيء فائتوا منه ما استطعتم » فقد احتج به من قال : إن الأمر موضوع على الندب دون الإيجاب ، قالوا : ألا تراه عليه السلام علق الأمر بمشيئتنا واستطاعتنا ، وألزمنا الانتهاء عما نهى عنه ، فوجب حمل النهي على الوجوب دون الأمر . قال أبو بكر بن الطيب : والتعلق بهذا غير صحيح ومعنى قوله : « فائتوا منه ما استطعتم » إذا كنتم مستطيعين ، وقد يأمر بالفعل الذي يستطيعه على طريق الوجوب كما يأمر به على وجه الندب ، ولا يدل على أنه ليس بواجب قال الله - تعالى - : ﴿ **فاتقوا الله ما استطعتم** ﴾ [4] ولم يرد به [ندبنا] [5] إلى التقوى دون إيجابه ، ومعنى الآية والخبر : أن اتقوه إذا كنتم سالمين

---

(1) من « هـ » .
(2) الأعراف : ١٩٩ .
(3) في « الأصل » : عليهم . والمثبت من « هـ » .
(4) التغابن : ١٦ .
(5) في « الأصل » : ندبه . والمثبت من « هـ » .

غير عجزة قادرين ، ولم يرد أنه لا يؤمر إلا من قد وجدت قدرته على الفعل كما تقول القدرية .

وقال المهلب : من احتج بهذا الحديث أن النواهي أوجب من الأوامر فهو خطأ ؛ لأنه عليه السلام لم ينه بهذا الحديث عن المحرمات [التي] (١) نهى الله عنها في كتابه بأن حرم الفواحش / ما ظهر منها وما بطن ، وإنما أراد فإذا نهيتكم عما هو مباح لكم أن تأتوه ، فإنما نهيتكم رفقًا بكم ، كنهيه عن الوصال إبقاءً عليهم ، وكنهيه عبد الله ابن [عمرو] (٢) عن صيام الدهر وقيام الليل كله ، وكنهيه عن إضاعة المال ؛ لئلا يكون سببًا لهلاكهم ، وكنهيه عن كسب الحجام وعسب الفحل تنزهًا واعتلاءً عن الأعمال الوضيعة .

[٤/ق٢٠٩-أ]

وأما الأمر الذي أمرهم أن يأتوا منه ما استطاعوا ، فهو الأمر من التواصي بالخير ، والصدقات وصلة الرحم ، وغير ذلك مما سنه ، وليس بفرض ولذلك قال لهم : فائتوا ما استطعتم أي : لم آمركم بذلك أمر إلزام ولا أمر حتم أن تبلغوا غاياته لكن ما استطعتم من ذلك؛ لأن الله - تعالى - عفا عما لا يستطاع .

وعلى هذا المعنى خرج (معنى) (٣) الحديث منه عليه السلام ؛ لأن أصحابه كانوا يكثرون سؤاله عن أعمال من الطاعات يحرصون على فعلها فكان ينهاهم عن التشديد ويأمرهم بالرفق ؛ خشية الانقطاع وسأستقصي [مذاهب العلماء في الأمر والنهي في باب النهي على التحريم إلا ما يعرف إباحته بعد هذا إن شاء الله تعالى] (٤) .

* * *

---

(١) في « الأصل » : الذي . والمثبت من « هـ » .

(٢) في « الأصل » : عمر . والمثبت من « هـ » .　　(٣) في « هـ » : لفظ .

(٤) في « الأصل » : ذلك بعد هذا . والمثبت من « هـ » .

باب : ما يكره من كثرة السؤال وتكلف ما لا يعني

وقول الله : ﴿لا تسألوا عن أشياء إن تبد لكم تسؤكم﴾(١)

فيه : سعد : قال النبي - عليه السلام - : « إن أعظم المسلمين جرمًا من سأل [عن شيء](٢) لم يحرم ، فحرم من أجل مسألته » .

وفيه : زيد بن ثابت : « أن النبي - عليه السلام - اتخذ حجرة في المسجد من حصير فصلى فيها ليالي حتى اجتمع إليه ناس ، ثم فقدوا صوته ليلة فظنوا أنه قد نام ، فجعل بعضهم [يتنحنح](٣) ليخرج إليهم فقال : ما زال بكم الذي رأيت من صنيعكم حتى خشيت أن يكتب عليكم ، ولو كتب عليكم ما قمتم به ، فصلوا أيها الناس في بيوتكم فإن أفضل صلاة المرء في بيته إلا المكتوبة » .

وفيه : أبو موسى : « سئل النبي - عليه السلام - عن أشياء كرهها، فلما أكثروا عليه المسألة غضب وقال : سلوني . فقام رجل فقال : يا رسول الله، من أبي؟ قال : أبوك حذافة . ثم قام آخر فقال : من أبي ؟ فقال : أبوك سالم مولى شيبة ، فلما رأى عمر ما بوجه النبي - عليه السلام - من الغضب قال : إنا نتوب إلى الله » .

وذكر قصة حذافة من رواية أنس وفيه : « فقام رجل فقال : أين مدخلي يا رسول الله ؟ قال : النار . ثم قام عبد الله بن حذافة فقال : من أبي ؟ فقال : أبوك حذافة . فبرك عمر على ركبتيه فقال : رضينا بالله ربا وبالإسلام دينا وبمحمد ﷺ نبيًا . فسكت النبي - عليه السلام - [عند ذلك](٤) ثم قال : أولى والذي نفسي بيده ، لقد عرضت علي الجنة والنار في عرض هذا الحائط...» الحديث .

وقال أنس : لما قال النبي - عليه السلام - : أبوك فلان : نزلت : ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تسألوا عن أشياء إن تبد لكم تسؤكم ﴾(١) الآية .

---

(١) المائدة : ١٠١ .

(٢) في « الأصل » : شيئًا . والمثبت من « هـ ، ن » .

(٣) في « الأصل » : يسبح . والمثبت من « هـ ، ن » . (٤) من « هـ » .

وفيه : المغيرة : « أن النبي - عليه السلام - كان ينهى عن قيل وقال، وكثرة السؤال ، وإضاعة المال ... » الحديث .

وفيه : [أنس] (1) : « قال النبي - عليه السلام - : لن يبرح الناس يسألون : هذا الله خالق كل شيء ، فمن خلق الله » .

وفيه ابن مسعود : « أن النبي - عليه السلام - مر عليه نفر من اليهود ، فقال بعضهم : سلوه عن الروح ، وقال بعضهم : لا تسألوه، لا يسمعكم فيه ما تكرهون ... » الحديث .

قال ابن عون : سألت نافعًا عن قوله تعالى : ﴿ **لا تسألوا عن أشياء إن تبد لكم تسؤكم** ﴾ (2) فقال : لم تزل كثرة السؤال منذ قط تكره . وقال الحسن البصري : في هذه الآية سألوا النبي - عليه السلام - عن أمور الجاهلية التي عفا الله عنها ، ولا وجه للسؤال عما عفا الله عنه [وقيل](3) كان الرجل الذي سأل النبي - عليه السلام - عن أبيه يتنازعه رجلان فأخبره النبي - عليه السلام - بأبيه منهما ، وأعلم عليه السلام أن السؤال عن مثل هذا لا ينبغي ، وأنه إذا ظهر فيه الجواب ساء ذلك السائل ، وأدّى ذلك إلى فضيحته لا سيما وقت سؤال النبي ونزول الآيات في ذلك .

وقد تقدم في كتاب الفتن كراهية أم حذافة [لسؤاله النبي ﷺ عن أبيه وما قالت له في ذلك] (4) . فلسؤالهم له عليه السلام عما لا ينبغي وتعنيته عليه السلام للذي قال له : أين مدخلي يا رسول الله؟ قال : النار؛ لأن تعنيته عليه السلام يوجب النار ، وقد أمر الله المسلمين بتعزيزه وتوقيره وألا يرفع الصوت فوق صوته ، وتوعد على ذلك بحبوط العمل بقوله تعالى : ﴿ **أن تحبط أعمالكم وأنتم لا**

---

(1) من « هـ ، ن » . (2) المائدة : 101 .
(3) في « الأصل » : وفيه . والمثبت من « هـ » .
(4) في « الأصل » : لذلك . والمثبت من « هـ » .

تشعرون﴾[1] ألا ترى فهم عمر / لهذا الأمر وتلافيه له ؛ بأن برك [٤/ق٢٠٩-ب] على ركبتيه ، وقال : رضينا بالله ربا وبالإسلام دينًا وبمحمد نبيا وقال مرة : إنا نتوب إلى الله . فسكت عليه السلام وسكن غضبه، ورضي قول عمر حين ذب عن نبيه ونبّه على التوبة مما فيه إغضابه أن يؤدي إلى غضب الله ، وقد ذكرنا شيئًا من هذا المعنى في كتاب الفتن [في باب التعوذ من الفتن] [2] والدليل على صواب فعل عمر قول النبي - عليه السلام - بعد ذلك : « أولى والذي نفسي بيده » يعني : أولى لمن عنَّت نبيه في المسألة وأغضبه ، ومعنى أولى عند العرب التهدد والوعيد . قال المهلب : يقال للرجل : إذا أفلت من عظيمة: أولى لك . أي : كدت تهلك ثم أَفْلَتَّ ، ويروى عن ابن الحنفية أنه كان يقول : إذا مات ميت في جواره : أولى لي ، كدت والله أن أكون السواد المخترم .

قال المهلب : وأصل النهي عن كثرة السؤال والتنطع في المسائل مبين في كتاب الله - تعالى - في بقرة بني إسرائيل أمرهم الله بذبح بقرة فلو ذبحوا أي بقرة كانت لكانوا مؤتمرين غير عاصين ، فلما سألوا ما هي وما لونها ؟ (قيل لهم) [3] : لا فارض ولا بكر . ضيق عليهم وقد كان ذلك مباحٌ ، وكذلك ضيق عليهم في لونها فقيل لهم : صفراء . فمنعوا من سائر الألوان ، وقد كان ذلك مباحًا لهم ، ثم لما قالوا : إن البقر تشابه علينا . قيل لهم : لا ذلول حرّاثه ولا ساقية للحرث أي معلمة لاستخراج الماء وقد كان ذلك [مباحًا] [4] لهم ، فعز عليهم وجود هذه الصفة المضيق عليهم فيها حتى أمرهم أن يشتروها بأضعاف ثمنها عقوبة بسؤالهم عما لم يكن لهم به حاجة .

---

(١) الحجرات : ٢ .　　(٢) من « هـ » .

(٣) تكررت في « الأصل » .

(٤) في « الأصل » : مباح . والمثبت من « هـ » .

وقوله تعالى : ﴿ لا تسألوا عن أشياء إن تبد لكم تسؤكم ﴾ [1] يحذر مما نزل بهؤلاء القوم ثم وعد أنه إن سألوا عنها حين نزول القرآن ضيق عليهم ، وقد قال بعض أصحابنا : إنه بقيت منه بقية مكروهة وهو أن التنطع في المسألة والبحث عن حقيقتها يلزم منها أن [يأتي][2] بذلك الشرع على الحقيقة التي انكشفت له في البحث ، وذلك مثل أن يسأل عن سلع الأسواق الممكن فيها الغصب والنهب هل له شراء ذلك في سوق المسلمين ، وهو يمكن فيه ذلك المكروه أم لا ؟ فيفتى بأن له أن يبتاع ذلك ، ثم إن تنطع ، فقال : إن قام الدليل على السلعة أنها من نهب أو غصب هل لي أن أشتريها ؟ فيفتى بأن لا يشتريها فهذا الذي بقي من كراهة السؤال والتنطع [حتى] [3] الآن في النسخ الذي كان يمكن حين نزول القرآن والتضييق المشروع .

وقد سئل مالك عن قيل وقال وكثرة السؤال ؟ فقال : لا أدري أهو ما أنهاكم عنه من كثرة المسائل ، فقد كره رسول الله المسائل وعابها ، أو هو مسألة الناس أموالهم . وكان زيد بن ثابت وأبي بن كعب وجماعة من السلف يكرهون السؤال في العلم عما لم ينزل ، [ويقولون] [4] : إذا نزلت النازلة وفق [المسئول] [5] عنها ، ويرون الكلام فيما لم ينزل من التكلف . وقال مالك : أدركت أهل هذا البلد وما عند أحدهم علم غير الكتاب والسنة ، فإذا نزلت النازلة جمع الأمير لها من حضر من العلماء ، فما اتفقوا عليه أنفذه ، وأنتم تكثرون المسائل وقد كرهها رسول الله .

فإن قيل : فإذا ثبت النهي عن كثرة السؤال والبحث في هذه الأحاديث ، فقد جاء في كتاب الله ما يعارض ذلك ، وهو

---

(١) المائدة : ١٠١ . (٢) من « هـ » .
(٣) في « الأصل » : حين . والمثبت من « هـ » .
(٤) في « الأصل » : ويقول . والمثبت من « هـ » .
(٥) في « الأصل » : السؤال .

الأمر بسؤال العلماء والبحث عن العلم ؛ بقوله تعالى : ﴿ **فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون** ﴾ (١) .

فالجواب عنه أن [الذي] (٢) أمر الله عباده بالسؤال عنه هو ما ثبت وتقرر وجوبه مما يجب عليهم العمل به ، والذي جاء فيه النهي هو ما لم يتعبد الله عباده به ، ولم يذكره في كتابه ، وقد سئل ابن عباس عن قوله تعالى : ﴿ **لا تسألوا عن أشياء إن تبد لكم** ﴾ (٣) الآية قال : ما لم يذكر في القرآن فهو مما عفا الله عنه ، ألا ترى أن الله لم يجب اليهود عن سؤالهم عن الروح لما لم يكن مما لهم به الحاجة إلى علمه، وكان من علم الله الذي لم يطلع عليه أحدًا فقال لنبيه ﷺ : ﴿**قل الروح من أمر ربي وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً** ﴾ (٤) . فنسبهم تعالى في سؤالهم عما (لم) (٥) ينبغي لهم السؤال عنه إلى قلة العلم، وقال مالك : قيل وقال هو هذه الأخبار والأراجيف في رأيي ، أعطى فلان كذا ومنع كذا بقوله : ﴿ **ولئن سألتهم ليقولن إنما كنا نخوض ونلعب**﴾(٦). فهؤلاء يخوضون، رواه عنه أشهب في جامع المستخرجة .

وأما قول بعض اليهود حين سألوه عن الروح : لا تسألوه يسمعكم ما تكرهون . فإنما قال ذلك لعلمه أنهم كانوا معنتين والمعنت من عقوبته أن يخاطب / بما يكره . [٤/ق٢١٠-أ]

وأما قوله عليه السلام في حديث أنس : « لن يبرح الناس يسألون:

---

(١) النحل : ٤٣ ، الأنبياء : ٧ .
(٢) من « هـ » .
(٣) المائدة : ١٠١ .
(٤) الإسراء : ٨٥ .
(٥) في « هـ » : لا .
(٦) التوبة : ٦٥ .

هذا الله خالق كل شيء فمن خلق الله ؟ » هذا من السؤال الذي لا يحل وقد جاء هذا الحديث بزيادة فيه من حديث أبي هريرة أن النبي -عليه السلام - قال : « لا يزال الشيطان يأتي أحدكم فيقول : من خلق كذا من خلق كذا ، حتى يقول : من خلق الله ، فإذا وجد ذلك أحدكم فليقل : آمنت بالله » . وفي حديث آخر : فذلك « صريح الإيمان » . رواه أبو داود حدثنا أحمد بن يونس ، حدثنا زهير ، حدثنا سهيل ، عن أبيه ، عن أبي هريرة « أن النبي - عليه السلام - جاءه ناس من أصحابه فقالوا : يا رسول الله ، نجد في أنفسنا الشيء يعظم أن نتكلم به ما نحب أن لنا الدنيا [وأنا](١) تكلمنا به ، فقال النبي - عليه السلام - : أو قد وجدتموه ، ذلك صريح الإيمان » .

وقد ذكر ابن أبي شيبة من حديث الأعمش ، عن ذر ، عن عبد الله ابن شداد ، عن ابن عباس قال : « جاء رجل إلى النبي - عليه السلام- فقال : إني أحدث نفسي بالأمر لأن أكون حممة أحب إلي من أن أتكلم به . فقال له رسول الله : الحمد لله الذي رده إلى الوسواس » .

فإن قيل : كيف سمّى هذه الخطرة الفاسدة من خطرات الشيطان على القلب صريح الإيمان ؟ قال الخطابي : يريد أن صريح الإيمان هو الذي يعظم ما تجدونه في صدوركم ويمنعكم من قول ما يلقيه الشيطان في قلوبكم ولولاه لم يتعاظموه ، ولم ينكروه ولم [يرد](٢) أن الوسوسة نفسها صريح الإيمان ، وكيف تكون إيمانًا وهي من قبل الشيطان وكيده ، ألا تراه ﷺ حين سئل عن هذا قال : « الحمد [لله](٢) الذي رد كيده إلى الوسوسة » .

وفيه وجه آخر ، قال المهلب : قوله : « صريح الإيمان » يعني : الانقطاع في إخراج الأمر إلى ما لا نهاية له فلابد عند ذلك من إيجاب

---

(١) في « الأصل » : وإن . والمثبت من « هـ » .

(٢) من « هـ » .

خالق لا خالق له ، لأن المفكر يجد المخلوقات كلها لها [خالق] (١) بأثر الصنعة فيها والحدث الجاري عليها والله - تعالى - بخلاف هذه الصفة لمباينته صفات المخلوقين ، فوجب أن يكون خالق الكل ، فهذا هو صريح الإيمان ، لا البحث الذي هو من كيد الشيطان المؤدي إلى هذا الانقطاع ليحير العقول ، فنبه عليه السلام على موضع كيده [وتحييره](٢) .

قال غيره : فإن وسوس الشيطان فقال : ما المانع أن يخلق الخالق نفسه . قيل له : هذه وسوسة ينقض بعضها بعضا ؛ لأن بقولك يخلق قد أوجبت وجوده تعالى ، وبقولك نفسه قد أوجبت عدمه ، والجمع بين كونه موجودًا ومعدومًا معًا تناقض فاسد ؛ لأن من شرط الفاعل [تقدم](٣) وجوده على وجود فعله فيستحيل كون نفسه فعلاً له ؛ لاستحالة أن يقال إن النفس تخلق النفس التي هي هو [وهذا بين](٤) في حل هذه الشُبه وهو صريح الإيمان .

وقال غيره : إن سأل سائل عن حديث سعد وزيد بن ثابت ، فقال: في هذين الحديثين دلالة على أن الله تعالى يفعل شيئًا من أجل شيء (وسببه) (٥) ، وهذا يؤدي إلى قول القدرية .

فالجواب أنه قد ثبت أن الله على كل شيء قدير ، وأنه بكل شيء عليم ، وأنه لا يكون من أفعاله التي انفرد بالقدرة عليها ولا تدخل تحت قدرة العباد ، ولا تكون من مقدورات العباد التي هي كسب لهم وخلق لله إلا والله مريد لجميع ذلك ، فسواء كان آمرًا بذلك عباده أو ناهيًا لهم عنه ، فغير جائز أن يقال أنه (فعل) (٦) فعلاً من أفعاله بسبب من الأسباب أو من أجل داع يدعوه إلى فعله ؛

---

(١) في « الأصل » : خالقًا . والمثبت من « هـ » .
(٢) في « الأصل » : وتحسره . والمثبت من « هـ » .
(٣) في « الأصل » : تقديم . والمثبت من « هـ » .
(٤) في « الأصل » : وهو أبين . والمثبت من « هـ » .
(٥) في « هـ » : وبسببه .   (٦) مكررة « بالأصل » .

لأن السبب والداعي فعل من أفعاله ، والقول أنه فاعل بسبب يفضي إلى تعجيزه لحاجته إلى ما لا يصح وقوعه من فعله إلا بوقوع غيره تعالى الله عن ذلك ، فإذا فسد ذلك وجب حمل قوله عليه السلام : «إن أعظم المسلمين جُرمًا من سأل عن شيء لم يحرم فحرم من أجله». على غير ظاهره وصرفه إلى أن الله - تعالى - فاعل بسؤال السائل الذي نهاه عنه ، ومقدر أن يحرم الشيء المسئول عنه إذا وقع السؤال فيه، كل ذلك قد سبق به القضاء والقدر [لا أن] [1] السؤال موجب للتحريم وعلة له .

وكذلك قوله عليه السلام : « ما زال بكم الذي رأيت من صنيعكم» يعني : من كثرة مطالبتكم بالخروج إلى الصلاة حتى خشيت أن تكتب عليكم عقابًا لكم على كثرة ملازمتكم لي في مداومة الصلاة بكم ، لا أن [ملازمتهم] [2] له موجبة لكتاب الله [عليهم] [3] الصلاة ؛ لما ذكرناه من أن الملازمة والكتب فعلان لله تعالى غير جائز وقوع أحدهما شرطًا في وقوع الآخر ، ولو وقعت الملازمة ووقع كتاب الصلاة عليهم [٤/ق٢١٠-ب] لكان ذلك مما قد سبق به القضاء / والقدر في علم الله .

وإنما نهاهم عليه السلام عن مثل هذا وشبهه تنبيهًا لهم على ترك الغلو في العبادة وركوب القصد فيها ؛ خشية الانقطاع والعجز عن الإتيان بما طلبوه من الشدة في ذلك ، ألا ترى قوله تعالى فيمن فعل مثل ذلك : ﴿ **قد سألها قوم من قبلكم** ﴾ [4] ففرضت عليهم ، فعجزوا عنها فأصبحوا بها كافرين وكان عليه السلام رءوفًا بالمؤمنين

---

(١) في « الأصل » : لأن . والمثبت من « هـ » .
(٢) في « الأصل » : ملازمتكم . والمثبت من « هـ » .
(٣) في « الأصل » : عليكم . والمثبت من « هـ » .
(٤) المائدة : ١٠٢ .

رفيقًا بهم ، وقد تقدم مثل حديث زيد من رواية عائشة في [أبواب][1] قيام الليل في كتاب الصلاة ، وذكرنا في توجيهه ما لم يذكر في هذا الباب فتأمله هناك .

فإن قيل : فإذا حمل قوله عليه السلام : « إن أعظم المسلمين جرمًا من سأل عن شيء لم يحرم فحرم من أجله » على غير ظاهره فما وجه ذلك وإثم الجرم به ؟!! قيل : هو على ما تقرر علمه من نسبة اللوم والمكروه إلى من تعلق بسبب من فعل ما يلام عليه ، وإن قل تحذيرًا من موافقته له فعظم جرم فاعل ذلك لكثرة الكارهين لفعله .

وعرض الحائط : وسطه ، وكذلك عرض البحر وعرض النهر وسطهما ، واعترضت [عرضه] [2] نحوت نحوه عن صاحب العين.

* * *

باب : الاقتداء بأفعال النبي عليه السلام

فيه : ابن عمر : « اتخذ النبي - عليه السلام - خاتمًا من ذهب ، فاتخذ الناس خواتيم من ذهب فقال النبي - عليه السلام - : إني اتخذت خاتمًا من ذهب . فنبذه وقال : لن ألبسه أبدًا . فنبذ الناس خواتيمهم » .

قال أبو تمام المالكي ، وأبو بكر بن الطيب : ما كان من أفعال الرسول بيانًا [لمجمل] [3] كالصلاة ، والصيام ، والحج ، وما دعا إلى فعله كقوله : « خذوا عني مناسككم ، وصلوا كما رأيتموني أصلي » . فلا خلاف بين العلماء أنها على الوجوب ، واختلفوا فيما كان منها واقعًا موقع القرب لا على وجه البيان والامتثال لتمثيل [أمر][4] لزمه ، فقال مالك وأكثر أهل العراق : إنها على الوجوب ،

(١) في « الأصل » : ثواب . والمثبت من « هـ » .
(٢) من « هـ » .
(٣) في « الأصل » : لجملة . والمثبت من « هـ » .
(٤) في « الأصل » : من . والمثبت من « هـ » .

إلا أن يمنع من ذلك دليل ، وهو قول ابن سريج وابن [خيران] [١] من أصحاب الشافعي ، وقال بعض أصحاب الشافعي : إنها على الندب وإن المتأسى به فيها مندوب إليه إلا أن يقوم دليل على وجوبها ، وقال كثير من أهل الحجاز والعراق وأصحاب الشافعي : إنها على الوقف إلا أن يقوم دليل على كونها ندبًا أو (إباحة) [٢] أو محظورة . قال أبو بكر بن الطيب : وبهذا نقول . (واحتج) [٣] لذلك بأنه لما كانت القربة الواقعة محتملة لكونها فرضًا ونفلاً لم يجز أن يكون الفعل منه دليلاً على أننا [متعبدون] [٤] بمثله ، ولا على كونه واجبًا علينا دون كونه نفلاً ؛ لأن فعله مقصور عليه دون متعدٍ إلى غيره ، وأمره لنا ونهيه متعديان إلى الغير والغرض فيهما امتثالهما فافترقا .

وحجة من قال : إنها على الوجوب . أن النبي - عليه السلام - خلع خاتمه ، فخلعوا خواتيمهم وأنه خلع نعليه في الصلاة ، فخلعوا نعالهم ، وأنه أمرهم [عام] [٥] الحديبية بالتحلل فوقفوا ، فشكا ذلك إلى أم سلمة فقالت له : اخرج إليهم واذبح واحلق . ففعل ذلك ، فذبحوا وحلقوا اتباعًا لفعله ، فعلم أن الفعل آكد عندهم من القول ، وقال لأم سلمة حين سألتها المرأة عن القبلة للصائم : « ألا أخبرتيها أني أقبّل وأنا صائم » . وقال للرجل مثل ذلك ، فقال : إنك لست مثلنا . فقال: « إني لأرجو أن أكون أتقاكم لله » .

فدل هذا على أن الأسوة واقعة إلا ما منع منه الدليل ، ويدل على ذلك أنه لما نهاهم عن الوصال قالوا : إنك تواصل . قال : «إني لست مثلكم ، إني أطعم وأسقى » . فلولا أن لهم الاقتداء به لقال لهم : وما في مواصلتي ما يبيح لكم فعل ذلك ،

---

(١) في « الأصل » : خير . والمثبت من « هـ » .
(٢) في « هـ » : مباحة . (٣) في « هـ » : واحتجوا .
(٤) في « الأصل » : متعبدين . والمثبت من « هـ » .
(٥) في « الأصل » : على . والمثبت من « هـ » .

وأفعالي مخصوصة بي ، فلم يقل لهم ذلك ، ولكن بين لهم المعنى في اختصاصه بالمواصلة ، وهو أن الله يطعمه ويسقيه ، وأنهم بخلافه في ذلك، وكذلك خص الله الموهوبة أنها خالصة له من دون أمته ، ولولا ذلك لكانت مباحًا لهم .

* * *

باب : ما يكره من التعمق والتنازع والغلو في الدين

لقوله تعالى : ﴿ يا أهل الكتاب لا تغلوا في دينكم ولا تقولوا على الله ﴾ (1) الآية

فيه : أبو هريرة : قال النبي – عليه السلام – : « لا تواصلوا . قالوا : إنك تواصل . قال : إني لست مثلكم ، إني أبيت فيطعمني ربي ويسقين ...» الحديث ثم رأوا الهلال فقال : لو تأخر لزدتكم ، كالمنكل لهم » .

وفيه عليّ : « أنه خطب / [وعليه سيف] (2) وفيه صحيفة معلقة فقال : والله ما عندنا من كتاب يقرأ إلا كتاب الله ، وما في هذه الصحيفة... » وذكر الحديث . [٤/ق٢١١-أ]

وفيه : عائشة : « صنع النبي – عليه السلام – شيئًا ترخص فيه ، وتنزه عنه قوم ، فبلغ ذلك النبي – عليه السلام – فحمد الله ، ثم قال: ما بال أقوام يتنزهون عن الشيء أصنعه فوالله إني لأعلمهم بالله وأشدهم له خشية » .

وفيه : ابن أبي مليكة : « كاد الخيران أن يهلكا – أبو بكر وعمر– لما قدم على النبي – عليه السلام – وفد بني تميم أشار أحدهما بالأقرع ابن حابس الحنظلي أخي بني مجاشع ، وأشار الآخر

---

(1) النساء : ١٧١ .

(2) في « الأصل » : بسيف . والمثبت من « هـ » .

بغيره ، فقال أبو بكر لعمر : إنما أردت خلافي . فقال عمر : ما أردت خلافك . فارتفعت أصواتهما عند النبي - عليه السلام - فنزلت : ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي﴾(١) الآية . فكان عمر إذا حدث النبي بحديث حدثه كأخي [السرار ، لا] (٢) يسمعه حتى يستفهمه » .

وفيه عائشة : « أن النبي - عليه السلام - قال في مرضه : مروا أبا بكر فليصل بالناس » إلى قوله : « إنكن لأنتن صواحب يوسف ...» الحديث.

وفيه حديث مالك بن أوس : « أن العباس وعليًا جاءا إلى عمر يطلبان ميراثهما من النبي - عليه السلام - وتنازعهما في ذلك مع عمر... » الحديث بطوله .

قال المهلب في قوله : ﴿ يا أهل الكتاب لا تغلوا في دينكم ولا تقولوا على الله إلا الحق ﴾ (٣) الغلو : مجاوزة الحد . فهذا يدل أن البحث عن أسباب الربوبية من نزغات الشيطان ، ومما يؤدي إلى الخروج عن الحق ؛ لأن هؤلاء غلوا في الفكرة حتى آل بهم الأمر أن جعلوا الآلهة ثلاثة ، وأما الذين غلوا في الصيام فهو اتباعهم للوصال بعد أن نهاهم النبي - عليه السلام - فعاقبهم بأن زادهم مما تعمقوا به .

وقول علي : « ما عندنا إلا كتاب الله ، وما في هذه الصحيفة » فإنه أراد به تبكيت من تنطع [وجاء] (٤) بغير ما في كتاب الله وغير ما في سنة رسول الله [فهو مذموم .

وحديث القبلة للصائم الذي تنزه قوم عنها وترخص فيها النبي ﷺ](٥) فذمهم بتعمقهم ومخالفته عليه السلام .

---

(١) الحجرات : ٢ .
(٢) في « الأصل » : السر أو لا . والمثبت من « هـ ، ن » .
(٣) النساء : ١٧١ . (٤) في « الأصل » : ردًا . والمثبت من « هـ » .
(٥) سقط من « الأصل » ، والمثبت من « هـ » .

وقصة بني تميم لما آل التنازع بين أبي بكر وعمر إلى المخاشنة في التفاضل بين الأقرع بن حابس وعيينة بن حصن ، ورمى بعضهم بعضًا بالمناواة والقصد إلى المخالفة والفرقة ، كذلك ينبغي أن تذم كل حالة تخرج صاحبها إلى افتراق الكلمة واستشعار العداوة.

وقوله : « مروا أبا بكر يصلي بالناس » . ذم عائشة لتعمقها في المعاني التي خشيتها من مقام أبيها في مقام رسول الله مما روي عنها أنها قصدته بذلك ، وذكرتها في كتاب الصلاة ، وذم حفصة أيضًا ؛ لأنها أدخلتها في المعارضة للنبي - عليه السلام - ، وكذلك كراهية رسول الله مسائل اللعان وعيبه لها هو نص في هذا الباب ؛ لأنه خشي أن ينزل من القرآن ما يكون تضييقًا ، فنزل فيه اللعان وهو وعيد عظيم وسبب إلى عذاب الآخرة لمن أراد الله إنفاذه عليه .

وحديث العباس وعلي خشي أن يئول ما ذم من تنازعهما إلى انقطاع الرحم التي بينهما بالمخاصمة في هذا المال الموقوف لا سيما بعدما نص عليهم حديث رسول الله ، فلم ينتهيا عن طلب هذا الوقف ليلياه كما كان يليه الخليفة من توزيعه حيث يحب ، وانفرادهما بالحكم [وقد تقدم الكلام في معناه في كتاب فرض الخمس من كتاب الجهاد والحمد لله كثيرًا] (١) .

* * *

(١) في « الأصل » : وقد تقدم في كتاب الخمس . والمثبت من « هـ » .

باب : إثم من آوى محدثًا رواه عليّ عن النبي عليه السلام

فيه أنس : « حرم النبي - عليه السلام - المدينة ، فقال : لا يقطع شجرها، ومن أحدث فيها حدثًا فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين.

وقال موسى ابن أنس عن أبيه : أو آوى محدثًا » .

في هذا الحديث فضل عظيم للمدينة ، وذلك تغليظ الوعيد بلعنة الله والملائكة والناس أجمعين لمن أحدث فيها حدثًا أو آوى محدثًا ، وفي حديث علي : « لا يقبل منه صرف ولا عدل » . ذكره في آخر كتاب الحج، ودل الحديث على أنه من آوى أهل المعاصي والبدع أنه شريك في الإثم ، وليس يدل الحديث على أن من أحدث حدثًا أو آوى محدثًا في غير المدينة أنه غير متوعد ولا ملوم على ذلك ؛ [لتقدم][1] العلم بأن من رضي فعل قوم وعملهم أنه منهم، وإن كان بعيدًا عنهم.

فهذا الحديث نص في تحذير [2] فعل شيء من المنكر في المدينة وهو دليل في التحذير من [إحداث] [3] مثل ذلك في غيرها ، وإنما خصت المدينة بالذكر في هذا الحديث ؛ لأن اللعنة على من أحدث فيها حدثًا أشد والوعيد له آكد ؛ لانتهاكه ما حذر / عنه ، وإقدامه على مخالفة رسول الله ﷺ فيما كان يلزمه من تعظيم شأن المدينة التي شرفها الله بأنها منزل وحيه وموطن نبيه ﷺ ، ومنها انتشر الدين في أقطار الأرض فكان لها بذلك فضل مزيّة على سائر البلاد ، وقد تقدم [اختلاف العلماء فيما يجوز قطعه من شجر المدينة ، وما يجوز من الصيد في حرمها] [4] في آخر كتاب الحج .

[٤/ق٢١١-ب]

* * *

---

(١) في « الأصل » : لتعدى . والمثبت من « هـ » .

(٢) زاد في « الأصل » : في . وهي مقحمة .

(٣) في « الأصل » : أحدث . والمثبت من « هـ » .

(٤) من « هـ » .

باب : ما يذكر من ذم الرأي وتكلف القياس
وقوله تعالى : ﴿ ولا تقف ما ليس لك به علم ﴾ (١)

فيه : عبد الله بن [عمرو] (٢) : « قال النبي – عليه السلام – : إن الله لا ينزع العلم بعد أن أعطاكموه انتزاعًا ، ولكن ينتزعه (منكم) (٣) مع قبض العلماء بعلمهم فيبقى ناس جهال فيستفتون فيفتون برأيهم فيضلون ويضلون » .

وفيه : أبو وائل : « شهدت صفين ، فسمعت سهل بن حنيف يقول: يا أيها الناس ، اتهموا رأيكم على دينكم لقد رأيتني يوم أبي جندل ولو أستطيع أن أرد أمر رسول الله لرددته ، وما وضعنا سيوفنا على عواتقنا إلى أمر [يفظعنا] (٤) إلا أسهلن بنا إلى أمر نعرفه غير هذا الأمر . وقال أبو وائل : شهدت صفين وبئست الصفون » .

قال الطبري : روى مبارك بن فضالة ، عن عبيد الله بن عمر ، عن نافع ، عن ابن عمر ، عن عمر قال : يا أيها الناس اتهموا الرأي على الدين. كقول سهل سواء .

قال المهلب [وغيره] (٥) : إذا كان [الرأي] (٦) والقياس على أصل من كتاب الله وسنة رسول الله أو إجماع الأمة فهو محمود ، وهو الاجتهاد والاستنباط الذي أباحه الله للعلماء ، وأما الرأي المذموم والقياس المتكلف المنهي عنه ، فهو ما لم يكن على هذه الأصول ؛ لأن ذلك ظن ونزغ من الشيطان ، والدليل على صحة هذا قوله تعالى : **﴿ولا تقف ما ليس لك به علم ﴾** (١) . قال ابن عباس : لا تقل ما ليس لك به علم . وقال قتادة : لا تقل رأيت ولم تر ، وسمعت ولم

---

(١) الإسراء : ٣٦ . (٢) في « الأصل » : عمر . والمثبت من « هـ ، ن » .
(٣) في « هـ ، ن » : منهم .
(٤) في « الأصل » : يضعطنا . والمثبت من « هـ ، ن » .
(٥) من « هـ » . (٦) ليست واضحة بالأصل .

تسمع ، وعلمت ولم تعلم . وأصل القفو العضه والبهت ، فنهى الله عباده عن قول ما لا علم لهم به ، فإنه سائل السمع والبصر والفؤاد عما قال صاحبها فتشهد عليه جوارحه بالحق ، ومثل هذا قوله عليه السلام : « إن الله يقبض العلم بقبض العلماء فيبقى ناس جهال فيفتون برأيهم فيضلون ويضلون » . ألا ترى أنه وصفهم بالجهل ، فلذلك جعلهم ضالين (هو) [١] خلاف الذين قال فيهم : ﴿ **لعلمه الذين يستنبطونه منهم** ﴾ [٢] ، وأمر بالرجوع إلى قولهم .

[قال الطبري] [٣] : فإن قيل : فإن قول سهل بن حنيف ، وعمر ابن الخطاب : اتهموا الرأي . يرد قول من استعمل الرأي في الدين ، وأنه لا يجوز شيء من الرأي والقياس لأنهم أخطئوا يوم أبي جندل في مخالفتهم رسول الله ﷺ في صلحه المشركين ، ورده لأبي جندل لأبيه وهو يستغيث ، وكان قد عذب في الله ، وهم يظنون أنهم محسنون في مخالفة رسول الله .

قيل : وجه قولهما : اتهموا الرأي الذي هو خلاف لرأي رسول الله وأمره على الدين ، الذي هو نظير آرائنا التي كنا خالفنا بها رسول الله يوم أبي جندل ، فإن ذلك خطأ ، فأما الاجتهاد والاستنباط من كتاب الله وسنة رسوله وإجماع الأمة فذلك هو الحق الواجب والفرض اللازم لأهل العلم ، وبنحو هذا جاءت الأخبار عن النبي ﷺ ، وعن جماعة الصحابة والتابعين ، روى ابن عمر أن النبي - عليه السلام - لما انصرف من الأحزاب قال : « لا يصلين أحد العصر إلا في بني قريظة فأبطأ ناس فتخوفوا فوت الصلاة ، فصلوا ، وقال آخرون : لا نصلي إلا حيث أمرنا رسول الله ﷺ ، وإن فاتنا العصر ، فما عنف

---

(١) في « هـ » : هم . (٢) النساء : ٨٣ . (٣) من « هـ » .

رسول الله ﷺ أحد الفريقين » . وهذا الخبر نظير خبر سهيل بن حنيف، ومن حرص يوم أبي جندل على القتال اجتهادًا منهم ورسول الله يرى ترك قتالهم في أنه لم يؤثمهم كما لم يؤثم أحد الفريقين : لا الذين صلوا قبل وصولهم إلى بني قريظة ؛ لأن معنى ذلك كان عندهم ما لم يخشوا فوت وقتها ، وكذلك لم يؤثم أيضًا الذين لم يصلوا حتى فاتهم وقتها إلى أن صاروا إلى بني قريظة ؛ لأن معنى أمره عليه السلام بذلك كان عندهم لا يصلوها إلا في بني قريظة ، وإن فاتكم وقتها ، فعذر كل واحد منهم لهذه العلة ، وروى سفيان ، عن / [٤/ق-٢١٢-أ] [الشيباني عن] [(١)] الشعبي ، عن شريح « أنه كتب إلى عمر بن الخطاب يسأله ، فكتب إليه : أن اقض بما في كتاب الله ، فإن لم يكن في كتاب الله ففي سنة رسول الله ، فإن لم يكن فبما قضى الصالحون، فإن لم يكن فإن شئت تقدم وإن شئت تأخر ، ولا أرى التأخر إلا خيرًا لك ، والسلام » .

وروى هشيم ، حدثنا سيار ، عن الشعبي قال : « لما بعث عمر شريحًا على قضاء الكوفة قال : انظر ما تبين لك في كتاب الله ولا تسأل عنه أحدًا ، وما لم يتبين لك في كتاب الله فاتبع فيه سنة رسول الله ﷺ وما لم يتبين لك في السنة (فاجتهد رأيك) [(٢)] فقد أنبأت هذه الأخبار عن عمر أن معنى قوله: اتهموا الرأي على الدين . أنه الرأي الذي وصفنا ؛ لأنه محال أن يقول : اتهموه واستعملوه ، لأن النهي عن الشيء والأمر به في حالة واحدة [ينقض] [(٣)] بعضه بعضًا ، ولا يجوز أن يظن ذلك بعمر ونظرائه ، ويزيد ذلك بيانًا [(٤)] روى مجاهد ، عن الشعبي ، عن

---

(١) من « هـ » . (٢) مكررة « بالأصل » .

(٣) في « الأصل » : ينقضه . والمثبت من « هـ » .

(٤) زاد هنا « بالأصل » : و . .وهي زيادة مقحمة .

عمرو بن حريث قال : قال عمر بن الخطاب : « إياكم وأصحاب الرأي فإنهم أعداء السنن ، أعيتهم الأحاديث أن يحفظوها ، فقالوا بالرأي ، فضلوا وأضلوا » . فقد بين هذا القول من عمر [أنه] (١) أمر باتهام الرأي فيما خالف أحكام رسول الله ﷺ وسنته ، وذلك أنه قال : « إنهم أعداء السنن أعيتهم أن يحفظوها » .

وأخبر أنه لما أعياهم حفظ سنن رسول الله قالوا بآرائهم وخالفوها، جهلا منهم بأحكام رسول الله وسننه وذلك هو الجرأة على الله بما لم يأذن به في دينه ، والتقدم بين يدي رسول الله ، فأما اجتهاد الرأي في استنباط الحق من كتاب الله وسنة رسوله فذلك الذي أوجب الله على العلماء فرضًا ، وعمل به المسلمون بمحضر من رسول الله ﷺ ، فلم يعنفهم ولا نهاهم عنه ؛ إذ كان هو الحق عنده والدين ، واقتفى أثرهم فيه الخلف من بعدهم ، روي ذلك عن ابن مسعود ، وابن عباس، وروى أبو معاوية ، عن الأعمش ، عن عمارة ، عن عبد الرحمن بن يزيد ، قال ابن مسعود : « ومن عرض له منكم قضاء فليقض بما في كتاب الله ، فإن جاءه أمر ليس في كتاب الله فليقض بما قضى به نبيه ﷺ ، فإن جاءه أمر ليس في سنة نبيه فليقض بما قضى به الصالحون ، فإن جاءه ما ليس في ذلك ، فليجتهد رأيه ، ولا يقل : إني أرى وإني أخاف فإن الحلال بين والحرام بين وبينهما أمور مشتبهات ، فدع ما يريبك إلى ما لا يريبك » .

وقد تقدم حديث سهل في أخر كتاب الجهاد ومر فيه من معناه ما لم أذكره هنا خوف التكرار .

وقول أبي وائل : « وبئست الصفون ». سمى المكان بالجمع المسلم كما سمي الرجل يزيدين أو عمرين فيجريه في حال التسمية به مجراه في

---

(١) من « هـ » .

حال الجمع ، وما كان من الواحد عن بناء الجمع فإعرابه كإعراب الجمع كقولك دخلت فلسطين وهذه [فلسطون] [1] وأتيت قنسرين وهذه قنسرون ، وأنشد المبرد :

وشاهدنا الحل والياسمون [والمستعاب] [2] بقضائها

ومن هذا قول الله - تعالى : ﴿ **كلا إن كتاب الأبرار لفي عليين وما أدراك ما عليون** ﴾ [3] فيه مذهب [آخر] [4] للعرب وهو أن يعربوا النون ويجعلوها بالياء في كل حال كقولك : هذه السلحين ، ومررت بالسلحين ، ورأيت السلحين .

* * *

باب : ما كان النبي عليه السلام يسأل فيما لم ينزل عليه الوحي فيقول لا أدري أو لا يجيب حتى ينزل عليه ولم يقل برأي ولا قياس ، لقوله: ﴿ بما أراك الله ﴾ [5] وقال ابن مسعود : سئل النبي ﷺ عن الروح فسكت حتى نزلت الآية .

فيه : جابر : « مرضت فجاءني النبي - عليه السلام يعودني وأبو بكر وهما ماشيان فأتياني وقد أغمي عليّ ، فتوضأ النبي ثم صب وضوءه عليّ فأفقت ، فقلت : يا رسول الله ، كيف أقضي في مالي ؟ فما أجابني بشيء حتى نزلت آية (المواريث) [6] » .

قال المهلب : هذا الباب ليس على العموم في أمر النبي - عليه السلام - ؛ لأنه قد علم أمته كيفية القياس والاستنباط في مسائل لها أصول ومعاني في كتاب الله ومشروع سنته ؛ ليريهم كيف يصنعون فيما عدموا فيه

---

(١) في « الأصل » : فليسطون . والمثبت من « هـ » .
(٢) في « الأصل » : والمسعات . والمثبت من « هـ » .
(٣) المطففين : ١٨ - ١٩ . (٤) من « هـ » .
(٥) النساء : ١٠٥ . (٦) في « هـ ، ن » : الميراث .

النصوص ؛ إذ قد علم أن الله - تعالى - لابد أن يكمل له الدين .

[٤/ق٢١٢-ب] والقياس : هو تشبيه ما لا حكم فيه بما فيه حكم في / المعنى فشبه عليه السلام الحمر بالخيل (١) ، فقال : ما أنزل على فيها شيء غير هذه الآية الفاذة الجامعة : ﴿ **فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره**﴾(٢) وشبه دين الله بدين العباد في اللزوم ، وقال للتي أخبرته أن أباها لم يحج : « أرأيت لو كان على أبيك دين أكنت قاضيته ؟ فالله أحق بالقضاء » وهذا هو نفس القياس عند العرب ، وعند العلماء بمعاني الكلام .

وأما سكوت النبي حتى نزل عليه الوحي ، فإنما سكت في أشياء معضلة ليست لها أصول في الشريعة فلابد فيها من إطلاع الوحي ، ونحن الآن قد فرغت لنا الشرائع واكتمل لنا الدين ، وإنما ننظر ونقيس على موضوعاتها فيما أعضل من النوازل .

وقد اختلف العلماء : هل يجوز للأنبياء الاجتهاد ؟ فقالت طائفة : لا يجوز لهم ذلك ولا يحكمون إلا بوحي منه . وقال آخرون : يجوز أن يحكموا بما يجري مجرى الوحي من منام وشبهه . قال أبو التمام المالكي : ولا أعلم فيه نصًا لمالك ، والأشبه عندي جوازه لوجود ذلك من رسول الله ﷺ . والاجتهاد علو درجة وكمال فضيلة والأنبياء أحق الناس بها ؛ بل لا يجوز أن (يمتنعوا) (٣) منها لما فيها من جزيل الثواب ، وقال تعالى : ﴿**فاعتبروا يا أولي الأبصار**﴾ (٤) . والأنبياء أفضل أولي الأبصار وأعلمهم ، وقد ثبت عنه عليه السلام أنه اجتهد في أمر الحروب وتنفيذ الجيوش ، وقدر الإعطاء للمؤلفة قلوبهم وأمر بنصب العريش يوم بدر في موضع ، فقال له الحباب بن المنذر : أبوحي نصبته هنا أم برأيك ؟ فقال : بل برأيي. قال: الصواب نصبه بموضع

---

(١) وذلك أنه سئل عن الخيل فقال هي لثلاثة : لرجل أجر ، ولرجل ستره وعلى رجل وزر وسئل عن الحمر وذكر الحديث .

(٢) الزلزلة : ٧ ، ٨ . (٣) في « هـ » : ينعوا . (٤) الحشر : ٢ .

كذا . فسماه النبي - عليه السلام - : ذا الرأيين . فعمل برأيه ولم ينتظر الوحي وحكم بالمفاداة والمن على الأسرى يوم بدر بعد المشورة ، وقال تعالى: ﴿ **وشاورهم في الأمر** ﴾ (١) . ولا تكون المشورة إلا فيما لا نص فيه . وروي أنه عليه السلام أراد أن يضمن لقوم من الأعراب ثلث ثمر المدينة ، فقال له سعد بن معاذ : والله يا رسول الله كنا كفارًا فما طمع أحد أن يأخذ من ثمارنا شيئًا ، فلما أعزنا الله بك نعطيهم ثلث ثمارنا ! فعمل بذلك رسول الله ، وقد ذكر الله في كتابه قصة داود وسليمان حين اجتهدا في الحكم في الحرث ، ولا يجوز أن يختلفا مع ما فيه من نص موجود .

* * *

باب : تعليم النبي عليه السلام أمته من الرجال والنساء مما علمه الله ليس برأي ولا تمثيل

فيه : [أبو] (٢) سعيد : « **جاءت امرأة إلى النبي - عليه السلام - فقالت : يا رسول الله ، ذهب الرجال بحديثك ، فاجعل لنا من نفسك يومًا نأتيك فيه تعلمنا مما علمك الله . قال : اجتمعن [في]** (٢) **يوم كذا وكذا ، في مكان كذا وكذا . فاجتمعن ، فأتاهن فعلمهن مما علمه الله ، ثم قال : ما منكن امرأة تقدم بين يديها من ولدها ثلاثة إلا كان لها حجابًا من النار . قالت امرأة منهن : يا رسول الله ، أو اثنين ؟ فأعادتها مرتين . قال : واثنين واثنين [واثنين]** (٢) » .

قال المهلب : فيه من الفقه أن العالم إذا أمكنه أن يحدث بالنصوص عن الله ورسوله فلا يحدث بنظره ولا قياسه ، هذا معنى

(١) آل عمران : ١٥٩ . (٢) من « هـ ، ن » .

الترجمة ؛ لأن النبي - عليه السلام - حدثهم حديثًا عن الله لا يبلغه قياس ولا نظر ، وإنما هو توقيف ووحي ، وكذلك ما حدثهم به من سنته فهو عن الله أيضًا ؛ لقوله تعالى : ﴿**وما ينطق عن الهوى**﴾ (١) وقال ﷺ : « أوتيت الكتاب ومثله معه » قال أهل العلم : أراد بذلك السنة التي أوتي . وفيه سؤال الطلاب العالم أن يجعل لهم يومًا يسمعون فيه عليه العلم ، وإجابة العالم إلى ذلك ، وجواز الإعلام بذلك المجلس للاجتماع فيه ، وترجم له في كتاب العلم هل يجعل للنساء يومًا على حده في العلم .

* * *

باب : قول النبي عليه السلام : « لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق » وهم أهل العلم

فيه : المغيرة : « قال النبي - عليه السلام - : لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين حتى يأتيهم أمر الله وهم ظاهرون » .

[٤/٢١٣ب-أ] **وفيه : معاوية : « قال النبي - عليه السلام - : لن يزال أمر / هذه الأمة مستقيمًا حتى تقوم الساعة أو حتى يأتي أمر الله - تعالى » .**

قال المؤلف : إن قيل : إن قوله ﷺ : « لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق » لفظه لفظ الخصوص في بعض الناس دون بعض، وقال في حديث معاوية : « لن يزال أمر هذه الأمة مستقيمًا حتى تقوم الساعة » .

فعم الأمة وهذا معارض للحديث الأول ، مع ما يقوّي ذلك مما رواه محمد بن بشار قال: ثنا ابن أبي عدي، عن حميد، عن أنس قال:

---

(١) النجم : ٣ .

« لا تقوم الساعة حتى لا يقال في الأرض الله الله » وما رواه شعبة عن علي بن الأقمر ، عن أبي الأحوص ، عن عبد الله قال : قال رسول الله ﷺ : « لا تقوم الساعة إلا على شرار الناس » وهذه أخبار معارضة لحديث معاوية .

قال الطبري : ولا معارضة بين شيء منها ، بل بعضها يدل على صحة بعض ، ولكن بعضها خرج على العموم ، والمراد به الخصوص، فقوله : « لا تقوم الساعة حتى لا يقال في الأرض الله »، و « لا تقوم إلا على شرار الناس » يعني : في موضع كذا دون موضع كذا ، فإن به طائفة من أمتي لا يضرهم من خالفهم وهم الذين عنى بقوله ﷺ : « لن يزال أمر هذه الأمة مستقيمًا » يريد : في موضع دون موضع .

فإن قيل : وما الدليل على ذلك ؟

قيل : هو أنه لا يجوز ، وأن يكون في الخبر ناسخ ولا منسوخ ، وإذا ورد منه القولان من أن من أمته طائفة على الحق ، وأن الساعة لا تقوم إلا على شرار الخلق بالأسانيد الصحاح ، وكان غير جائز أن توصف الطائفة التي على الحق بأنها شرار الناس ، وأنها لا توحد الله، على أن الموصوفين بأنهم شرار الناس غير هؤلاء الموصوفين بأنهم على الحق ، وقد بين ذلك أبو أمامة في حديثه حدثنا أحمد بن الفرح الحمصي قال : ثنا ضمرة بن ربيعة ، عن يحيى بن أبي عمرو الشيباني، عن عمرو بن عبد الله الحمصي ، عن أبي أمامة الباهلي أن النبي ﷺ قال : « لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق ، لعدوّهم قاهرين، حتى يأتيهم أمر الله وهم كذلك . قيل : يا رسول الله ، وأين هم ؟ قال : ببيت المقدس وأكناف بيت المقدس . فثبت أنه ليس أحد هذه الأخبار معارضًا لصاحبه .

* * *

باب : قوله تعالى : ﴿ أو يلبسكم شيعًا ﴾ (١)

فيه : جابر : « **لما نزلت على النبي ﷺ : ﴿ قل هو القادر على أن يبعث عليكم عذابًا من فوقكم ﴾ (١) قال : أعوذ بوجهك ﴿ أو من تحت أرجلكم ﴾ (١) قال : أعوذ بوجهك . فلما نزلت ﴿ أو يلبسكم شيعًا ويذيق بعضكم بأس بعض ﴾ (١) قال : هاتان أهون وأيسر** » . ذكر المفسرون في قوله تعالى : ﴿ **قل هو القادر على أن يبعث عليكم عذابًا من فوقكم** ﴾ (١) قالوا : يحصبكم بالحجارة ، أو يغرقكم بالطوفان الذي غرق به قوم نوح ﴿ **أو من تحت أرجلكم** ﴾ (١) : الخسف الذي نال قارون ومن خسف به ، وقيل : الريح ﴿ **أو يلبسكم شيعًا** ﴾ (١) يعني : يخلط أمركم فيجعلكم مختلفي الأهواء ، يقال : لبست عليكم الأمر ألبسته إذا لم أبينه ، ومعنى شيعًا أي : فرقًا ، لا نكون شيعة واحدة . ﴿**ويذيق بعضكم بأس بعض** ﴾ (١) يعني : بالحرب والقتل ، ويروى أن النبي ﷺ سأل ربه - عز وجل - أن لا يستأصل أمته بعذاب، ولا يذيق بعضهم بأس بعض ، فأجابه عز وجل في صرف العذاب ولم يجبه في أن لا يذيق بعضهم بأس بعض وأن لا تختلف ؛ فلذلك قال ﷺ : « هاتان أهون وأيسر » أي : الاختلاف والفتنة أيسر من الاستئصال والانتقام بعذاب الله ، وإن كانت الفتنة من عذاب الله لكن هي أخف؛ لأنها كفارة للمؤمنين ، أعاذنا الله من عذابه ونقمه .

* * *

باب : من شبه أصلا معلومًا بأصل مبين فبين رسول الله ﷺ [حكمها] (٢) ليفهم السائل

فيه : أبو هريرة : **أن أعرابيًا أتى النبي ﷺ فقال : إن امرأتي ولدت غلامًا**

---

(١) الأنعام : ٦٥ . (٢) من « هـ ، ن » .

أسود ، وإني أنكرته . فقال له النبي ﷺ : « هل لك من إبل ؟ قال : نعم . قال : فما ألوانها ؟ قال : حمر . قال : هل فيها من أورق ؟ قال : إن فيها لورقًا . قال : فأنى ترى ذلك جاءها ؟ قال : يا رسول الله ، عرق نزعها . قال : ولعل هذا عرق نزعه . ولم يرخص له في الانتفاء منه » .

وفيه ابن عباس : « أن امرأة جاءت إلى النبي ﷺ فقالت : إن أمي نذرت أن تحج فماتت قبل أن تحج ، أفأحج عنها ؟ قال : نعم حجي عنها، أرأيت لو كان على أمك دين أكنت قاضيته ؟ قالت : نعم . قال : اقضي الذي لله ؛ فإن الله أحق بالوفاء » .

قال المؤلف : قوله : من شبه أصلا معلومًا بأصل مبين ، فبين ليفهم السائل . هذا هو القياس بعينه والقياس في لغة العرب : التشبيه والتمثيل ، ألا ترى أن النبي ﷺ شبه له ما أنكر من لون الغلام بما عرف في نتاج الإبل فقال له ﷺ : « هل لك من إبل ؟ » إلى قوله : «لعل عرقًا نزعه » فأبان له ﷺ بما يعرف أن الإبل الحمر تنتج الأورق أن كذلك المرأة البيضاء تلد الأسود ، وكذلك قوله ﷺ للمرأة التي سألته الحج عن أمها فقال لها : « أرأيت لو كان على أمك دين أكنت قاضيته ؟ قالت : نعم . قال : فدين الله أحق بالوفاء » . فشبه لها عليه السلام دين الله بما يعرف من دين العباد ، غير أنه قال لها : «فدين الله أحق » .

وهذا كله هو عين القياس وبهذين الحديثين احتج المزني على من أنكر القياس ، قال أبو تمام المالكي : أجمعت الصحابة على القياس ، فمن ذلك أنهم أجمعوا على قياس الذهب على الورق في الزكاة . وقال أبو بكر الصديق : أقيلوني بيعتي . فقال علي : والله لا نقيلك ، رضيك رسول الله لديننا ، فلا نرضاك لدنيانا ؟! فقاس الإمامة على الصلاة ، وقاس الصديق الزكاة على الصلاة ، وقال: والله لا أفرق بين

ما جمع الله . وصرح علي بالقياس في شارب الخمر بمحضر الصحابة، وقال : إنه إذا سكر هذي وإذا هذي افترى ، فحده حد القاذف . وكذلك لما قال له الخوارج : لم حكمت ؟ قال : قد أمر الله - تعالى - بالحكمين في الشقاق الواقع بين الزوجين فما بين المسلمين أعظم .

وهذا ابن عباس يقول : ألا اعتبروا، الأصابع بالأسنان اختلفت منافعها واستوت أروشها ، وقال : ألا يتقي الله زيد ، يجعل ابن الابن ابنًا ، ولا يجعل أبا الأب أبًا . وكتب عمر بن الخطاب إلى أبي موسى الأشعري يعلمه القضاء فقال له : اعرف الأشباه والأمثال وقس الأمور عند ذلك .

واختلف علي وزيد في قياس الجد على الإخوة ، فقاسه عليٌّ بسبيل انشعبت منه شعبة ثم انشعبت من الشعبة شعبتان ، وقاس ذلك زيد بشجرة انشعبت منها غصن ، وانشعب من الغصن غصنان .

وقال ابن عمر : وقت النبي ﷺ لأهل نجد قرنًا ولم يوقت لأهل العراق ، فقال عمر : قيسوا من نحو العراق كنحو قرن . قال ابن عمر : فقاس الناس من ذات عرق . ولو ذكرنا كل ما قاسه الصحابة لكثر به الكتاب غير أنه موجود في الكتب لمن ألهمه الله رشده ، وقد قيل للنخعي : هذا الذي تفتي به أشيئًا سمعته ؟ قال : سمعت بعضه فقست ما لم أسمع على ما سمعت . وربما قال : إني لأعرف بالشيء الواحد مائة شيء .

قال المزني : فوجدنا بعد النبي ﷺ أئمة الدين فهموا عن الله -تعالى - ما أنزل إليهم وعن الرسول ﷺ ما أوجب عليهم ، ثم الفقهاء إلى اليوم هلم جرا ، استعملوا المقاييس والنظائر في أمر دينهم، فإذا ورد عليهم ما لم ينص عليه نظروا ، فإن وجدوه مشبهًا لما سبق الحكم فيه من النبي ﷺ أجروا حكمه عليه ، وإن كان مخالفًا له

فرقوا بينه وبينه ، فكيف يجوز لأحد إنكار القياس ؟! ولا ينكر ذلك إلا من أعمى الله قلبه وحبب إليه مخالفة الجماعة .

قال المؤلف : وإنما أنكر القياس : النظام ، وطائفة من المعتزلة ، واقتدى بهم في ذلك من ينسب إلى الفقه داود بن علي، والجماعة هم الحجة ولا يلتفت إلى من شذ عنها .

* * *

باب : اجتهاد القضاء بما أنزل الله

لقوله تعالى : ﴿ ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الظالمون﴾(١) ومدح النبي ﷺ صاحب الحكمة حين يقضي بها ويعلمها ولا يتكلف من قبل نفسه ، ومشاورة الخلفاء وسؤالهم أهل العلم

فيه : عبد الله : « قال النبي ﷺ : لا حسد إلا في اثنتين رجل آتاه الله مالا فسلطه على هلكته في الحق ، وآخر آتاه الله الحكمة فهو يقضي بها ويعلمها » .

وفيه : المغيرة بن شعبة قال : « سأل عمر بن الخطاب عن إملاص المرأة - وهي التي يُضرب بطنها فتلقي جنينًا - فقال : أيكم سمع من النبي ﷺ فيه شيئًا ؟ فقلت : أنا . فقال : ما هو ؟ قلت : سمعت النبي ﷺ يقول : فيه غرة عبد أو أمة . فقال : لا تبرح / حتى تأتي بالمخرج مما قلت. [٤/ق٢١٤-أ] **فخرجت فوجدت محمد بن مسلمة فجئت به فشهد معي أنه سمع النبي - عليه السلام - يقول : فيه غرة عبد أو أمة » .**

الاجتهاد فرض واجب على العلماء عند نزول الحادثة ، والواجب على الحاكم أو العالم إذا كان من أهل الاجتهاد أن يلتمس حكم الحادثة في الكتاب أو السنة ، ألا ترى أن عمر بن الخطاب لما احتاج إلى أن يقضي في إملاص المرأة سأل الصحابة من عنده علم من النبي - عليه السلام - في ذلك ؟ فأخبره المغيرة بن شعبة ومحمد بن مسلمة

---

(١) المائدة : ٤٥ .

بحكم النبي ﷺ في ذلك ، فحكم به ولم يسغ له الحكم في ذلك باجتهاده إلا بعد طلب النصوص من السنة ، فإذا عدم (النص) [(١)] رجع إلى الإجماع ، [فإن لم يجده] [(٢)] نظر هل يصح حمل حكم الحادثة على بعض الأحكام المتقررة لعلة تجمع بينهما، فإن وجد ذلك لزمه القياس عليها إذا لم تعارضها علة أخرى .

ولا فرق بين أن (يجعل) [(٣)] العلة مما هو من باب الحادثة أو (غيره) [(٤)] ؛ لأن الأصول كلها يجب القياس عليها إذا صحت العلة ، فإن لم يجد العلة استدل بشواهد الأصول وغلبة الأشباه إذا كان ممن يرى ذلك ، فإن لم يتوجه له وجه من بعض هذه الطرق وجب أن يقر الأمر في النازلة على حكم العقل ، ويعلم أنه لا حكم لله فيها شرعيًا زائدًا على العقل . هذا قول ابن الطيب .

قال غيره : وهذا هو الاستنباط الذي أمر الله عباده بالرجوع إلى العلماء فيه بقوله تعالى : ﴿ **ولو ردوه إلى الرسول وإلى أولي الأمر منهم لعلمه الذين يستنبطونه منهم** ﴾ [(٥)] والاستنباط هو الاستخراج ، ولا يكون إلا في القياس ؛ لأن النص ظاهر جلي وليس يجوز أن يقال: إن عدم النص على الحادثة من كتاب الله أو سنة رسوله . يوجب حكم لله فيها لقوله تعالى : ﴿ **ما فرطنا في الكتاب من شيء** ﴾[(٦)] إذ لو خلا بعض الحوادث أن تكون لا حكم لله فيها بطل إخباره إيانا بقوله : ﴿ **ما فرطنا في الكتاب من شيء** ﴾ [(٦)]، وفي علمنا أن النصوص لم تحط بجميع الحوادث دلالة أن الله - تعالى - قد أبان لنا حكمها بغير جهة النص ، وهو القياس على علة النص ، ولو لم

---

(١) في « هـ » : السنة .
(٢) من « هـ » .
(٣) في « هـ » : يجد .
(٤) في « هـ » : غيرها .
(٥) النساء : ٨٣ .
(٦) الأنعام : ٣٨ .

يتعبدنا الله إلا بما نص عليه [فقط] [1] لمنع عباده الاستنباط الذي أباحه لهم ، والاعتبار في كتابه الذي دعاهم إليه ، ولو نص على كل ما يحدث إلى قيام الساعة لطال الخطاب ، وبعُد إدراك فهمه على المكلفين ، بل كانت بنية الخلق تعجز عن حفظه ، فالحكمة فيما فعل من وجوب الاجتهاد والاستنباط والحكم للأشياء بأشباهها ونظائرها في المعنى ، وهذا هو القياس الذي نفاه أهل الجهالة [القائلون] [2] بالظاهر [المنكرون] [3] للمعاني والعلل ويلزمهم التناقض في نفيهم القياس ؛ لأن أصلهم الذي بنوا عليه مذهبهم أنه لا يجوز إثبات فرض في دين الله إلا بإجماع من الأمة ، والاجتهاد والقياس فرض على العلماء عند عدم النصوص فيلزمهم أن يأتوا بإجماع من الأمة على إنكار القياس ، وحينئذ يصح قولهم ، ولا سبيل لهم إلى ذلك .

* * *

باب : قول النبي عليه السلام : « لتتبعن سنن من كان قبلكم »

فيه : أبو هريرة : « قال النبي - عليه السلام - : لا تقوم الساعة حتى تأخذ أمتي بأخذ القرون قبلها شبرًا بشبر وذراعًا بذراع . قيل : يا رسول الله ، كفارس والروم ؟ قال : ومن الناس إلا أولئك » .

وفيه : أبو سعيد : « قال النبي - عليه السلام - : لتتبعن سنن من كان قبلكم شبرًا بشبر ، وذراعًا بذراع حتى لو دخلوا جحر ضب تبعتموهم . قلنا : يا رسول الله ، اليهود والنصارى ؟ قال : فمن » .

---

(١) من « هـ » .

(٢) في « الأصل» : القائلين . والمثبت من « هـ » .

(٣) في « الأصل » : المنكرين . والمثبت من « هـ » .

قال المهلب : قوله : « لتتبعن سنن من كان قبلكم » . بفتح السين هو أولى من ضمها ؛ لأنه لا يستعمل الشبر والذراع إلا في السنن وهو الطريق فأخبر عليه السلام أن أمته قبل قيام الساعة يتبعون المحدثات من الأمور ، والبدع والأهواء المضلة كما [اتبعتها] [1] الأمم من فارس والروم حتى يتغير الدين عند كثير من الناس ، وقد أنذر عليه السلام في كثير من حديثه أن الآخر شر ، وأن الساعة لا تقوم إلا على شرار الخلق ، وأن الدين إنما يبقى قائمًا عند خاصة من المسلمين لا يخافون العداوات ، ويحتسبون أنفسهم على الله في القول بالحق ، والقيام بالمنهج القويم في دين الله وفي رواية الأصيلي : « بما أخذ القرون » . وللنسفي وابن السكن : «بأخذ القرون » . وقال ثعلب : أَخَذَ [أَخْذ][2] الجهة : إذا قصد نحوها .

* * *

[٤/ق٢١٤-ب]

/ باب : إثم من دعا إلى ضلالة أو سن سنة سيئة

لقول الله تعالى : ﴿ ومن أوزار الذين يضلونهم ﴾[3] الآية

فيه : عبد الله : « قال النبي – عليه السلام – : ليس من نفس تقتل ظلمًا إلا كان على ابن آدم الأول كفل من دمها ؛ لأنه أول من سن القتل » .

قال المهلب : فيه الأخذ بالمآل ، والحديث على معنى الوعيد . وهذا الباب والذي قبله في معنى التحذير من الضلال واجتناب البدع ومحدثات الأمور في الدين ، والنهي عن مخالفة سبيل المؤمنين المتبعين لسنة الله وسنة رسوله التي فيها النجاة .

* * *

(١) في « الأصل » : اتبعها . والمثبت من « هـ » .
(٢) من « هـ » . (٣) النحل : ٢٥ .

باب : ما ذكر النبي ﷺ وحض عليه من اتفاق أهل العلم وما أجمع عليه الحرَمَان مكة والمدينة وما كان بها من مشاهد النبي عليه السلام والمهاجرين والأنصار ومصلى النبي عليه السلام والمنبر والقبر

فيه : جابر : « أن أعرابيًا بايع الرسول - عليه السلام - على الإسلام ... » الحديث . «فقال : أقلني بيعتي ... » الحديث . فقال النبي - عليه السلام - : « إنما المدينة كالكير تنفي خبثها وينصع طِيبُها » .

وفيه : ابن عباس : « كنت اقرئ ابن عوف ، فلما كان آخر حجة حجها عمر قال عبد الرحمن بمنى : لو شهدت أمير المؤمنين ، أتاه رجل فقال : إن فلانًا يقول : لو مات أمير المؤمنين لبايعنا فلانًا . فقال عمر : لأقومن العشية فأحذر هؤلاء الرهط الذين يريدون (يغصبونهم) [1] قلت : لا تفعل ؛ فإن الموسم يجمع رعاع الناس ويغلبون على مجلسك فأخاف ألا ينزلوها على وجهها ، فيطير بها كل مطير ، فأمهل حتى تقدم المدينة دار الهجرة ودار السنة فتخلص بأصحاب النبي ﷺ من المهاجرين والأنصار ، ويحفظوا مقالتك وينزلوها على وجهها ... » الحديث .

وفيه : محمد : كنا عند أبي هريرة ، وعليه ثوبان ممشقان من كتان فتمخط فقال : بخ بخ ، أبو هريرة يتمخط في الكتان ! لقد رأيتني [وإني] [2] لأخر فيما بين منبر النبي (وحجرة) [3] عائشة مغشيًا (عليه) [4] ، فيجيء الجائي فيضع رجله على عنقي ، فيرى أني مجنون، وما بي من جنون ، ما بي إلا الجوع » .

وفيه : ابن عباس: قيل له : أشهدت العيد مع النبي - عليه السلام؟ قال:

---

(١) في « ن » : أن يغصبوهم .
(٢) من « هـ ، ن » ، وفي « الأصل » : فإني .
(٣) في « هـ ، ن » : إلى حجرة .
(٤) في « هـ ، ن » : عليّ . وكلاهما صحيح ، فتنبه .

نعم، ولولا [منزلتي] [١] منه من الصغر ما شهدته ، أتى العلم الذي عند دار كثير بن الصلت فصلى وخطب ... » الحديث .

وفيه : ابن عمر : «أن النبي - عليه السلام - [كان] [٢] يأتي قباء راكبًا وماشيًا » .

وفيه : عائشة : قلت لعبد الله بن الزبير : « ادفني مع صواحبي ، ولا تدفني مع النبي - عليه السلام - في البيت ؛ فإني أكره أن [أزكى][٣] » .

وفيه : أن عمر أرسل إلى عائشة : ائذني لي أن أدفن مع صاحبيّ . فقالت : إي والله . قال : وكان الرجل إذا أرسل إليها من الصحابة قالت: لا والله ، لا أوثرهم بأحد أبدًا .

وفيه : أنس : « أن النبي ﷺ كان يصلي العصر ، فيأتي العوالي والشمس مرتفعة . قال يونس : وبعد العوالي أربعة أميال أو ثلاثة» .

وفيه : السائب : « كان الصاع على عهد النبي ﷺ مد وثلث بمدكم اليوم وقد زيد فيه » .

وفيه : أنس : « أن النبي - عليه السلام - قال : اللهم بارك لهم في مكيالهم ، وبارك لهم في صاعهم ومدهم » يعني : أهل المدينة .

وفيه : ابن عمر : « أن اليهود جاءوا إلى النبي - عليه السلام - برجل وامرأة زنيا ، فأمر بهما فرجما قريبًا من حيث موضع الجنائز عند المسجد » .

وفيه : أنس : « أن النبي - عليه السلام- طلع له أحد فقال : هذا جبل يحبنا ونحبه ، اللهم إن إبراهيم حرّم مكة، وإني أحرّم ما بين لابتيها» .

وفيه : سهل : « إن كان بين جدار المسجد مما يلي القبلة وبين المنبر ممر الشاة » .

---

(١) في « الأصل » : منزلي . والمثبت من « هـ ، ن » . (٢) من « هـ ، ن » .
(٣) في « الأصل » : أزكى شيء . والمثبت من « هـ ، ن » .

وفيه : أبو هريرة : قال عليه السلام : « ما بين بيتي ومنبري روضة من رياض الجنة ، ومنبري على حوضي » .

وفيه : ابن عمر : سابق النبي - عليه السلام - بين الخيل ، فأرسلت التي أضمرت منها - وأمدها الحفياء - إلى ثنية الوداع ، والتي لم تضمر - أمدها ثنية الوداع - إلى مسجد بني زريق » .

وفيه : ابن عمر : « سمعت عمر على منبر النبي - عليه السلام -.

[وفيه] [1] أن السائب سمع عثمان خطيبًا على منبر النبي - عليه السلام- » .

وفيه : عائشة : « كان يوضع لي ولرسول الله ﷺ هذا المركن فنشرع فيه جميعًا » .

وفيه : أنس : / « حالف النبي - عليه السلام - بين الأنصار وقريش [٤/ق٢١٥-أ] في داري التي بالمدينة ، وقنت شهراً يدعو على أحياء من بني سليم » .

وفيه : أبو بردة : قدمت المدينة ، فلقيني عبد الله بن سلام ، فقال لي: انطلق إلى [المنزل] [2] فأسقيك في قدح شرب فيه النبي - عليه السلام- وتصلي في مسجد صلى فيه . فانطلقت معه ، فأسقاني سويقًا وأطعمني تمراً ، وصليت في مسجده » .

وفيه : عمر : « أن النبي - عليه السلام - قال : أتاني الليلة آت من ربي [وهو][3] بالعقيق أن صل في هذا الوادي المبارك وقل : عمرةً وحجة » وروي « : عمرة في حجة » .

وفيه : ابن عمر : « أن النبي - عليه السلام - أرى وهو في معرسه بذي الحليفة فقيل له : إنك ببطحاء مباركة » .

---

(١) من « هـ » . (٢) في « الأصل » : المدينة . والمثبت من « هـ ، ن » .

(٣) من « هـ ، ن » .

وفيه : ابن عمر : « وقت النبي - عليه السلام - قرنًا لأهل نجد ، والجحفة لأهل الشام ، وذا الحليفة لأهل المدينة ، وبلغني أن النبي -عليه السلام - قال : ولأهل اليمن يلملم ، وذكر له العراق ؟ فقال: لم يكن عراق يومئذ » .

قال المهلب : غرضه في هذا الباب تفضيل المدينة بما خصها الله به من معالم الدين ، وأنها دار الوحي ومهبط الملائكة بالهدى والرحمة ، وبقعة شرفها الله بسكنى رسوله وجعل فيه قبره ومنبره وبينهما روضة من رياض الجنة ، وجعلها كالكير تنفي خبث الفضة وتخلص من بقي فيها من أن يشوبهم ميل عن الحق ، ألا ترى قول ابن عوف لعمر بن الخطاب : إنها دار الهجرة والسنة ، وإن أهلها أصحاب النبي الذين خصهم الله بفهم العلم وقوة التمييز والمعرفة بإنزال الأمور منازلها .

وأما حديث أبي هريرة فإنما ذكر وقوعه [بين المنبر] [(١)] وحجرة عائشة اللّذين هما من معالم الدين وروضة من رياض الجنة ، إعلامًا منه بصبره على الجوع في طلب العلم ، ولزوم النبي - عليه السلام - حتى حفظ من العلم ما كان حجة على الآفاق ببركة صبره على المدينة .

فأما قول ابن عباس : شهدت العيد ولولا مكاني من الصغر ما شهدته . فمعناه : أن صغير أهل المدينة وكبيرهم ونساءهم وخدمهم ضبطوا العلم [والسنن] [(١)] معاينة منهم في مواطن العمل من شارعها المبين عن الله - تعالى - وليس لغيرهم هذه المنزلة .

وأما إتيان النبي - عليه السلام - [قُباء فمعناه : معاينة] [(٢)] النبي ماشيًا وراكبًا في قصده مسجد قباء ، وهو معلم من معالم الفضل ومشهد من مشاهده عليه السلام وليس ذلك لغير المدينة .

---

(١) من « هـ » .

(٢) في « الأصل » : فما معناه . والمثبت من « هـ » .

وأما حديث عائشة وأمرها أن تدفن مع صواحبها كراهة أن تزكى بالدفن في بيتها مع النبي - عليه السلام - وصاحبيه ؛ لئلا يظن أحد أنها أفضل الصحابة بعد النبي وصاحبيه ، ألا تسمع قول مالك للرشيد حين سأله عن منزلة أبي بكر وعمر من النبي في حياته ، فقال له : منزلتهما منه في حياته كمنزلتهما منه بعد مماته . فزكاهما بالقرب منه في البقعة المباركة والتربة التي خلق الله منها خير البرية ، وأعاده فيها بعد مماته . [فقام لمالك] (١) الدليل من دفنهما معه على أنهما أفضل الصحابة لاختصاصهما بذلك .

وقد احتج الأبهري على أن المدينة أفضل من مكة ، فإن النبي -عليه السلام- مخلوق من تربة المدينة ، وهو أفضل البشر ؛ فكانت تربته أفضل الترب .

قال المهلب : وأما حديث أنس أن النبي - عليه السلام - كان يصلي العصر فيأتي العوالي والشمس مرتفعة فمعناه : أن بين العوالي ومسجد المدينة للماشي معلم من معالم ما بين الصلاتين يستغنى الماشي فيها يوم الغيم عن معرفة الشمس ، وذلك معدوم في سائر الأرض ، فإذا كانت مقادير الزمان معينة بالمدينة لمكان بادٍ للعيان ينقله العلماء إلى أهل الآفاق ليتمثلوه في أقاصي البلدان ، فكيف يساويهم أهل بلدة غيرها ، وكذلك دعاؤه لهم بالبركة في مكيالهم خصهم من بركة دعوته ما اضطر أهل الآفاق إلى القصد إلى المدينة في ذلك المعيار المدعو له بالبركة ، ليمتثلوه ويجعلوه سنة في معاشهم وما فرض الله عليهم في عيالهم ، وظهرت البركة لأهل كل بلدة في ذلك الميكال .

وأما رجمه اليهوديين عند موضع الجنائز، فإن الموضع قد صار علمًا

---

(١) في « الأصل » : ولمالك . والمثبت من « هـ » .

لإقامة الحدود وللصلاة على الجنائز خارج المسجد ، وبه قال مالك فهمًا من الحديث .

وأما قوله : « هذا جبل يحبنا ونحبه » فمحبته للجبل توجب له بركة ترغب في مجاورته لها ، وعلى هذا التأويل تكون محبته للجبل ومحبة الجبل له حقيقة لا مجازًا بأن يحدث الله في الجبل محبة ، ويكون ذلك من آيات نبوته ، وقيل فيه وجه آخر : أن قوله : « هذا جبل يحبنا ونحبه » / . هو على المجاز يريد أهل الجبل كقوله : [٤/ق٢١٥-ب] ﴿**واسأل القرية التي كنا فيها والعير**﴾ [(١)] يريد أهل القرية .

وأما مقدار ممر الشاة بين الجدار والمنبر ، فذلك معلم للناس وسنة ممتثلة في موضع المنابر ليدخل إليها من ذلك الموضع فينقض من القبر وينظف .

وأما ذكر مدى ما بين الحفياء وثنية الوداع ، فمسافة ذلك سنة ممتثلة ميدانًا لخيل الله المضمرة .

وأما خطبة عمر ، وعثمان على منبر النبي - عليه السلام - فإن ذلك سنة ممتثلة ، فإن الخطبة تكون على المنابر لا بجانبها ليوصل الموعظة إلى أسماع الناس إذا أشرف عليهم ، وكذلك مركن الماء الذي كانت تشرع فيه عائشة مع النبي - عليه السلام - للغسل ، ومقدار ما يكفيها من الماء سنة ، ولا يوجد ذلك المركن إلا بالمدينة ، وكذلك موضع محالفته عليه السلام بين قريش والأنصار بالمدينة معروف ثبتت ببقائه جواز المحالفة في الإسلام على أمر الدين والتعاضد فيه على المخالفين ، وقد ذكر في كتاب الأدب ما يجوز من الحلف في الإسلام

---

(١) يوسف : ٨٢ .

وما لا يجوز ، في باب الإخاء والحلف ، فتأمله فيه ، وكذلك قدحه عليه السلام ومكان صلاته لا يوجد في غير المدينة ، وكذلك وادي العقيق . المبارك يوحي الله إلى رسوله وأن الله أنزل فيه بركة إحلال الاعتمار في أشهر الحج ، وكان محرمًا قبل ذلك على الأمم ، وأمره بالصلاة فيه لبركته ، وليس ذلك مأمورًا به إلا في هذا الوادي الذي يقصده أهل الآفاق للصلاة فيه والتبرك [به] (١) .

وكذلك توقيت النبي - عليه السلام - المواقيت لأهل الآفاق معالم للحج وللعمرة رفقًا من الله بعباده وتيسيرًا عليهم مشقة الإحرام من كل فج عميق ، فهذه بركة من الله في الحجاز موقوفة للعباد وليست في غيره من البلاد ، وفي جعل الله بطحاء العقيق المباركة مهلا للنبي -عليه السلام - ولأهل المدينة ، وهي آخر جزائر المدينة ، على رأس عشرة أيام من مكة وغيرها من المواقيت على رأس ثلاثة أيام من مكة فضل كبير لأهل المدينة ؛ لحمله تعالى عليهم من مشقة الإحرام أكثر مما حمل على غيرهم ، وذلك لعلمه بتصبرهم على العبادة واحتسابهم لتحملها .

وكذلك صبرهم على لأواء المدينة وشدتها حرصًا على البقاء في منزل الوحي ومثبت الدين ؛ ليكون الناس في موازنهم إلى يوم القيامة كما صاروا في موازنهم بإدخالهم أولا في الدين ؛ لما وضع فيهم من القوة والشجاعة التي تعاطوا بها مقارعة أهل الدنيا ، وضمنوا عن أنفسهم نصرة نبي الهدى فوفى الله بضمانهم ونصرهم على أعدائهم ، وتمت كلمة ربك ودينه بهم فكانوا أفضل الناس ؛ لقربهم من رسول الله ﷺ وعلمهم بأحوالهم وأحكامه وآدابه وسيره .

---

(١) في « الأصل » : فيه . والمثبت من « هـ » .

ووجب لمن كان على مذاهب أهل المدينة حيث كان من الأرض نصيب وافر من بركة [المدينة] [1] واستحقوا أن يكونوا من أهلها لاتباعهم سنن رسوله الثابتة عندهم من علمائها والمتبعين لهم بإحسان قال تعالى : ﴿ **والذين اتبعوهم بإحسان رضي الله عنهم ورضوا عنه**﴾[2] والمرء مع من أحب .

ووجب أيضًا أن يكون لأهل مكة من ذلك نصيب ؛ لأن عندهم معالم فريضة الحج كلها ، وقد عاينوا من صلاته وأقواله عليه السلام في المرات التي دخلها ما صاروا به عالمين ، ولهم من بركة ذلك نصيب وافر وحظ جزيل ، وقد اختلف أهل العلم فيما هم فيه أهل المدينة حجة على غيرهم من الأمصار ، فكان الأبهري يقول : أهل المدينة حجة على غيرهم من طريق الاستنباط ، ثم رجع فقال : قولهم من طريق النقل أولى من طريق غيرهم ، وهم وغيرهم سواء في الاجتهاد. وهذا قول الشافعي .

وذهب أبو بكر بن الطيب إلى أن قولهم أولى من طريق الاجتهاد والنقل جميعًا . وذهب أصحاب أبي حنيفة إلى أنهم ليسوا حجة على غيرهم لا من طريق النقل ، ولا من طريق الاجتهاد، واحتج من قال: هم أولى بالاجتهاد من غيرهم بأنهم شاهدوا التنزيل وأقاويل النبي ﷺ وعرفوا معاني خطابه وفحوى كلامه ، فلذلك هم أولى من غيرهم بالاستنباط . واحتج أصحاب الشافعي فقالوا : من قال هذا القول فقد قال بالتقليد وقد أخذ علينا النظر في أقاويل الصحابة والترجيح في اختلافهم ، فإذا قام لنا الدليل على أحد القولين وجب المصير إليه ، وإذا صح هذا بطل التقليد ، وإنما هم أولى من غيرهم من طريق النقل [٤/ق٢١٦-أ] / لصحة عدالتهم ومعاينتهم التنزيل ومشاهدتهم للعمل فأما الاستنباط فالناس فيه كلهم سواء .

---

(١) من « هـ » . (٢) التوبة : ١٠٠ .

وقوله بخ بخ : كلمة تقال عند الإعجاب بالتخفيف والتثقيل .
والمركن : شبيه تور من خزف يستعمل للماء .

* * *

باب : قوله تعالى : ﴿ ليس لك من الأمر شيء ﴾ [١]

فيه : ابن عمر : « سمع النبي - عليه السلام - يقول في صلاة الفجر [ورفع رأسه من الركوع قال] [٢] : اللهم ربنا لك الحمد في الآخرة . ثم قال : اللهم العن فلانًا وفلانًا . فأنزل الله - عز وجل - : ﴿ ليس لك من الأمر شيء أو يتوب عليهم أو يعذبهم فإنهم ظالمون ﴾ [١] » .

قوله : **﴿ ليس لك من الأمر شيء ﴾** يعني : ليس لك من أمر خلقي شيء ، وإنما أمرهم والقضاء فيهم بيدي دون غيري فيهم ، وأقضي الذي أشاء من التوبة على من كفرني وعصاني أو العذاب : إما في عاجل الدنيا بالقتل والنقم ، وإما في الآجل بما أعددت لأهل الكفر بي.

ففي هذا من الفقه أن الأمور المقدرة لا تغير عما أحكمت عليه ؛ لقوله : **﴿ ما يبدل القول لدي ﴾** [٣] وقوله : **﴿ يمحو الله ما يشاء﴾** [٤] فإنما هو في النسخ أي : ينسخ مما [أمر به] [٥] ما يشاء ، **﴿ ويثبت﴾** أي : ويبقي من أمره ما يشاء. (وعن) [٦] ابن عباس، وقتادة، وغيرهما . وقيل : **﴿ يمحو الله ما يشاء ﴾** [٤] مما يكتبه الحفظة على العباد مما لم يكن [خيرًا أو شرًا] [٧] كل يوم اثنين وخميس ، ويثبت ما سوى ذلك . عن ابن عباس أيضًا . وقيل : **﴿ يمحو الله ما يشاء ويثبت﴾** [٤] أي : من آتى أجله محي ، ومن لم يمض أجله أُثبت، عن الحسن . **﴿ وعنده أم الكتاب ﴾** [٤] يعني : أصل الكتاب وهو اللوح المحفوظ .

---

(١) آل عمران ١٢٨ . (٢) من « هـ ، ن » . (٣) سورة ق : ٢٩ .
(٤) الرعد : ٣٩ . (٥) في « الأصل » : أمره . والمثبت من « هـ » .
(٦) في « هـ » : زعم .
(٧) في « الأصل » : خير أو شر . والمثبت من « هـ » .

والدعاء جائز من جميع الأمم ، لكن ما ختم الله به من الأقدار على ضربين : منه ما قدر وقضى ، وإذا دعي وتضرع إليه صرف البلاء، وضرب آخر : وهو الذي في هذا الحديث الذي ختم بإمضائه، وقال لنبيه : ﴿ **ليس لك من الأمر شيء** ﴾ (1) في الدعاء على هؤلاء ؛ لأن منهم من قد قضيت له بالتوبة ، ومنهم من قد قضيت عليه (بالعقاب)(2) [فلا بد منه] (3) لكن لانفراد الله بالمشيئة ، وتعذر علم ذلك على العقول جاز الدعاء لله - تعالى - إذ الدعوة من أوصاف العبودية ، فعلى العبد التزامها ، ومن صفة العبودية الضراعة والمسكنة، ومن صفة الملك الرأفة والرحمة ، ألا ترى قوله عليه السلام : «لا يقولن أحدكم : اللهم ارحمني إن شئت ، وليعزم المسألة ، فإنه لا مكره له » إذ كان السائل إنما يسأل الله من حيث له أن يفعل لا من حيث له ترك الفعل ، وهذا الباب وإن كان متعلقًا بباب القدر فله مدخل في كتاب الاعتصام لدعاء النبي - عليه السلام - لهم إلى الإيمان الذي الاعتصام به [يمنعهم القتل] (4) ويحقن الدم .

* * *

باب : قول الله تعالى : ﴿ وكان الإنسان أكثر شيء جدلا ﴾ (5) وقوله : ﴿ ولا تجادلوا أهل الكتاب [إلا بالتي هي أحسن] (6) ﴾ (7) الآية

فيه : علي : « أن النبي - عليه السلام - طرقه وفاطمة ابنة النبي فقال لهما : ألا تصلون؟ فقلت : يا رسول الله ، إنما أنفسنا بيد الله ، فإذا شاء

---

(1) آل عمران : ١٢٨ . (2) في « هـ » : بالعذاب . (3) من « هـ » .
(4) في « الأصل » : القتال . والمثبت من « هـ » . (5) الكهف : ٥٤ .
(6) ليست بالأصل . (7) العنكبوت : ٤٦ .

أن يبعثنا بَعَثَنَا . فانصرف النبي ﷺ ولم يرجع إليه [شيئًا] [1] وهو مدبر ، يضرب فخذه ويقول: ﴿ وكان الإنسان أكثر شيء جدلا ﴾ [2] » .

وفيه : أبو هريرة : « قال النبي - عليه السلام - : انطلقوا إلى يهود . فخرجنا معه حتى جئنا بيت المدراس ، فناداهم النبي - عليه السلام - : يا معشر اليهود ، أسلموا تسلموا . فقالوا : [بلغت][3] يا أبا القاسم . فقال : ذاك أريد ، أسلموا تسلموا . قالها ثلاثًا . قال: اعلموا أنما الأرض لله ولرسوله ، وإني أريد أن أجليكم من هذه الأرض ، فمن وجد منكم بماله شيئًا فليبعه ، وإلا فاعلموا أنما الأرض لله ولرسوله » .

قال المهلب : الجدال موضوعه في اللغة المدافعة ، فمنه مكروه ، ومنه حسن ، فما كان منه تثبيتًا للحقائق وتثبيتًا للسنن والفرائض ، فهو الحسن وما كان منه على معنى الاعتذار والمدافعات للحقائق فهو المذموم.

وأما قول علي فهو من باب المدافعة ، فاحتج عليه النبي - عليه السلام - بقوله تعالى : **﴿ وكان الإنسان أكثر شيء جدلا ﴾** [2] .

وقال غيره : وجه هذه الآية / في كتاب الاعتصام أن النبي ﷺ عرض [٤/ق٢١٦-ب] على علي وفاطمة الصلاة فاحتج عليه علي بقوله : إنما أنفسنا بيد الله . فلم يكن له أن يدفع ما دعاه النبي إليه بقوله هذا بل كان الواجب عليه قبول ما دعاه إليه ، وهذا هو نفس الاعتصام بسنته عليه السلام ؛ فلأجل تركه الاعتصام [بقبول] [4] ما دعاه إليه من الصلاة قال عليه السلام : **﴿ وكان الإنسان أكثر شيء جدلا ﴾** [2] . ولا حجة لأحد في ترك أمر الله ، وأمر رسوله بمثل ما احتج علي .

وأما حديث أبي هريرة، فموضع الترجمة منه أن اليهود لما بلغهم النبي

---

(١) في « الأصل » : شيء . والمثبت من « هـ ، ن » .
(٢) الكهف : ٥٤ . (٣) من « هـ ، ن » .
(٤) في « الأصل » : بقول . والمثبت من « هـ » .

ﷺ ما لزمهم العمل به والإيمان بموجبه قالوا له : قد بلغت يا أبا القاسم . رادين لأمره في عرضه عليهم الإيمان ، فبالغ في تبليغهم ، وقال : ذلك أريد . ومن روى « ذلك أريد » بمعنى : أريد بذلك بيانًا بتكرير التبليغ ، وهذه مجادلة من النبي ﷺ لأهل الكتاب بالتي هي أحسن.

وقد اختلف العلماء في تأويل هذه الآية ، فقالت طائفة : هي محكمة ، ويجوز مجادلة أهل الكتاب بالتي هي أحسن على معنى الدعاء لهم إلى الله والتنبيه على حججه [وآياته] [(١)] رجاء إجابتهم إلى الإيمان وقوله تعالى : ﴿ **إلا الذين ظلموا منهم** ﴾ [(٢)] معناه : إلا الذين نصبوا للمؤمنين الحرب ، فجادلوهم بالسيف حتى يُسلموا أو يعطوا الجزية . هذا قول مجاهد ، وسعيد بن جبير .

وقال ابن زيد : معناه: ولا تجادلوا أهل الكتاب . يعني : إذا أسلموا وأخبروكم بما كان في كتبهم . إلا بالتي هي أحسن : في المخاطبة ، إلا الذين ظلموا : بإقامتهم على الكفر فخاطبوهم بالشر ، وقال : هي محكمة . وقال قتادة : هي منسوخة بآية القتال .

* * *

باب : قوله تعالى﴿ وكذلك جعلناكم أمة وسطًا ﴾ [(٣)] وما أمر النبي عليه السلام بلزوم الجماعة وهم أهل العلم

فيه : [أبو] [(٤)] سعيد : قال النبي - عليه السلام - : « يجاء بنوح يوم القيامة فيقال له : هل بلغت؟ فيقول : نعم يا رب فتسأل أمته : هل بلغكم ؟ [فيقولون][(٥)]: ما جاءنا من نذير . فيقول : من (يشهد لك)[(٦)] ؟ فيقول : محمد وأمته . فقال رسول الله: فيجاء بكم فتشهدون.

---

(١) في « الأصل » : وإيمانه . والمثبت من « هـ » .

(٢) البقرة : ١٥٠ . (٣) البقرة : ١٤٣ . (٤) من « ن » .

(٥) في « الأصل » : فيقولوا . والمثبت من « هـ ، ن » .

(٦) في « هـ ، ن » : شهودك .

ثم قرأ رسول الله : ﴿ وكذلك جعلناكم أمة وسطا ﴾ [1] [أي : عدلا .
إلى قوله: ﴿ شهيدًا ﴾ [1]] [2] .

معنى هذا الباب » الاعتصام بالجماعة ، ألا ترى قوله : **﴿لتكونوا شهداء على الناس ﴾** [1] [و] [3] لا يجوز أن يكونوا [شهداء] [4] غير [مقبولي] [5] القول ، ولما كان الرسول واجبًا اتباعه وجب اتباع قولهم ؛ لأن الله جمع بينه وبينهم في قبول قولهم وزكاهم وأحسن الثناء عليهم بقوله : **﴿ وكذلك جعلناكم أمة وسطًا﴾**[1] يعني : عدلا .

والاعتصام بالجماعة كالاعتصام بكتاب الله وسنة رسوله ﷺ ؛ لقيام الدليل على توثيق الله ورسوله صحة الإجماع وتحذيرهما من مفارقته بقوله تعالى : **﴿ ومن يشاقق الرسول من بعد ما تبين له الهدى ﴾** [6] الآية ، وقوله : **﴿ كنتم خير أمة أخرجت للناس ﴾** [7] الآية . وهاتان الآيتان [قاطعتان] [8] على أن الأمة لا تجتمع على ضلال ، وقد أخبر الرسول بذلك فهمًا (من كتاب الله) [9] فقال : « لا تجتمع أمتي على ضلال » ولا يجوز أن يكون أراد جميعها من عصره إلى قيام الساعة ؛ لأن ذلك لا يفيد شيئًا ؛ إذ الحكم لا يعرف إلا بعد انقراض جميعها ، فعلم أنه أراد أهل الحل والعقد من كل عصر .

* * *

(١) البقرة : ١٤٣ . (٢) في « الأصل » : الآية . والمثبت من « هـ » .
(٣) من « هـ » . (٤) في « الأصل » : شهيدًا . والمثبت من « هـ » .
(٥) في « الأصل ، هـ » : مقبول . والمثبت هو الصواب .
(٦) النساء : ١١٥ . (٧) آل عمران : ١١٠ .
(٨) في « الأصل » : ما قطعتا . والمثبت من « هـ » .
(٩) تكررت بالأصل .

باب : إذا اجتهد العالم أو الحاكم فأخطأ خلاف الرسول من غير [علم] [1] فحكمه مردود لقوله عليه السلام من عمل عملا ليس عليه أمرنا فهو رد

فيه : أبو سعيد وأبو هريرة : « أن النبي - عليه السلام - بعث أخا بني عدي الأنصاري إلى خيبر ، فاستعمله على خيبر [فقدم] [1] بتمر جنيب فقال له رسول الله ﷺ : أكُل تمر خيبر هكذا ؟ فقال له : لا والله يا رسول الله ، إنا لنشتري الصاع بالصاعين من الجمع . فقال رسول الله : لا تفعلوا ولكن مثلا بمثل ، أو بيعوا هذا واشتروا بثمنه من هذا ، وكذلك الميزان ».

قد تقدم هذا الباب في كتاب الأحكام ومعناه ، وفي كتاب الاعتصام أن الواجب على من حكم بغير السنة جهلا وغلطًا ، ثم تبين له أن سنة الرسول خلاف حكمه / فإن الواجب عليه الرجوع إلى [٤/ق٢١٧-أ] حكم السنة وترك ما خالفها امتثالا لأمره تعالى بوجوب طاعته وطاعة رسوله ألا يحكم بخلاف سنته ، وهذا هو نفس الاعتصام بالسنة ، وقد تقدم فيه ، وأن الرسول أمر برد هذا البيع في البيوع .

وقوله : « وكذلك الميزان » معناه : وكذلك ما يوزن أن يباع مثلا بمثل مثل ما يكال .

* * *

(١) من « هـ ، ن » .

باب : أجر الحاكم إذا اجتهد فأصاب أو أخطأ

فيه : عمرو بن العاص : « **أنه سمع رسول الله ﷺ يقول : إذا حكم الحاكم فاجتهد ، فأصاب فله أجران ، وإذا حكم فاجتهد ثم أخطأ فله أجر** » . قال ابن المنذر : وإنما يكون الأجر للحاكم المخطئ إذا كان عالمًا بالاجتهاد والسنن ، وأما من لم يعلم ذلك فلا يدخل في معنى الحديث ، يدل على ذلك ما رواه الأعمش ، عن سعيد بن عبيدة ، عن ابن بريدة، عن أبيه قال : قال رسول الله ﷺ : « القضاة ثلاثة : قاضيان في النار ، وقاض في الجنة ، فقاض قضى بغير الحق وهو يعلم، فذلك في النار ، وقاض قضى وهو لا يعلم فأهلك حقوق الناس فذلك في النار ، وقاض قضى بالحق ، فذلك في الجنة » .

قال ابن المنذر : إنما يؤجر على [اجتهاده] (١) في طلب الصواب لا على الخطأ ، ومما يؤيد هذا قوله تعالى : ﴿ **وداود وسليمان** ﴾ (٢) الآية. قال الحسن : أثنى على سليمان ولم يذم داود . وذكر أبو التمام المالكي أن مذهب مالك أن الحق في واحد من أقاويل المجتهدين ، وليس ذلك في جميع أقاويل [المختلفين] (٣) وبه قال أكثر الفقهاء.

قال : وحكى ابن القاسم أنه سأل مالكًا عن اختلاف الصحابة ، فقال: مخطئ ومصيب وليس الحق في جميع أقاويلهم . قال أبو بكر ابن الطيب : اختلفت الروايات عن أئمة الفتوى في هذا الباب كمالك وأبي حنيفة والشافعي :

فأما مالك ، فالمروي عنه منعه المهدي من حمله الناس على العمل والفتيا بما في الموطأ ، وقال له : دع الناس [يجتهدون] (٤) وظاهر هذا إيجابه على كل مجتهد القول بما يؤديه الاجتهاد إليه ، ولو رأى أن الحق في قوله فقط ، أو قطع عليه لكان الواجب عليه

---

(١) في « الأصل » : اجتهاد . والمثبت من « هـ » .
(٢) الأنبياء : ٧٨ .
(٣) في « الأصل » : المختلف . والمثبت من « هـ » .
(٤) في « الأصل » : يجتهدوا . والمثبت من « هـ » .

المشورة على السلطان [بالعمل] [1] به ، ويبعد أن يعتقد مالك أن كل مجتهد مأمور بالحكم والفتيا باجتهاده ، وإن كان مخطئًا في ذلك ، وذكر عن أبي حنيفة والشافعي [القولين] [2] جميعًا .

[واحتج] [3] من قال : إن الحق في واحد من أقاويل المجتهدين بقوله عليه السلام : « إذا اجتهد الحاكم فأصاب فله أجران ، وإذا اجتهد فأخطأ فله أجر » . قالوا : وهذا نص على أن في المجتهدين وفي الحاكمين مخطئًا ومصيبًا ، قالوا : والقول بأن كل مجتهد مصيب يؤدي إلى كون الشيء حلالا حرامًا وواجبًا ندبًا ويلزم الحاكم اعتقاد كونه حلالا إذا رأى ذلك بعض أهل الاجتهاد ، وحرامًا إذا رأى ذلك غيره ، وأن تكون الزوجة محللة محرمة ، والمال ملك الإنسان وغير ملك له إذا اختلف في ذلك أهل الاجتهاد .

واحتج كل من قال : كل مجتهد مصيب ، فقالوا : اتفق الكل من الفقهاء على أن فرض كل عالم الحكم والفتيا بما أداه الاجتهاد إليه ، وما هو الحق عنده وفي غالب ظنه ، وأنه حرام عليه أن يفتي ويحكم بقول مخالفه ، ولو كان في الأقاويل المختلف فيها ما هو خطأ وخلاف دين الله لم يجز أن تجمع الأمة على أنه فرض القائل به ؛ لأن إجماعها على ذلك إجماع على خطأ ، وقد نهى الله عنه وشرع خلافه .

ولو جاز أن يكون أحدهما مخطئًا لأدى ذلك إلى أن الله تعالى أمر أحدهما بإصابة عين الباطل ، وفي هذا القولُ بأن الله أمر بالباطل ، وإذا فسد هذا مع كونه مأموراً بالاجتهاد وجب كونه بفتياه ممتثلا أمر ربه وطائعًا له ومصيبًا عند الله ، فثبت أن الحق مع كل واحد منهما بدليل قوله تعالى : ﴿ **إن الله لا يأمر بالفحشاء** ﴾ [4] ومع قيام الدليل على أن طاعة الباري إنما كانت طاعة لأمره بها كما أن المعصية كانت معصية لنهيه عنها .

---

(1) في « الأصل » : والعمل . والمثبت من « هـ » .
(2) من « هـ » .
(3) في « الأصل » : فاحتج . والمثبت من « هـ » .
(4) الأعراف : 28

وقد أجاب الشافعي عن هذا الحديث في الرسالة بنحو هذا فقال : لو كان في الاجتهاد خطأ وصواب / في الحقيقة لم يجز أن يثاب على [٤/ق٢١٧-ب] أحدهما أكثر (من) (١) الآخر ؛ لأن الثواب لا يجوز فيما لا يسوغ ولا في الخطأ الموضوع إثمه عنا .

وقال ابن الطيب : هذا الخبر يدل على أن كل مجتهد مصيب أولى وأقرب ؛ لأن المخطئ لحكم الله والحاكم بغيره مع الأمر له به لا يجوز أن يكون مأجورًا على الحكم بالخطأ بل أقصى حالاته أن يكون إثمه موضوعًا [عنه] (٢) فأما أن يكون بمخالفة حكم الله مأجورًا فإنه باطل باتفاق ، والنبي - عليه السلام - قد جعله مأجورًا ، فدل ذلك على أن هذا ليس بخطأ في شيء من الأحكام وجب عليه ولزمه الحكم به .

ويحتمل أن يكون معناه إذا اجتهد في البحث والطلب للنص فأصابه وحكم بموجبه فله أجران : أحدهما على البحث والطلب ، والآخر على الحكم بموجبه ، وأراد بقوله : « إن حكم فأخطأ » أي : أخطأ الخبر ، بأن لم يبلغه مع الاجتهاد في طلبه ، ثم حكم باجتهاده المخالف لحكم النص كان مخطئًا للنص ومصيبه لا محالة في الحكم ؛ لأن الحكم بالاجتهاد عند ذلك هو فرضه .

ولهذا كان يقول عمر عندما كان يبلغه الخبر : لولا هذا لقضينا فيه برأينا . ولم يقل له أحد من الصحابة : لو قضيت فيه برأيك ولم يبلغك الخبر لكنت بذلك عاصيًا ، ولم أردت أن تقضي بالرأي وهذا الخبر كان موجودًا ، فدل إمساك الكل عن ذلك أن فرض الحاكم والمجتهد الحكم والفتيا برأيه ، وإن خالف موجب الخبر ، فإذا بلغه تغيرَ عند ذلك فرضُه ولزمه الحكم بموجبه .

ولا نقول : إن كل مجتهد مصيب إلا في الفروع ومسائل الاجتهاد

---

(١) في « هـ » : مما يثاب على .   (٢) من « هـ » .

التي يجوز للعامي فيها التقليد ، وأما القول بوجوب الصلوات الخمس والصيام والحج [وكل] [1] فرض يثبت العمل به بالتواتر والاتفاق فأصل من أصول الدين الذي يحرم خلافه كالتوحيد والنبوة وما يتصل بها .

* * *

باب : الحجة على من قال إن أحكام النبي ﷺ كانت ظاهرة وما كان يغيب بعضهم من مشاهدة النبي وأمور الإسلام

فيه : أبو موسى : « أنه استأذن على عمر فوجده مشغولا فقال عمر : ألم أسمع صوت عبد الله بن قيس ؟ ائذنوا له . فقال : ما حملك على ما صنعت ؟ فقال : إنا كنا نؤمر بهذا . قال : فائتني على هذا ببينة أو لأفعلن بك . فانطلق إلى مجلس من الأنصار ، فقالوا : لا يشهد إلا أصاغرنا . فقام أبو سعيد الخدري فقال : كنا نؤمر بهذا . فقال عمر : خفي عليّ هذا من أمر النبي – عليه السلام – ألهاني الصفق بالأسواق » .

وفيه : أبو هريرة : « إنكم تزعمون أن أبا هريرة يكثر الحديث عن النبي – عليه السلام – والله الموعد ، إني [كنت] [2] امرأً مسكينًا ألزم النبي -عليه السلام – على [ملء][3] بطني ، وكان المهاجرون يشغلهم الصفق بالأسواق ، وكانت الأنصار يشغلهم القيام على أموالهم ، فشهدت رسول الله ﷺ ذات يوم وقال : من بسط رداءه حتى أقضي مقالتي ، ثم يقبضه فلن ينسى شيئًا سمعه مني ، فبسطت بردة كانت عليّ ، فوالذي بعثه بالحق ، ما نسيت شيئًا سمعته منه » .

هذا الباب يرد به على الرافضة [وقوم] [4] من الخوارج زعموا بأن أحكام

---

(١) في « الأصل » : وكان . والمثبت من « هـ » . (٢) من « هـ ، ن » .
(٣) في « الأصل » : ما في . والمثبت من « هـ ، ن » .
(٤) في « الأصل » : وقومًا . والمثبت من « هـ » .

النبي وسننه منقولة عنه نقل تواتر ، وأنه لا سبيل إلى العمل بما لم ينقل نقل تواتر ، وقولهم في غاية الجهل بالسنن وطرقها ، فقد صحت الآثار أن أصحاب النبي ﷺ أخذ بعضهم السنن من بعض ورجع بعضهم إلى ما رواه غيره عن النبي - عليه السلام - وانعقد الإجماع على القول بالعمل بأخبار الآحاد ، وبطل قول من خرج عن ذلك من أهل البدع ، هذا أبو بكر الصديق على مكانه لم يعلم النص في الجدة حتى أخبره محمد بن مسلمة والمغيرة بالنص فيها ، فرجع إليه، وأخذ عمر بن الخطاب بما رواه عبد الرحمن بن عوف في حديث الوباء ، فرجع إليه ، [وكذلك أخذ أيضًا عمر بما رواه أبو موسى في دية الأصابع ، فرجع إليه] (١) وأخذ أيضًا عمر بما رواه المغيرة بن شعبة ومحمد بن مسلمة في دية الجنين ، ورجع عمر إلى أبي موسى وأبي سعيد في الاستئذان ، وابن عمر يحكى عن رافع بن خديج النهي عن المخابرة فرجع إليه ، والصحابة ترجع إلى قول عائشة : « إذا التقى الختانان وجب الغسل » وأيضًا ترجع إليها في أن النبي ﷺ كان يصبح جنبًا من جماع غير احتلام ثم يصوم . وأبو موسى يرجع إلى حديث ابن مسعود في ابنة وابنة ابن / وأخت وهذا الباب أكثر من أن [٤/ق٢١٨-أ] يحصى .

* * *

باب : من رأى ترك النكير من النبي ﷺ حجة لا من غيره

فيه : ابن المنكدر : « رأيت جابر بن عبد الله يحلف بالله أن ابن صياد الدجال. قلت : تحلف بالله ؟ قال : إني سمعت عمر يحلف على ذلك عند النبي فلم ينكره النبي ﷺ » .

---

(١) من « هـ » .

[قال المؤلف :] [1] ترك النكير من النبي - عليه السلام حجة وسنة يلزم أمته العمل بها لا خلاف بين العلماء في ذلك ؛ لأن النبي -عليه السلام - لا يجوز أن يرى أحدًا من أمته يقول قولا أو يفعل فعلا محظورًا [فيقره عليه] [2] لأن الله - تعالى - فرض عليه النهي عن المنكر ، فإذا كان كذلك علم أنه لا يرى أحدًا عمل شيئًا فيقره عليه إلا وهو مباح له ، وثبت أن إقرار النبي - عليه السلام - عمر على حلفه أن ابن صياد الدجال إثبات أنه الدجال ، وكذلك فهم جابر بن عبد الله من يمين عمر .

فإن اعترض بما روى من قول عمر للنبي : دعني أضرب عنقه. فقال: « إن يكن هو فلن تسلط عليه ، وإن لم يكن هو فلا خير لك في قتله » فهذا يدل على شكه عليه السلام فيه ، وترك القطع عليه أنه الدجال .

قيل : عن هذا جوابان : أحدهما أنه يمكن أن يكون هذا الشك منه عليه السلام كان متقدمًا ليمين عمر أنه الدجال ، ثم أعلمه الله أنه الدجال فلذلك ترك إنكار يمينه عليه لتيقنه بصحة ما حلف عليه .

الوجه الآخر : أن الكلام وإن خرج مخرج الشك فقد يجوز أن يراد به التيقن والقطع كقوله : ﴿ **لئن أشركت ليحبطن عملك** ﴾ [3] وقد علم تعالى أنه لا يقع منه [الشرك] [4] . وإنما خرج منه هذا عليه السلام على المتعارف عند العرب في تخاطبها قال الشاعر :

أيا ظبية الوعساء بين جلاجل [بين] [5] النقا [آأنت][6] أم أُم سالم

---

(١) من « هـ » .
(٢) في « الأصل » : يقره . والمثبت من « هـ » .
(٣) الزمر : ٦٥ .
(٤) في « الأصل » : الشك . والمثبت من « هـ » .
(٥) في « الأصل » : وبين . والمثبت من « هـ » .
(٦) في « الأصل » : أنت . والمثبت من « هـ » .

فأخرج كلامه مخرج الشك مع كونه غير شاك في أنها ليست بأم سالم ، وكذلك خرج كلامه عليه السلام مخرج الشك لطفًا منه [بعمر] (١) في صرفه عن عزمه على قتله ، وقد ذكر عبد الرزاق ، عن معمر ، عن الزهري ، عن سالم ، عن ابن عمر قال : لقيت ابن صياد يومًا ومعه رجل من اليهود ، فإذا عينه قد طفت وهي خارجة مثل عين الجمل ، فلما رأيتها قلت : أنشدك الله يا ابن صياد ، متى طفت عينك ؟ قال : لا أدري والرحم . فقلت : كذبت ، لا تدري وهي في رأسك ؟ قال : فمسحها ونخر ثلاثًا فزعم اليهودي أني ضربت بيدي على صدره وقلت له : أخسأ فلن [تعدو] (٢) قدرك ، فذكرت ذلك لحفصة [فقالت] (٣) : اجتنب هذا الرجل ، فإنا نتحدث أن الدجال يخرج عند غضبة يغضبها .

فإن قيل : هذا كله يدل على الشك في أمره .

قيل : إن وقع الشك في أنه الدجال الذي يقتله عيسى ابن مريم ﷺ، فلم [يقع الشك] (٤) في أنه أحد الدجالين الذين أنذر بهم النبي - عليه السلام - من قوله : « إن بين يدي الساعة دجالين كذابين أزيد من ثلاثين » فلذلك لم ينكر على عمر يمينه - والله أعلم - لأن الصحابة قد اختلفوا في مسائل : فمنهم من أنكر على مخالفه قوله ، ومنهم من سكت عن إنكار ما خالف اجتهاده ومذهبه ، فلم يكن سكوت من سكت رضا بقول مخالفه ، إذ قد يجوز أن يكون الساكت لم يبن له وجه الصواب في المسألة وأخرها إلى وقت آخر ينظر فيها ، وقد يجوز أن يكون سكوته ليبين خلافها في وقت آخر إذا كان ذلك أصلح في المسألة .

فإن اعترض أن سكوت البكر حجة عليها .

---

(١) في « الأصل » : لما . والمثبت من « هـ » .

(٢) في « الأصل » : تعد . والمثبت من « هـ » .

(٣) في « الأصل » : فقال . والمثبت من « هـ » .

(٤) من « هـ » .

قيل : ليس هذا بمفسد لما تقدم ؛ لأن من شرط كون سكوتها حجة عليها تقديم الإعلام لها بذلك ؛ فسكوتها بعد الإعلام أنه لازم لها رضا منها وإقرار .

* * *

باب : الأحكام التي تعرف بالدلائل [و] [1] كيف معنى الدلالة وتفسيرها

وقد أخبر النبي - عليه السلام - أمر الخيل وغيرها ، ثم سئل عن الحمر، فدلهم على قوله تعالى : ﴿ فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ﴾[2] . وسئل عن الضب فقال : « لا آكله ولا أحرمه » وأكل على مائدة [النبي][1] / - عليه السلام - الضب، فاستدل ابن عباس على أنه ليس بحرام. [٤/ق٢١٨-ب]

وفيه : أبو هريرة : قال النبي - عليه السلام - : « الخيل لثلاثة : لرجل أجر [ولرجل] [3] ستر ، وعلى رجل وزر ... » الحديث «وسئل النبي عن الحمر ، فقال : ما أنزل الله عليّ فيها إلا هذه الآية الفاذة الجامعة : ﴿[فمن] [4] يعمل مثقال ذرة خيراً يره ﴾ [2] » .

وفيه : عائشة : « أن امرأة سألت النبي عن الحيض كيف تغتسل منه؟ قال : تأخذي فرصة ممسكة فتوضئي بها . قالت : كيف أتوضأ بها يا رسول الله ؟ قال : توضئي . قالت : كيف أتوضأ بها ؟ قال : توضئي بها. قال عائشة : فعرفت الذي يريد النبي - عليه السلام - فجذبتها إلي فعلمتها » .

وفيه :ابن عباس: « أن أم حفيد أهدت للنبي ﷺ سمنًا وأقطًا وأضبًا

---

(١) من « هـ ، ن » .
(٢) الزلزلة : ٧ .
(٣) في « الأصل » : وعلى رجل . والمثبت من « هـ ، ن » .
(٤) في « الأصل ، هـ » : من . وهي رواية أبي ذر الهروي .

فدعا بهن النبي - عليه السلام - فأكلن على مائدته ، فتركهن النبي كالمتقذر له ، ولو كان حرامًا ما أكل على مائدته ولا أمر بأكله » .

وفيه : جابر : قال النبي - عليه السلام - : « من أكل ثومًا أو بصلا فليعتزلنا - أو ليعتزل مسجدنا - وليقعد في بيته . وأنه أُتي ببدر- قال ابن وهب يعني: طبقًا فيه خضرات من بقول - فوجد لها ريحًا فسأل عنها ، فأخبر بما فيها من البقول ، فقال : قربوها فقربوها إلى بعض أصحابه كان معه ، فلما رآه كره أكلها قال : كل ، فإني أناجي من لا تناجي » . وعن ابن وهب : بقدر فيه خضرات .

وفيه : جبير بن مطعم : « أن امرأة أتت النبي - عليه السلام - وكلمته بشيء فأمرها بأمر ، فقالت : أرأيت يا رسول الله ، إن لم أجدك ؟ قال : إن لم تجديني فائتي أبا بكر » زاد الحميدي عن إبراهيم ابن سعد كأنها تعني : الموت .

قال المهلب وغيره : هذا كله بيِّن في جواز القياس والاستدلال وموضع الاستدلال على أن في الحمر [أجرًا] [1] قوله تعالى: ﴿ **فمن يعمل مثقال ذرة خيرًا يره** ﴾ [2] فحمل عليه السلام الآية على عمومها استدلالا بها .

وأما استدلال ابن عباس أن الضب حلال بأكله على مائدته عليه السلام بحضرته ، ولم ينكره ولا منع منه بقوله : « ولا أحرمه » . فيحتمل أن يكون استدلالا لا نصًا لاحتمال قوله عليه السلام : « ولا أحرمه » الندب إلى ترك أكله ، فلما أكل بحضرته استدل ابن عباس بذلك على أنه لم يحرمه ولا ندب إلى تركه ، ويحتمل أن يكون نصًا؛ لأن قوله : «ولا [أحرمه] [3] » فلا يتضمن الندب إلى ترك أكله فيكون نصًا في تحليله.

---

(١) في « الأصل » : أجر . والمثبت من « هـ » .

(٢) الزلزلة : ٧ .

(٣) من « هـ » .

وأما حديث الحائض فهو استدلال صحيح ؛ لأن السائلة لم تفهم غرض النبي ﷺ حين أعرض عن ذكر موضع الأذى والدم حياء منه ﷺ ولم تدر أن [التتبع] [1] لأثر الدم بالخرقة سمي توضؤًا ففهمت ذلك عائشة من إعراضه فهو استدلال صحيح .

وأما حديث جابر في الثوم والبصل فهو نص منه ﷺ على جواز أكله بقوله : « كل ، فإني أناجي من لا تناجي » .

وأما حديث المرأة فهو استدلال صحيح استدل النبي بظاهر قولها : فإن لم أجدك . أنها أرادت الموت ، فأمرها بإتيان أبي بكر .

فإن قيل : فليس في ظاهر قولها دلالة على الموت .

قيل له : قد يمكن أنه [اقترن بسؤالها] [2] إن لم أجدك ؟ حالة من الأحوال ، وإن لم يمكن نقلها دلته عليه السلام على مرادها ، فوكلها إلى أبي بكر ، وفي هذا دليل على استخلاف أبي بكر ، وقد أمر الله عباده بالاستدلال والاستنباط من نصوص الكتاب والسنة وفرض ذلك على العلماء القائمين به .

* * *

باب : قول النبي عليه السلام لا تسألوا أهل الكتاب عن شيء

فيه : عبد الرحمن : « سمع معاوية يحدث رهطًا من قريش بالمدينة وذكر كعب الأحبار فقال : إن كان [من أصدق] [3] هؤلاء المحدثين الذين يحدثون عن [أهل] [4] الكتاب ، وإن كنا مع ذلك لنبلو عليه الكذب » .

وفيه : أبو هريرة قال : « كان أهل الكتاب يقرءون التوراة بالعبرانية ويفسرونها بالعربية لأهل الإسلام ، فقال رسول الله ﷺ : « لا تصدقوا

---

(١) في « الأصل » : المتبع . والمثبت من « هـ » .

(٢) في « الأصل » : أقرن سؤالها . والمثبت من « هـ » .

(٣) في « الأصل » : أصدق من . والمثبت من « هـ ، ن » . (٤) من « ن » .

أهل الكتاب ولا تكذبوهم ، وقولوا : ﴿ آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل إليكم ﴾ [(١)] الآية » .

وفيه : ابن عباس قال : « كيف تسألون أهل الكتاب عن شيء وكتابكم الذي أنزل على رسوله أحدث تقرءونه محضًا لم يشب ، وقد حدثكم أن أهل الكتاب بدلوا كتاب الله وغيروه وكتبوا بأيديهم الكتاب، وقالوا : هو من عند الله ليشتروا به ثمنًا قليلا ، ألا ينهاكم ما جاءكم من العلم عن مسألتهم [(٢)] لا والله ما رأينا منهم رجلا يسألكم عن الذي أنزل عليكم».

قال / المهلب : قوله عليه السلام : « لا تسألوا أهل الكتاب عن شيء » إنما هو في الشرائع لا تسألوهم عن شرعهم فيما لا (نعرفه)[(٢)] من شرعنا لنعمل به ؛ لأن شرعنا مكتف بنفسه وما لا نص فيه عندنا ففي النظر والاستدلال ما يقوم الشرع منه . [٤/ق٢١٩-أ]

وأما سؤالهم عن الأخبار المصدقة لشرعنا ، وما جاء به نبينا - عليه السلام - من الأخبار عن الأمم السالفة فلم ننه عنه .

فإن قيل : فقد أمر الله رسوله بسؤال أهل الكتاب فقال تعالى : **﴿فإن كنت في شك مما أنزلنا إليك فاسأل الذين يقرءون الكتاب من قبلك ﴾** [(٣)] .

قيل : ليس هذا بمفسد لما تقدم من النهي عن سؤالهم ؛ لأنه عليه السلام لم يكن شاكًا ولا مرتابًا ، وقال أهل التأويل : الخطاب للنبي ﷺ والمراد به : غيره من الشكاك كقوله تعالى : **﴿ يا أيها النبي إذا طلقتم النساء ﴾** [(٤)] وتقديره : إن كنت أيها السامع في شك مما أنزلنا على نبينا . كقولهم : إن كنت ابني فبرني . وهو يعلم أنه ابنه .

---

(١) العنكبوت : ٤٦ .
(٢) في « هـ » : نص فيه .
(٣) يونس : ٩٤ .
(٤) الطلاق : ١ .

فإن قيل : فإذا كان المراد بالخطاب غير النبي - عليه السلام - فكيف يجوز سؤال الذين يقرءون الكتاب مع جحدهم النبوة ؟

ففيه قولان : أحدهما : سل من آمن من أهل الكتاب كابن سلام، وكعب الأحبار . عن ابن عباس والضحاك ، ومجاهد وابن زيد . الثاني : سلهم عن صفة النبي ﷺ المبشر به في كتبهم ، ثم انظر ما يوافق تلك الصفة .

* * *

باب : النهي [على] [1] التحريم إلا ما تعرف [إباحته] [2] وكذلك الأمر نحو قوله حين أحلوا : أصيبوا من النساء

قال جابر : ولم يعزم عليهم ولكنه أحلهن لهم . وقالت أم عطية : نهينا عن اتباع الجنائز ولم يعزم علينا

فيه : جابر : « أهللنا أصحاب النبي - عليه السلام - في الحج خالصًا ليس معه عمرة فقدم النبي - عليه السلام - صبح رابعة مضت من ذي الحجة ، فلما قدمنا أمرنا النبي - عليه السلام - أن نحل ، وقال : أحلوا ، وأصيبوا من النساء . قال جابر : ولم يعزم عليهم ، ولكنه أحلهن لهم ، فبلغه أنا نقول : لما لم يكن بيننا وبين عرفة إلا خمس أمرنا أن نحل إلى نسائنا فنأتي عرفة تقطر مذاكيرنا المني ، فقام النبي - عليه السلام - فقال: قد علمتم أني أتقاكم لله ، وأصدقكم ، وأبركم ولولا هديي لحللت كما تحلون فحلوا ، فلو استقبلت من أمري ما استدبرت ما أهديت . فحللنا وسمعنا وأطعنا » .

وفيه : عبد الله المزني: قال النبي - عليه السلام - : « صلوا قبل صلاة المغرب . قال في الثالثة : لمن شاء . كراهية أن يتخذها الناس سنة » .

---

(١) في « الأصل » : عن . والمثبت من « هـ » . (٢) من « هـ ، ن » .

وفيه : جندب : قال النبي - عليه السلام - : « اقرءوا القرآن ما ائتلفت قلوبكم ، فإذا [اختلفتم] [١] فقوموا عنه » .

وفيه : ابن عباس : « لما حضر [النبي ﷺ] [٢] وفي البيت رجال (منهم) [٣] عمر بن الخطاب قال : هلم أكتب لكم كتابًا لن تضلوا بعده، قال عمر بن الخطاب : إن النبي - عليه السلام - غلبه الوجع ، وعندكم القرآن فحسبنا كتاب الله . واختلف أهل البيت واختصموا ، فمنهم من يقول : قربوا يكتب لكم كتابًا لن تضلوا بعده . ومنهم من يقول ما قال عمر . فلما أكثروا اللغط والاختلاف عند النبي قال : قوموا عني . قال عبيد الله : فكان ابن عباس يقول : إن الرزية كل الرزية ما حال بين رسول الله وبين أن يكتب لهم ذلك الكتاب من اختلافهم ولغطهم » [٤] .

اختلف العلماء في هذا الباب فذكر ابن الباقلاني ، عن الشافعي أن النهي عنده على التحريم والإيجاب وقاله كثير من الناس ، وقال الجمهور من أصحاب مالك وأبي حنيفة والشافعي وجميع أهل الظاهر: النهي عن الشيء يدل على فساد المنهي عنه .

قال المؤلف : وهذا يدل على أنه عندهم على التحريم والإيجاب ، وكذلك الأمر عند الدهماء من الفقهاء وغيرهم موضوع لإيجاب المأمور وحتمه إلا أن يقوم الدليل على أنه ندب ، وحكى أبو التمام عن مالك أن الأمر عنده على الوجوب ، وإلى هذا ذهب البخاري في هذا الباب إلى أن النهي والأمر على الوجوب إلا ما قام الدليل على خلاف ذلك فيه ، وذهبت الأشعرية إلى أن النهي لا يقتضي التحريم ؛ بل يتوقف [فيه] [٥] إلى أن يرد الدليل .

قال ابن الطيب : وقال هذا فريق من الفقهاء . قال : وقال

---

(١) في « الأصل » : اختلفت . والمثبت من « هـ ، ن » .
(٢) من « هـ ، ن » .   (٣) في « هـ ، ن » : فيهم .
(٤) زاد في « هـ ، ن » قبل هذا الحديث والذي قبله باب كراهية الاختلاف وصنيع المؤلف يقتضي أنهما في باب واحد .
(٥) من « هـ » .

كثير من أصحاب الشافعي : إن الأمر موضوع للندب إلى الفعل فإن اقترن به ما يدل على كراهية تركه من ذم أو عقاب كان واجبًا ، وقال به كثير من الفقهاء ، واستشهد / عليه الشافعي بقوله تعالى : [٤/ق٢١٩-ب] ﴿وأشهدوا إذا تبايعتم﴾ [1] وأمثاله مما ورد الأمر به على سبيل الندب. قال ابن الطيب : وقد دل بعض كلامه على أن مذهبه الوقف. وقال أبو الحسن الأشعري وكثير من الفقهاء والمتكلمين : إنه محتمل للأمرين . قال ابن الطيب : وهذا الذي نقول به .

قال غيره : والحجة للجماعة أن النهي على التحريم أنه موجب اللغة ومقتضاها ، فإن من فعل ما نهي عنه استحق اسم العصيان ؛ لأنه لا ينهى إلا عن قبيح قبل النهي ، وعما هو له كاره ، وقد فهمت الأمة تحريم الزنا، ونكاح المحرمات ، والجمع بين الأختين، وتحريم بيع الغرر ، وبيع ما لم يقبض بمجرد نهي الله - تعالى - ونهي رسوله عن ذلك لا شيء سواه.

قال أبو التمام : وأما الحجة لوجوب الأمر فإن الله - تعالى - أطلق أوامره في كتابه ولم يقرنها بقرينة ، وكذلك فعل النبي - عليه السلام - فعلم أن إطلاق الأمر يقتضي وجوبه ، ولو افتقر إلى قرينة لقرنت به .

والعرب لا تعرف القرائن ، وإنما هو شيء أحدثه متأخرو المتكلمين فلا يجوز أن يقال : إن [لفظ] [2] الأمر لا تأثير له في اللغة وأنه يحتاج إلى قرينة ، وقد قال تعالى : ﴿ فليحذر الذين يخالفون عن أمره أن تصيبهم فتنة أو يصيبهم عذاب أليم ﴾ [3] فوجب بهذا الوعيد حمل الأمر على الوجوب .

وحجة الذين قالوا بالوقف وطلب الدليل على المراد بالأمر أن الأمر قد يرد على معان ، فالواجب أن ينظر فإن وجد ما يدل على غير الواجب حمل عليه ، وإلا فظاهره الوجوب ؛ لأن قول القائل : افعل

---

(١) البقرة : ٢٨٢ . (٢) في « الأصل » : لفظة . والمثبت من « هـ » .
(٣) النور : ٦٣ .

لا يفهم منه لا تفعل ولا افعل إن شئت ، إلا أن يصله بما يعقل به التخيير ، فإذا عدم ذلك وجب تنفيذ الأمر ، واحتجوا على وجوب طلب الدليل والقرينة على المراد بالأمر ، فقالوا : اتفق الجميع على جنس الاستفهام [عن] [1] معنى الأمر إذا ورد هل هو على الوجوب أو الندب ؟ ولو لم يصلح استعماله فيه لقبح الاستفهام عنه ؛ لأنه لا يحسن أن يستفهم هل أريد باللفظ ما لا يصلح إجراؤه عليه [إذ] [2] لا يصلح إذا قال القائل : رأيت إنسانًا. أن يقال له : هل رأيت إنسانًا أو حمارًا . وحسن أن يقال له : أذكرًا رأيت أم أنثى لصلاح وقوعه عليهما .

وقد ثبت قبح الاستفهام مع القرائن الدالة على المراد بالمحتمل من اللفظ ، وإنما يسوغ الاستفهام مع التباس الحال وعدم القرائن الكاشفة عن المراد.

قال المؤلف : وما ذكر البخاري في هذا الباب من الآثار يبطل هذا القول؛ لأنه عليه السلام حين أمرهم بالحل وإصابة النساء بين لهم أن أمره إياهم بإصابة النساء ليس على العزم ، ولولا بيانه ذلك لكانت إصابتهم للنساء واجبة عليهم (وكذلك) [3] بين لهم عليه السلام بنهيه النساء عن اتباع الجنائز أنه لم يكن نهي عزم ولا تحريم ، ولولا بيانه ذلك لفهم من النهي بمجرده التحريم ، وكذلك بين لهم أيضًا أن أمره لهم بالصلاة قبل المغرب ، وأمره لهم بالقيام عن القراءة عند الاختلاف ليس على الوجوب ؛ لأنه أمرهم بالائتلاف على ما دل عليه القرآن وحذرهم الفرقة .

فإذا حدثت شبهة توجب المنازعة فيه أمرهم بالقيام عن الاختلاف ولم يأمرهم بترك قراءة القرآن [إذا اختلفوا في تأويله لإجماع الأمة على قراءة القرآن] [2] لمن فهمه ولمن لم يفهمه، فدل أن قوله : « قوموا

---

(١) في « الأصل » : على . والمثبت من « هـ » .   (٢) من « هـ » .
(٣) مكررة بالأصل .

عنه» على وجه الندب لا على وجه التحريم للقراءة عند الاختلاف.

وكذلك رأى عمر في ترك كتاب رسول الله لهم حين غلبه الوجع من أجل تقدم العلم عنده وعند جماعة المؤمنين أن الدين قد أكمله الله، وأن الأمة قد اكتفت بذلك ، فلا يجوز أن يتوهم أن هناك [شيئًا بقي] (1) على النبي تبليغه فلم يبلغه لقوله تعالى : ﴿ **يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك وإن لم تفعل فما بلغت رسالته** ﴾ (2) . وبقوله : ﴿ **فتول عنهم فما أنت بملوم** ﴾ (3) وقد أنبأنا الله أنه أكمل به الدين فقال : ﴿ **اليوم أكملت لكم دينكم** ﴾ (4) .

وإذا ثبت هذا بان قوله - عليه السلام - : « هلموا أكتب لكم كتابًا لن تضلوا بعده » محمول على ما أشار به عمر بأنه قول من [قد غلبه](5) الوجع وشغل بنفسه ، واكتفى بما أخبر الله - تعالى - به من إكمال الدين، وبان بهذا مقدار علم عمر وتبريزه على ابن عباس فكل أمر [لله] (6) - تعالى - [وللرسول] (7) لم يكن واجبًا على العباد قد جاء معه من بيان النبي - عليه السلام - بتصريح أو بدليل ما فهم به أنه على غير اللزوم.

وقد فهم الصحابة ذلك من فحوى خطابه عليه السلام وكل أمر عري عن دليل يخرجه عن الوجوب، وجب حمله على الوجوب / ؛ [٤/ق٢٢٠-أ] إذ لو كان مراد الله به غير الوجوب لبينه النبي - عليه السلام - لأمته، فوجب أن يكون ما عرى من بيانه عليه السلام أنه على غير الوجوب غير مفتقر إلى طلب دليل أو قرينة [أن المراد] (8) به الوجوب ؛ لقيام لفظ الأمر بنفسه ، وكذلك ما عري من نهيه عليه السلام من دليل

---

(1) في « الأصل » : بقي شيء . والمثبت من « هـ » .
(2) المائدة : ٦٧ . (3) الذاريات : ٥٤ . (4) المائدة : ٣ .
(5) في « الأصل » : شغله . والمثبت من « هـ » .
(6) في « الأصل » : الله . والمثبت من « هـ » .
(7) في « الأصل » : والرسول . والمثبت من « هـ » .
(8) في « الأصل » : إن أريد . والمثبت من « هـ » .

يخرجه عن التحريم وجب حمله على التحريم كحكم الأمر سواء ، على ما ذهب إليه جمهور الفقهاء .

ووقع في بعض الأمهات في هذا الباب باب النهي عن التحريم [وهو غلط من الناسخ والصواب فيه باب النهي على التحريم] [1] يعني أن النهي محمول على التحريم إلا ما علمت إباحته على حديث أم عطية .

* * *

باب : قوله تعالى : ﴿ وأمرهم شورى بينهم ﴾ [2] ﴿ وشاورهم في الأمر ﴾ [3]

وأن المشاورة قبل العزم [والتبيين] [4] ؛ لقوله تعالى : ﴿ فإذا عزمت فتوكل على الله ﴾ [3] فإذا عزم الرسول لم يكن لبشر التقدم بين يدي الله ورسوله ، وشاور النبي عليه السلام يوم أحد أصحابه في المقام أو الخروج فرأوا له الخروج ، [فلما] [5] لبس لأمَتَه وعزم قالوا: أقم . فلم يمل إليهم بعد العزم ، وقال : لا ينبغي لنبي يلبس لأمته فيضعها حتى يحكم الله . وشاور عليًا وأسامة فيما رمى أهل الإفك عائشة ، فسمع منهما حتى نزل القرآن ، فجلد الرامين ولم يلتفت إلى منازعتهم ، ولكن حكم بما أمر الله ، وكانت الأئمة بعد (النبي) [6] عليه السلام يستشيرون [الأمناء] [7] من أهل العلم في الأمور المباحة، ليأخذوا بأسهلها ، فإذا وضح الكتاب أو السنة لم (يعدوه)[8] إلى غير اقتداء بالنبي ﷺ ورأى أبو بكر قتال من منع الزكاة، فقال عمر : كيف تقاتل وقد قال النبي عليه السلام : أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله ، فإذا قالوها عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقها . فقال أبو بكر: والله لأقاتلن من فرق بين ما جمع الله ، ثم تابعه بعد عمر ، فلم يلتفت أبو بكر إلى [مشورة] [9]

---

(١) من « هـ » . (٢) الشورى : ٣٨ . (٣) آل عمران : ١٥٩ .
(٤) في « الأصل » : والنسق . والمثبت من « هـ ، ن » .
(٥) في « الأصل » : فما . والمثبت من « هـ ، ن » . (٦) مكررة بالأصل .
(٧) في « الأصل » : الأشياخ . والمثبت من « هـ ، ن » .
(٨) في « هـ ، ن »: يتعدوه. (٩) في « الأصل » : مشاورة . والمثبت من « هـ».

عمر ؛ إذ كان عنده حكم النبي في الذين فرقوا بين الصلاة والزكاة ، وأرادوا تبديل الدين وأحكامه . وقال عليه السلام : من بدل دينه فاقتلوه. وكان القراء أصحاب مشورة عمر كهولا كانوا أو شبابًا وكان وقافًا عند كتاب الله .

فيه : عائشة : « حين قال لها أهل الإفك ، ودعا النبي عليًا وأسامة بن زيد حين استلبث الوحي يسألهما ويستشيرهما في فراق أهله ، فأما أسامة فأشار بالذي يعلم من براءة أهله ، وأما علي فقال : لم يضيق الله عليك والنساء سواها كثير ، وسل الجارية تصدقك ...» الحديث .

اختلف أهل التأويل في المعنى الذي أمر الله نبيه أن يشاور أصحابه ، فقالت طائفة : أمر الله أن يشاورهم في مكائد الحروب وعند لقاء العدو تطييبًا لنفوسهم وتألفًا لهم على دينهم وليروا أنه يسمع منهم ويستعين بهم ، وإن كان الله قد أغناه عن رأيهم بوحيه . روي هذا عن قتادة والربيع وابن إسحاق .

وقال آخرون : إنما أمر بمشورتهم فيما لم يأته فيه وحي ، ليبين لهم صواب الرأي . روي ذلك عن الحسن البصري والضحاك قالا : ما أمر الله نبيه بالمشاورة لحاجة منه إلى رأيهم ، وإنما أراد أن يعلمهم ما في المشورة من الفضل. قال الحسن: وما شاور قوم إلا هدوا لأرشد أمورهم.

وقال آخرون : إنما أمره الله بمشاورة أصحابه مع غناه عنهم بتدبيره تعالى له وسياسته إياه ؛ ليستن به من بعده ويقتدوا به فيما ينزل بهم من النوازل . قال سفيان الثوري : وقد [سن] [1] رسول الله الاستشارة في غير موضع ، استشار أبا بكر وعمر في أسارى بدر ، واستشار أصحابه في يوم الحديبية .

---

(١) في « الأصل » : بين . والمثبت من « هـ » .

وأما قوله تعالى : ﴿ **فإذا عزمت فتوكل على الله** ﴾ [1] قال قتادة : أمر الله نبيه إذا عزم على أمر أن يمضي فيه ويتوكل على الله .

قال المهلب : وامتثل هذا النبي عليه السلام فقال : « لا ينبغي لنبي لبس لأمته أن يضعها حتى يحكم الله » أي : ليس ينبغي له إذا عزم أن ينصرف ؛ لأنه نقض التوكل الذي شرط الله مع العزيمة ، فلبسه لأمته دال على العزيمة ، وفي أخذ النبي - عليه السلام - بما أمره الله من الرأي بعد المشورة حجة لمن قال من الفقهاء أن الأنبياء يجوز لهم الاجتهاد فيما لا وحي عندهم فيه. وقد تقدم بيان ذلك قبل هذا .

وفيه من الفقه : أن للمستشير والحاكم أن يعزم من الحكم على غير ما قال به مشاوره إذا كان من أهل الرسوخ في العلم ، وأن يأخذ بما يراه كما فعل النبي - عليه السلام - في مسألة عائشة / فإنه شاور [٤/ق٢٢٠-ب] عليًا وأسامة ، فأشار عليه أسامة بإمساكها ، وأشار عليه علي بفراقها ، فلم يأخذ بقول أحدهما وتركها عند أهلها حتى نزل القرآن فأخذ به ، وكذلك فعل أبو بكر الصديق فإنه شاور أصحابه في مقاتلة من منع الزكاة ، وأخذ بخلاف ما أشاروا به عليه من ترك قتالهم لما كان عنده متضحًا من قول النبي - عليه السلام - : « إلا بحقها » وفهمه هذه النكتة مع ما يعضدها من قوله : « من غير دينه فاقتلوه » .

وأما قول البخاري: فكان الأئمة بعد النبي - عليه السلام - يستشيرون الأمناء من أهل العلم ، فبذلك تواصى العلماء والحكماء . قال سفيان الثوري : ليكن أهل مشورتك أهل التقوى والأمانة ومن يخشى الله، فإذا أشار أحد برأي سأله : من أين قاله ؟ فإن اختلفوا أخذ بأشبههم قولا بالكتاب والسنة ، ولا يحكم بشيء حتى يتبين له حجة يجب الحكم بها .

---

(١) آل عمران : ١٥٩ .

وقول البخاري : فإذا وضح الكتاب والسنة يعني : إن وجد فيهما نص لم يتعدوه ، وإن لم [يوجد] (١) نص وسعهم الاجتهاد . وقال الشافعي : وإنما يؤمر الحاكم بالمشورة ؛ لأن المشير ينبهه لما يغفل عنه ويدله من الأخبار على ما يجهله ، فأما أن يقلد مشيراً فلم يجعل الله هذا لأحد بعد رسول الله ﷺ .

وقال أبو الحسن بن القابسي : قوله : فجلد الرامين لها . لم يأت فيه بإسناد وذكره [غيره مسنداً] (٢) وقوله : فسمع منهما . يعني : فسمع قول علي وأسامة على اختلافهما فيه . وقوله : لم يلتفت إلى تنازعهم . يعني : عليًا وأسامة ، وأراد : تنازعهما . وأظن الألف سقطت من الكتّاب .

* * *

(١) في « الأصل » : يجد . والمثبت من « هـ » .

(٢) في « الأصل » : غير مسند . والمثبت من « هـ » .

[كتاب التوحيد والرد على الجهمية وغيرهم] (١)

باب : ما جاء في دعاء النبي عليه السلام أمته إلى توحيد الله

فيه : ابن عباس : « أن النبي - عليه السلام - بعث معاذًا إلى اليمن فقال : أما إنك تقدم على قوم من أهل الكتاب ، فليكن أول ما تدعوهم إلى توحيد الله ، فإذا عرفوا ذلك ، فأخبرهم أن الله فرض عليهم خمس صلوات في يومهم وليلتهم ، فإذا صلوا ، فأخبرهم أن الله فرض عليهم زكاة في أموالهم تؤخذ من غنيهم وترد على فقيرهم ، فإذا أقروا بذلك فخذ منهم وتوقّ كرائم أموال الناس » .

وفيه : معاذ : قال النبي - عليه السلام - : « يا معاذ ، أتدري ما حق الله على العباد ؟ قال : الله ورسوله أعلم [قال] (٢) : أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئًا . أتدري ما حقهم عليه ؟ قال : الله ورسوله أعلم . قال : ألا يعذبهم » .

وفيه : أبو سعيد : « أن رجلا سمع رجلا يقرأ : قل هو الله أحد ويرددها، فلما أصبح جاء إلى النبي - عليه السلام - فذكر ذلك له - وكأن الرجل [يتقالها] (٣) - فقال رسول الله ﷺ : والذي نفسي بيده إنها لتعدل ثلث القرآن » .

---

(١) في « الأصل » : كتاب رد الجهمية وغيرهم التوحيد وهي رواية . والمثبت من «هـ».
(٢) من « هـ ، ن » .
(٣) في « الأصل » : يتقللها . والمثبت من « هـ ، ن » .

وفيه : عائشة : « أن النبي عليه السلام بعث رجلا على سرية وكان يقرأ بأصحابه في صلاتهم فيختم بـ : قل هو الله أحد ، فلما رجعوا ذكروا ذلك للنبي عليه السلام فقال : سلوه لأي شيء يصنع ذلك ؟ فسألوه فقال : لأنها صفة الرحمن وأنا أحب أن أقرأ بها . فقال النبي ﷺ : أخبروه أن الله يحبه » .

قال المؤلف : أمر الله - تعالى - نبيه بدعاء العباد إلى دينه وتوحيده ففعل ما لزمه من ذلك ، وبلغ ما أمره بتبليغه وأنزل عليه : **﴿فتول عنهم فما أنت بملوم ﴾** [1] ووجه ذكر حديث قل هو الله أحد في هذا الباب ؛ لأنها سورة تشتمل على توحيد الله وصفاته الواجبة له وعلى نفي ما يستحيل عليه من أنه لم يلد ولم يولد ، ولم يكن له كفواً أحد [وتضمنت] [2] ترجمة هذا الباب أن الله واحد وأنه ليس بجسم ؛ لأن الجسم ليس بشيء واحد بل هو أشياء كثيرة مؤلفة ، ففي نفس الترجمة الرد على الجهمية في قولها أنه تعالى جسم . والدليل على استحالة كونه جسمًا أن الجسم موضوع في اللغة للمؤلف المجتمع، وذلك محال عليه تعالى ؛ لأنه لو كان كذلك لم ينفك من الأعراض المتعاقبة عليه الدالة بتعاقبها عليه على حدثها لفناء بعضها عند مجيء أضدادها ، وما لم ينفك من المحدثات فمحدث مثلها ، وقد قام الدليل على قدمه تعالى ، فبطل كونه جسمًا .

* * *

---

(١) الذاريات : ٥٤ .　　(٢) في « الأصل » : وتضمينه . والمثبت من « هـ » .

/ **باب : قوله تعالى : ﴿ قل ادعوا الله أو ادعوا الرحمن أيا ما تدعوا فله الأسماء الحسنى ﴾ (١)** [٤/ق٢٢١-أ]

فيه : جرير : قال عليه السلام : « لا يرحم الله من لا يرحم الناس » .

وفيه : أسامة : « جاء النبي - عليه السلام - رسول إحدى بناته تدعوه إلى ابنها في الموت فقال : ارجع إليها فأخبرها أن لله ما أخذ وله ما أعطى وكل شيء عنده بأجل مسمى ، فمرها فلتصبر [ولتحتسب] (٢) فأعادت الرسول أنها أقسمت لتأتينها ، فقام النبي - عليه السلام - وقام معه سعد بن عبادة ومعاذ بن جبل ، فرفع الصبي إليه ونفسه تقعقع كأنها في شن ، ففاضت عيناه. فقال له سعد : يا رسول الله ، ما هذا ؟ قال : هذه رحمة جعلها الله في قلوب عباده، فإنما يرحم الله من عباده الرحماء».

غرضه في هذا الباب إثبات الرحمة وهي صفة من صفات ذاته لا من صفات أفعاله ، والرحمن وصف به نفسه تعالى وهو متضمن لمعنى الرحمة كتضمن وصفه لنفسه بأنه عالم وقادر وحي وسميع وبصير ومتكلم ومريد للعلم والقدرة والحياة والسمع والبصر والكلام والإرادة، التي جميعها صفات ذاته لا صفات أفعاله ، لقيام الدليل علي أنه تعالى لم يزل [ولا] (٣) يزال حيًا عالمًا قادرًا سميعًا بصيرًا متكلمًا مريدًا ، ومن صفات ذاته الغضب والسخط ، والمراد برحمته تعالى [إرادته] (٤) [لنفع] (٥) من سبق في علمه أنه ينفعه ويثيبه على أعماله، فسماها رحمة ، والمراد بغضبه وسخطه إرادته لإضرار من سبق في علمه إضراره وعقابه على ذنوبه فسماها غضبًا وسخطًا ،

(١) الإسراء : ١١٠ .

(٢) في « الأصل » : وتحتسب . والمثبت من « هـ ، ن » .

(٣) في « الأصل » : ولم . والمثبت من « هـ » .

(٤) في « الأصل » : لذاته . (٥) في « الأصل » : ليقع .

ووصف نفسه بأنه راحم ورحيم ورحمن وغاضب وساخط بمعنى أنه مريد لما تقدم ذكره . وإنما لم يعرف بعض العرب الرحمن من أسماء الله - تعالى - أن أسماءه كلها واجب استعمالها ودعاؤه بها سواء ؛ لكون كل اسم منها راجعًا إلى ذات واحدة ، وهو الباري - تعالى - وإن دل كل واحد منها على صفة من صفاته تعالى يختص الاسم بالدلالة عليها ، وأما الرحمة التي جعلها الله في قلوب عباده يتراحمون بها فهي من صفات أفعاله ، ألا تراه ﷺ قد وصفها بأن الله خلقها في قلوب عباده ، وجعله لها في القلوب خلق منه تعالى لها فيها ، وهذه الرحمة رقة على المرحوم ، والله (تعالى) [1] أن يوصف بذلك .

* * *

باب : قوله تعالى : ﴿ إن الله هو الرزاق ذو القوة المتين ﴾ [2]

فيه : أبو موسى : قال : النبي ﷺ : « ما أحد [أصبر] [3] على أذى [سمعه] [4] من الله ، يدعون له الولد ، ثم يعافيهم ويرزقهم».

[قال المؤلف] [5] : تضمن هذا الباب صفتين لله - تعالى - : صفة فعل ، وصفة ذات . فصفة الفعل ما تضمنه اسمه الذي أجراه تعالى عليه وهو قوله تعالى : ﴿ **الرزاق** ﴾ والصفة الرزق ، والرزق فعل من أفعاله لقيام الدليل على استحالة كونه تعالى فيما لم يزل رازقًا ، إذ [رازق] [6] يقتضي مرزوقًا ، والباري - تعالى - (مذ)[7] كان ولا مرزوق ، فمحال كونه فاعلا للرزق فيما لم يزل ،

---

(١) في « هـ » : يتعالى عن .
(٢) الذاريات : ٥٨ .
(٣) في « الأصل » : يصبر . والمثبت من « هـ ، ن » .
(٤) في « الأصل » : يسمعه . والمثبت من « هـ ، ن » .
(٥) من « هـ » .
(٦) في « الأصل » : رزاق . والمثبت من « هـ » .
(٧) في « هـ » : قد.

فثبت أن ما لم يكن ثم كان محدث مخلوق ، فرزقه إذًا صفة من صفات أفعاله ، وأما وصفه بأنه الرزاق فلم يزل الباري واصفًا لنفسه بأنه الرزاق ، ومعنى ذلك [أنه] [(١)] سيرزق إذا خلق المرزوقين، وأما صفة الذات فالقوة ، والقوة والقدرة اسمان مترادفان على معنى واحد، والباري - تعالى - لم يزل قادرًا قويًا ذا قدرة وقوة ، وإذا كان معنى القوة [معنى القدرة ، فالقدرة] [(٢)] لم تزل موجودة قائمة به موجبة له حكم القادرين .

وقوله تعالى : ﴿ المتين ﴾ : الثابت الصحيح الوجود، و[معنى][(٣)] قوله عليه السلام : « ما أحد أصبر على أذىً [سمعه][(٣)] من الله ترك [المعاجلة] [(٤)] بالنقمة والعقوبة ، لا أن الصبر منه معناه كمعناه منا ، كما أن رحمته تعالى لمن يرحمه ليس معناها معنى الرحمة منا ؛ لأن الرحمة منا رقة وميل طبع [إلى نفع المرحوم ، والله - عز وجل - يتعالى عن وصفه بالرقة وميل الطبع][(٣)] ؛ لأنه ليس بذي طبع وإنما ذلك من صفات المحدثين .

وقوله : « على أذى سمعه » معناه : أذى لرسله وأنبيائه والصالحين من عباده لاستحالة [تعلق] [(٣)] أذى المخلوقين به تعالى ؛ لأن الأذى من صفات النقص التي لا تليق بالله [إذ] [(٥)] الذي يلحقه العجز والتقصير على الانتصار ويصبر [جبرًا] [(٣)] هو الذي يلحقه الأذى على الحقيقة ، والله - تعالى - لا يصبر خبرًا وإنما يصبر تفضلا ، والكناية في الأذى راجعة إلى الله / والمراد بها أنبياؤه ورسله؛ لأنهم [٤/ق٢٢١-ب] جاءوا بالتوحيد لله - تعالى - ونفي الصاحبة والولد عنه، فتكذيب الكفار لهم في إضافة الولد له تعالى أذى لهم [ورد] [(٦)]

---

(١) في « الأصل : بأنه . والمثبت من « هـ » .
(٢) في « الأصل » : والقدرة . والمثبت من « هـ » . (٣) من « هـ » .
(٤) في « الأصل »: العجلة . والمثبت من « هـ » .
(٥) في « الأصل » : إذا . والمثبت من « هـ » .
(٦) في « الأصل » : ردا . والمثبت من « هـ » .

لما جاءوا به ، فلذلك جاز أن يضاف الأذى في ذلك إلى الله - تعالى- إنكارًا لمقالتهم وتعظيمًا لها ؛ إذ في تكذيبهم للرسل في ذلك إلحاد في صفاته تعالى ، ونحوه قوله تعالى : ﴿ **إن الذين يؤذون الله ورسوله**﴾[١] تأويله الذين يؤذون أولياء الله وأولياء رسوله ، ثم حذف المضاف وأقام المضاف إليه مقامه في الإعراب ، والمحذوف مراد ، نحو قوله : ﴿ **واسأل القرية** ﴾ [٢] يعني : أهل القرية .

وقد تضمن هذا الباب الرد على من أنكر أن لله صفة ذات هي قدرة وقوة لاعتقادهم أنه قادر [بنفسه] [٣] لا بقدرة ، والله - تعالى - قد نص على أن له قدرة بخلاف ما تعتقد القدرية من أنه قوي بنفسه لا بقوة .

وفيه رد على المجسمة القائسين للغائب على الشاهد قالوا : كما لم نجد قويا ولا ذا قوة فيما بيننا إلا جسمًا كذلك الغائب حكمه حكم الشاهد ، فيقال لهم : إن كنتم على الشاهد تقولون وعليه تعتمدون في قياس الغائب عليه ، فكذلك لم تجدوا جسمًا إلا ذا أبعاض وأجزاء مؤلفة ، فيصح عليه الموت و [الحياة] [٤] والعلم والجهل والقدرة والعجز ، فاقضوا على أن الغائب حكمه حكم هذا فإن مروا عليه ألحدوا وأبطلوا الحدوث والمحدث ، وإن أبوه نقضوا استدلالهم ولا انفكاك لهم من أحد الأمرين .

ومن هذه الجهة دخل على المعتزلة الخطأ في قياسهم صفات الله على صفات المخلوقين ، والله - تعالى - لا يشبه المخلوقين ؛ لأنه الخالق ولا خالق له وقد أعلمنا الله - تعالى - بالحكم في ذلك فقال : ﴿**ليس كمثله شيء**﴾[٥] فكيف يشبه الخالق بالمخلوق ، ومن ليس كمثله شيء كمن له مثل من الأشياء المخلوقة ؟! وهذا ما لا يخفى فساده وإبطاله .

---

(١) الأحزاب : ٥٧ . (٢) يوسف : ٨٢ .

(٣) في « الأصل »: لنفسه . والمثبت من « هـ » .

(٤) في « الأصل » : الحيا . والمثبت من « هـ » . (٥) الشورى: ١١ .

باب : قوله تعالى : ﴿ عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحداً ﴾ (١)

﴿ إن الله عنده علم الساعة ﴾ (٢) و ﴿أنزله بعلمه ﴾ (٣) ﴿ وما تحمل من أنثى ولا تضع إلا بعلمه ﴾ (٤) ﴿ إليه يرد علم الساعة ﴾ (٥) قال يحيى : الظاهر على كل شيء علمًا ، والباطن على كل شيء علمًا

فيه : ابن عمر : قال النبي - عليه السلام - : « مفاتيح الغيب خمس لا يعلمها [إلا الله] (٦) : لا يعلم ما تغيض الأرحام إلا الله ، ولا يعلم ما في غد إلا الله ، ولا يعلم متى يأتي المطر [أحد] (٦) إلا الله ، [ولا تدرِي](٦) نفس بأي أرض تموت إلا الله ، ولا يعلم متى تقوم الساعة إلا الله » .

وفيه : عائشة قالت : « من حدثك أن محمداً رأى ربه فقد كذب ، وهو يقول : ﴿ لا تدركه الأبصار ﴾ (٧) ومن حدثك أنه يعلم الغيب فقد كذب وهو يقول : لا يعلم الغيب إلا الله » .

غرضه في هذا الباب إثبات علم الله - تعالى - صفة لذاته ؛ إذ العلم حقيقة في كون العالم عالمًا ، إذ من المحال كون العالم عالمًا ولا علم له، وكذلك سائر [أوصافه] (٨) المقتضية للصفات التي هي حقيقة في ثبات الأوصاف المجراة عليه تعالى من كونه حيًا وقادرًا وما شابه ذلك خلافًا لما تقوله القدرية من أنه عالم قادر حي بنفسه لا بقدرة ولا بعلم ولا بحياة ، ثم إذا [ثبت كون] (٩) علمه قديمًا وجب تعلقه بكل معلوم على حقيقته ، وقد نص الباري - تعالى - على إثبات

---

(١) الجن : ٢٦ . (٢) لقمان : ٣٤ . (٣) النساء : ١٦٦ .
(٤) فاطر : ١١ . (٥) فصلت : ٤٧ . (٦) من « هـ ، ن » .
(٧) الأنعام : ١٠٣ . (٨) في « الأصل » : صفاته .
(٩) في « الأصل » : سيكون .

علمه بقوله تعالى : ﴿ **إن الله عنده علم الساعة** ﴾ (١) وبقوله تعالى : ﴿**أنزله بعلمه**﴾ (٢) ، وبقوله : ﴿ **ولا تضع إلا بعلمه** ﴾ (٣) وبقوله : ﴿**إليه يرد علم الساعة** ﴾ (٤) فمن دفع علم الباري - تعالى - الذي هو حقيقة في كونه عالمًا ، وزعم أنه عالم بنفسه لا بعلم فقد رد نصه تعالى على إثبات العلم الذي هو حقيقة في كونه عالمًا ولا خلاف بين رد نصه على أنه ذو علم وبين رد نصه على أنه عالم ، فالنافي لعلمه كالنافي لكونه عالمًا ، واجتمعت الأمة على أن من نفى كونه عالمًا فهو كافر ، فينبغي أن يكون من نفى كونه ذا علم كافرًا ؛ إذ من نفى أحد الأمرين كمن نفى الآخر ، والقول في العلم بهذا كاف من القول به في جميع صفاته ، وتضمن هذا الباب الرد على هشام بن الحكم ومن قال بقوله من أن علمه تعالى محدث وأنه لا يعلم الشيء قبل وجوده . وقد نبه الله تعالى على خلاف هذا بقوله تعالى : ﴿ **إن الله عنده علم الساعة** ﴾ (١) الآية ، وجميع الآيات الواردة بذلك ، وأخبرنا النبي -عليه السلام - بمثل ذلك في حديث ابن عمر وعائشة فلا يلتفت إلى من رد نصوص الكتاب [والسنة] (٥) .

* * *

[٤/ق٢٢٢-أ]

/ باب قوله تعالى : ﴿ السلام المؤمن المهيمن ﴾ (٦)

فيه : عبد الله قال : « كنا نصلي خلف النبي فنقول : السلام على الله. فقال النبي ﷺ : إن الله هو السلام ، ولكن قولوا : التحيات لله والصلوات الطيبات ... » الحديث .

---

(١) لقمان : ٣٤ . (٢) النساء : ١٦٦ . (٣) فاطر : ١١ .
(٤) فصلت : ٤٧ . (٥) من « هـ » . (٦) الحشر : ٢٣ .

غرضه في هذا الباب إثبات اسمًا من أسماء الله ، فالسلام اسم من أسمائه ، ومعناه : السالم من النقائص والآفات الدالة على حدث من وجدت به متضمن لمعنى السلامة من ذلك كله ، وقوله تعالى : ﴿ **والله يدعو إلى دار السلام** ﴾ (١) مختلف في تأويله فقيل : معناه : والله يدعو إلى دار السلامة ، يعني : الجنة ؛ لأنه لا آفة فيها ولا كدر فالسلام على هذا والسلامة بمعنى ، كاللذاذ واللذاذة ، والرضاع والرضاعة وقيل : السلام : [اسم] (٢) لله - تعالى - قال قتادة : الله السلام وداره الجنة .

فأما المؤمن فهو على وجهين : أحدهما : أن يكون [صفة] (٣) ذات ، وهو أن يكون متضمنًا لكلام الله الذي هو تصديقه لنفسه في أخباره ولرسله في صحة دعواهم الرسالة عليه ، وتصديقه هو قوله ، وقوله صفة من صفات ذاته لم يزل موجودًا به حقيقة في كونه قائلا متكلمًا مؤمنًا مصدقًا .

والوجه الثاني : أن يكون متضمنًا صفة فعل هي أمانة رسله وأوليائه المؤمنين به من عقابه [وأليم عذابه] (٤) من قولك : آمنت فلانًا من كذا ، وأمنته منه ، كأكرمت وكرمت ، وأنزلت ونزلت، ومنه قوله تعالى : ﴿ **وآمنهم من خوف** ﴾ (٥) .

وأما المهيمن : فهو راجع إلى معنى الحفظ والرعاية ، وذلك صفة فعل له تعالى . وأما منعه عليه السلام من القول السلام على الله . فقد بين عليه السلام معنى ذلك بقوله : « إن الله هو السلام » ويستحيل أن يقال السلام على الله ؛ لاستحالة القول الله على الله ، وعلى [قول](٦) من جعل السلام بمعنى السلامة يستحيل أيضًا أن يدعو له

---

(١) يونس : ٢٥ . (٢) في « الأصل » : اسمًا . والمثبت من « هـ » .
(٣) في « الأصل » : صفات . والمثبت من « هـ » .
(٤) في « الأصل » : والوعيد أنه . والمثبت من « هـ » .
(٥) قريش : ٤ . (٦) من « هـ » .

بالسلامة . وقوله : قولوا : التحيات لله . . . إلى آخر الحديث فهو صرف منه عليه السلام لهم (بما) [١] يستحيل الكلام به إلى ما يحسن، ويجمل لما في ذلك من الإقرار لله بملك كل شيء ، وشرع ما شرعه لعباده مما أوجبه عليهم من الصلوات المفروضة ، وندبه إليهم من النوافل [والتقرب] [٢] إليه بالدعاء والكلام الطيب الذي وصف تعالى أنه يصعد إليه بقوله : ﴿ **إليه يصعد الكلم الطيب** ﴾ [٣] .

والتحية في كلام العرب الملك . قال الشاعر :

ولكل ما نال الفتى قد نلته إلا التحــية

يعني : الملك . فمعنى قوله : التحيات لله : الملك لله .

* * *

باب : قوله تعالى : ﴿ ملك الناس ﴾ [٤]

فيه : ابن عمر عن النبي – عليه السلام – .

فيه : أبو هريرة : قال النبي – عليه السلام – : « يقبض الله الأرض يوم القيامة ويطوي السماء بيمينه ، ثم يقول : أنا الملك ، أين ملوك الأرض؟» .

قوله تعالى : ﴿ **ملك الناس** ﴾ [٤] هو داخل في معنى ما أمرهم به النبي – عليه السلام – من قولهم : التحيات لله . يريد : الملك لله ، وكأنه عليه السلام إنما أمرهم بذلك من حيث أمره الله بالاعتراف بذلك بقوله تعالى: ﴿ **قل**﴾ يا محمد: ﴿ **أعوذ برب الناس ملك الناس**﴾ ووصفه

---

(١) في « هـ » : عما .
(٢) في « الأصل » : والقرب . والمثبت من « هـ » .
(٣) فاطر : ١٠ . (٤) الناس : ٢ .

تعالى لنفسه أنه ملك الناس على وجهين : أحدهما : [أن] [1] يكون راجعًا إلى صفة ذاته وهو القدرة ؛ لأن الملك بمعنى : القدرة .

والثاني : أن يكون راجعًا إلى صفة فعل وذلك بمعنى : القهر والصرف لهم عما يريدونه إلى ما أراده تعالى ، فتكون أفعال العباد ملكًا له تعالى لا قدرة لهم عليها . وفيه إثبات اليمين لله صفة من صفات ذاته ليست بجارحة خلافًا لما تعتقده الجسمية في ذلك لاستحالة جواز وصفه بالجوارح والأبعاض [2] ، واستحالة كونه جسمًا ، وقد تقدم القول في حل شبههم في ذلك .

* * *

باب : قول الله تعالى : ﴿ وهو العزيز الحكيم ﴾ [3] ﴿ سبحان ربك رب العزة عما يصفون ﴾ [4] ﴿ ولله العزة ولرسوله ﴾ [5] ومن حلف بعزة الله وصفاته

[و] [6] قال أنس : قال عليه السلام : « تقول جهنم : قط قط وعزتك» . وقال أبو هريرة عن النبي - عليه السلام - : « يبقى رجل بين الجنة / والنار ، آخر أهل النار دخولا الجنة فيقول : يا رب ، اصرف وجهي عن النار ، لا وعزتك لا أسألك غيرها » . [٤/ق٢٢٢-ب]

وقال أيوب : وعزتك لا غنى بي عن بركتك .

فيه : ابن عباس : « قال عليه السلام : أعوذ بعزتك الذي لا إله إلا أنت الذي لا تموت والإنس والجن يموتون » .

---

(١) في « الأصل » : أنه . والمثبت من « هـ » .
(٢) بل الصواب إثبات ما أثبته الله لنفسه ورسوله له دون تشبيه ولا تعطيل .
(٣) إبراهيم : ٤ ، وغيره . (٤) الصافات : ١٨٠ .
(٥) المنافقون : ٨ . (٦) من « هـ ، ن » .

وفيه : أنس : قال النبي - عليه السلام - : « **يلقى في النار وتقول: هل من مزيد ، حتى يضع رب العالمين قدمه فينزوي بعضها إلى بعض ، فتقول : قد قد ، بعزتك وكرمك ، ولا تزال الجنة تفضل حتى ينشئ الله لها خلقًا فيسكنهم (أفضل)** [1] **الجنة** » .

[قال المؤلف :] [2] فالكلام في هذا الباب على معنى العزيز الحكيم والعزة والحكمة والقدم .

فالعزيز متضمن للعزة ، والعزة الكلام عليها من وجهين :

أحدهما : أن تكون صفة ذات بمعنى القدرة والعظمة .

والثاني : أن تكون صفة فعل بمعنى القهر لمخلوقاته والغلبة لهم ، ولهذا صح إضافته تعالى اسمه إليها فقال : ﴿ **سبحان ربك رب العزة**﴾[3] . والمربوب مخلوق لا محالة .

والحكيم متضمن لمعنى الحكمة ، وهو على وجهين أيضًا : صفة ذات تكون بمعنى العلم ، والعلم من صفات ذاته .

والثاني : أن تكون بمعنى الإحكام للفعل والإتقان له ، وذلك من صفات الفعل وإحكام الله لمخلوقاته فعل من أفعاله ، وليس إحكامه لها [شيئًا] [4] يزيد على ذواتها ؛ بل إحكامه لها جعلها نفسًا وذاتًا ما ذهب إليه أهل] [5] السنة إن [خلق] [6] الشيء وإحكامه هو نفس الشيء ، وإلا أدّى القول بأن الإحكام والخلق غير المحكم المخلوق إلى التسلسل إلى ما لا نهاية له ، والخروج إلى ما لا نهاية له إلى الوجود مستحيل ، فبان الفرق بين الحالف بعزة الله

---

(١) في « هـ ، ن » : فضل . (٢) من « هـ » . (٣) الصافات : ١٨٠ .
(٤) في « الأصل » : شيء . والمثبت من « هـ » .
(٥) في « الأصل » : أما على مذهب .
(٦) في « الأصل » : تخلق . والمثبت من « هـ » .

التي هي صفة ذاته ، وبين من حلف بعزة الله التي هي صفة فعله أنه حانث في حلفه بصفة الذات دون صفة الفعل، ؛ بل هو منهي عن الحلف بصفة الفعل كقول الحالف : وحق السماء وحق زيد ؛ لقوله عليه السلام : « من كان حالفًا فليحلف بالله » وقد تضمن كتاب الله العزة التي هي بمعنى القوة ، وهو قوله : ﴿ **فعززنا بثالث** ﴾ (١) [أي: قوينا] (٢) والعزة التي هي الغلبة والقهر وهو قوله : ﴿ **وعزني في الخطاب** ﴾ (٣) أي : غلبني وقهرني .

وأما القدم فلفظ مشترك يصلح استعماله في الجارحة وفيما ليس بجارحة فيستحيل وصفه تعالى بالقدم الذي هو الجارحة ؛ لأن وصفه بذلك يوجب كونه [جسمًا] (٤) والجسم مؤلف حامل للصفات وأضدادها غير متوهم خلوه منها ، وقد بان أن المتضادات لا يصح وجودها معًا ؛ وإذا استحال هذا ثبت وجودها على طريق التعاقب ، وعدم بعضها عند مجيء بعض وذلك دليل على حدوثها ، وما لا يصح خلوه من الحوادث فواجب كونه محدثًا ، فثبت أن المراد بالقدم في هذا الحديث خلق من خلقه تقدم علمه أنه لا تملأ جهنم إلا به (٥).

وقال النضر بن شميل : القدم هاهنا : هم الكفار الذين سبق في علم الله أنهم من أهل النار [وأنه تملأ النار] (٢) بهم حتى ينزوي بعضها إلى بعض من الملء لتضايق أهلها فتقول : قط قط - أي : امتلأت . ومنه قوله تعالى : ﴿ **وبشر الذين آمنوا وعملوا الصالحات أن لهم قدم صدق عند ربهم** ﴾ (٦) أي : سابقة صدق . وقال ابن الأعرابي : القدم: هو التقدم في الشرف والفضل . وقد قد ، وقط قط ، بمعنى:

---

(١) سورة يس : ١٤ . (٢) من « هـ » . (٣) سورة ص : ٢٣ .
(٤) في « الأصل » : جسم . والمثبت من « هـ » .
(٥) هذا تعطيل لصفة أثبتها الله عز وجل لنفسه والصواب إثباتها له دون تشبيه ولا تعطيل ولا تأويل راجع المقدمة .
(٦) يونس : ٢ .

حسبي أي : كفاني ، ويقال : قدني ، وقطني بمعنى ذلك ، واختلفت الرواية في قوله : فيسكنهم أفضل الجنة ، وروي فضل الجنة ، فمن روى فضل الجنة فهو أحسن يعني : ما فضل منها وبقي . ومن روى أفضل الجنة فمعناه : فاضل الجنة . وفضل وفاضل الجنة عائدان إلى معنى واحد ، وليس بمعنى أفضل من كذا الذي هو بمعنى المفاضلة قال تعالى : ﴿**وهو أهون عليه**﴾ (١) على أحد التأويلين . قال الشاعر :

لعمرك لا أدري وإني لأوجـــل

يريد : لوجل .

* * *

باب : قوله تعالى
﴿ وهو الذي خلق السموات والأرض بالحق ﴾ (٢)

فيه ابن عباس : « كان النبي عليه السلام يدعو من الليل : اللهم لك الحمد رب السموات والأرض ، لك الحمد أنت قيم السماوات والأرض وما فيهن لك الحمد أنت نور السماوات والأرض قولك الحق ، ووعدك الحق ، ولقاؤك حق والجنة حق والنار حق ، والساعة حق ، اللهم لك أسلمت وبك آمنت / وعليك توكلت وإليك أنبت وبك خاصمت وإليك حاكمت، فاغفر لي ما قدمت وما أخرت وأسررت [وأعلنت](٣) أنت إلهي لا إله غيرك » . وقال سفيان مرة : أنت الحق وقولك الحق . [٤/ق٢٢٣-أ]

قوله تعالى : ﴿ **خلق السموات والأرض بالحق** ﴾ (٢) كقوله :

---

(١) الروم : ٢٧ . (٢) الأنعام : ٧٣ .
(٣) من « هـ ، ن » .

خالق السموات والأرض بالحق أي : أبدعهما وأنشأهما بالحق.

وقوله : « رب السموات والأرض » كقوله : خالق السموات والأرض ، وأما قوله : « أنت الحق » . فعلى معنيين : يكون اسمًا راجعًا إلى ذاته فقط لقوله عليه السلام : أنت الحق . أي : أنت الموجود الثابت حقًا الذي لا يصح عليك تغيير ولا زوال .

والمعنى الثاني : يكون الحق راجعًا إلى صفة ذاته ؛ لقوله : خلق السموات والأرض بالحق [أي قال] (١) لها : كوني فكانت . وقوله صفة من صفات ذاته عند أهل الحق والسنة على ما يأتي بيانه بعد هذا إن شاء الله .

وأما قوله : « أنت نور السموات والأرض » وقوله : ﴿**الله نور السموات والأرض**﴾ (٢) فواجب صرفه [عن] (٣) ظاهره لقيام الدليل على أنه لا يجوز أن يوصف بأنه نور ، والمعنى : أنت منور السموات والأرض بأن خلقتهما دلالة لعبادك على وجودك وربوبيتك بما فيهما من دلائل الحدث المفتقرة إلى محدث فكأنه نور السموات والأرض بالدلائل عليه منهما وجعل في قلوب الخلائق نورًا يهتدون به إليه ، وقال ابن عباس : الله نور السموات والأرض أي : هاديهن ، وعنه أيضًا مدبرهما ، ومدبر ما فيهما وتقديره : الله نور السموات والأرض.

وأما قيم السموات والأرض ، فالكلام فيه من وجهين :

أحدهما : أن يكون بمعنى العالم بمعلوماته ، فتكون صفة ذات .

---

(١) في « الأصل » : قوله . والمثبت من « هـ » . (٢) النور : ٣٥ .

(٣) في « الأصل » : على . والمثبت من « هـ » .

والوجه الثاني : أن يكون بمعنى الحفظ لمخلوقاته ، والرزق للحي منها ، فتكون صفة فعل .

* * *

باب : قوله تعالى : ﴿ وكان الله سميعًا بصيرًا ﴾ (١)

وقالت عائشة : الحمد لله الذي وسع سمعه الأصوات فأنزل الله : ﴿ قد سمع الله قول التي تجادلك في زوجها ﴾ (٢) الآية .

فيه أبو موسى : « كنا مع النبي عليه السلام في سفر ، فكنا إذا علونا كبرنا فقال: أربعوا على أنفسكم ، فإنكم لا تدعون أصم ولا غائبًا ، تدعون سمعيًا بصيرًا .... » الحديث .

وفيه أبو بكر الصديق : « أنه قال للنبي عليه السلام : علمني دعاء أدعو به في صلاتي . قال : قل اللهم إني ظلمت نفسي ظلمًا كثيرًا ولا يغفر الذنوب إلا أنت فاغفر لي من عندك مغفرة إنك أنت الغفور الرحيم » .

وفيه عائشة : « قال النبي ﷺ : إن جبريل ناداني فقال : إن الله قد سمع قول قومك وما ردوا عليك » .

غرضه في هذا الباب أن يرد على من يقول : إن معنى سميع بصير. معنى عليم لا غير ؛ لأن كونه كذلك يوجب مساواته تعالى للأعمى والأصم [الذي] (٣) يعلم أن السماء خضراء ولا يراها ، وأن في العالم أصواتًا ولا يسمعها ولا شك أن من سمع الصوت وعلمه [ورأى] (٤) خضرة السماء وعلمها أدخل في صفات الكمال ممن انفرد بإحدى هاتين الصفتين، وإذا استحال كونه [أحدنا](٥) ممن لا آفة به أكمل

(١) النساء : ١٣٤ .	(٢) المجادلة : ١ .	(٣) من « هـ » .
(٤) في « الأصل » : قد رأي . والمثبت من « هـ » .
(٥) في « الأصل » : إحدانا . والمثبت من « هـ » .

صفة من خالقه وجب كونه تعالى سميعًا بصيرًا [مفيدًا] [1] أمرًا زائدًا على ما يفيده كونه عليما .

ثم نرجع إلى ما تضمنه كونه سميعًا بصيرًا ، فنقول : هما متضمنتان لسمع وبصر بهما كان سميعًا بصيرًا كما تضمن كونه عالمًا علمًا لأجله كان عالمًا وكما أنه لا خلاف بين إثباته سميعًا بصيرًا ، وبين إثباته ذا سمع وبصر ، كما أنه لا خلاف بين إثباته عالمًا وبين إثباته ذا علم ، فإن من نفى أحد الأمرين كمن نفى الآخر ، وهذا مذهب أهل السنة والحق .

ومعنى قول عائشة : « الحمد لله الذي وسع سمعه الأصوات » . أدرك سمعه الأصوات ، لا أنه اتسع سمعه لها ؛ لأن الموصوف بالسعة يصح وصفه بالضيق بدلا منه والوصفان جميعًا من صفات الأجسام ، وإذا استحال وصفه بما يؤدي إلى القول بكونه جسمًا ، وجب صرف قولها عن ظاهره إلى ما اقتضى صحته الدليل ، ومعنى قوله عليه السلام : « فإنكم لا تدعون أصم ولا غائبًا » . نفي الآفة المانعة من السمع ، ونفي الجهل المانع من العلم وفي هذا القول منه عليه السلام دليل على أنه لم يزل سميعًا بصيرًا عالمًا ، ولا تصح أضداد هذه الصفات عليه .

وقوله : قريبًا . إخبار عن كونه عالمًا بجميع المعلومات لا يعزب عنه شيء ، ولم يرد بوصفه بالقرب قرب المسافة ؛ لأن الله تعالى لا يصح وصفه بالحلول في الأماكن / ؛ لأن ذلك من صفات الأجسام والدليل [٤/ق٢٢٣-ب] على ذلك قوله تعالى : ﴿ **ما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم** ﴾[2] الآية معناه : إلا هو عالم بهم وبجميع أحوالهم ما يسرّونه وما يظهرونه، ومعنى حديث أبي بكر في هذا الباب هو أن

---

(١) في « الأصل » : مفيد . والمثبت من « هـ » .

(٢) المجادلة : ٧ .

دعاءه الله بما علمه النبي - عليه السلام - يقتضي اعتقاد كونه تعالى سميعا لدعائه ومجازياً له عليه .

* * *

باب : قوله تعالى : ﴿ قل هو القادر ﴾ (١)

فيه : جابر قال : « كان النبي - عليه السلام - يعلم أصحابه الاستخارة في الأمور كلها كما يعلمهم السورة من القرآن يقول : إذا هم أحدكم بالأمر فليركع ركعتين من غير الفريضة ، ثم ليقل : اللهم إني أستخيرك بعلمك وأستقدرك بقدرتك ، وأسألك من فضلك ، فإنك تقدر ولا أقدر، وتعلم ولا أعلم وأنت علام الغيوب .... » .

القادر والقدرة من صفات الذات ، وقد تقدم في باب قوله تعالى : **﴿ إن الله هو الرزاق ذو القوة المتين ﴾** (٢) أن القوة والقدرة بمعنى واحد، وكذلك القادر والقوي بمعنى واحد ، وذكر الأشعري أن القدرة والقوة والاستطاعة [معناهما واحد ، لكن لم يشتق لله - تعالى - من الاستطاعة](٣) اسم ، ولا يجوز أن يوصف بأنه مستطيع لعدم التوقيف بذلك ، وإن كان قد جاء القرآن بالاستطاعة فقال : **﴿ هل يستطيع ربك﴾**(٤) ، [فإنما] (٥) هو خبر عنهم ولا يقتضي إثباته صفة له تعالى فدل على ذلك أمران : تأنيبه لهم عقيب هذا ، وقراءة من قرأ : « هل تستطيع ربك » بمعنى : هل تستطيع سؤال ربك ، وقد أخطئوا في الأمرين جميعًا لاقتراحهم على نبيهم وخالفهم ما لم يأذن لهم فيه ربهم - تعالى .

---

(١) الأنعام : ٦٥ .

(٢) الذاريات : ٥٨ . ووقع في « الأصل ، هـ » : إني أنا الرزاق ذو القوة المتين وما أثبتناه هو الصواب .

(٣) من « هـ » .

(٤) المائدة : ١١٢ .

(٥) في « الأصل » : وإنما . والمثبت من « هـ » .

باب : مقلب القلوب

وقوله تعالى : ﴿ ونقلب أفئدتهم وأبصارهم ﴾ (١)

فيه : ابن عمر : « كان النبي - عليه السلام - أكثر ما يحلف : لا ومقلب القلوب » .

[قد تقدم الكلام في هذا الحديث في كتاب القدر ، ومر فيه أن تقليبه لقلوب عباده صرفه لها من إيمان إلى كفر ، ومن كفر إلى إيمان وذلك كله مقدور لله -تعالى- وفعل له، بخلاف قول القدرية] (٢) .

* * *

باب : قول النبي - عليه السلام - : « إن لله مائة اسم إلا واحدة مـن أحصاها دخل الجنة »

قال ابن عباس : ذو الجلال ذو العظمة البر اللطيف

فيه أبو هريرة : قال النبي - عليه السلام - : « إن لله تسعة وتسعين اسماً مائة إلا واحداً من أحصاها دخل الجنة » . أحصيناه : حفظناه .

الإحصاء في اللغة على وجهين : أحدهما بمعنى : الإحاطة بعلم عدد الشيء وقدره ، ومنه قوله تعالى : ﴿ **وأحصى كل شيء عدداً** ﴾(٣) وهذا قول الخليل .

والثاني : بمعنى : الإطاقة له ، كقوله تعالى : ﴿ **علم أن لن تحصوه** ﴾(٤) [أي : لن تطيقوه . وقال النبي ﷺ : « استقيموا ولن تحصوا »] (٥) أي : لن تطيقوا العمل بكل ما لله عليكم ، والمعنى في ذلك كله متقارب ، وقد يجوز أن يكون المعنى : من أحصاها عدداً

---

(١) الأنعام : ١١٠ .

(٢) في « الأصل » : قد تقدم في كتاب القدر . والمثبت من « هـ » .

(٣) الجن : ٢٨ . (٤) المزمل : ٢٠ . (٥) من « هـ » .

وحفظًا وعلمًا بما يمكن علمه من معانيها المستفاد منها علم الصفات التي تفيدها ؛ لأن تحت وصفنا له بعالم إثبات علم له تعالى لم يزل موصوفاً به لا كالعلوم ، وتحت وصفنا له بقادر إثبات قدرة لم يزل موصوفاً بها لا كقدرة المخلوقين ، وكذلك القول في الحياة وسائر صفاته ، وفيه وجه [آخر يحتمل] [1] أن يكون الإحصاء المراد في هذا الحديث - والله أعلم - العمل بالأسماء والتعبد لمن سمي بها.

فإن قال قائل : كيف وجه إحصائها عملا ؟

قيل له : وجه ذلك أن ما كان من أسماء - الله تعالى - مما يجب على المؤمن الاقتداء بالله - تعالى - فيه كالرحيم والكريم والعفو والغفور والشكور والتواب وشبهها ، فإن الله - تعالى - يحب أن يرى على عبده حلاها ويرضى له معناها ، والاقتداء به تعالى فيها . فهذا العمل بهذا النوع من الأسماء وما كان منها مما لا يليق بالعبد معانيها كالله والأحد والقدوس والجبار والمتعال والمتكبر والعظيم والعزيز والقوي وشبهها ، فإنه يجب على العبد الإقرار بها والتذلل لها والإشفاق منها، وما كان بمعنى الوعيد كشديد العقاب، وعزيز [ذي][2] انتقام وسريع الحساب / وشبهها ، فإنه يجب على العبد الوقوف عند [٤/٢٢٤-أ] أمره واجتناب [نهيه] [3] .

واستشعار خشية الله - تعالى - من أجلها خوف وعيده ، وشديد عقابه هذا وجه إحصائها عملا فهذا يدخل الجنة إن شاء الله ، وأخبرني بعض أهل العلم عن أبي محمد الأصيلي أنه أشار إلى هذا المعنى غير

---

(١) في « الأصل » : احتمل . والمثبت من « هـ » .

(٢) في « الأصل » : ذو . والمثبت من « هـ » .

(٣) في « الأصل » : أمره . والمثبت من « هـ » .

أنه لم يشرحه فقال : الإحصاء لأسمائه تعالى هو العمل بها لا عدّها وحفظها فقط ؛ لأنه قد يعدها المنافق والكافر وذلك غير نافع له .

قال المؤلف : والدليل على أن حقيقة الإحصاء والحفظ في الشريعة إنما هو العمل قوله - عليه السلام - في وصف الخوارج : « يقرءون القرآن لا يجاوز حناجرهم ، يمرقون من الدين مروق السهم من الرمية» فبين أن من قرأ القرآن ولم يعمل به لم ترفع قراءته إلى الله ، ولا جازت حنجرته ، فلم يكتب له أجرها وخاب من ثوابها كما قال تعالى : ﴿**إليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه**﴾ [1] يعني : أن العمل الصالح يرفع الكلم الطيب إلى الله - تعالى .

وكما قال ابن مسعود لرجل: إنك في زمان كثير فقهاؤه [قليل][2] قراؤه [تحفظ فيه حدود القرآن وتضيع فيه حروفه ، وسيأتي على الناس زمان قليل فقهاؤه كثير قراؤه] [3] تحفظ فيه حروف القرآن وتضيع حدوده . فذم [من] [3] حفظ الحروف وضيع العمل ولم يقف عند الحدود ، ومدح من عمل بمعاني القرآن وإن لم يحفظ الحروف ، فدل هذا على أن الحفظ والإحصاء المندوب إليه هو العمل .

ويوضح هذا أيضًا ما كتب به عمر بن الخطاب إلى عماله : إن أهم أموركم عندي الصلاة فمن حفظها وحافظ عليها حفظ دينه . ولم يرد عمر بحفظها إلا المبالغة في إتقان العمل بها من إتمام ركوعها وسجودها [وإكمال] [4] حدودها لا حفظ أحكامها وتضييع العمل بها، والله الموفق.

* * *

---

(١) فاطر : ١٠ .

(٢) في « الأصل » : كثير . والمثبت من « هـ » .

(٣) من « هـ » .

(٤) في « الأصل » : وأكمل . والمثبت من « هـ » .

باب : السؤال بأسماء الله والاستعاذة بها

فيه : أبو هريرة : قال النبي – عليه السلام – : « إذا جاء أحدكم فراشه فلينفضه بصنفة ثوبه ثلاث مرات ، وليقل : [باسمك] (١) ربي وضعت جنبي وبك أرفعه ، إن أمسكت نفسي فاغفر لها وإن أرسلتها فاحفظها بما تحفظ به عبادك الصالحين » .

وفيه : حذيفة : « كان النبي – عليه السلام – إذا أوى إلى فراشه قال : اللهم باسمك أحيا وأموت . وإذا أصبح قال : الحمد لله الذي أحيانا بعد ما أماتنا وإليه النشور » .

وفيه : ابن عباس : قال : قال رسول الله ﷺ : « لو أن أحدكم إذا أراد أن يأتي أهله قال : بسم الله اللهم جنبنا الشيطان وجنب الشيطان ما رزقتنا . فإنه إن يقدر بينهما ولد في ذلك لم يضره شيطان أبدًا » .

وفيه : عدي : « سألت النبي – عليه السلام – فقلت : أرسل كلابي المعلمة ؟ فقال : إذا أرسلت كلابك المعلمة وذكرت اسم الله ، فأمسكن فكل ... » الحديث .

وفيه : عائشة : « قالوا : يا رسول الله ، إن هنا أقوامًا حديث عهدهم بشرك يأتونا بلحمان لا ندري أيذكرون اسم الله عليها أم لا ؟ قال : اذكروا [أنتم] (٢) اسم الله وكلوا » .

وفيه : أنس: « ضحى النبي – عليه السلام – بكبشين يسمي ويكبر » .

وفيه : جندب : « أن النبي – عليه السلام – قال يوم النحر : من ذبح قبل أن يصلي، فليذبح مكانها أخرى ، ومن لم يذبح فليذبح باسم الله » .

---

(١) في « الأصل » : باسم .　　(٢) من « هـ ، ن » .

وفيه ابن عمر : قال النبي - عليه السلام - : « لا تحلفوا بآبائكم ، فمن كان حالفًا فليحلف بالله » .

غرضه في هذا الباب أن يثبت أن الاسم هو المسمى في الله على ما ذهب إليه أهل السنة ، وموضع الاستدلال منه قوله - عليه السلام -: «باسمك ربي وضعت جنبي ، وبك أرفعه » وقوله في حديث حذيفة : « باسمك أحيا وأموت » ومعناه : بإقدارك إياي على وضع جنبي وضعته ، وبإقدارك إياي على رفعه أرفعه ، وبإحيائك أحيا وبإماتتك أموت ، فحذف - عليه السلام - باسمك ربي وضعت جنبي ، ثم قال : وبك أرفعه ، فذكر الاسم مرة ، ولم يذكره أخرى ، فدل أن معنى قوله : باسمك . معنى قوله : بك ؛ إذ لو كان ذكره للاسم يفيد غير ما يفيد ترك ذكره لتخالف المعنيان ، ولوجب أن يكون اسمه غيره وذلك محال؛ لأن ذلك يؤدي إلى أن يكون قوله -عليه السلام-: باسمك وضعت جنبي كقوله : بغيرك وضعت جنبي . وقوله : وباسمك أحيا وأموت: بغيرك أحيا وأموت. وهذا كفر بالله - تعالى..

ويكون قوله : وبك أرفعه ، وقوله : الحمد لله الذي أحيانا بعد ما أماتنا وإليه النشور يراد به الله فيكون بعض الدعاء لله وصرف الأمر [فيه] [(١)] إليه ، ويكون بعض الدعاء وصرف الأمر فيه إلى غير الله ، وهذا كفر صريح لا يخفى ، ومما يدل على أن اسم الله هو قوله سبحانه : ﴿ **فسبح باسم ربك العظيم** ﴾ [(٢)] أي : سبح / ربك العظيم [٤/ق٢٢٤-ب] ونزهه باسمائه الحسنى ، ولو كان اسمه غيره لكان الله أمر نبيه بتنزيه معنى هو غير الله وهذا مستحيل، ومما يدل على ذلك قوله تعالى : ﴿**تبارك اسم ربك ذي الجلال والإكرام**﴾ [(٣)] في قراءة من قرأ ﴿ **ذو** ﴾

---

(١) من « هـ » . (٢) الواقعة : ٧٤ ، ٩٦ . (٣) الرحمن : ٧٨ .

وذو وصف الاسم لا شك فيه فإذا قد وصف إلاسم بالجلال والإكرام، وهذا خلاف قول القدرية التي تزعم كون كلامه محدثاً ، وأنه تعالى لم يزل غير ذي اسم ولا صفة حتى خلق الخلق وخلق كلامه فسماه خلقه بأسماء محدثة وسمى نفسه بمثلها ، وهذا بين الفساد بما قدمناه أنه تعالى [لا يجوز] (١) أن يأمر نبيه بتنزيه غيره .

فإن قال قائل : فإن قلتم : إن اسم الله هو هو فما معنى قوله عليه السلام : « إن لله تسعة وتسعين اسمًا » وكيف تكون الذات الواحدة تسعة وتسعين [شيئًا] (١) ؟! قالوا : وهذا كفر ممن قال به ، فبان من هذا الحديث أن اسمه غيره .

فالجواب أنه لو كان اسمه غيره لم يأمر نبيه بتنزيه مخلوق غيره على ما قدمناه ، ونرجع إلى تأويل الحديث فنقول : إن المراد بقوله : تسعة وتسعين اسمًا التسمية ؛ لأنه في نفسه واحد والاسم يكون بمعنيين يكون بمعنى المسمى ، ويكون بمعنى التسمية التي هي كلامه فالذي بمعنى المسمى يقال فيه : هو المسمى ، والذي بمعنى التسمية لا يقال فيه : هو المسمى، ولا هو غيره ، وإنما لم نقل فيه : هو المسمى ؛ لاستحالة كون ذاته تعالى كلامًا وساده مسده ولم نقل فيه أيضاً : هو غيره ؛ لأن تسميته لنفسه كلام له ولا يقال في كلامه أنه غيره .

ومعنى الترجمة [معنى] (٢) قوله تعالى : ﴿ **ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها** ﴾ (٣) . فأمر بدعائه بها ووصفه لها بالحسنى يقتضي نفي تضمن كل اسم منها نقيض ما يوصف أنه حسن ، ونقيض الحسن قبيح

---

(١) من « هـ » .
(٢) في « الأصل » : اسمًا . والمثبت من « هـ » .
(٣) الأعراف : ١٨٠ .

لا يجوز على الله ، ومعنى هذا أن عالمًا من اسمائه يقتضي علمًا ينفي نقيضه من الجهل وقادرًا يقتضي قدرة تنفى نقيضها من العجز ، وحيا يقتضي حياة تنفي ضدها من الموت، وكذلك سائر صفاته كلها ففائدة، كل واحدة منها خلاف فائدة الأخرى ، فأمر تعالى عباده بالدعاء بأسمائه كلها لما يتضمن كل اسم منها ويخصه من الفائدة ليجتمع للعباد الداعين له بجميعها فوائد عظيمة ، ويكون معبودًا بكل معنى .

وقال ابن قتيبة : صنفة الثوب حاشيته التي لا هدب فيها ، ووقع في كتاب الدعاء : « فلينفضه بداخلة إزاره » . يريد : ما ولى جسمه من إزاره وقد تقدم في كتاب الدعاء .

* * *

باب : ما يذكر في الذات والنعوت وأسامي الله

وقال خبيب : وذلك في ذات [الإله] [١] فذكر الذات باسمه .

فيه : أبو هريرة : « بعث النبي - عليه السلام - عشرة ، منهم خبيب [الأنصاري][٢] [فأخبرني عبيد الله] [٣] بن عياض أن ابنة الحارث أخبرته أنهم حين اجتمعوا استعار منها موسى يستحد بها ، فلما خرجوا من الحرم ليقتلوه قال خبيب :

ما أبالي حين أقتل مسلماً ... على أي شق كان لله مصرعي

وذلك في ذات الإله وإن يشأ ... يبارك على أوصال شلو ممزع

فقتله [ابن] [٢] الحارث وأخبر النبي - عليه السلام - خبرهم يوم أصيبوا » .

---

(١) في « الأصل » : الله . والمثبت من « هـ ، ن » . (٢) من « هـ ، ن » .
(٣) في « الأصل » : فأخبر هبة الله .

اعلم أن أسماء الله - تعالى - على ثلاثة أضرب : ضرب منها يرجع إلى ذاته ووجوده فقط لا إلى معنى يزيد على ذلك كقولنا : شيء وموجود وذات ونفس .

والضرب الثاني : يرجع إلى إثبات معان قائمة به تعالى هي صفات له كقولنا : حي وقادر وعالم ومريد ، يرجع ذلك كله إلى حياة وقدرة وعلم وإرادة ؛ لأجلها كان حيا قادراً عالمًا مريداً .

والضرب الثالث : يرجع إلى صفات من صفات أفعاله كقولنا : خالق ورازق ومحيي ومميت ، يرجع بذلك إلى خلق ورزق وحياة وموت ، وذلك كله فعل له تعالى .

فأما إثباته ذاتًا وشيئًا ونفسًا فطريقه السمع ، وقد سمع النبي ﷺ قول خبيب « وذلك في ذات الإله » فلم ينكره ، فصار طريق العلم به التوقيف من الرسول ﷺ وذاته هو هي ، ومعنى قوله في ذات الإله : أي في دين الله وطاعته ، فجميع هذه الأضرب الثلاثة أسماء لله في الحقيقة كان منها ما يتضمن صفة ترجع إلى ذاته أو إلى فعل من أفعاله أم لا ، فكل صفة اسم لله - تعالى - وليس كل اسم صفة .

[٤/ق٢٢٥-أ] ومذهب أهل / السنة أنه محال أن يقال في صفات ذاته أن كل واحدة منها غير الأخرى، كما استحال القول عندهم بأنها غيره تعالى؛ لأن حد الغيرين ما جاز وجود أحدهما مع عدم الآخر ، ولما لم يجز على شيء من صفاته عدم [إحداها] (١) مع وجود سائرها استحال وصفها بالتغاير كما استحال وصفه بأنه غيرها ؛ لقيام الدليل على استحالة وجوده تعالى مع عدم صفاته ، التي هي حياته وعلمه وقدرته وسائر صفات ذاته، وليس كذلك صفات أفعاله ؛ لأن أفعاله متغايرة يجوز وجود بعضها مع عدم سائرها كالرزق والإحياء والإماتة ، وسائر

(١) في « الأصل » : إحداهما . والمثبت من « هـ » .

صفات أفعاله التي تتضمنها أسماء له أطلقها تعالى على نفسه كرازق وخالق ومحيي ومميت وبديع ، وما شاكل ذلك ، فهذه كلها أسماء له تعالى سمى نفسه بها ، وتسميته : قوله ، وقوله ليس غيره كسائر صفات ذاته، ومتضمن هذه الأسماء متغاير على ما ذكرنا وغير له تعالى لقيام الدليل على وجوده في أزله مع عدم جميع أفعاله .

* * *

باب : قوله تعالى : ﴿ ويحذركم الله نفسه ﴾ (١)

وقوله تعالى : ﴿ تعلم ما في نفسي ولا أعلم ما في نفسك ﴾ (٢)

فيه: عبد الله قال النبي -عليه السلام- : « ما من أحد أغير من الله، ومن [أجل](٣) ذلك حرم الفواحش ، وما أحد أحب إليه المدح من الله » .

وفيه : أبو هريرة قال النبي - عليه السلام - : « لما خلق الله الخلق كتب في كتابه - هو يكتب على نفسه وهو وضع عنده على العرش - : إن رحمتي تغلب غضبي » .

فيه : أبو هريرة قال - عليه السلام - : « يقول الله - تعالى - : أنا عند ظن عبدي بي ، وأنا معه إذا ذكرني ، فإن ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي ، وإن ذكرني في ملأ ذكرته في ملأ خير منهم ، وإن تقرب إلي بشبر تقربت إليه ذراعًا ، وإن تقرب إلي ذراعًا تقربت منه باعًا ، ومن أتاني يمشي أتيته هرولة » .

قوله : **﴿ ويحذركم الله نفسه ﴾** (١) ، وقوله : **﴿ ولا أعلم ما في نفسك ﴾** (٢) وما ذكر في [الأحاديث] (٤) من ذكر النفس ، فالمراد به إثبات نفس لله، والنفس لفظة تحتمل معانٍ ، والمراد بنفسه تعالى ذاته، فنفسه ليس بأمر يزيد [عليه] (٥) ، فوجب أن تكون نفسه

---

(١) آل عمران : ٢٨ ، ٣٠ . (٢) المائدة : ١١٦ . (٣) من « هـ ، ن » .
(٤) في « الأصل » : الحديث . والمثبت من « هـ » .
(٥) في « الأصل » : علي . والمثبت من « هـ » .

هي هو ، وهذا إجماع ، وللنفس وجوه أخر لا حاجة بنا إلى ذكرها؛ إذ الغرض من الترجمة خلاف ذلك .

أما قوله ﷺ : « ما أحد أغير من الله » . فليس هذا موضع الكلام فيه ، وسيأتي .

وأما قوله : « وضع عنده » فعند في ظاهر اللغة تقتضي أنها للموضع ، والله يتعالى عن الحلول في المواضع ؛ لأن ذلك من صفات الأجسام إذ الحالّ في موضع لا يكون بالحلول فيه بأولى منه بالحلول في غيره إلا لأمر يخصه حلوله فيه ، والحلول فيه عرض من الأعراض يفنى [بمجيء حلول آخر] (١) يحل به في غير ذلك المكان .

والحلول محدث والحوادث لا تليق به تعالى ، لدلالتها على حدث من قامت به فوجب صرف « عند » عن ظاهرها إلى ما يليق به تعالى، وهو أنه أراد - عليه السلام - إثبات علمه بإثابة من سبق علمه أنه عامل بطاعته ، وعقاب من سبق علمه بأنه عامل بمعصيته .

« وعند » وإن كان وضعها في اللغة للمكان فقد يتوسع فيها فتجعل لغير المكان كقوله عليه السلام: «أنا عند ظن عبدي بي» ولا مكان هناك.

وأما قوله : « إن رحمتي تغلب غضبي » . فقد تقدم أن رحمته تعالى إرادته لإثابة المطيعين له وغضبه إرادته لعقاب العاصين له ، وإذا كان ذلك كذلك كان [معنى] (٢) قوله : « إن رحمتي تغلب غضبي » إن إرادتي ثواب الطائعين لي هي إرادتي ألا أعذبهم . وهو معنى قوله تعالى: ﴿ **يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر** ﴾ (٣) فإرادته بهم اليسر هي إرادته ألا يريد بهم العسر، وما كان ما أراد من ذلك بهم، ولم يكن ما لم يرده فعبر عليه السلام عن هذا المعنى بقوله: «إن رحمتي تغلب

---

(١) في « الأصل » : حلول آخر يجيء . والمثبت من « هـ » .
(٢) في « الأصل » : يعني . (٣) البقرة : ١٨٥ .

غضبي » وتسبق غضبي ، فظاهر قوله يفيد أن رحمته وغضبه معنيان أحدهما غالب للآخر وسابق له ، وإذا ثبت أن إرادته واحدة وصفة من صفات ذاته ، وأن رحمته وغضبه ليستا بمعنى أكثر من إرادته التي هي متعلقة بكل ما يصح [كونه] (١) مراداً وجب صرف كلامه عن ظاهره؛ لأن إجراء الكلام على ظاهره يقتضي / حدث إرادته لو كانت [٤/ق٢٢٥-ب] له إرادات كثيرة متغايرة .

وقوله : « في ملأ خير منهم » هذا نص من النبي - عليه السلام - أن الملائكة أفضل من بني آدم ، وهو مذهب جمهور أهل العلم وعلى هذا شواهد من كتاب الله منها قوله تعالى : ﴿ **ما نهاكما ربكما عن هذه الشجرة إلا أن تكونا ملكين أو تكونا من الخالدين** ﴾ (٢) ولا شك أن الخلود أفضل من الفناء فكذلك الملائكة أفضل من بني آدم وإلا فلا يصح معنى الكلام .

وأما وصفه تعالى بأنه يتقرب إلى عبده ووصف العبد بالتقرب إليه ووصفه بإتيانه هرولة، فإن التقرب والإتيان والمشي والهرولة [محتملة](٣) للحقيقة والمجاز ، وحملها على الحقيقة يقتضي قطع المسافات وتواني الأجسام ، وذلك لا يليق بالله - تعالى - فاستحال حملها على الحقيقة ، ووجب حملها على المجاز ؛ لشهرة ذلك في كلام العرب ، فوجب أن يكون [وصف العبد] (٤) بالتقرب إليه شبراً وذراعاً وإتيانه ومشيه معناه : التقرب إليه بطاعته وأداء مفترضاته ، ويكون تقربه تعالى من عبده وإتيانه هرولة عبارة عن إثابته على طاعته وقربه من رحمته ، ويكون معنى قوله تعالى : « أتيته هرولة » أي : أتاه ثوابي مسرعاً.

قال الطبري : وإنما مثل القليل من الطاعة بالشبر من الدنو منه

---

(١) في « الأصل » : بكونه . والمثبت من « هـ » . (٢) الأعراف : ٢٠ :
(٣) في « الأصل » : محتمل . والمثبت من « هـ » .
(٤) من « هـ » ، وفي « الأصل » : وصفاً للعبد .

والضعف من الكرامة والثواب بالذراع ، فجعل ذلك دليلا على مبلغ كرامته لمن أكرم على طاعته أن ثواب عمله له على عمله الضعف ، وأن إكرامه عليه مجاوز حده إلى ما بينه عز وجل .

فإن قيل : فما معنى قوله : « إذا ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي؟»

قيل : معنى ذلك : وإذا ذكرني بقلبه مخفيًا ذلك عن خلقي ذكرته برحمتي وثوابي مخفيًا ذلك عن خلقي حتى لا يطلع عليه أحد منهم ، وإذا ذكرني في ملأ من عبادي ، ذكرته في ملأ من خلقي أكثر منهم وأطيب .

قال الطبري : فإن قيل : أي الذكرين أعظم ثوابًا الذكر الذي هو بالقلب ، أو الذكر الذي هو باللسان ؟

قيل: قد اختلف السلف في ذلك، فروي عن عائشة أنها قالت : لأن أذكر الله في نفسي أحب إليَّ أن أذكره بلساني سبعين مرة . وقال آخرون : ذكر الله باللسان أفضل . روي عن أبي عبيدة بن عبد الله بن مسعود قال: ما دام قلب الرجل يذكر الله - تعالى - فهو في صلاة، وإن كان في السوق ، وإن تحرك بذلك اللسان والشفتان فهو أعظم .

قال الطبري : والصواب عندي أن إخفاء النوافل أفضل من ظهورها لمن لم يكن إمامًا يقتدى به ، وإن كان في محفل اجتمع أهله لغير ذكر الله أو في سوق وذلك أنه أسلم له من الرياء ، وقد روينا من حديث سعد بن أبي وقاص عن النبي -عليه السلام- أنه قال: « خير الرزق ما يكفي ، وخير الذكر الخفي » [ولمن] [1] كان بالخلاء أن يذكر الله بقلبه ولسانه؛ لأن شغل جارحتين بما يرضي الله -تعالى- أفضل من شغل

---

(١) في « الأصل » : ومن . والمثبت من « هـ » .

جارحة واحدة ، وكذلك شغل ثلاث جوارح أفضل من شغل جارحتين، وكلما زاد فهو أفضل - إن شاء الله تعالى .

* * *

باب : قوله تعالى : ﴿ كل شيء هالك إلا وجهه ﴾ (١)

فيه جابر : « لما نزلت على النبي ﷺ : ﴿ قل هو القادر على أن يبعث عليكم عذابًا من فوقكم ﴾ (٢) قال - عليه السلام - : أعوذ بوجهك ﴿أو من تحت أرجلكم ﴾ (٢) قال - عليه السلام - : أعوذ بوجهك قال : ﴿ أو يلبسكم شيعًا ﴾ (٢) قال النبي - عليه السلام - : هذا أيسر » .

[إستدلاله] (٣) من هذه الآية والحديث على أن لله - تعالى - وجهًا هو صفة ذاته لا يقال : هو هو ، ولا هو غيره بخلاف قول المعتزلة ، ومحال أن يقال : هو جارحة كالذي نعلمه من الوجوه ، كما لا يقال : هو تعالى فاعل وحي وعالم ، كالفاعلين والأحياء والعلماء الذين نشاهدهم ، وإذا استحال قياسه على المشاهدين [فالحكم] (٤) له بحكمهم مع مشاركتهم له في التسمية كذلك يستحيل الحكم لوجهه الذي هو صفة ذاته بحكم الوجوه التي نشاهدها ، وإنما لم يجز أن يقال: إن وجهه جارحة لاستحالة وصفه بالجوارح لما فيها من أثر الصنعة ، ولم يقل في وجهه أنه هو لاستحالة كونه تعالى وجهًا ، وقد أجمعت الأمة على أنه لا يقال: يا وجه ، اغفر لي، ولم يجز أن يكون وجهه غيره ؛ لاستحالة [مفارقته] (٥) له بزمان أو مكان أو عدم أو وجود ، فثبت أن له وجهًا لا كالوجوه ؛ لأنه ليس كمثله شيء .

* * *

(١) القصص : ٨٨ . (٢) الأنعام : ٦٥ .
(٣) في « الأصل » : استدلالا . والمثبت من « هـ » .
(٤) في « الأصل » : والحكم . والمثبت من « هـ » .
(٥) في « الأصل » : مفارقة . والمثبت من « هـ » .

[٤/ق٢٢٦-أ]

/ باب قوله تعالى : ﴿ ولتصنع على عيني ﴾ (١)

يعني : تغذى . وقوله تعالى : ﴿ تجري بأعيننا ﴾ (٢)

فيه : ابن عمر : « ذكر الدجال عند النبي – عليه السلام – فقال : إن الله لا يخفى عليكم ، إن الله ليس بأعور – وأشار بيده إلى عينه – وإن المسيح الدجال أعور عين اليمنى » .

وفيه : أنس : قال النبي – عليه السلام – : « ما بعث الله من نبي إلا أنذر قومه الأعور الكذاب ، إنه أعور وإن ربكم ليس بأعور ، مكتوب بين عينيه : كافر » .

[استدلاله] (٣) من هذه الآية والحديث على أن لله صفة سماها عينًا ليست هو ولا غيره ، وليست كالجوارح المعقولة [بيننا] (٤) ؛ لقيام الدليل على استحالة وصفه بأنه ذو جوارح وأعضاء . خلافًا لما تقوله المجسمة من أنه [جسمٌ] (٥) لا كالأجسام ، واستدلوا على ذلك بهذه الآيات كما استدلوا بالآيات المتضمنة لمعنى الوجه واليدين ، ووصفه لنفسه بالإتيان والمجيء والهرولة في حديث الرسول ، وذلك كله باطل وكفر من متأوله ؛ لقيام الدليل على تساوي الأجسام في دلائل الحدث القائمة بها واستحالة كونه من جنس المحدثات ، إذْ المحدث إنما كان محدثًا من حيث هو متعلق بمحدث أحدثه ، وجعله بالوجود أولى منه بالعدم .

فإن قالوا : الدليل على صحة ما نذهب إليه من أنه تعالى جسم قوله عليه السلام : « إن الله ليس بأعور – وإشارته إلى عينه بيده – وأن المسيح الدجال أعور عين اليمنى » ففي إشارته إلى عينه بيمينه تنبيه منه على أن عينه كسائر الأعين .

---

(١) طه : ٣٩ . (٢) القمر : ١٤ .
(٣) في « الأصل » : استدلالا . والمثبت من « هـ » . (٤) من « هـ » .
(٥) في « الأصل » : جسمًا . والمثبت من « هـ » .

قلنا : تقدم في دليلنا استحالة كونه جسمًا؛ لاستحالة كونه محدثًا، وإذا صح ذلك وجب صرف قوله عليه السلام وإشارته إلى عينه إلى معنى يليق به تعالى وهو نفي النقائص والعور عنه ، وأنه ليس كمن لا يرى ولا يبصر ، بل هو منتف عنه جميع النقائص والآفات التي هي أضداد السمع والبصر وسائر صفات ذاته التي يستحيل وصفه بأضدادها؛ إذ الموصوف بها تارة وأضدادها أخرى محدث مربوب ، لدلالة قيام الحوادث به على [محدثه] (١) .

* * *

باب : قوله تعالى : ﴿ هو الله الخالق البارئ المصور ﴾ (٢)

فيه : أبو سعيد : « أنهم أصابوا سبايا في غزوة بني المصطلق ، فأرادوا أن يستمتعوا بهن ولا يحملن ، فسألوا النبي - عليه السلام - عن العزل . فقال : ما عليكم ألا تفعلوا ؛ فإن الله قد كتب من هو خالق إلى يوم القيامة» وقال أبو سعيد مرة عن النبي - عليه السلام - : « ليست نفس مخلوقة إلا الله خالقها » .

الكلام في معنى قوله تعالى : ﴿ **الخالق** ﴾ من وجهين : أحدهما أن يكون بمعنى المبدع والمنشئ لأعيان المخلوقات ، وهذا معنى لا يشاركه فيه أحد من خلقه ، ولم يزل الله مسميًا لنفسه خالقًا ورازقًا على معنى أنه سيخلق وسيرزق ، لا على معنى أنه خلق الخلق في أزله لاستحالة قدم الخلق .

والثاني : أن يكون الخلق بمعنى التصوير ، وهذا أمر يصح مشاركة الخلق فيه له ، فالخلق المذكور في هذا الباب بمعنى الإبداع والاختراع

(١) في « الأصل » : حدثه . والمثبت من « هـ » .
(٢) الحشر : ٢٤ .

لأعيان السموات والأرض ، والخلق بمعنى التصوير في قوله تعالى : **﴿وإذ تخلق من الطين كهيئة الطير ﴾** (١) أي: تصور لا تخترع ، ومنه قول الشاعر :

ولأنت تفـــري مـــا خـــلقـت وبعض القوم يخلق ثم لا يفري

* * *

باب : قوله تعالى ﴿ لما خلقت بيدي ﴾ (٢)

فيه : أنس : قال عليه السلام : « يجمع المؤمنون يوم القيامة فيقولون: لو استشفعنا إلى ربنا حتى يريحنا من مكاننا هذا. فيأتون آدم فيقولون : يا آدم ، أما ترى الناس ؟ خلقك الله بيده ، وأسجد لك ملائكته ، وعلمك أسماء كل شيء ، اشفع لنا إلى [ربنا] (٣) حتى يريحنا من مكاننا هذا . فيقول: لست هناك - ويذكر لهم خطيئته التي أصاب - ولكن ائتوا نوحًا فإنه أول رسول بعثه الله إلى أهل الأرض . فيأتون نوحًا فيقول : لست هناك - ويذكر خطيئته التي أصاب - ولكن ائتوا إبراهيم خليل الرحمن . فيأتون إبراهيم ، فيقول : لست هناك - ويذكر لهم خطاياه التي أصابها - ولكن ائتوا موسى عبدًا آتاه الله التوراة وكلمه تكليمًا فيأتون موسى فيقول : لست هناك / - [ويذكر لهم خطيئته التي أصاب - ولكن ائتوا عيسى عبد الله ورسوله وكلمته وروحه فيأتون عيسى فيقول - لست هناكم] (٤) ولكن ائتوا محمدًا [عبدًا] (٥) غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر [فيأتوني] (٦) فأنطلق فأستأذن على ربي ويؤذن لي عليه ، فإذا رأيت ربي وقعت له ساجدًا ، فيدعني ما شاء

[٤/ق٢٢٦-ب]

(١) المائدة : ١١٠ . (٢) سورة ص : ٧٥ .
(٣) في « الأصل » : ربك . والمثبت من « هـ ، ن » . (٤) من « هـ ، ن » .
(٥) في « الأصل » : عبد الله . والمثبت من « هـ ، ن » .
(٦) في « الأصل » : فيأتون . والمثبت من « هـ ، ن » .

الله أن يدعني ، ثم يقال : ارفع محمد، قل تسمع ، وسل تعطه ، واشفع تشفع . فأحمده بمحامد علمنيها ربي ، ثم أشفع فيحد لي حدًا فأدخلهم الجنة ، ثم أرجع فإذا رأيت ربي وقعت ساجدًا ، فيدعني ما شاء الله أن يدعني ، ثم يقال : ارفع محمد ، وقل تسمع ، وسل تعطه ، واشفع تشفع. فأحمد ربي بمحامد علمنيها [ربي، ثم أشفع] [1] فيحد لي حدًا فأدخلهم الجنة ، [ثم أرجع فإذا رأيت ربي وقعت ساجدًا فيدعني ما شاء الله أن يدعني، ثم يقال : ارفع محمد ، وقل تسمع ، وسل تعطه ، واشفع تشفع . فأحمد ربي بمحامد علمنيها ، ثم أشفع فيحد لي حدًا فأدخلهم الجنة] [1] ثم أرجع فأقول : يا رب ما بقى في النار إلا من حبسه القرآن ووجب عليه الخلود . قال عليه السلام : [يخرج] [2] من النار من قال: لا إله إلا الله . وكان [في قلبه] [3] من الخير ما يزن شعيرة ، ثم يخرج من النار من قال : لا إله إلا الله . وكان في قلبه من الخير ما يزن برة ، ثم يخرج من النار من قال : لا إله إلا الله. وكان في قلبه من الخير ما يزن ذرة » .

وفيه : أبو هريرة : قال النبي – عليه السلام – : « يد الله ملأى لا يغيضها نفقة سحاء الليل والنهار . وقال : أرأيتم ما أنفق منذ خلق السماء والأرض، فإنه لم يغض ما في يده ، وقال : عرشه على الماء وبيده الأخرى الميزان يخفض ويرفع » .

وفيه : ابن عمر : قال النبي – عليه السلام – : « إن الله يقبض يوم القيامة الأرضين، وتكون السموات بيمينه ، ثم يقول : أنا الملك » .

وفيه : أبو هريرة : قال النبي – عليه السلام – : « يقبض الله الأرض » .

---

(١) من « هـ ، ن » .   (٢) في « الأصل » : فخرج . والمثبت من « هـ، ن » .
(٣) في « الأصل » : فيه . والمثبت من « هـ ، ن » .

وفيه : عبد الله : « أن يهوديًا جاء إلى النبي - عليه السلام - فقال: يا محمد ، إن الله يمسك السموات على إصبع والأرضين على إصبع والجبال على إصبع والشجر على إصبع والخلائق على إصبع ، ثم يقول: أنا الملك . فضحك رسول الله ﷺ حتى بدت نواجذه ، ثم قرأ : ﴿ وما قدروا الله حق قدره ﴾ [1] **وقال عبد الله مرة : فضحك النبي ﷺ تعجبًا وتصديقًا له » .**

استدلاله من قوله تعالى : ﴿ **لما خلقت بيدي** ﴾ [2] وسائر أحاديث الباب على إثبات يدين [لله] [3] هما صفتان من صفات ذاته ليستا بجارحتين بخلاف قول المجثمة المثبتة أنهما [جارحتان] [4] وخلاف قول القدرية [النفاة] [5] لصفات ذاته ، ثم إذا لم يجز أن يقال: إنهما جارحتان لم يجز أن يقال : إنهما قدرتان ، ولا إنهما نعمتان ؛ لأنهما لو كانتا قدرتين لفسد ذلك من وجهين : أحدهما : أن الأمة أجمعت من بين ناف لصفات ذاته ، وبين مثبت لها أن الله - تعالى - ليس له قدرتان بل له قدرة واحدة في قول المثبتة ، ولا قدرة له في قول النافية لصفاته ؛ لأنهم يعتقدون كونه قادرًا لنفسه لا بقدرة والوجه الآخر أن الله - تعالى - قال لإبليس : ﴿ **ما منعك أن تسجد لما خلقت بيدي أستكبرت أم كنت من العالين** ﴾ [2] قال إبليس مجيبًا له : أنا خير منه . فأخبر بالعلة التي من أجلها لم يسجد ، وأخبره تعالى بالعلة التي لها أوجب عليه السجود ، وهو أن خلقه بيديه ، فلو كانت اليد القدرة التي خلق آدم بها وبها خلق إبليس لم يكن لاحتجاجه

---

(١) الأنعام : ٩١ . (٢) سورة ص : ٧٥ .

(٣) في « الأصل ، هـ » : الله . والمثبت أليق للسياق .

(٤) في « الأصل » : جارحتين . والمثبت من « هـ » .

(٥) « من « هـ » ، وفي « الأصل » غير واضحة .

تعالى عليه بأن خلقه بما يوجب عليه السجود معنى ؛ إذ إبليس مشارك لآدم فيما خلقه به تعالى من قدرته ، ولم يعجز إبليس بأن يقول له : أي رب ، وأي فضل له عليّ وأنا خلقتني بقدرتك كما خلقته ؟ ولم يعدل إبليس عن هذا الجواب إلى أن يقول : أنا خير منه ؛ لأنه خلقه من نار وخلق آدم من طين ، [فعدول] [1] إبليس عن هذا الاحتجاج مع وضوحه دليل على أن آدم خصه الله - تعالى - من خلقه بيديه بما لم يخص به إبليس .

وكيف يسوغ للقدرية القول بأن اليد هنا القدرة مع نفيهم للقدرة ؟! وظاهر الآية مع هذا يقتضي يدين، فينبغي على الظاهر إثبات قدرتين، وذلك خلاف [للأمة. و] [2] لا يجوز أن يكون المراد باليدين نعمتين لاستحالة خلق المخلوق بمخلوق مثله ؛ لأن النعم مخلوقة كلها وإذا استحال كونهما جارحتين ، وكونهما نعمتين ، وكونهما قدرتين ثبت أنهما يدان صفتان لا كالأيدي والجوارح المعروفة عندنا ، اختص آدم بأن خلقه بهما من بين سائر خلقه تكريمًا له وتشريفًا .

وفي هذا الحديث دليل على إثبات شفاعة النبي - عليه السلام - لأهل الكبائر من أمته خلافًا لقول من أنكرها من المعتزلة والقدرية والخوارج ، وهذا الحديث في غاية الصحة والقوة تلقاه المسلمون بالقبول إلى أن حدث أهل العناد والرد لسنن الرسول ، وفي كتاب الله - تعالى - ما يدل على صحة الشفاعة قوله تعالى إخبارًا عن الكفار؛ إذ قيل لهم : **﴿ما سلككم في سقر قالوا / لم نك من المصلين ولم نك نطعم المسكين وكنا نخوض مع الخائضين وكنا نكذب بيوم الدين حتى أتانا اليقين﴾** [3] فأخبروا عن أنفسهم بالعلل التي من أجلها سلكوا في سقر، ثم قال تعالى] [4]: **﴿ فما تنفعهم شفاعة الشافعين﴾** [5] [٤/ق٢٢٧-أ]

(١) في « الأصل » : عدل . والمثبت من « هـ » .
(٢) في « الأصل » : الأمة . والمثبت من « هـ » . (٣) المدثر : ٤٢ - ٤٧ .
(٤) في « الأصل » : عالمين . وهذا خطأ . (٥) المدثر : ٤٨ .

زجراً لأمثالهم من الكافرين وترغيباً للمؤمنين في الإيمان لتحصل لهم به شفاعة الشافعين ، وهذا دليل قاطع على ثبوت الشفاعة .

فإن عارض الشفاعة معارض بقوله عليه السلام : «من قتل نفسه بحديدة عذب بها في نار جهنم خالدًا ، ومن تحسى سمًا . . . » الحديث .

قيل له : يمكن الجمع بين هذا الحديث ، وحديث الشفاعة بوجوه صحاح : فيجوز أن يكون [فيمن] (١) قتل نفسه [و] (٢) أنفذ الله عليه الوعيد بأن خلده في النار مدة أكثر من مدة من خرج بالشفاعة ، ثم خرج من النار بعد ذلك بمدة بشفاعة النبي - عليه السلام - بما في قلبه من الإيمان المنافي للكفر ؛ لأن الخلود الأبدي الدائم إنما يكون في الكفار [الجاحدين] (٣) وما جاء في كتاب الله من ذكر الخلود للمؤمنين كقوله تعالى : ﴿ **ومن يقتل مؤمنًا متعمدًا فجزاؤه جهنم خالدًا فيها** ﴾ (٤) فإنما يراد [بالتخليد] (٥) تطويل المدة عليه في العذاب ولا يقتضي التأبيد كما يقتضي خلود الكافرين ، ويحتمل أن يكون تأويل الحديث من قتل نفسه على وجه الاستحلال والردة فجزاؤه ما ذكر في الحديث ؛ لأن فاعل ذلك كافر لا محالة ، ويشهد لهذا ما قاله قبيصة في البخاري في تأويل قوله عليه السلام : « فسحقًا سحقًا » . قال: هو في المرتدين . وقد سلمت طائفة من المعتزلة شفاعة الرسول على وجه دون وجه لما لم يمكنها رد الأحاديث الواردة فيها لانتشارها وقبول الأمة لها ولشهادة ظواهر كتاب الله لها ، فقالوا : تجوز شفاعته عليه السلام للتائب من الكبائر ، ولمن أتى صغيرة مع اجتنابه الكبائر أو

---

(١) في « الأصل » : قبل . والمثبت من « هـ » . (٢) من « هـ » .
(٣) في « الأصل » : الخالدين . والمثبت من « هـ » . (٤) النساء : ٩٣ .
(٥) في « الأصل » : بالخلود . والمثبت من « هـ » .

مؤمن لا ذنب له (لتباب) [١] ، وهذا كله فاسد على أصولهم لاعتقادهم أن الله يستحيل منه تعذيب التائب من كبيرته [أو] [٢] فاعل الصغائر إذا اجتنب الكبائر ، أو تأخير [ما] [٣] استحق الذي لا ذنب له من الثواب ؛ لأنه لو عذب من ذكرنا وأخر ثواب الآخر ولم يوف التائب والمجتنب للكبائر مع فعله الصغائر ثوابه على أعماله، لكان ذلك خارجًا عن الحكمة وظالمًا ، وذلك من صفات المخلوقين.

[و] [٣] إذا كان هذا أصلهم ، فإثباتهم الشفاعة على هذا الوجه لا معنى له فبطل قولهم ولزمهم الشفاعة على الوجه الذي تقول به أهل السنة والحق ، وهذا بين والحمد لله .

وأما ذكر الأنبياء - عليهم السلام - في [حديث] [٤] الشفاعة لخطاياهم ، فإن الناس اختلفوا هل يجوز وقوع الذنوب منهم ؟ فأجمعت الأمة على أنهم معصومون في الرسالة ، وأنه لا تقع منهم الكبائر ، واختلفوا في جواز الصغائر عليهم فأطبقت المعتزلة والخوارج على أنه لا يجوز وقوعها منهم ، وزعموا أن الرسل لا يجوز أن تقع منهم ما ينفر الناس [عنهم][٣] وأنهم معصومون من ذلك . وهذا باطل لقيام الدليل مع التنزيل وحديث الرسول : « أنه ليس كل ذنب كفرًا». وقولهم : إن الباري تجب عليه عصمة الأنبياء - عليهم السلام - من الذنوب [فلا] [٥] ينفر الناس عنهم بمواقعهم لها هو فاسد بخلاف القرآن له ، وذلك أن الله - تعالى - قد أنزل كتابه وفيه متشابه مع سابق علمه أنه سيكون ذلك سببًا لكفر قوم ، فقال تعالى : ﴿ **فأما الذين في قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه** ﴾ [٦] وقال

(١) كذا في « الأصل ، هـ » . (٢) في « الأصل » : و . والمثبت من « هـ » .
(٣) من « هـ » . (٤) في « الأصل » : ذكر . والمثبت من « هـ » .
(٥) في « الأصل » : كي . والمثبت من « هـ » . (٦) آل عمران : ٧ .

تعالى : ﴿ **وإذا بدلنا آية مكان آية [والله أعلم بما ينزل قالوا إنما أنت مفتر]** [1] ﴾ [2] . فكان التبديل الذي هو النسخ سببًا لكفرهم كما كان إنزاله متشابهًا سببًا لكفرهم ، وقال أهل السنة : جائز وقوع الصغائر من الأنبياء ، واحتجوا بقوله تعالى مخاطبًا لرسوله : ﴿ **ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر** ﴾ [3] فأضاف إليه الذنب ، وقد ذكر الله في كتابه ذنوب الأنبياء فقال تعالى : ﴿ **وعصى آدم ربه فغوى** ﴾ [4] وقال نوح لربه : ﴿ **إن ابني من أهلي** ﴾ [5] فسأله أن ينجيه ، وقد كان تقدم إليه تعالى فقال : ﴿**ولا تخاطبني في الذين ظلموا إنهم مغرقون**﴾[6] وقال إبراهيم : ﴿ **والذي أطمع أن يغفر لي خطيئتي يوم الدين** ﴾ [7] وفي كتاب الله تعالى من ذكر خطايا الأنبياء ما لا خفاء به، وقد تقدم الاحتجاج في هذه المسألة في كتاب الدعاء في باب قول النبي : « اللهم اغفر لي ما قدمت وأخرت » . ما لم أذكره هاهنا .

فإن قال قائل : ما معنى قول آدم : ولكن ائتوا نوحًا ؛ فإنه أول رسول بعثه الله إلى أهل الأرض . وقد تقدم آدم قبله ؟

[٤/ق٢٢٧-ب] فالجواب أن آدم لم يكن رسولا ؛ لأن الرسول / يقتضي مرسلا إليه في وقت الإرسال وهو أهبط إلى الأرض وليس فيها أحد .

فإن قيل : لما تناسل منه ولده وجب أن يكون رسولا إليهم ؟ .

قيل : إنما أهبط عليه السلام إلى الأرض وقد علمه الله أمر دينه وما يلزمه من طاعة ربه فلما حدث ولده بعده حملهم على دينه ، وما هو

---

(١) ليست بالأصل . (٢) آل عمران : ٧ . (٣) النحل : ١١٠ .
(٤) طه : ١٢١ . (٥) هود : ٤٥ .
(٦) هود : ٣٧ ، المؤمنون : ٢٧ . (٧) الشعراء : ٨٢ .

عليه من شريعة ربه ، كما أن الواحد منا إذا ولد له ولد يحمله على سنته وطريقته ، ولا يستحق بذلك أن يسمى رسولا ، وإنما سمى [نوح] [١] رسولا ؛ لأنه بعث إلى قوم كفار ليدعوهم إلى الإيمان .

وأما حديث الإصبع فإنه لما لم تصح أن تكون جارحة لما قدمنا من إبطال التجسيم فتأويله ما قال أبو الحسن الأشعري : من أن هذا وشبهه مما أثبته الرسول لله ووصفه به راجع إلى أنه صفة ذات لا يجوز تحديدها ولا تكييفها .

وقال أبو بكر بن فورك: يجوز أن يكون الإصبع خلقاً لله [يخلقه][٢] يحمله ما حملت الإصبع ، ويحتمل أن يكون المراد بالإصبع : القدرة والملك والسلطان على معنى قول القائل : ما فلان إلا بين إصبعي . إذا أراد الإخبار عن (جريان) [٣] قدرته عليه فذكر [معظم][٤] المخلوقات، وأخبر عن قدرة الله على جميعها معظمًا لشأن الرب - تعالى - في قدرته وسلطانه ، فضحك رسول الله كالمتعجب منه أنه يستعظم ذلك في قدرته ، وأنه ليسير في جنب ما يقدر عليه ، ولذلك قرأ عليه قوله تعالى : ﴿**وما قدروا الله حق قدره**﴾ [٥] أي : ليس قدره في القدرة على ما يخلق على الحد الذي ينتهي إليه الوهم ويحيط به الحد والحصر؛ لأنه تعالى يقدر على إمساك جميع مخلوقاته على غير شيء كما هي اليوم، لقوله تعالى: ﴿ **رفع السموات بغير عمد ترونها**﴾[٦] .

وقوله : « لا يغيضها » أي : لا ينقصها . وقال أبو زيد : غاض ثمن السلعة أي : نقص ، ومنه قوله تعالى : ﴿ **وغيض الماء** ﴾ [٧] .

---

(١) في « الأصل » : نوحًا . والمثبت من « هـ » .
(٢) في « الأصل » : فخلقه . والمثبت من « هـ » .
(٣) في « هـ » : جبران .
(٤) في « الأصل » : تعظيم . والمثبت من « هـ » .
(٥) الأنعام : ٩١ .
(٦) الرعد : ٢ .
(٧) هود : ٤٤ .

وقوله : سحاء . يقال : سح المطر والدمع وغيرهما سحوحًا وسحا : انصب وسال .

* * *

باب : قول النبي عليه السلام لا أحد أغير من الله

فيه : المغيرة : « قال سعد : لو رأيت رجلا مع امرأتي [لضربته] [١] بالسيف غير مصفح فبلغ ذلك الرسول فقال : تعجبون [من غيرة] [٢] سعد والله لأنا أغير منه ، والله أغير مني ، ومن أجل غيرة الله حرم الفواحش ما ظهر منها وما بطن ، ولا أحد أحب إليه العذر من الله ، من أجل ذلك بعث المنذرين والمبشرين ، ولا أحد أحب إليه المدحة من الله ومن أجل ذلك وعد الجنة » .

وقال عبيد الله بن عمرو ، عن عبد الملك: « لا شخص أغير من الله » .

اختلفت ألفاظ هذا الحديث فروى ابن مسعود ، عن النبي - عليه السلام - : «لا أحد أغير من الله » ذكره في آخر كتاب النكاح ، وفي رواية عبيد الله ، ورواية ابن مسعود مبينة أن لفظ الشخص موضوع موضع أحد على أنه من باب المستثنى من غير جنسه وصفته كقوله تعالى : ﴿ **ما لهم به من علم إلا اتباع الظن** ﴾ [٣] وليس الظن من نوع العلم بوجه ، وأجمعت الأمة على أن الله لا يجوز أن يوصف بأنه شخص ؛ لأن التوقيف لم يرد به ، وقد منعت المجسمة من إطلاق الشخص عليه مع قولهم : إنه [جسم] [٤] . وأحد لفظ موضوع للاشتراك بين الله تعالى وبين خلقه ، وقد نص الله على تسمية نفسه

---

(١) في « الأصل » : احتزيته . والمثبت من « هـ ، ن » .
(٢) في « الأصل » : لغيرة . والمثبت من « هـ ، ن ». (٣) النساء : ١٥٧ .
(٤) في « الأصل » : سجم . والمثبت من « هـ » .

فقال : ﴿ قل هو الله أحد ﴾ وقد تقدم في كتاب النكاح في باب الغيرة، معنى الغيرة من الله أنها بمعنى : الزجر عن الفواحش والتحريم لها ، ومعنى الحديث : أن الأشخاص الموصوفة بالغيرة لا تبلغ غيرتها غيرة الله وإن لم يكن شخصًا .

وقوله : « لا أحد أحب إليه المدحة من الله » فالمحبة من الله تعالى للمدحة : إرادته من عباده طاعته وتنزيهه والثناء عليه ؛ ليجازيهم على ذلك .

وقوله : « لا أحد أحب إليه العذر من الله » فمعناه ما ذكر في قوله تعالى : ﴿ وهو الذي يقبل التوبة عن عباده ويعفو عن السيئات﴾[1] فالعذر في هذا الحديث : التوبة والإنابة .

* * *

باب : قوله : ﴿ قل أي شيء أكبر / شهادة قل الله ﴾[2] [٤/ق٢٢٨-أ]

فسمى الله نفسه شيئًا ، وسمى النبي عليه السلام القرآن شيئًا وهو صفة من صفات الله تعالى وقال : ﴿ كل شيء هالك إلا وجهه ﴾ [3] .

فيه: سهل بن سعد : « قال النبي - عليه السلام - لرجل : أمعك من القرآن شيء ؟ قال : نعم ، سورة كذا وسورة كذا - لسور سماها » .

قال عبد العزيز صاحب كتاب الحيدة : إنما سمى الله نفسه شيئًا إثباتًا للوجود ونفيًا للعدم ، وكذلك أجرى على كلامه ما أجراه على نفسه فلم يتسم [بالشيء] [4] ولم يجعل الشيء من أسمائه ، ولكنه دل على نفسه أنه شيء أكبر الأشياء ، إثباتًا للوجود ونفيًا

---

(١) الشورى : ٢٥ . (٢) الأنعام : ١٩ .
(٣) القصص : ٨٨ . (٤) في « الأصل » : بالسم . والمثبت من « هـ » .

للعدم ، وتكذيبًا للزنادقة والدهرية ومن أنكر ربوبيته من سائر الأمم فقال لنبيه ﷺ : ﴿ **قل أي شيء أكبر شهادة قل الله شهيد بيني وبينكم**﴾[(١)] فدل على نفسه أنه شيء لا كالأشياء لعلمه السابق أن جهمًا وبشرًا [ومن وافقهما] [(٢)] سيلحدون في أسمائه ويشبهون على خلقه ويدخلونه وكلامه في الأشياء المخلوقة فقال تعالى : ﴿ **ليس كمثله شيء** ﴾ [(٣)] فأخرج نفسه وكلامه وصفاته [عن] [(٤)] الأشياء المخلوقة بهذا الخبر تكذيبًا لمن ألحد في كتابه ، وشبهه بخلقه .

ثم عدد أسماءه في كتابه فلم يتسم بالشيء ، ولم يجعله من أسمائه في قوله عليه السلام : « لله تسعة وتسعون اسمًا » ثم ذكر كلامه كما ذكر نفسه [ودل عليه] [(٢)] بما دل على [نفسه] [(٥)] ليعلم الخلق أنه صفة من صفات ذاته فقال تعالى : ﴿**وما قدروا الله حق قدره إذ قالوا ما أنزل الله على بشر من شيء** ﴾ [(٦)] . فذم الله اليهود حين نفت أن تكون التوراة شيئًا ، وقال : ﴿ **ومن أظلم ممن افترى على الله كذبًا أو قال أوحي إليّ ولم يوح إليه شيء** ﴾ [(٧)] فدل أن الوحي شيء بالمعنى ، والذم لمن جحد أن كلامه شيء ، فكل صفة من صفاته تسمى شيئًا بمعنى أنها موجودة ، ولما أظهر الله اسم كلامه لم يظهره باسم الشيء، وإنما أظهره باسم الهدى والنور والكتاب ، ولم يقل من أنزل الشيء الذي جاء به موسى .

قال غيره : وتسمية الله نفسه بشيء ، يرد قول من زعم من أهل

---

(١) الأنعام : ١٩ .   (٢) من « هـ » .   (٣) الشورى : ١١ .

(٤) في « الأصل » : من . والمثبت من « هـ » .

(٥) في « الأصل » : خلقه . والمثبت من « هـ » .

(٦) الأنعام : ٩١ .   (٧) الأنعام : ٩٣ .

البدع أنه لا يجوز أن يسمى الله بشيء وهو قول الناشي ونظرائه ، وقولهم خلاف ما نصف الله عليه في كتابه وهو القائل : شيء إثبات موجود ، ولا شيء نفي . فبان أن المعدوم ليس بشيء خلافًا لقول المعتزلة من أن المعدومات أشياء وأعيان على ما تكون عليه في الوجود، وهذا قول يقضي بقائله إلى قدم العالم ونفي الحدث والمحدث ؛ لأن المعدومات إذا كانت على ما تكون عليه في الوجود أعيانًا لم تكن لقدرة الله على خلقها وحدثها تعلق ، وهذا كفر ممن قال به .

* * *

باب : قوله تعالى : ﴿ وكان عرشه على الماء ﴾ [١] ﴿ وهو رب العرش العظيم ﴾ [٢]

قال أبو العالية : استوى إلى السماء : ارتفع . فسواهن : خلقهن . وقال مجاهد : استوى [على العرش : علا] [٣] . قال ابن عباس : المجيد : الكريم . والودود : الحبيب . يقال : حميد مجيد [كأنه فعيل][٤] من ماجد ، ومحمود من حميد .

فيه : عمران : « قال : إني عند النبي - عليه السلام - إذ جاءه وفد من بني تميم فقال : [اقبلوا] [٥] البشرى يا بني تميم ، فقالوا : قد بشرتنا فأعطنا ، فدخل ناس من أهل اليمن ، فقال : اقبلوا البشرى يا أهل اليمن إذ لم يقبلها بنو تميم . قالوا : قبلنا ، جئناك [لنتفقه] [٦] في الدين . ولنسألك عن أول هذا الأمر ما كان ؟ قال : كان الله ولم

---

(١)هود : ٧ . (٢) التوبة : ١٢٩ . (٣) في « هـ ، ن » : علا على العرش .
(٤) من « هـ ، ن » . (٥) مكررة بالأصل .
(٦) في « الأصل » : لنفقه . والمثبت من « هـ ، ن » .

يكن شيء قبله وكان عرشه على الماء ، ثم خلق السموات والأرض وكتب في الذكر كل شيء » .

وفيه : أبو هريرة : قال النبي - عليه السلام - : « يمين الله ملأى... » الحديث « وعرشه على الماء ... » الحديث .

وفيه أنس: « جاء زيد بن حارثة يشكو فجعل النبي - عليه السلام- يقول : اتق الله وامسك عليك زوجك . وكانت تفخر على أزواج النبي - عليه السلام - تقول : زوجكن أهاليكن ، وزوجني الله من فوق سبع سموات » .

وفيه : أبو هريرة : قال - عليه السلام - : « إن الله لما قضى الخلق كتب عنده فوق عرشه : إن رحمتي سبقت غضبي » .

وفيه : أبو هريرة : قال النبي - عليه السلام - : « من آمن بالله ورسوله / وأقام الصلاة ، وصام رمضان كان حقا على الله أن يدخله، الجنة هاجر [٤/ق٢٢٨-ب] في سبيل الله أو جلس في أرضه التي ولد فيها . قالوا : يا رسول الله ، أفلا ننبئ الناس بذلك ؟ قال : إن في الجنة مائة درجة أعدّها الله للمجاهدين في سبيله كل درجتين ما بينهما كما بين السماء والأرض ، فإذا سألتم الله فسلوه الفردوس ، فإنه أوسط الجنة وأعلى الجنة وفوقه عرش الرحمن ومنه تفجر أنهار الجنة » .

وفيه : أبو ذر : « دخلت المسجد والنبي - عليه السلام - جالس فلما غربت الشمس قال : يا أبا ذر ، هل تدري أين تذهب هذه ؟ قلت : الله ورسوله أعلم . قال : إنها تذهب فتستأذن في السجود فيؤذن لها [وكأنها قد قيل] (١) لها : ارجعي من حيث جئت ، فتطلع من مغربها ، ثم قرأ : « ذلك مستقر لها » في قراءة عبد الله .

---

(١) في « الأصل» : وكأنه يقال . والمثبت من « هـ » .

وفيه : زيد : أرسل إليّ أبو بكر فتتبعت القرآن حتى وجدت آخر سورة التوبة مع خزيمة - أو أبي خزيمة الأنصاري - لم أجدها مع غيره: ﴿ لقد جاءكم رسول من أنفسكم ﴾ (١) حتى خاتم براءة - يعني ﴿وهو رب العرش العظيم ﴾ (٢) » .

وفيه : ابن عباس : كان النبي - عليه السلام - يقول عند الكرب : [«لا إله إلا الله العليم الحكيم، لا إله إلا الله رب العرش العظيم] (٣) لا إله إلا الله رب السموات ورب الأرض رب العرش الكريم » .

وفيه : أبو سعيد : « عن النبي - عليه السلام - قال : « الناس يصعقون يوم القيامة فإذا أنا بموسى آخذ بقائمة من قوائم العرش » .

وقال [أبو هريرة] (٤) عن النبي - عليه السلام - : « فأكون أوّل من يبعث فإذا موسى آخذ بالعرش » .

غرضه في هذا الباب إثبات حديث العرش بدليل قوله تعالى : **﴿وهو رب العرش العظيم ﴾** (٥) وبدليل قوله عليه السلام : «فإذا موسى آخذ بقائمة من قوائم العرش » فوصفه تعالى بأنه مربوب كسائر المخلوقات ووصفه عليه السلام بأنه ذو أبعاض وأجزاء منها ما سمي قائمة ، والمتبعض والمتجزئ لا محالة جسم ، والجسم مخلوق ، لقيام دلائل الحدث به من التأليف خلافًا لما تقوله الفلاسفة أن العرش هو الصانع الخالق .

وأما الاستواء فاختلف الناس في معناه : فقالت المعتزلة : إنه بمعنى الاستيلاء والقهر والغلبة ، واحتجوا بقول الشاعر :

---

(١) التوبة : ١٢٨ . (٢) التوبة : ١٢٩ .
(٣) من « هـ ، ن » . (٤) في « الأصل » : الزهري . والمثبت من «هـ،ن».
(٥) التوبة : ١٢٩ ، وفي « الأصل » : الكريم . والمثبت هو الصواب .

قد استوى بشر على العراق   من غير سيف ودم مهراق

بمعنى : قهر وغلب ، ثم اختلف من سواهم في العبارة عن الاستواء . فقال أبو العالية : استوى : ارتفع . وقال مجاهد : استوى : علا . وقال غيرهما : استوى : استقر . فأما قول من جعل الاستواء بمعنى القهر والاستيلاء فقول فاسد ؛ لأن الله - تعالى - لم يزل قاهرًا غالبًا مستوليًا .

وقوله تعالى : ﴿ **ثم استوى** ﴾ يقتضي استفتاح هذا الوصف واستحقاقه بعد أن لم يكن ، كما أن المذكور في البيت إنما حصل له هذا الوصف بعد أن لم يكن ، وتشبيههم أحد الاستواءين بالآخر غير صحيح ، ومؤدٍ إلى أنه تعالى كان مغالبًا في ملكه ، وهذا منتف عن الله ؛ لأن الله - تعالى - هو الغالب لجميع خلقه ، وأما من قال تأويله : استقر . فقول فاسد أيضًا ؛ لأن الاستقرار من صفات الأجسام ، وأما قول من قال : تأويله : ارتفع . فقول مرغوب عنه لما في ظاهره من إيهام الانتقال من سفل إلى علو، وذلك لا يليق بالله، وأما قول من قال: علا . فهو صحيح وهو مذهب أهل السنة والحق.

فإن قيل : ما ألزمته في ارتفع مثله يلزم في علا .

قيل : الفرق بينهما أن الله وصف نفسه بالعلو بقوله : ﴿**سبحانه وتعالى عما يشركون**﴾ (١) فوصف نفسه [بالتعالي] (٢) والتعالي من صفات الذات ، ولم يصف نفسه بالارتفاع . وقال غيره: الاستواء ينصرف في لسان العرب (إلى) (٣) ثلاثة أوجه : فالوجه الأول : قوله تعالى في ركوب الأنعام : ﴿ **ثم تذكروا نعمة ربكم إذا**

---

(١) الروم : ٤٠ .   (٢) في « الأصل » : العالي . والمثبت من « هـ » .
(٣) في « هـ » : على .

استويتم عليه ﴾ [1] فهذا الاستواء بمعنى الحلول ، وهو منتف عن الله - تعالى - لأن الحلول يدل على التجديد والتناهي ، فبطل أن يكون حالاً على العرش لهذا الوجه .

والوجه الثاني : الاستواء بمعنى الملك للشيء والقدرة عليه كما قال بعض الأعراب ، وسئل عن الاستواء فقال : خضع له ما في السموات وما في الأرض ، ودان له كل شيء وذل ، كما نقول للملك إذا دانت له البلاد بالطاعة : قد استوت له البلاد .

والوجه الثالث : الاستواء بمعنى التمام للشيء والفراغ منه كقوله تعالى : ﴿ **حتى إذا بلغ أشده واستوى** ﴾ [2] فالاستواء في هذا الموضع : التمام ، كقوله تعالى : ﴿ **الرحمن على العرش استوى**﴾ [3] أراد التمام للخلق كله ، وإنما قصد بذكر العرش ؛ لأنه أعظم / الأشياء ، [٤/ق٢٢٩-أ] ولا يدل قوله تعالى : ﴿ **وكان عرشه على الماء**﴾[4] أنه حال عليه ، وإنما أخبر [عن] [5] العرش [خاصة أنه على الماء ولم يخبر][6] عن نفسه أنه جعله للحلول ، لأن هذا كان يكون حاجة منه إليه، وإنما جعله [ليعبد] [7] به ملائكته فقال تعالى : ﴿ **الذين يحملون العرش ومن حوله يسبحون بحمد ربهم** ﴾[8] الآية . وكذلك تعبد الخلق بحج بيته الحرام ولم يسمه بيته ، بمعنى أنه سكنه وإنما سماه بيته بأنه الخالق له والمالك ، وكذلك العرش سماه عرشه ؛ لأنه مالكه والله - تعالى- ليس لأوليته حد ولا منتهى ، وقد كان في أزليته وحده ولا عرش معه سبحانه وتعالى ، ثم اختلف أهل السنة : هل الاستواء صفة

---

(١) الزخرف : ١٣ . (٢) الأحقاف : ١٥ . (٣) طه : ٥ .
(٤) هود : ٧ . (٥) في « الأصل » : على . والمثبت من « هـ » .
(٦) طمس بالأصل . والمثبت من « هـ » .
(٧) في « هـ » : ليتعبد . (٨) غافر : ٧ .

ذات أو صفة فعل ؟ فمن قال هو بمعنى علا جعله صفة ذات ، وأن الله - تعالى - لم يزل مستويًا بمعنى أنه لم يزل عاليًا . ومن قال : إنه صفة فعل قال : إن الله - تعالى - فعل فعلاً سماه استواء على عرشه لا أن ذلك الفعل قائم بذاته تعالى لاستحالة قيام الحوادث به .

وأما قول بني تميم للنبي - عليه السلام - : « بشرتنا فأعطنا » [فإنما] (١) قالوه جريًا على عاداتهم في أن البشرى إنما كانت تستعمل في فوائد [الدنيا] (٢) .

قال المهلب: وفي حديث عمران أن السؤال عن مبادئ الأشياء والبحث عنها جائز في الشريعة وجائز للعالم أن يجيب السائل عنها بما انتهى إليه علمه فيها إذا كان تثبيتًا [للإيمان] (٣) وأما إن خشي من السائل إيهام شك أو تقصير فهم، فلا يجيب فيه ولينهه عن ذلك، ويزجره .

وقول عمران : « وددت أن ناقتي ذهبت ولم [أقم] » (٤) فيه دليل على جواز إضاعة المال في طلب العلم بل في مسألة منه . قال غيره : وأما قوله: « يمين الله ملأى » ففيه إثبات اليمين صفة ذات لله -تعالى- لا صفة فعل ، وليست بجارحة لما تقدم قبل هذا . وقوله : «ملأى» ليس حلول المال فيها ؛ لأن ذلك من صفات الأجسام وإنما هو إخبار منه عليه السلام عن أن ما يقدر عليه من النعم وإرزاق عباده لا غاية له ولا نفاد، لقيام الدليل على (تعلق وجوب) (٥) قدرته بما لا نهاية له من مقدوراته ؛ لأنه لو تعلقت قدرته بمقدورات متناهية لكان ذلك نقصًا لا يليق به .

---

(١) في « الأصل » : فإنه . (٢) في « الأصل » : الشيء .

(٣) في « الأصل » : للأمان . والمثبت من « هـ » .

(٤) في « الأصل » : يقم . والمثبت من « هـ » .

(٥) في « هـ » : وجوب تعلق .

وأما قوله : « فإن حقًا على الله أن يدخله الجنة » ففيه تعلق للمعتزلة والقدرية القائلين بأن واجب عليه الوفاء لعبده الطائع بأجر عمله ، وأنه لو أخره عنه في الآخرة كان ظالمًا له . هذا متقرر عندهم في العقول ، قالوا : وجاءت السنة بتأكيد ما في العقول من ذلك . وقولهم فاسد ، ومذهب أهل السنة أن لله - تعالى - أن يعذب الطائعين من عباده وينعم على الكافرين ، غير أن الله - تعالى - أخبرنا في كتابه وعلى لسان رسوله أنه لا يعذب إلا من كفر به ، ومن وافاه بكبيرة ممن شاء الله تعذيبه عليها .

فمعنى قوله عليه السلام : « إن حقًا على الله أن يدخلها الجنة » . ليس على أن معنى ذلك واجب عليه ؛ لأن واجبًا يقتضي موجبًا له عليه والله - تعالى - ليس فوقه آمر ولا ناه يوجب عليه ما يلزمه المطالبة به ، وإنما معناه : إنجاز ما وعد به من فعل ما ذكر في الحديث؛ لأن وعده تعالى عبده على فعل تقدم إعلامه قبل فعله ، ووعده خبر ولا يصح منه تعالى إخلاف عبده ما وعده لقيام الدليل على أن الصدق من صفات ذاته ، فعبر عليه السلام في هذا المعنى بقوله : « فإن حقا على الله أن يدخله الجنة » بمعنى : أنه يستحيل عليه إخلاف ما وعد عبده على عمله .

وأما استئذان الشمس في السجود ، فالاستئذان قول لها ، والله على كل شيء قدير ، فيمكن أن يخلق الله فيها حياة توجد القول عندها فتقبل الأمر والنهي ؛ لأن الله قادر على إحياء الجماد والموات ، وأعلم عليه السلام أن طلوعها من مغربها شرط من أشراط الساعة .

* * *

باب قوله تعالى : ﴿ تعرج الملائكة والروح إليه ﴾[1]
وقوله : ﴿ إليه يصعد الكلم الطيب ﴾[2]

وقال ابن عباس : بلغ أبا ذر مبعث النبي عليه السلام فقال لأخيه : اعلم لي علم هذا الرجل الذي يزعم أنه يأتيه الخبر من السماء . وقال مجاهد : العمل الصالح يرفع الكلم الطيب [يقال] [3] : ذي المعارج : الملائكة تعرج إليه .

فيه: أبو هريرة : أن النبي -عليه السلام - قال : « يتعاقبون [فيكم ملائكة] [4] بالليل وملائكة بالنهار، ويجتمعون في صلاة العصر وصلاة الفجر، ثم يعرج / الذين باتوا فيكم [فيسألهم][5] وهو أعلم بهم: كيف تركتم عبادي؟ فيقولون: تركناهم [وهم] [5] يصلون وأتيناهم وهم يصلون». [٤/ق٢٢٩-ب]

وفيه : أبو هريرة : قال النبي - عليه السلام - : « من تصدق بعدل تمرة من كسب طيب ولا يصعد إليه إلا الطيب ... » الحديث .

وفيه : ابن عباس : « أن النبي - عليه السلام - كان يدعو بهن عند الكرب : لا إله إلا الله العظيم الحليم ، لا إله إلا الله رب العرش العظيم ، لا إله إلا الله رب السموات ورب العرش الكريم » .

وفيه : أبو سعيد : « بعث علي إلى النبي من اليمن بذهيبة في تربتها ، فقسمها بين أربعة ، فغضبت قريش والأنصار وقالوا : يعطي صناديد أهل نجد ويدعنا . قال : إنما أتألفهم . فأقبل رجل غائر العينين ، ناتئ الجبين ، كث اللحية ، مشرف الوجنتين ، محلوق الرأس، فقال : يا محمد ، اتق الله . قال له : فمن [يطيع] [6] الله إذا أنا عصيته ؟! فيأمنني على أهل الأرض ولا تأمنونني ..» الحديث .

---

(١) المعارج : ٤ . (٢) فاطر : ١٠ .
(٣) في « الأصل » : فقال . والمثبت من « هـ ، ن » .
(٤) في « الأصل » : الملائكة فيكم . والمثبت من « هـ ، ن» .
(٥) من « هـ ، ن » . (٦) في « الأصل » : يطع . والمثبت من « هـ ، ن » .

وفيه : أبو ذر : « سألت النبي - عليه السلام - عن قوله تعالى : ﴿والشمس تجرى لمستقر لها﴾ [1] قال : مستقرها تحت العرش» .

غرضه في هذا الباب رد شبهة الجهمية المجسمة في تعلقها بظاهر قوله : ﴿ذي المعارج تعرج الملائكة والروح إليه﴾ [2] وقوله : ﴿إليه يصعد الكلم الطيب﴾ [3] وما تضمنته أحاديث الباب من هذا المعنى ، وقد تقدم الكلام في الرد عليهم وهو أن الدلائل الواضحة قد قامت على أن الباري - تعالى - ليس بجسم ولا محتاجًا إلى مكان يحله ويستقر فيه ؛ لأنه - تعالى - قد كان ولا مكان وهو على ما كان ، ثم خلق المكان فمحال كونه غنيا عن المكان قبل خلقه إياه ، ثم يحتاج إليه بعد خلقه له هذا مستحيل ، [فلا] [4] حجة لهم في قوله : ﴿ذي المعارج﴾ [2] لأنه إنما أضاف المعارج إليه إضافة فعل ، وقد كان ولا فعل له موجود، وقد قال ابن عباس في قوله: ﴿ ذي المعارج﴾[2] هو بمعنى : العلو والرفعة ، وكذلك لا شبهة لهم في قوله - تعالى-: ﴿ إليه يصعد الكلم الطيب ﴾ [3] لأن صعود الكلم إلى الله - تعالى - لا يقتضي كونه في جهة العلو لأن الباري - تعالى - لا تحويه جهة ؛ إذ كان موجودًا ولا جهة ، وإذا صح ذلك وجب صرف هذا عن ظاهره وإجراؤه على المجاز ؛ لبطلان إجرائه على الحقيقة ، فوجب أن يكون تأويل قوله: ﴿ ذي المعارج ﴾ [2] [رفعته] [5] واعتلاؤه على خليقته وتنزيهه عن الكون في جهة ؛ لأن في ذلك ما يوجب كونه جسمًا تعالى الله عن ذلك ، وأما وصف الكلام بالصعود إليه فمجاز أيضًا واتساع ؛ لأن الكلم عرض والعرض لا يصح أن يفعل ؛ لأن من

(١) يس : ٣٩ . (٢) المعارج : ٣ ، ٤ . (٣) فاطر : ١٠ .
(٤) في « الأصل » : بلى . والمثبت من « هـ » .
(٥) في « الأصل » : رفعه . والمثبت من « هـ » .

شرط الفاعل كونه حيًا قادرًا عالمًا مريدًا ، فوجب صرف الصعود المضاف إلى الكلم إلى الملائكة الصاعدين به .

* * *

باب : قوله تعالى : ﴿وجوه يومئذ ناضرة إلى ربها ناظرة﴾[1]

فيه : جرير : « كنا عند النبي - عليه السلام - إذ نظر إلى القمر ليلة البدر فقال : إنكم سترون ربكم كما ترون هذا القمر لا تضامون في رؤيته ، فإن استطعتم ألا تغلبوا على صلاة قبل طلوع الشمس وصلاة قبل غروب الشمس فافعلوا » .

وقال جرير مرة عن النبي -عليه السلام- : « إنكم سترون ربكم عيانًا » .

وفيه : أبو هريرة : « أن الناس قالوا : هل نرى ربنا يوم القيامة ؟ قال النبي - عليه السلام -: هل تضارون في القمر ليلة البدر ؟ قالوا: لا يا رسول الله . قال: هل تضارون في الشمس ليس دونها سحاب؟ قالوا : لا يا رسول الله . قال : فإنكم ترونه كذلك ، يجمع الله الناس يوم القيامة فيقول: من كان يعبد شيئًا فليتبعه. فيتبع من كان يعبد الشمس الشمس، ويتبع من كان يعبد القمر القمر ، ويتبع من كان يعبد الطواغيت الطواغيت، وتبقى هذه الأمة فيها [شافعوها أو] [2] منافقوها - شك إبراهيم - فيأتيهم الله فيقول : أنا ربكم . فيقولون : هذا مكاننا حتى يأتينا ربنا فإذا جاءنا ربنا عرفناه . فيأتيهم الله في صورته التي يعرفون فيقول : أنا ربكم . فيقولون : أنت ربنا ، فيتبعونه ويضرب الصراط بين ظهري جهنم ، فأكون أنا وأمتي أول من يجيز ، ولا يتكلم يومئذ إلا الرسل ، ودعوى الرسل يومئذ : اللهم سلم سلم ، وفي جهنم

---

(١) القيامة : ٢٢ - ٢٣ . (٢) من « هـ ، ن » .

كلاليب مثل شوك السعدان، هل رأيتم السعدان؟ قالوا : نعم يا رسول الله . قال : فإنها مثل شوك السعدان غير [أنه] [1] لا يعلم قدر عظمها إلا الله / تخطف الناس بأعمالهم فمنهم المؤمن يقي بعمله أو الموبق بعمله [ومنهم المخردل والمجازى ونحوه ، ثم يتجلى حتى إذا فرغ الله][2] من القضاء بين العباد ، وأراد أن يخرج برحمته من أراد من أهل النار أمر الملائكة أن يخرجوا من النار من كان لا يشرك بالله شيئًا ممن أراد أن يرحمه ممن يشهد أن لا إله إلا الله ، فيعرفونهم في النار بأثر السجود ، وتأكل النار ابن آدم إلا أثر السجود حرم الله على النار [أن] [3] تأكل أثر السجود ، فيخرجون من النار قد امتحشوا ، فيصب عليهم ماء الحياة فينبتون تحته كما تنبت الحبة في حميل السيل ، ثم يفرغ الله من القضاء بين العباد ويبقى رجل مقبل بوجهه على النار هو آخر أهل النار دخولاً الجنة ، فيقول : أي رب اصرف وجهي عن النار ، فإنه قد قشبني ريحها وأحرقني ذكاؤها . فيدعو الله بما شاء أن يدعوه ، ثم يقول الله : هل عسيت إن أعطيت ذلك أن تسألني غيره ؟ فيقول : لا وعزتك لا أسألك غيره . ويعطي ربه من عهود ومواثيق ما شاء ، فيصرف الله وجهه عن النار ، فإذا أقبل على الجنة ورآها سكت ما شاء الله أن يسكت ، ثم يقول: أي رب [قربني] [4] إلى باب الجنة . فيقول الله له : ألست قد أعطيت عهودك ومواثيقك ألا تسألني غير الذي أعطيت أبدًا، ويلك يا ابن آدم ما أغدرك . فيقول : أي رب. يدعو الله حتى يقول: هل عسيت إن أعطيت ذلك أن تسأل غيره؟ فيقول : لا وعزتك لا أسألك غيره . فيعطي ما شاء الله من عهود ومواثيق ، فيقدمه إلى باب الجنة ، فإذا قام إلى باب الجنة

[٤/ق٢٣٠-أ]

---

(١) في « الأصل » : أنها . والمثبت من « هـ » .

(٢) بياض بالأصل. والمثبت من «هـ». وفي « ن »: «. . . أو المجازى أو نحوه. . .».

(٣) من « ن » .

(٤) في « هـ ، ن » : قدمني .

انفهقت له الجنة فرأى ما فيها من الحبرة والسرور فسكت ما شاء الله أن يسكت ، ثم يقول : أي رب ، أدخلني الجنة . فيقول الله : أليس قد أعطيت عهودك ومواثيقك ألا تسألني غير ما أعطيتك ، ويلك يا ابن آدم ما أغدرك . فيقول : أي رب لا أكون أشقى خلقك . فلا يزال يدعو الله حتى يضحك الله ، فإذا ضحك الله منه قال له : ادخل الجنة . فإذا (دخل الجنة) [1] قال له : تمنه . فسأل ربه وتمنى حتى إن الله ليذكِّره ويقول له كذا وكذا حتى إذا انقطعت به الأماني قال الله - تعالى - : ذلك لك ومثله معه. قال عطاء بن يزيد : وأبو سعيد الخدري مع أبي هريرة : لا يرد عليه من حديثه شيئًا حتى إذا حدث أبو هريرة أن الله - تعالى - قال : ذلك لك ومثله معه . قال أبو سعيد الخدري : وعشرة أمثاله معه يا أبا هريرة . قال أبو هريرة : ما حفظت إلا : ذلك لك ومثله معه . قال أبو سعيد : أشهد أني حفظت من رسول الله : ذلك لك وعشرة أمثاله . قال أبو هريرة: فذلك الرجل آخر أهل الجنة دخولا الجنة » .

وفيه : ابن عباس : « كان النبي - عليه السلام - إذا تهجد من الليل قال : اللهم لك الحمد أنت قيم السموات والأرض » إلى قوله: « أنت الحق ووعدك الحق ولقاؤك حق ... » الحديث .

وفيه : عدي بن حاتم : قال رسول الله ﷺ : « ما منكم من أحد إلا سيكلمه ربه ليس بينه وبينه ترجمان ولا حجاب يحجبه » .

وفيه : أبو سعيد : مثل حديث أبي هريرة الطويل إلى قوله : «فيذهب أصحاب كل آلهة مع آلهتهم حتى يبقى من كان يعبد الله من بر أو فاجر وغبرات من أهل الكتاب ، ثم يؤتى بجهنم تعرض كأنها

(١) في « هـ ، ن » : دخلها .

سراب، فيقال لليهود : ما كنتم تعبدون ؟ قالوا : عزيزًا ابن الله . فيقال : كذبتم لم يكن لله صاحبة ولا ولد ، فما تريدون ؟ قالوا : نريد أن تسقينا. فيقال : اشربوا ، فيتساقطون في جهنم [ثم يقال للنصارى كذلك ، ويشربون فيتساقطون في جهنم] (١) حتى يبقى من كان يعبد الله من بر أو فاجر ، فيقال لهم : ما يحبسكم وقد ذهب الناس ؟ فيقولون : فارقناهم ونحن أحوج منا إليه اليوم ، وإنا سمعنا مناديًا ينادي : ليلحق كل قوم بما كانوا يعبدون ، وإنما ننتظر ربنا ، فيأتي الجبار - جل جلاله - في صورة غير صورته التي رأوه فيها أول مرة، فيقول : أنا ربكم . فيقولون : أنت ربنا . فلا يكلمه إلا الأنبياء، فيقال : هل بينكم وبينه آية تعرفونها ؟ فيقولون : الساق . فيكشف عن ساقه فيسجد له كل مؤمن ويبقى من كان يسجد لله رياءً وسمعة ، فيذهب يسجد فيعود ظهره طبقًا [واحدًا] (٢) ثم يؤتى بالجسر ، فيجعل بين ظهراني جهنم . قلنا : وما الجسر يا رسول الله ؟ قال : مدحضة مزلة عليه كلاليب وخطاطيف وحسكة [مفلطحة] (٣) لها شوكة عقيفة تكون بنجد يقال لها: السعدان، يمر المؤمن عليها كالطرف وكالبرق ، وكالريح وكأجاويد / [٤/ق٢٣٠-ب] الخيل والركاب ، فناج مسلم ، وناج مخدوش ، ومكردس في نار جهنم حتى يمر آخرهم يسحب سحبًا فما أنتم بأشد لي مناشدة في الحق قد تبين لكم من المؤمن يومئذ للجبار، فإذا رأوا أنهم قد [نجوا] (٤) في إخوانهم يقولون: ربنا، إخواننا كانوا يصلون معنا ويصومون معنا ويعملون معنا، فيقول الله - عز وجل - : اذهبوا فمن وجدتم في قلبه مثقال دينار من إيمان فأخرجوه ، ويحرم الله (صورتهم) (٥) على النار ، وبعضهم قد

---

(١) من « هـ » . (٢) من « هـ ، ن » .

(٣) في « الأصل » : مطلحفة . والمثبت من « هـ ، ن » .

(٤) في « الأصل » : لجوا . والمثبت من « هـ » .

(٥) في « هـ ، ن » : صورهم .

غاب في النار إلى قدميه وإلى أنصاف ساقيه ، فيخرجون من عرفوا ثم يعودون ، فيقول : اذهبوا فمن وجدتم في قلبه مثقال نصف دينار من إيمان فأخرجوه . فيخرجون من عرفوا، فيعودون ، فيقول : اذهبوا فمن وجدتم في قلبه مثقال ذرة من إيمان فأخرجوه ، فيخرجون من عرفوا - وقال أبو سعيد - فإذا لم تصدقوني فاقرءوا ﴿ إن الله لا يظلم مثقال ذرة وإن تك حسنة يضاعفها﴾ (١) فيشفع النبيون والملائكة والمؤمنون فيقول الجبار - عز وعلا - : قد بقيت شفاعتي . فيقبض قبضة من النار ، فيخرج أقوامًا قد امتحشوا ، فيلقون في نهر بأفواه الجنة يقال له ماء الحياة، فينبتون في حافتيه كما تنبت الحبة في حميل السيل قد رأيتموها إلى جانب الصخرة وإلى جانب الشجرة فما كان إلى الشمس منها كان أخضر ، وما كان منها إلى الظل كان أبيض ، فيخرجون كأنهم اللؤلؤ فيجعل في [رقابهم] (٢) الخواتيم فيدخلون الجنة ، فيقول أهل الجنة : هؤلاء عتقاء الرحمن ، [أدخلهم] (٣) الجنة بغير عمل عملوه ولا خير قدموه . فيقال لهم : لكم ما رأيتم ومثله معه » .

وفيه : أنس : قال النبي - عليه السلام - : « [يحشر الناس] (٤) يوم القيامة حتى يهموا بذلك فيقولون : لو استشفعنا إلى ربنا فيريحنا من مكاننا فيأتون آدم... » فذكر حديث الشفاعة ، « فيأتونني فأستأذن على ربي في داره، فيؤذن لي عليه ، فإذا رأيته وقعت ساجدًا ... » الحديث ، «فأشفع فيحد لي حدًا ، فأخرجهم ، فأدخلهم الجنة فلا يبقى في النار إلا من قد حبسه القرآن - [أي] (٥) وجب عليه الخلود - ثم تلا :

---

(١) النساء : ٤٠ . (٢) غير مقروءة في « الأصل » . والمثبت من « هـ » .
(٣) في « الأصل » : أدخلوهم . والمثبت من « هـ ، ن » .
(٤) في « ن » : يحبس المؤمنون . (٥) في « الأصل»: أو. والمثبت من «هـ،ن».

﴿عسى أن يبعثك ربك مقامًا محمودًا ﴾ (١) قال : وهذا المقام المحمود الذي توعده نبيكم » .

وفيه : أنس : « أن النبي - عليه السلام - أرسل إلى الأنصار فجمعهم في قبة وقال لهم : اصبروا حتى تلقوا الله ورسوله ، فإني على الحوض » .

وفيه : أبو موسى : قال النبي - عليه السلام - : « جنتان من فضة آنيتهما وما فيهما، وجنتان من ذهب كذلك ، وما بين القوم وبين أن ينظروا إلى ربهم إلا رداء الكبرياء على وجهه في جنة عدن » .

وفيه : ابن مسعود : قال النبي - عليه السلام - : « من اقتطع مال امرئ مسلم بيمين كاذبة لقى الله وهو عليه غضبان ، ثم قرأ النبي - عليه السلام - مصداقه في كتاب الله : ﴿ إن الذين يشترون بعهد الله ﴾ (٢) الآية .

وفيه : أبو هريرة : قال النبي - عليه السلام - : « ثلاثة لا يكلمهم الله ولا ينظر إليهم : رجل حلف على سلعة لقد أعطي بها أكثر مما أعطي وهو كاذب ، ورجل حلف على يمين كاذبة بعد العصر ليقتطع بها مال امرئ مسلم ، ورجل منع فضل ماء ، فيقول الله : اليوم أمنعك [فضلي](٣) كما ما منعت فضل ما لم تعمل يداك » .

وفيه : أبو بكرة : قال النبي - عليه السلام - : « إن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض ... » الحديث «وستلقون ربكم فيسألكم عن [أعمالكم] (٤) .

---

(١) الإسراء : ٧٩ . (٢) آل عمران : ٧٧ .

(٣) في « الأصل » : فضل مائي . والمثبت من « هـ ، ن » .

(٤) في « الأصل » : إيمانكم . والمثبت من « هـ ، ن » .

[قال المؤلف] [1] : استدل البخاري بقوله تعالى: ﴿**وجوه يومئذ ناضرة إلى ربها ناظرة**﴾ [2] وبأحاديث هذا الباب على أن المؤمنين يرون ربهم في جنات [النعيم] [3] وهذا باب اختلف الناس فيه، فذهب أهل السنة وجمهور الأمة إلى جواز رؤية الله - تعالى - في الآخرة، ومنعت من ذلك الخوارج والمعتزلة و[بعض] [1] المرجئة واستدلوا على ذلك بأن الرؤية توجب كون المرئي محدثًا وحالا في مكان في شبه أخر [نقض] [4] بعضها مغن عن [نقض] [4] سائرها وزعموا أن قوله : ﴿ **وجوه يومئذ ناضرة إلى ربها ناظرة**﴾[2] بمعنى منتظرة . فيقال لهم : هذا جهل بموضع اللغة ؛ لأن النظر في كلام العرب ينقسم أربعة أقسام : يكون بمعنى الانتظار ، ويكون بمعنى التفكر والاعتبار ، ويكون بمعنى التعطف والرحمة ، ويكون بمعنى الرؤية للأبصار ؛ فخطأ كونه في الآية بمعنى الانتظار من وجهين : أحدهما أنه قد عدي إلى مفعوله « بإلى » وهو إذا كان بمعنى الانتظار لا يتعدى بها، وإنما يتعدى / بنفسه قال تعالى : ﴿**هل ينظرون إلا الساعة**﴾ [5] [٤/ق٢٣١-أ] فعداه بنفسه لما كان بمعنى ينتظرون . قال الشاعر :

فإنكـــما إن تنظـــراني ســـاعة من الدهر تنفعني أرى أم جندب

بمعنى : تنتظراني .

والوجه الثاني : أن حمله على [معنى] [1] الانتظار لا يخلو إما أن يراد به منتظرة ربها أو منتظرة ثوابه ، وعلى أي الوجهين حُمل فهو خطأ ؛ لأن المنتظر لما ينتظره في تنغيص وتكدير ، والله - تعالى - قد

---

(١) من « هـ » . (٢) القيامة : ٢٢ - ٢٣ .

(٣) في « الأصل » : نعيم . والمثبت من « هـ » .

(٤) في « الأصل » : بعض . والمثبت من « هـ » . (٥) الزخرف : ٦٦ .

وصف [أهل] [1] الجنة بغير ذلك وأن لهم فيها [ما يشاءون] [2] . فبطل كون النظر في الآية بمعنى الاعتبار والتفكر؛ لأن الآخرة ليست بدار اعتبار وتفكر؛ إذ ليست بدار محنة وعبادة؛ ولأن ذاته - تعالى- ليست مما يعتبر بها ؛ فبطل قولهم . ويبطل كون النظر في الآية بمعنى التعطف والرحمة ؛ لأن ذاته - تعالى - ليست مما يتعطف عليها وترحم .

فإذا بطلت هذه الأقسام الثلاثة ؛ صح القسم الرابع وهو النظر إلى ربها بمعنى الرؤية بالأبصار له تعالى ، وهو ما ذهب إليه جمهور المسلمين قبل حدوث [القائلين] [3] بهذه الضلالة ، وشهدت له السنن الثابتة من الطرق المختلفة .

وما احتج به من نفى الرؤية من أنها توجب كون المرئي محدثًا فهو فاسد ؛ لقيام الدلائل على أن الله - تعالى - موجود وأن الرؤية منزلتها في تعلقها بالمرئي منزلة العلم في تعلقه بالمعلوم ، فكما أن العلم المتعلق بالموجود لا يختص بموجود دون موجود ، ولا توجب تعلقه به حدثه كذلك للرؤية في تعلقها بالمرئي لا يوجب حدثه .

واحتج نفاة الرؤية بقوله تعالى : ﴿ **لا تدركه الأبصار** ﴾ [4] ، وبقوله تعالى لموسى : ﴿ **لن تراني** ﴾ [5] في جواب سؤاله الرؤية ، وهذا لا تعلق لهم فيه ؛ لأن قوله : ﴿ **لا تدركه الأبصار** ﴾ [4] وقوله : ﴿**لن تراني**﴾ [5] لفظ عام، وقوله: ﴿ **وجوه يومئذ ناضرة إلى ربها ناظرة**﴾[6] خاص ، والخاص يقضي على العام ويبينه ، فمعنى الآية لا تدركه الأبصار في الدنيا ؛ لأنه تعالى قد أشار إلى أن المراد بقوله : ﴿ **وجوه يومئذ ناضرة إلى ربها ناظرة** ﴾ [6] الآخرة ؛ لقوله :

---

(1) من « هـ » . (2) في « الأصل » : ما يشاءوا . والمثبت من « هـ » .
(3) في « الأصل » : العالمين . والمثبت من « هـ » . (4) الأنعام : ١٠٣ .
(5) الأعراف : ١٤٣ . (6) القيامة : ٢٢ - ٢٣ .

يومئذ ، وكذلك يكون معنى قوله لموسى : ﴿ لن تراني ﴾[1] في الدنيا، ولأنه قد ثبت أن نفي الشيء لا يقتضي إحالته ؛ بل قد يتناول المستحيل وجوده والجائز وجوده ، فلا تعلق لهم بالآيتين مع ما يشهد لصحة الرؤية لله - تعالى - من الأحاديث الثابتة التي تلقاها المسلمون بالقبول من عصر الصحابة والتابعين - رضي الله عنهم أجمعين إلى حدوث المارقين المنكرين للرؤية .

وأما وصفه عليه السلام لله - تعالى - بالإتيان بقوله : « فيأتيهم الله» . فليس على معنى الإتيان المعهود [فيما] [2] بيننا الذي هو انتقال وحركة ؛ لاستحالة وصفه بما توصف به الأجسام ، فوجب حمله على أنه يفعل فعلا يسميه إتيانًا وصف تعالى به نفسه ، ويحتمل أن يكون الإتيان المعهود فيما بيننا خلقه تعالى لغيره من ملائكة فأضافه إلى نفسه كما يقول القائل : قطع الأمير اللص، وهو لم يل ذلك بنفسه إنما أمر به .

وأما وصفه تعالى بالصورة في قوله : [فيأتيهم] [3] الله في صورته. ففيه إيهام للمجسمة أنه تعالى ذو صورة، ولا حجة لهم فيه؛ لأن الصورة هاهنا يحتمل أن تكون بمعنى العلامة وضعها الله -تعالى- دليلا لهم على معرفته والتفرقة بينه وبين مخلوقاته ، فسمى الدليل والعلامة صورة مجازًا كما تقول العرب : صورة حديثك كيت وكيت، وصورة أمرك كذا وكذا ، والحديث والأمر لا صورة لهما ، وإنما يريدون حقيقة حديثك وأمرك كذا وكذا .

قال المهلب: وأما قوله : « فإذا رأينا ربنا عرفناه » فإنما ذلك أن الله-

---

(١) الأعراف : ١٤٣ . (٢) في « الأصل » : مما . والمثبت من « هـ » .
(٣) في « الأصل » : فيأتيكم . والمثبت من « هـ » .

تعالى - يبعث إليهم ملكًا ليفتنهم ويختبرهم في اعتقاد صفات ربهم الذي ليس كمثله شيء فإذا قال لهم الملك : أنا ربكم ، رأوا عليه دليل الخلقة التي تشبه المخلوقات فيقولون : هذا مكاننا حتى يأتينا ربنا فإذا جاءنا عرفناه . أي أنك لست ربنا ، فيأتيهم الله في صورته التي يعرفون أي يظهر إليهم في ملك لا ينبغي لغيره وعظمة لا تشبه شيئًا من مخلوقاته، فيعرفون أن ذلك الجلال والعظمة لا تكون لغيره، فيقولون : أنت ربنا لا يشبهك شيء . فالصورة يعبر بها عن حقيقة الشيء .

وأما قوله : « فيقال : هل بينكم وبينه آية تعرفونها ؟ فيقولون : الساق » فهذا يدل - والله أعلم - أن الله عرف المؤمنين على ألسنة الرسل يوم القيامة أو على ألسنة الملائكة المتلقين لهم بالبشرى أن الله قد جعل علامة تجليه لكم الساق / وعرفهم أنه سيبتلي المكذبين بأن يرسل [٤/ق٢٣١-ب] إليهم من يقول : أنا ربكم . فتنة لهم ويدل على ذلك قوله تعالى : ﴿يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة﴾ [(١)] في سؤال القبر ، وفي هذا الموطن ، وقال ابن عباس في قوله تعالى: ﴿يوم يكشف عن ساق﴾ [(٢)] عن شدة الأمر ، وروي عن عمر بن الخطاب في قوله تعالى : ﴿والتفت الساق بالساق﴾ [(٣)] أي : أعمال الدنيا بمحاسبة الآخرة . وذلك أمر عظيم ، والعرب تقول : قامت الحرب على ساق . إذا كانت شديدة [فيظهر] [(٤)] الله على الخلائق هذه الشدة التي لا يكون مثلها من مخلوق ليبكت بها الكافرين ، وينزع عنهم قدرتهم التي كانوا يدعونها ، فيعلمون حينئذ أنه الحق ، فيذهبون إلى السجود مع المؤمنين لما يرون من العظمة والشدة فلا

---

(١) إبراهيم : ٢٧ .
(٢) القلم : ٤٢ .
(٣) القيامة : ٢٩ .
(٤) في « الأصل » : يظهر . والمثبت من « هـ » .

يستطيعون ؛ فيثبت الله المؤمنين فيسجدون له ، وذكر ابن فورك قال : روى أبو موسى الأشعري عن النبي - عليه السلام - في قوله تعالى : ﴿ **يوم يكشف عن ساق** ﴾ (١) قال : عن [نور] (٢) عظيم قال : ومعنى ذلك ما يتجدد للمؤمنين عند رؤية الله - تعالى - من الفوائد والألطاف ، ويظهر لهم من فضل سرائرهم التي لم يطلع [عليها غيره] (٣) تعالى .

قال المهلب : هذا يدل أن كشف الساق للكافرين نقمة وعذاب ، وللمؤمنين نور ورحمة ونعمة ، والضحك منه تعالى بخلاف ما هو فينا وهو بمعنى إظهاره لعباده لطائف وكرامة لم تكن تظهر لهم قبل ذلك ، والضحك المعهود فيما بيننا هو إظهار الضاحك لمن شاهده ما لم يكن يظهر له منه قبل من كشره عن أسنانه .

وأما قوله عليه السلام : « ويبقى من كان يسجد لله رياء وسمعة ، فيذهب كيما يسجد فيعود ظهره طبقًا واحدًا » هذا استدل به من أجاز تكليف ما لا يطاق وهو مذهب الأشعرية قالوا : جائز في حكم الله أن يكلف عباده ما لا يطيقون ، واحتجوا على ذلك بأن الله - تعالى - قد كلف أبا لهب الإيمان به مع إعلامه تعالى له أنه لا يؤمن ، وأنه يموت على الكفر الذي له يصلى نارًا ذات لهب .

ومنع الفقهاء من ذلك ، وقالوا : لا يجوز أن يكلف الله عباده ما لا يطيقون واحتجوا بقوله تعالى : ﴿ **لا يكلف الله نفسًا إلا وسعها** ﴾ (٤) قالوا: وقدا أخبر فلا يجوز أن يقع بخلاف خبره ، وقالوا : ليس في

---

(١) القلم : ٤٢ . (٢) في « الأصل » : ثور . والمثبت من « هـ » .
(٣) في « الأصل » : عليه عنده . والمثبت من « هـ » .
(٤) البقرة : ٢٨٦ .

قوله تعالى : ﴿ **يوم يكشف عن ساق ويدعون إلى السجود فلا يستطيعون** ﴾ (١) حجة لمن خالفنا ؛ لأنهم إنما يدعون إلى السجود تبكيتًا لهم ؛ إذ أدخلوا أنفسهم بزعمهم في جملة المؤمنين الساجدين في الدنيا وعلم الله منهم الرياء في سجودهم ، فدعوا في الآخرة إلى السجود كما دعي المؤمنون المحقون ؛ فتعذر السجود عليهم وعادت ظهورهم طبقًا واحدًا ، وأظهر الله عليهم نفاقهم ؛ فأخزاهم وأوقع الحجة عليهم ، فلا حجة في هذه الآية لهم ، ومثل هذا من التبكيت قوله تعالى للكفار : ﴿ **ارجعوا وراءكمْ فالتمسوا نورًا فضرب بينهم بسور** ﴾ (٢) وليس في هذا شيء من تكليف ما لا يطاق ، وإنما هو خزي وتوبيخ .

ومثله قوله عليه السلام : « من كذب في [حلمه] (٣) كلف يوم القيامة أن يعقد بين شعيرتين وليس بعاقدهما » فهذه عقوبة وليس من تكليف ما لا يطاق .

وأما قوله عليه السلام : « فيشفع النبيون والملائكة والمؤمنون » ففيه حجة لأهل السنة في إثباتهم الشفاعة ، وقد تقدم .

وقوله : « فأستأذن على ربي في داره » فداره جنته ، ولا تعلق فيه للمجسمة أنه تعالى في مكان ؛ لأن قوله : « في داره » يحتمل أن تكون هذه الإضافة لله إضافة فعل كسائر ما أضافه إلى نفسه تعالى من أفعاله ، ويحتمل أن يكون [قوله] (٤) في داره . راجعًا إلى النبي تأويله : فأستأذن على ربي وأنا في داره . فالظرف والمكان هاهنا للنبي ﷺ لا لله - تعالى - لقيام الدليل على استحالة حلوله في المواضع .

---

(١) القلم : ٤٢ . (٢) الحديد : ١٣ .

(٣) في « الأصل » : منامه . والمثبت من « هـ » . (٤) من « هـ » .

وقوله : « حتى تلقوا الله ورسوله فإني على الحوض » ففيه إثبات الحوض له عليه السلام خلافًا لمنكريه من المعتزلة وغيرهم ممن يدفع أخبار الآحاد ، وجمهور الأمة على خلافهم مؤمنون بالحوض على ما ثبت في السنن الصحاح .

وقوله : « ما منكم من أحد إلا سيكلمه ربه ليس بينه وبينه حجاب ولا ترجمان » ففيه إثبات الرؤية لله - تعالى - وإثبات كلامه لعباده .

ورفع الحجاب بينه تعالى وبين خلقه هو تجليه لهم ، وليس ذلك بمعنى الظهور والخروج من سواتر وحجب حائلة بينه وبين عباده ؛ لأن [٤/ق٢٣٢-أ] ذلك من أوصاف الأجسام وهو / مستحيل على الله ، وإنما رفع الحجاب بمعنى إزالته [الآفات من أبصار خلقه المانعة لهم من رؤيته ؛ فيرونه لارتفاعها] [(١)] عنهم بخلق ضدها فيهم ، وهو الرؤية ، وبخلاف هذا وصف الله الكفار فقال : ﴿ **كلا إنهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون** ﴾ [(٢)] فالحجاب هنا الآفة المانعة لهم من رؤيته التي لو فعل تعالى ضدها فيهم لرأوه ، وهي التي فعل في المؤمنين .

وقوله في الحديث الآخر : « وما بين القوم وبين أن ينظروا إلى ربهم إلا رداء الكبرياء على وجهه في جنة عدن » فلا تعلق فيه للمجسمة في إثبات الجسم والمكان لما تقدم من استحالة كونه جسمًا أو حالا في مكان ؛ فوجب أن يكون تأويل الرداء مصروفًا إلى أن المراد به الآفة المانعة لهم من رؤيته الموجودة بأبصارهم ، وذلك فعل من أفعاله تعالى يفعله في محل رؤيتهم له بدلا من فعله الرؤية ، فلا يرونه ما دام ذلك المانع المسمى رداء موجودًا بمحل رؤيتهم له ، فإذا فعل الرؤية انتفى ذلك المانع لهم من رؤيته وسماه رداء مجازًا واتساعًا ؛ إذ منزلته في

---

(١) بياض بالأصل . والمثبت من « هـ » .　　(٢) المطففين : ١٥ .

المنع من رؤيته منزلة الرداء وسائر ما يحتجب به والله - تعالى - لا يليق به الحجب والأستار ؛ إذ ذاك من صفات الأجسام .

وقوله . « على وجهه » المراد به : أن الآفة المانعة لهم من رؤية وجهه تعالى التي هي صفة من صفات ذاته كأنها على وجهه ؛ لكونها في أبصارهم ومانعة لهم من رؤيته ، فعبر عن هذا المعنى بهذا اللفظ ، والمراد به غير ظاهره ؛ إذ يستحيل كون وجهه محجوبًا برداء أو غيره من الحجب ؛ إذ ذاك من صفات الأجسام .

وقوله : « في جنة عدن » ليس بمكان له تعالى ، وإنما هو راجع إلى القوم كأنه قال : وما بين القوم وبين أن ينظروا إلى ربهم وهم في جنة عدن إلا المانع المخلوق في محل رؤيتهم له من رؤيته فلا حجة لهم فيه .

وقوله في حديث أبي سعيد : « ونحن أحوج [منا إليه] [1] اليوم». لا يخرج معناه إلا أن يكون بمعنى محتاجين ، وهذا موجود في القرآن قال تعالى : ﴿ **إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله** ﴾ [2] بمعنى عالم ، فسقط على هذا التأويل شيئًا من تقدير الكلام ، ومعناه : فارقناهم : يريد من لم يعبد الله . ونحن أحوج ما كنا إليه : يعنون الله .

وقوله : « فما أنتم بأشد لي مناشدة في الحق قد تبين لكم من المؤمن يومئذ للجبار ، فإذا رأوا أنهم قد نجوا في إخوانهم » يريد أن المؤمنين إذا نجوا من الصراط يناشدون الله في إخوانهم ويشفعون فيهم فيقول الله - عز وجل - : « اذهبوا فمن [وجدتم] [3] في قلبه مثقال

---

(١) في « الأصل » : إليه منه . والمثبت من « هـ » .   (٢) النجم ٣٠ .
(٣) في « الأصل » : وجد . والمثبت من « هـ » .

نصف دينار . . . إلى مثقال ذرة من إيمان فأخرجوه ، فيخرجون من عرفوا من النار » وفي هذا إثبات شفاعة المؤمنين بعضهم لبعض .

وقوله : « في جهنم كلاليب » جمع كلوب ، وهو الذي يتناول به الحداد الحديد من النار ، والخطاطيف جمع خطاف ، والخطاف حديدة معوجة الطرف يجذب بها الأشياء ، قال النابغة :

خطاطيف حجن في حبال متينة

والحسك : معروف ، وهو شيء مضرس ذو شوك ينشب [به] (١) كل ما مر به .

وقوله : [مفلطحة فهو كل شيء عريض] (٢) قال ابن دريد: فطحت العود إذا بريته ثم عرضته ، وفطح الأنف - بكسر الطاء - فطحًا : لصق بالوجه ، والبقر كلها فطح وخنس .

وقوله : « فمنهم الموبق بعمله » يعني : الهالك بذنوبه . يقال : أوبقت فلانًا ذنوبه أي : أهلكته .

وقوله : « ومنهم المخردل » قال صاحب العين : خردلت اللحم : فصلته ، وخردلت الطعام : أكلت خياره . وقال غيره : خردلته : صرعته، وهذا الوجه يوافق معنى الحديث ، والجردلة - بالجيم - الإشراف على السقوط والهلكة .

وقوله : « امتحشوا » قال صاحب العين : المحش: إحراق الجلد ، وامتحش [الجلد] (٣) احترق ، وألسنة المحوش : اليابسة .

وقال صاحب الأفعال : محشت النار الشيء محشًا : أحرقته لغة،

---

(١) في « الأصل » : فيه .

(٢) في « الأصل » : مطلحفة . والمثبت من « هـ » .

(٣) في « الأصل » : الخبز . والمثبت من « هـ » .

والمعروف أمحشته، وكان أبو زيد ينكر محشته، وقعد يومًا إلى أبي حنيفة فسمعه يقول: قال رسول الله ﷺ: « يخرج من النار قوم قد محشتهم النار » . فقال أبو زيد: ليس كذلك الحديث -يرحمك الله- إنما هو: « أمحشتهم النار » فقال أبو حنيفة : من أي موضع أنت ؟ قال أبو زيد: من البصرة . قال أبو حنيفة : أبالبصرة مثلك ؟ قال أبو زيد : إني لمن أخس أهلها . فقال أبو حنيفة: طوبى لبلد أنت أخس أهلها .

والحبة : بزور البقل ، وقد ذكرته في كتاب الإيمان / [في باب [٤/ق٢٣٢-ب] تفاضل أهل الإيمان في الأعمال] (١) وقال أبو عبيد : وأما الحبة فكل ما ينبت له حب فاسم الحب منه الحبة .

وقال الفراء : الحبة بزور البقل . وقال أبو عمرو : الحبة نبت ينبت في الحشيش صغار . وقال الكسائي : الحبة حب الرياحين وواحد الحبة حبة .

وأما الحنطة ونحوها فهو الحب لا غير .

وقال الأصمعي : الحميل ما حمله السيل من كل شيء وكل محمول فهو حميل كما يقال للمقتول قتيل .

وقوله : « قشبني ريحها » تقول العرب : قشبت الشيء : قذرته وقشبت الشيء - بكسر الشين - قشبًا قذر عن صاحب الأفعال .

وقال ابن قتيبة : قشبني ريحها من القشب والقشب : السم كأنه قال: سمني ريحها ، ويقال لكل مسموم قشيب . وقال الخطابي : قشبه الدخان إذا ملأ خياشيمه وأخذ يكظمه وإن كانت ريحه طيبة ، وأصل القشب خلط السم بالطعام يقال: قشبه إذا سمه [وقشبتنا] (٢) الدنيا فصار حبها كالسم الضار ، ثم قيل على هذا قشبه الدخان والريح الذكية إذا بلغت منه الكظم .

---

(١) من « هـ » . (٢) في « الأصل » : وقشبت . والمثبت من « هـ » .

وقوله : انفهقت يعني : اتسعت وفهق الغدير فهقًا إذا امتلأ ومنه التفيهق في القول ، وهو كثرة الكلام . وغبرات : بقايا وكذلك غبر الشيء بقيته ؛ وقوله: الجسر مدحضة مزلة. يقال دحضت رجله دحضًا زلقت ، والدحض ما يكون عنه الزلق ، ودحضت الشمس عن كبد السماء : زالت ، ودحضت حجته : بطلت ، والمزلة : موضع الزلل، فزلت الأقدام : سقطت ، وقوله : مكدوس في نار جهنم .

قال صاحب العين : التكدس في سير الدواب : ركوب بعضها بعضًا ، والكدس ما يجمع من طعام وغيره ، وأفواه الجنة : أبوابها واحدها فوهة، وفي كتاب العين الفوهة : فم النهر وفم الزقاق .

* * *

باب : قوله تعالى : ﴿ إن رحمة الله قريب من المحسنين﴾[1]

فيه : أسامة: « كان ابن لبعض بنات النبي - عليه السلام - [يقضي][2] إلى قوله : « فبكى النبي - عليه السلام - فقال سعد : أتبكي ؟ فقال : إنما يرحم الله من عباده الرحماء » .

وفيه : أبو هريرة قال النبي - عليه السلام - : « اختصمت الجنة والنار إلى ربهما ، فقالت الجنة : يا رب ما لها لا يدخلها إلا ضعفاء الناس وسقطهم؟ وقالت النار: أوثرت بالمتكبرين والمتجبرين . فقال للجنة : أنت رحمتي، وقال للنار: أنت عذابي أصيب بك من أشاء ، ولكل واحدة منكما ملؤها ، فأما الجنة فإن الله لا يظلم من خلقه أحدًا، وأما النار فإنه ينشئ الله [لها] [3] خلقًا فيلقون فيها ، فتقول: هل من مزيد ثلاثا ، حتى يضع فيها قدمه فتمتلئ ويرد بعضها إلى بعض وتقول: قط قط قط » .

---

(١) الأعراف : ٥٦ . (٢) في « الأصل » : يقبض . والمثبت من «هـ،ن» .
(٣) في « الأصل » : له . والمثبت من « هـ » .

وفيه : أنس قال عليه السلام : « ليصيبن أقوامًا سفع من النار بذنوبٍ أصابوها عقوبة ، ثم يدخلهم الله الجنة بفضل رحمته ، فيقال لهم الجهنميون » .

[قال المؤلف :] [1] الرحمة تنقسم قسمين : تكون صفة ذات لله ، وتكون صفة فعل ، فصفة الذات مرجوع [بها] [2] إلى إرادته - تعالى - إثابة الطائعين من عباده ، وقوله تعالى : ﴿ **إن رحمة الله قريب من المحسنين** ﴾ [3] يحتمل الرحمة هاهنا أن تكون صفة ذات ترجع إلى إرادته إثابة المحسنين كما قلنا وإرادته صفة ذاته .

ومثله قوله عليه اللام : « إنما يرحم الله من عباده الرحماء » معناه إنما يريد إثابة الرحماء لعباده من خلقه ، ويحتمل أن تكون صفة فعل فيكون المعنى أن نعمة الله على عباده ورزقه لهم ونزول المطر وشبهه قريب من المحسنين ، فسمى ذلك رحمة لهم لكونه بقدرته وعن إرادته مجازًا واتساعًا ؛ لأن من عادة العرب تسمية الشيء باسم سببه وما يتعلق به ضربًا من التعلق ، وعلى هذا المعنى سمى الله الجنة رحمةً فقال : « أنت رحمتي » فسماها مع كونها [فعلاً] [4] من أفعاله رحمةً ؛ إذ كانت حادثةً بقدرته وإرادته تنعيم الطائعين من عباده .

قال المهلب : وأما اختصام الجنة والنار فيجوز أن يكون حقيقةً ، ويجوز أن يكون مجازًا ، فكونه حقيقةً يخلق الله فيهما حياةً وفهمًا وكلامًا لقيام الدليل على كونه تعالى قادرًا على ذلك ، وكونه مجازاً واتساعًا فهو [على] [1] ما تقوله العرب من نسبة الأفعال إلى ما لا يجوز وقوعها منه في تلك الحال كقولهم : امتلأ الحوض وقال قطني . والحوض لا يقول ، وإنما ذلك عبارة عن امتلائه ، و أنه لو

---

(١) من « هـ » . (٢) في « الأصل » : لها . والمثبت من « هـ » .
(٣) الأعراف : ٥٦ . (٤) في « الأصل » : فعل . والمثبت من « هـ » .

[٤/ق٢٣٣-أ] كان [ممن] [١] يقول لقال / ذلك ، وقولهم : قالت الضفدع ، وعلى هذين التأويلين يحمل قوله تعالى : ﴿ **وتقول هل من مزيد** ﴾[٢] ، واختصام الجنة والنار هو افتخار بعضهما على بعض بمن يسكنهما ، فالنار تتكبر بمن يلقي فيها من المتكبرين وتظن أنها آثر بذلك عند الله من [الجنّة] [٣] وسقط قول النار من هذا الحديث في جميع النسخ ، وهو محفوظ في الحديث : « وقالت النار : أوثرت بالمتكبرين والمتجبرين » رواه ابن وهب ، عن مالك ، عن أبي الزناد ، عن الأعرج ، عن أبي هريرة [من رواية] [٤] الدارقطني ، وتظن الجنة ضد ذلك [لقولها] [٥] : « ما لي لا يدخلني إلا ضعفاء الناس وسقطهم » فكأنها أشفقت من إيضاع المنزلة عند الرب - تعالى - .

فحكم تعالى للجنة بأنها رحمته لا يسكنها إلا الرحماء من عباده ، وحكم للنار بأنها عذابه يصيب بها من يشاء من المتكبرين ، وأنه ليس [لإحديهما] [٦] فضل من طريق من يسكنها الله - تعالى - من خلقه ، [إذ هما اللتان للرحمة والعذاب ، ولكن قد قضى لهما بالملء من خلقه] [٧] .

وقوله : « وينشئ للنار خلقًا » يريد من قد شاء أن يلقي فيها ممن قد سبق له الشقاء ممن عصاه وكفر به ، قاله المهلب .

وقال غيره : ينشئ الله لها خلقًا لم يكن في الدنيا ، قال : وفيه حجة لأهل السنة في قولهم إن لله أن يعذب من لم يكن يكلفه عبادته في الدنيا ولا يخرجه إليها لقوله : ﴿ **ويفعل الله ما يشاء** ﴾ [٨] بخلاف

---

(١) في « الأصل » : من . والمثبت من « هـ » . (٢) سورة ق : ٣٠ .
(٣) في « الأصل » : النار والمثبت من « هـ » .
(٤) في الأصل : ورواه . والمثبت من « هـ » .
(٥) في « الأصل » : لهولها . والمثبت من « هـ » .
(٦) في « الأصل » : لأحدهما، وفي « هـ » : لإحداهما .
(٧) من « هـ » . (٨) إبراهيم : ٢٧ .

من يقول إن الله لو عذّب من لم يكلفه لكان ظالمًا ، وهذا الحديث حجة عليهم .

وقوله : « حتى يضع فيها قدمه » قد تقدم في باب قوله: ﴿ وهو العزيز الحكيم ﴾ [1] [من كتاب التوحيد] [2] .

* * *

باب : قوله تعالى : ﴿ إن الله يمسك السموات والأرض أن تزولا ﴾ [3] الآية

فيه : عبد الله بن مسعود : « جاء حبر إلى النبي - عليه السلام - فقال : يا محمد، إن الله يضع السماء على إصبع، والأرض على إصبع، والجبال على إصبع، والشجر والأنهار على إصبع ، وسائر الخلائق على إصبع ، ثم يقول بيده أنا الملك، فضحك النبي وقال :وما قدروا الله حق قدره ».

وقد تقدّم تفسير هذا الحديث في باب قوله تعالى : ﴿ **لما خلقت بيدي**﴾ [4] قال المهلب : فإن قيل :ما وجه حديث الحبر في هذا الباب مع قوله : ﴿ **إن الله يمسك السموات والأرض أن تزولا** ﴾ [3] وظاهر الآية وعمومها يقتضي أن [السموات] [5] والأرض ممسكة بغير آلة يعتمد عليها ، وقد ذكر الحبر للنبي - عليه السلام - أن الله يمسك السموات على إصبع والأرض على إصبع ، فدل أن حديث الحبر وتفسيره الإمساك بالأصابع هذا لبيان المجمل من الإمساك في الآية ؟

قيل له : ليس كما توهمت ، وتفسير النبي ورده على الحبر ، وقوله: ﴿ **وما قدروا الله حق قدره** ﴾ [6] هو رد لما توهمه الحبر من

---

(١) إبراهيم : ٤ وغيرها .
(٢) في « الأصل » : في أول هذا الخبر . والمثبت من « هـ » .(٣) فاطر : ٤١ .
(٤) سورة ص : ٧٥ . (٥) من « هـ » .
(٦) الأنعام : ٩١ ، الزمر : ٦٧ .

الأصابع أي أن الله أجل مما قدرت ، وذلك أن اليهود تعتقد التجسيم ، فنفى النبي - عليه السلام - ذلك عنه بقوله : ﴿ **وما قدروا الله حق قدره**﴾ (١) فإن قيل : فإن تصديق النبي ﷺ للحبر وتعجبه من قوله يدل أنه لم ينكر قوله كل الإنكار ، ولو لم يكن لقوله بذكر الأصابع وجه لأعلن بإبطاله . فالجواب : أنه لو كانت السموات وغيرها مفتقرة إلى الأصابع لكانت الأصابع مفتقرة إلى أمثالها تعتمد عليها ، وأمثال أمثالها إلى مثلها ، ثم كذلك إلى ما لا نهاية له ، وهذا فاسد ، وقد تقدم قول الأشعري وابن فورك وأن الإصبع يجوز أن تكون صفة ذات الله - تعالى - ويجوز أن تكون صفة خلق له من بعض ملائكته كلفهم حمل الخلائق وتعبّدهم بذلك من غير حاجة إليهم في حملها ، بل الباري ممسكهم وممسك ما يحملونه بقدرته تعالى ، ويصدق هذا التأويل قوله : ﴿ **ويحمل عرش ربك فوقهم يومئذ ثمانية** ﴾ (٢) .

* * *

باب : ما جاء في خلق السموات والأرض وغيرهما من المخلوقات

وهو فعل الربّ تعالى وأمره ، فالرب تعالى بصفاته وأمره وقوله [هو](٣) الخالق المكون غير مخلوق [وما] (٤) كان بفعله وأمره [وتخليقه وتكوينه] (٤) فهو مفعول [مكون] (٥) مخلوق .

فيه : ابن عباس : « بت في بيت ميمونة ليلةً والنبي عندها لأنظر كيف صلاة النبي، فتحدث النبي -عليه السلام- مع أهله ساعةً ثم رقد ، فلما كان ثلث الليل الآخر أو بعضه، قعد فنظر إلى السماء فقرأ: ﴿إن في خلق السموات والأرض﴾ إلى قوله: ﴿ لأولي الألباب ﴾ (٦) » /[الحديث . [٤/ق٢٣٣-ب]

(١) الأنعام : ٩١ ، الزمر : ٦٧ .
(٢) الحاقة : ١٧ .
(٣) في « الأصل » : تعالى . والمثبت من « هـ » .
(٤) من « هـ ، ن » .
(٥) في « الأصل »: فيكون . والمثبت من «هـ، ن» .
(٦) آل عمران : ١٩ .

غرضه في] [1] هذا الباب أن يعرفك أن السموات والأرض وما بينهما كل ذلك مخلوق لقيام دلائل الحدث بها من الآيات المشاهدات، من انتظام الحكمة واتصال المعيشة للخلق فيهما ، وقام برهان [العقل][2] على ألا خالق غير الله وبطل قول من يقول أن الطبائع خالقة العالم ، وأن الأفلاك السبعة هي الفاعلة ، وأن النور والظلمة خالقان ، وقول من زعم أن العرش هو الخالق .

وفسدت جميع هذه الأقوال لقيام الدليل على حدوث ذلك كله وافتقاره إلى محدث لاستحالة وجود محدث لا محدث له ، كاستحالة وجود مضروب لا ضارب له ، وكتاب الله شاهد بصحة هذا ، وهو قوله تعالى : ﴿ **هل من خالق غير الله** ﴾ [3] فنفى خالقًا سواه ، وقال تعالى: ﴿ **أم جعلوا لله شركاء خلقوا كخلقه** ﴾ [4] وقال عقيب ذلك : ﴿**فتشابه الخلق عليهم** ﴾ [4] ثم قال لنبيّه : ﴿ **قل الله خالق كل شيء وهو الواحد القهار** ﴾ [4] ودلّ على ذلك أيضًا بقوله تعالى : ﴿**إن في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولي الألباب**﴾ [5] .

فاستدل بآيات السموات والأرض على قدرة الله ووحدانيته فوجب أن يكون الخلاق العليم بجميع صفاته من الخلق [والأمر] [6] والفعل والسمع والبصر والتكوين للمخلوقات كلها خالقًا غير مخلوق الذات والصفات، وأن القرآن صفة له غير مخلوق، ووجب أن يكون الخالق مخالفًا لسائر المخلوقات، ووجه خلافه لها انتفاء قيام الحوادث عنه الدالة على حدث من تقوم به، ولزم أن يكون ما سواه من مخلوقاته التي كانت عن قوله وأمره وفعله وتكوينه مخلوقات له، هذا موجب العقل .

---

(١) بياض بالأصل . والمثبت من « هـ » .
(٢) في « الأصل » : الخلق.
(٣) فاطر : ٣ .
(٤) الرعد : ١٦ .
(٥) آل عمران : ١٩٠ .
(٦) من « هـ » .

باب : قوله : إنما أمرنا لشيء [1] الآية

فيه : المغيرة : سمعت النبي - عليه السلام - يقول : « لا يزال من أمتي قوم ظاهرين على الناس حتى يأتيهم أمر الله » وقال مرةً : « لا تزال من أمتي أمة قائمة لا يضرهم من كذبهم ولا من خالفهم » قال معاوية : وهم بالشام .

وفيه : ابن عباس : « وقف النبي ﷺ على مسيلمة في أصحابه فقال : لو سألتني هذه القطعة ما أعطيتكها ، ولن تعدو أمر الله فيك ، ولئن أدبرت ليعقرنك الله » .

وفيه : ابن مسعود : « بينما أنا أمشي مع النبي - عليه السلام - وهو يتوكأ على عسيب فمررنا على نفر من اليهود ، فسألوه عن الروح فأنزل عليه : ﴿ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربي﴾ [2] الآية .

غرضه في هذا الباب الرد على المعتزلة في قولهم: إن أمر الله الذي هو كلامه مخلوقه ، فأراد البخاري أن يعرفك أن الأمر هو قوله للشيء إذا أراده كن فيكون بأمره له وأن أمره وقوله في معنى واحد، وذلك غير مخلوق وأنه سبحانه يقول كن على الحقيقة ، وأن الأمر غير الخلق لقوله تعالى : ﴿ ألا له الخلق والأمر ﴾ [3] . ففصل بينهما بالواو وهو قول جميع أهل السنة ، وزعمت المعتزلة أن وصفه نفسه بالأمر

---

(١) كذا بالأصل و« هـ » ، والصواب : ﴿ إنما قولنا لشيء ﴾ وهي في سورة النحل رقم ٤٠ . ونقل الحافظ ابن حجر في الفتح (٤٥١/١٣) عن القاضي عياض أنه قال : كذا وقع لجميع الرواة عن الفربري من طريق أبي ذر والقابسي وغيرهم ، وكذا وقع في رواية النسفي ، وصواب التلاوة : ﴿ إنما قولنا ﴾ وكأنه أراد أن يترجم بالآية الأخرى ﴿ وما أمرنا إلا واحدة كلمح بالبصر ﴾ [القمر : ٥٠] وسبق القلم إلى هذه . قال الحافظ : وقع في نسخة معتمدة من رواية أبي ذر ﴿إنما قولنا ﴾ على وفق التلاوة ، وعليها شرح ابن التين ، فإن لم يكن من إصلاح من تأخر عنه ، وإلا فالقول ما قاله القاضي عياض .

(٢) الإسراء : ٨٥ . (٣) الأعراف : ٥٤ .

وبالقول في هذه الآية مجاز واتساع على نحو ما تقول العرب : قال الحائط فمال وامتلأ الحوض، وقال قطني. وقولهم فاسد ؛ لأنه عدول عن ظاهر الآية وحملها على غير حقيقتها، وإنما وجب حمل الآية على ظاهرها وحقيقتها لثبات كونه حيًا، والحي لا يستحيل أن يكون متكلمًا.

وقوله عليه السلام : « حتى يأتيهم أمر الله » يعني أمر الله بالساعة. وقوله : « لن تعدو أمر الله فيك » أي ما قدر فيك من الشقاء أو السعادة . وقوله : ﴿ **قل الروح من أمر ربي**﴾ [1] أي من أمره المتقدّم بما [سبق] [2] في علمه من القضاء المحتوم الذي أمر به الملك أن يكتبه في بطن أمه قبل نفخ الروح فيه .

* * *

باب : في المشيئة والإرادة وقوله تعالى :

﴿ تؤتي الملك من تشاء ﴾[3] ﴿ وما تشاءون إلا أن يشاء الله رب العالمين ﴾[4] ﴿ ولا تقولن لشيء إني فاعل ذلك / غداً إلا أن يشاء الله﴾[5] ﴿ إنك لا تهدي من أحببت ولكن الله يهدي من يشاء ﴾[6] قال سعيد بن المسيب عن أبيه : نزلت في أبي طالب

[٤/ق٢٣٤-أ]

معنى هذا الباب : إثبات المشيئة والإرادة لله - تعالى - وأن مشيئته وإرادته ورحمته وغضبه وسخطه وكراهيته كل ذلك بمعنىً واحد أسماء مترادفة هي راجعة كلها إلى معنى الإرادة ، كما يسمى الشيء الواحد بأسماء كثيرة، وإرادته تعالى هي صفة من صفات ذاته خلافًا لمن يقول من المعتزلة أنها مخلوقة من أوصاف أفعاله، وقولهم فاسد لأنهم إذا أثبتوه تعالى مريدًا ، وزعموا أن إرادته محدثة لم تخل من أن يحدثها في

---

(١) الإسراء : ٨٥ . (٢) في « الأصل » : يستوي . والمثبت من « هـ » .
(٣) آل عمران : ٢٦ . (٤) التكوير : ٢٩ .
(٥) الكهف : ٢٣ . (٦) القصص : ٥٦ .

نفسه أو في غيره ، أو لا في نفسه ولا في غيره ، وهذا الذي ذهبوا إليه، فيستحيل إحداثه لها في نفسه ؛ لأنه لو أحدثها في نفسه لم يخل منها ومن ضدها على سبيل التعاقب ، ولا يجوز تعاقب الحوادث على الله - تعالى - لقيام الدليل على قدمه قبلها، ويستحيل أن يحدثها في غيره ؛ لأنه لو أحدثها في غيره لوجب أن يكون ذلك الغير [مريدًا](١) بها دونه ، [فبطل] (٢) كونه [مريدًا] (٣) بإرادة أحدثها في غيره كما يبطل كونه عالمًا بعلم يحدثه فيه ، أو قادرًا بقدرة يحدثها فيه ؛ لأن قياس ذلك كله واحد ، ومن شرط المريد وحقيقته أن تكون الإرادة موجودةً فيه دون من سواه ، ويستحيل إحداثه لها لا في نفسه ولا في غيره ؛ لأن ذلك يوجب قيامها بنفسها واحتمالها للصفات وأضدادها ، ولو صح ذلك لم تكن إرادته له أولى أن تكون لغيره ، وإذا فسدت هذه الأقسام الثلاث وجب أن الإرادة قديمةٌ قائمةٌ به تعالى لأجل قيامها به [و] (٤) صح كونه (مريدًا، ووجب تعلقها بكل ما يصحّ كونه)(٥) مرادًا له ، وهذه المسألة مبنيةعلى صحة القول بكونه تعالى خالقًا لأفعال العباد ، وأنهم لا يفعلون إلا ما يشاء ، وقد دلّ الله على ذلك بقوله تعالى : ﴿ **وما تشاءون إلا أن يشاء الله** ﴾(٦) وما تلاه من الآيات، وبقوله : ﴿ **ولو شاء الله ما اقتتلوا ولكن الله يفعل ما يريد** ﴾(٧) فنصّ الله - تعالى - على أنه لو شاء أن لا يقتتلوا لما اقتتلوا ، فدل أنه تعالى شاء ما شاءوه من اقتتالهم ، وأنه لو لم يشأ اقتتالهم لم يشاءوه ولا كان موجودًا ، ثم أكد ذلك بقوله : ﴿ **ولكن الله يفعل ما يريد**﴾(٧) يدل أنه فعل اقتتالهم الواقع منهم لكونه شائيًا له ، وإذا [كان](٤) شائيًا

---

(١) في « الأصل » : مريد . والمثبت من « هـ » .
(٢) في « الأصل » : وبطل . والمثبت من « هـ » .
(٣) في « الأصل » : مدبرًا . والمثبت من « هـ » .
(٤) من « هـ » .
(٥) مكررة بالأصل .
(٦) التكوير : ٢٩ .
(٧) البقرة : ٢٥٣ .

لاقتتالهم وفاعلا له، وجب كونه شائيًا لمشيئتهم وفاعلا لها، فثبت بهذه الآية أنه لا كسب للعباد طاعة ومعصية إلا وهو فعل له ومراد له تعالى، [وإن لم] [1] يرده منهم لم يصح وقوعه ، وما أراده منهم فواجب وقوعه ، إذ هو المتولي لإيجاده والمقدر لخلقه على اكتسابه ، بخلاف قول القدرية أنه مريد للطاعة من عباده، وغير مريد للمعصية وقد بان فساد هذا من قولهم أن أفعال العباد خلق [لله] [2] في هذا الباب وغيره .

* * *

باب : ﴿ يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر ﴾ [3]

فيه : أنس وأبو هريرة قال النبي - عليه السلام - : « [إذا] [4] دعوتم الله فاعزموا في الدعاء ، ولا يقولن أحدكم : إن شئت فأعطني ، فإن الله لا مستكره له » .

وفيه : علي : « أن النبي ﷺ طرقه وفاطمة ابنته ، فقال لهما : ألا تصلون؟ فقال علي : يا رسول الله ، إنما أنفسنا بيد الله، فإذا شاء أن يبعثنا بعثنا ... » الحديث .

وفيه : أبو هريرة : قال النبي - عليه السلام - : « مثل المؤمن كمثل خامة الزرع ، يفيء ورقه من حيث أتتها الريح تكفؤها ، فإذا سكنت اعتدلت ، وكذلك المؤمن يكفأ بالبلاء ، ومثل الكافر كالأرزة صماء معتدلة حتى يقصمها الله إذا شاء » .

وفيه : ابن عمر : قال النبي - عليه السلام -: « إنما بقاؤكم فيمن سلف

---

(١) في « الأصل » : فإن ما لم . والمثبت من « هـ » .
(٢) في « الأصل » : الله . والمثبت من « هـ » . (٣) البقرة : ١٨٥ .
(٤) في « الأصل » : فإذا . والمثبت من « هـ ، ن » ،

من الأمم ، كما بين صلاة العصر إلى غروب الشمس ... » وذكر الحديث إلى قوله : « فذلك فضلي أوتيه من أشاء » .

وفيه : عبادة قال : « بايعت النبي – عليه السلام – في رهط ، فقال : أبايعكم على ألا تشركوا بالله شيئًا ، ولا تسرقوا ، ولا تقتلوا النفس ، ولا تأتوا ببهتان تفترونه بين أيديكم وأرجلكم ، ولا تعصوني في معروف ، فمن وفى منكم فأجره على الله ، ومن / [أصاب من ذلك شيئًا فأخذ به في الدنيا فهو له كفارة وطهور] [1] [ومن ستره] [2] الله فذلك إلى الله إن شاء عذبه ، وإن شاء غفر له » . [٤/ق٢٣٤-ب]

وفيه : أبو هريرة : « أن سليمان كانت له ستون امرأةً ، فقال : لأطوفن الليلة على نسائي ، فلتحملن كل امرأة منهن وليلدن فارسًا يقاتل في سبيل الله . فطاف على نسائه فما ولدت منهن إلا امرأة ولدت شق غلام . قال نبي الله : ولو استثنى لحملت كل امرأة منهن [فولدت] [3] فارسًا يقاتل في سبيل الله » .

وفيه : ابن عباس : أن النبي – عليه السلام – دخل على أعرابي يعوده ، فقال: «لا بأس عليك طهور، إن شاء الله ... » الحديث .

وفيه : أبو قتادة : حين ناموا عن الصلاة ، فقال النبي – عليه السلام – : « إن الله قبض أرواحكم حين شاء ، وردها حين شاء ... » الحديث .

وفيه : أبو هريرة : استبَّ رجل من المسلمين ورجل من اليهود...» وذكر الحديث إلى قول النبي -عليه السلام-: « لا تخيروني على موسى فإن الناس يصعقون ، فأكون أول من يفيق ، فإذا موسى باطش بجانب

---

(١) بياض بالأصل . والمثبت من « هـ » .

(٢) في « الأصل » : وستر من . والمثبت من « هـ » . (٣) من « هـ ، ن » .

العرش فلا أدري أكان فيمن صعق فأفاق قبلي ، أو كان فيمن استثنى الله » .

وفيه : أنس : قال النبي - عليه السلام - : « المدينة يأتيها الدجال فيجد الملائكة يحرسونها ، فلا يقربها الدجال ولا الطاعون إن شاء الله » .

وفيه : أبو هريرة : قال عليه السلام : « لكل نبي دعوة ، فأريد إن شاء الله أن أختبئ دعوتي شفاعة لأمتي يوم القيامة » .

وفيه : أبو هريرة : قال النبي - عليه السلام - : « بينا أنا نائم رأيتني على قليب فنزعت ما شاء الله أن أنزع ... » الحديث .

وفيه : أبو موسى : « كان النبي - عليه السلام - إذا أتاه السائل أو صاحب الحاجة، قال : « اشفعوا فلتؤجروا [وليقض] (١) الله على لسان نبيه ما شاء» .

وفيه : ابن عباس : « أن أبي بن كعب حدثه بحديث الخضر مع موسى... » إلى قوله : ﴿ فإني نسيت الحوت ﴾ (٢) ... » الحديث .

وفيه : أبو هريرة : قال عليه السلام : « ننزل غدًا إن شاء الله بخيف بني كنانة [حيث] (٣) تقاسموا على الكفر . يريد المحصب » .

وفيه : عبد الله بن عمر : « حاصر النبي أهل الطائف فلم يفتحها، فقال: إنا قافلون غدًا إن شاء الله ... » [وذكر الحديث] (٤) .

معنى هذا الباب كمعنى الذي قبله في إثبات الإرادة لله -تعالى- والمشيئة، وأن العباد لا يريدون شيئًا إلا وقد سبقت إرادة الله له،

---

(١) في « ن » : ويقضي .
(٢) الكهف : ٦٣ .
(٣) في « الأصل » : حين . والمثبت من « هـ ، ن » .
(٤) من « هـ » .

وأنه خالق لأعمالهم : طاعة كانت أو معصية ، وأما تعلقهم بقوله تعالى : ﴿ **يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر** ﴾ [1] في أنه لا يريد المعصية فليس على العموم ؛ وإنما هو خاص فيمن ذكر ، ولم يكلفه ما لا يطيق .

مثل هذا للمؤمنين المفترض عليهم الصيام ، ومن هداه الله إلى دينه فقد يسره وأراد به اليسر ، فكان المعنى : يريد الله بكم اليسر الذي هو التخيير بين صومكم في السفر ، وإفطاركم فيه [بشرط] [2] قضاء ما أفطرتموه من أيام أخر ، ولا يريد بكم العسر ، الذي هو إلزامكم الصوم في السفر على كل حال ؛ فبان من نفس الآية أن الله رفع هذا العسر عنا ولم يرد وقوعه بنا، إذ لم يلزمنا الصيام في السفر على كل حال ، رحمةً منه ورأفةً بنا ؛ فسقط تعلقهم بالآية ، وكذلك تأويل قوله تعالى : ﴿ **ولا يرضى لعباده الكفر** ﴾ [3] هو على الخصوص في المؤمنين الذين أراد منهم الإيمان ، فكان ما أراده من ذلك ، ولم يرد منهم الكفر فلم يكن ، فلا تعلق لهم في هذه الآية أيضًا .

فإن قيل : قد تقدم من قولكم أن الله - تعالى - خالق لأعمال العباد، فما وجه إضافة فتى موسى نسيان الحوت إلى نفسه مرةً، وإلى الشيطان أخرى .

فالجواب : أن فتى موسى [نبي] [4] وخادم نبي ، وقد تقدم من قول موسى أن أفعاله مخلوقة لله تعالى : ﴿ **إن هي إلا فتنتك تضل بها من تشاء وتهدي من تشاء** ﴾ [5] فثبت أن إضافة النسيان إلى نفسه لأجل قيامه به ، لا أنه مخترع له ، والعرب تضيف الفعل إلى

---

(١) البقرة : ١٨٥ . (٢) في « الأصل » : فشرط . والمثبت من « هـ » .
(٣) الزمر : ٧ . (٤) من « هـ » . (٥) الأعراف : ١٥٥ .

من وجد منه ، وإن لم يكن مخترعًا له ، وقد نطق بذلك القرآن في مواضع كثيرة ، وكذلك إضافته النسيان إلى الشيطان ، [فليس على معنى أن الشيطان فاعل لنسيانه، وإنما] [١] تأويله أنه وسوس [إليّ][٢] حتى نسيت الحوت ؛ لأن فتى موسى إذ لم يمكنه أن يفعل نسيانه القائم به كان الشيطان [أبعد] [٣] من أن يفعل فيه نسيانًا ، وكانت إضافته إليه على سبيل المجاز والاتساع .

قال المهلب : وقوله عليه السلام : « لا يقولن أحدكم، إن شئت فأعطني » فمعناه - والله أعلم - أن سؤاله الله على شرط المشيئة يوهم أن إعطاءه تعالي يمكن على غير مشيئته ، وليس بعد المشيئة وجه إلا الإكراه ؛ والله لا مكره له كما قال عليه السلام، والعبارة الموهمة في صفات الله غير جائزة عند / [أهل] [١] السنة ؛ لما في ذلك من [٤/ق٢٣٥-أ] الزيغ بأقل توهم يقع في نفس السامع لتلك العبارة [ثم إن حقيقة السؤال من الله - تعالى - ، هو أن يكون السائل][٤] محتاجًا إلى ما سأل ، محققًا في سؤاله ، ومتى طلب بشرط لم يحقق الطلب ؛ فلذلك [أمره] [٥] بالعزم في طلب الحاجة .

وأما قول علي : « إن أنفسنا بيد الله ، فإذا شاء أن يبعثنا بعثنا » ففيه: أن إرادة العبد للعمل ولتركه لا يكون إلا عن إرادة الله ومشيئته ، بخلاف قول القدرية أن للإنسان إرادةً ومشيئةً دون إرادة الله ، وقد تقدم أن ذلك كله من عمل العبد مخلوق لله ، مراد له على حسب ما أراد

---

(١) من « هـ » . (٢) في « الأصل » : له . والمثبت من « هـ » .

(٣) في « الأصل » : أنفذ . والمثبت من « هـ » .

(٤) بياض بالأصل . والمثبت من « هـ » .

(٥) طمس بالأصل . والمثبت من « هـ » .

من طاعة أو معصية ، ومعنى قوله عليه السلام : « المؤمن كخامة الزرع» في هذا الباب : أن المؤمن يألم في الدنيا بما يبتليه الله به من الأمراض التي يمتحنه بها ، فييسره للصبر عليها والرضا بحكم ربه واختياره له ؛ ليفرح بثواب ذلك في الآخرة ، والكافر كلما صح في الدنيا وسلم من آفاتها كان موته أشد عذابًا عليه ، وأعظم ألمًا في مفارقة الدنيا ، فثبت أن الله - تعالى - قد أراد بالمؤمن بكل عسر يسرًا، وأراد بكل ما آتاه الكافر من اليسر عسرًا ، وقد تقدم في أول كتاب المرضى .

وقوله : « فذلك فضلي أوتيه من أشاء » فذلك بين في أن الإرادة هي المشيئة على ما تقدم بيانه ؛ إذ الفضل عطاء من له أن يتفضل به ، وله ألا يتفضل ، وليس من كان عليه حق فأداه أو فعل ما عليه فعله يسمى متفضلاً ، وإنما هو من باب الأداء والوفاء بحق ما لزمه .

وقوله : « فلو قال إن شاء الله لقاتلوا فرسانًا أجمعون » فوجهه أنه لما نسي أن يرد الأمر لله الخالق العليم ، ويجعل المشيئة إليه كما شرط في كتابه ، إذ يقول : ﴿ **وما تشاءون إلا أن يشاء الله** ﴾ (١) ﴿ **ولا تقولن لشيء** ﴾ (٢) . فأشبه قوله : « لأطوفن الليلة » قول من جعل لنفسه الحول والقوة ؛ فحرمه الله - تعالى - مراده وما أمله .

وأما قوله للأعرابي : « لا بأس عليك طهور إن شاء الله » فإنما أراد تأنيسه من مرضه بأن الله يكفر ذنوبه ، ويقيله ، ويؤخر وفاته فوقع الاستثناء على ما رجا له من الإقالة والفرج ؛ لأن المرض معلوم أنه كفارة للذنوب ، وإن كان الاستثناء قد يكون بمعنى رد المشيئة [إلى

---

(١) التكوير : ٢٩ . (٢) الكهف : ٢٣ .

الله تعالى] [1] ، وفي جواب الأعرابي ما يدل على ما قلناه ، وهو قوله : حمى تفور على شيخ كبير تزيره القبور . [أي] [2] ليس كما رجوت من الإقالة .

وقوله عليه السلام : « فنعم إذًا » دليل على أن قوله : « لا بأس عليك » ، أنه على طريق الرجاء لا على طريق الخبر عن الغيب ، وكذلك قوله: « إن الله قبض أرواحنا حين شاء ، وردها حين شاء ».

وحديث عبادة ، وحديث أبي هريرة في قصة موسى عليه السلام ، وقوله عليه السلام : « لا أدري أكان فيمن صعق ، فأفاق قبلي ، أو ممن استثنى الله » ، فيها كلها إثبات المشيئة لله تعالى ، وفيه فضيلة موسى ؛ لأن الأمة أجمعت على أن النبي عليه السلام أفضل البشر ، فإن كان لم يصعق موسى حين صعق الناس ، ففيه من الفقه أن المفضول قد يكون فيه فضيلة خاصة لا تكون في الفاضل .

واستثناء النبي عليه السلام في دخول الدجال والطاعون المدينة ، هو من باب التأدب لا على الشك الذي لا يجوز على الله - تعالى - ووجهه التحريض على سكنى المدينة لأمته ؛ ليحترسوا بها من الفتنة في الدين؛ لأن المدينة أصل دينه فلم يسلط الله على سكانها المعتصمين بها فتنة الدجال ، ولا الطاعون لاعتصام سكانها بها من الفتنة الكبرى ، وهي الكفر المستأصل عقوبته ، فكذلك [لا يستأصلهم] [3] بالموت بالطاعون الذي كان من عقوبات بني إسرائيل .

وأما قوله في الصديق « أنه نزع من البئر ما شاء الله أن ينزع » ، فهذا استثناء صحيح ، وأن حركات العباد لا تكون إلا عن مشيئة الله

---

(١) من « هـ » .   (٢) في « الأصل » : أو . والمثبت من « هـ » .

(٣) في « الأصل » : لا يستأصل .

وإرادته ، وكذلك قوله : ويقضي الله على لسان رسوله ما شاء ، أي أن الإنسان لا يتكلم إلا بمشيئة الله المحرك للسانه ، والمقلب لقلبه ، وكذلك قوله : « إنا قافلون غدا إن شاء الله » . فاستثنى فيما يستقبل من الأفعال ، كما أمره الله برد الحول والقوة إليه في قوله : **﴿ولا تقولن لشيء إني فاعل ذلك غدا إلا أن يشاء الله﴾** [1] .

* * *

باب : قوله تعالى : ﴿ ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين﴾[2]

فيه : أبو هريرة : قال عليه السلام : « لما قضى الله الخلق ، كتب عنده فوق عرشه : إن رحمتي سبقت غضبي » .

وفيه : ابن مسعود : حدثنا النبي عليه السلام ، وهو الصادق المصدوق: « إن أحدكم / يجمع في بطن أمه ... » [إلى قوله] [3] : « ثم يبعث الله إليه الملك فيؤذن بأربع كلمات ... » الحديث ، « [فإن] [4] أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة حتى لا يكون بينه وبينها إلا ذراع ، فيسبق عليه الكتاب ، فيعمل عمل أهل النار فيدخلها ... » الحديث . [٤/ق٢٣٥-ب]

وفيه : ابن عباس : أن النبي عليه السلام قال : يا جبريل ، ما يمنعك أن تزورنا أكثر مما تزورنا ، فنزلت : ﴿ وما نتنزل إلا بأمر ربك ... ﴾ [5] الآية .

وفيه: ابن مسعود : كنت أمشي مع النبي ﷺ، فمر بنفر من اليهود فقال

---

(١) الكهف : ٢٣ . (٢) الصافات : ١٧١ . (٣) غير واضحة بالأصل .
(٤) في « الأصل » : وإن . والمثبت من « هـ ، ن » (٥) مريم : ٦٤ .

بعضهم : سلوه عن الروح ، وقال بعضهم : لا تسألوه ، فسألوه ، فقام متوكئًا على العسيب ، وأنا خلفه وظننت أنه يوحى إليه ، فقال : ﴿ويسألونك عن الروح ﴾ إلى ﴿ قليلاً ﴾ (١) .

وفيه : أبو هريرة : قال عليه السلام : « تكفل الله لمن جاهد في سبيله لا يخرجه إلا الجهاد في سبيله ، وتصديق كلماته ، بأن يدخله الجنة ... » الحديث .

وفيه : أبو موسى : جاء رجل إلى النبي عليه السلام فقال : الرجل يقاتل حميةً ، وشجاعةً ، ورياءً ، فأي ذلك في سبيل الله ؟ قال : « من قاتل لتكون كلمة الله [هي] (٢) العليا ، فهو في سبيل الله » .

قال المهلب : الكلمة السابقة : هي كلمة الله بالقضاء المتقدم منه قبل أن يخلق خلقه في أم الكتاب ؛ الذي جرى به القلم للمرسلين إنهم لهم المنصورون في الدنيا والآخرة ، وقد تقدم في كتاب القدر ، ومعنى هذا الباب إثبات الله متكلما وذا كلام ، خلافًا لمن يقول من المعتزلة : أنه غير متكلم فيما مضى ، وكذلك هو فيما بقي . وهذا كفر قد نص الله على إبطاله بقوله : ﴿ **ولقد سبقت كلمتنا** ﴾ (٣) في آيات أخر ، وقد نص النبي عليه السلام على بيان هذا المعنى في أحاديث هذا الباب ، فقال : « كتب عنده فوق عرشه » ، وقال : ثم يبعث [الله إليه] (٤) الملك فيؤذن بأربع كلمات يوحيها الله إلى الملك، فيكتبها في أم الكتاب، وقال : فيسبق عليه الكتاب بالقضاء المتقدم في سابق علمه ، والكتاب يقتضي كلامًا مكتوبًا ، ودل [ذلك على] (٥)

---

(١) الإسراء : ٨٥ . (٢) من « هـ ، ن » .
(٣) الصافات : ١٧١ . (٤) في « الأصل » : الثالثة . والمثبت من « هـ » .
(٥) في « الأصل » : على ذلك . والمثبت من « هـ » .

أنه لم يزل عالمًا بما سيكون قبل كونه ، خلافًا لمن يقول : لا يعلم الأشياء قبل كونها ، ووجه مشاكلة حديث ابن عباس للترجمة ، هو أن الذي يتنزل به جبريل هو كلام الله ووحيه ، وكذلك قوله في حديث ابن مسعود ﴿ **قل الروح من أمر ربي** ﴾ (١) يريد أن الروح خلق من خلقه تعالى ، خلقه بقوله : كن [وكن] (٢) : كلامه الذي هو أمره الذي لم يزل ولا يزال .

وقوله : ﴿ **وما أوتيتم من العلم إلا قليلا** ﴾ (٣) فيه دليل على أنه لا تبلغ حقيقة العلم بالمخلوقات فضلا عن العلم بالخالق سبحانه ، وأن من العلم ما يلزم التسليم فيه لله - تعالى - ويجب الإيمان بمشكله ، وأن الراسخين في العلم لا [يعلمون] (٤) تأويل المتشابه كما يزعم المتكلمون ، إذ قد أعلمنا الله أن السؤال عن الروح ابتغاء ما لم يؤته من العلم ، مع أنه وصف قلوب المتبعين ما تشابه منه بالزيغ وابتغاء الفتنة ، ووصف الراسخين في العلم بالإيمان به ، وأن كله من عند ربهم ، مستعيذين من الزيغ الذي وسم الله به من اتبع تأويل المتشابه منه ، داعين إلى الله لا يزيغ قلوبهم بابتغاء تأويله ، بعد إذ هداهم إلى الإيمان به .

وأما قوله : « كتب عنده : إن رحمتي سبقت غضبي » فهو - والله أعلم - كتابه في أم الكتاب الذي قضى به وخطه القلم ، فكان من رحمته تلك أن ابتدأ خلقه بالنعمة بإخراجهم من العدم إلى الوجود،

---

(١) الإسراء : ٨٥ . (٢) في « الأصل » : وكان . والمثبت من « هـ » .

(٣) في « الأصل » : تعلم . والمثبت من « هـ » .

(٤) في « الأصل » : النعمة . والمثبت من « هـ » .

وبسط لهم من رحمته في قلوب الأبوين على الأبناء ، من الصبر على تربيتهم ، ومباشرة [أقذارهم] [1] ما إذا تدبره متدبر أيقن أن ذلك من رحمته تعالى ، ومن رحمته السابقة أنه يرزق الكفار وينعمهم ، ويدفع عنهم الآلام ثم ربما أدخلهم الإسلام رحمة منه لهم ، وقد بلغوا من التمرد عليه والخلع لربوبيته غايات تغضبه ، فتغلب رحمته ويدخلهم جنته ، ومن لم يتب عليه حتى توفاه فقد رحمه مدة عمره بتراخي عقوبته عنه ، وقد كان له ألا يمهله بالعقوبة ساعة كفره به ومعصيته له، لكنه أمهله رحمةً له ، ومع ذا إن رحمة الله السابقة أكثر من أن يحيط بها الوصف .

* * *

باب : قوله تعالى : ﴿ قل لو لكان البحر مداداً لكلمات ربي ﴾ إلى قوله : ﴿ مددًا ﴾ [2] ، وقوله : ﴿ ولو أن ما في الأرض من شجرة أقلام والبحر يمده من بعده سبعة أبحر / ما نفدت كلمات الله ﴾ [3]

[٤/ق٢٣٦-أ]

فيه : أبو هريرة : قال عليه السلام : « تكفل الله لمن جاهد في سبيله ، لا يخرجه من بيته إلا الجهاد في سبيله، وتصديق كلماته ؛ أن يدخله الجنة».

قال مجاهد : ﴿ **قل لو كان البحر مداداً** ﴾ [2] للقلم يستمد منه للكتاب ﴿ **لكلمات ربي** ﴾ [2] ، أي لعلم ربي .

وقال قتادة : لنفد ماء البحر قبل أن ينفد كلام ربي وحكمه . ومعنى هذا الباب إثبات الكلام لله صفةً لذاته ، وأنه لم يزل

---

(١) في « الأصل » : ما قدارهم . والمثبت من « هـ » .
(٢) الكهف : ١٠٩ . (٣) لقمان : ٢٧ .

متكلمًا ولا يزال ، كمعنى الباب الذي قبله ، وإن كان قد وصف كلامه تعالى بأنه كلمات فإنه شيء واحد لا يتجزأ ولا يقسم ، وكذلك يعبر عنه بعبارات مختلفة : تارةً عربيةً ، وتارةً سريانيةً ، وبجميع الألسنة التي أنزلها الله على أنبيائه ، وجعلها عبارةً عن كلامه القديم الذي لا يشبه كلام المخلوقين ، ولو كانت كلماته مخلوقة لنفدت كما تنفد البحار والأشجار وجميع المحدثات ، فكما لا يحاط بوصفه تعالى ، كذلك لا يحاط بكلماته وجميع صفاته .

* * *

باب : قوله تعالى : ﴿ ولا تنفع الشفاعة عنده إلا لمن أذن له ﴾[1] الآية : ﴿ قالوا ماذا قال ربكم قالوا الحق وهو العلي الكبير ﴾[1] ولم يقل ماذا خلق ربكم ، وقال تعالى : ﴿ من ذا الذي يشفع عنده إلا بإذنه ﴾[2]

وقال مسروق عن ابن مسعود : إذا تكلم الله بالوحي سمع أهل السماوات ، فإذا فزع عن قلوبهم ، وسكن الصوت ؛ عرفوا أنه الحق ونادوا : ﴿ ماذا قال ربكم قالوا الحق ﴾ .

ويذكر عن جابر ، عن عبد الله بن أنيس سمعت النبي - عليه السلام - يقول: « يحشر الله العباد ، فيناديهم بصوت يسمعه من بَعُد كما يسمعه من قَرُب : أنا الملك ، أنا الديان » .

فيه : أبو هريرة يبلغ به النبي - عليه السلام - : « إذا قضى الله الأمر في السماء ضربت الملائكة بأجنحتها خضعانًا لقوله، كأنه سلسلة على صفوان».

---

(١) سبأ : ٢٣ . (٢) البقرة : ٢٥٥ .

قال علي بن المديني ، وقال غيره : صفوان ينفذهم ذلك ، فإذا فزع عن قلوبهم قالوا : ماذا قال ربكم ؟ قالوا : قال الحق، وهو العلي الكبير .

وقال عكرمة [مرةً عن أبي هريرة] [1] يرفعه : أنه قرأ : فُزِّغَ .

وفيه : أبو هريرة قال النبي - عليه السلام - : « ما أذن الله لشيء ما أذن للنبي أن يتغنى بالقرآن » .

وفيه : أبو سعيد : قال النبي - عليه السلام - : « يقول الله : يا آدم . فيقول : لبيك وسعديك . فينادي بصوت : إن الله يأمرك أن تخرج من ذريتك بعثًا إلى النار » .

وفيه : عائشة : « ما غرت على امرأة ما غرت على خديجة ، [ولقد][2] أمره ربه أن يبشرها ببيت في الجنة » .

قال المهلب : استدل البخاري بقوله تعالى : ﴿ **ماذا قال ربكم** ﴾ ولم يقل : ماذا خلق ربكم . على أن قوله تعالى قديم قائم بذاته ، صفة من صفاته ، لم يزل موجودًا ولا يزال ، وأنه لا يشبه كلام المخلوقين ، وليس بذي حروف ، خلافًا للمعتزلة [التي] [3] نفت كلام الله - تعالى - ، وقالت : إن كلامه كناية عن الفعل والتكوين، قالوا : وهذا سائغ في كلام العرب ، ألا ترى أن الرجل يعبر عن حركته بيده فيقول : قلت بيدي هكذا ، وهم يريدون حركت يدي ، ويحتجون بأن الكلام لا يعقل منا إلا بأعضاء ولسان ،

---

(١) من « هـ » . (٢) في « الأصل » : فلقد . والمثبت من « هـ ، ن » .
(٣) في « الأصل » : الذي . والمثبت من « هـ » .

والباري - تعالى - لا يجوز أن يكون له أعضاء وآلات الكلام ؛ إذ ليس بجسم .

فرد البخاري عليهم بقوله عليه السلام : « إذا قضى **الله** الأمر في السماء ، فزعت الملائكة وضربت بأجنحتها فكان لها صوت ، كأنه سلسلة على صفوان خضعانًا » لقوله تعالى : ﴿ **حتى إذا فزع عن قلوبهم** ﴾ (١) ، أي أذهب الفزع عن قلوبهم ، قالوا للذي فوقهم : ماذا قال ربكم ؟ فدل ذلك على أنهم سمعوا قولا لم يفهموا معناه من أجل فزعهم ، فقالوا : ماذا قال ربكم ؟ ولم يقولوا : ماذا خلق ربكم ، وأكد ذلك بما حكاه عن الملائكة أيضًا ﴿ **قالوا الحق** ﴾ والحق : إحدى صفتي القول الذي لا يجوز **على الله** غيره ؛ لأنه لا يجوز على كلامه الباطل .

ولو كان القول منه خلقًا وفعلا لقالوا حين سألوا ماذا قال ، أخلق خلقًا كذا ، إنسانًا ، أو جبلا ، أو شيئًا من المخلوقات ، فلما وصفوا قوله بما يوصف به الكلام من الحق ، لم يجز أن يكون القول بمعنى الخلق والتكوين ، وكذلك قوله لآدم : يا آدم ، [وهو] (٢) كلام مسموع ، ولو كان بمعنى الخلق والتكوين ما أجاب بلبيك وسعديك ، التي هي جواب المسموعات ، وكذلك قول عائشة : « ولقد أمره ربه أن يبشرها » هو كلام ، وقول مسموع من الله - تعالى - ولو كان خلقًا لما فهم [منه] (٣) عن ربه له بالبشرى .

* * *

(١) سبأ : ٢٣ . (٢) في « الأصل » : هذا . والمثبت من « هـ » .
(٣) في « الأصل » : عنه . والمثبت من « هـ » .

/ باب : كلام الرب تعالى مع جبريل ونداء الله تعالى الملائكة [٤/ ق٢٣٦-ب]

وقال معمر : إنك لتلقى أي يلقى عليك ، وتلقاه أنت أي تأخذه عنهم ، ومثله : ﴿ فتلقى آدم من ربه كلمات ﴾ (١)

وفيه : أبو هريرة : قال النبي - عليه السلام - : « إن الله إذا أحبَّ عبدًا ، نادى جبريل : إن الله قد أحب فلانًا فأحبه . فيحبه جبريل ثم ينادي جبريل في السماء : إن الله قد أحب فلانًا فأحبوه . فيحبه أهل السماء ، ويوضع له القبول في أهل الأرض » .

وفيه : أبو هريرة : قال عليه السلام : « يتعاقبون فيكم ملائكة بالليل، وملائكة بالنهار يجتمعون في صلاة العصر وصلاة الفجر ، ثم يعرج الذين باتوا [فيكم] (٢) فيسألهم - وهو أعلم بهم - : كيف تركتم... » الحديث .

وفيه : أبو ذر : قال النبي - عليه السلام - : « أتاني جبريل فبشرني أنه من مات لا يشرك بالله شيئًا دخل الجنة . قلت : وإن سرق وزنا ؟ قال : وإن سرق وزنا » .

هذا الباب كالباب الذي قبله في إثبات كلام الله وإسماعه إياه جبريل والملائكة ، فيسمعون عند ذلك الكلام القديم القائم بذاته الذي لا يشبه كلام المخلوقين ، إذ ليس بحرف [ولا تقطيع نغم] (٣) وليس من شرطه أن يكون بلسان وشفتين وآلات، وحقيقته أن يكون مسموعًا مفهومًا ، ولا يليق بالباري - تعالى - أن يستعين في كلامه بالجوارح والأدوات ، فمن قال لم أشاهد كلامًا إلا بأدوات، لزمه [التشبيه](٤)؛ إذ حكم على الله بحكم المخلوقين ، وخالف قوله تعالى : ﴿ ليس كمثله شيء ﴾ (٥) .

---

(١) البقرة : ٣٧ . (٢) من « هـ ، ن » .
(٣) في « الأصل »: ولا يقطع بفم . والمثبت من «هـ» .
(٤) في « الأصل » : الشبه . والمثبت من « هـ » . (٥) الشورى : ١١ .

باب : ﴿ أنزله بعلمه والملائكة يشهدون ﴾ [1]

قال مجاهد : ﴿ يتنزل الأمر بينهن ﴾ [2] : بين السماء السابعة والأرض السابعة .

فيه : البراء : قال النبي - عليه اللام - : « يا فلان ، إذا أويت إلى فراشك فقل : اللهم أسلمت نفسي إليك » إلى قوله : « آمنت بكتابك الذي أنزلت ... » الحديث .

وفيه : ابن أبي أوفى : قال النبي - عليه السلام - يوم الأحزاب : «اللهم منزل الكتاب ، سريع الحساب ، اهزم الأحزاب ، وزلزل بهم » .

وفيه ابن عباس : ﴿ **ولا تجهر بصلاتك ولا تخافت بها** ﴾ [3] نزلت ورسول الله متوارٍ بمكة ، وكان إذا رفع صوته سمعه المشركون ، فسبوا القرآن ومن أنزله ومن جاء به، فقال تعالى: ﴿**ولا تجهر بصلاتك**﴾ حتى تسمع المشركين ﴿ **ولا تخافت بها**﴾ عن أصحابك فلا تسمعهم ﴿**وابتغ بين ذلك سبيلاً** ﴾ [3] أسمعهم ولا تجهر حتى يأخذوا عنك القرآن .

ولا تعلق للقدرية في قوله تعالى : ﴿ **أنزله بعلمه** ﴾ أن القرآن مخلوق ؛ لأن كلامه قديم قائم بذاته ، ولا يجوز أن تكون صفة ذات القديم إلا قديمة ، فالمراد بالإنزال [إفهام] [4] عباده المكلفين معاني [كتابه وفرائضه] [5] التي افترضها عليهم ، وليس إنزاله كإنزال الأجسام المخلوقة التي يجوز عليها الحركة والانتقال من مكان إلى مكان؛ لأن القرآن ليس بجسم ولا مخلوق ، والأفعال التي يعبر بها

---

(١) النساء : ١٦٦ . (٢) الطلاق : ١٢ . (٣) الإسراء : ١١٠ .

(٤) في « الأصل » : إبهام . والمثبت من « هـ » .

(٥) في « الأصل » : عبادته وكتابه . والمثبت من « هـ » .

عن الأجسام كالحركة والانتقال من الأمكنة تستحيل على الله وعلى كلامه وجميع صفاته .

قال المهلب : وفي حديث البراء الرد على القدرية الذين يزعمون أن لهم قدرة على الخير والشر استحقوا عليها الثواب والعقاب لأمر النبي - عليه السلام - من أوى إلى فراشه [بالتبرؤ] [1] عند نومه من الحول والقوة والاستسلام لقدرة الله التي غلبه بها النوم ، فلم يستطع دفعه، فلو كان يملك لنفسه نفعًا أو ضرًا لدفع عن نفسه النوم الذي هو موت إن أمسك الله نفسه فيه مات أبدًا ، وإن أرسلها بعد موته ساعة أو ساعات جدد لها حياة .

وكيف يملك الإنسان لنفسه قدرة ، وقد أمره نبيه - عليه السلام - أن يتبرأ من جميع وجوهها في هذا الحديث ، ثم عرفك أن هذه الفطرة التي فطر الله الناس عليها يجب أن تكون آخر ما يقوله المرء الذي [حضره] [2] أول الموت فيموت على الفطرة التي عليها خلقه ، وإن أحياه أصاب بتبرئه إليه خيرًا يريد أجرًا في الآخرة وخيرًا من رزق وكفاية وحفظ في الدنيا .

وفي حديث ابن أبي أوفى جواز الدعاء بالسجع ، إذا لم يكن متكلفًا مصنوعًا تفكره ، وشغل بال بتهيئته (فيضعف) [3] بذلك تحقيق نية الداعي فلذلك كره السجع / في الدعاء ، وأما إذا تكلم به طبعًا فهو حسن [وقد أشرنا إلى هذا المعنى في كتاب الدعاء . [٤/ق٢٣٧-أ]

وفي حديث ابن] [4] عباس أن قطع الذرائع التي تنقص الباري -تعالى- وتنقص كتابه واجب وإن كان المراد بها الخير [لمنعه] [5] من رفع الصوت بالقرآن لئلا يسمعه من يسبه ومن أنزله .

---

(١) في « الأصل » : المتبرئ . والمثبت من « هـ » .

(٢) في « الأصل » : ذكره . والمثبت من « هـ » . (٣) في « هـ » : فضعف .

(٤) بياض في « الأصل » . والمثبت من « هـ » .

(٥) في « الأصل » : لمنفعة . والمثبت من « هـ » .

باب : قوله تعالى : ﴿ يريدون أن يبدلوا كلام الله ﴾ (١)
﴿ لقول فصل﴾ (٢) الحق ﴿ وما هو بالهزل ﴾(٣) باللعب

فيه أبو هريرة: قال النبي - عليه السلام - : « قال الله - تعالى -: [يؤذيني] (٤) ابن آدم سب الدهر، وأنا الدهر بيدي الأمر أقلب الليل والنهار».

وفيه : أبو هريرة : قال النبي - عليه السلام - : « يقول الله -تعالى- : الصوم لي ، وأنا أجزي به ، يدع شهوته وأكله وشربه من أجلي ... » الحديث .

وفيه : أبو هريرة : قال النبي - عليه السلام - : « بينما أيوب يغتسل عريانًا خر عليه رجْلُ جراد من ذهب ، فجعل يحثي في ثوبه ، فناداه ربه : يا أيوب ... » .

وفيه : أبو هريرة : قال النبي - عليه السلام - : « ينزل ربنا إلى سماء الدنيا كل ليلة فيقول: من يدعوني فأستجيب له ...» الحديث .

وفيه : أبو هريرة : قال النبي - عليه السلام - : « قال الله -تعالى-: أَنفِق أُنْفِق عليك » .

وفيه : أبو هريرة ، قال: هذه خديجة تأتيك بإناء فيه طعام -أو شراب- فأقرئها من ربها السلام، وبشرها ببيت في الجنة من قصب... » الحديث.

وفيه : أبو هريرة : قال النبي - عليه السلام - : « قال الله : أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت ... » الحديث .

وفيه : ابن عباس : « كان النبي ﷺ إذا تهجد من الليل قال : اللهم لك الحمد [أنت نور السموات والأرض ، أنت الحق وقولك الحق] (٥) ...» الحديث .

---

(١) الفتح : ١٥ . (٢) الطارق : ١٣ . (٣) الطارق : ١٤ .
(٤) في « الأصل » : ويؤذبني . والمثبت من « هـ ، ن » . (٥) من « هـ » .

وفيه : عائشة في حديث الإفك : « ولشأني في نفسي كان أحقر من أن يتكلم الله فيّ بأمر يتلى ... » الحديث .

وفيه: أبو هريرة: قال النبي - عليه السلام -: « يقول الله: إذا أراد عبدي أن يعمل سيئة فلا تكتبوها عليه حتى يعملها ... » الحديث .

وفيه أبو هريرة : قال عليه السلام : لما فرغ الله من الخلق قامت الرحم فقال : مه . قالت : هذا مقام العائذ بك من القطيعة ! فقال : ألا ترضين أن أصل من وصلك ... » الحديث .

وفيه : زيد بن خالد : مطر النبي - عليه السلام - فقال : « قال الله - تعالى - : أصبح من عبادي مؤمن بي وكافر بي ... » .

وفيه : أبو هريرة : قال النبي - عليه السلام - : « قال الله -تعالى-: إذا أحب عبدي لقائي ، أحببت لقاءه ، وإذا كره لقائي كرهت لقاءه ... » .

وفيه : أبو هريرة : قال عليه السلام : « قال الله - تعالى - : أنا عند ظن عبدي بي ... » .

وفيه : أبو هريرة وأبو سعيد : قال النبي ﷺ : « قال رجل لأهله لم يعمل خيراً قط : احرقوني . فقال الله : لم فعلت ؟ قال : من خشيتك ، فغفر له » .

وفيه أبو هريرة : قال النبي - عليه السلام - : « إن عبداً أصاب ذنبًا فقال : [رب أذنبت] [(١)] فاغفره ، فقال ربه -جل ثناؤه- : علم عبدي أن له ربا يغفر الذنب [و][(٢)] يأخذ به غفرت لعبدي ...» الحديث .

قال المهلب : غرضه في هذا الباب كغرضه في الأبواب التي قبله ،

---

(١) في « الأصل » : وما ذنب . والمثبت من « هـ ، ن » .

(٢) في « الأصل ، هـ » : أو . والمثبت من « ن » .

ومعنى قوله تعالى : ﴿ **يريدون أن يبدلوا كلام الله** ﴾[(1)] هو أن المنافقين تخلفوا عن الخروج مع النبي - عليه السلام - إلى غزوة تبوك ، واعتذروا فأعلم الله إفكهم فيه ، فأمر الله [رسوله] [(2)] أن يقرأ عليهم قوله تعالى : ﴿ **فقل لن تخرجوا معي أبداً ولن تقاتلوا معي عدواً** ﴾[(3)] فأعلمهم بذلك وقطع [أطماعهم] [(4)] من الخروج معه . فلما رأوا الفتوحات قد تهيأت للنبي - عليه السلام - أرادوا الخروج معه رغبة منهم في المغانم ، فأنزل الله على : ﴿ **سيقول المخلفون إذا انطلقتم إلى مغانم لتأخذوها ذرونا نتبعكم يريدون أن يبدلوا كلام الله** ﴾[(1)] أي أمره لرسوله بأن لا يخرجوا [معه] [(5)] بأن يخرجوا معه .

فقطع الله أطماعهم من ذلك مدة أيامه عليه السلام ؛ لقوله : ﴿ **لن تخرجوا معي أبدًا** ﴾ [(3)] ثم قال / [آمرًا لرسوله ﷺ : ﴿ **قل للمخلفين من الأعراب** ﴾ يعني : المريدين تبديل كلام] [(6)] الله : ﴿**ستدعون إلى قوم أولي بأس شديد [تقاتلونهم أو يسلمون فإن تطيعوا يؤتكم الله أجراً حسنًا]** [(6)] **وإن تتولوا كما توليتم من قبل** ﴾ يعني : توليتم عن إجابته عليه السلام حين دعاهم إلى الخروج معه في سورة براءة ﴿ **يعذبكم عذابًا أليمًا** ﴾ [(7)] والداعي لهم غيره عليه السلام ممن يقوم بأمره من خلفائه ، فقيل : الداعي لهم بعده أبو بكر دعاهم لقتال أهل الردة ، وقيل : الداعي عمر ، دعاهم لقتال المشركين .

[٤/ق٢٣٧-ب]

وسائر الأحاديث فيها إثبات كلامه ، وقد مر القول على أنه صفة قائمة به لا يصح مفارقتها له، وأنه لم يزل متكلمًا، ولا يزال كذلك .

---

(١) الفتح : ١٥ . (٢) في « الأصل » : لرسوله . والمثبت من « هـ » .
(٣) التوبة : ٨٣ . (٤) في « الأصل »: أطعامهم . تحريف، والمثبت من «هـ».
(٥) من « هـ » . (٦) بياض بالأصل . والمثبت من « هـ » .
(٧) الفتح : ١٦ .

وأما قوله : « يؤذيني ابن آدم ، يسب الدهر » قد تقدم في [باب][1] قوله : ﴿ إن الله هو الرزاق ذو القوة المتين ﴾ [2] [أن] [3] الأذى لا يلحق بالله ، وإنما يلحق من تتعاقب عليه الحوادث، ويلحقه العجز والتقصير عن الانتصار ، والله تعالى عن ذلك ، فوجب أن يرجع الأذى المضاف إليه تعالى إلى أنبيائه ورسله ، والمعنى يؤذي ابن آدم أنبيائي ورسلي بسب الدهر ؛ لأن ذلك ذريعة إلى سب خالق الدهر ، ومصرف أقضيته وحوادثه .

وقوله : « وأنا الدهر » أي : أفعل ما يجري به الدهر من السراء والضراء ، ألا ترى قوله تعالى : « بيدي الأمر أقلب الليل والنهار » فالأيام والليالي ظروف للحوادث ، فإذا سببتم الدهر [و] [1] هو لا يفعل شيئًا فقد وقع السب على الله . وقد بينت هذا الحديث بأكثر من هذا في كتاب الأدب في باب : لا تسبوا الدهر .

قال المهلب : وأما قوله تعالى : « أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر » [فهو كقوله تعالى : ﴿ ويخلق ما لا تعلمون ﴾ [4] مما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا توهمه قلب بشر . هو على الحقيقة ما لا يعلمه بشر ممن له الأذن والقلب والبصر ، فتخصيصه قلب بشر] [1] بأن لا يعلمه، يدل - والله أعلم - أنه يجوز أن يخطر على قلوب الملائكة ، ألا ترى أنه إذا أفردنا بالمخاطبة بقوله : ﴿ ويخلق ما لا تعلمون ﴾ [4] فدل على جواز أن يعلمه غيرنا .

وقوله في حديث أبي هريرة : « لما فرغ الله من الخلق قامت الرحم

---

(١) من « هـ » .
(٢) الذاريات : ٥٨ . ووقع في « الأصل ، هـ » : إني أنا الرزاق ذو القوة المتين . وما أثبتناه هو الصواب . وقد سبق .
(٣) في « الأصل » : أي . والمثبت من « هـ » .
(٤) النحل : ٨ .

فقالت : هذا مقام العائذ بك من القطيعة . فقال تعالى: ألا ترضين. . . » الحديث .

فلا تعلق فيه لمن يقول : بحدث كلامه تعالى من أجل أن الفاء في قوله فقال : توجب في الظاهر كون قوله تعالى عقيب قول الرحم ، وذلك مقتضٍ للحدث لقيام الدليل على أن الله لم يزل قائلا متكلمًا قبل أن يخلق خلقه بما لا أول له من الأزمان ، وإذا كان ذلك كذلك وجب حمل قوله تعالى على معنى إفهامه تعالى إياها معنى كلامه الذي لم يزل به متكلمًا وقائلا ، وعلى هذا المعنى يحمل نحو هذا اللفظ إذا أتى في الحديث .

وقد يحتمل أن يكون يأمر ملكًا من ملائكته بأن يقول للرحم هذا القول عنه تعالى ، وأضافه إليه ، إذ كان قول الملك عن أمره تعالى له، ويدل على صحة هذا التأويل رواية من روى في حديث الشفاعة: « فأستأذن على ربي وأخر له ساجدًا [فيقال] [1] : يا محمد، ارفع رأسك . . . » بترك إسناد القول إلى الله تعالى جاءت هذه الرواية في الباب بعد هذا .

وقوله للرحم : مه ، فمعنى مه في لسان العرب : الزجر والردع . فمحال توجه ذلك إلى الله ، فوجب توجهه إلى من عاذت الرحم بالله - تعالى - من قطعه إياها .

وقوله : « أنا عند ظن عبدي بي » لا يتوجه إلا إلى المؤمنين خاصة أي : أنا عند ظن عبدي المؤمن بي ، وفي القرآن آيات تشهد أن عباده المؤمنين وإن أسرفوا على أنفسهم أنه عند ظنهم به من المغفرة والرحمة،

---

(١) في « الأصل » : فقال . والمثبت من « هـ » .

وإن أبطأت حينًا وتراخت وقتًا لإنفاذ ما حتم به ، على من سبق عليه إنفاذ الوعيد تحلة القسم ؛ لأنه قد كان له أن يعذب بذنب واحد أبدًا كإبليس، فهو عند ظن عبده ، وإن عاقبه برهة فإن كان ظنه به ألا يعذبه برهة ، ولا تحلة فإنه كذلك يجده كما ظن - إن شاء الله - فهو أهل التقوى وأهل المغفرة .

وأما حديث الذي لم يعمل خيرًا قط ، ففيه دليل على أن الإنسان لا يدخل الجنة بعمله ما لم يتغمده الله برحمته كما قال عليه السلام . وفيه أن الإنسان يدخل الجنة بحسن نيته في وصيته لقوله: خشيتك يا رب .

وفيه أن من جهل بعض الصفات فليس بكافر خلافًا لبعض المتكلمين؛ لأن الجهل بها هو العلم ؛ إذ لاتبلغ كنه صفاته تعالى ، فالجاهل بها هو المؤمن حقيقة / ولهذا قال بعض السلف : عليكم [٤/ق٢٣٨-أ] بدين العذارى ، أفترى [العذارى يعلمن حقيقة صفات الله تعالى .

وللأشعري] [١] في تأويل هذا الحديث [قولان] [٢] : كان قوله الأول : من جهل [القدرة أو صفة من صفات - الله تعالى - فليس][١] بمؤمن .

وقوله في هذا الحديث : « لئن قدر الله علي » لا يرجع إلى القدرة [وإنما يرجع إلى معنى التقدير الذي] [١] هو بمعنى التضييق كما قال تعالى في قصة يونس : ﴿ **فظن أن لن نقدر عليه** ﴾ [٣] أي : لن نضيق عليه ، ثم رجع عن هذا القول وقال : لا يخرج المؤمن من الإيمان بجهله بصفة من صفات الله -تعالى- قدرة كانت أو سائر صفات ذاته تعالى إذا لم يعتقد في ذلك اعتقادًا يقطع أنه الصواب

---

(١) بياض بالأصل . والمثبت من « هـ » .

(٢) في « الأصل » : قولين . والمثبت من « هـ » . (٣) الأنبياء : ٨٧ .

والدين المشروع ، ألا ترى أن الرجل قال : لئن قدر الله عليه ليعذبنه فأخرج ذلك مخرج الظن دون القطع على أنه تعالى غير قادر على جمعه وإحيائه إخراج خائف من عذاب ربه ذاهل العقل .

يدل على ذلك قوله مجيبًا لربه لما قال له : لم فعلت ؟ قال : من خشيتك . وأنت أعلم . فأخبر بالعلة التي لها فعل ما فعل ، ويدل على صحة هذا القول [من روى] (١) قوله : لعلي أضل الله . «ولعل» في كلام العرب موضوعة لتوقع مخوف لا يقطع على كونه ، ولا على انتفائه ، ومعنى قوله : لعلي أضل الله ، لعلي أخفى عليه وأغيب ، وكان الواجب في اللغة : لعلي أضل على الله وحذف حرف الجر ، وذلك مشهور في اللغة كما قال الشاعر :

أستغفر الله ذنبًا

والمعنى من ذنب . ومن كان خائفًا عند حضور أجله فجدير أن تختلف أحواله لفرط خوفه ، وينطق بما لا يعتقد ، ومن كان هكذا فغير جائز إخراجه من الإيمان الثابت له ؛ إذ لم يعتقد ما قاله دينًا وشرعًا ، وإنما يكفر من اعتقده تعالى على خلاف ما هو به ، وقطع على أن ذلك هو الحق ، ولو كفر من جهل بعض صفات الله لكفر عامة الناس ؛ إذ لا يكاد نجد منهم من يعلم أحكام صفات ذاته ، ولو اعترضت جميع العامة وكثيرًا من الخاصة وسألتهم : هل لله -تعالى- قدرة [أو علم] (١) أو سمع أو بصر أو إرادة ، وهل قدرته [متعلقة](٢) بجميع ما يصح كونه معلومًا لما عرفوا حقيقة ذلك ؟ فلو حكم بالكفر على من جهل صفة من صفات الله -تعالى- لوجب الحكم به على جميع العامة ، وأكثر الخاصة وهذا محال .

---

(١) من « هـ » .   (٢) في « الأصل » : كلمة غير واضحة ، والمثبت من «هـ».

والدليل على صحة قولنا حديث السوداء ، وأن الرسول قال لها : «أين الله ؟ فقالت : في السماء . فقال : من أنا ؟ فقالت : أنت رسول الله . فقال : أعتقها ؛ فإنها مؤمنة» . فحكم لها بالإيمان ، ولم يسألها عن صفات الله وأسمائه ، ولو كان [علم] [1] ذلك شرطًا في الإيمان لسألها عنه كما سألها عن أنه رسول الله ، وكذلك سؤال أصحاب رسول الله - عمر بن الخطاب وغيره - رسول الله ﷺ عن القدر ، فقالوا : يا رسول الله ، أرأيت ما نعمل لأمر مستأنف أم لأمر قد سبق ؟ فقال : « بل لأمر قد سبق ، قال : ففيم يعمل العاملون ؟! قال : اعملوا ، فكل ميسر لما خلق له » وأعلمهم أن ما أخطأهم لم يكن ليصيبهم ، ومعلوم أنهم كانوا قبل سؤاله مؤمنين ، ولا يسع مسلمًا أن يقول غير ذلك فيهم ، ولو كان لا يسعهم جهل القدرة وقدم العلم لعلمهم ذلك مع شهادة التوحيد ، ولجعله عمودًا سادسًا للإسلام ، وهذا بين .

وأما حديث أبي هريرة في الرجل الذي واقع الذنب مرة بعد مرة ثم استغفر ربه فغفر له ، ففيه دليل على أن المصر في مشيئة الله -تعالى- إن شاء عذبه وإن شاء غفر له مغلبًا لخشيته التي جاء بها وهي اعتقاده ، وأن له ربا خالقا يعذبه ويغفر له واستغفاره إياه على ذلك ، يدل على ذلك قوله : ﴿ من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها ﴾[2] ولا حسنة أعظم من توحيد الله والإقرار بوجوده والتضرع [إليه] [1] في المغفرة .

فإن قيل : فإن استغفاره ربه توبة منه ، ولم يكن مصرًا ! قيل له : ليس الاستغفار أكثر من طلب غفرانه ، وقد يطلب الغفران المصر والتائب ، ولا دليل في الحديث على أنه قد كان تاب مما سأل الغفران

---

(١) من « هـ » .

(٢) الأنعام : ١٦٠ .

منه ؛ لأن التوبة الرجوع عن الذنب والعزم ، على ألا يعود إلى مثله والاستغفار لا يفهم منه ذلك ، وبالله التوفيق.

* * *

باب : كلام الرب تعالى مع الأنبياء وغيرهم يوم القيامة

فيه : أنس : قال النبي - عليه السلام - : « إذا كان يوم القيامة شفعت [فقلت] [1] : يا رب / [أدخل من كان في قلبه خردلة. فيدخلون][2]، [ثم أقول] [3] : أدخل الجنة من كان في قلبه أدنى شيء ، وقال أنس مرة عن النبي ﷺ : إذا كان يوم القيامة وماج الناس بعضهم في بعض فيأتون آدم... » إلى قوله: فيأتوني فأقول: أنا لها، فأستأذن على ربي فيؤذن لي ويلهمني محامد أحمده بها ، لا تحضرني الآن ، وأخر له ساجداً ، فيقال : يا محمد ، ارفع رأسك ، وقل يسمع لك ، واشفع تشفع ، وسل تعط . فأقول : يا رب ، أمتي . فيقال : انطلق فأخرج [منها] [4] من كان في قلبه مثقال شعيرة من إيمان ... » وذكر الحديث إلى قوله : « أدنى مثقال حبة من خردل من إيمان إلى قوله : « فمررنا بالحسن بن أبي الحسن وهو متوار فقلنا : يا أبا سعيد، جئناك من عند أخيك أنس بن مالك ، فلم نر مثل ما حدثنا في الشفاعة. قال : هيه فحدثناه ، قال : حدثنا ، وهو جميع منذ عشرين سنة أنه قال : ثم أعود الرابعة فأحمده بتلك المحامد ثم أخر له ساجداً ... » إلى قوله : « فيقول: وعزتي وجلالي وكبريائي وعظمتي لأخرجن منها من قال : لا إله إلا الله» .

[٤/ق٢٣٨-ب]

---

(١) في « الأصل » : فأقول . والمثبت من « هـ ، ن» .
(٢) بياض بالأصل . والمثبت من « ، هـ ، ن » .
(٣) في « الأصل » : فأقول . والمثبت من « هـ ، ن » . (٤) من « هـ ، ن » .

وفيه : عبد الله : قال النبي – عليه السلام – : « إن آخر أهل الجنة دخولا الجنة ، وآخر أهل النار خروجًا من النار رجل يخرج [حبوًا] (١) فيقول له ربه : ادخل الجنة ، فيقول : رب الجنة [ملأي] (٢) ! فيقول ذلك ثلاثًا كل ذلك [يعيد] (٣) عليه : الجنة ملأى ! فيقول : إن لك مثل الدنيا عشر مرات » .

وفيه : عدي قال النبي – عليه السلام – : « ما منكم أحد إلا سيكلمه ربه ، ليس بينه وبينه ترجمان » .

وفيه : عبد الله : جاء حبر من اليهود إلى النبي – عليه السلام – فقال : « إذا كان يوم القيامة جعل الله السموات على إصبع ... الحديث « ثم يهزهن ثم يقول : أنا الملك ... » الحديث .

وفيه : ابن عمر « سأله رجل : كيف سمعت النبي –عليه السلام– يقول في النجوى ؟ قال : يدنو أحدكم من ربه حتى يضع كنفه عليه فيقول : عملت كذا وكذا ، فيقرره فيقول : نعم . ثم يقول : إني سترتها عليك في الدنيا ، وإني أغفرها لك اليوم » .

قال المهلب : قد تقدم إثبات كلام الله مع الملائكة المشاهدة له وأثبت في هذا الباب كلامه تعالى مع [النبيين] (٤) يوم القيامة بخلاف ما حرمهم إياه في الدنيا بحجابه الأبصار عن رؤيته فيها ، فيرفع في الآخرة ذلك الحجاب عن أبصارهم ، ويكلمهم على حال المشاهدة كما قال عليه السلام : « ليس بينه وبينهم ترجمان » وجميع أحاديث الباب فيها كلام الله مع عباده ، ففي حديث الشفاعة قوله تعالى لمحمد:

(١) في « الأصل » : حبر .
(٢) في « الأصل »: مولاي . والمثبت من «هـ،ن».
(٣) في « الأصل » : يعبر . والمثبت من «هـ،ن» .
(٤) في « هـ » : البشر .

«أخرج من النار من في قلبه مثقال حبة من خردل من إيمان » إلى قوله: « وعزتي وجلالي وكبريائي لأخرجن منها من قال : لا إله إلا الله » فهذا كلامه للنبي - عليه السلام - بدليل قوله : « فأستأذن على ربي » وفي بعض طرق الحديث « فإذا رأيته أخر له ساجدًا » وكذلك قوله في حديث آخر من يدخل الجنة . قوله تعالى : « ادخل الجنة . فيقول : رب الجنة ملأى » إلى قوله : «لك مثل الدنيا عشر مرات » فأثبت بذلك كلامه تعالى مع غير الأنبياء مشافهة ، ونظرهم إليه ، وكذلك حديث النجوى : يدنيه الله من رحمته وكرامته ويقول : سترتها عليك في الدنيا ، وأنا أغفرها لك اليوم على الانفراد عن الناس . وقد تقصيت الكلام في النجوى في باب : ستر المؤمن على نفسه في كتاب الأدب في موضعه .

وقوله : « هيه » : هي كلمة استزادة للكلام. عن صاحب العين.

وقوله: «ثم يهزهن». قال صاحب العين : الهزهزة: تحريك اليد .

* * *

باب : قول الله تعالى : ﴿ وكلم الله موسى تكليمًا ﴾ (١)

فيه : أبو هريرة : قال النبي - عليه السلام - : « احتج آدم وموسى قال موسى: أنت آدم الذي أخرجت ذريتك من الجنة . قال : أنت موسى الذي اصطفاك الله برسالته وبكلامه ... » الحديث .

وفيه : أبو هريرة : قال النبي - عليه السلام - : « يجمع المؤمنون يوم القيامة فيقولون: لو استشفعنا إلى ربنا فيريحنا من مكاننا هذا » .

وفيه : أنس « قال : ليلة أسري بالنبي ﷺ من مسجد الكعبة؛ جاءه ثلاثة نفر قبل [أن] (٢) يوحى إليه وهو نائم في المسجد الحرام فقال أولهم:

---

(١) النساء : ١٦٤ .

(٢) من « هـ ، ن » .

أيهم هو ؟ فقال أوسطهم : هو خيرهم . فقال آخرهم : خذوا خيرهم ، فكان تلك الليلة [فلم] [١] يرهم حتى أتوه ليلة أخرى فيما يرى قلبه [وتنام] [٢] عينه ولا ينام قلبه / وكذلك الأنبياء - عليهم السلام - تنام [٤/ق٢٣٩-أ] أعينهم ولا تنام قلوبهم ، فلم يكلموه [حتى احتملوه فوضعوه عند بئر زمزم] [٣] فتولاه جبريل فشق ما بين نحره إلى لبته حتى فرغ من جوفه وصدره ، فغسله من ماء زمزم بيده حتى أنقى جوفه ، ثم أتي بطست من ذهب فيه تور من ذهب محشو حكمة وإيمانًا فحشا به صدره ولغاديده - يعني عروق حلقه - ثم أطبقه ، ثم عرج به إلى السماء فضرب بابًا من أبوابها ، فناداه أهل السماء ...» فذكر حديث المعراج « فذكر في السماء الدنيا آدم، وإدريس في الثانية، وهارون في الرابعة ، وآخر في الخامسة لم أحفظ اسمه ، وإبراهيم في السادسة ، وموسى في السابعة بتفضيل [كلام] [٤] الله ، فقال موسى: رب لم أظن أن ترفع عليّ أحدًا ، ثم علا به فوق ذلك بما لا يعلمه [إلا] [٥] الله حتى جاء سدرة المنتهى ودنا الجبار رب العزة فتدلى حتى كان منه قاب قوسين أو أدنى . فأوحى الله -تعالى- إليه خمسين صلاة ، فقال له موسى : راجع ربك . فراجع [ربه][٦] حتى خفف عنه إلى خمس صلوات ، فقال : ارجع إلى ربك فقال النبي ﷺ : يا موسى ، قد والله استحييت من ربي مما اختلفت إليه ، قال: فاهبط بسم الله ، واستيقظ وهو في المسجد الحرام » .

قال المؤلف : بوب البخاري لحديث أنس في كتاب الأنبياء باب :

---

(١) في « الأصل » : لم . والمثبت من « هـ ، ن » .
(٢) بياض في « الأصل » . والمثبت من « هـ ، ن » .
(٣) بياض بالأصل . والمثبت من « هـ ، ن » .
(٤) في « الأصل » : كلامه . والمثبت من « هـ ، ن » .
(٥) من « هـ ، ن » . (٦) في « الأصل » : عنه . والمثبت من « هـ » .

كان النبي ﷺ تنام عينه ولا ينام قلبه. وبوب له في تفسير القرآن باب: قوله تعالى: ﴿ **وما جعلنا الرؤيا التي أريناكَ** ﴾ [(١)] .

استدل البخاري على إثبات كلام الله، وإثباته [متكلمًا][(٢)] بقوله تعالى: ﴿ **وكلم الله موسى تكليمًا** ﴾ [(٣)] وأجمع أهل السنة على أن الله كلم موسى بلا واسطة ولا ترجمان، وأفهمه معاني كلامه، وأسمعه إياها؛ إذ الكلام مما يصح سماعه.

فإن قال قائل من المعتزلة أو غيرهم: فإذا سمع موسى كلام الله بلا واسطة ولا ترجمان، فلا يخلو أن يكون من جنس الكلام المسموع المعهود فيما بيننا أو لا يكون من جنسه، فإن كان من جنسه فقد وجب أن يكون محدثًا ككلام المحدثين، وإن لم يكن من جنسه فكيف السبيل إلى إسماعه إياه وفهمه معانيه؟

فالجواب أنه لو لزم من حيث سمعه منه تعالى وفهم معانيه أن يكون كسائر كلام المحدثين قياسًا عليه للزم أن يكون بكونه فاعلا وقادرًا وعالمًا وحيًا ومريدًا، وسائر صفاته من جنس جميع الموصوفين بهذه الصفات فيما بيننا. فإن قالوا: نعم، خرجوا من التوحيد، وإن أبوه نقضوا دليلهم [واعتمادهم] [(٤)] على قياس الغائب على حكم الشاهد.

ثم يقال لهم: لو وجب أن يكون كلامه من جنس كلام المخلوقين من حيث اشترك كلامه تعالى وكلامهم في إدراكهما بالأسماع لوجب إذا كان الباري - تعالى - موجودًا وشيئًا أن يكون من جنس الموجودات وسائر الأشياء المشاهدة لنا، فإن لم يجب هذا لم يجب

---

(١) الإسراء: ٦٠.

(٢) في «الأصل»: مكلمًا. والمثبت من «هـ».

(٣) النساء: ١٦٤.

(٤) في «الأصل»: واعتقادهم. والمثبت من «هـ».

ما عارضوا به ، وقد ثبت أنه تعالى قادر على أن يعلمنا اضطراراً كل شيء يصح أن يعلمناه استدلالاً ونظراً ، وإذا كان ذلك كذلك وجب أن يكون تعالى [قادرًا] [1] على أن يعلم موسى معاني كلامه الذي لا يشبه كلام المخلوقين الخارج عن كونه حروفًا منظمة وأصواتًا مقطعة اضطرارًا أو ينصب له دليلا إذا نظر فيه أدّاه إلى العلم بمعاني كلامه ، فإذا كان قادرًا على الوجهين جميعًا زالت شبهة المعتزلة .

قال المهلب : في إفهام الله - تعالى - موسى من كلامه ما لا عهد له بمثله بتنوير قلبه له وشرحه لقبوله لا يخلو أن يكون ما أفهم الله سليمان من كلام الطير ومنطقها هو مثل كلام سليمان أو لا يشبه كلامه، فإن كان يشبه كلام سليمان ومن جنسه فلا وجه لاختصاص سليمان وداود بتعليمه دون بني جنسه ، ولا معنى لفخره عليه السلام بالخاصة وامتداحه بقوله : ﴿ **عُلمنا منطق الطير** ﴾ [2] إلى قوله : ﴿ **إن هذا لهو الفضل المبين** ﴾ أو يكون منطق الطير الذي فهمه سليمان غير منطق سليمان وآله وبني جنسه ، فقد أفهمه الله ما لم يفهمه غيره من كلام الهدهد وكلام النملة التي تبسم ضاحكًا من قولها لفهمه عنها ما لم يفهمه غيره منها .

وإنما ذكر حديث أبي هريرة في حديث الشفاعة مختصرًا لما في الحديث الطويل من قول إبراهيم « ولكن ائتوا موسى عبدًا آتاه الله التوراة ، وكلمه تكليمًا » وكذلك في حديث أنس في الإسراء « فوجد موسى في السماء السابعة بتفضيل كلامه عز وجل » / وهذا يدل على [٤/ق٢٣٩-ب] أن الله - تعالى - لم يكلم من الأنبياء غير موسى - عليه السلام -

---

(١) في « الأصل » : قادر . والمثبت من « هـ » .

(٢) النمل : ١٦ .

بخلاف ما زعم الأشعريون ، ذكروا عن ابن عباس وابن مسعود أن الله كلم محمدًا عليه السلام بقوله : ﴿ **فأوحى إلى عبده ما أوحى** ﴾ [(١)] وأنه رأى ربه - تعالى - ، وقد دفعت هذا عائشة وأعظمت فرية من افترى فيه على الله - تعالى - .

وأما قول موسى إذ علا جبريل بمحمد : « يا رب ، لم أظن أنك ترفع علي [أحدًا] [(٢)] . موسى أن الله لم يكلم أحدًا من البشر في الدنيا غيره ؛ إذ بذلك استحق أن يرفع إلى السماء السابعة، وفهم من قوله تعالى : ﴿ **إني اصطفيتك على الناس برسالاتي وبكلامي** ﴾ [(٣)] أنه أراد البشر كلهم .

ولم يعلم - والله أعلم - أن الله - تعالى - فضل محمدًا عليه بما أعطاه الله من الوسيلة والدعوة المقبولة منه شفاعة لأمته ولسائر الأنبياء من شدة موقفهم يوم الحشر حين أحجم الأنبياء عن الوسيلة إلى ربهم لشدة غضبه ، وفضله بالإسعاف [(٤)] بالمقام المحمود الذي وعده في كتابه ، فبهذا رفع الله محمدًا على موسى .

وأما قوله : « فدنا الجبار رب العزة » فهو دنو محبة ورحمة وفضيلة لا دنو مسافة ونقلة لاستحالة النقلة والحركة على الباري إذ لا يجوز تحويه الأمكنة .

وقوله : « حتى كان قاب قوسين أو أدنى » فهو جبريل الذي تدلى، فكان من الله أو من أمره على مقدار ذلك . عن الحسن ﴿ **فأوحى إلى عبده ما أوحى** ﴾ [(١)] إلى جبريل ما أوحى ، وكتب القلم وحتى سمع

---

(١) النجم : ١٠ . (٢) في « الأصل » : أحد . والمثبت من « هـ » .

(٣) الأعراف : ١٤٤ .

(٤) الإسعاف : المساعدة والمواتاة والقرب في حسن مصافاة ومعاونة ، انظر « اللسان» (مادة : سعف) .

محمد صريفه في كتابه، وبلغ جبريل محمداً، وهو عند سدرة المنتهى، قيل: إليها منتهى أرواح الشهداء ﴿ **ما كذب الفؤاد ما رأى** ﴾[1]. قال ابن عباس: رأى محمد ربه بقلبه. وعن ابن مسعود وعائشة: رأى جبريل. وهو قول قتادة . وقال الحسن : ما رأى من مقدور الله وملكوته .

وقوله : ﴿ **أفتمارونه على ما يرى** ﴾ [2] هو محمد رأى جبريل - عليه السلام - في صورته التي خلقه الله عليها له ستمائة جناح رفرفًا أخضر سد ما بين الخافقين ، ولم يره قط في صورته التي هو عليها إلا مرتين ، وإنما كان يراه في صورة كان يتشكل عليها من صور الآدميين وأكثرها صورة دحية الكلبي .

وفي قوله : ﴿ **أفتمارونه على ما يرى** ﴾ [2] دليل على أن العيان أكبر أسباب العلم فلا يتمارى [فيه] [3] ولذلك قال عليه السلام : «ليس الخبر كالمعاينة » ورأيت لبعض الناس في لقاء النبي - عليه السلام - للأنبياء في السموات دون عليين ، والأنبياء مقرهم في ساحة الجنة ورياضها تحت العرش ، ومن دونهم من المقربين هناك فما وجه لقائه لآدم في السماء الدنيا ، ولإدريس في السماء الثانية ، وهارون في الرابعة ، وآخر في الخامسة ، وإبراهيم في السادسة ، وموسى في السابعة ؟ قال : فوجهه أنهم تلقوه عليه السلام كما يتلقى القادم يسابق الناس إليه على قدر سرورهم بلقائه .

وقد روي عن [أنس في] [4] رتبة لقاء الأنبياء في السموات خلاف حديث البخاري ، روى ابن وهب ، عن يعقوب بن عبد الرحمن

---

(١) النجم : ١١ . (٢) النجم : ١٢

(٣) من « هـ » . (٤) في « الأصل » : يونس عن . والمثبت من « هـ » .

الزهري ، عن أبيه ، عن عبد الرحمن بن هاشم [بن] [١] عتبة بن [أبي] [٢] وقاص ، عن أنس بن مالك فذكر حديث الإسراء « فوجد آدم في السماء الدنيا ، وفي السماء الثانية عيسى ويحيى بن زكريا ابنا الخالة ، وفي الثالثة يوسف ، وفي السماء الرابعة إدريس ، وفي الخامسة هارون ، وفي السادسة موسى ، وفي السابعة إبراهيم».

وأما قوله : «فاستيقظ وهو في المسجد الحرام » فإن أهل العلم اختلفوا في صفة مسرى النبي ، فقالت طائفة : أسرى الله بجسده ونفسه ، روي ذلك عن ابن عباس والضحاك وسعيد بن جبير وقتادة ، وإبراهيم ومسروق ومجاهد وعكرمة .

وقالت طائفة ممن قال : أسري بجسده أنه صلى بالأنبياء ببيت المقدس ثم عرج به إلى السماء فأوحى الله إليه ، وفرض عليه الصلاة، ثم رجع إلى المسجد الحرام من ليلته فصلى به صلاة الصبح ، روى ذلك الطبري في حديث الإسراء عن أنس : ذكر من حديث أبي سعيد الخدري أنه صلى عليه السلام في بيت المقدس ، ولم يذكر أنه صلى خلفه أحد ، وقالت طائفة : أسري برسول الله بجسمه ونفسه غير أنه لم يدخل بيت المقدس ، ولم يصل فيه ، ولم ينزل عن البراق حتى رجع إلى مكة. روي ذلك عن حذيفة قال في قوله تعالى : ﴿ **سبحان الذي أسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى**﴾[٣] قال: لم يصل فيه النبي - عليه السلام - ، ولو صلى فيه لكتب عليكم الصلاة فيه كما كتب عليكم الصلاة عند الكعبة .

[٤/ق٢٤٠-أ] وقال آخرون : أسري بروحه / ولم يسر بجسده ، روي ذلك عن عائشة ومعاوية بن [أبي سفيان والحسن البصري ، وذكر ابن فورك عن

---

(١) في « الأصل » : عن . (٢) من « هـ » . (٣) الإسراء : ١ .

الحسن قال :] [1] عرج بروح النبي - عليه السلام - وجسده في الأرض ، وهو اختيار محمد بن إسحاق صاحب السير .

ومن حجة أهل المقالة الأولى ما روي عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿ **وما جعلنا الرؤيا التي أريناك إلا فتنة للناس** ﴾ [2] قال : هي رؤيا عين أريها رسول الله ﷺ ليلة أسري به إلى بيت المقدس ، وليست رؤيا منام ، رواه ابن عيينة ، عن عمرو ، عن عكرمة ، عن ابن عباس قالوا : ولو أسري بروحه دون جسده ، وكان الإسراء في المنام لما أنكرت قريش ذلك من قوله عليه السلام ؛ لأنهم كانوا لا ينكرون الرؤيا ؟ ولا ينكرون أحدًا يرى في المنام ما على مسيرة سنة ، فكيف ما هو على مسيرة شهر أو أقل .

ومن حجة الذين قالوا : أسري بروحه دون جسده قول أنس في حديث الإسراء ، قال حين أسري به : « جاءه ثلاثة نفر وهو نائم في المسجد الحرام . . . » وذكر الحديث إلى قوله : « حتى أتوه ليلة أخرى [فيما][3] يرى قلبه وتنام عينه ولا ينام قلبه ، وكذلك الأنبياء عليهم السلام تنام أعينهم ولا تنام قلوبهم » فذكر النوم في أول الحديث ، وقال في آخره : « فاستيقظ وهو في المسجد الحرام » وهذا بين لا إشكال فيه ، وإلى هذا ذهب البخاري ، ولذلك ترجم له في كتاب الأنبياء وتفسير القرآن ما ذكرته في صدر هذا الباب .

قال ابن إسحاق : وأخبرني بعض آل أبي بكر الصديق أن عائشة كانت تقول [4] : [ما فقد جسد رسول الله ﷺ ولكن أسري بروحه. قال ابن إسحاق : وحدثني يعقوب بن عيينة بن المغيرة أن معاوية بن أبي سفيان كان إذا سئل عن مسرى رسول الله ﷺ قال : كانت رؤيا

(١) بياض بالأصل .
(٢) الإسراء : ٦ .
(٣) في « الأصل » : مما . والمثبت من « هـ » .
(٤) من هنا سقط بالأصل وسينبه على آخره ، والمثبت من « هـ » .

من الله صادقة . قال ابن إسحاق : فلم ينكر ذلك من قولهما لقول الحسن البصري : إن هذه الآية نزلت في ذلك يعنيُ : قول الله - عز وجل - : ﴿ **وما جعلنا الرؤيا التي أريناك إلا فتنة للناس** ﴾ (١) ولقول الله - عز وجل - عن إبراهيم - عليه السلام - إذ قال لابنه : ﴿ **يا بني إني أرى في المنام أني أذبحك** ﴾ (٢) ثم مضى على ذلك فعرف أن الوحي من الله - عز وجل - يأتي الأنبياء أيقاظًا ونيامًا .

قال ابن إسحاق : وكان رسول الله ﷺ يقول: «تنام عيني ، وقلبي يقظان» فالله أعلم أي ذلك كان قد جاءه ، وعاين فيه ما عاين من أمر الله -تعالى- على أي حاليه كان نائمًا أو يقظان كل ذلك حق وصدق.

وذكر ابن فورك في مشكل القرآن قال : كان النبي ﷺ ليلة الإسراء في بيت أم هانئ بنت أبي طالب . فالله أعلم .

واحتج أهل هذه المقالة فقالوا : ما اعتل به من قال : إن الإسراء لو كان في المنام لما أنكرته قريش ؛ لأنهم كانوا لا ينكرون الرؤيا فلا حجة فيه ؛ لأن قريشًا كانت تكذب العيان ، وترد شهادة الله التي هي أكبر شهادة عليهم بذلك ؛ إذ قال عنهم حين انشق القمر : ﴿ **وإن يروا آية يعرضوا ويقولوا سحر مستمر** ﴾ (٣) فأخبر عنهم أنهم يكذبون ما يرون عيانا ، وكذلك قال عنهم : ﴿ **ولو فتحنا عليهم بابًا من السماء فظلوا فيه يعرجون لقالوا إنما سكرت أبصارنا بل نحن قوم مسحورون** ﴾ (٤) وقال تعالى عنهم أنهم قالوا : ﴿ **لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعًا** ﴾ إلى ﴿ **أو ترقى في السماء** ﴾ (٥) ثم قالوا بعدما تمنوه: ﴿ **ولن نؤمن لرقيك حتى تنزل علينا كتابًا** ﴾ (٦) وقال تعالى : ﴿**وأقسموا بالله جهد أيمانهم لئن جاءتهم آية ليؤمنن بها**﴾ إلى قوله :

---

(١) الإسراء : ٦٠ . (٢) الصافات : ١٠٢ . (٣) القمر : ٢ .
(٤) الحجر : ١٥ . (٥) الإسراء : ٩٠ - ٩٣ . (٦) الإسراء : ٩٣ .

﴿وما يشعركم أنها إذا جاءت لا يؤمنون﴾[1] الآية . فأخبر تعالى أنه يكيد عقولهم وأبصارهم حتى ينكروا العيان القاطع للارتياب .

ومثله قوله تعالى : ﴿ ولو أننا نزلنا إليهم الملائكة وكلمهم الموتى وحشرنا عليهم كل شيء قبلا ما كانوا ليؤمنوا إلا أن يشاء الله ﴾ [2] وإنما كان إنكار قريش لقوله : « أسري بي الليلة إلى بيت المقدس » حرصًا منهم على التشنيع عليه ، وإثارة اسم الكذب عليه عند العامة المستهواة][3] بمثل هذا التشنيع فلم يسألوه في اليقظة كان ذلك الإسراء أو في النوم وأقبلوا على التقريع له ، وتعظيم قوله ، وهذا غير معدوم من تشنيعهم ، ألا ترى تكذيبهم قبل وقعة بدر لرؤيا عاتكة بنت عبد المطلب - عمة رسول الله ﷺ - إذ قالت : رأيت كأن صخرة [وقعت][4] من أبي قبيص فانفلقت فما تركت داراً بمكة إلا دخلت فيها منها فلقة . فلما رأوا قبح تأويلها عليهم قالوا : يا بني عبد المطلب، ما أهل بيت في العرب أكذب منكم ، أما كفاكم أن تدعوا النبوة في رجالكم حتى جعلتم منكم نبية : فشنعوا رؤياها ، وأخبروا عنها [بالنفي][5] طمعًا في إثارة العامة عليهم ، فكذلك كان قولهم في مسراه عليه السلام .

وفسر في الحديث اللغاديد : عروق الحلق . وأهل اللغة يقولون : اللغاديد هي كالزوائد من لحم يكون في باطن الأذنين من داخل ، [واحدها لغدود] [6] وبعض العرب تسميها : [الألغاد] [7] ، واحدها : لغد . ذكره ثابت في خلق الإنسان .

* * *

---

(١) الأنعام : ١٠٩ . (٢) الأنعام : ١١١ . (٣) إلى هنا ينتهي السقط .

(٤) في « هـ » : انحدرت . (٥) غير واضحة في « الأصل ». والمثبت من «هـ» .

(٦) في « الأصل » : واحدتها لغدودة . والمثبت من « هـ » .

(٧) في « الأصل » : الأغداد . والمثبت من « هـ » .

باب : كلام الله تعالى عز وجل مع أهل الجنة

فيه : أبو سعيد قال النبي - عليه السلام - : « إن الله يقول لأهل الجنة : يا أهل الجنة . فيقولون : لبيك ربنا وسعديك ، والخير في يديك . فيقول: هل رضيتم ؟ فيقولون : وما لنا لا نرضى يا رب وقد أعطيتنا ما لم تعط أحدًا من خلقك ؟ فيقول : ألا أعطيكم أفضل من ذلك . فيقولون : يا رب ، وأي شيء أفضل من ذلك ؟! فيقول: أحل عليكم رضواني فلا أسخط عليكم بعده أبدًا » .

وفيه : أبو هريرة : أن النبي - عليه السلام - كان يومًا يحدث - وعنده رجل من أهل البادية - أن رجلا من أهل الجنة استأذن ربه في الزرع فقال له : أولست فيما شئت ؟ فقال له : بلى ، ولكني أحب أن أزرع . فأسرع وبذر، فتبادر الطرف نباته، واستواؤه واستحصاده وتكويره أمثال الجبال، فيقول الله : دونك يا ابن آدم ، فإنك لا يشبعك شيء .. » الحديث .

قال المهلب : قد تقدم إثبات كلام الله مع الأنبياء ومع الملائكة ، وفي هذا الباب إثبات كلامه مع أهل الجنة بقوله عليه السلام : « إن الله يقول لأهل الجنة : يا أهل الجنة ، فيقولون : لبيك ربنا وسعديك» فإن قال قائل من القدرية : إن في هذا الحديث ما يدل على وهنه وسقوطه ، وهو قوله : أحل عليكم رضواني فلا أسخط عليكم بعده أبدًا » لأن فيه ما يوهم أن له أن يسخط على من صار في الجنة ، وقد نطق القرآن بخلاف ذلك قال تعالى : **﴿فمن زحزح عن النار وأدخل الجنة فقد فاز﴾** (1) ، وقال : **﴿الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم أولئك لهم الأمن وهم مهتدون﴾** (2) / [٤/ق ٢٤-ب] وأنهم خالدون في الجنة أبدًا

---

(1) آل عمران : ١٨٥ . (2) الأنعام : ٨٢ .

فكيف يحل] (١) عليهم رضوانه ، وقد أوجبه لأهل الجنة بقوله : ﴿خالدين فيها أبدًا رضي الله عنهم ورضوا عنه ﴾ (٢) . فيقال له : لما ثبت أن الله تفضل بخلق العباد ، وأخرجهم من العدم إلى الوجود ، وأنعم عليهم بخلق الحياة وإدامة الصحة والالتذاذ بنعمه ، وكان له تعالى ألا يخرجهم ويبقيهم على العدم ، ثم لما خلقهم كان له ألا يخلقهم أحياءً ملتذين، وألا يديم لهم الصحة .

فكان تعالى في مجازاة المحسنين وإنجاز ما وعدهم من إحسانه متفضلا عليهم ، ولم يجب تعالى عليه لأحد شيء يلزمه ، إذ ليس فوقه تعالى من شرع له شرعًا ، ولا ألزمه حكمًا ، وللمتفضل أن يتفضل وألا يتفضل ، كما له أن يتعبد عباده بلا جزاء ولا شكور ، تسخيرًا كسائر المخلوقات ، وله أن يجازي مدة بمدة ، ومدة العمل في الدنيا متناهية فيقطع ما تفضل به من المجازاة على ما تفضل به عليهم من العمل والمعونة .

وعلموا أن آدم عليه السلام كلف في الجنة [اجتناب] (٣) أكل الشجرة ، فجاز عليه التكليف والمعصية ، لم يأمنوا ما لله - تعالى - في خلقه مثل ذلك من ابتداء التكليف وجواز المعصية ، فزاد الله سرورهم بأن أمنهم ما كان له أن يفعله فيهم ، ورفعه عنهم بالرضوان عليهم وإسقاط التكليف لهم [وعصمهم] (٤) من جواز المعصية عليهم، فلو عبد الله العبد ألف سنة بعد تقدم أمره إليه بذلك لما وجب له عليه جزاء على عبادة .

وكيف يجب له ثواب [وأقل] (٣) نعمة من نعمه تستغرق جميع أعماله التي تقرب بها إليه، فحلول رضوانه عليهم أنعم لنفوسهم من

---

(١) بياض بالأصل . والمثبت من « هـ » . (٢) المائدة : ١١٩ . وغيرها .

(٣) من « هـ » . (٤) في « الأصل » : وعنهم . والمثبت من « هـ » .

كل ما خولهم في جناته تعالى ، فسقط اعتراضهم ، وصح معنى الحديث .

وأدخل حديث [الزارع] [1] في الجنة لتكلم الله له .

وقوله : « دونك يا ابن آدم ، فإنه لا يشبعك شيء » فإن ظن من لم (ينعم) [2] النظر أن قوله : لا يشبعك شيء . معارض لقوله : ﴿إن لك ألا تجوع فيها﴾ [3] فليس كما ظن؛ لأن نفي الشبع لا يوجب الجوع ؛ لأن بينهما واسطة الكفاية والشبع بعده ، وأكل أهل الجنة لا عن جوع أصلاً لنفي الله - تعالى - الجوع عنهم، واختلف في الشبع فيها ، والصواب : ألا شبع ؛ لأنه لو كان فيها لمنع طول الأكل المستلذ منها مدة الشبع ، وإنما أراد بقوله عليه السلام : « لا يشبعك شيء » ذم ترك القناعة بما كان فيه ، وطلب الزيادة عليه ، أي لا تشبع عينك ولا نفسك بشيء ، والله الموفق .

* * *

باب : ذكر الله تعالى بالأمر وذكر [العباد بالدعاء] [4] والتضرع والرسالة والإبلاغ لقوله : ﴿ فاذكروني أذكركم﴾ [5] ﴿ واتل عليهم نبأ نوح ﴾ الآية إلى قوله : ﴿وأمرت أن أكون من المسلمين ﴾ [6] غمة : هم وضيق

قال مجاهد : ثم اقضوا إليّ: ما في أنفسكم ، يقال افرق : اقض.

وقال مجاهد : ﴿ وإن أحد من المشركين استجارك فأجره ﴾ [7] إنسان

(١) في « الأصل » : الزراع . والمثبت من « هـ » .

(٢) في « هـ » : يمعن . وهما بمعنى . (٣) طه : ١١٨ .

(٤) في « الأصل » : العبادة الدعاء. والمثبت من « هـ، ن » . (٥) البقرة: ١٥٢ .

(٦) يونس : ٧١ - ٧٢ . (٧) التوبة : ٦ .

[يأتيه] [1] فيسمع ما يقول وما أنزل عليه ، فهو آمن حتى يسمع كلام الله ﴿ ثم أبلغه مأمنه ﴾ [2] حتى يبلغ مأمنه من [حيث] [1] جاء النبأ العظيم ، القرآن صوابًا حقًا في الدنيا وعمل به .

معنى قوله باب ذكر الله بالأمر : أي ذكر الله لعباده يكون مع أمره لهم بعبادته ، والتزام طاعته ، ويكون مع رحمته لهم ، وإنعامه عليهم إذا أطاعوه ، وبعذابه إذا عصوه .

قال ابن عباس في قوله : ﴿ **فاذكروني أذكركم** ﴾ [3] : إذا ذكر الله العبد وهو على طاعته ؛ ذكره برحمته ، وإذا ذكره وهو على معصيته ؛ ذكره بلعنته .

وقال سعيد بن جبير : اذكروني بالطاعة أذكركم بالمغفرة .

قال المهلب : قوله: ذكر العباد بالدعاء والتضرع في الغفران ، والتفضل عليهم بالرزق والهداية ، وقوله: والرسالة والإبلاغ معناه : وذكر الله الأنبياء بالرسالة والإبلاغ بما أرسلهم به إلى عباده بما يأمرهم به من عبادته وينهاهم ، وقوله : ﴿ **واتل عليهم نبأ نوح** ﴾ [4] ، فهذا ذكر الله لرسوله نوح بما بلغ من أمره ، وتذكيره قومه بآيات الله ، وكذلك فرض على كل نبي تبليغ كتابه وشريعته، ولذلك ذكر قوله تعالى : ﴿ **وإن أحد من المشركين استجارك فأجره حتى يسمع كلام الله** ﴾[2] الذي أمر بتلاوته عليهم ، وإنبائهم به .

وقال مجاهد : النبأ العظيم : القرآن ، سمي نبأ لأنه [منبأ] [5] به، وهو متلو للنبي - عليه السلام - ولهذا ذكر في الباب هذه / الآية [٤/ق٢٤١-أ] من أجل أمر الله - تعالى - محمدًا - عليه السلام - إجارة [المشرك

---

(١) من « هـ ، ن » . (٢) التوبة : ٦ . (٣) البقرة : ١٥٢ .
(٤) يونس : ٧١ . (٥) في « الأصل » : ينبأ . والمثبت من « هـ » .

حتى يسمع الذكر ، وقوله صوابًا حقًا ، يريد قوله عز وجل :] [1]
﴿لا يتكلمون إلا من أذن له الرحمن وقال صوابًا ﴾ [2] يريد وقال حقًا في الدنيا ، وعمل به [فذلك الذي يؤذن له في الكلام بين يدي] [1] الله - تعالى - بالشفاعة لمن أذن له ، وكان يصلح أن يذكر في هذا الباب قوله عليه السلام عن ربه - تعالى - : « من ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي ، ومن ذكرني في ملأ ذكرته في ملأ خير منهم » أي من ذكرني في نفسه [متضرعًا] [3] داعيًا ؛ ذكرته في نفسي مجيبًا مشفقًا ، فإن ذكرني في ملأ من الناس بالدعاء والتضرع ذكرته في ملأ من الملائكة - الذين هم أفضل من ملأ الناس - بالمغفرة والرحمة والهداية ، يفسره قوله عليه السلام في حديث التنزل : « هل من سائل فأعطيه، هل من مستغفر فأغفر له ، هل من تائب فأتوب عليه » هذا ذكر الله للعباد بالنعم والإجابة لدعائهم .

* * *

باب : قول الله تعالى: ﴿ فلا تجعلوا لله أندادًا ﴾ [4]، وقوله تعالى: ﴿ [وتجعلون له] [5] أندادًا ذلك رب العالمين ﴾ [6] ، وقوله تعالى : ﴿ والذين لا يدعون مع الله إلهًا آخر ﴾ [7] وقوله : ﴿ ولقد أوحي إليك وإلى الذين من قبلك لئن أشركت ... ﴾ [8] الآية

وقال عكرمة: ﴿ وما يؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون ﴾ [9] قال:

---

(١) بياض بالأصل . والمثبت من « هـ » . (٢) النبأ : ٣٨ .
(٣) في « الأصل » : تضرعًا . والمثبت من « هـ » . (٤) البقرة : ٢٢ .
(٥) في « الأصل » : ولا تجعلوا لله . والمثبت من «هـ». (٦) فصلت : ٩ .
(٧) الفرقان : ٦٨ . (٨) الزمر : ٦٥ . (٩) يوسف : ١٠٦ .

يسألهم من خلقهم وخلق السموات والأرض ، فيقولون : الله ، وذلك إيمانهم ، وهم يعبدون غيره . وما ذكر في خلق [أفعال] [1] العباد واكتسابهم لقوله تعالى : ﴿ وأسروا قولكم أو اجهروا به ﴾ [2] الآية ، وقوله : ﴿ والله خلقكم وما تعملون ﴾ [3] وقوله : ﴿ وخلق كل شيء فقدره تقديرًا ﴾ [4] .

وقال مجاهد : ﴿ ما ننزل الملائكة إلا بالحق ﴾ [5] : بالرسالة والعذاب، ﴿ ليسأل الصادقين ﴾ [6] : المبلغين المؤدين من الرسل ﴿ وإنا له لحافظون ﴾ [7]: عندنا ﴿والذي جاء بالصدق﴾ [8] : القرآن ﴿ وصدق به ﴾ [8] : المؤمن يقول يوم القيامة : هو الذي أعطيتني عملت بما فيه .

فيه : عبد الله [سألت] [1] النبي ﷺ أي الذنب أعظم عند الله ؟ قال : أن تجعل لله ندًا وهو خلقك . قلت : ثم أي ؟ قال : أن تقتل ولدك (خشية) [9] أن يطعم معك . قلت : ثم أي ؟ قال : أن تزاني حليلة جارك » .

قال المهلب : غرضه في هذا الباب إثبات الأفعال كلها لله تعالى كانت من المخلوقين ، خيرًا أو شرًا ، فهي لله خلق وللعباد كسب ، ولا ينسب منها شيء إلى غير الله - تعالى - فيكون شريكًا له ، وندًا مساويًا له في نسبة الفعل إليه ، ونبه الله عباده على ذلك بقوله : ﴿ فلا تجعلوا لله أندادًا وأنتم تعلمون ﴾ [10] أنه الخالق لكم ولأفعالكم وأرزاقكم ، ردًا على من زعم من القدرية أنه يخلق أفعاله ، فمن علم

---

(١) من « هـ ، ن » . (٢) الملك : ١٣ . (٣) الصافات : ٩٦ .
(٤) الفرقان : ٢ . (٥) الحجر : ٨ . (٦) الأحزاب : ٨ .
(٧) الحجر : ٩ . (٨) الزمر : ٣٣ .
(٩) في « هـ » : مخافة . وفي « ن » : تخاف . (١٠) البقرة : ٢٢ .

أن الله خلق كل شيء فقدره تقديراً ، فلا ينسب شيئًا من الخلق إلى غيره ، فلهذا ذكر هذه الآيات في نفي الأنداد والآلهة المدعوة معه ، فمنها ما حذر به المؤمنين ، ومنها ما وبخ به الكافرين الضالين ، ثم أثنى على المؤمنين في قوله : ﴿ **والذين لا يدعون مع الله إلهًا آخر** ﴾ (١) يريد كما يدعو عبدة الأوثان لترزقهم، وتعافيهم، وهي لا تملك لهم ضرًا ولا نفعًا.

وقوله : « أي الذنب أعظم ؟ قال : أن تجعل لله ندًا وهو خلقك » معناه : رزقك بدليل قوله: « ثم أن تقتل ولدك خشية أن يطعم معك » كيف تقتله وقد خلق رزقه ، فلا يأكل من رزقك شيئًا ، فمن خلقك وخلقه ، ورزقك ورزقه ، أحق بالعبادة من الند الذي اتخذت معه شريكًا ، ثم أن تزاني حليلة جارك ، وقد خلق لك زوجة فتقطع بالزنا الرحم والنسب ، وتقاطع الأرحام سبب إلى قطع الرحمة من الله ، والتراحم بين الناس ، ألا ترى غضب القبائل لبني [عمها] (٢) من أجل الرحم، وأن الغدر وخسيس الفعل منسوب إلى أولاد الزنا ، لانقطاع أرحامهم .

* * *

باب : قوله تعالى : ﴿ وما كنتم تستترون أن يشهد عليكم سمعكم ﴾ (٣) الآية

فيه : عبد الله بن مسعود : اجتمع عند البيت ثقفيان وقرشي - أو قرشيان وثقفي - كثيرة شحوم بطونهم ، قليل فقه قلوبهم ، فقال أحدهم: أترون أن الله يسمع / [ق٤/٢٤١-ب] **[ما نقول ؟ فقال الآخر : يسمع إن جهرنا] (٤) ولا يسمع إن أخفينا . قال الآخر : إن كان يسمع إذا جهرنا ،**

---

(١) الفرقان : ٦٨ .
(٢) في « الأصل » : غنها . والمثبت من « هـ » .
(٣) فصلت : ٢٢ .
(٤) غير واضحة بالأصل . والمثبت من «هـ ، ن » .

فإنه يسمع إذا أخفينا ؛ فأنزل الله : ﴿ وما كنتم تستترون أن يشهد عليكم﴾ [١] الآية .

غرضه في هذا الباب إثبات السمع لله - تعالى - والعلم بنيات [الكلام] [٢] له في هذه الآية ومن سائر الآيات [في الأبواب] [٣] المتقدمة، وإذا ثبت أنه سميع فواجب كونه [سامعًا] [٤] بسمع ، كما أنه لما ثبت كونه عالمًا وجب كونه عالمًا بعلم ، خلافًا لمن أنكر صفات الله من المعتزلة ، وقالوا : معنى وصفه بأنه سامع للمسموعات : بمعنى وصفه بأنه عالم بالمعلومات ولا سمع له ، ولا هو سامع حقيقة ، [وهذه شناعة ورد] [٥] لظواهر كتاب الله وسنن رسوله ، وموجب كون المخلوق أكمل أوصافًا من الخالق ؛ لأن السامع منا يسمع الشيء ويعلمه حقيقة ، وكذلك البصير منا يرى الشيء ويعلمه حقيقةً، فلو كان الباري سامعًا لما يسمعه ، ويعلمه بمعنى أنه [عالم] [٦] فقط ؛ لكنا أكمل وصفًا منه تعالى من حيث أدركنا الشيء من جهة السمع والعلم، وأدركه هو من جهة العلم فقط ، ومن أدرك الشيء من وجهين أولى بصفة الكمال من مدركه من وجه واحد ، وهذا يوجب عليهم أن يكون خالقهم بصفة الأصم الذي يعلم الشيء ولا يسمعه ، تعالى الله عن ذلك علوًا كبيرًا .

وفي حديث الثقفي والقرشيين من الفقه : إثبات القياس الصحيح ، وإبطال القياس الفاسد ، ألا ترى أن الذي قال : « يسمع إن جهرنا ،

---

(١) فصلت : ٢٢ . (٢) في « الأصل » : الإخلاص . والمثبت من «هـ» .
(٣) من « هـ » . (٤) في « الأصل » : سامع . والمثبت من « هـ » .
(٥) في « الأصل » : سماعه وردًا . والمثبت من « هـ » .
(٦) في « الأصل » : عالمًا . والمثبت من « هـ » .

ولا يسمع إن أخفينا » قد أخطأ في قياسه ؛ لأنه شبه الله - تعالى - بخلقه الذين يسمعون الجهر ، ولا يسمعون السر ، والذي قال : « إن كان يسمع إن جهرنا ، فإنه يسمع إن أخفينا » أصاب في قياسه حين لم يشبه الله بالمخلوقين ، ونزهه عن مماثلتهم .

فإن قيل : فإن كان أصاب في قياسه ، فكيف جعله النبي (١) -عليه السلام - من جملة الذين شهد [لهم] (٢) بقلة الفقه .

قيل له : لما لم يعتقد حقيقة ما قال ، و[شك] (٣) فيه ، ولم يقطع على سمع الله تعالى بقوله : إن كان يسمع ، لم يحكم له النبي (١) -عليه السلام - بالفقه، وسوى بينهم في [أنه] (٤) قليل فقه قلوبهم.

* * *

باب : قوله تعالى : ﴿ كل يوم هو في شأن ﴾ (٥) و﴿ ما يأتيهم من ذكر من ربهم محدث ﴾(٦) ، وقوله : ﴿ لعل الله يحدث بعد ذلك أمرًا ﴾ (٧) وأن [حدثه] (٨) لا يشبه حدث المخلوقين لقوله تعالى : ﴿ليس كمثله شيء وهو السميع البصير ﴾ (٩) وقال ابن مسعود عن النبي ﷺ : « إن الله يحدث من أمره ما [شاء](١٠)، وإن مما أحدث ألا تكلموا في الصلاة

فيه : ابن عباس قال : « كيف تسألون أهل الكتاب عن كتبهم ، وعندكم كتاب الله أقرب الكتب عهدًا بالله ، تقرءونه محضًا لم يشب». [وقال مرة : كتابكم الذي أنزل على نبيكم] (١١) أحدث الأخبار بالله.

---

(١) الحديث موقوف على ابن مسعود من قوله وليس للنبي ﷺ فيه ذكر فتنبه .
(٢) في « الأصل » له . والمثبت من « هـ » .
(٣) في « الأصل » : شكه . والمثبت من « هـ » . (٤) في « هـ » : أنهم .
(٥) الرحمن : ٥ . (٦) الأنبياء : ٢ . (٧) الطلاق : ١ .
(٨) في « الأصل » : حديثه . والمثبت من « هـ ، ن » . (٩) الشورى : ١١ .
(١٠) في « هـ ، ن » : يشاء . (١١) من « هـ » .

غرضه في هذا الباب الفرق بين وصف كلام الله بأنه مخلوق، وبين وصفه بأنه محدث ، فأحال وصفه بالخلق ، وأجاز وصفه بالحدث ، اعتمادًا على قوله تعالى : ﴿ **ما يأتيهم من ذكر من ربهم محدث** ﴾[1]، وهذا القول لبعض المعتزلة ولبعض أهل الظاهر، وهو خطأ في القول؛ لأن الذكر الموصوف في الآية بالإحداث ، ليس هو [نفس] [2] كلامه تعالى ؛ لقيام الدليل على أن محدثًا، ومخلوقًا ، ومنشئًا ، ومخترعًا: ألفاظ مترادفة على معنى واحد .

فإذا لم يجز وصف كلامه تعالى القائم بذاته بأنه مخلوق ، لم يجز وصفه بأنه محدث ، وإذا كان ذلك كذلك كان الذكر الموصوف في الآية بأنه محدث [راجعًا] [3] إلى أنه الرسول - عليه السلام - ؛ لأنه قد سماه الله - تعالى - في آية أخرى ذكرًا ، فقال تعالى : ﴿ **قد أنزل الله إليكم ذكرًا رسولا** ﴾ [4] فسماه ذكرًا في هذه الآية ، فيكون المعنى ما يأتيهم ذكر من ربهم ، بمعنى : ما يأتيهم رسول .

ويحتمل أن يكون الذكر في الآية هو وعظ الرسول ، وتحذيره إياهم من معاصي الله ، فسمى وعظه ذكرًا، وأضافه إليه ، إذ هو [فاعل][5] له ، ومقدر رسوله على اكتسابه .

وقال بعض المتكلمين في هذه الآية : يحتمل أن يرجع الإحداث إلى [الإتيان] [6] ، لا إلى الذكر القديم ؛ لأن نزول القرآن على النبي كان شيئًا بعد شيء ، فكان يحدث نزوله حينًا بعد حين ، ألا ترى أن العالم يعلم ما لا يعلمه الجاهل ، فإذا علمه الجاهل / حدث عنده العلم ، ولم يكن إحداثه عند المتعلم [إحداث عين العلم][7]. [٤/ق٢٤٢-أ]

---

(١) الأنبياء : ٢ . (٢) في « الأصل » : تفسير . والمثبت من « هـ » .
(٣) في « الأصل » : راجع . والمثبت من «هـ » . (٤) الطلاق : ١٠-١١.
(٥) في « الأصل » : قائل . والمثبت من «هـ» .
(٦) في « الأصل » : الإيمان . والمثبت من « هـ » .
(٧) بياض بالأصل . والمثبت من « هـ » .

باب : [قوله تعالى : ﴿ لا تحرك] [1] به لسانك ﴾ [2]
وفعل النبي ذلك حين ينزل عليه الوحي

وقال أبو هريرة : « عن النبي ﷺ : قال الله تعالى : أنا مع عبدي ما ذكرني وتحركت بي شفتاه

فيه : ابن عباس في قول الله - تعالى - : ﴿ لا تحرك به لسانك ﴾ [2] قال : كان النبي ﷺ يعالج من التنزيل شدةً ، كان يحرك شفتيه ، فقال ابن عباس : [فأنا أحركهما] [3] لك كما كان النبي يحركهما ، فحرك شفتيه ، فأنزل الله - تعالى - : ﴿ لا تحرك به لسانك لتعجل به إن علينا جمعه ﴾ [4] قال : جمعه في صدرك ثم تقرأه ، قال : ﴿فإذا قرأناه فاتبع قرآنه﴾ [5] قال : فاستمع له وأنصت ، ثم إن علينا أن تقرأه ، فكان النبي ﷺ إذا أتاه جبريل استمع ، فإذا انطلق جبريل قرأه النبي - عليه السلام - كما أقرأه .

قال المهلب : غرضه في هذا الباب ، أن يعرفك أن وعاء القلب لما يسمعه من القرآن ، وأن قراءة الإنسان وتحريك شفتيه [ولسانه] [6]، عمل له وكسب يؤجر عليه ، فكان عليه السلام يحرك به لسانه عند قراءة جبريل [عليه] [7] مبادرةً ألا يفلت منه ما سمع ، فنهاه الله عن ذلك ، ورفع عنه الكلفة والمشقة التي كانت تناله في ذلك، مع ضمانه تعالى تسهيل الحفظ على نبيه ، وجمعه له في صدره ، وأمره أن يقرأه إذا فرغ جبريل من قراءته ، وهو معنى قوله تعالى : **﴿ فإذا قرأناه فاتبع قرآنه ﴾** [5] .

[وقيل معنى قوله تعالى : **﴿ فإذا قرأناه فاتبع قرآنه ﴾**] [6] : أي

---

(١) طمس بالأصل . والمثبت من « هـ » . (٢) القيامة : ١٦ .
(٣) في « الأصل » : أنا أحركهم . والمثبت من « هـ،ن » .
(٤) القيامة : ١٦-١٧ . (٥) القيامة : ١٨ . (٦) من « هـ » .
(٧) في « الأصل » : عليه السلام . والمثبت من « هـ » .

اعمل بما فيه ، فأما إضافته فعل القراءة إليه بقوله : ﴿**فإذا قرأناه**﴾ (١) والقارئ لكلامه تعالى على محمد ﷺ هو جبريل دونه [تعالى] (٢) فهذه إضافة فعل فعله في غيره ، كما تقول : قتل الأمير اللص وصلبه، وهو لم يل ذلك بنفسه ، إنما أمر من فعله .

ففيه بيان لما يشكل من كل فعل ينسب إلى الله - تعالى - ، مما لا يليق به فعله من الإتيان ، والنزول ، والمجيء ، أن ذلك الفعل إنما هو منتسب إلى الملك المرسل به ، كقوله : ﴿ **وجاء ربك** ﴾ (٣) والمجيء مستحيل عليه لاستحالة الحركة ، وإنما معناه : وجاء أمر ربك ورسول ربك ، فكما استحالت عليه الحركة والانتقال ، كذلك استحالت عليه القراءة المعلومة [منا] (٤) لأنها محاولة [حركة] (٢) أعضاء وآلات ، والله يتعالى عن ذلك ، وعن شبه الخليقة في قول أو عمل .

وأما قوله : « أنا مع عبدي ما ذكرني وتحركت بي شفتاه » فمعناه : أنا مع عبدي زمان ذكره لي أي : أنا معه بالحفظ والكلاءة ، لا على أنه معه بذاته حيث حلَّ العبد وتقلب ، ومعنى قوله : «وتحركت بي شفتاه » : تحركت باسمي وذكره لي [وبسائر] (٥) أسمائه تعالى الدالة عليه ، لا أن شفتيه ولسانه تتحرك بذاته تعالى ، إذ محال حلوله في الأماكن ، ووجوده في الأفواه ، وتعاقب الحركات عليه .

* * *

باب : قوله تعالى ﴿ وأسروا قولكم أو اجهروا به ﴾ إلى ﴿الخبير ﴾ (٦) يتخافتون : يتسارون

فيه : ابن عباس في قوله : « ﴿ ولا تجهر بصلاتك ولا تخافت

(١) القيامة : ١٨ . (٢) من « هـ » .
(٣) الفجر : ٢٢ . (٤) في « الأصل » : منها . والمثبت من « هـ » .
(٥) في « الأصل » : سائر . والمثبت من « هـ » . (٦) الملك : ١٤ .

بها ﴾ [1] : « **نزلت والنبي ﷺ مختف بمكة ، فكان إذا صلى بأصحابه رفع صوته بالقرآن ، فإذا سمعه المشركون سبوا القرآن ومن أنزله ومن جاء به ، فقال تعالى لنبيه : ﴿ ولا تجهر بصلاتك ﴾** [1] **أي بقراءتك فيسمع المشركون ، فيسبوا القرآن ﴿ ولا تخافت بها ﴾** [1] **عن أصحابك فلا تسمعهم ﴿ وابتغ بين ذلك سبيلا ﴾** [1] .

وفيه : أبو هريرة : قال النبي – عليه السلام – : « ليس منا من لم يتغن بالقرآن » وزاد غيره : « يجهر به » .

معنى هذا الباب إثبات العلم لله – تعالى – صفة [ذاتية] [2] ؛ لاستواء علمه بالسر من القول والجهر ، وقد بينه تعالى في آية أخرى، فقال : ﴿ **سواء منكم من أسر القول ومن جهر به** ﴾ [3] وفيه دليل أن اكتساب العباد من القول والفعل خلق لله – تعالى – ألا ترى قوله : ﴿ **وأسروا قولكم أو اجهروا به إنه عليم بذات الصدور** ﴾ [4] ثم قال عقيب ذلك : ﴿ **ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير** ﴾ [5] فدل أنه [ممتدح][6] بكونه عالمًا بما أسروه من قولهم وجهروا به ، وأنه خالق لذلك منهم .

فإن قال قائل من القدرية الذين يزعمون أن أفعال العباد ليست [خلقًا] [7] / [لله – تعالى – : قوله : ﴿ **ألا يعلم من خلق** ﴾ غير راجع بالخلق إلى] [8] القول، وإنما هو راجع إلى القائلين ، فليس في الآية [دليل لكم على كونه تعالى خالقًا لقول القائلين . قيل] [8] له : هذا تأويل فاسد ؛ لأن الله –تعالى– أخرج هذا الكلام مخرج التمدح

[٤/ق٢٤٢-ب]

---

(١) الإسراء : ١١٠ . (٢) في « الأصل » : ثابتة . والمثبت من « هـ » .
(٣) الرعد : ١٠ . (٤) الملك : ١٣ . (٥) الملك : ١٤ .
(٦) في « الأصل » : متمدح . والمثبت من « هـ » .
(٧) في « الأصل » : خلق . والمثبت من « هـ » .
(٨) بياض في « الأصل » . والمثبت من « هـ » .

منه بعلمه ما أسروه من قولهم وجهروا به ، وخلقه لذلك مع خلقه خلقه ، دليلا على كونه عالمًا به .

فلو كان غير خالق له ، [وممتدحًا] [1] بكونه عالمًا بقوله ، وخالقًا لهم دون قولهم ؛ لم يكن في الآية دليل على صحة كونه عالمًا بقولهم، كما ليس في عمل العامل ظرفًا من الظروف دليل على علمه ما أودعه غيره فيه .

والله تعالى فقد جعل خلقه دليلا على كونه عالمًا بقولهم ؛ فيجب رجوع خلقه تعالى إلى قولهم ؛ ليصح له التمدح بالأمرين ، وليكون أحدهما دليلا على الآخر ، وإذا كان ذلك كذلك ، ولا أحد من الأمة يفرق بين القول وسائر الأفعال ، وقد دلت الآية على كون الأقوال خلقًا له تعالى ؛ وجب كون سائر أفعال العباد خلقًا له .

وأما قوله عليه السلام : « ليس منا من لم يتغن بالقرآن » فقد تقدم في فضائل القرآن ، وتلخيص معناه : الحض على تحسين الصوت به ، والغناء الذي أمر النبي - عليه السلام - أن يقرأ القرآن به، هو الجهر بالصوت وإخراج تلاوته من حدود مساق الإخبار والمحادثة؛ حتى يتميز التالي له من المتحدث تعظيمًا له في النفوس وتحبيبًا إليها .

فإن قال قائل : فإن كان معنى قوله عليه السلام : « ليس منا من لم يتغن بالقرآن » ما ذكرت من تحسين الصوت به ، أفعندك من لم يحسن صوته بالقرآن فليس من النبي - عليه السلام - ؟ .

قيل : معناه لم يستن بنا في تحسين الصوت بالقرآن ؛ لأنه عليه السلام كان يحسن صوته به، ويرجع في تلاوته على ما حكاه ابن مغفل، على ما يأتي بعد ، فمن لم يفعل مثل ذلك فليس بمتبع لسنته عليه السلام ، ولا مقتديًا به في تلاوته .

---

(١) في « الأصل » : متمدحًا . والمثبت من « هـ » . .

باب : قول النبي عليه السلام : رجل آتاه الله القرآن فهو يقوم به آناء الليل والنهار ، ورجل يقول : لو أوتيت مثل ما أوتي هذا فعلت كما يفعل ، فبين أن قيامه بالكتاب هو فعله [وقال تعالى:] [1] ﴿ ومن آياته خلق السموات والأرض واختلاف ألسنتكم وألوانكم ﴾ [2] ، وقال تعالى : ﴿ وافعلوا الخير لعلكم تفلحون ﴾ [3]

فيه : أبو هريرة قال النبي – عليه السلام – : « لا حسد إلا في اثنتين: رجل آتاه الله القرآن فهو يتلوه آناء الليل ، وآناء النهار ، [فهو] [4] يقول: لو أوتيت مثل ما أوتي هذا لفعلت كما يفعل ، ورجل آتاه الله مالا فهو ينفقه في حقه ، فيقول : لو أوتيت مثل ما أوتي هذا عملت فيه مثل ما يعمل » .

هذا الباب مستغنى عن الكلام فيه لبيانه ووضوح معناه لمن تأمله من ذوي الألباب .

* * *

باب : قوله تعالى : ﴿ يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك ﴾ [5] الآية

وقال الزهري : من الله الرسالة ، وعلى رسوله البلاغ ، وعلينا التسليم، وقال تعالى : ﴿ ليعلم أن قد أبلغوا رسالات ربهم ﴾ [6] وقال: ﴿أبلغكم رسالات ربي﴾[7]وقال في قصة كعب حين تخلف عن النبي:

---

(١) مكررة بالأصل . (٢) الروم : ٢٢ . (٣) الحج : ٧٧ .
(٤) في « الأصل » : ورجل . والمثبت من « هـ ، ن » . (٥) المائدة : ٦٧ .
(٦) الجن : ٢٨ . (٧) الأعراف : ٦٢ ، ٦٨ .

﴿ وسيرى الله عملكم ورسوله ﴾ [(١)] وقالت عائشة : إذا أعجبك حسن عمل امرئ . فقل : اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون، ولا يستخفنك أحد . وقال معمر : ﴿ ذلك الكتاب ﴾ [(٢)] هذا القرآن ﴿هدى للمتقين ﴾ [(٢)] بيان ودلالة ، كقوله : ﴿ ذلكم حكم الله ﴾ [(٣)] : هذا حكم الله ، ﴿لا ريب فيه ﴾ [(٢)] : لا شك . ﴿ تلك آيات ﴾ [(٤)] : يعني هذه أعلام القرآن ، ومثله : ﴿ حتى إذا كنتم في الفلك وجرين بهم ﴾[(٥)] يعني : بكم . وقال أنس : بعث النبي عليه السلام خاله [حرامًا] [(٦)] إلى قوم ، وقال أتؤمنوني حتى أبلغ رسالة رسول الله ، فجعل [يحدثهم][(٧)] .

فيه : المغيرة : « أخبرنا نبينا عن رسالة ربنا ، أنه من قتل منا صار إلى الجنة » .

وفيه : عائشة قالت : « من حدثك أن محمداً كتم شيئًا من الوحي، فلا تصدقه إن الله - تعالى - يقول / : ﴿ يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك ﴾ [(٨)] الآية » . [٤/ق٢٤٣-أ]

وفيه : عبد الله : « قال [رجل : يا رسول الله ، أي الذنب أكبر عند الله؟ قال :] [(٩)] أن تدعو لله ندًا ، وهو خلقك ... » الحديث، فأنزل الله تصديقها : ﴿ والذين لا يدعون مع الله إلهًا آخر ﴾ [(١٠)] الآية » .

قال المهلب : هذا الباب كالذي قبله ، وهو في معناه وتبليغ الرسول فعل من أفعاله .

وقول الزهري : من الله الرسالة ، وعلى رسوله البلاغ يبين هذا ، وأنه قول أئمة الدين .

---

(١) التوبة : ٩٤ . (٢) البقرة : ٢ . (٣) الممتحنة : ١٠ .
(٤) الجاثية : ٦ . (٥) يونس : ٢٢ .
(٦) في « الأصل » : حرام . والمثبت من « هـ ، ن » .
(٧) في « الأصل » : يحدثكم . والمثبت من « هـ ، ن » . (٨) المائدة : ٦٧ .
(٩) بياض بالأصل . والمثبت من « هـ ، ن » . (١٠) الفرقان : ٦٨ .

وقوله : ﴿ **فسيرى الله عملكم** ﴾ [1] يعني : تلاوتهم وجميع أعمالهم ، ومعنى قوله : ﴿ **بلغ ما أنزل إليك من ربك** ﴾ [2] يريد بلغه جهارًا وعلانيةً ، فإن لم تفعل فما بلغت كل التبليغ .

وقول عائشة: « إذا أعجبك حسن عمل امرئ »: تلاوته من عمله .

وقولها : « ولا يستخفنك أحد » أي لا يستخفنك بعمله ، فتظن به الخير ، لكن حتى تراه عاملا على ما شرع الله ، ورسوله على ما سن، والمؤمنون على ما عملوا .

وقول معمر في قوله تعالى : ﴿ **ذلك الكتاب** ﴾ [3] ففسر ذلك [بهذا و] [4] ذلك مما يخبر به [عن] [5] الغائب، [وهذا] [6] إشارة إلى الحاضر ، والكتاب حاضر ، ومعنى ذلك أنه لما ابتدأ جبريل بتلاوة القرآن لمحمد - عليهما السلام - كفت حضرة التلاوة عن أن يقول هذا الذي يسمع ، هو ذلك الكتاب لا ريب فيه ، فاستغنى بأحد الضميرين عن الآخر .

وقوله تعالى : ﴿ **حتى إذا كنتم في الفلك وجرين بهم** ﴾ [7] فلما جاز أن [يخبر] [8] عنهم بضميرين مختلفين ، ضمير المخاطبة والحضرة، وضمير الخبر عن الغيبة ، فلذلك أخبر بضمير الغائب بقوله: ﴿ **ذلك** ﴾ ، وهو يريد هذا الحاضر ، وهذا مذهب مشهور للعرب ، سمته أصحاب المعاني : الالتفات ، وهو انصراف المتكلم عن معنى يكون فيه إلى معنى آخر .

---

(١) التوبة : ١٠٥ . (٢) المائدة : ٦٧ . (٣) البقرة : ٢ .
(٤) في « الأصل » : بقوله . والمثبت من « هـ » .
(٥) في « الأصل » : من . والمثبت من « هـ » .
(٦) في « الأصل » : وهذه . والمثبت من « هـ » .
(٧) يونس : ٢٢ . (٨) من « هـ » .

وقوله تعالى: ﴿ كنتم ﴾ ثم قال: ﴿ بهم ﴾ يدل أنه خاطب الكل، ثم أخبر عن الراكبين للفلك خاصة [إذ قد يركبها الأقل][(1)] من الناس، لكن لجواز أن يركبها [كل] [(2)] واحد من المخاطبين خاطبهم بضمير الكل، ولأن لا يركبها إلا الأقل أخبر عن ذلك الأقل بقوله: ﴿بهم﴾ .

* * *

باب: قوله تعالى: ﴿ فائتوا بالتوراة فاتلوها إن كنتم صادقين﴾[(3)]

وقول النبي - عليه السلام - : أعطي أهل التوراة التوراة، فعملوا بها، وأهل الإنجيل الإنجيل، فعملوا به، وأعطيتم القرآن، فعملتم به. وقال أبو رزين: يتلونه: يتبعونه، ويعملون به حق عمله. [يُتلى] [(4)] : يُقرأ. حسن التلاوة: حسن القراءة للقرآن. لا يمسه: لا يجد طعمه ولا نفعه، إلا من آمن بالقرآن، ولا يحمله بحقه إلا الموفق لقوله تعالى: ﴿مثل الذين حملوا التوراة ثم لم يحملوها ﴾ [(5)] وسمى النبي الإيمان، والإسلام والصلاة عملا. قال أبو هريرة: قال النبي - عليه السلام - [لبلال][(6)]: أخبرني [أرجى] [(7)] عمل عملته في الإسلام. قال: ما عملت عملا أرجى عندي أني لم أتطهر إلا صليت. وسئل أي العمل أفضل؟ قال: إيمان بالله ورسوله، ثم الجهاد، ثم حج مبرور.

فيه: ابن عمر: « قال النبي ﷺ: إنما بقاؤكم فيما سلف من الأمم كما بين [صلاة] [(6)] العصر إلى غروب الشمس، أوتي أهل التوراة التوراة، فعملوا بها حتى انتصف النهار، ثم عجزوا، ثم أوتي أهل الإنجيل

---

(1) في « الأصل »: أنه يركبها الأول. والمثبت من « هـ ».
(2) في « الأصل »: لكل. والمثبت من « هـ ». (3) آل عمران: ٩٣.
(4) في « الأصل »: يتلو. والمثبت من « هـ ». (5) الجمعة: ٥.
(6) من « هـ، ن ». (7) في « هـ، ن »: بأرجى.

الإنجيل ، فعملوا به حتى صليت العصر ، ثم عجزوا ، [ثم أوتيتم] (١) القرآن ، فعملتم به حتى غربت الشمس ... » الحديث ، وسمى النبي ﷺ الصلاة : عملا ، وقال : « لا صلاة لمن لم يقرأ بفاتحة الكتاب » .

وفيه : ابن مسعود : « أن رجلا أتى النبي فقال : أي الأعمال أفضل ؟ قال : الصلاة لوقتها ، وبر الوالدين ، والجهاد في سبيل الله».

قال المهلب : معنى هذا الباب كالذي قبله ، أن كل ما يكسبه الإنسان مما يؤمر به من صلاة أو حج أو جهاد وسائر الشرائع عمل له يجازى على فعله ، ويعاقب على تركه ؛ إن أنفذ الله عليه الوعيد .

وأما قوله - عليه السلام - حين سُئل أي العمل أفضل ، فقال : «الصلاة لوقتها ، وبر الوالدين ، والجهاد » فقرن حق الوالدين / [٤/ق٢٤٣-ب] [بحق الله - عز وجل - على عباده بواو العطف ، وليس هذا بمخالف للحديث الآخر] (٢) « أن النبي ﷺ سُئل أي العمل أفضل ، فقال : إيمان بالله ، ثم الجهاد ، ثم حج مبرور » ولم يذكر بر الوالدين ، وإنما يفتي السائل بحسب ما يعلم من حاله ، أو ما يتقى عليه من فتنة الشيطان .

فلذلك اختلف ترتيب أفضل الأعمال ، مع أنه قد يكون العمل في وقت أوكد وأفضل منه في وقت آخر ، كالجهاد الذي يتأكد مرةً ، ويتراخى مرةً ، ألا تراه أمر وفد عبد القيس بأمر فصل باشتراطهم ذلك منه ، فلم يرتب لهم الأعمال ، ولا ذكر لهم الجهاد ولا بر الوالدين، وإنما ذكر لهم أداء الخمس مما يغنمون ، وذكر لهم الانتباذ في المزفت فيما نهاهم عنه ، وفي المنهيات ما هو أوكد منه مرارًا .

* * *

---

(١) من « هـ ، ن » .

(٢) بياض بالأصل . والمثبت من « هـ » .

باب : قوله تعالى : ﴿ إن الإنسان خُلقَ هلوعًا ﴾ : ضجورًا ﴿ إذا مسه الشر جزوعًا وإذا مسه الخير منوعًا ﴾ (١)

فيه : عمرو بن [تغلب] (٢) قال : « أتى النبي - عليه السلام - مال ، فأعطى قومًا ، ومنع آخرين ، فبلغه أنهم عتبوا ، فقال : إني أعطي الرجل وأدع الرجل ، والذي أدع أحب إليٍ من الذي أعطي ، أعطي أقوامًا لما في قلوبهم من الهلع والجزع ، وأَكلُ أقوامًا إلى ما جعل الله في قلوبهم من الغنى والخير ، منهم عمرو بن تغلب ، قال عمرو : ما أحب أن لي بكلمة النبي حُمر النعم » .

قال المهلب : معنى هذا الباب إثبات خلق الله للإنسان بأخلاقه التي خلقه عليها من الهلع ، والمنع ، والإعطاء ، والصبر على الشدة ، واحتسابه ذلك على الله - عز وجل - وفسر هلوعًا بقول من قال : ضجورًا ؛ لأن الإنسان إذا مسه الشر ضجر به ، ولم يصبر محتسبًا ، ويلزم من آمن بالقدر خيره وشره ، وعلم أن الذي أصابه لم يكن ليخطئه ، وما أخطأه لم يكن ليصيبه ، الصبر على كل شدة تنزل به .

ألا ترى أن الله - تعالى - قد استثنى المصلين الذين هم على صلاتهم دائمون ، لا يضجرون بتكررها عليهم ، ولا يملون ؛ لأنهم محتسبون لها ، ومكتسبون بها التجارة الرابحة في الدنيا والآخرة، وكذلك لا يمنعون حقوق الله في أموالهم ، فعرفك بما خلق الله عليه أهل الجنة من حسن الأخلاق ، وما استثنى به العارفين المحتسبين بالصبر على الصلاة [والصدقة] (٣) .

فقد أفهمك أن من ادّعى لنفسه قدرةً وحولا بالإمساك والشح والضجر من الإملاق والفقر، وقلة الصبر لقدر الله الجاري عليه بما سبق في علمه ليس بقادر ولا عابد لله على حقيقة ما يلزمه ، فمن

---

(١) المعارج : ١٩ - ٢١ . (٢) في « الأصل »: ثعلبة . والمثبت من «هـ،ن » .
(٣) في « الأصل » : بالصبر والصدقة . والمثبت من « هـ » .

ادّعى أن له قدرة على نفع نفسه ، أو دفع الضر عنها ، فقد ادّعى أن فيه صفة الإلهية من القدرة .

وفي حديث عمرو بن تغلب دليل أن أرزاق العباد ليست من الله - تعالى- على قدر الاستحقاق بالدرجة والرفعة عنده، ولا عند السلطان في الدنيا، وإنما [هي] [1] على وجه المصلحة ، والسياسة لنفوس العباد الأمارة بالسوء ، ألا ترى أنه عليه السلام [كان] [2] يعطي أقوامًا ؛ ليداوي ما بقلوبهم من جزع ، وكذلك المنع، هو على وجه الثقة (بتميزه) [3] بما قسم الله [له] [4] لمنعه عليه السلام أهل البصائر واليقين.

قال غيره : وفيه من الفقه أن البشر فاضلهم ومفضولهم ، قد جبلوا على حب العطاء ، وبغض المنع ، والإسراع إلى إنكار ذلك قبل الفكرة في عاقبته ، وهل [لفاعل] [5] ذلك مخرج ؟ وفيه أن المنع قد لا يكون مذمومًا ، ويكون أفضل للممنوع لقوله عليه السلام : « وأَكِلُ أقوامًا إلى ما جعل الله في قلوبهم من الغنى والخير » .

وهذه المنزلة التي شهد لهم بها النبي - عليه السلام - أفضل من العطاء الذي هو عرض الدنيا ، ألا ترى أن عمرو بن تغلب اغتبط بذلك بعد جزعه منه ، وقال : « ما أحب أن لي بذلك حمر النعم » وفيه استئلاف من يخشى منه ، والاعتذار إلى من ظن ظنًا والأمر بخلاف ظنه ، وهذا موضع كان يحتمل التأنيب للظان ، واللوم له لكنه عليه السلام رءوف رحيم كما وصفه الله .

* * *

باب : ذكر النبي عليه السلام وروايته / عن ربه

[٤/ق٢٤٤-أ]

فيه : أنس « عن النبي يرويه عن ربه قال : [إذا تقرب العبد

---

(١) في « الأصل » : هو . والمثبت من « هـ » .
(٢) في « الأصل » : قال . والمثبت من « هـ » . (٣) في « هـ » : بتمييزه .
(٤) من « هـ » . (٥) في « الأصل » : فاعل . والمثبت من « هـ » .

إلي شبراً ، تقربت إليه ذراعًا ... » الحديث] [1] .

وفيه : أبو هريرة : عن النبي - عليه السلام - يرويه عن ربكم قال : «لكل عمل كفارة ، والصوم لي ... » الحديث .

[وفيه] [2] ابن عباس : « عن النبي - عليه السلام - فيما يروى عن ربه قال: « لا ينبغي لعبد أن يقول [إنه] [3] خير من يونس بن متّى » .

وفيه : ابن مغفل : « رأيت النبي - عليه السلام - يوم الفتح على ناقة له ، يقرأ سورة الفتح ، قال : فرجع فيها ، ثم قرأ معاوية بن قرة يحكي قراءة ابن مغفل ، وقال : لولا أن يجتمع الناس عليكم لرجعت كما رجع ابن مغفل يحكي عن النبي ، فقلت [لمعاوية] [4] : كيف كان ترجيعه ؟ فقال : أا أا أا ثلاث مرات » .

قال المهلب : معنى هذا الباب أن النبي - عليه السلام - روى عن ربه السنة ، كما روى عنه القرآن ، وهذا مبين في كتاب الله في قوله : ﴿ وما ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى ﴾ [5] ومعنى حديث ابن مغفل في هذا الباب التنبيه على أن القرآن أيضًا رواية النبي عن ربه [وفيه] [2] من الفقه إجازة قراءة القرآن بالترجيع ، والألحان الملذة للقلوب [بحسن] [6] الصوت [المنشود] [7] لا المكفوف عن مداه الخارج عن مساق المحادثة ، ألا ترى أن النبي - عليه السلام - أراد أن يبالغ في تزيين قراءته لسورة الفتح التي كان وعده الله فيها بفتح مكة ، فأنجزه له ليستميل قلوب المشركين العتاة على الله ، بفهم ما يتلوه من إنجاز وعد الله له فيهم ، بإلذاذ أسماعهم بحسن الصوت المرجَّع فيه بنغم - ثلاث في المدة الفارغة من التفصيل .

---

(١) بياض بالأصل . والمثبت من « هـ » . (٢) من « هـ » . (٣) من «هـ،ن».
(٤) في « الأصل »: لابن معاوية. والمثبت من «هـ،ن» . (٥) النجم : ٣-٤ .
(٦) في « الأصل » : فحسن . والمثبت من « هـ » .
(٧) في « الأصل » : المستوي . والمثبت من « هـ » .

وقول معاوية : « لولا أن يجتمع الناس إلي لرجعت كما رجع ابن مغفل يحكي عن النبي » يدل أن القراءة بالترجيع والألحان ت =جمع نفوس الناس إلى الإصغاء والتفهم ، ويستميلها ذلك حتى لا تكاد تصبر عن استماع الترجيع المشوب بلذة الحكمة المفهومة منه ، وقد تقدم [في كتاب فضائل القرآن] [١] في باب من لم يتغن بالقرآن، [اختلاف أهل العلم في التغني .

* * *

باب : ما يجوز من تفسير التوراة وكتب الله بالعربية ، وغيرها لقوله تعالى: ﴿ فـائتوا بالتوراة فاتلوها إن كنتم صادقين ﴾[٢]

وقال ابن عباس : « أخبرني [أبو] [٣] سفيان بن حرب أن هرقل دعا ترجمانه ، ثم دعا بكتاب النبي – عليه السلام – فقرأه : بسم الله الرحمن الرحيم، من محمد عبد الله ورسوله إلى هرقل ﴿ قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ﴾ [٤] الآية» .

وفيه أبو هريرة قال : « كان أهل الكتاب يقرءون التوراة بالعبرانية، ويفسرونها بالعربية لأهل الإسلام ، فقال النبي – عليه السلام – : لا تصدقوا أهل الكتاب ، ولا تكذبوهم و﴿ قولوا آمنا بالله ﴾ [٥] الآية » .

وفيه ابن عمر : « أن النبي ﷺ أتى برجل وامرأة زنيا من اليهود ، فقال: ﴿ فائتوا بالتوراة فاتلوها إن كنتم صادقين ﴾ [٢] [فقالوا

---

(١) من « هـ » .
(٢) آل عمران : ٩٣ .
(٣) من « هـ ، ن » .
(٤) آل عمران : ٦٤ .
(٥) البقرة : ١٣٦ .

لرجل][1] ممن يرضون : اقرأ ، فقرأ حتى انتهى إلى موضع منها ، فوضع يده عليها فقال ابن سلام : ارفع يدك . فرفع يده ، فإذا آية الرجم تلوح ... » الحديث .

تفسير كتب الله بالعربية [جائز][2] وقد كان وهب بن منبه وغيره يترجمون كتب الله ، إلا أنه لا يقطع على صحتها؛ لقوله عليه السلام: « لا تصدقوا أهل الكتاب فيما يفسرونه من التوراة بالعربية » لثبوت كتمانهم لبعض [الكتاب][3] وتحريفهم له .

واحتج أبو حنيفة بحديث هرقل ، وأنه دعا ترجمانه ، وترجم له كتاب النبي بلسانه حتى فهمه ، فأجاز قراءة القرآن بالفارسية ، وقال : إن الصلاة تصح بذلك . وخالفه سائر الفقهاء ، وقالوا : لا تصح الصلاة بها . وقال أبو يوسف ومحمد : إن كان يحسن العربية فلا [تجزئه][4] الصلاة ، وإن كان لا يحسن أجزأه .

ومن حجة أبي حنيفة أن المقروء يسمى قرآنًا ، وإن كان بلغة أخرى إذا بين المعنى ، ولم يغادر شيئًا ، وإن أتى بما لا ينبئ عنه اللفظ ، نحو الشكر مكان الحمد لم يجز ، واستدلوا بأن الله - تعالى - حكى قول الأنبياء بلسانهم ، بلسان عربي في القرآن ، كقول نوح : ﴿ **يا بني اركب معنا** ﴾[5] وأن نوحًا قال هذا بلسانه ، قالوا : فكذلك يجوز أن يحكى القرآن بلسانهم، وقال تعالى : ﴿ **وأوحي إلي هذا القرآن لأنذركم به ومن بلغ** ﴾[6] فأنذر به سائر الناس ، والإنذار إنما يكون بما يفهمونه من لسانهم ، فيقرأه أهل كل لغة بلسانهم؛ حتى يقع لهم الإنذار به ، وإذا فسر لهم بلسانهم فقد / [بلغهم ، [٤/ق٢٤٤-ب]

(١) في « الأصل » : فقال الرجل . والمثبت من « هـ ، ن » .
(٢) في « الأصل » : جائزة . والمثبت من « هـ » . (٣) من « هـ » .
(٤) في « الأصل » : تجوز به . والمثبت من « هـ » . (٥) هود : ٤٢ .
(٦) الأنعام : ١٩ .

وسمى ذلك قرآنًا ، وكذلك الإيمان يصح أن يقع بالعربية] [1] وبالفارسية ، وحجة من لم يجز قراءة القرآن بالفارسية [قوله تعالى : ﴿ **إنا أنزلناه قرآنًا عربيًا** ﴾ [2] فأخبر تعالى أنه] [1] [أنزله عربيًا] [3] فبطل أن يكون القرآن الأعجمي منزلا ، ويقال لهم : أخبرونا إذا قرأ فاتحة الكتاب بالفارسية ، هل تسمى فاتحة الكتاب أو تفسير فاتحة الكتاب ، فإن قالوا : تفسير فاتحة الكتاب . قيل لهم : قد قال عليه السلام : « لا صلاة لمن لم يقرأ بفاتحة الكتاب » ، ولم يقل بتفسير فاتحة الكتاب .

ألا ترى أنه لو قرأ تفسيرها بالعربية في الصلاة لم يجز ، فتفسيرها بالفارسية أولى ألا يجوز . وقولهم : إن الله حكى قول الأنبياء - عليهم السلام - الذي بلسانهم بلسان عربي في القرآن ، كقول نوح : ﴿ **يا بني اركب معنا** ﴾ [4] وأن نوحًا قال هذا بلسانه ، فكذلك يجوز أن يحكى القرآن بلسانهم .

فالجواب أنا نقول: أنهم ما نطقوا بما حكي عنهم إلا كما في القرآن، ولو قلنا ما ذكروه لم يلزمنا نحن أن نحكي القرآن بلغة أخرى ؛ لأنه يجوز أن يحكي الله - تعالى - قولهم بلسان العرب ، ثم يتعبدنا نحن بتلاوته على ما أنزله فلا يجوز أن نتعداه ، وما يحتجون به أنه في الصحف الأولى ، وما يحتجون به من قوله : ﴿ **وأوحي إليّ هذا القرآن لأنذركم به ومن بلغ** ﴾ [5] فأنذر به على لسان كل أمة ، فالجواب أن العرب إذا حصل عندها أن ذلك معجز ، وهم أهل الفصاحة كانت العجم أتباعًا لهم ، كما كانت العامة أتباعًا للسحرة في زمن موسى ، وأتباعًا للطب في زمن عيسى، فقد يمكن العجم أن يتعلموه بلسان العرب .

---

(١) بياض بالأصل . والمثبت من « هـ » . (٢) يوسف : ٢ .
(٣) في « الأصل »: عربيًا أنزله . والمثبت من « هـ » . (٤) هود : ٤٢ .
(٥) الأنعام : ١٩ .

وأما قولهم : إن الإيمان يصح أن يقال بالفارسية ، فالجواب أن الإيمان يقع بالاعتقاد دون اللفظ ؛ ولهذا جاز اللفظ بالشهادتين بكل لغة ؛ لأن المقصود منه يحصل ؛ إذ أصله التصديق بالشريعة ، وإذا قرئ بالفارسية سقط المعجز، الذي هو النظم والتأليف ، فإن قيل : أنتم [تجوزونه] [١] بالفارسية إذا لم يقدر على العربية ؛ فينبغي ألا يفترق الحكم ، قيل : إنما أجزناه للضرورة ، وليس ما جاز مع الضرورة يجوز مع القدرة ، ولو كان كذلك لجاز التيمم مع وجود الماء، ولجاز ترك الصلاة مع القدرة ؛ لأنه يسقط مع العذر .

* * *

باب : قول النبي عليه السلام : الماهر بالقرآن مع الكرام البررة ، وقال زينوا القرآن بأصواتكم

فيه : أبو هريرة : « قال : ما أذن الله لشيء ما أذن لنبي حسن الصوت بالقرآن يجهر به » .

وفيه : عائشة حين قال لها أهل الإفك ما قالوا ، قالت : « والله ما كنت أظن أن الله ينزل في شأني وحيًا يتلى ، ولشأني في نفسي كان أحقر من أن يتكلم الله فيّ بأمر يتلى ، فأنزل الله : ﴿ إن الذين جاءوا بالإفك ﴾ [١] العشر الآيات » .

فيه : البراء : « سمعت النبي - عليه السلام - يقرأ في العشاء بالتين والزيتون ، فما سمعت أحدًا أحسن صوتًا - أو قرآنًا - منه » .

وفيه : ابن عباس : « كان النبي ﷺ متوارٍ بمكة ، وكان يرفع صوته

---

(١) في « الأصل » : تجوزوه . والمثبت من « هـ » .
(٢) النور : ١١ - ٢٠ .

بالقرآن ، فإذا سمعه [المشركون] [1] سبوا القرآن ومن جاء به ، فقال الله لنبيه : ﴿ ولا تجهر بصلاتك ولا تخافت بها ﴾ [2] » .

وفيه : أبو سعيد قال لابن أبي صعصعة : « إني أراك تحب الغنم والبادية، فإذا كنت في غنمك أو باديتك فأذنت للصلاة ، فارفع صوتك بالنداء، فإنه لا يسمع مدى صوت المؤذن إنس ولا جن ولا شيء إلا شهد له يوم القيامة ، سمعته من النبي - عليه السلام » .

وفيه : عائشة : « كان النبي - عليه السلام - يقرأ القرآن ورأسه في حجري وأنا حائض » .

قال المهلب : المهارة بالقرآن : جودة التلاوة له بجودة الحفظ ، فلا يتلعثم في قراءته ، ولا يتغير لسانه [بتشكك] [3] في حرف أو قصة مختلفة النص ، وتكون قراءته سمحة بتيسير الله [له] [4] كما يسره على الملائكة الكرام البررة ، فهو معها في مثل حالها من الحفظ، وتيسير التلاوة ، وفي درجة الأجر إن شاء الله ، فيكون بالمهارة عند الله كريمًا برًا ، وكأن البخاري أشار بهذه الترجمة وما ضمنها من الأحاديث في حسن الصوت ، إلى أن الماهر بالقرآن هو الحافظ له مع حسن الصوت به ، ألا تراه أدخل بأثر ذكر الماهر قوله عليه السلام / [٤/ق٢٤٥-أ] « زينوا القرآن بأصواتكم » فأحال عليه السلام على الأصوات التي تتزين بها [التلاوة في الأسماع ، لا الأصوات التي] [5] تمجها الأسماع لإنكارها ، وجفائها [على] [6] حاسة السمع ، وتألمها بقرع الصوت [المنكر] [7] وقد قال تعالى: ﴿إن أنكر الأصوات لصوت الحمير﴾ [8]

---

(١) في « الأصل » : المشركين . والمثبت من « هـ ، ن » .
(٢) الإسراء : ١١٠ . (٣) في « الأصل »: فيشكك. (٤) من « هـ »
(٥) بياض بالأصل . والمثبت من « هـ » . (٦) في «الأصل» : مع .
(٧) طمس بالأصل . والمثبت من « هـ » . (٨) لقمان : ١٩ .

لجهارته - والله أعلم - وشدة قرعه للسمع ، وفي إتباعه أيضًا لهذا المعنى [بقوله] [1] : « ما أذن الله لشيء ما أذن لنبي حسن الصوت بالقرآن » ما يقوي قولنا ويشهد له ، وقد تقدم في فضائل القرآن ، ونزيده هاهنا وضوحًا ، فنقول : إن الجهر المراد في قوله : « يجهر به» هو إخراج الحروف في التلاوة عن مساق المحادثة بالأخبار ، بإلذاذ أسماعهم بحسن الصوت وترجيعه لا الجهر المنهي عنه الجافي على السامع، [كما قال عز وجل للنبي ﷺ : ﴿ **ولا تجهر بصلاتك ولا تخافت بها وابتغ بين ذلك سبيلا** ﴾ [2] ، و] [3] كما قال تعالى في النبي : ﴿**ولا تجهروا له بالقول كجهر بعضكم لبعض** ﴾ [4] وقوله : ﴿**أن تحبط أعمالكم وأنتم لا تشعرون** ﴾ [4] دليل أن رفع الصوت على المكالم بأكثر من صوته من الأذى له ، والأذى خطيئة .

ويدل على أن المقاومة في مقدار المتكلمين معافاة من الخطأ ، إلا في النبي ﷺ وحده ، فمنع الله من مقاومته في الآية ، توقيرًا له وإعظامًا، وقد روي لفظ الترجمة عن النبي - عليه السلام - من حديث قتادة ، عن زرارة بن أوفى ، عن سعيد بن هشام ، عن عائشة قالت : قال رسول الله ﷺ : « الذي يقرأ القرآن وهو به ماهر مع السفرة الكرام البررة ، والذي يقرأ القرآن وهو يشتد عليه فله أجران » .

وتأويل قوله : « أجران » والله أعلم - تفسيره حديث ابن مسعود : « من قرأ القرآن فله بكل حرف عشر حسنات ، فيضاعف الأجر لمن يشتد عليه حفظ القرآن فيعطي بكل حرف عشرون حسنة ،

---

(١) في « الأصل » : لقوله . والمثبت من « هـ » .　(٢) الإسراء : ١١٠ .
(٣) من « هـ » .　(٤) الحجرات : ٢ .

ولأجر الماهر أضعاف هذا إلى ما لا يعلم مقداره ؛ لأنه مساوٍ للسفرة الكرام البررة ، وهم الملائكة » وفي هذا تفضيل الملائكة على بني آدم، وقد تقدم .

وكذلك لم يسند البخاري قوله عليه السلام : « زينوا القرآن بأصواتكم » ورواه شعبة ومنصور ، عن طلحة بن مصرف ، عن عبد الرحمن بن عوسجة ، عن البراء بن عازب ، عن النبي - عليه السلام- وقوله : « زينوا القرآن بأصواتكم » تفسير قوله عليه السلام : « ليس منا من لم يتغن بالقرآن » لأن تزيينه بالصوت لا يكون إلا بصوت يطرب [سامعيه] (١) ويلتذون [بسماعه] (٢) وهو التغني الذي أشار إليه النبي ، وهو الجهر الذي قيل في الحديث ، يجهر به بتحسين الصوت الملين [للقلوب] (٣) من القسوة إلى الخشوع ، وهذا التزيين الذي أمر به عليه السلام أمته .

وإلى هذا أشار أبو عبيد فقال : مجمل الأحاديث التي جاءت في حسن الصوت بالقرآن ، إنما هو [من] (٤) طريق التحزين والتخويف والتشويق ، وقال : إنما نهى أيوب شعبة أن يحدث بقوله عليه السلام: « زينوا القرآن بأصواتكم » لئلا يتأول الناس فيه الرخصة من رسول الله في هذه الألحان المبتدعة .

وفسر أبو سليمان الخطابي الحديث بتفسير آخر ، قال : معنى قوله عليه السلام : «زينوا القرآن بأصواتكم » أي زينوا أصواتكم بالقرآن على مذهبهم في قلب الكلام ، وهو كثير في كلامهم ، يقال : عرضت الناقة على الحوض: أي [عرضت] (٥) الحوض على الناقة ،

---

(١) في « الأصل » : سامعه . والمثبت من « هـ » .
(٢) في « الأصل » : سماعه . والمثبت من « هـ » .
(٣) في « الأصل » : القرب . والمثبت من « هـ » . (٤) من « هـ » .
(٥) في « الأصل » : أعرضت . والمثبت من « هـ » .

وإنما تأولنا الحديث على هذا المعنى ؛ لأنه لا يجوز على القرآن وهو كلام الخالق أن يزينه صوت مخلوق .

وقال شعبة : نهاني أيوب أن أحدث بهذا الحديث . وهكذا رواه سهيل بن أبي صالح ، عن أبيه، عن أبي هريرة ، عن النبي ﷺ قال: « زينوا أصواتكم بالقرآن » [والمعنى : أشغلوا أصواتكم بالقرآن](١)، والهجوا بقراءته ، واتخذوه شعاراً .

ولم يرد تطريب الصوت به والتزيين [له] (١) ، إذ ليس ذلك في وسع كل أحد ، لعل من الناس من يريد [التزيين] (٢) له ، فيفضي ذلك به إلى التهجين ، وهذا معنى قوله عليه السلام : « ليس منا من لم يتغن بالقرآن» إنما هو أن يلهج بتلاوته كما يلهج الناس بالغناء والطرب عليه .

[وهكذا] (٣) فسره أبو سعيد بن الأعرابي ، سأله عنه إبراهيم ابن فراس فقال : كانت العرب تتغنى بالركباني ، وهو النشيد بالتمطيط [والمد] (٤) ، إذا ركبت الإبل ، وإذا جلست في الأفنية ، وعلى أكثر أحوالها ، فلما نزل القرآن أحب النبي أن يكون القرآن هجيرهم ، مكان [التغني] (٥) بالركباني .

قال المؤلف : والقول الأول هو الذي عليه الفقهاء ، وعليه تدل الآثار ، وما اعتل به الخطابي من أن كلام الله لا يجوز / [أن يزينه [٤/ق٢٤٥-ب] صوت مخلوق ، فقد نقضه بقوله : « وليس] (٦) التزيين في وسع كل أحد ، لعل من الناس من يريد التزيين فيقع في التهجين » فقد نفى عنه التزيين وأثبت له التهجين ، وهذا خلف من القول .

---

(١) من « هـ » .   (٢) في « الأصل » : التزين . والمثبت من « هـ » .
(٣) في « الأصل » : وهذا . والمثبت من « هـ » .
(٤) في « الأصل » : واللذاذ . والمثبت من « هـ » .
(٥) في « الأصل » : الغنى . والمثبت من « هـ » .
(٦) بياض في « الأصل » . والمثبت من « هـ » .

ولو كان المعنى زينوا أصواتكم بالقرآن كما زعم هذا القائل ؛ لدخل في الخطاب من كان قبيح الصوت وحسنه ، ولم يكن للحسن الصوت فضل على غيره، ولا عرف للحديث معنى، ولما [ثبت أن][1] النبي - عليه السلام - قال لأبي موسى الأشعري - حين سمع قراءته وحسن صوته - : « لقد أوتي هذا مزماراً من مزامير آل داود » .

وثبت أن عقبة بن عامر كان حسن الصوت بالقرآن ، فقال له عمر ابن الخطاب : اقرأ سورة كذا ، فقرأها عليه ، فبكى عمر وقال : ما كنت أظن أنها نزلت . فدل ذلك أن التزيين للقرآن إنما هو تحسين الصوت به [ليعظم] [2] موقعه من القلوب ، وتستميل مواعظه النفوس ، ولا ينكر أن يكون القرآن يزين صوت من أدمن قراءته ، وآثره على حديث الناس ، غير أن جلالة موقعه من القلوب ، والتذاذ السامعين به لا يكون إلا مع تحسين الصوت به .

وقوله في حديث أبي سعيد : « ارفع صوتك بالنداء » ففيه دليل أن رفع الصوت وتحسينه بذكر الله في القرآن وغيره من أفعال البر ؛ لأن في ذلك تعظيم أمر الله ، والإعلان بشريعته ، وذلك يزيد في التخشع، وترقيق النفوس .

قال المهلب : وأما حديث عائشة أن النبي - عليه السلام - كان يقرأ القرآن ورأسه في حجرها وهي حائض، ففيه معنى ما ترجم به من معنى المهارة بالقرآن ؛ لأنه كان قد يسرّ الله [عليه] [3] قراءته حتى كان يقرأه على كل أحواله لا يحتاج أن يتهيأ له بقعود ، ولا بإحضار حفظه ؛ لاستحكامه فيه ، فلا يخاف عليه توقفًا ؛ فلذلك كان يقرؤه راكباً وماشيًا وقاعدًا وقائمًا ولا يتأهب لقوة حفظه ومهارته عليه السلام،

---

(١) في « الأصل » : سئل . والمثبت من « هـ » .

(٢) في « الأصل » : لعظم . والمثبت من « هـ » . (٣) من « هـ » .

ومنه أن المؤمن لا ينجس كما قال عليه السلام ، وأن وصف المؤمن بالنجاسة إنما هو إخبار عن حال مباشرة الصلاة ، ونقض غسله ووضوئه ، ألا ترى سماع عائشة قراءة الرسول وهي حائض ، والسماع عمل من أعمال المؤمنين مدخور لهم به الحسنات ورفع الدرجات .

* * *

باب : قوله تعالى : ﴿ فاقرءوا ما تيسر من القرآن ﴾ [1]

فيه عمر : « سمعت [هشام بن حكيم] [2] يقرأ سورة الفرقان في حياة رسول الله على حروف كثيرة لم يقرئنيها رسول الله فكدت أساوره في الصلاة ، فصبرت حتى سلم فلببته بردائه ... » فذكر الحديث إلى قوله : « إن هذا القرآن أنزل على سبعة أحرف فاقرءوا ما تيسر منه » .

وقد تقدم في فضائل القرآن .

قال المهلب : ومعنى قوله : **﴿ فاقرءوا ما تيسر من القرآن ﴾** [1] ما تيسر على القلب حفظه من آياته ، وعلى اللسان من لغاته ، وإعراب حركاته ، كما فسره النبي في هذا الحديث .

ونذكر في هذا الموضع ما لم يمض في فضائل القرآن إن قال قائل : إذا ثبت أن القرآن أنزل على سبعة أحرف فكيف ساغ للقراء تكثير الروايات وقراءتهم بسبعين رواية وبأزيد من مائة ؟

قال المهلب : فالجواب : أن عثمان لما أمر بكتابة المصاحف التي بعث بها إلى البلدان أخذ كل إمام من أئمة القراء في

---

(1) المزمل : ٢٠ .
(2) في « الأصل ، هـ » : حكيم بن هشام . والمثبت من « ن » .

كل أفق نسخته ، فما انفك له من سوادها وحروف مدادها مما وافق قراءته التي كان يقرأ لم يمكنه مفارقته لقيامه من سواد الحفظة ، وأنه كان عنده فيه رواية إلى أحد من الصحابة ، مع أنه لم تكن النسخ التي بعث بها عثمان مضبوطة بشكل لا يمكن تعديه ، ولا تحقيق هجاء يعين معانيه ؛ إذ كانوا يسمحون في الهجاء بإسقاط الألف من كلمه لعلمهم بها استخفافًا لكثرة تكرر هذا كألف العالمين والمساكين ، وكل ألف [هي] (١) في المصحف ملحقة بالحمرة .

وقال يزيد الرقاشي : كان في المصحف [كانوا] (١) : كنوا ، وقالوا : قلوا ، فزدنا فيها ألفًا ، [يريد] (٢) جماعة القراء حين جمعهم الحجاج ، وكذلك ما زادوا في الخط وقد كان في المصحف : « ماء غير يسن » فردها الحجاج مع جماعة القراء ﴿ **آسن** ﴾ وفي الزخرف : « معايشهم » فردها ﴿ **معيشتهم** ﴾ .

[٤/ق٢٤٦-أ] فكل تأول من / ذلك الخط ما وافق قراءته كيفما كان من طريق الشكل [وحركات الحروف مما يبدل المعنى ، وقد يجوز أن يكون ذلك] (٣) من وهل الأقلام ، ويدل على ذلك استجلاب الحجاج [مصحف أهل المدينة ورد مصاحف البصرة والكوفة إليه] (٣) وإبقاء ما لا يغير معنى ، وما له وجه جائز من وجوه ذلك المعنى وصار [خط مصحف أهل المدينة سنّة متبعة] (٤) لا يجوز فيها التغيير؛ لأنها القراءة المنقولة سمعًا ، وأن (الستة) (٥) المتروكة قطعًا لذريعة الاختلاف ما وافق منها المنفك من سواد الخط لأهل الأمصار فتواطئوا عليها جوز

---

(١) من « هـ » . (٢) كلمة غير واضحة في « الأصل » . والمثبت من « هـ » .
(٣) بياض في « الأصل » . والمثبت من « هـ » .
(٤) طمس في « الأصل » . والمثبت من « هـ » . (٥) في « هـ » : الست .

لهم تأويلهم فيه بما وافق روايتهم عن صحابي لخشية التحزب الذي منه هربوا ، ولكثرة من اتبع القراء في تلك الأمصار من العامة [غير] [(١)] المأمونة عند منازعتها ، فهذا وجه تجويز العلماء أن يقرأ بخلاف أهل المدينة [وبروايات] [(٢)] كثيرة .

وأما ما ذكر من قراءة ابن مسعود فهذا تبديل كلمة بأخرى كقوله : ﴿ **صيحة واحدة** ﴾ [(٣)] قرأها هو : « زقية واحدة » و﴿ **بيضاء لذة للشاربين** ﴾ [(٤)] [قرأها : « صفراء »] [(٥)] فهذا تبديل اللفظ والمعنى ، ولذلك أجمعت الأمة على ترك القراءة بها ، ولو سمح في تبديل السواد لما بقي منه إلا الأقل ، لكن الله حفظه علينا من تحكم المتأولين وتسلط أيدي [الكاتبين] [(٦)] على تبديل حرف بحرام إلى حلال ، وحلال بحرام ، وكلمة عذاب برحمة ، ورحمة بعذاب ، ونهي بأمر ، وأمر بنهي ، (وإنما هو) [(٧)] ذلك مما هو جائز في كلام العرب من نصب وخفض ورفع مما لا يحيل معنى ولا حرج فيه.

وقد روى البغوي : (حديث) [(٨)] محمد بن زياد ، حدثنا ابن شهاب الخياط ، حدثنا داود بن أبي هند ، عن عمرو بن شعيب ، عن أبيه ، عن جده قال: « جلس ناس من أصحاب النبي - عليه السلام - على بابه، فقال بعضهم : إن الله قال في آية كذا كذا ، وقال بعضهم: لم يقل كذا . فخرج رسول الله كأنما فقئ [في] [(٥)] وجهه حب الرمان وقال : أبهذا أمرتم ؟ إنما ضلت الأمم في مثل هذا ، انظروا ما

---

(١) في « الأصل » : عند . والمثبت من « هـ » .
(٢) في « الأصل » : وتركوا آيات . والمثبت من « هـ » .
(٣) يس : ٢٩ . وغيرها . (٤) الصافات : ٤٦ .
(٥) من « هـ » . (٦) في « هـ » : الكائدين .
(٧) في « هـ » : وأما سوى . (٨) في « هـ » : حدثنا .

أمرتم به فاعملوا به ، وما نهيتم عنه فانتهوا » فدل هذا أنه لم يك في السبع الذي نزل بها القرآن ما يحيل الأمر والنهي عن مواضعه ، ولا يحيل الصفات عن مواضعها ؛ لأنها مأمور باعتقادها ومنهي عن قياسها على المعاني ؛ لأنه تعالى برئ من الأشباه والأنداد ، وبقيت حركات الإعراب مستعملة لما انفك من سواد الخط في المجتمع عليه ، وعلى هذا استقر أمر [القراءات] [1] عند العلماء .

* * *

باب : قوله تعالى : ﴿ ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر ﴾[2]

وقال عليه السلام : كل ميسر لما خلق له مُهيأ .

فيه : عمران قلت : « **يا رسول الله ، ففيم يعمل العاملون ؟! قال: كل ميسر لما خلق له** » .

وروى علي معناه عن النبي - عليه السلام - قد تقدم في كتاب القدر .

وتيسير القرآن للذكر هو تسهيله على اللسان ، ومسارعته إلى القراءة حتى أنه ربما سبق اللسان إليه في القراءة فيجاوز الحرف إلى ما بعده ، ويحذف الكلمة حرصًا على ما بعدها .

وقوله : ﴿ **فهل من مدكر** ﴾ [2] أي : متفكر ومتدبر لما يقرأ ومستيقظ لما يسمع، يأمرهم أن يعتبروا ، ويحذرهم أن ينزل بهم ما نزل بمن هلك من الأمم قبلهم، وأصله : مذتكر ، مفتعل من الذكر ، أدغمت الذال في التاء ، ثم قلبت دالا ، وأدغمت الذال في الدال ؛ لأنها أشبه بالدال من التاء .

---

(١) في « الأصل » : الإعراب . والمثبت من « هـ » .   (٢) القمر : ١٧ .

باب : قوله تعالى : ﴿ بل هو قرآن مجيد في لوح محفوظ ﴾(١) ﴿ والطور وكتاب مسطور في رق منشور ﴾(٢)

قال قتادة : يسطرون : يخطون ، مكتوب في أم الكتاب : جملة الكتاب ، وأصله ما يلفظ ما يتكلم من شيء إلا كتب عليه ، وقال ابن عباس : يكتب الخير والشر . يحرفون : يزيلون ، وليس أحد يزيل لفظ كتاب من [كتب] (٣) الله تعالى ، ولكنهم يحرفونه يتأولونه على غير تأويله ، دراستهم : تلاوتهم واعية : حافظة . تعيها : تحفظها ﴿ وأوحي إليّ هذا القرآن لأنذركم به ﴾ (٤) يعني : أهل مكة ﴿ ومن بلغ ﴾ (٤) : هذا القرآن، فهو له نذير .

فيه : أبو هريرة : قال عليه السلام : « لما قضى الله الخلق ، كتب عنده كتابًا : غلبت - أو قال : سبقت - رحمتي غضبي . وهو عنده فوق العرش . وقال مرة / [عن النبي ﷺ : إن الله كتب كتابًا قبل أن يخلق [٤/ق٢٤٦-ب] الخلق : إن رحمتي سبقت غضبي] (٥) وهو مكتوب عنده فوق العرش.

قال [أهل التفسير : ﴿ بل هو قرآن مجيد ﴾ (١) أي : كريم على الله تعالى ﴿ في لوح محفوظ ﴾] (٥) وهو أم الكتاب عند الله .

وقرأ [نافع : « محفوظ » بالرفع من نعت « قرآن » المعنى : بل هو قرآن مجيد] (٥) محفوظ في لوح . وقرأه غيره : « محفوظٍ » بالخفض من نعت اللوح ، واختلف أهل التأويل في قوله : ﴿ والطور

---

(١) البروج : ٢١ - ٢٢ .
(٢) الطور : ١ - ٣ .
(٣) في « الأصل » : كتاب . والمثبت من « هـ ، ن » .
(٤) الأنعام : ١٩ .
(٥) بياض بالأصل . والمثبت من « هـ » .

وكتاب مسطور في رق منشور ﴾ [1] قال الحسن : هو القرآن في أيدي السفرة. وقال الزجاج: الكتاب هاهنا ما أثبت على بني آدم من أعمالهم.

قال المهلب : وما ذكره النبي ﷺ من سبق رحمة الله لغضبه فهو ظاهر ؛ لأن من غَضِبَ اللهُ عليه من خلقه لم يخيبه في الدنيا من رحمته ورأفته ، بأن رزقه ونعمه وخوله مدة عمره أو وقتًا من دهره ، ومكنه من آماله وملاذه ، وهو لا يستحق بكفره ومعاندته غير أليم العذاب ، فكيف رحمته [بمن] [2] آمن به واعترف بذنوبه ، ورجا غفرانه ، ودعاه تضرعًا وخفية ؟ .

وقد قال بعض المتكلمين : إن رحمته تعالى لم تنقطع عن أهل النار [المخلدين] [3] الكفار ، إذ من قدرته أن يخلق لهم عذابًا يكون عذاب النار لأهلها رحمة وتخفيفًا بالإضافة إلى ذلك العذاب .

* * *

باب : قوله تعالى : ﴿ والله خلقكم وما تعملون ﴾[4] ﴿ إنا كل شيء خلقناه بقدر ﴾[5]

ويقال للمصورين : أحيوا ما خلقتم ﴿ إن ربكم الله الذي خلق السموات والأرض ﴾ [6] الآية .

وقال ابن عيينة : بين الله الخلق من الأمر بقوله : ﴿ ألا له الخلق والأمر﴾ [6] وسمى النبي - عليه السلام - الإيمان عملا ، قال أبو ذر وأبو هريرة: « سئل النبي -عليه السلام-: أي الأعمال أفضل ؟ قال: إيمان بالله، وجهاد في سبيله، وقال: ﴿جزاءً بما كانوا يعملون﴾[7] .

---

(١) الطور : ١ - ٣ . (٢) في « الأصل » : من . والمثبت من «هـ » .
(٣) في « هـ » : الملحدين . (٤) الصافات : ٩٦ . (٥) القمر : ٤٩ .
(٦) الأعراف : ٥٤ . (٧) السجدة : ١٧ .

وقال وفد عبد القيس للنبي ﷺ : مرنا بجمل من الأمر إن عملنا بها دخلنا الجنة، فأمرهم بالإيمان والشهادة ، وإقام الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، فجعل ذلك كله عملاً .

فيه : أبو موسى قال : « أتيت النبي - عليه السلام - في نفر من الأشعريين نستحمله، فقال : والله لا أحملكم ... » وذكر الحديث إلى قوله: « لست أنا حملتكم ، [ولكن] [١] الله حملكم ... » إلى آخره .

وفيه : ابن عباس : « قدم وفد عبد قيس على النبي ﷺ فقالوا : مرنا بجمل من الأمر إن عملنا بها دخلنا الجنة وندعو إليها من وراءنا ، فقال : آمركم بالإيمان بالله : شهادة أن لا إله إلا الله ... » الحديث .

وفيه : عائشة : قال النبي عليه السلام : « إن أصحاب هذه الصور يعذبون يوم القيامة ، يقال لهم : أحيوا ما خلقتم » .

وفيه : أبو هريرة : قال النبي - عليه السلام - : « قال الله : ومن أظلم ممن [ذهب] [٢] بخلق كخلقي، فليخلقوا ذرة، وليخلقوا حبة أو شعيرة».

قال المهلب : غرضه في هذا الباب إثبات أفعال العباد وأقوالهم خلقًا لله - تعالى - كسائر الأبواب المتقدمة ، واحتج بقوله : ﴿والله خلقكم وما تعملون﴾ [٣] ثم فصل بين الأمر بقوله للشيء : كن ، وبين خلقه قطعًا للمعتزلة القائلين بأن الأمر هو الخلق، وأنه إذا قال للشيء : كن . معناه أنه كونه نفيًا [منهم] [٤] للكلام عن الله خلافًا لقوله : ﴿ وكلم الله موسى تكليمًا ﴾ [٥] وقد تقدم [بيان الرد عليهم في باب : المشيئة والإرادة] [٦] ثم زاد في

---

(١) من « هـ ، ن » .
(٢) في « الأصل » : كذب . والمثبت من «هـ،ن» .
(٣) الصافات : ٩٦ .
(٤) في « الأصل » : عنهم . والمثبت من « هـ » .
(٥) النساء : ١٦٤ .
(٦) من « هـ » .

[بيان] [1] الأمر فقال : ﴿ **والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره** ﴾ [2] فجعل الأمر غير خلقه لها ، وغير تسخيرها الذي هو عن أمره ، ثم ذكر قول ابن عيينة أنه فصل بين الخلق والأمر وجعلهما [شيئين] [3] بإدخال حرف العطف بينهما ، والأمر منه تعالى قول ، وقوله صفة من صفاته غير مخلوق .

ثم بين لك أن قول الإنسان بالإيمان وغيره قد سماه رسول الله عملا حين سئل: أي العمل أفضل؟ قال: إيمان بالله . والإيمان قول باللسان، واعتقاد بالقلب ، وعمل بالجوارح ، وكذلك أمره وفد عبد القيس حين سألوه أن يدلهم على ما إن عملوه دخلوا الجنة فأمرهم بالإيمان بالقلب، والشهادة باللسان ، وسائر أعمال الجوارح .

فثبت أن كلام ابن آدم بالإيمان وغيره عمل من أعماله وفعل له ، وأن كلام الله المنزل بكلمة الإيمان غير مخلوق ، ثم بين لك أن أعمالنا كلها مخلوقة لله - تعالى - خلافًا للقدرية الذين يزعمون أنها غير مخلوقة له تعالى بقوله في حديث أبي موسى / لست أنا حملتكم على الإبل بعد أن حلف لهم أن ما عندي [ما أحملكم عليه ، وإنما الله هو الذي حملكم عليها ، ويسرها لكم] [4] فأثبت ذلك كله فعلا لله - تعالى - ، وهذا بين لا [إشكال فيه .

[٤/ق٢٤٧-أ]

وقوله في حديث عائشة : « يقال] [4] للمصورين : أحيوا ما خلقتم» فإنما نسب خلقها إليهم [توبيخًا لهم وتقريعًا لهم في مضاهاتهم الله - عز وجل - في خلقه فبكتهم] [4] بأن قال لهم: فإذ قد شابهتم بما صورتم مخلوقات الرب ، فأحيوا ما خلقتم كما أحيا هو تعالى ما خلق فينقطعون بهذه المطالبة حين لا يستطيعون نفخ الروح في ذلك .

---

(١) في « الأصل » : شأن . والمثبت من «هـ » . (٢) الأعراف : ٥٤ .
(٣) في « الأصل » : شيئان . والمثبت من « هـ » .
(٤) بياض بالأصل . والمثبت من « هـ » .

ومثل هذا قوله في حديث أبي هريرة : قال الله -تعالى- : « ومن أظلم ممن ذهب يخلق كخلقي » يريد يصور صورة تشبه خلقي فسمى فعل الإنسان في تصوير مثالها خلقًا له توبيخًا له على تشبهه بالله فيما صور فأحكم وأتقن على غير مثال احتذاه ولا من شيء قديم ابتداه ، بل أنشأ من معدوم ، وابتدع من غير معلوم ، وأنتم صورتم من خشب موجود وحجر غير مفقود على شبه معهود مضاهين له ، وموهمين الأغمار أنكم خلقتم كخلقه ، فاخلقوا أقل مخلوقاته وأحقرها الذرة المتعدية في أدق من الشعر ، وأنفذ منكم بغير آلة في نحت الحجر فتتخذه مسكنًا وتدخر فيه قوتها نظرًا في معاشها ، أو اخلقوا حبة من هذه الأقوات التي خلقها الله لعباده ، ثم يخرج منها زرعًا لا يشبهها نباته ، ثم يطلع منها بقدرته من جنسها بعد أن أعدم شخصها عددًا من غير نوع نباتها الأخضر قدرة بالغة لمعتبر ، و[إعجازًا] (١) لجميع البشر .

* * *

باب : قراءة الفاجر والمنافق وأصواتهم وتلاوتهم لا تجاوز حناجرهم

فيه : أبو موسى : قال – عليه السلام – : « مثل المؤمن الذي يقرأ القرآن كالأترجة طعمها طيب وريحها طيب ، والذي لا يقرأ القرآن كالتمرة طعمها طيب ولا ريح لها ، ومثل الفاجر الذي يقرأ القرآن كالريحانة ريحها طيب وطعمها مر ، ومثل الفاجر الذي لا يقرأ القرآن كمثل الحنظلة طعمها مر ولا ريح لها » .

وفيه : عائشة : « سأل [أناس] (٢) النبي – عليه السلام – عن الكهان

---

(١) في « الأصل » : إعجاز . والمثبت من « هـ » .
(٢) في « الأصل » : الناس . والمثبت من « هـ ، ن » .

فقال : إنهم ليسوا بشيء . قالوا : يا رسول الله ، إنهم يحدثون بالشيء يكون حقًا قال النبي ﷺ : تلك الكلمة من الحق يحفظها الجني [فيقرقرها] (١) في أذن وليه كقرقرة الدجاجة ، فيخلطون فيها أكثر من مائة كذبة » .

وفيه : أبو سعيد قال عليه السلام : « يخرج ناس من قبل المشرق يقرءون القرآن لا يجاوز تراقيهم ، يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية، ثم لا يعودون فيه حتى يعود السهم إلى فوقه . قيل : ما سيماهم؟ قال : التحليق [أو] (٢) التسبيد » .

معنى هذا الباب أن قراءة الفاجر والمنافق لا ترتفع إلى الله ولا تزكو عنده ، وأنما يزكو عنده ويرتفع إليه من الأعمال ما أريد به وجهه ، وكان عن نية وقربة إليه تعالى ، ألا ترى أنه شبه الفاجر الذي يقرأ القرآن بالريحانة، ريحها طيب وطعمها مر حين لم ينتفع ببركة القرآن، ولم يفز بحلاوة أجره فلم يجاوز الطيب حلوقهم من موضع الصوت، ولا بلغ إلى قلوبهم ذلك الطيب ؛ لأن طعم قلوبهم مر وهو النفاق المستسر كما استسر طعم الريحانة في عودها مع ظهور رائحتها وهؤلاء هم الذين يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية .

وأما قوله : « ثم لا يعودون فيه حتى يعود السهم إلى فوقه » فهذا الحديث أخرجهم من الإسلام ، وهو بخلاف الحديث الذي قال فيه عليه الصلاة السلام: «ويتمارى في الفوق» لأن ذلك التماري أبقاهم في الإسلام .

وهذا الحديث أخرجهم من الإسلام ؛ لأن السهم لا يعود إلى فوقه بنفسه أبدًا ، فيمكن أن يكون هذا الحديث في قوم عرفهم النبي - عليه

---

(١) في « الأصل » : فيقرها . والمثبت من « هـ ، ن » .
(٢) في « الأصل » : و . والمثبت من « هـ ، ن » .

السلام - بالوحي أنهم يمرقون قبل التوبة ، وقد خرجوا ببدعتهم وسوء [تأويلهم] (١) إلى الكفر ، ألا ترى أنه عليه السلام وسمهم بسيما خصَّهم بها من غيرهم وهو التسبيد أو التحليق ، كما وسمهم بالرجل الأسود الذي إحدى [يديه] (٢) مثل ثدي المرأة ، وهم الذين قتل علي بالنهروان حين قالوا : إنك ربنا ، فاغتاظ عليهم وأمر بحرقهم بالنار فزادهم الشيطان فتنة فقالوا : الآن أيقنا أنك ربنا ؛ إذ لا يعذب بالنار إلا الله فثبت بذلك كفرهم ، وقد قال بعض العلماء : إن من وسمه النبي ﷺ بتحليق أو غيره أنه لا يستتاب / [إذا وجدت فيه [٤/ق٢٤٧-ب] السيما ، ألا ترى أن عليا - رضي الله عنه - لم ينقل] (٣) عنه أنه استتاب أحداً منهم . وقد روى علي عن النبي - عليه السلام - [أنه قال : « أينما لقيتموهم فاقتلوهم] (٣) فإن في قتلهم أجر لمن قتلهم ، وقال : لئن أدركتهم لأقتلنهم قتل عاد » .

وأما حديث [الكهان فإنما ذكره في] (٣) هذا الباب لقوله عليه السلام فيهم : « ليسوا بشيء » وإن كان في كلامهم شيء من [الحق والصدق] (٣) فإنهم يفسدون تلك [الكلمة] (٤) من الصدق بمائة كذبة أو أكثر ، فلم ينتفعوا [بتلك الكلمة] (٥) من الصدق لغلبة الكذب عليهم ، كما لم ينتفع المنافق بقراءته لفساد عقد قلبه .

وأما قوله : « فيقرقرها في أذن وليه كقرقرة الدجاجة » أي يضعها في الأذن بصوت شبيه بقرقرة الدجاجة .

قال الأصمعي : قرقر البعير قرقرة إذا صفا ورجع .

وقد روي : كقرقرة الزجاجة ، وكلا الروايتين صواب ، ويدل على

---

(١) في « الأصل » : تأملهم . والمثبت من « هـ » .
(٢) في « الأصل » : ثديه . والمثبت من « هـ » .
(٣) بياض في « الأصل » . والمثبت من « هـ » .
(٤) في « الأصل » : المرة . والمثبت من « هـ » .
(٥) في « الأصل » : تلك المرة . والمثبت من « هـ » .

صحة الرواية بالزجاجة رواية من روى : كما تقر القارورة ؛ لأن القرقرة قد تكون في الزجاجة عند وضع الأشياء فيها كما تقرقر الدجاجة أيضًا ، وكما تكون القراقر في البطن ، ووقع في كتاب بدء الخلق : فيقرها في أذن وليه كما تقر القارورة ، والمعنى فيه : أن الشياطين تقر الكلمة في أذن الكاهن كما يقر الشيء في القارورة ، وهذا على الاتساع كقوله تعالى : ﴿ **بل مكر الليل والنهار** ﴾ [1] والمعنى: بل مكرهم في الليل والنهار [لأن القارورة لا تقر ، وإنما يقر فيها كما لا يكون المكر لليل والنهار] [2] وإنما يكون فيهما .

قال صاحب الأفعال : قررت الماء في السقاء : صببته فيه ، وأقررته وقررت الخبر في أذنه أقره قرًا : أودعته فيها . وعن أبي زيد: أقره - بكسر القاف . وقال الأصمعي : يقال : قر ذلك في أذنه يقر قرًا إذا صار في أذنه فيكون معناه أنه يقر الكلمة في أذن الكاهن من غير صوت، وفي حديث القرقرة أنه يضعها بصوت ، فدل اختلاف لفظ الحديثين أنه مرة يضعها في أذن الكاهن بصوت ، ومرة بغير صوت.

[وقوله] [3] : « سيماهم التحليق أو التسبيد » شك من المحدث في أي اللفظين قال عليه السلام ، ومعناهما متقارب .

قال صاحب العين : سبد رأسه : استأصل شعره . والتسبيد أن ينبت شعره بعد أيام .

* * *

باب : قوله تعالى: ﴿ ونضع الموازين القسط ليوم القيامة ﴾[4] وأن أعمال بني آدم وأقوالهم توزن

وقال مجاهد : القسطاس : العدل بالرومية . ويقال : القسط مصدر المقسط ، وهو العادل فأما القاسط فهو الجائر .

---

(١) سبأ : ٣٣ . (٢) من « هـ » .

(٣) في « الأصل » : وقولهم . والمثبت من « هـ » . (٤) الأنبياء : ٤٧ .

قال أبو هريرة : قال النبي ﷺ : « كلمتان حبيبتان إلى الرحمن ، خفيفتان على اللسان ثقيلتان في الميزان : سبحان الله وبحمده ، سبحان الله العظيم » .

قال الزجاج : القسط : العدل ، المعنى : ونضع الموازين ذوات القسط ، وقسط مثل عدل مصدر يوصف به ، يقال : ميزان قسط ، وميزانان قسط وموازين قسط .

وأجمع أهل السنة على الإيمان بالميزان ، وأن أعمال العباد توزن يوم القيامة ، وأن الميزان له لسان وكفتان [وتمثل] (١) الأعمال بما يوزن ، وخالف ذلك المعتزلة وأنكروا الميزان وقالوا : الميزان عبارة عن العدل. وهو خلاف لنص كتاب الله ، وقول رسول الله ﷺ .

قال المهلب : فأخبر الله - تعالى - أنه يضع الموازين لتوزن أعمال العباد بها ، فيريهم أعمالهم ممثلة في الميزان لأعين العاملين ؛ ليكونوا على أنفسهم شاهدين قطعًا [لحججهم] (٢) وإبلاغًا في إنصافهم عن أعمالهم الحسنة ، وتبكيتًا لمن قال أن الله لا يعلم كثيراً مما يعملون ، وتقصيًا عليهم لأعمالهم المخالفة لما شرع لهم ، وبرهانًا على عدله على جميعهم ، وأنه لا يظلم مثقال حبة من خردل حتى يعترف كل بما قد نسيه من عمله، ويميز ما عساه قد [احتقره] (٣) من فعله . ويقال له عند اعترافه : كفى بنفسك اليوم عليك حسيبًا .

وقوله : « [ثقيلتان] (٤) في الميزان » يدل أن تسبيح الله وتقديسه من أفضل النوافل ، وأعظم الذخائر عنده تعالى ، ألا ترى / قوله [٤/ق٢٤٨-أ] عليه السلام : « حبيبتان إلى الرحمن » .

---

(١) في « الأصل » : وتمثل . والمثبت من « هـ » .
(٢) في « الأصل » : بحججهم . والمثبت من « هـ » .
(٣) في « الأصل » : أحقره . والمثبت من « هـ » .
(٤) في « الأصل » : ثقيلان . والمثبت من « هـ » .

وقول البخاري : ويقال : القسط مصدر [المقسط فإنما أراد] (١) المصدر المحذوف الزوائد ، كالقدر مصدر قدرت إذا حذفت زوائده ، قال الشاعر :

وإن تهلك فذلك [كان] (٢) قدري

بمعنى : تقديري محذوف زوائده ، ورده إلى الأصل ، ومثله كثير ، وإنما تحذف العرب زوائد المصادر لترد الكلام إلى أصله ، ويدل عليه ومصدر المقسط : الجاري على فعله الإقساط (٣) .

* * *

---

(١) طمس بالأصل . والمثبت من « هـ » .

(٢) في « الأصل » : حين . والمثبت من « هـ » .

(٣) كتب الناسخ تم الكتاب والحمد لله رب العالمين ، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم تسليمًا كثيرًا، وافق الفراغ منه على يد أضعف عباد الله وأرجاهم لثوابه العبد الفقير إلى رحمة الله أبو بكر بن أبي الفضل بن عامر الحلبي عفا الله عنه ورحمه وغفر له ولوالديه ولجميع المسلمين ، وكان الفراغ من نسخه لعشر خلون من شهر شعبان المبارك من شهور سنة ثمان وسبعين وستمائة، حامدًا لله ومصليا على نبيه وخير خلقه محمد وآله وصحبه .

فهرس المجلد العاشر

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة